مذكرات فوزي القاوقجي



تقديم واعداد

د. خيرية قاسمية

دار النمير

مذكرات

فوزي القاوقجي

١٨٩٠ - ١٩٧٧

اعداد

د. خيرية قاسمية

الطبعة الأولى ١٩٧٥

طبعة ثانية معدلة مع وثائق ١٩٩٥

التنضيد
دار الدبّاس للتنضيد والاخراج الفني
هاتف ٤٤٢٩٥٧٥

دار النمير
دمشق ـ هاتف ٢٢٢٦٢٠٧

مقدمة

فوزي القاوقجي، واحد من أبناء الأمة العربية الذين ظهروا في الوطن العربي في التاريخ المعاصر خلال الفترات المثيرة من انبعاث الشعور بالقومية والحربين العالميتين وما تخللهما من حركات تحررية .

اعتلى مسرح الاحداث على صهوة جواد شاهراً السيف على غرار الفرسان في العصور الغابرة يقاتل في كل أرض طغى عليها الاستعمار .

ولد القاوقجي في مدينة طرابلس " لبنان " ١٨٩٠، وتخرج سنة ١٩١٢ من المدرسة الحربية في استانبول التي وفرّت له تدريباً عسكرياً ودراية بأساليب الحرب والانضباط الألمانيين . ووعي الفكرة العربية وهو ضابط في صفوف الجيش العثماني، ورغم إيمانه الصادق بوجوب منح العرب كياناً استقلالياً، إلاّ أنه لم يتخل عن التزامه بالوحدة العثمانية . وبعد الحرب العالمية الأولى كيّف أهدافه وفقاً للأوضاع الجديدة، فخدم في صفوف أول جيش عربي نظامي، وأبلى في معركة ميسلون ١٩٢٠ حيث عاد ومعه ضباط أسرى من الفرنسيين . وفي عام ١٩٢٥ أعلن ثورة حماه التاريخية وهو تحت قناع ضابط من القوات العسكرية التي أحدثتها فرنسا بعد احتلالها سوريا . وكان لهذه الثورة الفضل في عدم تمكّن المستعمر من القضاء على ثورة جبل الدروز وجعلها ثورة عامة تشمل معظم بقاع سوريا، وضمن اشتراك فئات الشعب السوري كله من حضره وباديته . وقاد الثورة السورية ما يقارب ثلاث سنوات بنجاح، بصفته قائداً عاماً للغوطة ولشمال سورية، وكبّد الفرنسيين خسائر مادية . وكان آخر من ترك ميدان الثورة ١٩٢٧ .

وظل القاوقجي مشرداً عن سورية حتى عام ١٩٤٧، حيث بقي يمسك بعنان فرسه كلما سمع صيحة عربية طار إليها : فأقام في المملكة العربية السعودية بضع

سنوات (١٩٢٨-١٩٣٢) شارك في بناء القوات العسكرية الحديثة، وقدم بغداد ١٩٣٢ ليصبح معلماً للفروسية واستاذاً لتدريس الطبوغرافيا في الكلية العسكرية في بغداد، وكان يحمل رتبة رئيس خيّالة في الجيش العراقي. وفي صيف ١٩٣٦ قاد حملة من المتطوعين العرب عبرت بادية الشام في مغامرة تاريخية لنجدة ثورة فلسطين الكبرى ضد جحافل الانكليز فأنهك القوات البريطانية وألجأها إلى طلب الهدنة، التي رآها القاوقجي بداية كارثة ١٩٤٨. وبعد الهدنة عاد إلى العراق يترقب مغامرة أخرى ضد المستعمر، فكانت الحرب ضد بريطانيا ١٩٤١ حين قاد فريقاً من المتطوعين السوريين والفلسطينيين والعراقيين وحقق انتصارات لم يحققها الجيش النظامي.

وظل بعيداً عن الوطن خلال سنوات الحرب العالمية الثانية حيث اضطرته الظروف أن يلجأ مع زعامات عربية أخرى إلى المعسكر المعادي للحلفاء في الصراع الدولي، إلا أن الأمل بالحصول على مكاسب للقضية العربية في تلك الفترة لم يكتب له النجاح. وبعد انتهاء الحرب عاد من جديد إلى المشرق العربي حيث كانت القضية الفلسطينية قد بلغت مرحلة خطيرة، فعهدت إليه جامعة الدول العربية منذ خريف ١٩٤٧ بقيادة جيش الانقاذ ضمن شروط فرضتها سياسة الحكومات العربية والزعامات العربية حينذاك، رغم تقديره ماينتظره من صعوبات ومشاكل رافقت ولادة جيش الانقاذ. وبعد دخول الجيوش العربية فلسطين زادت حدّة المصاعب والخلافات، وظلّت المعارك تدور على جميع مراكز جيش الانقاذ في ظروف حرجة وخطرة حتى بعد توقيع الهدنة رسمياً.

وبعد نهاية المرحلة المؤلمة لحرب فلسطين ١٩٤٨ عاش في مايشبه العزلة في دمشق أولاً، ثم انتقل إلى بيروت تحت وطأة ظروف نفسية أليمة ومادية شحيحة، وقرر الانسحاب من على مسرح الاحداث مظهراً عدم قدرته على اخضاع أهدافه للظروف والاوضاع القائمة. ومع أن عمله قد انتهى، ظل يبدي استعداداً إلى آخر أيامه، لتقديم التوجيه والنصح لكل سياسي يتوسم فيه تنفيذ أهداف الأمة العربية بالوسائل العملية التي يؤمن بها.

وكان حصاد عمله خمسة وتسعين جرحاً في جسمه وعدداً ضخماً من الوثائق والأوراق غنمها من الميدان الحربي تحوي تقارير وبرقيات ومراسلات وخرائط، ظل يحملها معه في أسفاره، وتعد من أغنى المجموعات الوثائقية العربية الخاصة رغم ما أصاب بعضها من التلف والضياع (كان قسم من هذه الأوراق محفوظاً في مؤسسة الدراسات الفلسطينية ومركز الابحاث الفلسطيني* في بيروت). أما مذكراته فهي ليست بالمعنى الدقيق ترجمة لحياته بل مجموعة وقائع وخواطر وملاحظات اقتطعها من اختبارات طويلة وتجارب نضالية عميقة في المسألة العربية عموماً وقضية فلسطين خصوصاً. وهي تستند في مواضيعها وحوادثها إلى مفكرات ويوميات قديمة ووثائق أصلية. وقد دوّن القاوقجي مذكراته المتكاملة خلال فترتين متباعدتين الأولى عام ١٩٣٧، وتتناول الاحداث التي مرت في حياته منذ نشأته وحتى ١٩٣٦ (الحرب العالمية الأولى، عهد الحكومة العربية في دمشق، أحداث الثورة السورية، إقامته في السعودية والعراق، أحداث الثورة الفلسطينية ١٩٣٦). أما الفترة الثانية فكانت عام ١٩٥٠، وكان لايزال مبهوراً من وقع كارثة فلسطين، وتناول الاحداث التي مرّت منذ عودته إلى أرض الوطن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ١٩٤٧ وحتى الهدنة خريف ١٩٤٨.

والقاوقجي لم يدّون أحداث الفترة بين ١٩٣٧-١٩٤٧ في مذكرات متكاملة، إنما كان يحتفظ بعدد من المفكرات والأوراق واليوميات الخاصة بتلك الفترة التي حملته من بغداد إلى برلين.

ويروي القاوقجي قصة المرحلة الأولى من مذكراته: وكان الحاح اخوانه عليه بنشرها قد بدأ بعيد الثورة السورية وكان يرفض طلبهم بحجة أن " نشر شيء من المذكرات عن الثورات الماضية يكشف عن عورات وأسرار طالما صرف العدو جهوداً جبارة وأموالاً كثيرة لمعرفتها". ولكن بعد عودته من الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ عاد الحاح اخوانه بوجوب نشر المذكرات، وكذلك كانت ادارات الصحف والمجلات العربية والاجنبية تطلب منه نشرها. فعزم عندئذ على اخراج هذه المذكرات بعنوان

* تعرضت أوراق القاوقجي في مركز الأبحاث إلى النهب مع الاجتياح الإسرائيلي ١٩٨٢.

" مغامراتي " وانصرف إلى تدوينها بمعونة أحد رفقائه وهو في منفاه في كركوك (كانون ثاني – تموز ١٩٣٧) وهدفه من ورائها " لاثبت أن في سواد هذه الأمة من الحيوية ما يكفي لاتيان المعجزات ودفع كل الأخطار الممكن نزولها فيها، إذا وجد من يعرف كيف يستثمر ويستخدم هذه الكنوز الثمينة " . وبرأيه ، إن شباب الأمة وهم يقرؤون هذه (المغامرات) " ليعلموا أنه لا يوجد ثمة ما يحول دون تضحياتهم في سبيل هذا الوطن مهما بلغت قوات الاعداء من عظمة ومنعة، كما أنه لا يوجد شيء يدعى المستحيل عندما يراد القيام بواجب مقدس " .

والفترة الثانية من مذكراته والتي أسماها " هكذا ضاعت فلسطين " فقد دونها عام ١٩٥٠ وتتناول جزءاً من الحرب التي أثيرت من أجل فلسطين " ولم تنته بعد " ، هي كما يعرّفها " ... سرد لحوادث ووقائع مثبتة بوثائق رسمية، من رسائل وبرقيات بتواريخها وأرقامها وأسماء أصحابها، ومداولات وأحاديث كانت تدور في مؤتمرات واجتماعات حضرتها، أنشرها بالحرف، فإن تعذّر، فبالمعنى والروح تماماً ... " . وبرأيه أن كل من يقرأها سيلمس " الحقيقة المرّة ولكن الناصعة، لمساً، ويجد فيها وثيقة تاريخية دامية مليئة بالعبر لمن يريد أن يعتبر " . وأمله أن يكون في نشر المذكرات " جلاء واضحاً لأسباب كارثتنا في فلسطين، خدمة لبني قومي، في ميدان النشر، لاتقل عن خدمتي المتواضعة لهم في ميادين القتال .. " وبمرارة بلغت أقصى حدّها يقول " لم يعرف التاريخ أرضاً غالية مقدسة ضاعت بأرخص مما ضاعت فلسطين " . وهو يؤمن بأن الهزائم والنكبات تكون عبرة ودرساً وحافزاً لخلق انتصارات جديدة " ... وحين تكون الكارثة درساً نستطيع القول أن فلسطين لم تذهب ... " .

والقاوقجي في مذكراته يكشف بأمانة، إلى جانب التضحيات والبطولات، اليد الخفية التي تسير السياسة والاخطاء التي يمكن أن يستوحي منها العبر والدروس. وهو يظهر إيمانه وثقته بالشعب العربي وبطولاته وأمجاده وانتصاراته، وانه ما دخل حرباً ضد الطغيان الاستعماري إلاّ انتصر، إلاّ أنه عندما تحولت هذه الطاقات إلى جيوش نظامية بقيادة أسماء ضخمة وأسلحة حديثة خسرت معاركها، وان تكرر المعارك بمثل هذه القيادات معناه تكرر الفشل. وبصراحة تبلغ حد الاتهام،

يظهر القاوقجي قلّة اهتمام الزعامة لانها لم تعمل على الاستفادة من القوى المقاتلة .

* * *

أعددت مذكرات القاوقجي للطباعة في جزأين عام ١٩٧٥ :

الجزء الأول : " مذكرات القاوقجي ١٩١٢ – ١٩٣٢ " (دار القدس – بيروت) .

الجزء الثاني : " فلسطين في مذكرات القاوقجي ١٩٣٦–١٩٤٨ " (مركز الابحاث الفلسطيني دار القدس – بيروت) وجاء اخراج الجزئين نتاج جهد طويل بذل للتحقق من النسخة الاصلية من المذكرات التي دونها القاوقجي في فترتين، والاطلاع على مجموعة ضخمة من المفكرات واليوميات والوثائق التي ظل القاوقجي يحتفظ بها خلال تنقله المستمر، مع الاحاطة بملاحظات متفرقة عرضها صاحب المذكرات في مقابلات متعددة جرت في بيروت عامي ١٩٧٤–١٩٧٥ . وكان في النية اعادة طبع المذكرات في جزء واحد متكامل، إلاّ أن رحيل المجاهد الكبير عام ١٩٧٧ ، والظروف التي اكتنفت لبنان حالت دون تحقيق المشروع .

وقد أجريت في الطبعة الجديدة لمذكرات القاوقجي تعديلات، لم تمس جوهر المذكرات، ولكنها تناولت التدقيق والتحقيق في أسماء الاشخاص والمواقع، وتصحيح الأخطاء المطبعية واضافة أجزاء متفرقة من أفكار وخواطر سجّلها القاوقجي في فترات متباعدة، مع عدد من الخرائط ومزيد من الوثائق والصور وضعت كملاحق في آخر المذكرات حرصاً على ترتيبها تاريخياً ..

ومع التقدير الشديد لهذه المذكرات ولأهميتها، لا يمكن الخروج منها بتقييم مجرد للوقائع، لأن تجارب القاوقجي واتصالاته ومعرفته الشخصية جعلته يتقبل آراء ذاتية ويصدر أحكاماً قد لا تنجو من اللوم، ولا يمكن أن تؤخذ إلاّ بنوع من الحذر والتدقيق .

وقد تحوي وقائع وآراء قد لا تتفق مع مايحمله آخرون (من سياسيين ومن مؤرخين) من آراء وما يعتقدون أنه حقائق، تجاه أحداث ووقائع حفل بها تاريخنا

"مغامراتي " وانصرف إلى تدوينها بمعونة أحد رفقائه وهو في منفاه في كركوك (كانون ثاني – تموز ١٩٣٧) وهدفه من ورائها " لاثبت أن في سواد هذه الأمة من الحيوية ما يكفي لاتيان المعجزات ودفع كل الأخطار الممكن نزولها فيها، إذا وجد من يعرف كيف يستثمر ويستخدم هذه الكنوز الثمينة " . وبرأيه ، إن شباب الأمة وهم يقرؤون هذه (المغامرات) " ليعلموا أنه لا يوجد ثمة ما يحول دون تضحياتهم في سبيل هذا الوطن مهما بلغت قوات الاعداء من عظمة ومنعة، كما أنهلا يوجد شيء يدعى المستحيل عندما يراد القيام بواجب مقدس " .

والفترة الثانية من مذكراته والتي أسماها " هكذا ضاعت فلسطين" فقد دونها عام ١٩٥٠ وتتناول جزءاً من الحرب التي أثيرت من أجل فلسطين" ولم تنته بعد" ، هي كما يعرّفها " ... سرد لحوادث ووقائع مثبتة بوثائق رسمية، من رسائل وبرقيات بتواريخها وأرقامها وأسماء أصحابها، ومداولات وأحاديث كانت تدور في مؤتمرات واجتماعات حضرتها، أنشرها بالحرف، فإن تعذّر، فبالمعنى والروح تماماً ..." . وبرأيه أن كل من يقرأها سيلمس " الحقيقة المرّة ولكن الناصعة، لمساً، ويجد فيها وثيقة تاريخية دامية مليئة بالعبر لمن يريد أن يعتبر" . وأمله أن يكون في نشر المذكرات " جلاء واضحاً لأسباب كارثتنا في فلسطين، خدمة لبني قومي، في ميدان النشر، لاتقل عن خدمتي المتواضعة لهم في ميادين القتال .. " وبمرارة بلغت أقصى حدّها يقول " لم يعرف التاريخ أرضاً غالية مقدسة ضاعت بأرخص مما ضاعت فلسطين " . وهو يؤمن بأن الهزائم والنكبات تكون عبرة ودرساً وحافزاً لخلق انتصارات جديدة " ... وحين تكون الكارثة درساً نستطيع القول أن فلسطين لم تذهب .... " .

والقاوقجي في مذكراته يكشف بأمانة، إلى جانب التضحيات والبطولات، اليد الخفية التي تسير السياسة والاخطاء التي يمكن أن يستوحي منها العبر والدروس. وهو يظهر إيمانه وثقته بالشعب العربي وبطولاته وأمجاده وانتصاراته، وانه ما دخل حرباً ضد الطغيان الاستعماري إلاّ انتصر، إلاّ أنه عندما تحولت هذه الطاقات إلى جيوش نظامية بقيادة أسماء ضخمة وأسلحة حديثة خسرت معاركها، وان تكرر المعارك بمثل هذه القيادات معناه تكرر الفشل. وبصراحة تبلغ حد الاتهام،

يظهر القاوقجي قلّة اهتمام الزعامة لانها لم تعمل على الاستفادة من القوى المقاتلة .

* * *

أعددت مذكرات القاوقجي للطباعة في جزأين عام ١٩٧٥ :

الجزء الأول : " مذكرات القاوقجي ١٩١٢ – ١٩٣٢ " (دار القدس – بيروت) .

الجزء الثاني : " فلسطين في مذكرات القاوقجي ١٩٣٦–١٩٤٨" (مركز الابحاث الفلسطيني دار القدس – بيروت) وجاء اخراج الجزئين نتاج جهد طويل بذل للتحقق من النسخة الاصلية من المذكرات التي دونها القاوقجي في فترتين، والاطلاع على مجموعة ضخمة من المفكرات واليوميات والوثائق التي ظل القاوقجي يحتفظ بها خلال تنقله المستمر، مع الاحاطة بملاحظات متفرقة عرضها صاحب المذكرات في مقابلات متعددة جرت في بيروت عامي ١٩٧٤–١٩٧٥ . وكان في النية اعادة طبع المذكرات في جزء واحد متكامل، إلاّ أن رحيل المجاهد الكبير عام ١٩٧٧، والظروف التي اكتنفت لبنان حالت دون تحقيق المشروع .

وقد أجريت في الطبعة الجديدة لمذكرات القاوقجي تعديلات، لم تمس جوهر المذكرات، ولكنها تناولت التدقيق والتحقيق في أسماء الاشخاص والمواقع، وتصحيح الأخطاء المطبعية واضافة أجزاء متفرقة من أفكار وخواطر سجّلها القاوقجي في فترات متباعدة، مع عدد من الخرائط ومزيد من الوثائق والصور وضعت كملاحق في آخر المذكرات حرصاً على ترتيبها تاريخياً ..

ومع التقدير الشديد لهذه المذكرات ولأهميتها، لا يمكن الخروج منها بتقييم مجرد للوقائع، لأن تجارب القاوقجي واتصالاته ومعرفته الشخصية جعلته يتقبل آراء ذاتية ويصدر أحكاماً قد لا تنجو من اللوم، ولا يمكن أن تؤخذ إلاّ بنوع من الحذر والتدقيق .

وقد تحوي وقائع وآراء قد لا تتفق مع مايحمله آخرون (من سياسيين ومن مؤرخين) من آراء وما يعتقدون أنه حقائق، تجاه أحداث ووقائع حفل بها تاريخنا

المعاصر. مع ذلك فإن هذه المذكرات قد أضفت الحياة على الفترة التي عاشها القاوقجي وشارك في أحداثها وكشفت بعض الجوانب الخفية منها.

والواقع أنه يصعب تقييم الدور الذي لعبه القاوقجي، وهي صعوبة تواجه كل دراسة تتناول دور الشخصيات في التاريخ ودراسة دوافعها وظروفها ومؤهلاتها وأساليبها ومنجزاتها الرئيسية ومدى تأثيرها. والأمر الاصعب هو عرض الصورة الحقيقية لرجل تضاربت حوله الروايات والآراء، فهو رغم تفانيه واخلاصه، أطلقت خلفه شتى الاتهامات والدعايات، روّجها بعض السياسيين. وكان ذلك أمراً عادياً بالنسبة إليه كلما خرج من معركة وكسب سمعة، وذلك بقصد اضاعة بريق شخصيته والتقليل من أهمية عمله وتضحياته. وكل ما يمكن قوله أن في حياة القاوقجي وفي شخصيته كثيراً من الغنى والتنوع، وكان يتحلى بالشجاعة والثقة ورباطة الجأش إلى حد اللامبالاة بالمخاطر. وفوق كل شيء تمتعه بعنصر المغامرة الذي لايقف أمامه عثرة، بحيث كان يبدي استعداداً للاقدام على مجازفات واقحام نفسه في مواقف وصفها البعض انها تجاوزت الوعي والحكمة، وهي مغامرة لم تكن نتاج انتهازيته، بل نتاج ايمانه بجدوى فعالية العمل. إذ لو كان سياسياً انتهازياً، لتمكن من بلوغ أعلى المراتب، أو لتمكن من أن يلعب دوراً كبيراً في السياسة العربية، أو لحصل على منافع مادية، وخاصة انه كان يملك صفات خاصة كالشجاعة الادبية والقوة البدنية وتوقد الذكاء. ولكنه كان لا يتمتع بعقلية مرنة تصلح للسياسة العملية، فكان حاد الطباع، عاجزاً عن التفاهم مع الآخرين واقناعهم بتقبل آرائه، فأحجم كثيرون عن التعاون معه واتهموه بأنه لم يكن يحسب حساباً للنتائج الخطرة المحتملة لمغامراته، وانه كان يرى أن العنف هو الوسيلة الفعالة لتحويل الافكار الى أفعال..

القسم الأول من المذكرات*

١٩١٢ - ١٩٢٨

تمهيد:

طلب إليّ كثير من اخواني، بعيد الثورة السورية، أن أنشر مذكراتي، وكان الحافهم في هذا الطلب يزداد مع ازدياد الحوادث. وكنت أرفض دوماً طلبهم، اعتقاداً مني بأن اعمالنا لّما تنته بعد، ونشر شيء من المذكرات عن الثورات الماضية يكشف عن عورات وأسرار طالما صرف العدو جهوداً جبارة وأموالاً كثيرة لمعرفتها، لذلك كنت أجدني مضطراً للاحتفاظ بها لنفسي لتكون لي، بما فيها من اختبارات، نبراساً أستضيء بنوره في أعمالي المقبلة.

غير أني بعد عودتي من الثورة الفلسطينية، ألحّ عليّ اخواني بوجوب نشر هذه المذكرات، وأخذت ادارات الصحف والمجلات العربية والغربية في الوقت نفسه تطلب مني نشرها كذلك. حتى اذا الحفوا في الطلب مرة ثانية أخذت أستعرض حوادثي التي غامرت فيها خلال الحرب العامة وحوادث الثورة السورية وثورة فلسطين ١٩٣٦ الأخيرة فوجدت نفسي أمام وقائع يحتاج في تدوينها إلى مجلدات.

وعنت لي الفكرة بتدوين أهم الحوادث شأناً، والتي كان لها أعظم أثر في مجرى تاريخنا الحديث. فعزمت عندئذ على اخراج هذه المذكرات بعنوان «مغامراتي».

أفضيت إلى أحد اخواني بما عزمت عليه، فوعد بأن يقوم هو بنفسه على

* - دوّن القاوقجي هذا القسم من مذكراته في منفاه بكركوك بين كانون ثاني / يناير - تموز / يوليو ١٩٣٧

تدوين ما أمليه عليه وحددنا موعداً الساعة الرابعة بعد ظهر يوم السبت ٢٣-١-١٩٣٧ في داري بـ « كرادة بغداد » .

وفي الساعة التي حددت للشروع في تدوين هذه المغامرات كنت تجدني في سيارة بين مفوضين من الشرطة مخفوراً بسيارتين مزودتين بالرشاشات تنهب بي الطريق نحو كركوك – إلى المنفى – حيث وصلتها مع عاصفة هوجاء من الثلوج لم تعهد كركوك مثلها منذ عشرات السنين. وكأني ومغامراتي على موعد مع هذه العاصفة السماوية في كركوك .

وصلت كركوك في الرابع والعشرين من كانون الثاني ١٩٣٧ . وكان مراسلي حميد سلمان قد سبقني إليها يحمل حوائجي . كما أن صديقي المجاهد بهاء الدين طباع قد لحق بي في اليوم التالي ليكون إلى جانبي .

إن السكون والهدوء اللذين أصبحت أسيراً لهما في غرفتي، واللذين لم آلفهما عمري أخذا يثيران من عصبيتي ويملآن نفسي سأماً. فبماذا يمكنني أن أتغلب على تلك البطالة وهذا السأم ؟ « بمغامراتي » . اذا في هذا المنفى خير فرصة أنتهزها لتدوين « مغامراتي » . على اني لا أقصد من تدوينها وتسجيلها التفاخر. كلا، فقد قام كثير من المجاهدين الاحياء منهم والشهداء بمثلها، وباعظم منها. بل قصدت تسجيل صحائف من التضحية والمجد التي قام بها قسم من سواد هذه الأمة في تاريخها الحاضر، ولأثبت أن في سوادها من الحيوية ما يكفي لاتيان المعجزات ودفع كل الاخطار الممكن نزولها فيها، اذا وجد من يعرف كيف يستثمر ويستخدم هذه الكنوز الثمينة. يقرؤها أي « المغامرات » شباب الأمة ويتخذون وأجيالنا المقبلة من حوادثها قدوة يقتدون بها في التضحية التي تتطلبها البلاد لنيل حريتها واستقلالها. ولكن ليعلموا أنه لا يوجد ثمة ما يحول دون تضحياتهم في سبيل هذا الوطن مهما بلغت قوات الاعداء من عظمة ومنعة ، كما أنه لايوجد شيء يدعى بالمستحيل عندما يراد القيام بواجب مقدس.

واذا كنت لم أذكر خلال « مغامراتي » المعارك التي جرت في سائر ميادين الثورات، ولم أذكر أسماء الابطال المجاهدين الآخرين، فما سبب ذلك إلا عدم

اتصالي المباشر بتلك الميادين التي خاضوها وبالابطال المجاهدين فيها .

وأختتم مقدمتي هذه بكلمة أوجهها إلى كل شاب يريد المغامرة لاكتساب شرف خدمة البلاد، أنير بها طريقه ولعل فيها الذكرى. يجب على المرء المغامر أن يتجرد من أنانيته، وأن يكون رحب الصدر لدرجة يتحمل معه ما يعترض سبيله من أنواع الاذى، وما قد توصم به وطنيته وشرفه من أنواع التهم والافتراءات وألاّ يصدّه عن سبيله ما قد يلاقيه من العثرات والصعاب وألاّ توهمه سعة تشكيلات عدوه السرية، ولا عظمة ترتيباته العسكرية ، وأن يجعل الكتمان والعزم والصبر رائده .

ان المغامرة سهلة، والصعوبة هي في تمهيد سبلها، واتقان خططها. والأمة الضعيفة التي لا يمكنها أن تعيش بدون توحيد أجزائها، يجب أن تتوقع النكبات المتتالية والدسائس في كل حين. وليس يدفع عن الأمة أمثال هذه المخاطر إلاّ استعدادها لها . ولا يكون الاستعداد بتشكيل الأحزاب على النمط الذي سارت عليه الأمة في سابق عهدها، أو بتنظيم المناهج دون ماتنفيذ، أو بإقامة المظاهرات والتفاخر بالوطنية والتبجح الفارغ، بل بإعداد العدة فعلاً ، وتنظيم الرجال ذوي الكفاءة سراً. فالعرب لم يسبق لهم أن استعدوا لدرء مصيبة كان تحقق لديهم وقوعها ولكنهم تعودوا القيام بالاستعدادات بعد وقوع الكارثة. وكم كلفها ذلك من الضحايا في الأنفس والأموال، وكم كانت النتائج سيئة ! .

على من يريد الفوز في مغامرة يقدم عليها، أن يستعد لها بحكمة وإتقان، ويقدم بعزم وجنون ويدرأ بصبر وتعقل.

إني واثق كل الوثوق بأن هذه المغامرات لابد أن تخلق روحاً قوية في نفوس الكثير من شبابنا الذين يتعطشون إلى حب المغامرة وخدمة البلاد عن هذه الطريقة وابتعادهم عن اتباع طرق الديبلوماسية والمظاهرات والاجتماعات غير المجدية .

نشــأتــي :

فتحت عينيّ في هذه الدنيا ، فإذا بي في المدارس العثمانية، وكنت لا أشعر بما يجري خارج المدرسة ، فقد كنا فيها خليطاً من التلامذة، عرباً وتركاً وأرناؤوطاً وأكراداً وشراكسة، وغيرهم من العناصر التي كانت تتألف منها الامبراطورية العثمانية . لم يكن المعلمون من أصحاب الكفاءات في اختصاصهم . وكنت كلما فكرت في نفسي أشعر بأن حياتي عبث . أما العرب والعروبة فلم يكونوا ليمروا بخاطري، ولم يكن هناك رجل أو حزب أو جماعة تلقي في نفوس الشبيبة شيئاً من دروس الوطنية . وكان الخليفة في نظرنا خليفة للعربي كما هو للتركي وللكردي والارناؤوطي والشركسي، كل على انفراد، فكان الخليفة وحده رمزاً للجامعة .

وظللت أنتقل من صف إلى صف حتى دخل علينا يوماً أحد الضباط مضطرباً، شرع يخطب فينا قائلاً : « أن جيش الحرية (!) دخل استنبول، وأعلنت الحرية والعدالة والمساواة والاخوة في الدولة » . وكنت أنا ، أضحك في سري، وأتساءل قائلاً : « ما هو جيش الحرية ؟ وماذا يحدث اذا دخل استنبول ؟ ومامعنى الحرية ؟ وهل كانت مفقودة فوجدناها ؟ » . ظل الضابط يحدثنا بمثل هذه الاخبار، ونحن نستمع إليه كأننا نستمع إلى درس في آداب اللغة العربية يلقيه معلم صيني .

وتدرجت في صفوف المدرسة حتى وصلت المدرسة الحربية . ولكنني كنت أشعر في نفسي دائماً شعور من ينقصه شيء يتحرّاه .

وكان تلامذة كل قطر من أقطار الامبراطورية يجتمعون في المدرسة سوية، ولم يكن بين هذه المجموعات أية صلة قومية تجمعهم سوى الجامعة العثمانية، كأنما كانت الاقطار مستقلة بعضها عن بعض .

وأخذنا نسمع بعد حين أن أحزاباً تأسست في الخارج، من اتحاد وائتلاف وغيرهما. غير أني في أواخر عهدي في المدرسة الحربية بدأت أشعر بأن الترك شرعوا ينضمون تحت لواء رابطة جديدة غير الرابطة العثمانية التي نعرفها، ولم أكن أفقه معنى لما يتحدثون به. كما اني أخذت أسمع بوجود تشكيلات وأحزاب عربية، وأن جمعيات سرية تعمل في الخفاء لضم شتات العرب وتوحيد جهودهم والمطالبة بحقوقهم. ولكنا كنا نفكر في أن لا بد من أن تتصل بنا هذه الجمعيات يوماً ما.

وحدث يوما شجار في المدرسة بين مجموعة تركية وأخرى عربية، وسمعت قائلاً يقول بحماس وجدّ: « أنا تركي » فأجابه آخر على الفور بحماس وفخر: « وأنا عربي »، وانتصر التلامذة العرب لزميلهم. وكان هذه الحكمة الأولى التي انطلقت في سماء « المدرسة الحربية » قضت على الصلة التي تجمعنا بالدولة العثمانية، فأصبحت كلمة « عرب » الآن جامعتنا. ومنذ وقوع ذلك الحادث بدأنا نشعر بأن لنا قومية عربية مستقلة ، وراءها أمة وتاريخ ومجد تالد.

واشتدت مع الأيام حزبية الاتراك وانتسابهم إلى طوران كما اشتدت غيرتنا على عروبتنا بالنسبة عينها. وكان الواجب يقضي علينا بأن ننقب عن جد ننتسب إليه ونفخر به، حتى اذا قال الاتراك: « نحن طورانيون » قلنا عندئذ « نحن قحطانيون ».

وأخذت الاخبار تتسرب إلينا عن وجود شخصيات عربية في مجلس المبعوثان تدافع عن حقوق العرب، وعن وجود احزاب وجماعات تسعى لانهاض العرب بشتى الوسائل، فأخذنا نعمل بقدر ماتسمح لنا به ظروف المدرسة للاتصال بهذه الشخصيات والجماعات للاستنارة بآرائها. وأخذنا نتساءل بدورنا: « هل للعرب حقوق؟ وما هي حقوقهم؟ ومن هم أولئك الاشخاص؟ وما هي غاياتهم من تأليف أحزابهم؟ ».

ودارت الأيام دورتها وتخرجت عام ١٩١٢ ضابطاً في الجيش العثماني، وكل ما كنت أحمله في نفسي من الشعور هو انني عربي، واننا نعيش ضمن كيان عثماني سادته الترك.

منذ تلك الساعة صممت على وقف نفسي ومواهبي على عضد أي شخص أو جماعة عربية تعمل في سبيل سؤدد العرب، وامتلكني شعور فياض جعل المغامرة والمجازفة والعمل في سبيل أمتي مُثلي العليا في الحياة.

* * *

تخرجت في المدرسة الحربية في سنة ١٩١٢، وكنت منتسباً فيها إلى صنف الخيالة. ومما حدا بي إلى اختيار هذا الصنف من صفوف الجندية صفات البطولة التي يمتاز بها الفرسان، وما في الفروسية عينها من سرعة حركة ومخاطرة ولذة. وكان تعيين الضباط في الفيالق يجري في ذلك الحين بطريق الاقتراع، وقد اقترعت بدوري فكانت الموصل نصيبي. كما كانت نصيب المرحوم أحمد مختار الطرابلسي، صديق ورفيق عزيز علي باشا، الذي استشهد فيما بعد في حروب بلده طرابلس الغرب ضد الطغيان.

وكان الطريق المألوف حينئذ من الاستانة إلى الموصل طريق حلب — دير الزور. غير أني بالاتفاق مع صديقي أحمد مختار فضلنا سلوك طريق آخر يخترق سهول الاناضول وحزونها (مرتفعاتها)، ويتيح لنا أن ندرس في خلال سفرنا أحوال سكان الاناضول واخلاقهم وعاداتهم، فنقارنها فيما بعد بأخلاق العرب وعاداتهم.

أبحرنا من الاستانة إلى صمسون على احدى البواخر، وسرنا من صمسون إلى دياربكر على عربة يجرها زوجان هزيلان من الخيل، فقطعنا المسافة في واحد وأربعين يوماً. ومن ديار بكر ركبنا مايسمى بـ « الكلك » منحدرين في نهر دجلة. (والكلك هو عبارة عن مجموعة من جلود الماعز، تنفخ بالهواء، ثم تلقى فوق الماء، ترصف عليها أعواد، تبنى فوقها حجرة صغيرة يأوي المسافر إليها عند الحاجة.) ولقد تم لنا قطع المسافة بين ديار بكر والموصل في اثني عشر يوماً.

كان لنا من جبال الاناضول وسهوله وقراه ودساكره ومدنه، دروس كشفت لنا عن حقيقته، واتضح لنا أن الاناضول بعمرانه وبأخلاق أهله وعاداتهم دون البلاد العربية. وأخذ شعورنا يتدرج، كلما قطعنا منطقة من مناطق البلاد، من شك إلى يقين.

وأخذنا نسمع بعد حين أن أحزاباً تأسست في الخارج، من اتحاد وائتلاف وغيرهما. غير أني في أواخر عهدي في المدرسة الحربية بدأت أشعر بأن الترك شرعوا ينضمون تحت لواء رابطة جديدة غير الرابطة العثمانية التي نعرفها، ولم أكن أفقه معنى لما يتحدثون به. كما اني أخذت أسمع بوجود تشكيلات وأحزاب عربية، وأن جمعيات سرية تعمل في الخفاء لضم شتات العرب وتوحيد جهودهم والمطالبة بحقوقهم. ولكنا كنا نفكر في أن لا بد من أن تتصل بنا هذه الجمعيات يوماً ما.

وحدث يوما شجار في المدرسة بين مجموعة تركية وأخرى عربية، وسمعت قائلاً يقول بحماس وجدّ: «أنا تركي» فأجابه آخر على الفور بحماس وفخر: «وأنا عربي»، وانتصر التلامذة العرب لزميلهم. وكان هذه الحكمة الأولى التي انطلقت في سماء «المدرسة الحربية» قضت على الصلة التي تجمعنا بالدولة العثمانية، فأصبحت كلمة «عرب» الآن جامعتنا. ومنذ وقوع ذلك الحادث بدأنا نشعر بأن لنا قومية عربية مستقلة، وراءها أمة وتاريخ ومجد تالد.

واشتدت مع الأيام حزبية الاتراك وانتسابهم إلى طوران كما اشتدت غيرتنا على عروبتنا بالنسبة عينها. وكان الواجب يقضي علينا بأن ننقب عن جد ننتسب إليه ونفخر به، حتى اذا قال الاتراك: «نحن طورانيون» قلنا عندئذ «نحن قحطانيون».

وأخذت الاخبار تتسرب إلينا عن وجود شخصيات عربية في مجلس المبعوثان تدافع عن حقوق العرب، وعن وجود احزاب وجماعات تسعى لانهاض العرب بشتى الوسائل، فأخذنا نعمل بقدر ماتسمح لنا به ظروف المدرسة للاتصال بهذه الشخصيات والجماعات للاستنارة بآرائها. وأخذنا نتساءل بدورنا: «هل للعرب حقوق؟ وما هي حقوقهم؟ ومن هم أولئك الاشخاص؟ وما هي غاياتهم من تاليف أحزابهم؟».

ودارت الأيام دورتها وتخرجت عام ١٩١٢ ضابطاً في الجيش العثماني، وكل ما كنت أحمله في نفسي من الشعور هو انني عربي، واننا نعيش ضمن كيان عثماني سادته الترك.

منذ تلك الساعة صممت على وقف نفسي ومواهبي على عضد أي شخص أو جماعة عربية تعمل في سبيل سؤدد العرب، وامتلكني شعور فياض جعل المغامرة والمجازفة والعمل في سبيل أمتي مُثلي العليا في الحياة.

* * *

تخرجت في المدرسة الحربية في سنة ١٩١٢، وكنت منتسباً فيها إلى صنف الخيالة. ومما حدا بي إلى اختيار هذا الصنف من صفوف الجندية صفات البطولة التي يمتاز بها الفرسان، وما في الفروسية عينها من سرعة حركة ومخاطرة ولذة. وكان تعيين الضباط في الفيالق يجري في ذلك الحين بطريق الاقتراع، وقد اقترعت بدوري فكانت الموصل نصيبي. كما كانت نصيب المرحوم أحمد مختار الطرابلسي، صديق ورفيق عزيز علي باشا، الذي استشهد فيما بعد في حروب بلده طرابلس الغرب ضد الطغيان.

وكان الطريق المألوف حينئذ من الاستانة إلى الموصل طريق حلب – دير الزور. غير أني بالاتفاق مع صديقي أحمد مختار فضلنا سلوك طريق آخر يخترق سهول الاناضول وحزونها (مرتفعاتها)، ويتيح لنا أن ندرس في خلال سفرنا أحوال سكان الاناضول واخلاقهم وعاداتهم، فنقارنها فيما بعد بأخلاق العرب وعاداتهم.

أبحرنا من الاستانة إلى صمسون على احدى البواخر، وسرنا من صمسون إلى دياربكر على عربة يجرها زوجان هزيلان من الخيل، فقطعنا المسافة في واحد وأربعين يوماً. ومن ديار بكر ركبنا مايسمى بـ «الكلك» منحدرين في نهر دجلة. (والكلك هو عبارة عن مجموعة من جلود الماعز، تنفخ بالهواء، ثم تلقى فوق الماء، ترصف عليها أعواد، تبنى فوقها حجرة صغيرة يأوي المسافر إليها عند الحاجة.) ولقد تم لنا قطع المسافة بين ديار بكر والموصل في اثني عشر يوماً.

كان لنا من جبال الاناضول وسهوله وقراه ودساكره ومدنه، دروس كشفت لنا عن حقيقته، واتضح لنا أن الاناضول بعمرانه وبأخلاق أهله وعاداتهم دون البلاد العربية. وأخذ شعورنا يتدرج، كلما قطعنا منطقة من مناطق البلاد، من شك إلى يقين.

كانت مناظر الاناضول ومنازله تمر بنا على نسق واحد، حتى اذا ركبنا الكلك ثانية، وانطلق بنا في مجرى دجلة منحدراً نحو الجنوب، وجدنا أنفسنا في عالم جديد، ولقد كان عرب القبائل القاطنة على ضفتي النهر يقدمون إلينا ما نحتاج إليه، ويجودون بثمرات أراضيهم. كثيراً ما كانوا ينشدوننا مختلف أناشيدهم وقصيدهم البدوي الحربي منه والقومي، مما أثار حماسنا. فهذه لغتنا تسمع لهجاتها المختلفة، وهذا الشعور المشترك، وهذه العادات العربية تتجلى في كل مظهر من مظاهر بني قومنا.

أطلت علينا الموصل، تلك المدينة التي اقترح المرحوم الشيخ رشيد رضا أن تكون مركزاً للخلافة الاسلامية لمتاخمتها حدود البلدان الاسلامية المجاورة كتركية وايران وسورية. وما كدنا نصل المدينة حتى ذهبنا تواً إلى الثكنة العسكرية حيث كتيبتي الخيالة، فتسلمت فصيلي، وشرعت في أعمالي.

كانت كتيبة الخيالة هذه شبيهاً بالامبراطورية العثمانية، ففيها خليط من العناصر، غير أنه لم تكن قد سرت أية فكرة سياسية أو قومية إلى رؤساء ضباطها أو جنودها بعد. وكان الضباط الاحداث على شيء من العلوم والمعارف العسكرية، بخلاف باقي الضباط الممثلين لطبقتهم الرفيعة، اذ كان هؤلاء قليلي الخبرة، بعيدين عن العلم، مجردين عن كل ما تتطلبه قيادة الوحدات من فن ومعرفة بالقوانين والتدريب العسكري.

وكان في الوحدات نوع من التسابق بين الضباط الحديثين انفسهم للبروز والظهور. وقد أصبحت بعد وقت قصير معلماً للكتيبة كافة، ومحاضراً لضباط الفيلق ولقواده، مما هيأ لي التعرف إلى كثير من اخواني الضباط العرب.

وأخذت الفكرة تنمو رويداً رويداً وتختمر في رؤوس الضباط، ولكن على غير نظام أو أساس، وبدأنا نسمع أشياء عن « المنتدى الأدبي » في الاستانة. كما أخذت أخبار نوابنا العرب في مجلس النواب العثماني تصل إلينا، ومن ضمنها ما كانوا يجاهرون به من وجوب منح العرب حقوقاً تتناسب وخطورة شأنهم.

ونشبت حرب طرابلس الغرب في العام عينه، وأقدمت ايطاليا في ذلك القطر

العربي العزيز على أشنع الاعمال الهمجية وأفظعها، ولم تكن أعمال الطليان البربرية تلك لتثير أي حماس في نفوس العرب سوى ماكنا نقرؤه في الصحف. ووقعت الحرب البلقانية على الاثر فانكشف الستار عن الامبراطورية العثمانية، فاذا بها عظاماً نخرة. ولم تثر هذه الحرب أيضاً أي حماس في نفوس الضباط وغير الضباط كما كان ينتظر.

وأخذت تجول فكرة مخيفة في نفوسنا: « هل يقضى على شعوب الامبراطورية العثمانية اذا انهار هذا البناء الهرم ؟ وهل لدى العرب اذا ما انهار البناء من القوة والمنعة ما يصد طمع المستعمر الاوروبي عن الجزيرة ؟ ».

وكان يخيل إليّ أن خطر الانهيار إنما يقع معظمه على العرب، لانهم عزّل من أية تشكيلات تكوّن دعائم الكيان العربي. أما الترك فان ما كان لديهم من تشكيلات واسعة ومن سوار الامبراطورية العثمانية ومؤسساتها، وما كانت تظهره جمعية « الاتحاد والترقي » من النشاط في اعمالها، كان يحملنا على الاعتقاد بأن ما يصيبهم من الانهيار أقل بكثير مما يصيب العرب. حتى ان كثيراً من ضباط الترك المنتسبين إليها راحوا يشمخون بأنوفهم على العرب، وتمادى هذا الغرور حتى أخذوا يصرحون بضرورة تبديل أسماء الخلفاء العرب المعلقة على جدران المساجد بأسماء الخلفاء الترك، والقضاء على أحرار العرب وعلى الفكرة العربية وجعل البلاد العربية مستعمرات تخضع بقوة السلاح لسلطان الترك ونفوذهم. وتجلت فكرة تتريك الأمة العربية أيضاً، فأخذنا نشعر من طرف خفي بتشكيلات وبأعمال تدل على انها تدابير تمهيدية لتنفيذ ما نسمعه على السنة الاتحاديين، فيزداد بحثنا ليلاً ونهاراً عن تشكيلات عربية ننتمي إليها ونضع مواهبنا وحياتنا قيد تصرفها.

وساقني الحظ يوماً إلى التعرف إلى أخ عربي مخلص هو السيد سعيد الحاج ثابت احد شباب الموصل، فأخذ يبث في نفوسنا أفكاراً جديدة، كما أخذ يمنينا بقرب حلول وقت العمل، ويَعِدنا بإشراكنا في هذا الشرف، موصياً ايانا بالهدوء والسكينة. وكثر اتصالي بالضباط العرب، وفوجئت ليلة بصديق من الضباط ينفرد بي، ويسألني اذا كنت مخلصاً حقاً لبلادي أن أتبعه من غير سؤال. شد الضابط

على عينيّ منديلاً وقادني إلى دار لم أكن أعرفها، حتى اذا وصلناها حل الرباط فاذا بي أمام جماعة مقنعة بألبسة سوداء لايظهر منها سوى عيونها، وقد أحدقوا بمائدة عليهانسخة من القرآن الكريم وسيف ومسدس. وطلب إليّ أحدهم أن أقسم يمين الاخلاص لجمعية تعمل في سبيل تحرير العرب، ففعلت. ثم أغمض الضابط عينيّ ثانية وعاد بي إلى منزلي.

بت ليلتي وأنا أنتظر تكليفاً من الجمعية أقدم على أدائه، وجاءني أخي الضابط بعد حين يخبرني بأن الحزب قرر ايفادي بمهمة إلى ابن سعود في الجزيرة فأعربت له عن استعدادي للقيام بالمهمة من فوري. وبقيت طيلة الليل ساهراً أتخيل كيفية مقابلتي لابن سعود وكيف سيسرع إلى حشد جيوشه، فاكون في مقدمتها، وتقاتل الترك، وتطردهم من بلادنا، وتؤلف فيها سيادة عربية ونعلّم جمعية الاتحاد والترقي درساً لن تنساه. وتتابعت الايام، ولكني لم أجد لصديقي أثراً، ولم أسمع بعد كلمة تكليف من الجمعية، فبدأت الشكوك تساورني، ظاناً أنهم ربما لم يجدوا فيّ الكفاية والمؤهلات للقيام بمثل هذه المهمة العظيمة. غير أني مع الأيام أيقنت أن ثقتهم بي لا تزال هي هي، فانقلبت الشكوك التي خامرتني في كفاءتي إلى الشكوك في كفاياتهم هم أنفسهم. واتضح لي أن تشكيلات حزبنا لا تشبه تشكيلات حزب الاتحاد والترقي التركي الذي كان ينظم وينفّذ، بينما كنا نحن نحسن وضع الخطط، ونتكلم ولا نعمل. وسألت نفسي: « هل نحن أقل كفاية من الترك؟ أم أن الترك أشجع منا ؟ أم نحن نظريون فقط والترك عمليون؟ مع العلم بأن الذكاء العربي يفوق الذكاء التركي ».

وأجابتني نفسي: « هذا ما ستكشفه لك الأيام ».

* * *

كنت اسكن في الموصل داراً على ضفاف دجلة، وكان لي جارة عربية جميلة الصورة فصيحة اللسان من قبيلة « البقارة » المستوطنة فيها. وكان يسكن في المحلة عينها فريق من الضباط الترك، فكان كل منهم يحاول جذب قلب المرأة إليه، فأخذت أفكر في طريقة أتمكن بها من السيطرة على شعورها. ولم أجد إلاّ أن

أمتلك قلبها بضرب من ضروب الفروسية التي يتعشقها العرب رجالاً ونساءً، وظللت أتحين الفرص لانال الشهرة التي تنيلني الحظوة لديها.

دعاني قائد الفيلق اسعد بك يوماً إليه وقال لي: « إن الحكومة قد ارسلت كتيبتين من الفرسان وقوات أخرى إلى قبائل شمر لتحصيل ضريبة « الودي »، وان القبائل المذكورة لم تذعن وهي تعيث في اراضي عشيرة الجبور فساداً. لذلك اطلب منك ان تتوجه مع خمسة وعشرين فارسا إلى قبائل الجبور للتظاهر بالمحافظة عليهم، إلى أن يتم جمع « الودي » من القبائل المذكورة ». وشدد عليّ الوصية بوجوب اجتناب كل مامن شأنه أن يؤدي إلى فتنة أو اصطدام بقبائل شمر.

أعددت العدة وخرجت بصحبة الخمسة والعشرين فارساً إلى أراضي الجبور، حيث اجتمعت بشيخ العشيرة، وأوضحت له اهتمام الحكومة به وبعشيرته، فسخر الشيخ ورجاله مني بادئ ذي بدء، لحداثة سني ولضآلة القوة التي ترافقني. فأثارني استهزاؤه بي، وسألت الشيخ تزويدي بقائمة الاشياء التي سلبتها قبائل شمر لأعيدها إليهم، فازدادت سخرية القوم بي، ولكن احد شيوخهم قدم لي على سبيل المجاملة قائمة بالمنهوبات.

وجبت على الفور مضارب شمر التي كنت أجهل منازلها، وصادفت بعض رعاة شمر، فأخبرتهم بأنني أنا الضابط الموكول إليه دعوتهم إلى قرية تل عفر لتأدية الضريبة، وما لبث خبر مهمتي أن انتشر بين مضارب شمر. وأخذت استقصي منازل أفخاذ العشيرة التي تحتفظ بمنهوبات قبيلة الجبور فعرفت بعد بحث بمكانها، وسرت إليها ليلاً وأوعزت إلى من معي بالانتشار حول المضارب على أبعاد متفاوتة. واتجهت بصحبة ثلاثة فرسان نحو مضارب الشيخ محمد المطلق، وفاجأته بظهوري على باب خيمته في منتصف الليل. وبادرته بقولي: « ان جموع قوة تل عفر قد جاءت إليك وطوقتك، وقد ارسلني القائد اليك لمقابلته على الفور، وليس لديّ من الوقت أكثر من خمس دقائق حيث تتحرك القوة جميعها نحوكم، فتقبض على القبيلة بأجمعها.

أوجس شيخ القبيلة منا خيفة، فرغب إليّ أن أسأل القائد امهاله وقتاً قصيراً

لاعداد نفسه لمواجهته، فأجبته بأنه يتعذر عليّ ذلك. وبعد اخذ ورد ركب وركب معه ثمانية فرسان من عبيده وسرنا حتى اذا ابتعدنا عن مضارب القبيلة وأحاط بنا فرساننا، أمرت هؤلاء باستلام اسلحة الشيخ وعبيده وبشد وثاقهم. وفاتحت الشيخ بأمر المنهوبات ووجوب اعادتها إلى الجبور، ولقد أقسمت له بأني قاتله وعبيده اذا لم يعد المنهوبات خلال أربع وعشرين ساعة. وأذنت له بارسال احد عبيده لجلبها، ولم تمض الاربع والعشرين ساعة حتى كانت منهوبات الجبور بكاملها بين ايدينا، وأطلقت سبيل الشيخ وعبيده للحال. غير أنه التفت إليّ وقال: «ان هذا أول مال أدفعه للحكومة». ثم أقسم لي بأنه لن يدع هذه الاهانة تمر من غير أن ينتقم لها، فأجبته: «افعل مابدا لك». وذهب مغاضباً.

وانتشر الخبر بين القبائل، ولقد ذهب وفد من الجبور ومن سواهم إلى الموصل يشكرون السلطة ماقامت به من اعادة مسلوبات الجبور، ويطلبون ابقائي في منطقتهم للمحافظة عليهم وعلى اموالهم من عبث العابثين. وأخذت تنهال عليّ بعد ذلك طلبات بقية القبائل من الحديدين والبوحمد والبقارة وسواهم لمساعدتهم على اعادة منهوباتهم. فصرت أغير من قبيلة على قبيلة أسترجع مالديها من منهوبات الآخرين، بالحيلة طوراً، وبالعنف تارة، حتى تمكنت من اعادة معظم المنهوبات إلى أربابها، وكان بعضها يعود عهده إلى سنين.

وانتشر اسمي في الموصل، وفيما جاورها، وأصبحت لي شهرة عظيمة، كل ذلك تم لي خلافاً للأوامر والتعليمات التي اصدرها إليّ قائد الفيلق. وكنت قد جاوزت المدة التي حددها لي، وخشي القائد معها من مغامراتي، وما قد ينتج عنها من اضطراب في الأمن، فغضب عليّ طالباً عودتي إليه بسرعة. وصلت الموصل، فألفيت القائد غاضباً، وبالرغم من تقديره أعمالي أنبّني على مغامرتي. ويممت منزلي فوجدت الاخبار قد سبقتني إليه، وكان أهل محلتي ينتظرون أوبتي بلهف شديد. وكانت جارتي العربية في مقدمة المعجبين، وقد شعرت من ثنائها عليّ أنني نلت الحظوة في نفسها.

* * *

ولم تمض على عودتي أيام معدودات حتى أتاني مندوب الحزب وهو يقول بأن الاخوان يودون الاجتماع بي لأمر خطير. فاتفقنا على أن يكون الاجتماع بهم في «حمام العليل» وهي قرية على بعد ساعتين للراكب من الموصل، بها عيون كبريتية شديدة الحرارة، يؤمها أهالي الموصل وما يجاورها للاستشفاء.

ولكي أتمكن من الاجتماع باخواني طلبت اجازة من آمر الكتيبة فرفض طلبي، فقررت حينئذ أن أجيز نفسي. حتى اذا حان الوقت تنكرت بزيّ بدويّ، وتجنباً للأعين تنكبت عن الطريق العام واتخذت لنفسي طريقاً من الوديان المحاذية.

وبينما أنا اجدّ السير لقيت ركبا يسيرون في اتجاهي وقد تعجبوا من قيافتي البدوية ومن جوادي وما عليه من التجهيزات الاميرية، فذكرت لهم انني ضابط من حامية الموصل، وان وجهتي حمام العليل. فذكروا لي انهم مواطنون حكوميون وان وجهتهم قرية «لزاقة» على ثلثي المسافة بين الموصل وحمام العليل. دعاني الركب إلى تمضية ليلتي في صحبته في قرية لزاقة، فلم يسعني عندئذ إلاّ التصريح بأنني على موعد مع بعض اخواني لا يمكنني اخلافه، فرضوا بأن أذهب إلى موعدي على أن أعود إليهم.

وصلت حمام العليل في الوقت المعين وعقد الاخوان اجتماعهم الذي يؤسفني أن أقول أنه لم يسفر عن شيء. وعدت وحدي إلى قرية لزاقة، فوجدت فيها من تعرفت اليهم في انتظاري. ولقد اتاحت لي هذه الفرصة التعرف بصديق نادر هو سعيد افندي علي، صاحب قرية لزاقة، الذي له عليّ أياد في اثناء مقامي في الموصل، على أثر حادث سياسي وقع لي وسيأتي نبأه بعد حين.

وعدنا إلى الموصل في الصباح الباكر. وكان موعد سفر البريد إلى الآستانة فكتبت كتابا إلى والدي، وآخر إلى سيدة أعرفها، وشاءت الصدف أن اضع كتاب والدي في غلاف السيدة، وكتاب السيدة في غلاف والدي. واذا بي بعد أيام أتسلم كتابا من والدي يقول لي فيه أنه لم يكن ليظن أن ابنه سيء السيرة يقضي أوقاته في مغازلة النساء. وكان مما جاء في كتابه أنه لا يمكن أن يربي هذه الاخلاق التي اتصف بها إلى نسبي، وأنا الحَسَني أباً والعُمَري أماً، ولقد كان لكتابه ذاك

أبلغ أثر في نفسي.

ولكن كتاب والدي، بالرغم مما سببه لي من ألم نفسي وحزن عميق، قد أفادني فائدة كبرى، اذ عرفني بنسبي الذي كنت أجهله، ولم أكن لاعلق يوماً ما أهمية على حسب أو نسب، بل كنت أجلّ العمل العظيم الذي يقوم به أي شخص مهما كان نسبه.

وجاءني صديقي المرحوم سعيد أفندي بعد أيام، فأخبرته بما وقع لي مع والدي فتأثر، ولكنه سرَّ لما جدَّ من معلومات عن نسب عائلتي. وزارني في اليوم التالي بصحبة نقيب أشراف الموصل للتعرف إليّ، فذكر لي أننا من أشرف العائلات نسباً، واننا من أصل مغربي يتصل نسبناً بقبائل بني عروس، وإمامها سيدي عبد السلام بن مشيتس المدفون في جبال الريف، والذي غدا قبره مزاراً لقبائل المغرب جميعها.

ولمناسبة ذكر كتاب والدي أشير إلى كتاب بعثت إليّ به والدتي وأنا جريح في المستشفى، وهي التي كانت تبث فيّ حب المكارم وتشجعني وتثير من حماسي. وهي تذكر لي في ذلك الكتاب حماس الشبان الذاهبين إلى جبهات الحرب المختلفة، وان والدي بالرغم من كبر سنه قد ذهب إلى جبهة أرضروم، وتتمنى عليّ القيام بعمل عظيم في ساحة المجد. فبعثت اليها جواباً أخبرتها فيه انني جريح في المستشفى، وانني سألتحق بالجبهة بعد ابلالي، فإما أن أجرح ثانية أو يقضى عليّ حباً برضاها.

وكان والدي رحمه الله يغرس في نفسي على الدوام حب بلادي، ويرغب اليّ أن أكون عند مشيئة والدتي مضحياً مغامراً ولكن في سبيل العروبة ولمنفعة العرب وحدهم.

* * *

أحداث الحرب العالمية الأولى:

كانت الحرب البلقانية التي اعلنت بعد أشهر من تخرجي ضابطاً، قد انتهت بسرعة غيرة منتظرة، وكشفت الستار الذي كان يتوارى وراءه هيكل الامبراطورية العثمانية الهرم، وأضحت استنبول على الأثر مسرحاً للفوضى وللدسائس ولتطاحن الأحزاب. غير أن حزب الاتحاد والترقي كان يسير حينئذ إلى الزعامة، وتمكن بعد حين من القبض على ناصية الدولة. وأخذ رجال الحزب يعملون من جديد لتجديد حياة الدولة مبتدئين بالجيش، ومستعينين على تحقيق ذلك ببعثات أجنبية. ولم تكد تصل النهضة إلى درجة ملموسة حتى أعلنت الحرب العامة وأصبح مستقبل الامبراطورية العثمانية كلها تحت رحمة هذه الحرب.

واشتد نشاط الاحزاب السياسية العربية في مختلف الانحاء، واتصل فريق من رجالها بي من جديد، وأخذوا يعلنون أن الفرصة قد أضحت سانحة لانقاذ البلاد العربية من العاقبة الوخيمة التي تسير إليها الامبراطورية العثمانية، وانهم يرغبون في أن لا يشترك العرب في هذه الحرب التي لن تكون في مصلحتهم. ولقد طلب إليّ اخواني أن أقوم بالدعاية المقتضية بين القبائل لبث روح الثورة فيهم، فنزلت عند رغبتهم، نظراً لما كنت أشعر به من قوة الاتحاديين وغطرستهم وتظاهرهم بالفكرة الطورانية التي أصبحت ظاهرة ملموسة في كل مجتمع من مجتمعاتهم العامة والخاصة.

وأخذ منهاج الاتحاديين الخفي ينكشف بإرسالهم الولاة والقواد العسكريين الترك القساة إلى الولايات العربية، مزودين بالصلاحيات للقضاء التام على أحرار العرب وعلى الفكرة العربية الآخذة في الانتشار.

وكان من حسن المصادفات، تحقيقاً لرغبة اخواني في خروجي إلى القبائل والاتصال برجالها، أن طرقت بابي يوماً عجوز بدوية رغبت مني في السعي لانقاذ زوجها شيخ قبيلة الدليم من السجن. وكنت لا أعرف من قضية زوجها شيئاً، فوعدتها بالسعي إلى انقاذه، حتى اذا تعذر عليّ ذلك أخرجته من السجن بنفسي، فاطمأنت لوعودي.

واتجهت صوب صديقي سعيد افندي، وكان حينئذ مدعياً عاماً في محكمة الاستئناف، ثم على أثر اعلان النفير العام عين مدعياً عاماً في ديوان الحرب العرفي، فرجوته مساعدتي على انقاذ الرجل. فأمهلني سعيد افندي ريثما يطلع بنفسه على اضبارة السجين، وجاءني بعد قليل قائلاً: « ان صاحبك محكوم عليه بالاعدام لأنه قام ضد الدولة العلية وقتل جنوداً وضابطاً ولا يمكنني عمل أي شيء لانقاذه، وان أوراقه قدمت إلى الباب العالي للموافقة عليها ».

فأسفت لمصير الرجل وأخذت أفكر فيما سيكون عليه موقفي من المرأة البدوية، وخرجت من تفكيري إلى وجوب مقابلة سليمان نظيف بك والي الموصل. رجوته أن يسمح لي بمحادثته ومصارحته في بعض أمور جالت في خاطري تعزيزاً للأمبراطورية العثمانية. فقلت له: « مولاي! ان الجيش الانكليزي زحف بقوة فولاذه وماله على العراق. وقد سبق للدولة أن سحبت القوة الموجودة فيه للدفاع عن ارضروم فنحن هنا ضعفاء قوة ومالاً، ومع ذلك كله تقدمون اليوم على اعدام شيوخ العرب الذين هم ورجالهم القوة الوحيدة الباقية التي يعتمد عليها في هذه الجزيرة. فاذا اسأتم الى شيوخ العرب كان ذلك فرصة سانحة للانكليز لاستمالتهم إليهم، وعندئذ تتهمون العرب بخيانة الدولة في أحرج مواقفها مع أن الأمر خلاف ذلك». فبهت الوالي من صراحتي والتفت إليّ قائلاً: « وما الذي تعنيه ؟» فقلت: «لقد حكمتم بالاعدام على الشيخ نجرس القعود شيخ مشايخ قبائل الدليم، وهو ينتظر تنفيذ حكم الاعدام فيه. ولقد جئتكم الآن راجياً من سعادتكم التوسط لانقاذ هذا الشيخ، وبذلك تجعلونه وعشيرته طوع بنانكم، وتوجهونهم إلى أعمال تسدون بها الفراغ الذي أحدثه الجيش، ولن تلبث سائر العشائر ان تقتدي بهم ». أطرق الوالي قليلاً، ثم رفع رأسه قائلاً: « اني أشكر لك هذه الصراحة، وأقدر لك شعورك،

واني فاعل ما تقوله الآن ».

وبشرت العجوز التي كانت تنتظرني، ولم تمض ساعات حتى وردت برقية من الاستانة بالعفو، فأسرعت إلى السجن حيث اخرجت الشيخ بنفسي. وبذلك أضحى الشيخ مدينا لي بحياته، كما أمسيت فيما بعد مديناً له، فوفاني ديناً بدين بانقاذه حياتي في ابان الثورة السورية سنة ١٩٢٥ كما سأبينه في فصل لاحق.

اشرت على الشيخ نرجس القعود أن يقوم بزيارة الوالي ويشكر له انقاذه حياته، ويسأله مرافقتي له إلى قبيلته لاعادة نفوذه إليه. وسنحت لي بذلك الفرصة التي كنت أتحيَّنها للاتصال برجال القبائل.

كانت الحكومة العثمانية في ذلك الحين قد دخلت الحرب التي اخذ لهيبها يلتهم الارض من جهاتها الاربع. كما أن الوهن والضعف كانا ظاهرين في الجبهة العراقية على أثر تقدم الانجليز الى البصرة واحتلالها في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ بسهولة وبدون مقاومة.

انتقل خبر دعاوتي بين قبائل شمر لسلطات الموصل. وكان صديقي سعيد افندي مدعياً عاماً، فما كادت التقارير تصل إليه عن اعمالي حتى أسرع إلى اخباري لاتخاذ الحيطة واجتناب الوقوع في أيدي المحكمة العرفية.

وعزمت على الرحيل إلى بغداد لمواجهة سليمان نظيف بك الذي كان قد عين والياً عليها. فقطعت الجزيرة فارساً، حتى اذا وصلت بغداد زرت الوالي وأبنت له انني قمت بما يجب من الدعاية بين القبائل لاستمالتهم إلى جانب الحكومة، ولاسيما قبائل الدليم، فشكرني على عملي.

وتقدم الانكليز بعد سقوط البصرة نحو القرنة فاستولوا عليها في ٨-٩ كانون الأول ١٩١٤ بعد معركة دامية أسروا فيها القائد صبحي بك ومن كان في معيته بعد حصارهم لها. وعين سليمان عسكري بك لقيادة جيش العراق (كانون الثاني ١٩١٥)، المؤلف من فوجين وعدد لا بأس به من الضباط المدربين وبعض الوحدات الاخرى. وكنت بعد اسبوع في الصف الأول من الجبهة أقود فصيلاً من فرسان الكتيبة في الضفة الغربية من شط العرب. وشرع سليمان عسكري بك في

جمع فلول الجيش وتنظيمها ليؤسس منها، ومما جاء به من القوى، خطاً دفاعياً جديداً في منطقة الروطة، وهو قنال يقع شمالي شرقي القرنة. وما كان سليمان عسكري بك يتم استعداداته وتحكيماته حتى قام الانكليز بهجوم عام على الموقع في ٢٠-١-١٩١٥ ودارت ثمة معركة حامية، مُني الطرفان فيها بخسائر فادحة وأسفرت عن ارتداد القوى الانكليزية وفشلها. ولقد جرح سليمان عسكري بك كما جرحت أنا ونقلنا معاً إلى مستشفى بغداد.

واتصل بي أثناء اقامتي في المستشفى بعض اخواني، وحدثوني بشيء مما عزم الترك على القيام به للقضاء على أحرار العرب، على أثر ورود تقارير من اخوانهم العرب في استنبول.

كانت صحتي قد تحسنت قليلاً، فأوعزت إلى مراسلي شهاب الدلبي بإعداد جوادي « سوف » ، وكنت أحبه كثيراً. وكان شهاب هذا أحد أفراد قبيلة الدليم وكان ذكي الفؤاد شجاعاً مغامراً يفيض شعوراً بالعربية، وقد لازمني حتى نهاية الحرب.

عزمت على الخروج من المستشفى. وكان بعض الاخوان قد عادني سائلاً عن وسيلة لايصال بعض الرسائل الهامة والخطط ذات الشأن إلى اخواننا في سورية، فأجبتهم بأنني على استعداد للقيام بهذه المهمة. وقد ذكروا لي أن قسماً من الرسائل في الموصل بينما سلموني ما لديهم من رسائل بغداد.

وكان عليّ أن أقنع رئيس أطباء المستشفى بوجوب التحاقي بكتيبتي فأذن لي وخرجت من المستشفى. ولكني بدلاً من الالتحاق بكتيبتي توجهت بصحبة مراسلي شهاب الى الموصل ونحن فارسان. وتسللت فيها، حيث اتصلت بالاخوان الذين يجب الاجتماع بهم ومنهم السيد ثابت عبد النور. وتركت الموصل صوب حلب عن طريق رأس العين.

ولقد قطعت المسافة اليها بما يقارب العشرين يوماً. فلما وصلت محطة بغداد في حلب في أوائل تموز ١٩١٥ وجدت صديقي الضابط فرج عمارة محافظاً فيها.

كانت الافكار وقتئذ مضطربة، والقلق مستحوذاً على جميع المفكرين في

البلاد، وجمال باشا آخذاً وقتئذ بجمع الضباط العرب وسوقهم، تبعاً لخطة مرسومة، من سورية إلى الجبهات النائية في الاناضول وجناق قلعة وغيرهما، وبذا أضحت سورية خالية من الرجال الذين يؤمل منهم خير. وأخذ جمال باشا في الوقت نفسه في حشر الضباط غير العرب في سورية، وقد حصر اهتمامه بالقضاء على الشبيبة العربية وعلى زعماء البلاد الذين كانوا يحملون الفكرة العربية، وينشرونها بين طبقات الشعب، فاعتقل أحرارهم وحشرهم في سجون « عاليه » في لبنان.

وأطلعت صديقي الضابط على خبر ما أحمله من رسائل إلى اخواننا في سورية، فصرح لي بأن لجمال باشا جيشاً من الجواسيس لا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا أحصوها وأوصلوها إليه، وكان صديقي فرج عمارة أحد شباب الكرد، الذين يماثل شعورهم شعور العرب بالنسبة إلى موقف الاتحاديين. فكان يلحّ عليّ، مظهراً قلقه، بوجوب تمزيق الرسائل التي أحملها، ولاسيما بعد اطلاعه على عناوين الاشخاص المرسلة إليهم، فذكر لي بأن معظم أصحابها معتقلون في سجون عاليه، وان مجيئي من العراق إلى سورية على هذه الصورة، ووجود الرسائل معي كافيين للقضاء عليّ. ولم يلبث أن مزق الرسائل، ولكني أصررت على الاتصال بأصحابها، والتحدث إليهم شفوياً. وأخذت في البحث عن وسيلة للاتصال بهم، وتمكنت بواسطة احد الاطباء العرب النافذي الكلمة من دخول دار النقاهة في صوفر لابراء جرحي.

نزلت صوفر المصيف اللبناني، بعد تعب أصابني في سفرة قمت بها فارساً من بغداد إلى الموصل إلى رأس العين فحلب، ولقد وجدتني بعد وصولي صوفر كأنني نزيل رياض الخلد. أخذت أتجول في هذه القرية الجميلة وما حولها، وما كنت لأجد وقتئذ أثراً فيها للحياة، اللهم إلا أولئك الجنود الترك وضباطهم الذين احتلوا مبانيها الارستقراطية الفخمة، والتي لعبت أيديهم فيها بعد حين، فحطمت نوافذها وأبوابها، وجعلت منها وقوداً.

وعبثاً حاولت الاتصال برجالاتنا المعتقلين في عاليه. ولكني علمت أن فيها

شريف بك الحجار أحد الضباط العرب على رأس سرية من الخيالة، فأردت أن اتخذ من وجوده في عاليه وسيلة لتحقيق رغبتي. تعرفت الى احد الجنود العرب، فأفضيت إليه بما في نفسي، فتطوع للخدمة، ولقد أرسلته بصحبة مراسلي إلى شريف بك برسالة متواعداً معه على الاجتماع عند قمة واقعة على منتصف الطريق ما بين صوفر وعاليه ليوافيني بجواب الضابط. وعبثاً انتظرتهما في الوقت والمكان المعينين، وانقضى النهار دون أن اقع له على أثر. وجئت الموعد في اليوم التالي فاذا بي أرى الجندي ومراسلي قادمين، فسألت الجندي عما تم له، فأجابني بأن شريف بك مزق الكتاب، وطرده، ثم استحصل على اجازة من آمريه، وتوجه إلى بيروت. فأيقنت أن الضابط خشي مغبة عملي، فآثر الابتعاد عني.

* * *

أبت الاقدار إلا أن تنشىء علاقة غرام بيني وبين احدى سيدات بيروت المسيحية، وكانت أصيبت بحمى التيفوئيد فنزلت صوفر لتمضية دور النقاهة في قصرها الجميل الفخم المشرف على وادي حمانا الخلاب. وشاعت أخبار علاقتي بهذه الفتاة، ولاسيما بين الضباط الترك في معسكر جمال باشا، الذي اتخذ فندق صوفر الكبير مقراً له. وكان جمال قد جاء الى مقره في صوفر للاشراف على محاكمة أحرار العرب الموقوفين في سجون عاليه وبعد أن صمم على القضاء عليهم.

وكان ضباط مقر جمال باشا يعدّون أنفسهم فوق القانون وفوق الجيش، وكنت تعرفت على هؤلاء الضباط، ولم نلبث أن توسعت شقة الخلاف بيننا، وأخذوا يكيدون لي المكائد. وبلغني ذات يوم أن جمال باشا بعث انذاراً إلى الوحدات الموجودة في لبنان للتأهب لصد فرقة من العدو، أنزلت في ميناء جونية.

وحفزتني الرغبة في المغامرة والاشتراك في هذه الحملة إلى مقابلة جمال باشا، ورجوته تعييني في احدى الوحدات للاشتراك في الدفاع عن جونيه. وكنت آمل أن أعين ضابطاً في سرية الخيالة التي يرأسها الضابط العربي شريف بك الآنف الذكر، وكانت هذه السرية، سرية الخيالة الوحيدة في عاليه، وكنت آمل من وراء ذلك أن أتصل باخواني الموقوفين فيها. ضحك جمال باشا عند سماعه كلامي، والتفت

بدوره إليّ قائلاً: « انني أشكرك أيها الشاب، على أن الذي سمعته عن الانذار إنما كان على سبيل الافتراض لمناورة اردت تمرين الجيش عليها، ولكن سوف ارسلك إلى ميدان أوسع حيث تظهر فيه مواهبك وقدرتك، ولقد عينتك في الفرقة الخيالة الثالثة في بئر السبع.

جاءني أحد ضباط المقر، الذي وصل الفتور بيني وبينه إلى أقصى حدود، وابتدرني بقوله: « ان أمر الباشا قد صدر، والاوراق قد أعدت لسفرك الليلة إلى بئر السبع مقر وظيفتك الجديدة». قلت: « وكيف يتسنى لي السفر وليس هناك قطار؟» قال: « أجل سوف يمر قطار الحطب في الساعة الرابعة بعد الظهر في طريقه إلى الشام». وعبثاً حاولت ارجاء سفري إلى يوم آخر، وفي قطار غير قطار الحطب، فأبى عليّ ذلك.

ركبت القطار مرغماً، وكانت صديقتي قد لحقت بي إلى المحطة لوداعي، مقسمة لي على انها لاحقة بي في القطار التالي. وانطلق القطار مسرعاً نحو دمشق، وأخذت الوساوس تساورني، وبت أخشى على صديقتي من كيد هؤلاء الضباط، وكان من حسن حظي أن لحقت بي في أول قطار إلى دمشق. اتجهنا بعدها معاً إلى قرية سبسطيه القرية الأثرية الواقعة على مقربة من نابلس غرباً. وكان نزولي في بيت كان مخصصاً لاحد علماء الآثار المنقّبين في المدينة.

وبقينا في سبسطيه زهاء شهرين، وكنت في خلالهما غير مكترث بما قد ينتج عن تخلفي من مسؤوليات. وسافرنا بعد حين إلى القدس، حيث نزلنا في فندق فاست، وكان الضباط الالمان ينزلون هذا الفندق، فاختلطت والسيدة بهم كأني أحدهم، لا يعترض سبيلي معترض من رجال الجيش التركي. ولكن المقام لم يطل بنا، اذ انكشف امرنا بعد حين، وأوقفت، ثم أخرجت من القدس إلى بئر السبع. وقد تمكنت من اقناع صديقتي بالسفر إلى يافا حيث يقيم بعض أقاربها لتنتظر أخباري، وكان هذا آخر عهدي بها.

وصلت في أوائل شهر مايس ١٩١٦ بئر السبع، وكان قد انقضى على هجوم غزة الثاني ما يقارب الخمسة عشر يوماً، وكانت فرقة الخيالة التي عينت فيها مرابطة

في بئر السبع. كانت بئر السبع منتهى خط الدفاع التركي الممتد من غزة إلى بئر السبع شرقاً. وكانت الفرقة تترصد في ذلك الوقت حركات خيالة الانكليز من جهة، وتراقب أعمال القبائل من جهة ثانية، حيث تؤمن جناح الترك الأيسر. ومدينة بئر السبع هوة محاطة من سائر جهاتها – ماعدا شماليها – بكثبان رمل وصحارى قاحلة غير مسكونة خلا بعض الاماكن التي فيها تكثر الآبار الشحيحة المياه، والتي تردها القبائل لسقي مواشيها. وهي معرضة دوما لنسف الرمال التي تحجب أحياناً سماء القرية، فتغطي المعسكرات، حيث تصبح شبيهة بالتلال الرملية المتنقلة التي تكونها الرياح الهوجاء.

وكانت الفرقة الخيالة بقيادة أسعد بك الالباني أخي عزة باشا المشهور، وما كدت أصل المعسكر حتى قدمت للقائد أوراقي فبهت لتأخري طوال هذه المدة عن الالتحاق بمركز فرقته من غير عذر. وبعد محاورة قصيرة طلب مني أن أصدقه حقيقة ما وقع لي، فقصصت عليه قصتي حرفياً منذ نزولي صوفر حتى وصولي إليه. فبادرني بنصائحه القيِّمة، ثم أخبرني بانه عينني في مقر الفرقة، وطلب مني أن أبذل ما بوسعي لاداء واجبي بنشاط واخلاص لتلافي ما فرط مني.

* * *

كان نشاط الكشف في وحدات الخيالة الانكليزية والتركية قد بلغ أقصى حدوده، وكان ضباط الخيالة يتباهون بأعمالهم المضنية الخطرة عند عودتهم من الكشف، ويفاخرون بها زملاءهم القابعين.

كنت دائماً ميالا إلى الاشتراك في أعمال الكشف هذه، لافاخر بدوري زملائي، فاستأذنت يوماً قائد الفرقة للخروج إلى الكشف فأذن لي. وتقدمت بفصيل من الخيالة للاستكشاف للمرة الأولى، وكنت أجهل حينئذ الاراضي وطريقة الاستكشاف والقتال أيضاً، فوقعت في كمين أعده لنا العدو ونجوت منه بأعجوبة.

ولكنني عدت أحمل بعض القتلى والجرحى من رجالنا، ولم ألبث طويلاً حتى قمت باستكشافات عدة بعد ذلك، وأتقنت طرق القتال والاستكشاف. وقد

اتضح لي بعد الدرس أن أفضل طريقة للاستكشاف هي البيات قبيل الفجر، ولذا كان عليّ أن أتعرف إلى الاراضي جيداً، لكي يتيسر قطع المسافة إلى مكمني ليلاً. وتمكنت في احدى محاولاتي من مباغتة مفرزة كشف للعدو، فاجأناها بنيران شديدة على مسافة قريبة من جهة، وبهجوم عنيف على ظهور الخيل من الجهة الاخرى، فسقط من رجالها عدد كبير من القتلى، أما من حاول الفرار راكبا، فقد قطعنا عليه طريقه وأسرناه. ورجعت بعد ذلك إلى معسكر بئر السبع مستصحباً من الأسرى ضابطاً واثني عشر فارساً وسبعة جرحى.

وكانت هذه الحادثة أعظم توفيق فازت به مفارز استكشافنا، وقد نلت على مغامرتي فيها الوسام الحربي العثماني، وبرعت بعد ذلك في أعمال الكشف، حتى ذاعت شهرتي. وكان من عادة القيادة اذا تطلّب الموقف استكشافاً خطراً، أو قياماً بعمل هام، أن تدعو الضباط الى التطوع. وكنت أشعر بدافع غريزي يدفعني إلى القيام بكل مغامرة خطرة، اذ كنت لا أرى ألذ من العودة من مغامرة كهذه موفقاً غانما. وكان النجاح حليفي في كل مغامرة قمت بها، فحزت بذلك على ثقة القائد أسعد بك، وثقة بقية الضباط، وأضحت خسائر جنودنا في مغامراتي جد قليلة، كما أني لم أصب بأي جرح في خلال مغامراتي.

وقد مهدت لي الشهرة التي اكتسبتها سبيل الاتصال بالقائد الالماني فون كريس باشا، الذي أصبح فيما بعد يعتمد عليّ في الاستكشافات البعيدة، التي تتطلب براعة وجرأة، وغدوت موضع تقديره. وعين يوماً القائد الألماني فون لايزر لتنظيم خطوط المنازل بين بئر السبع والحفير وقلعة النخيل. فرغب إلي القائد أسعد بك – بناء على توصية يحملها من فون كريس – أن يعينني مرافقاً له، وتم ذلك، وقد قدمت للقائد الألماني هذا خدمات جلى، وحزت ثقته التامة. وأضحيت بعد مدة قليلة أتقن الالمانية، التي كنت تلقنت مبادئها وقواعدها في المدرسة الحربية في استنبول، وكان فون لايزر يشجعني كثيراً على اتقانها، وكان اختلاطي به، وبرفاقه الضباط الألمان، أكبر مساعد لي على اتقانها في مدة وجيزة.

بقيت طوال المدة التي قضيتها في جبهة بئر السبع منعزلاً عن العالم العربي،

جاهلاً أحوال اخواني العرب، حتى أمسيت لا أدري مقر أي أخ من اخواني العاملين. ولقد وجدتني بانتقالي إلى معيَّة فون لايزر متمتعاً بحرية ونفوذ عظيمين، فكانت الفرصة سانحة للاتصال باخواني الضباط العرب، فصرت أبحث عنهم، وأسعى في نقلهم إلى الوحدات التي أضحت تحت أمرتنا.

وفوجئنا يوماً، وكان قد تم لي نقل فريق كبير منهم إلى فرقتنا، بزيارة جمال باشا لنا في الحفير، وكان الباشا آنئذ قادماً من دمشق على أثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بالقافلة الثانية من الشهداء العرب (٦ أيار ١٩١٦)، فطلب تفتيش الوحدات، فأعددنا له كل شيء. تقدم جمال باشا يصحبه فون لايزر، وأنا في صحبته، إلى التفتيش. فأخذ يستعرض الوحدات وحدة وحدة، ويسأل فون لايزر عن بعض التفصيلات. وكان جمال باشا لا يحسن الالمانية، كما أن فون لايزر لم يكن يحسن التركية ولا الافرنسية، التي يتقنها جمال باشا، فكنت أقوم بالترجمة بينهما. والتفت فون لايزر إلى جمال باشا يرجوه الاعتماد عليّ في كل ما أقوله له، فانتبه هذا لهذه الملاحظة، وشكر فون لايزر، كما شكرني على ثقة القائد الألماني بي. وشرع جمال باشا يسألني عن بعض التفصيلات فكنت أسردها له بصراحة واسهاب أثارا دهشته، ثم شرع في سؤالي عن أسماء بعض الضباط الذين مروا من أمامه في أثناء العرض، وعن موطنهم. فكنت كلما مر ضابط عربي وعرفته به ازداد استغراباً وريبة، فالتفت إليّ والشرر يكاد يتطاير من عينيه سائلاً :« وأنت من أي بلد أنت ؟» فقلت : له : « من طرابلس الشام» . فهز رأسه، وقال بالحرف الواحد :

« طرابلس شاملي لر جوق وطن برفردلر». أي أن الطرابلسيين جد وطنيين وأذكياء (لا توجد في النص التركي هذه الكلمة « أذكياء ») وانك لا شك قد لقنت هؤلاء الضباط العرب، الذين لا أدري كيف تجمعوا في هذه البقعة، كل مايجب عليك تلقينهم» . فأجبته فوراً : « نعم اني قد لقنتهم كل مايحتاجون إليه للقيام بواجبهم حق القيام ».

ولم أكد أتم جوابي، حتى أسرع جمال باشا إلى مغادرة ميدان العرض، طالباً

مني أن أتبعه، فاتجهنا نحو احدى خيام الصحة الالمانية، وتبعنا فون لايزر على الاثر دهشا. ولم يكد يستقر بنا المقام في الخيمة، حتى بادرني جمال بالسؤال الآتي « فقط كولكرينه كوكورد صيد دركولجك برو جوق عائله لردر أردر ويلمي؟ » أي أن الطرابلسيين وطنيون ولكن بينهم من العائلات ما يجب أن يصب على شرشهم ماء الكبريت أليس كذلك ؟ فأجبته : « ان مولاي الباشا أدرى مني بهذا. على اني، وان كنت طرابلسياً، فاني لا أعرف طرابلس جيداً، لأنني خرجت منها منذ طفولتي للدراسة في استنبول، ولاداء الواجب كضابط ».

ثم سألني « شامده ايبه جكنك لريم حقتده نه درسك؟ » أي ماقولك فيمن علقتهم على أعواد المشانق في الشام؟ فأجبته : « لقد عهد بمقدرات البلاد السورية اليكم، ولا شك في انكم قد قمتم بما أوحاه إليكم ضميركم» . فبدت آثار الغضب في وجه الباشا، واتفق ان فون لايزر تدخل في الامر، وسألني عن الموضوع الهام الذي حمل الباشا على مغادرة ميدان العرض قبل انجاز العرض، ويأتي بي إلى هذه الخيمة. فقلت له :« أن الباشا يباحثني في سياسة سورية ». فضرب فون لايزر المنضدة بقبضة يده قائلاً : « صعقاً ورعداً مرة اخرى، أي مناسبة، ربَّاه، بين تفتيش الوحدات وبين سياسة سورية؟ » وشعر جمال باشا من حركات فون لايزر أن هذا لن يدعه يتمادى معي في بحث السياسة بمثل هذه الحرية، فعجل في قوله : « انني عملت عملية جراحية في قلب سورية فإما أن يؤدي قلبها عمله كما احب، وإما أن تقف دقاته إلى الأبد. وان الاعمال التي قمت بها في صحراء سيناء ستخلد لي ذكراً على مر السنين ، وان الماء الذي استنبطته في تلك الصحراء لو استنبط في عهد موسى لما ضل قومه فيها ».

واختتم جمال باشا كلامه بقوله، انه ينوي نقلي إلى مقره. فتدخل فون لايزر مرة ثانية، وبحدّة، سائلاً عن موضوع حديثنا، فأخبرته بأن البحث لا يزال جارياً حول سياسة سورية العامة، فنهض فون لايزر غاضباً تاركاً الخيمة من غير أن يهتم بجمال باشا.

وأخذ الشك والقلق يساورني على أثر زيارة جمال باشا هذه . وكان جمال

قد غادر سورية مسرعا على أثر تنفيذه حكم اعدام الحياة بأحرار العرب مخافة سوء يلحق به وهو في الشام، وفضلاً عن ذلك فقد كان يرغب في استطلاع درجة شعور الضباط العرب وعلاقتهم بتلك الحوادث، وإثارة الحماس واليقظة في نفوس الضباط الترك الذين قد يتأثرون بدعايات الضباط العرب بينهم. وكان وجود ضباط من العرب متجمعين في وحدات يرأسها قائد الماني، مثيراً لحفيظة جمال باشا وشكوكه. فليس بمستغرب اذن أن يعمد جمال إلى اصدار الاوامر لتبديد شمل هؤلاء الضباط، والتنكيل بمن يشتبه به منهم بشتى الوسائل. وما لبث جمال أن غادرنا إلى جبهة اخرى للتفتيش.

وزارني في هذه الاثناء الاخ الدكتور أحمد قدري، وكان عضوا اذ ذاك في جمعية العربية الفتاة. فاختلى بي، وأسرّ إليّ بأنه يحمل إليّ شيئاً من الديناميت، وهو يطلب مني تخبئته، ويوصيني بحفظه حتى يوم استعماله. ضحكت في سري وفي علني من هذا التكليف، لانني كنت حينئذ أملك صناديق من الديناميت، أما متى يجب استعمال الديناميت؟ وأين؟ فقد كان مجهولاً لدى أعضاء الجمعية. والذي أتذكره الآن أن الدكتور أحمد قدري هو الذي أخبرني بنشوب الثورة العربية في الحجاز بقيادة الشريف حسين، وكنت طربت لهذا الخبر وقلت في نفسي: « لقد أشرق الآن فجر سعادة الأمة العربية ». وسألت الدكتور عن كيفية الانضمام إلى الثورة، فأوصاني بالصبر، واعدا إياي بإرسال التعليمات والتفاصيل كافة.

غير اني كنت كلما مرت الايام، وازداد تماسّي بأعضاء الاحزاب، ضعف أملي فيهم وفي نجاح مقاصدهم، وأخذت الشكوك تساورني في قدرة هؤلاء واخلاصهم للعمل، لأني كنت أعتقد بفساد الاساليب التي درجت عليها الاحزاب إلى ذلك الحين، والعمل يتطلب الاقدام والتضحية. وكان اغتيال جمال باشا كافياً لوضع حد للفظائع التي قام بها الترك ضد أحرار العرب ولفتح المجال أمام المخلصين. وأني أعتقد بأن جمعياتنا لو عهدت إلى أي رجل من أعضائها، ولاسيما من كان منهم في صف الضباط، بالقيام بمهمة الاغتيال هذه، لما تأخر أكثرهم، ولأقدموا على هذا

العمل بحرارة وفخر.

* * *

كنت علمت من اخواني اعضاء الاحزاب أن الامير فيصل اتصل لما كان في دمشق، ببعض الضباط العرب وقادتهم وان هؤلاء أعربوا له عن استعدادهم للقيام بثورة عربية، رجحوا اعلانها في سورية نفسها. وكان مما قالوه له انهم لا يحتاجون إلى شيء من المال أو السلاح، حتى ولا رجال سوى شخصية الامير فيصل. وقد سر الامير فيصل لسماعه قولهم وأرصد مبلغاً كبيراً من المال لهذه الغاية، وقرر التوجه على الاثر الى الحجاز لاطلاع والده الشريف حسين على ما وقع له في سورية، لتوحيد المساعي، وتقرير مايجب عمله. ومن المؤسف أن أحداً من هؤلاء الضباط لم يلتحق بالثورة العربية عند نشوبها إلا من أخذ منهم من الاسر فيما بعد، أو من ترك صفوف الجيش العثماني ليلتحق بالانكليز. وقد أدى التحاق هؤلاء بالعدو إلى استحقار الترك للضباط العرب، وسحب الثقة والسلطة من أيديهم ووضعهم تحت المراقبة، مما أدى إلى النفور وفقدان الثقة بين العنصرين طيلة أيام الحرب العامة.

أما الثورة هذه التي طربنا لخبر نشوبها فلم تكن أخبارها تشجعني على الانضمام إليها لاسباب عدة: فقد علمت مع الاسف أن الاسطول الانكليزي هو الذي اسقط ثغر جدة بقنابله، كما أن قلعة الطائف قد سقطت أيضاً بمدافع انكليزية ارسلت الى الامير عبد الله، وان جنوداً انكليزية وافرنسية قد أنزلت في ثغور جدة ورابغ وينبع والوجه وغيرها من سواحل الحجاز، وان الاسطول الانكليزي هو الذي يحمي هذه السواحل. كما أن ثغر بور سودان كان القاعدة التي تمد الجيش الشريفي بالذخائر والاسلحة، وان هناك بعض ضباط من الانكليز والفرنسيين يقودون بعض الفصائل الفنية، وان الطائرات الانكليزية هي التي تستطلع مواقع الترك في المدينة وفي سواها من مدن الحجاز، وان ضباطاً آخرين من الانكليز يقومون بمهمة المستشارين العسكريين فيقدمون الاموال الطائلة ويبدون آرائهم في الخطط وفي توجيه القتال حسبما تتطلبه مصلحة الجيش الانكليزي المحارب في فلسطين، لا حسبما تتطلبه مصلحة العرب. فكانوا يحولون دون تحقيق هذه الاغراض،

ويقدمون للعرب من الاسلحة والعتاد ما لا يكاد يكفي لمعركة موضعية واحدة، فكانت دفة الجيش العربي وقيادته بأيديهم. فكنا كأننا نجابه جيشاً انكليزياً من المستعمرات لا يختلف عن وحدات الجيوش الانكليزية من اوسترالية وكندية ونيوزيلاندية وغيرها.

وصرت أسائل نفسي وأقارن بين انتصار الترك وانتصار الانكليز في هذه الحرب. وكان فيما قلته: « لنفرض أن الترك انتصروا على أعدائهم ألا يقضون على الاشراف في الاراضي المقدسة ويؤسسون لانفسهم فيها ادارة جديدة، مما يخرج هذه الاماكن نهائيا من أيدي العرب؟ ألا يكون انتقامهم من العرب فظيعاً؟ ».

وصرت من الجهة الثانية أحلل انتصار الانكليز على الترك، وهل يكون في مستطاع الجيش العربي في هذه الحالة الحيلولة دون مطامع الانكليز في العراق وفلسطين ودون مطامع الافرنسيين في سورية؟ وهل تغضب بريطانيا حليفتها الكبرى فرنسة من أجل هذه الشرذمة العربية؟ وهل يحسن بنا في مثل هذه الظروف أن نستسلم لوعود وعهود اضطرت بريطانيا إلى قطعها للشريف حسين تحت ظروف خاصة؟ وهي المعروفة بمكرها وخداعها وعدم مراعاتها أي عهد لا يلائم مصلحتها.

ولقد تحقق فيما بعد كل ما ذهبنا إليه في شكوكنا ومخاوفنا، ففي الوقت الذي كانت بريطانيا تعاهد فيه الشريف حسين على تحقيق الامبراطورية العربية كانت تعاهد الصهيونيين على انشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وتبرم مع الافرنسيين في الوقت عينه اتفاقية سايكس بيكو التي تخصها فيها بسورية. هذه المخاوف والاعتبارات جعلتني أرجح البقاء في صفوف الترك، وأعتقد أنه أهون شراً. وبالرغم من كرهي العظيم للاتراك كنت أبغض وأمقت الحركة الشريفية الانكليزية، وظللت على ذلك حتى سقوط دمشق.

وكنت أعتقد بانه لو أتيح للترك النصر لكان من السهل على العرب استرجاع شيء من حقوقهم، ولديهم ضباطهم وجنودهم المسلحون، كما أن فيهم رجالهم المفكرين الذين يمكن معهم تأمين غايتهم هذه التي اعتبر تحقيقها من الترك أسهل، مع مالدينا من الوسائل، من تحقيقها من أعدائنا الانكليز والفرنسيين، ونحن عُزّل لانملك

شيئاً من السلاح.

وبرغم الضعف الملموس في كفاية الجيوش التركية في الميادين كافة، كانت ثقتنا بالنصر عظيمة، وذلك لاعتقادنا بقوة جيوش المانيا الحليفة، فكانت المعارك التي جرت في أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ لا تزال تدل دلالة واضحة على قدرة الجيوش الالمانية في الدفاع والهجوم، كما أن مخترعات المانيا الحربية كان لها تأثير عظيم في صلابة معتقدنا بالظفر. ولم يكن لحوادث سقوط بغداد وانكسارات القفقاس، والانكسارات المتتالية أي وزن في نظرنا، اذ كانت الآمال تتطور تبعاً لحركات الجيش الالماني وحده.

* * *

تلقى فون لايزر امراً بالسفر إلى الاستانة بغية تأليف قوة مختلفة، وسوقها إلى جبهة بئر السبع بقيادته، ففرحت بهذا اعتقاداً مني بأنني سوف أرافقه في سفرته. ولكن سروري لم يطل اذ فاجأني أمر من القيادة العليا في بئر السبع بالسفر إلى بئر السبع للمحاكمة، ولم أكن أعلم موضوع المحاكمة، ولا سببها، ولكن تأثير حديث جمال باشا الاخير معي كان لا يزال له فعله في نفسي. وما كاد فون لايزر يطلع على الامر حتى غضب، واعتبر هذا التدبير اهانة له، لأنه كان يثق بي كل الثقة وكان قد عهد إليّ بمعظم أعماله، فكنت فيها لا أكلّ ولا أملّ.

وانجز فون لايزر أعماله واستعداداته للسفر وركبنا القطار معاً في اليوم المقرر لمحاكمتي. كان القطار الذي ركبناه مؤلفاً من شاحنة احتللناها، على حين أنها كانت معدّة لركوب أربعين جندياً، وكان وراءها شاحنات مدثرات بقنابل ذات عيار ضخم. سار بنا القطار مسرعاً تبعاً لأمر فون لايزر ولما بلغنا قبيل الظهر منتصف الطريق كان القطار يمر بنا في منعطفات خطرة لاتزال قيد التصليح، وكان العمال لم ينجزوا بعد املاء بعض جوانبها بالتراب، وكانوا قد تركوا على الخط بعض المركبات الصغيرة (الديكومتيل) بعد أن رفعوا الاعلام الحمر على مسافات بعيدة عن مكان التصليح. واذا بالسائق يجد نفسه بغتة أمام شارة الخطر، ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لاتقاء الكارثة. وكان فون لايزر آنئذ واقفاً يتطلع إلى الافق للاشراف على

ويقدمون للعرب من الاسلحة والعتاد ما لا يكاد يكفي لمعركة موضعية واحدة، فكانت دفة الجيش العربي وقيادته بأيديهم. فكنا كأننا نجابه جيشاً انكليزياً من المستعمرات لا يختلف عن وحدات الجيوش الانكليزية من اوسترالية وكندية ونيوزيلاندية وغيرها.

وصرت أسائل نفسي وأقارن بين انتصار الترك وانتصار الانكليز في هذه الحرب. وكان فيما قلته: « لنفرض أن الترك انتصروا على أعدائهم ألا يقضون على الاشراف في الاراضي المقدسة ويؤسسون لانفسهم فيها ادارة جديدة، مما يخرج هذه الاماكن نهائيا من أيدي العرب؟ ألا يكون انتقامهم من العرب فظيعاً ؟ ».

وصرت من الجهة الثانية أحلل انتصار الانكليز على الترك، وهل يكون في مستطاع الجيش العربي في هذه الحالة الحيلولة دون مطامع الانكليز في العراق وفلسطين ودون مطامع الافرنسيين في سورية؟ وهل تغضب بريطانيا حليفتها الكبرى فرنسة من أجل هذه الشرذمة العربية ؟ وهل يحسن بنا في مثل هذه الظروف أن نستسلم لوعود وعهود اضطرت بريطانيا إلى قطعها للشريف حسين تحت ظروف خاصة؟ وهي المعروفة بمكرها وخداعها وعدم مراعاتها أي عهد لا يلائم مصلحتها.

ولقد تحقق فيما بعد كل ما ذهبنا إليه في شكوكنا ومخاوفنا، ففي الوقت الذي كانت بريطانيا تعاهد فيه الشريف حسين على تحقيق الامبراطورية العربية كانت تعاهد الصهيونيين على انشاء وطن قومي لهم في فلسطين، وتبرم مع الافرنسيين في الوقت عينه اتفاقية سايكس بيكو التي تخصها فيها بسورية. هذه المخاوف والاعتبارات جعلتني أرجح البقاء في صفوف الترك، وأعتقد أنه أهون شراً. وبالرغم من كرهي العظيم للاتراك كنت أبغض وأمقت الحركة الشريفية الانكليزية، وظللت على ذلك حتى سقوط دمشق.

وكنت أعتقد بأنه لو أتيح للترك النصر لكان من السهل على العرب استرجاع شيء من حقوقهم، ولديهم ضباطهم وجنودهم المسلحون، كما أن فيهم رجالهم المفكرين الذين يمكن معهم تأمين غايتهم هذه التي اعتبر تحقيقها من الترك أسهل، مع مالدينا من الوسائل، من تحقيقها من أعدائنا الانكليز والفرنسيين، ونحن عُزّل لانملك

شيئاً من السلاح.

وبرغم الضعف الملموس في كفاية الجيوش التركية في الميادين كافة، كانت ثقتنا بالنصر عظيمة، وذلك لاعتقادنا بقوة جيوش المانيا الحليفة، فكانت المعارك التي جرت في أواخر عام ١٩١٦ وأوائل عام ١٩١٧ لا تزال تدل دلالة واضحة على قدرة الجيوش الالمانية في الدفاع والهجوم، كما أن مخترعات المانيا الحربية كان لها تأثير عظيم في صلابة معتقدنا بالظفر. ولم يكن لحوادث سقوط بغداد وانكسارات القفقاس، والانكسارات المتتالية أي وزن في نظرنا، اذ كانت الآمال تتطور تبعاً لحركات الجيش الالماني وحده.

* * *

تلقى فون لايزر امراً بالسفر إلى الاستانة بغية تأليف قوة مختلفة، وسوقها إلى جبهة بئر السبع بقيادته، ففرحت بهذا اعتقاداً مني بأنني سوف أرافقه في سفرته. ولكن سروري لم يطل اذ فاجأني أمر من القيادة العليا في بئر السبع بالسفر إلى بئر السبع للمحاكمة، ولم أكن أعلم موضوع المحاكمة، ولا سببها، ولكن تأثير حديث جمال باشا الاخير معي كان لا يزال له فعله في نفسي. وما كاد فون لايزر يطلع على الامر حتى غضب، واعتبر هذا التدبير اهانة له، لأنه كان يثق بي كل الثقة وكان قد عهد إليّ بمعظم أعماله، فكنت فيها لا أكلّ ولا أملّ.

وانجز فون لايزر أعماله واستعداداته للسفر وركبنا القطار معاً في اليوم المقرر لمحاكمتي. كان القطار الذي ركبناه مؤلفاً من شاحنة احتللناها، على حين أنها كانت معدّة لركوب أربعين جندياً، وكان وراءها شاحنات مدثرات بقنابل ذات عيار ضخم. سار بنا القطار مسرعاً تبعاً لأمر فون لايزر ولما بلغنا قبيل الظهر منتصف الطريق كان القطار يمر بنا في منعطفات خطرة لاتزال قيد التصليح، وكان العمال لم ينجزوا بعد املاء بعض جوانبها بالتراب، وكانوا قد تركوا على الخط بعض المركبات الصغيرة (الديكومتيل) بعد أن رفعوا الاعلام الحمر على مسافات بعيدة عن مكان التصليح. واذا بالسائق يجد نفسه بغتة أمام شارة الخطر، ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي لاتقاء الكارثة. وكان فون لايزر آنئذ واقفاً يتطلع إلى الافق للاشراف على

مناظر بئر السبع، فناداني، وما كدت اصل إليه، حتى رأيته يلقي بنفسه إلى خارج المركبة. كان القطار لا يزال في سرعته ولمجرد رؤيتي فون لايزر يلقي نفسه من القطار، وقبل أن أفكر في الموضوع، قفزت في الهواء. وسمعت على الاثر دوياً عظيماً، فخلت ان حادثاً سيقع، وان القنابل التي في القطار ستنفجر، وتجعلنا هباء منثورا. وكان ارتفاع سطح التسوية عن قاعدتها تسعة امتار. وما كدت اصل الارض حتى كانت القاطرة وشاحنتنا منقلبتين إلى الجهة المقابلة لجهة سقوطنا، وسمعنا ثمة انفجاراً ثانياً، وتعالى الدخان. ومن حسن حظنا أن شاحنتي القنابل ظلتا مستويتين على الخط.

لزمت مكاني برهة ملصقاً جسمي ووجهي بالتراب خوفاً من انفجار يقع، حتى اذا تأكدت من السلامة، قمت أتفقد فون لايزر فوجدته يشكو ألما في فخذه. ولم يكن الانفجار الذي سمعناه إلا صوت انقلاب القاطرة. أما مراسلي شهاب وسائر الضباط الالمان ومراسليهم فكانوا في داخل المركبة المنقلبة وقد أصيبوا بجروح ورضوض غير خطرة. وبعد ساعات من الحادث وصلت ترزينة في طريقها إلى مكان العمل فلما شاهد رجالها ما حل بنا، سجلوا الحادثة، ونقلونا عليها إلى بئر السبع. أما السائق وموظف القطار وكانا في القاطرة فقد قتلا لساعتهما.

وصلنا بئر السبع فذهبت تواً إلى قائد الموقع، وأخبرته بما حدث لنا في الطريق، فأوعز إليّ بمواجهته في اليوم التالي، حتى اذا جئته سألته عن أسباب محاكمتي فأجابني بأن الامر جد بسيط. فعدت إلى فون لايزر وأخبرته بما قاله لي قائد الموقع، فاطمأن، ثم طلب مني أن الحق به في القدس في اليوم التالي، لاضطراره إلى السفر إليها بقطار الليل للمعالجة. وجئت المحكمة في اليوم التالي واذا بدعوى مقامة عليّ أتهم فيها بعدم حمايتي للقانون العثماني من تعدي أحد الضباط الالمان، وأخذت قيد الحفظ فأوقفت إلى انعقاد جلسة المحاكمة. فتحقق لديّ عندئذ سوء نية الترك نحوي وصممت على الفرار مهما كلفني الأمر.

ومرّ ببئر السبع في اليوم التالي قطار يحمل أخشاباً وبعض اللوازم العسكرية في طريقه إلى القدس، فانسللت إلى داخله، وأخفيت نفسي بين الاخشاب. حتى اذا

وصل القطار القدس غادرته وذهبت لساعتي إلى المستشفى الالماني، حيث عدت فون لايزر، وأخبرته بما حدث لي، فغضب غضباً شديداً، وأخذ يطيّب خاطري. واني لا ازال أذكر قوله لي: «ان أمة تعامل خيرة ضباطها بمثل هذه المعاملة السيئة ليست جديرة بالحياة». ثم سألني أن لا أبرح المستشفى إلا في صحبته بعد ابلاله، حيث نذهب معاً إلى استنبول لعرض أمري على أنور وطلعت. وأيقن فون لايزر، كما أيقنت أنا نفسي، أن ثمة مؤامرة خبيثة قد دبرها جمال باشا للقضاء عليّ.

شفي فون لايزر بعد أيام، فخرجنا من المستشفى، وسافرنا إلى استنبول مع فريق من الضباط الألمان، وكنت معهم كواحد منهم. اجتزنا جبال طوروس وكان الفصل شتاء، ولم يكن نفق طوروس قد أنجز بعد، حتى اذا وصلنا استنبول نزلنا في فندق طوقتليان. ومن غريب المصادفات اننا لما دخلنا على أنور باشا وجدنا جمال باشا عنده، فبهتنا لهذه المصادفة، لعلمنا أن جمالاً كان لا يزال في سورية. ولم يخف جمال باشا تعجبه لوجودي هنا، فالتفت إليّ قائلاً: «وأنت هنا؟» فاضطربت لسؤاله، ولكنني تجلدت، وأجبته: «نعم، وقد أمرني فون لايزر بمرافقته لمساعدته في التشكيلات الجديدة». ولم يلبث فون لايزر أن انفجر مخاطباً أنور باشا بالالمانية التي يجيد التكلم بها كأحد أبنائها، وشاكياً له أعمال جمال باشا. وكان جمال باشا في أثناء ذلك لايستطيع اخفاء اضطرابه، وقد سألني أن أقابله في الساعة العاشرة من صباح الغد في نزل بيرا بالاس حيث كان مقره.

يمّمت شطر الفندق بصحبة فون لايزر، وكان على موعد مع جمال باشا. وقد أثار دهشتي ما لقيته من جمال باشا من حسن الوفادة، خلافا للمأمول، وأخذ يبيّن لنا التشكيلات الجديدة وما يقصد منها. ثم طلب من فون لايزر أن يقدم إليه تقريراً عن احتياجاتنا، وعما يراه من الاستعدادات الضرورية. غير أني لم أكن لانخدع بمظهر جمال باشا في مقابلتنا تلك، فأفضيت إلى فون لايزر بما يخامر نفسي من الشكوك، وما يحتمل أن يكنه جمال باشا لكلينا من نوايا سيئة، ربما قضى على التشكيلات الجديدة بسببها.

أخذنا في الاستعداد، وتعقّب ما نحتاج إليه في تشكيلاتنا الجديدة من

الدوائر المختلفة المليئة بالفوضى والمنهمكة في تأمين احتياجات الجبهات المختلفة . وكانت نتيجة مساعينا عدم تأمين حاجياتنا فضلاً عن حاجيات الجبهات الأخرى .

كانت وزارة الحربية أشبه شيء بسوق حراج لتركة عظيمة، كلٌّ يتسابق إلى الحصول على مايحتاج إليه منها، ويلتمس من يعينه على أمره . وكانت جبهة جناق قلعة في تلك الأيام أهم الجبهات شأناً وأكثرها خطراً، لأن موقف الجيش التركي كان يزداد فيها حراجة يوماً بعد يوم، وكان القتال قد بلغ الغاية، وكانت قوافل الجرحى من الضباط والجند تعادل قوافل النجدات الذاهبة إليها .

وتمكنّا بعد جهود جبارة من اكمال معظم احتياجاتنا، وسافرنا إلى حمص مركز تجمع وحداتنا . وبينما كنا نقوم بتنظيم أعمالنا، اذا بخطورة الموقف في جبهة غزة – بئر السبع تنجلي لنا عن حاجتنا الماسة إلى النجدات والمعدات . وأخذ جمال باشا الذي عاد إلى مقره في القدس يمطرنا ببرقياته طالباً سرعة انجاز الأعمال لنتمكن من الوصول إلى الجبهة في الوقت المحدد .

وكان فون لايزر قد عهد إليّ – على عادته – بمعظم أعمال الحملة وخص نفسه بالمخابرات واكمال النواقص، وترك لي أمر الاشراف على التدريب والادارة . وكانت سيطرتي وأنا ضابط عربي برتبة ملازم أول على قادة من الترك بينهم من هو برتبة مقدم وعقيد غير محتملة لديهم، لذلك كنت ألحّ على فون لايزر بإعفائي من بعض الشؤون التي لها علاقة مباشرة بهؤلاء الضباط، فلم يحفل برغبتي .

وفوجئنا صباح يوم ببرقية جمال باشا إلى فون لايزر يطلب منه فيها ارسالي إلى محكمة دمشق العسكرية، وشعرت بالمؤامرة المحاكة ضدي، ولفتُّ نظر فون لايزر إلى مخاوفي وخطورة المؤامرة . وبعد مخابرات برقية عقيمة مع جمال باشا، عزم فون لايزر على السفر بنفسه إلى القدس لحل المسألة، وأرسل على الأثر برقية إلى جمال باشا ينبئه فيها بأن غيابي يسبب توقفاً في أعمال الحملة برمتها، لذلك سيتوجه هو بنفسه إليه للاستيضاح والتفاهم .

دخل فون لايزر على جمال باشا في مقره في الطور، دون استئذان، وهو يجرني بيده، فبادر فون لايزر بالسؤال عن أسباب المحاكمة، فأجابه جمال باشا بأن

قواد الوحدات غير مرتاحين إلى وجودي بصحبة فون لايزر في ادارة الحملة، وهم يتهمونني بأخطر التهم، وانه حسماً للشكوك اراد أن يحيلني إلى المحاكمة . فقال فون لايزر لجمال باشا ان الوقت لا يتسع لسماع أمثال هذه التهم، وانه هو المسئول عن أعمالي وتصرفاتي، لذلك هو يرجو الغاء امر محاكمتي لنتمكن من متابعة أعمالنا . فأصر جمال باشا على المحاكمة، ولم يسع فون لايزر إلا أن التفت إليّ قائلاً : « أنا ذاهب الآن إلى استنبول لحل قضيتك مع أنور باشا نفسه، ولوضع حد لأمثال هذه المحاولات الشاذة »، وخرج مغلقاً الباب وراءه بشدة، وتركني وجهاً لوجه مع جمال باشا .

التفت جمال باشا إليّ والشرر يكاد يتطاير من عينيه وقال :« كان يجب عليك أن تحمي القانون العثماني » فأجبته بأنني لم أقصر قط في حمايته . ثم اشار إليّ بأن أنتظر تعليماته من جوبان زكي بك . وجاءني جوبان زكي بك بعد خروجي من لدنه قائلاً :« ان الباشا يأمرك بالسفر إلى دمشق برفقة أحد الضباط » . وكان جوبان زكي بك مدير شعبة المعاملات الذاتية وأشد أعداء الضباط العرب . يمّمت دمشق برفقة الضابط، فسار بي إلى آمر الموقع أشرف بك الذي كان صنيعة جمال باشا وأمينه الخاص، فناوله الضابط كتابا لم يكد يتم أشرف بك قراءته حتى التفت إليّ قائلاً :« موقوف » . وأمر من أخذ مني سيفي، وأطبق عليّ في سجن الضباط .

وطلبت في اليوم التالي إلى المحكمة العسكرية، فوجدت نفسي أمام تهمة فظيعة خلاصتها أنني متصل بالافرنسيين في ارواد، ولم أكن أعرف شيئا عن أرواد، هل هي جزيرة أم مدينة أم امرأة؟ دافعت عن نفسي ما أمكنني الدفاع لدفع التهمة، ودامت محاكمتي عشر ليال لأن جلساتها لم تكن تعقد إلا ليلاً على صورة سرية .

وقبل أن تلفظ المحكمة حكمها اذا بقائد الموقع يطلبني إليه ويقول لي :« لقد انتهى الامر ، وقد عينت في فرقتك السابقة في بئر السبع، وعليك أن تسافر اليها بقطار صباح اليوم التالي » . وتأكد لي أن نجاتي من السجن ومن المحاكمة كانت بتأثير فون لايزر، الذي مضى عليه حتى اليوم خمسة عشر يوماً في استنبول، وكان مسعاه هذا المعجزة الوحيدة لانقاذي من براثن جمال باشا .

اخرجت من السجن في صباح اليوم التالي، وأرفقت بأحد رجال الانضباط إلى محطة القدم للسفر منها إلى جبهة بئر السبع، واتخذت مكاناً في احدى عربات القطار المتجه إلى القدس، وكنت ساعتئذ لا أحمل درهما في جيبي ولا شيئاً من حاجياتي. وعنّت لي وأنا في القطار فكرة الاتصال بزوج الدكتور «يان» الضابط البيطري الالماني لاستطلع منها خبر فون لايزر، ولاسالها اعطائي بعض الحوائج. تريثت في مكاني من القطار، حتى اذا تحرك، انتصبت واقفاً، ثم انسللت منه إلى مركبة ثانية، ومنها إلى بابها، فنزلت منه قبل أن تشتد سرعة القطار، وتواريت عن الانظار بين المركبات المنتشرة على الخطوط في المحطة، ثم قفزت إلى عربة صادفتها فأقلتني إلى بيت السيدة الالمانية. وسألتها عما اذا كانت تعلم شيئاً عن فون لايزر؟ فأجابتني بأنه لا يزال في الآستانة، وان زوجها تلقى منه كتابا ينبئه فيه بأنه عائد إلى سورية قريباً ، ولن يسافر إلى ألمانيا.

وأخبرتني السيدة بأنها عازمة على السفر إلى القدس للحاق بزوجها الدكتور، وأخبرتها بأني أنا أيضاً عازم على السفر إليها، ثم اتفقنا على السفر سوية. وكانت السيدة لا تعلم من أمري شيئاً وسألتني الخروج في صحبتها للنزهة، ولم أر بدا من اجابة سؤالها، فركبنا عربة، واتخذ مراسلها مكانه بقرب السائق. فكان وجوده معنا خير ستار أتوارى وراءه عن أنظار المارة، وانطلت الحيلة على كل من رآنا، فكانوا يظنون أن الضابط الجالس بقرب السيدة الماني، وكان البعض يؤدي التحية لي. ومن سوء المصادفات أن مربنا رئيس أركان الجيش في دمشق آنئذ، سعيد سعدي بك وكاد يؤدي التحية للضابط الالماني الذي داخل العربة، وكانت دهشته عظيمة حينما اتضح له أن ذلك الضابط لم يكن سواي، وهو الذي أرسل خبراً للقيادة بسفري إلى بئر السبع. وشعرت بأن مصيبة ستحل بي من جديد ، فرجوت السيدة أن نذهب معاً إلى نادي الضباط الالمان، فوافقت على ذلك، وأمضينا فيه وقتا غير قصير. وأعددنا في الصباح ما نحتاج إليه من لوازم السفر، واتجهنا نحو المحطة في آخر لحظة من ميعاد سفر القطار. وصلنا القدس حيث أمضيت ليلتي، ثم تابعت سفري في اليوم التالي إلى مقر فرقتي في بئر السبع، وتقدمت ثانية إلى قائد فرقتي أسعد بك، وقد فرح بقدومي كثيراً، وأعادني إلى مركزي في الفرقة.

كانت حالة الجبهة عند قدومي سيئة للغاية : الجنود لا يكادون يملأون خنادقها، والاحتياط مفقود والارزاق والتجهيزات في نقص، والمعنويات في منتهى الضعف. على حين أن الحالة في الجبهة الانكليزية كانت على نقيض ذلك.

وأخذ النشاط الحربي يزداد يوماً فيوماً، حتى كان لا يمر يوم من دون حوادث، وتبين لنا من الاخبار التي تلقيناها من مختلف المصادر، أن الهجوم الانكليزي المنتظر بات قريباً. وكان القائد العام في الجبهة الانكليزية قد استبدل بالجنرال اللنبي، وذلك على أثر فشل القائد الأول في معركة غزة الثانية. وكانت أخبار نشاط الجنرال اللنبي واستعداده، والمعدات والنجدات التي أخذت ترد إليه استعداداً للمعركة المقابلة قد عمّت جبهتنا، وبتنا نعتقد بأنها ستكون الوقعة الحاسمة.

اصبحنا ذات يوم، فاذا بنا نرى ما يقارب الفرقتين من خيالة العدو تملأ سهول منطقة بئر السبع الجنوبية وحزونها، وأخذت مفارز الانكليز تستطلع جبهتنا المحكمة. وكانت مدافعنا الوسيلة الوحيدة التي نملكها لابعاد العدو عنا، ولكن الانكليز بالرغم منها تمكنوا من التقدم إلى مسافات قريبة منا. وما كادت مدفعيتنا تصب نيران مدافعها على المفارز المتقدمة حتى شاهدنا عدداً كبيراً من العدو يتساقط أمامنا، فظننا لأول وهلة أن هذه الشرذمة لم تكن سوى دورية صغيرة من العدو سقطت أمامنا. فالتفت القائد أسعد بك إلى الضباط الذين كانوا بقربه طالباً منهم متطوعاً لاستكشاف مفرزة الكشف الانكليزية هذه . فتردد الضباط، ولكني تقدمت من بينهم نحو أسعد بك، فطلب مني اصطحاب عدد من الجنود لتأدية هذه المهمة. وقال اننا سنكون جد يقظين لحمايتك بمدفعيتنا.

أخذت جنديين فقط، وانطلقنا على خط معوج نحو القمة التي سقط قتلى العدو فوقها، وما كدنا نتسلق القمة حتى انتصب جنديان من الخيالة الاسترالية وصوبا بندقيتيهما علينا. فلم أجد بدا من رفع يديّ اشارة الاستسلام وصحت بأعلى صوتي: « عرب، عرب»، فاطمأن الجنديان وظنا انني ضابط عربي فر من الجيش التركي ملتحقاً بهم، وكان مثل هذا الحادث مألوفا مع الأسف في ذلك الحين.

ولما بلغت القمة دهشت لرؤيتي كتيبة كاملة قد توارت وراء خيولها، وانطلق الجنديان أمامنا يبشران ضباطهم بالغنيمة، غير أني لم أمهلهما ورفيقي، فأدرنا أعنة خيولنا وانطلقنا منصبين من أعلى القمة إلى أسفلها. وكان رجال مدفعيتنا قد ظنوا اننا استسلمنا للعدو، فأخذوا باطلاق مدافعهم على القمة التي كنت ورفيقي فيها، لتودي بعدونا وبنا على السواء. وكان هذا القذف من حسن حظنا لأنه صدّ عنا حينا نيران العدو، وابتعدت عن الخطر بانسلالي في الوديان بصحبة رفيقيّ. وأخذت نيران عدونا تنصب بغزارة وسرعة وبارتباك، وظللنا في غارتنا هذه حتى وصلنا استحكاماتنا التي تبعد عن القمة التي يحتلها العدو زهاء ثلاثة كيلومترات.

وصلنا قمة الترصد التي تجمهر فيها ضباط الفرقة مع القائد أسعد بك، وما كدت أصل إليهم حتى علا الهتاف من كل صوب، ثم أخذت أحدثهم بما رأيت، وحددت لهم أماكن العدو. فسددت نيران مدفعيتنا على كمائن العدو التي عينتها، فأصابت الاهداف ومُني العدو بخسارة عظيمة. وشاهدنا على الأثر فلوله منهزمة في الوديان، وظلت بعض كتائبه في مراكز ترصدها، حتى اذا جن الليل انسحبت إلى معسكراتها.

كان الانكليز قد أتموا حشد قواتهم بقيادة الجنرال اللنبي، وكانت هذه القوات تفوق قواتنا بعَددها وعددها كما أسلفت، وكانت قد أتمت استعداداتها على ضوء اختبارات الهجومين السابقين على خط غزة – بئر السبع. ولم تمض أيام على استطلاعهم الاخير الذي قاموا به، حتى بدأ هجومهم المنتظر، الذي انخدعت قيادتنا بهدفه الحقيقي، اذ كانت تصرّ على أن الهجوم يكون على مدينة غزة كما حدث في الهجومين السابقين، وانه لن يجري امام بئر السبع سوى تظاهرة عسكرية فقط. وقد تظاهر الجنرال اللنبي بحشد قواته الكثيفة أمام غزة، وظهر الاسطول الانكليزي في الوقت عينه في بحر غزة، فانخدعت قيادتنا بذلك، واذا بالانكليز يقومون في صباح ٣١ تشرين الأول ١٩١٧ بهجومهم العنيف على تحكيمات بئر السبع بشدة لم يسبق لها مثيل. وما أن انتصف النهار حتى سقطت خنادقنا جميعها وهي ملأى بجثث الشهداء، واضطرت فرقتنا الى الانسحاب على الاثر الى التلال الواقعة شمالي بئر السبع. وأخذت الخيالة الانكليزية المجهزة بالمدفعية الخفيفة تحيط

بالتلال، وتهاجمها، واوشكت خيالة العدو أن تحول دون اتصال مقر قيادتنا في تلول خشم اليتير بقواتنا المحتلة للتلال الشمالية. فكان لا بد للقيادة من ارسال من يعتمد عليه في هذه اللحظة لايصال الاوامر الى هذه القوى المحاطة بالعدو. وكان النظام قد اختل، فلم أر بدا من أن اتقدم لانقاذ الموقف، طلبت من اسعد بك أن يأذن لي بالتقدم لانقاذ الموقف، فأبدى خوفه على مصيري. وانطلقت وحدي، وكانت ثمة مسابقة طريفة بيني وبين خيالة العدو، التي بذلت مابوسعها للقبض عليّ، غير اني وصلت الوحدة، ولكن تحت وابل من قنابل العدو ورشاشاته. وتمكنت من ابلاغ الاوامر الى قائدها، وطلبت منه ارسال مفارز من رجاله لاحتلال القمم الواقعة وراءه تأمينا لانسحابه، وعدت إلى مقر فرقتي الذي اخذ في التنقل والانسحاب شيئاً فشيئا. وكانت الخيالة الانكليزية من ورائي تطاردني، وكانت بعض طلقات من مسدساتهم تقع بالقرب مني، وامتلكني الخوف على فرسي من ان يصيبها ما يعيقها عن متابعة انطلاقها، فيقضى بذلك عليّ القضاء المبرم. وكان فريق من خيالة العدو تباريني في غارتي، وتفوّق أخيراً في هذه الحادثة الدم العربي الذي يجري في عروق فرسي العربية على الخيل الاوسترالية الضخمة. وصادفت مجرى سيل عريض عميق في أثناء غارتي، ولم يكن في مقدوري اتقاء الخطر بضبط فرسي المسرعة فضغطت عليها صارخاً بها لكي تقفز المجرى بسلامة، ففعلت، ولكنها وقعت على الطرف الآخر من المجرى، ووقعت من فوقها، فنهضت حتى اذا فحصت فرسي وجدتها بدون حراك. وقد يكون موتها قد نشأ عن عطل في احد أعضائها الرئيسية أو انفجار في أحد شرايينها. تركت الفرس مكانها، وأسرعت الخطى متسللاً في منعطفات الوادي، حيث تواريت بعد حين عن انظار العدو المطارد. وسمعت بعد حين طلقات، فتأكد عندي أن خيالة العدو وصلت حيث وقعت فرسي، حتى اذا وجدوها في حالة نزع قضوا عليها بطلق ناري فأردوها، ولم يقدم أحد من اللاحقين بي على عبور ذلك المجرى الخطر. وبقيت مختبئا في أحد الوديان حتى غروب الشمس، حيث اتجهت باحثاً عن مقر الفرقة الجديد الذي كنت أجهله، وظللت في بحثي هذا حتى قبيل الفجر، وما دلني عليه الا أصوات بعض الجنود المتصاعدة، فتقدمت نحوهم وتلقاني أسعد بك بفرح زائد. كان المقر قد تاه في

اثناء انسحابه من تلول خشم اليتير، فاقترحت على القائد اسعد بك أن نظل في أماكننا حتى انبثاق الفجر، حيث نتجه إلى هدفنا على بصيرة. وظللنا في مكاننا حتى الصباح، حيث تداركت فرساً آخر، وتابعنا بعد ذلك القتال والانسحاب.

سادت الجبهة التركية فوضى لا حد لها، على أثر المعارك العنيفة التي نشبت فيما بعد على طول الجبهة. ووقعت في بعض الاماكن ملاحم بالحراب ومجازر بشرية لا توصف، فقد الجيش التركي فيها نظامه، وأضاع وسائط نقله الضعيفة، ومعظم معداته وعتاده، ولاسيما عتاد المدافع، فتضاءلت قوته. وبرغم كل ما أصابه استطاعت شراذمه التي نجت من القتل أو الاسر أن تقاوم بشدة واستبسال، ثم تراجعت بعد صراع دام زهاء اسبوعين، ثم انشأت جبهة تركية جديدة. وبذلك طويت صفحة ثانية من أروع صفحات الحرب في جبهة فلسطين، وانتهت المعارك الدامية التي نشبت للاستيلاء على خط بئر السبع – غزة، ومعارك التراجع في مرتفعات جبل أبي حذف وجبال خشم اليتير التي كان الجنرال اللنبي يرمي من ورائها إلى تطويق جبهة بئر السبع – غزة والقضاء على الجيش التركي فيها، كيما تنفتح أمامه أبواب دمشق وحلب. وكان انهيار جبهة غزة انهياراً لركن عظيم من صرح الامبراطورية العثمانية، وقد اصبح لهذه الجبهة الحيوية أهمية كبرى في نظر ساسة بريطانيا.

على أن الجنرال اللنبي الذي تمكن من قهر الجيش التركي، قد فشل في الدور الثاني من هجومه الذي رمى من ورائه إلى الاستيلاء على جبال ابي حذف الخالية، والتدفق منها الى ما وراء الجيش التركي للقضاء عليه القضاء المبرم. ويرجع الفضل في فشله هذا الى التضحيات الكبرى التي قامت بها فرقة خيالتنا، والى وحدات المشاة التي الحقت بها، وقد تمكن الجيش التركي من الافلات بأجزاء كبيرة من أيدي القوى الانكليزية التي منيت بخسائر فادحة.

كان تراجع الجيش التركي على طول الخط، وكانت مقاومته في أثناء انسحابه ضئيلة في بعض الاماكن، ودامية عنيفة في أماكن اخرى. وكان يرمي من وراء تراجعه الى الاستقرار في خط تكون منطقة القدس من ضمنه، بينما كان

الانكليز يحاولون ابعاد الترك الى شمالي القدس. ولذا كانت منطقة القدس شمالاً وجنوباً مدار معارك دامية جداً، واستمرت المعارك التي كونت ذيول الهجوم على خط غزة – بئر السبع زهاء شهرين متتابعين.

وصلنا القدس والانكليز في أثرنا، وكانت قيادتنا العامة قد أعدت فيلقاً كاملاً للدفاع عن بيت المقدس، كما أن الانكليز حشدوا قوات عظيمة للاستيلاء عليها قبل حلول السنة الميلادية الجديدة. وتلقت فرقتنا أمراً بالاحتفاظ بجبهة رام الله، كما أن فرقا اخرى كانت على محاذاتنا غرباً. وما عتمت ان وصلت طلائع الجيش الانكليزي، واشتد النشاط في القتال المتحرك في أطراف القدس، ولاسيما حول قرية النبي صموئيل، التي كان موقعها الممتاز بمثابة مفتاح لجبهة القدس. وانتقلت هذه القرية من يد الى اخرى عدة مرات في خلال أيام قلائل ، ثم استقرت في أيدي الانكليز.

ووصلتنا أوامر القيادة بانقاذها من يد الانكليز مهما كلفنا الامر من تضحيات، بعد أن خصصت لها وحدات كثيرة من الافواج الالمانية التي كانت تحت أمرة الكولونيل فرانكتبرغ. وكان على فرقتنا أن تسند هجوم الالمان عليها، ولذا عينت ضابطا للارتباط بين القوى الالمانية المهاجمة وبين فرقتنا. وطلب الكولونيل فرانكتبرغ اليّ أن أعمل ما بوسعي لحمل أكبر عدد من البطاريات التركية المجاورة لنا على الاشتراك في هذا الهجوم المنتظر، والذي عينت الساعة الخامسة مساء موعداً له. وسألت الكولونيل السماح لي بالاشتراك في هذا الهجوم، عسى أن أفيده وذلك باستلامي السرية الالمانية المرتبطة بفرقتنا والاشتراك مع جناح قوتنا الايسر.

وبدأ هجومنا بقصف مؤثر، وما أن أتمت مدفعيتنا تمهيداتها حتى اندفعت المشاة بقوة تحت وابل من نيران العدو نحو الخط الانكليزي. وبعد قتال قصير دخلنا القرية، وطردنا الانكليز من أطرافها – ولكننا وقد أقبل المساء – لم نتمكن من اخراجهم منها بالمرة، فظل قسم من القرية في أيدينا والقسم الآخر في أيدي العدو. وكانت مواقع الخصمين متقاربة جداً، بحيث لا يحجز بينهما سوى خرائب القرية مما اضطرنا إلى عدم استعمال الاسلاك الشائكة.

وقدم الكولونيل فرانكتبرغ على الاثر تقريراً بنتيجة المعركة مقترحاً فيه على القيادة الانسحاب تحت جنح الليل، قبل أن يتم للانكليز اكمال نجداتهم، فيتعذر علينا حينئذ الانسحاب. غير انه تبين لي أن التقدم نحو الخط الانكليزي من ناحيتنا والاستيلاء عليه من الامور الممكنة، وأردت أن أجرب حظي هذه المرة بمغامرة، قد ترفع شأني أو تقضي عليّ. فانسللت من الخط ووجهتي مقر الكولونيل فرانكتبرغ. وبسطت له فكرتي في كيفية انقاذ الموقف، فلم يبال برأيي بادئ ذي بدء، وبعد الحاح اقتنع به ووافق عليه، فسألته أن يضم إلى السرية الالمانية الأولى سرية أخرى. ثم عقدت جلسة بحضور أمار السرايا والضباط، وشرحت فيها طريقة المباغتة المنوية وتفاصيلها، وحددت لهم الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ٦ كانون الأول ١٩١٧ موعداً للشروع في العمل.

ثم أوعزت إلى الجنود تخفيف أحمالهم والاكتفاء بالعتاد والقنابل اليدوية، حتى اذا حان الموعد، أوقظوا من نومهم وقدم لهم الشاي الممزوج بالروم، ثم أمرتهم بالتقدم بحذر شديد صوب منازل الانكليز تبعاً للخطة المرسومة. كان السكون مخيماً والهدوء شاملاً، ولما صرنا على بعد عدة أمتار من العدو قذفنا قنابلنا اليدوية فمزق دويها السكون، حتى اذا فرغ ما لدينا منها انقضضنا كالصواعق على الخطوط الانكليزية وارتفعت أصوات الالمان من كل جانب (هوراه) وصحت بدوري للمرة الأولى (هوراه). وأخذت الحراب تفعل فعلها في المجزرة، وما هي الا دقائق حتى انهزم من ظل حيا من الانكليز تاركا هذه الناحية من الجبهة الواقعة على جناح العدو الايمن، وأخذت بعد ذلك بنادقنا ورشاشاتنا الخفيفة تصلي العدو النار الحامية. فلم يكن منه إلا أن تراجع على طول الخط مخليا لنا قرية النبي صموئيل التي تقدم اليها جنود الكولونيل فرانكتبرغ على الأثر فاحتلوها.

وهكذا نجحت في تنفيذ خطة المغامرة، التي انقذت موقف الجنود الالمان من الخطر فيما لو ظلوا في القرية حتى الصباح، ونلت على هذه المغامرة وسام الصليب الحديدي الأول. وتلت ذلك عدة معارك في اليوم التالي كانت في منتهى الشدة، وذلك على أبواب القدس وفي جبهتنا. وأسفرت هذه المعارك عن استرداد الانكليز قرية النبي صموئيل للمرة الاخيرة في ٧ كانون الأول ١٩١٧، واستيلائهم على بيت

المقدس في ٨ كانون الأول ١٩١٧. دخل الجنرال اللنبي المدينة، فكان نصره أعظم نصر أحرزه الحلفاء في ذلك العام، كما أن سقوط بيت المقدس كان أعظم حادث سياسي وقع خلاله.

تلت سقوط بيت المقدس معارك دامية متتابعة، انسحب الجيش التركي في خلالها شمالاً حتى استقرت جبهته في خط السلط – نابلس – طولكرم – البحر المتوسط. وكانت المعارك السابقة قد انهكت قوى الفريقين، حتى اصبحا في حاجة ماسة الى الراحة والاستجمام، وإعادة التنظيم والاستعداد للأعمال العسكرية المقبلة. وشرعت المعدات والنجدات تردهما، كما انهما شرعا في تحصين مواقعهما، وحفر الخنادق، ووضع الاسلاك الشائكة، وغير ذلك مما يتطلبه الموقف.

* * *

كانت البلاد العربية التي لاتزال تحت سيطرة الترك تعاني أشد حالات البؤس والشقاء، وعلاوة على ما قام به جمال باشا من ارهاق وعسف وتقتيل وتشريد، كانت المجاعة المدبرة قد استحكمت حلقاتها في طبقات الامة العربية كافة، وكان أثر ذلك ظاهراً في لبنان ودمشق وأطراف الموصل أكثر منه في الاقطار الاخرى. ولقد ادت قسوة رجال الادارة والامن بالاهلين إلى اختفاء معظم الرجال في المدن والقرى والصحاري. ولعبت الرشوة دورها المخيف، حتى اصبحت أموال الناس عرضة للنهب، ولم يعد أحد يأمن على ما لديه من مال أو متاع، ولم تلبث أيدي الطغاة أن امتدت إلى هذه الاموال والامتعة.

وكان الموت يحلّ في كل بقعة من البلاد بشتى الوسائل، حتى اصبحت هذه البلاد العربية الزاهرة مقابر للأحياء، لا صوت يرتفع فيها ولا حركة. ولم يعد الناس يهتمون بأخبار الحرب أو بنتائجها، بل كان هم كل فرد منهم أن يحصل على قوت ساعته، فضلاً عن يومه، ولم يعد في استطاعة أحد معرفة مستودعات الاعاشة والارزاق التي تجيء اليها محصولات البلاد. ولم تكن الجبهة أحسن حالاً مما ورائها، بل كان الجوع مخيماً عليها بكاملها، فكان النقص في الملابس واللوازم والعتاد شاملاً، مما أدى إلى تكاثر حوادث الفرار من الجيش. ولم يعد لدى الترك من

القوة الاحتياطية ما يكفي لسد ثغرات الجبهة ، فضلاً عما يحتاجون إليه وراءها.
ومع هذا كله فقد ظلت الآمال معقودة على قوة الجيش الالماني، وانتعشت هذه الآمال بانهيار روسيا، وبفشل هجمات الحلفاء العظمى على المانيا.

وكنا على أثر انكسار روسيا على يقين من انتصار المانيا ، كما اننا املنا بورود نجدات قوية لجبهاتنا في فلسطين والعراق يتحسن على أثرها موقفنا وتمكننا من استرداد ما فقدناه من الاراضي . ولكننا لم نكد نسمع بسقوط روسيا في الحرب حتى اخذت الجيوش تتسابق على نهب القفقاس ومنابع البترول في باكو، مهملين بذلك أمر الجبهات المهددة بالسقوط . ولم يكتف المسؤولون بعد ارسال النجدات فحسب بل اخذوا في سحب قوات من الجبهتين العراقية والفلسطينية بغية التوغل في القفقاس، مما زاد الموقف حراجة وخطورة حتى سقطت الدولة العثمانية .

عينت منطقة برقين الواقعة جنوبي غربي مدينة نابلس مقراً لفرقتنا، وبدأت الاستعدادات واكمال النواقص في المعدات والجنود، ولكن ببطء شديد . وظل النقص ملازمنا في القوى الاحتياطية والعتاد والاعاشة والتجهيزات حتى نهاية الحرب العامة .

وبُدئ بانشاء الحصون في هذا الخط الجديد، وبتعبئة الرشاشات والمدافع فيه .
وبدأت أعمال الاستطلاع من جديد، وكانت حركات الانكليز ازاء منطقتنا غامضة للغاية، وبالرغم من وسائل الاستخبارات التي لدينا، والنشاط الذي أبداه الطيارون الالمان في أعمال الكشف لم تتمكن القيادة العامة من معرفة مايقوم به العدو من استعدادات في هذه الجبهة . وأخذ القائد ليمان فون ساندرس يلح على فرقتنا في وجوب ازالة الغموض، فتقدمت كعادتي إليه متطوعاً لازالة ذلك الغموض، وانتخبت بضعة نفر من الجنود وسرنا ليلاً نحو خط الانكليز الامامي حيث باغت مخافرهم بغية تنبيههم إلى هذه الناحية وتضليلهم عن النقطة البعيدة التي اخترتها للانسلال وراء خطهم . فنجحت فكرتي وتمكنت من الكمون على قمة مكسوة بالشجيرات والادغال، وظللت قابعا في مكمني حتى منتصف الليل حيث اترصد العدو بمنظار كنت استصحبته، فتثبت من مراكز العدو ومن قواه وكيفية توزيعها .

ثم قررت التوغل في الليلة التالية في منطقة العدو عينها، ولما خيم الظلام تقدمت نحو القوى الانكليزية متخللا صفوفها في وديان كنت كشفتها نهاراً . حتى اذا أصبح الصباح كنت متوسطا تلك القوى وقد صرفت نهاري بطوله في سفح تستَّرت بأدغاله مترصداً العدو ومراقباً ما يجريه حولي من أعمال التحصين وفتح الطرق وتثبيت مدفعيته الثقيلة والخفيفة، وغير ذلك مما كانت القيادة العامة تجهله وتتوق لمعرفته .

ولما أرخى الليل سدوله انسللت قافلا إلى المقر، بعد أن قطع القائد الامل من عودتي إليه، واعتقد ان الانكليز قد اسروني لطيشي وتهوّري في أعمالي الاستكشافية التي استغرقت ثلاث ليال ونهارين . وبعث القائد من فوره تقريراً بأعمال كشفي الى القيادة العامة، التي شكَّت في صدق ما احتواه التقرير من حقائق لم يتمكن من الاطلاع عليها حتى اشهر طياري الالمان في خلال استكشافاتهم .

ولم يلبث ليمان فون ساندرس، بعد اطلاعه على تلك المعلومات، أن جاء بنفسه ليستفسر عنها مني، فحدثته بما رأيت . ولما شعرت بالشك يخامره، طلبت منه أن يرفقني بمن يعتمد عليه من الضباط الالمان ليشاهد بأم عينه ما كنت رأيته واستكشفته، فقبل بمقترحي واوعز إلى ضابط الماني بمرافقتي . فرجوت ليمان فون ساندرس أن يضع الضابط تحت أمري، وأن يوصيه بان لا يعترضني في محاولاتي . وشاء الضابط استصحاب نفر من الجنود الالمان وعبثاً حاولت اقناعه بجنديين من جنودنا الترك مخافة أن تفضح كثرة الجنود أعمالنا، فأبى الضابط الا استصحاب بعض جنوده، واكتفيت أنا بجنديين من فرقتي لمرافقتي . سرنا جميعنا على النمط الذي سبق لي أن سرت عليه في أثناء محاولتي الأولى ، إنما بتغيير طرق المباغتة والانسلال، ولما أسفر الصبح كنا نشرف على معسكرات الانكليز، فخال الضابط اننا هالكون، ورفض المغامرة مكتفياً بما رأى . اخذت أشرح له ما جاء في تقريري، وأشير بيدي إلى ما يقع عليه نظرنا من تحصينات العدو ومراكز مدافعه، فأخذ يدوّن ملاحظاته ويرسم بعض المخططات . وأردنا العودة ، وعينت الطريق التي أخذت اتباعها، وأوضحت له أن الواجب يقضي علينا بالعودة منها قبل منتصف الليل حيث يكون العدو في طمأنينته . وبالرغم من التعليمات التي يحملها الضابط من وجوب

اطاعتي في كل ما أقوله وأصنعه رفض الانقياد الى مقترحاتي، مفضلاً المسير بعد منتصف الليل، ولكننا لم نتمكن من قطع المسافة الا بعد انبثاق الفجر، وتنبهت المخافر لوجودنا في منطقتها، فقذفتنا بنيران حامية. وما كدنا نبتعد قليلاً حتى بزغت الشمس، وأصبحنا معرّضين لنيران العدو من كل جانب فاضطررنا حينئذ الى الدفاع عن أنفسنا. كما أن فرقتنا وفرقة المشاة المجاورة لنا استيقظتا على اصوات نيران البنادق، وأخذتا بدورهما بتعزيز الخطوط الامامية بينما كنا نحن نتابع انسحابنا نحو مقر فرقتنا. ولم تلبث تلك المناوشة البسيطة ان تحولت الى معركة كبرى، وكان احتدام المعركة وتقدم وحدات من فرقتنا الى الامام سببا في انقاذنا من ذاك المأزق. ولم نتمكن من الوصول الى مقر فرقتنا حتى آخر النهار، حيث وجدنا ليمان فون ساندرس في انتظارنا، وسألني عن اسباب هذه المعركة غير المتوقعة فأخبرته بما حدث. ولم يسع ليمان فون ساندرس الا لوم الضابط الالماني على مخالفته أوامري، ثم سأله عما شاهده فأكد له كل ماجاء في تقريري فاستعظم ليمان فون ساندرس مغامرتي، وشكرني واعداً أياي بوسام النسر الاحمر. وأخذ اخواني الضباط على الاثر يعتقدون بحصانتي من الموت.

ومن غرائب المصادفات أن أحد الضباط الانكليز قام في أحد الأيام باستطلاع مماثل لاستطلاعي، وتمكن من التغلغل بين صفوفنا مستصحبا ما يقارب الاربعين جندياً وضابطاً مدفعياً، وكمنوا في أحد الوديان القريبة من مقرنا. وشاءت المصادفات أن أقترح على القائد اسعد بك في اليوم عينه أن يقوم بجولة تفتيشية في خطوطنا ونقاطنا الامامية، فلما وافق على مقترحي سرنا مع عشرة اشخاص، أربعة منهم مسلحون. وأطللنا في الساعة العاشرة على احد الوديان، فشاهدنا فريقاً من الانكليز جلوساً كأنهم في معسكراتهم وهم يأكلون البرتقال، فدهشوا ودهشنا لهذه المصادفة. ولما البث أن تقدمت إلى القائد اسعد بك راغباً منه ومن بقية الضباط سرعة الانتشار آمراً الجنود الاربعة المسلحين باللحاق بي وانطلقنا غائرين، وتقدمت من الانكليز وأنا أصيح بهم طالباً التسليم. وكنت لا أزال بعيداً عنهم، فاذا بي اراهم ينتصبون على أقدامهم، فيفرغون ما في بنادقهم من العتاد، ويرمون بها الى الارض رافعين أيديهم اشارة الى التسليم. ولما وصلت اليهم أمرتهم بالابتعاد

حالاً عن بنادقهم، ثم اوعزت اليهم بتسلق القمة وأنا من وراءهم حتى اذا وصلوها دهشوا لقلة عدد رجالنا العزل. وكان اسعد بك في أثناء غارتي على هؤلاء قد استنفر مركزاً من مراكزنا القريبة، واذا بفصائل منا بعد حين تتقدم نحونا مسرعة فأحاطت بالاسرى وقادتهم الى المقر، وأخذ المدفعي الاسير يصيح ويشتم اخوانه لوقوعه معهم في هذا الشرك وعلى تلك الصورة. وكان لهذا الفوز تأثير عميق في نفوس رجال فرقتنا والفرق الاخرى المجاورة.

ونظراً الى وعورة الارض انتقلت فرقتنا بعد أيام الى جهة اخرى عينت في منطقة غور بيسان لتقوم على حفظ الارتباط بين الجيشين السابع النازل في منطقة نابلس والرابع النازل في منطقة السلط. وكانت منطقتنا الجديدة منخفضة عن سطح البحر بما يقارب المائتي متر، وهي مليئة بالادغال والاحراج المهجورة التي تكثر فيها الحشرات السامة وتكاد حرارتها لا تطاق. كان على الضفة الغربية من الغور قمة تدعى بالمصلَّبة، وهي مشرفة على الجبهتين في آن واحد، وكان كل فريق من المتحاربين يرغب في احتلالها. فكانت القمة تنتقل من يد الى أخرى واستقرت أخيراً في يد الانكليز. وقررت قيادتنا الاستيلاء عليها، وخصصت لهذه المحاولة وحدات كبيرة ومن جملتها فرقتنا.

بدأ تعرضنا في صباح ١١ نيسان ١٩١٨ بمفاجاة، ولكنه لم يلبث أن فشل بتأثير نيران مدفعية العدو الهائلة ورشاشاته، وأخذت النجدات الاحتياطية تتوارد على الجبهتين، واحتدم القتال. وكانت أقصى نقطة وصلتها جنودنا السفح الشمالي من القمة ولكن القمة نفسها وسفحها الجنوبي ظلا بيد الانكليز، فارسل الينا آمر المقدمة يخبرنا باحتلال رجاله لها، وللتحقق من صحة الخبر طلبت من القائد أن يسمح لي بالاستطلاع بنفسي.

تقدمت نحو الخط الامامي فوجدت أننا لا نزال بعيدين عن القمة، وكان آمر القوات وراء خطنا الامامي، فرجعت إليه وبينت له حقيقة الوضع. وكان استغرابي شديداً حينما قال لي أن الجنود الذين يحتلون القمة هم جنودنا وأن العدو في السفح الجنوبي منها. ودفعني حب الاستطلاع إلى التحقق من الامر فتقدمت ولم

يكن بين جنودنا في الخط الامامي من يظن أن القمة بيد قواتنا، بل كانوا مجمعين على انها بيد العدو. فطلبت حالاً من الخط الامامي متطوعين لاحتلال القمة التي ملئت بأجسام شهدائنا، فتطوع عدد وافر من الجنود.

أوعزت الى هؤلاء المتطوعين بوضع الحراب في بنادقهم وبعدّ ما لديهم من القنابل اليدوية ففعلوا، وشرعنا بالزحف على بطوننا بحذر شديد. وكان الاتفاق قد تم بيننا على ان نزحف إلى أن يقذفنا العدو بناره فنقذفه حينئذ بقنابلنا ثم نتقدم إليه بحرابنا. وتقدمت في الطليعة إلى أن حاذينا خنادق العدو، فأطلق العدو الطلقة الأولى على جناحنا الأيمن، فكانت كأنها أصابت مستودعاً من الديناميت فانفجر، لأننا قذفنا دفعة واحدة ما بأيدينا من قنابل اليد، ثم وثبنا وثبة رجل واحد بالحراب، وأصواتنا تدوي في الفضاء: الله، الله! وما هي إلا لحظات حتى كانت حرابنا تعمل عملها في العدو الصامد لنا في خنادقه، وانهزم من سلم منه، وعقبناه نيراناً حامية. وتم استيلاؤنا على القمة من غير أن ننتظر أمراً من القيادة التي انما أوفدتنا للاستطلاع ولم يكن العدو يتوقع هجوماً جديداً منا.

غير أن الانكليز الذين أعدوا العدة لاكتساح جبهة فلسطين بكاملها، لم يغمض لهم جفن تلك الليلة، حتى اذا أصبح الصباح قاموا بهجوم عظيم تسنده قوات عظمى من المدفعية، وتمكنوا على أثره من استرجاع القمة من أيدينا، بعد أن ظللنا الليل بطوله ننتظر نجدة بلا جدوى. ثم أخذ النشاط يشتد تدريجيا في هذه المنطقة بعد حين، وتدفقت في صباح ٢٤-٤-١٩١٨ قوى الانكليز نحو جسر أريحا قاصدة السلط. ولم يكن أمام هذه القوى في بداية الامر ما يعادلها في العَدد والعدد من قوانا فتقدمت بسهولة حتى وصلت السلط. وتلقينا على الاثر أمراً بالتعرض لقوى الانكليز على جناحهم الأيسر، فتقدمت فرقتنا بدورها مع نجدات من المشاة قاطعين سهول العزر إلى أن وصلنا جبال السلط وطردنا ما صادفناه من قوات العدو، وظللنا في مسيرنا حتى ابواب السلط.

وكانت المسافة الطويلة ووعورة الجبال والمعارك التي خضناها ومسير الليل بطوله قد انهكت من قوى جنودنا. وانتشر قبيل الفجر ضباب كثيف غطى القمم

والوديان، فقررنا التريث وإراحة الجنود. وبينما كانت الوحدات تقوم بترتيباتها، اقترحت على القائد اسعد بك أن نقوم بجولة نتأكد معها من سير الترتيبات المقررة، فاصطحب القائد خمسة ضباط كنت احدهم ثم شرع يتنقل بنا في الوديان تارة وعلى الجبال تارة اخرى. وانقشع الضباب فجأة فرأينا جماعة من الجنود على احدى القمم وقوفاً يدخنون، فغضب القائد من وضعهم الذي ربما لفت أنظار العدو نحونا، فتقدم صوب هؤلاء الجنود صارخا بهم أن يتستروا، وما كان من هؤلاء إلا أن ارتموا إلى الارض مسددين رشاشاتهم وبنادقهم صوبنا. وما هي الا لحظات حتى أصيب القائد وثلاثة ضباط أنا احدهم ببعض الجروح، وكانت الارض من حسن حظنا مزروعة بالحنطة فتمكنا من التواري وراءها.

وكانت حقيقة ما حدث لنا أننا ضللنا الطريق، وقطعنا خطوطنا الامامية من غير أن نشعر، وكان الضباب السبب في ذلك، وكان علينا أن ننجو بأنفسنا خوف الوقوع في الاسر. وقد ارسلت وحداتنا على اثر اطلاق النار تستطلع سببه، حتى اذا علمت به وانتشر الخبر فيها وفي الوحدات الاخرى بأننا قد أصبنا بجروح، أسرعوا إلى نجدتنا. ونشبت على الاثر معركة حامية الوطيس شعر العدو عندها بأننا لم نكن دورية عادية خرجت للاستكشاف بل فريقاً من الضباط، فأخذوا بدورهم يصلون جبهتنا نيرانا حامية، وهكذا سببت جراحنا جراحاً كثيرة. وتمكنت وحداتنا بعد معركة دامية من اسكات نيران العدو وانقاذنا، ونقل أسعد بك إلى المستشفى، أما أنا فكان جرحي بسيطاً، وتمكنت بعد بضعة ايام من العودة الى اعمالي في الفرقة. وفشل تعرض العدو للسلط، فانسحب الى مواضعه متكبداً خسائر فادحة، وعادت الجبهة إلى سابق عهدها.

كانت حالة الجنود الانكليز جيدة، فإعاشتهم موفورة وتجهيزاتهم كاملة، وقواهم الاحتياطية التي يبدلون بها جنودهم في خطوط القتال لا تحصى، وكانت جنودهم الاحتياطية تلعب لعبة كرة القدم في كل مساء وذلك على مرأى منا. أما نحن فلم يكن لدينا من الاحتياط مايحل محل جنودنا في الجبهة، وكانت اعاشتنا على غاية من الرداءة والقلة، كما أن تجهيزاتنا كانت من النقص بمكان، وكانت جنودنا تصرف أوقاتها في حفر الخنادق والقتال.

وعنت لي يوما فكرة بعد أن شاهدت احتياط الانكليز يلعبون كرة قدمهم. فاقترحت على القائد ان يأذن لي بمدفعين ومفرزة صغيرة من الجنود، اتقدم بها ليلاً نحو العدو، حيث اكمل نهاري حتى اذا جاء المساء، وبدأ العدو في لعبة كرته، فاجأته بنيران المدفعين وأشتركت معه في لعبة كرة من نار وفولاذ. أعجبت الفكرة قائد فرقتنا، ولكنه تردد في بادئ الأمر، وأخذ يسرد لي ما يمكن أن نتعرض له من الاخطار والمسئوليات فيما اذا خسرنا ذينك المدفعين. فأقنعت القائد بنجاح محاولتي وفائدة مباغتتي، فوافق اخيراً. وسرت ليلاً بالمفرزة الصغيرة والمدفعين من غير أن أخبر أحداً بما أقصد، وتمكنًا من التقرب الى خطوط العدو الامامية بحذر شديد، فاخفينا المدفعين والبغال تحت الادغال وأعددنا ما يلزم من ترتيبات للدفاع.

ولما مالت الشمس إلى المغيب، شرع الانكليز في لعبتهم، ولم نر بدا من الاشتراك معهم بدورنا. وكان المدفعان مسددين أدق تسديد فأخذت القنابل تتساقط بين أرجلهم فتنفجر، وأصيبوا جميعا بذهول، وتشتت الجمع، فصوبت القذائف من جديد على الخيام وعلى الخيل، وكان منظراً رهيباً مضحكاً في آن واحد. ولم يكن استغراب قواتنا بهذه المباغتة بأقل من استغراب العدو وأخذنا نسرع في قذف القنابل التي لدينا حتى آخر طلقة، ثم اخذنا تحت ستار الليل ننسحب عائدين الى المقر دون أن نصاب بأذى. وكان لهذه المغامرة الفذة أثرها المرح في نفوس رجال المقر والضباط والجنود أيضاً، وأصبحوا يثقون بي وبآرائي وباعمالي.

وازداد نشاط الانكليز، وكانت تنقلاتهم تجري في كثير من الاحايين بين قطعاتهم خلال النهار، وكانوا يرمون من وراء ذلك تضليل القيادة العامة التركية عن الهدف الذي يسترونه. وحدثت مباغتة منهم ذات ليلة على فيلق عصمت باشا في جبهة نابلس مركز الجيش السابع، وكانت المباغتة هذه من حيث القوى المدفعية التي اشتركت فيها والاصابات التي وقعت وقسوة الهجوم أعظم ما عرف في الحروب حتى الآن. اذ لم يمض دقائق على اطلاق الانكليز مدافعهم حتى تمكنت مشاتهم من الاستيلاء على خنادق الترك، وتوغلوا في الخنادق، يقتلون ويأسرون، وفعلت المدفعية مفعولها. ولكن الجيش الانكليزي لم يلبث أن انسحب على الاثر من الخنادق، وكانت هذه المحاولة منه تظاهرة عسكرية لالفات نظر قيادتنا إلى قوة

مدفعيته في هذه الجبهة. وما كان من قيادتنا إلا أن جمعت قواتها المدفعية في هذه الجبهة، بينما كانت مدفعية العدو تنتقل بكاملها إلى الجبهة الجديدة التي عزموا الهجوم عليها في طولكرم.

وشعرت القيادة العامة الالمانية بالنفور المتزايد ما بين الجنود الترك والالمان بسبب عدم اشتراك هؤلاء في المعارك الاخيرة التي دارت رحاها في هذه المنطقة من الغور، والتي أصيب فيها الترك بخسائر فادحة للغاية دون اصابة أحد من الجند الالماني بسوء، اذ سبق للقيادة العامة بسبب رداءة المناخ في الغور أن ارسلت الوحدات الألمانية إلى السلط وقتئذ. ومن المصادفات أن يقوم الانكليز بهجوم جديد على السلط ١ مايس «ايار» ١٩١٨ عقب وصول القوات الألمانية هذه إليها، وقد أفرزوا في ذات الوقت قوات خاصة للحيلولة دون نجدة قواتنا الخيالة للجيش الرابع المرابط في السلط. وتلقينا الاوامر بسرعة التعرض للانكليز وطردهم للاتصال بقوات الجيش الرابع، فكانت معارك اليوم اشد المعارك هولاً، ولكن لم يكد النهار ينتصف حتى كنا انتصفنا من أعدائنا، وتمكنًا من صدهم وطردهم، وأضحت القوة التي تغلغلت حتى السلط على أثر طردنا لها في خطر من احاطتنا، فتراجعت بسرعة. وعندما كانت المعركة على وشك الانتهاء اذا بخبر يقول بأن احدى الكتائب الانكليزية دخلت احد الوديان القريبة منا، فبعثنا على الاثر دوريات عدة للاستطلاع فلم يعثروا لها على أثر. غير أنا شاهدنا غباراً يرتفع في احد الوديان، فأخذت للحال سريتين وانطلقت بهما وراء الغبار. وكانت دهشتي عظيمة لرؤيتي سيارات الصليب الاحمر ومفرزة كبيرة من الخيالة، خلتها خصصت لحماية المفرزة الصحية، فانطلقت إليها دون تردد، وأفرزت فصيلا للحال ليرقى احدى القمم حيث يبادر العدو بناره إلى أن نتوسطه بسيوفنا.

وما كاد العدو يرانا حتى انهزمت سياراته وهي لا تلوي على شيء، وحاولت مفرزة خيالة العدو المقاومة. ولكن لم يكن بد أمام مفاجأة نيران فصيلنا وهجومنا المباغت، من ان ينهزم قسم منهم ويقع القسم الآخر مع ضباطه وجرحاه أسرى في أيدينا.

ومن المصادفات أن وجدنا صناديق كثيرة من الويسكي والبيرة ومن الارزاق

أيضاً، وكان الحر شديداً والماء قليلاً، فما كان منا الا أن أطفأنا ظمأنا من البيرة ورخصت للجنود باطفاء ظمأهم، وسقنا الاسرى والخيل وما وجدناه من التجهيزات أمامنا، وكانت اناشيدنا تملأ الفضاء. ووصلنا المقر بُعيد الغروب، فألفيت القائد في قلق شديد لتغيبي عن المقر دون مبرر، وزاد حنقه عليّ عندما وجدني أترنح أمامه والجنود. ولكني لم ألبث أن أومأت إليه بيدي أن أنظر ما ورائي من الاسرى والغنائم فاذا به أمام عربة الجنود ومجموعة من الاسرى ، وغنائم الانكليز، فانقلب غضبه عليّ إلى فرح، وقال لي :« أن مشروبك اليوم حلال » . وكانت خسارة الانكليز اليوم من القتلى ٦٠٠ فارس و١١٠٠ مشاة و١٠٠٠ أسير.

كان الانقلاب الروسي هذه الآونة قد تم ، وأمضيت معاهدة برست ليتوفسك وخرجت الامبراطورية نهائياً من صفوف الحلفاء.

فأخذ الجيش الالماني ينقل فيالقه بسرعة من الجبهة الروسية إلى الجبهة الغربية، وكان الامل الوحيد الذي يخالج نفوس ضباط جيوش الائتلاف في الهجوم المقبل الذي سوف تقوم به المانيا بعد تحسين جيوشها. وكانت الجبهة الايطالية قد تحطمت وأضحت تعتبر خارج صف القتال، ولم يبق في الميدان سوى جيوش الجبهة الغربية. وكان القليل منا من يخامره شك في الانتصار النهائي على الحلفاء.

ولكن كثافة جيوش الحلفاء من جهة ، وينابيع الذخائر والتجهيزات والاحتياط التي لا ينضب معينها في ممتلكات بريطانيا وفرنسة وأمريكة، وقلة هذه جميعها في الجانب الالماني جعل نصيب الهجوم الاخير الاخفاق، بالرغم من البسالة والتضحية والقدرة الفنية التي أظهرها الالمان في أدوار هذا الهجوم. وتبدلت عقيدتنا بالنصر، وأصبح الاعتقاد بانكسار الالمان يرسخ في نفوسنا شيئاً فشيئا.

بدأ تراجع الجيش الالماني في الجبهة الغربية. ولم تكن حالة جبهة فلسطين على مايرام بالنسبة لما يملكه الانكليز من قوات ومعدات، ومع هذا فقد كانت قيادتنا العليا في استنبول تفرز من قواتنا في هذه الجبهة لترسلها الى ميدان القفقاس للنهب والسلب ليس إلا. فازدادت جبهتنا ضعفاً وجاء استسلام بلغاريا الذي فوجئنا به، بمثابة انهيار احدى دعائم بناء الائتلاف. واضطرت الحكومة العثمانية إلى سحب

قوات اخرى من جديد من ميدان فلسطين وارسالها لحماية استنبول ، وأمسى حديث الصلح والمهادنة على كل لسان.

وأخذت جيوش الحلفاء الذين لمسوا الضعف والانحلال في ميادين اعدائهم كافة يظهرون من جديد نشاطاً نادراً. وأضحت الجيوش في ميادين القتال كلها تنتظر الساعة الرهيبة، وخيم السكون على الجبهة حيناً، وكانت الحركات الجوية وحدها التي تخل بالسكوت المخيف .

وأصبحنا يوماً أمام مشهد مريع : ثلاث طائرات المانية محلقة في الفضاء مشتبكة مع ست طائرات انكليزية، واحتدم قتالها فوق مقر فرقتنا ولم تمض لحظات حتى سقطت أولى طائرات العدو ، فانطلقت مع شرذمة وراء الطائرة الساقطة. وما كدنا نصل إليها، ونلقي القبض على سائقها الضابط، حتى شاهدنا طائرة المانية تهوي والطائرات الانكليزية الخمس من ورائها تقذفها بوابل من رشاشاتها ذوات العتاد الفوسفوري. وما كادت تلامس الارض حتى قفز طائرها مبتعداً عن مرمى طائرات العدو، اذ كان مقصدهم احراق الطائرة الالمانية الساقطة بمن فيها. حتى اذا نفذ عتاد الطائرات الانكليزية انقلبت على أعقابها موليَّة شطر الجنوب. وعدنا بالاسير الانكليزي. ولشد ما كانت دهشتي عندما اقتربت من الطائرة الالمانية، إذ رأيت صديقي الملازم الالماني ، وهو مصاب في يده، فطلب مني أن أقوده إلى أول مركز للتلفون. وذكر لي ونحن في الطريق، خبر سقوط طائرة المانية اخرى بجوار أريحا صباحاً، فحلق هذا الرف المؤلف من الطائرات الثلاث للبحث عنها، فاذا بهم يتصادمون مع تسع طائرات للعدو، ودارت معركة جوية سقطت فيها ثلاث طائرات للعدو وراء الخطوط الانكليزية، وسقطت الرابعة ضمن حدودنا. وذكر لي أن قائد طائرته قد قتل وهما في الجو، فاضطر الى قيادتها بنفسه من وراء جثة صديقه، وانه قد أصيب بكسر في ذراعه الأيمن أثناء نزوله بالطائرة، وتمكن من قيادة الطائرة بيسراه، وأيصال الطائرة سالمة الى الارض.

واتصل الطائر هذا بآمر السرب الالماني في الرملة تلفونياً وأخبره بما وقع لهم، فأرسلوا للحال طائرة لتصلح العطل ولنقل القتيل. ومن المصادفات أن جاء فون لايزر

من مقره في السلط إلى مقر فرقتنا، وحان موعد الغداء فاجتمع على مائدتنا آمر الفرقة وبعض ضباط المقر وفون لايزر والاسير البريطاني وصديقي الطائر الالماني الجريح. وتدرج الحديث الى ذكر الموقف الحربي الحاضر، فأحببت أن أدلي برأيي، فقلت أن الانكليز تنقصهم حقاً الكفاءة، ولو كنت مكان الجنرال اللنبي وأملك ما يملك من القوى والمعدات، لقمت بحركة دمرت فيها الجيش التركي بكامله، وقضيت عليه وأنهيت الحرب مع تركية بسرعة . فتعالت أصوات الضحك من كل مكان، وشاء فون لايزر أن أسترسل في حديثي، فطلب مني توضيح فكرتي. فازداد الحماس بي ، فقلت آتوني بخارطة ، ثم شرعت في رسم بعض الخطوط عليها واصفا خطة الهجوم، معيناً أماكن التعرض وكيفية احاطة الوحدات الكبرى وقطع الطرق والاستيلاء على المراكز الهامة فيما وراء الجبهة. ثم بإنزال حملة إلى اسكندرونة تحت حماية الاسطول حيث يتعرض فيها الى حلب ويستولي عليها، وتقطع اتصال جيوش الشمال بجيش العراق، ثم بإثارة سورية الناقمة على الترك من خلفه. وكنت أدعم أقوالي بارشادات رسمتها على الخارطة التي لا أزال محتفظاً بها، فتعالى الضحك من جديد.

ومن غريب المصادفات أن يقوم الانكليز بعد أيام (١٩ أيلول ١٩١٨) بهجومهم العظيم الذي قضى به على الجيش التركي بخطة مماثلة كتلك التي رسمتها على الخارطة. واذا استثنينا تصور انزال الجنود في ثغر اسكندرونة، فان الخطة التي اتبعها اللنبي في هجومه إما أن تكون نسخة ثانية عن الخطة التي رسمتها على الخارطة بين ضحك ولهو أو تكون خطتي نسخة طبق الاصل عن خطة اللنبي. تحطمت الجبهة وتراجعت بعض الوحدات التي تمكنت من الافلات . ولأول مرة وُصمت بالجاسوسية لمطابقة خطتي الهزلية خطة اللنبي الحربية .

بدأ هجوم الانكليز الذي لم يسبق له مثيل في معارك فلسطين في الساعة الرابعة من صباح ١٩ ايلول ١٩١٨، وكانوا قد حشدوا في منطقة ضيقة ٣٨٥ مدفعاً. شرعت هذه الكتلة الفولاذية بقصف شديد استمر خمس عشرة دقيقة، دمر خلالها خنادق الجيش التركي وجنوده ومدفعيته وأسلاكه الشائكة. بينما كانت أسراب طائرات العدو تقصف بدورها مراكز الجيوش، وتمكنت بواسطته من قطع

مواصلاته وارتباط الجيوش ببعضها.

وتدفقت الخيالة الاوسترالية المعدّة لهذا الهجوم – والتي كانت كامنة على مقربة من الخطوط التركية – من الثغرة التي فتحتها المدفعية الانكليزية، وأغارت منها على مؤخرة الجيوش والمراكز الحساسة لنشر الفوضى وراء الجبهة. ولقد تمكن قسم من الخيالة من الوصول إلى الناصرة مقر القيادة العامة، ولم ينج القائد العام ليمان فون ساندرس إلا بأعجوبة تاركاً وراءه اوراقه وسجلاته. ولم ينقذ الموقف إلا بعض شراذم المانية كانت تخص المقر وسائقي السيارات الالمان، حيث استبسل الكل في الصمود وطرد الخيالة الاوسترالية والحيلولة دون استيلائهم على الناصرة. ولم يمض على هذا الهجوم اسبوع حتى كان أسر من الجيش التركي ٣٦٠ مدفعاً و٧٥ ألف جندي من مجموع مئة ألف. وظلت فرقتنا والجيش الرابع يومين بعد هذا الهجوم دون ورود أية تعليمات الينا، وعلى جهل بما حل في الجبهة .

وتلقت فرقتنا أمراً بالانسحاب مساء ٢٢ ايلول نحو الشمال باتجاه درعا باقصى سرعة ممكنة، لإشغال درعا، ولتأمين انسحاب الجيش الرابع، ولحماية نقطة مزيريب قبل وصول خيالة الانكليز. ولقد ارفقت القيادة بنا لواء من المشاة الخفيف. وكانت الاوامر التي تلقيناها صارمة وصريحة بوجوب تجنب أية معركة مع العدو أثناء انسحابنا، وأن نسير ليلاً ونكمن نهاراً كي نتمكن من انجاز مهمتنا الخطرة من جهة، ولإيهام الانكليز بأننا نجدة آتية من الشمال لا قوة مفرزة من الجبهة. وكان مسيرنا على الضفة الشرقية من الاردن، فكنا نكمن في اليوم التالي على محاذاة بيسان والى جنوبيها قليلاً. ولقد راعني ان أشاهد شرذمة تركية يبلغ عدد أفرادها السبعين مقاتلاً مشتبكة مع كتيبة انكليزية في معركة حامية الوطيس ، ولكن الشرذمة التركية تمكنت من التراجع الى الشرق حتى اصبح الاردن وراءها. واذا بحافز من نفسي يحملني على الاعتقاد بأن الشرذمة التركية لا بد وأن يكون فيها عدد من رجالات الجيش رأى الانكليز وجوب التضحية بجنوده لاسرهم، فاتصلت حالاً بآمر الفرقة طالباً منه التدخل للحيلولة دون أسر الانكليز للشرذمة. فرفض طلبي، قائلاً ان الاوامر جد صريحة بعدم التعرض إلى الانكليز واجتناب مقاتلتهم ، فقلت له: « اننا نجابه الآن موقفاً شاذاً لم يكن في حسبان القيادة ». فاستهزأ

بفكرتي، فأصررت ورغبت منه في اشراك أمراء الكتائب في الامر، حتى اذا عرضت رأيي عليهم أثنوا على مقترحي. وكانت المعركة لا تزال في شدتها وأضحت الشرذمة التركية داخل هلال يستند رأساه على نهر الاردن، ولم يبق أمامها موضع للدفاع. وكانت مدفعية الانكليز آنذاك في موضع مكشوف لتيقنها من عدم وجود مدفعية امامها، فلم أر بدا من المداخلة وأخذ المسئولية على عاتقي. ولما شعر آمر الفرقة بعزمي تركني بحجة تفتيش لواء المشاة النازل بالقرب منا.

دعوت آمر المدفعية رضا بك وكان هذا أفضل مدفعي في الجبهة التركية بكاملها، وكان من عادته اذا قصد القذف ان يحتسي كأساً من الخمر. وسدد بطاريته على العدو فأصلاه ناراً حامية، وما هي إلا دقائق حتى تحطمت بطارية العدو. وكنت أعددت سريتين لعبور النهر الى الضفة الغربية لتخليص الشرذمة المحصورة ، وأخذ قلبي يزداد في خفقانه لهذه المغامرة المجهولة العواقب، وخشيت معها أن أوصم حقاً بالجاسوسية .

عبرت الخيالة النهر وعادت بعد حين مستصحبة الشرذمة التركية، وإذا بأحد الضباط يسرع إليّ بأن الشرذمة تلك تضم هيئة قيادة الجيشين السابع والثامن، وان أبرز من فيها مصطفى كمال باشا وفون فالكن هوس ونصوحي البخاري وأمراء آخرين من الجيش. ولقد قص أحد ضباطنا على مصطفى كمال باشا حديث مغامرتنا وما وقع لي مع آمر الفرقة.

وصل مصطفى كمال باشا وصحبه إلينا، وتقدم هو بدوره شاكراً مقدّراً عملي، ومما قاله لي :« انك لم تخلص قواد الجيش العثماني فحسب بل أنقذت شرف الجيش، وان عملك هذا يجب أن يكون قدوة لضباطنا كافة ». وأصدر على الاثر أمراً تنص مادته الأولى على تقدير مغامرتي، وافتخار الجيش بي لاخذي مسئولية المغامرة على عاتقي في ظروف استثنائية كنا فيها منقطعين عن القيادة، وفي مادته الثانية اسناد قيادة الفرقة إليّ على أن تربط به رأساً، والمادة الثالثة وجوب متابعة سير الفرقة إلى درعا.

وبسبب وعورة الاراضي وعدم استطاعتنا استصحاب بطاريتنا في انسحابنا

السريع، عطلناها، وسرنا باتجاه اربد فدرعا. أما الوحدات التي تمكنت من الافلات أثر هجوم الانكليز الاخير فقد انسحبت شمالاً نحو دمشق، فاقدة لمعداتها ووسائط نقلها ومعنوياتها، وكانت الفوضى وحدها هي التي تسودها وتقودها. وكان فيلق عصمت باشا قد أفلت ممزقاً ووصل مزيريب. وظلت الخيالة الانكليزية تطارد فلول الترك ومن ورائها فرق المشاة، بينما كانت طائرات العدو تقوم بقسطها من المطاردة وتشتيت شمل الترك وتحطيم مراكز تموينه ومواصلاته.

* * *

خلال هذه الحوادث كانت الاخبار ترد الينا عن أعمال الجيش الشريفي ونشاطه في تخريب خطوط المواصلات. كما أن بعض مفارز منه وصلت جوار الازرق شمالاً، بغية الاتصال بجبل الدروز، اذ ينحدرون بعدها لاحتلال درعا وتخريب السكة الحديدية والطرق المؤدية الى دمشق بحيث يقطعون خط الرجعة على الترك.

وكانت الاخبار لا تفتأ تصف شجاعة الجندي العربي وبسالته، ذلك الجندي الذي تمكن ضباطه من تدريبه خلال مدة وجيزة ، وأثبت في مختلف المعارك التي خاض غمارها مع الاتراك ضد قوات متفوقة عليه بأنه أقدر من الجندي التركي، سواء في الدفاع أو في الهجوم. كما أنه أذكى منه، فباستطاعة الجندي العربي الاحاطة والعمل بما يتطلبه الموقف دون احتياجه الى قيادة تقوده، عكس الجندي التركي. وقد برزت هذه الحقيقة بأجلى مظاهرها في كل بقعة قاتل فيها العربي تحت قيادة منظمة أثير فيها شعوره العربي. ولم يعد بخافٍ على قواد الجيوش المتحاربة بأن الجيش العربي الصغير الحديث كان له أعظم الاثر في تحطيم الجبهة التركية، وكان وجوده في صفوف القتال من أهم عوامل النصر الذي أحرزه الجنرال اللنبي، اذ استطاع إشغال مايزيد عن الستين الفاً من جنود الترك وعزلهم عن مشاركة اخوانهم في جبهة فلسطين. ومزايا الجندي العربي التي انكشفت في هذه الحرب الطاحنة لم تستثمر لمصلحة الامة العربية. واذا شئنا أن نتساءل عمن استثمر هذه الدماء؟ وفي سبيل أي مصلحة أهرقت ؟ لم نجد جواباً إلا أنها أهرقت في سبيل انكلترا وحدها

التي عرفت كيف تستثمرها. ولو ان الترك أحسنوا سياسة العربي واستمالوه الى طرفهم بإعطائه حقوقه المشروعة، لأذاق الانكليز في هذه الارض المقدسة «فلسطين» من بأسه الامرّين، ولكان الدافع الذي حدا بالعربي الى الاستبسال ضد الانكليز خلاف الدافع الذي حثه لقتال الترك مطالباً اياهم بحقه.

وان من حسن حظ الانكليز ان يكون الجندي العربي بجانبهم في الحرب العامة بقدر ما كان من سوء حظ العربي نفسه، اذ ان الانكليز استثمروا وفاءه فاغتصبوا فيما بعد أوطانه. ولقد اتخذوا التدابير منذ بداية الثورة العربية لجعل العرب عند انتهاء الحرب في حالة ضعيفة، لا يستطيعون معها معاكسة تنفيذ مناهجهم الاستعماري في الجزيرة، ولا يكون لدى العرب من الاسلحة والعتاد ما يسمح لهم بمسّ الغنائم والاسلاب من الاقطار العربية، الا سلاح اللسان الذي لم يكن ليطعم صاحبه يوماً كسرة من الخبز. ولو أن زعماء الثورة العربية احتاطوا للامر منذ البداية، وحسبوا لخيانة انكلترة لهم حساباً، لتمكنت الثورة العربية من انقاذ البلاد العربية بأسرها، ولتمكنت ايضاً من مجابهة الانكليز بالسلاح اذا اقتضى الحال حين اقتسام الغنائم، مما يضطر معه الانكليز الى الرضوخ خشية وقوع حرب ثانية، فيذعنون عندها لمطالب العرب، ويوفون بعهودهم المقطوعة كما حدث للثورة الكمالية في الاناضول.

* * *

تابعنا مسيرنا حتى وصلنا درعا ليلاً واذا بنا نسمع دبيباً كدبيب حوافر الخيل على مقربة منا، فتفرقت خيالتنا ظانة أنه قد أحيط بها، وانها اصبحت في قبضة خيالة الجيش العربي الذي شاع خبر وجوده على مقربة من درعا. تمكنّا بعد جهد من اعادة النظام الى صفوفنا، واتجهت صوب الاصوات المرتفعة فاذا بي أجدني على مقربة من محطة درعا، والقطارات تقوم بمناوراتها، ووحدات الالمان التي كانت في السلط، وانسحبت على أثر انكسار الجبهة تحتل أركان المحطة. تقدمت صوب الجنود الالمان للتعرف الى أحوالهم، فاذا بهم فجأة يحيطون بي وينادون هذا جاسوس هذا جاسوس انكليزي، وعبثاً حاولت اقناعهم بأنني ضابط تركي، وكنت

كلما ذكرت لهم اسماً من اسماء قوادهم، أو طلبت منهم اخذي إليه للتعرف اليّ ازدادت شكوكهم بي، وكنت في كل لحظة معرضاً لطلقة من احدهم تودي بي، ومر بخاطري وجوب اللجوء الى الحيلة للنجاة من هذا المأزق. أخذت امهلهم في اطلاعهم على حقيقة أمري، وأقص بعض الحوادث وأنا أتحرى في ذات الوقت ثغرة في ظلمة الليل أثب منها إلى أحد القطارات التي أمامي، وسنحت لي الفرصة فوثبت الى احدى المركبات ثم نزلت من بابها المقابل وصعدت الى أخرى بجانبها، حيث اخفيت نفسي. فأخذت جموع الالمان تصيح وتركض يمنة ويسرة وهم يفتشون في القطارات، ولم يسعهم بعد اختفائي إلا الانفضاض كلٌّ إلى سبيله، حتى اذا ابتعدوا عني، خرجت من مكمني أتحرى جوادي الذي لم أجد له أثراً واتجهت صوب فرقتي.

وكان مصطفى كمال قد لحق عصمت باشا في مزيريب، وأرسل إليّ امراً بوجوب متابعة السير الى الكسوة حيث ننتظر أوامره الجديدة. وسرنا ونحن منهوكو القوى، وأخذ عدد أفراد الفرقة يتناقص شيئاً فشيئاً، حتى أضحى مجموعها لا يعادل مجموعة كتيبة واحدة. وكانت الخيالة الاوسترالية تتقدم من ورائنا بسرعة.

وصلنا إلى جوار قرية طفس من قرى حوران الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، فالفينا بعض نساء القرية يحملن ماء على رؤوسهن، فتقدمنا نحوهن لارواء عطشنا، وأرسلنا الخيل الى الآبار في القرية لسقيها، ولم نلبث أن سمعنا طلقات وفاجأتنا رشاشات من القرية، ثبت لنا معها أن فيها قوة نظامية من العدو. ولم يكن لدينا متسع من الوقت لتحري مراكز العدو، فأمرت انزال ما نحمل من رشاشات وكانت تحت امرة المرحوم أمين مطر الطرابلسي (الذي استشهد فيما بعد في حروب الطائف ضد الوهابيين) وقذف القرية. وأرسلت على الاثر سريتين صغيرتين مجهزتين بالبنادق والقنابل اليدوية صوب القرية، وجهزنا سريتين أخريين للاحاطة والقضاء على من فيها بالسلاح الابيض. ولم يمض ثلث ساعة حتى كانت جنودنا محتلة القرية تقذف كل ما صادفته في طريقها. وشاهدنا على الاثر رتلاً كبيراً من العدو منهزماً الى ما وراء القرية، فاطلقنا وراءه سريتين من الخيالة، لحقتا به، وأوقعتا فيه قتلا وجرحا. وأنه لمن المؤسف حقاً ان يكون مع الرتل المنهزم كثير من نساء القرية

وشيوخها أصيب منهم عدد كبير. واني خوفاً من لحاق الخيالة الاوسترالية بنا، جمعت القوة من جديد، وأسرعنا الخطى نحو الكسوة. ولقد علمنا فيما بعد أن مفرزة من الجيش الشريفي كانت احتلت القرية يصحبها الكابتن الافرنسي بيزاني آمر البطارية الذي لم يتمكن من نصب مدافعه في الوقت المناسب لقذفنا، فآثر الانسحاب قبل المفرزة الشريفية. وصلنا الكسوة صباح ٣٠ ايلول ١٩١٨، فعلمت ان الترك انشأوا خطا للدفاع عن دمشق، وانه رضا باشا الركابي عيّن لقيادة هذه الجبهة الجديدة. ووصلني أمر من القيادة العامة في دمشق بوجوب الاسراع اليها لتلقي التعليمات الخاصة بالدفاع عنها. وكان جمال باشا ومصطفى كمال باشا وبعض القواد الالمان قد اتخذوا من اوتيل فيكتوريا مقراً. اخذت اتجول في البلدة، التي قطعت سنوات الحرب كل صلة بيني وبينها، وشعرت بحالتها النفسية غير الطبيعية، الناس في قلق والشوارع تعج بالجنود الذين لا يعرف احدهم شيئا عن وحدته ولا عن مصيره، والفوضى سائدة في كل مكان.

وعزمت تمضية للوقت أن أذهب الى الحمام، وفيما أنا في الحمام، الذي لم يكن ليحتله تلك الساعة سواي، سمعت دوياً تبعته طلقات، فأسرعت الى المرجة وشاهدت أناساً يركضون يمنة ويسرة والاسواق مقفلة يسودها سكون رهيب، فاتجهت صوب الفندق فلم أجد أحداً من القادة فيه. وكان كل من صادفته من الضباط قد ارتدى ملابسه الملكية، والكل يلح عليّ بوجوب ابدال ثوبي العسكري لأن الخيالة الانكليز قد احتلوا الربوة، والجيش العربي قد دخل دمشق (١ تشرين الأول ١٩١٨) . وكانت الجنود آنئذ تتجه نحو محطة القدم، فتحتل القاطرات والشاحنات من الداخل ومن الخارج حتى أصبح منظرها كقشور البطيخ في صحراء حارة يغطيها الذباب. وشاهدت بعد هنية رجال الشرطة الترك تسير بانتظام نحو ساحة المرجة، حيث تجمهر الناس حول عربة يرفرف فوقها علم غريب عنا، ورجال فيها يخطبون في الجماهير ويعلو الهتاف حينا فحينا. ولقد علمت فيما بعد أن العلم المرتفع كان العلم العربي، والخطباء رجال من الجيش الشريفي ومن أشراف دمشق يبشرون الناس بتقدم الجيش الشريفي صوب دمشق.

وصعب عليّ أن أفعل ما فعله الضباط الترك أثر انسحابهم من دمشق من

تبديل ثوبي العسكري بملكي، فاتجهت قبيل الغروب صوب الربوة بغية الالتحاق بفلول الجيش المنسحب، ولم يكن معي وقتئذ سوى آلة تصوير كان ليمان فون ساندرس أهداني اياها فآثرت الاحتفاظ بها. ووصلت مدخل الربوة مع الغروب، وما كدت أخطو بضع خطوات في احد منعطفات الربوة، حتى لمحت حارسا يسير يمنة ويسرة، وألفيته بعد لحظات مصوباً بندقيته نحو صدري وهو يصيح توركو توركو، ويردد معها بضع كلمات لم أفقهها، وما كان مني إلا أن رفعت يدي وأنا أتقدم نحوه مرددا كلمات مسلمان توركو وأنا ألوّح له بآلة التصوير.

وسرت نحوه متمهلاً متظاهراً بالخور، وأنا أتلمس من طرف خفي مخرجاً من مأزقي ذاك، وكان نهر بردى يجري عن يساري، وأشجار الحور والادغال تستر ضفتيه . فعزمت على المغامرة وتجربة حظي هذه المرة، مستعظماً استسلامي في آخر لحظة من لحظات حرب دامت سنين أربعاً، خرجت من كل مغامراتي فيها سالماً موفقاً. تقدمت نحو الحارس شيئاً فشيئا، وما كدت اصل اليه وألقاه مطمئنا إلى استسلامي، حتى قفزت الى الماء، مستتراً بعد بالادغال، حيث خرجت بعد هنيهة الى الضفة الاخرى متنقلا بين أدغالها الكثيفة. وكان الليل قد اشتدت حلكته وقتئذ، فلم يتمكن الحارس من رؤيتي أو اللحاق بي ، لكنه شرع في قذفي بنيران بندقيته دون جدوى. وفيما أنا في تنقلي وتستري، اذا بي فجأة أرى بضعة من خيل العدو مربوطة تاكل علفها، فاصغيت باحتراس لأتعرف مكان فرسانها، حتى اذا اطمأننت لبعدهم عني عزمت على سرقة أحدها. وامتطيت جواداً كان معلقاً الى سرجه سيف وجراب بندقية. واتجهت صوب الطريق العام، وانطلقت غرباً، وبعد قليل اعترضت نقطة انكليزية سبيلي، وكانت رابضة على رابية مسيطرة على الطريق. فأطلقوا نيرانهم عليّ، وما كان مني الا أن قفزت عن صهوة الجواد، ولفتّ ثمة رأس الجواد شرقاً ، ورفسته برجلي، فأسرع في هربه. وأخذت نيران العدو تنصب على اصوات خطوات الجواد الهارب، وتسللت حالاً في الوديان المحاذية للطريق العام، وخرجت بعد حين من النطاق، حيث ظللت سائراً في ظلمة الليل حتى انبثاق الفجر. فالفيت نفسي على مقربة من قرية مجدل عنجر ، ورأيت بعد حين جموعاً متكاثفة من فلول الجيش التركي، قد أوقفها أحد الضباط الالمان في

مضيق مجدل عنجر يبغي من وراء ذلك منعها عن متابعة المسير، اذ سدد الالمان بطارياتهم صوب العدو لصده عن التقدم نحو هذا المضيق. ولم يسعني عند رؤيتي هذه الجموع، وشعوري بالخطر المحدق بهم إلا أن أتقدم نحو الضابط الالماني فأحدثه بما رأيته وقرب لحاق خيالة العدو بنا، وألححت عليه بوجوب فتح الطريق لهؤلاء مخافة أن يحل بهم سوء ، فيكونوا ضحية محاولتهم غير المجدية، وأبى الضابط الرضوخ الى رغبتي، قائلاً بانه ينفذ أمراً قد تلقاه. وما كدت أخرج من المضيق حتى شاهدت سبع عشرة طائرة للعدو تحوم فوق الجموع وأخذت على الاثر تمطرها بوابل من قنابلها، فمزقتها شر ممزق، وأصبح منظر المضيق من أروع المناظر وآلمها. ووصلت بعض الفلول التي نجت من ويل الطائرات حيث كنت في كرم عنب، وبدأت الطائرات بالقاء نيران رشاشاتها على من سلم من الفلول، وأضحيت تسمع بعد انسحاب الطائرات انين الجرحى من كل مكان . أما من بقي حيا فقد تسلل إلى رياق.

وبعد مسيري ليلاً ونهاراً بطولهما وصلت رياق، فتألمت كثيراً مما شاهدت : مستودعات الجيش التركي التي تحاكي الجبال بعظمتها، أضحت لقمة سائغة لاهالي القرى، الذين اخذوا في نهبها، وهم أشبه بجماعات النحل تغدو وتروح حاملة العتاد والاسلحة الى بيوتها. واتخذت لنفسي مقعداً فوق صندوق من صناديق الشمبانيا، وشرعت استعرض حوادث الحرب التي مرت عليّ، وأتخيل أحوال الامبراطورية العثمانية المتهدم. كما أن العرب الذين تحملوا النكبات وأنواع المظالم منذ ستمائة سنة حتى الساعة أضحوا يئنون تحت أنقاض هذا البناء المتداعي . فأخذت أسائل نفسي ماذا عسى يكون مصير العرب؟ وماذا عساها بريطانيا العظمى فاعلة بالوعود التي قطعتها لهم ؟ وهل الامة العربية بانقيادها الى بريطانيا تكون قد انتقلت من دور مظلم إلى دور أظلم أم على العكس؟ أمام هذه التصورات والتساؤلات وجدت يدي تمتد الى داخل الصندوق الجالس عليه، فأخرج منه زجاجة من الشمبانيا المعتقة فاضرب رأسها بأخرى ثم أحتسي ما فيها دفعة واحدة، طارداً ما علق بنفسي من الاوهام والتصورات. وكان لحق بي تعب شديد وما لبثت أن وجدت نفسي بعد حين أتمتم فأنشد وأغني، ثم انتصب واقفاً وأتابع المسير نحو

الشمال، حيث تنقلت تارة بالقطار وطوراً على ظهور الخيل حتى وصلت مدينة حمص.

وكانت فلول الجيش متجمعة فيها، كما أن مصطفى كمال باشا كان متمركزاً في المحطة، يصدر أوامره مانعاً خروج أي كان من النطاق الذي ضربه حول المدينة، قاصداً بذلك اعادة تنظيم فلول الجيش. ولقد جئته وكان التأثر والاضطراب ظاهرين على وجهه وفي حركاته، وبعد حديث قال لي :« لقد انتهى الامر وأضحت مقدراتنا بيد أعدائنا، فعلى كل منا أن يعمل ما يستطيع لانقاذ ما يمكن انقاذه. واني أتمنى للعرب كيانا حراً يعيشون في ظله في دور جديد، واذا سمعت يوماً بحوادث تجري في الاناضول، ولم يكن لديك واجب تقوم به في بلادك فأت إلينا. » ولم يستطع مصطفى كمال تحقيق ما رمى إليه من تجميع القوى في حمص وتنظيمها من جديد ، بسبب تقدم الخيالة الانكليز، وتحليق طائراتهم فوقها. واضطرت الفلول الى الانسحاب شمالاً وأخذ كل فرد يتجه نحو بلده، فاستأذنت مصطفى كمال بالسفر الى بلدتي طرابلس الشام فأذن لي .

ووصلت طرابلس في اليوم الذي سقطت فيه مدينة حمص بيد العرب والانكليز ١٦ تشرين الأول ١٩١٨. وتابع الجيش العربي وخيالة الانكليز مسيرهم حتى وصلوا حلب واحتلوها في ٢٦ تشرين الأول، ثم تابعوا مسيرهم شمالاً نحو طوروس حيث عقدت الهدنة بعد وصولهم اليها.

في دمشق ١٩١٨-١٩٢٠:

خرجت البلاد العربية من الحرب العامة وهي لاتملك مرفقا من مرافق الحياة، فلا جيش ولا معهد ولا مصنع أو مؤسسة يستند عليها كيان البلاد. وكانت الامة العربية مقطعة الاوصال يرزح بعض اقطارها تحت الحكم الاجنبي ما بين مستعمرة ومتملكة ووصاية وانتداب، والجهل عام في انحائها يسيطر على أكثر من نصفها روح البداوة وتقاليدها. فالاتراك الذين استلموا معها مقدرات العرب الذين كان مستواهم الثقافي يفوق مستوى الاتراك بدرجات، أساؤوا التصرف في سياسة البلاد وإدارة شئونها، وأمعنوا في ظلم الشعوب العربية وإرهاقهم ، وقتلوا فيهم روح القومية، وطمسوا على مؤسساتهم ومعاهدهم العلمية شيئاً فشيئا، حتى أسلموا البلاد العربية قطعة قطعة إلى الاجانب، وزجوا البلاد العربية الباقية تحت حكمهم، فعمت الجهالة بلادهم وجردوهم من مادة العلم. حتى اذا خرج الترك من الحرب العامة لم يبق للعرب بقعة مستقلة سوى الحجاز الذي قاتل الترك، واليمن التي لم ينقطع سيل الدماء منها زهاء ستة قرون، ونجد التي صمدت للغزوات المتتالية. أما الترك أنفسهم فقد احتفظوا بتراث الامبراطورية العثمانية من معاهد ومؤسسات وجامعات وجيش ومصانع ومعامل وكل ينابيع الدولة، حيث استطاع مصطفى كمال على هذه الانقاض أن يبني كيان جمهوريته الحديثة.

وصلت بلدتي طرابلس الشام في ١٦ تشرين الأول ١٩١٨، وكانت الحكومة التركية والجيش قد غادراها، ولم تكن جيوش الحلفاء دخلتها بعد، وقد تشكلت فيها ادارة وطنية لحفظ الامن والكل يتطلع الى مستقبل مجهول. وقضيت فيها بضعة أيام ، ولم يبق من ذكريات الحرب العامة ومعاركها وويلاتها ومجازفاتها إلا

صور اخذت في التباعد عن مخيلتي شيئاً فشيئا.

ودعيت ذات ليلة الى حفلة سمر وطرب أقامها فريق من شباب البلدة ، وبينما كنت مسترسلا في أفكار غريبة ومستسلماً الى تخيلات غير اعتيادية عن حالتي المخالفة للحياة الحربية التي تعودتها، اذا بي اسمع ضوضاء تتبعها اصوات أبواق السيارات فهرعت الى الشرفة لأتبينها، فاذا برتل من السيارات الانكليزية المصفحة الملأى بالجنود تنساب نحو ميدان التل، فتتجمع فيه، وأعقبتها الخيالة الانكليز ولم يكن قد انقطع سيل الدماء الذي جرى بيننا طيلة سنوات الحرب الاربع. ولقد كان لهذا المشهد أعظم وقع في نفسي، شبيبة البلاد تطرب وتلهو والعدو بجيوشه ومعداته في بلدي، فما يكون المصير ياترى ؟ ومنذا الذي يستطيع حماية بلادي من طمع هؤلاء الفاتحين ؟

احتلت جيوش بريطانيا البلاد بأسرها، وتقلص ظل الراية العثمانية، تلك الراية التي خفقت على البلاد طيلة قرون امتزجت العناصر الاسلامية فيها، في وقت من الاوقات، امتزاجاً تاماً أضحت معه كأنها شعب واحد. غير أن الاهواء والدسائس والنزعات ما عتمت أن لعبت دورها الرهيب، فاذا بهذا الكيان العثماني الاسلامي شعوب متنافرة متباغضة متعادية. وفعلت الحرب فعلها فيهم ، وأقام يوم الهدنة بينهم سداً حجز مابين شعب وشعب تمهيداً لافتراسها شعباً بعد شعب.

ولم يكن في الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها أية قوة تتجه آمالنا اليها، سوى قوة الجيش العربي الفتي المرتبط حينذاك بقيادة الجنرال اللنبي، وكان هذا الجيش وموقفه من البلاد أضعف من أن يتحمل عبء آمال العرب فيه. ولكن لا حياة بلا أمل ، فاتجهت آمالنا بعد وقوع الكارثة الى الحسين وبنيه، وأصبح لزاماً على كل عربي أن يضحي بكل ما لديه لمساندة هذه القوة العربية وتغذيتها.

* * *

واصل الجيش البريطاني سيره شمالاً فاحتل مدينة حلب في ٢٦ تشرين الأول ١٩١٨ واتجه على الاثر الامير فيصل اليها على رأس قوة، ثم عاد منها بعد أيام الى مدينة طرابلس في طريقه الى دمشق، وكان في استقباله عند وصوله طرابلس سرية

من الجند الانكليزي. وحلّ ضيفاً على سماحة مفتي طرابلس السيد عبد الحميد كرامي، وتوافد أعيان البلدة للسلام عليه، ولم أكن بين الوافدين. وجاءني رسول من لدن الأمير بعد ساعات يطلب مني مواجهته فذهبت اليه بصحبة صديقين وكنا نحن الثلاثة ممن آثروا البقاء على الولاء للجيش التركي حتى نهاية الحرب.

دخلنا حيث يجلس الامير فيصل، فحييناه بالتحية العسكرية فردها بأحسن منها. وابتدأ حديثه معنا بقوله :« انني لا انتقد ولا أعتب على احد ممن آثر البقاء في الجانب التركي، واجتهادكم هو الذي ساقكم لان تدافعوا جنباً الى جنب مع الترك بأمانة واخلاص، وهذا من حقكم. أما الآن وقد اودعت مقدرات البلاد التي أنتم أبناؤها الى أيدينا، فاني أدعوكم الى خدمتها. وكان لكلماته وقع حسن في نفوسنا، ولم يسعنا الا تقبّل دعوته أيانا للخدمة تحت لوائه بفرح وامتنان.

وكتب على الاثر كتابا طلب مني ان أقدمه الى رئيس مجلس الشورى الحربي وقتئذ المرحوم ياسين باشا الهاشمي في دمشق. توجهت الى دمشق حيث قابلت الهاشمي وقد عينني في الشعبة الثالثة من ديوان الشورى الحربي.

* * *

لأول مرة ، بعد انقضاء قرون رزحت الشام فيها تحت ظلم الترك واعتسافهم، اخذت تنمو وتزهر يظللها علم الدولة العربية المستقلة. ولم يكن ليكدر صفو المتطلع الى الحرية والاستقلال، سوى رؤية البريطانيين يتنقلون في البلاد من منطقة الى اخرى أحراراً. وأخذت اقتصاديات البلاد تنتعش شيئاً فشيئا بعد أن تكبدت الضيق والجوع خلال الحرب العامة.

وتكوّن الجيش السوري الحديث وانخرط فيه مختلف ضباط العرب، ممن قاتلوا بالامس في صفوف عادى بعضها بعضا :

كان الضابط الذي قضى ايام الحرب مع الجيش التركي يعتقد أنه قام بواجب الدفاع عن الامبراطورية العثمانية التي كانت بلاده متعلقة بها، كما كان يعتقد أن الرتب التي نالها قانونية. بينما الفريق الآخر يرى نفسه كضابط عربي ثار لتخليص بلاده العربية من يد الترك، وان كل من ظل من ضباط العرب في صفوف الترك

لايمت للعروبة بصلة، كما أن ما ناله من الاوسمة والرتب والاموال حق صريح له خلافاً لمعتقد الفريق الأول من انها غير مشروعة .

وتطورت حالة الجيش النفسية الى شكل خطر مما حمل قيادة الجيش العربي على تصفية الرتب، واغتاظ الضباط الذين اعتبروا أنفسهم فاتحين ، وابتدأ النفور بين فئتي ضباط الجيش الذي تصدع بناؤه قبل أن يتم. كان الضابط العربي الذي ظل حتى الانقلاب مع الترك، يعتبر الثورة العربية انما قامت بذهب الانكليز وبأسلحة الانكليز وبإرشادات الانكليز وبقيادة الانكليز، وان نتيجتها مع ما قدم العرب فيها من ضحايا لن تكون إلا في صالح الانكليز أنفسهم.

وأخذت شقة الخلاف تتسع بين الضباط، كما اتسعت تشكيلات الجيش السوري الجديد، وتمكن الجيش مع ذلك من البروز في الميدان في مدة وجيزة ولقد صرفت جهود جبارة في تحويل المصطلحات والايعازات وجميع ما يتعلق بالفنون العسكرية والتدريب إلى اللغة العربية بصورة تثير الاعجاب من جهة والتقدير للقائمين بهذا التنظيم من جهة ثانية، وأضحت الكتب الفنية العسكرية الموضوعة في دمشق أساساً ومرجعاً للجيوش العربية التي تم تأليفها فيما بعد في العراق والتي في طريق التأليف في مصر والحجاز واليمن.

وتطور الشعب السوري فجأة للآراء السياسية المتضاربة التي بثّتها أحزابه المختلفة فيه، فأصبح المرء لا يدري أي فريق يتبع أو أي طريق يسلك، وأضحى التحدث بالسياسة والتبجح بالوطنية حديث الخاص والعام من الناس، سواء في المقاهي أو في النوادي والبيوت. وطغت موجة السياسة على كل فرد من أفراد الامة وطبقاتها حتي قبائل البادية. وأخذ الشعب في انتقاد الزعماء والرجال العاملين، وعانت البلاد من جراء هذه الآراء السياسية المتباينة الامرّين. لقد أهمل الرجال المسئولون تشكيلات الشعب وتنظيمه، وهو الينبوع الذي يمد الجيش بقوته في ساعات الخطر، اهمالاً تاماً .

* * *

حرص الانكليز أثناء غارتهم على سورية ان يجعلوا الجيش الشريفي يقاتل في

جناحهم الايمن لغاية في أنفسهم. حتى اذا سقطت دمشق وتأسست الدولة العربية في الشام، بعث الامير فيصل القائد شكري باشا الايوبي إلى بيروت ممثلاً للحكومة العربية. غير أن سكان الساحل فوجئوا قبل ان يتم فرحهم برؤيتهم العلَم العربي، بنزول الجيوش الفرنسية، وإنزال العلم العربي عن سراي بيروت. واذا بالحكومة العربية محصورة في المدن الاربع الداخلية منقطعة عن الساحل.

وانكشفت نوايا الانكليز والفرنسيين عن اتفاقية سايكس بيكو وعن وعد بلفور، ولم تجد احتجاجات الامير فيصل وجهوده، ولا صرخات الشعب السوري. وشعر الامير بالمشكلات وبالصعوبات التي تجابهه بها القيادة العامة الانكليزية، التي ترمي الى تحقيق رغبة الفرنسيين في البلاد. واتضح له بانه من المتعذر جداً حمل الانكليز على البرّ بوعدهم الذي قطعوه لوالده الا بالاتصال في لندن وباريس حيث تعقد المؤتمرات التي من واجبها تقرير مصير الامم المغلوبة على أمرها في الحرب العامة، وتقرير حق الأمم الغالبة من الاسلاب. غير أن الامير فيصل منذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها قدماه أرض باريس، شعر بأن فرنسة غير مرتاحة لقدومه، وأخذت تعمل بشتى الوسائل للحيلولة بينه وبين مؤتمر الصلح. وهي ترمي من طرف خفي إلى إعلامه بأن فرنسة وحدها هي التي تملك مقدرات سورية، التي تم الاتفاق عليها مع بريطانيا، وأن عليه اذا اراد المحافظة على مكانته في سورية ان يتفاهم مع فرنسة أولاً.

وكانت مقترحات كهذه جد ثقيلة على الامير فيصل، الذي يحمل آمال العرب وأحلامهم، الذين كان لهم قسط وافر من النصر المكتسب، عدا عما يستند عليه فيصل من العهود والمواثيق المقطوعة لأبيه من قبل بريطانيا. وكان لزاما عليه أن يجعل لندن قبلته السياسية، فلم يجد من الانكليز سوى المراوغة ووعود كاذبة جديدة، ونصح بوجوب التفاهم مع فرنسة.

وقفل الامير فيصل راجعاً إلى سورية حيث حصر اهتمامه بتقوية الجيش. وما كاد غورو الذي أمّ بيروت مندوباً سامياً يشعر بنوايا فيصل، حتى أخذ يعدّ العدّة لخنق نهضة العرب في مهدها. وأخذت قوات الافرنسيين في التزايد وحشرت في

الثغور، ولم يكن هذا الاستعداد من قبل الافرنسيين ليثير اهتمام رجالنا بادئ الأمر. وكان للافرنسيين رجال يبثون الدعاية داخل المنطقة العربية ويؤسسون صلات مع الشعب وفي القبائل، فكانوا يسعون بالاموال لاستمالة البعض ولتفريق الكلمة، ولكن أعمالهم هذه لم تكن خافية على أحد. ورمى الافرنسيون إلى احتلال البقاع بحجج تذرعوا بها، حيث يتمكنون بذلك من التقرب الى دمشق والسيطرة من ثم على الداخل.

* * *

كان يجري هذا وتشكيلاتنا التي يعتمد عليها في الدفاع لم تتم بعد، وقررت الحكومة السورية أثر استفحال أمر الفرنسيين الخدمة العسكرية الاجبارية، غير أن الفوضى، ويا للأسف، كانت مرافقة لهذا المشروع الحيوي. كما أن الموجات السياسية كانت تتوالى على ضباط الجيش من مختلف ينابيع الاحزاب السياسية، حتى بت تشعر بالتفكك في هيكل الجيش الذي لم يكن تكامل بنموه بعد.

وفوجئنا صباح ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ باعتقال الانكليز للهاشمي بحيلة دنيئة، اذ دعاه الجنرال الانكليزي لتناول الشاي عنده، حيث اعتقله الانكليز وبعثوا به الى مدينة الرملة. وكان لهذه الحادثة تاثير كبير في النفوس، خاصة في نفوس ضباط الجيش، اذ كانوا يعتبرون تدبير الانكليز ذاك اهانة موجهة الى الجيش بالدرجة الأولى ثم للحكومة فللبلاد، ولم نقم بعمل سوى تقديم الاحتجاجات واقامة المظاهرات التي بدأنا نالفها والتي سئمناها فيما بعد. أما أسباب اعتقال الهاشمي فقد شاعت عنه اشاعات أقربها الى الحقيقة كونه أمدّ الثورة العراقية بالاموال والاسلحة، مما أدى الى حنق الانكليز عليه، فاعتقلوه.

كان الامير فيصل كلما ذهب الى باريس أو عاد منها ازداد الهياج السياسي، وعم الطبقات، ولم تكن لتخفّ وطأته حتى بعد تتويج الملك فيصل على سورية ٨ آذار ١٩٢٠. وكانت حوادث البوكمال والاستيلاء على دير الزور وتنظيم ثورة العراق وإمدادها بالاسلحة والاموال، ونشاط الاعمال المسلحة في السواحل لاشغال الافرنسيين، وتنظيم الجيش العربي ونموه، كل ذلك جعل الفرنسيين والانكليز ينظرون

جناحهم الايمن لغاية في أنفسهم. حتى اذا سقطت دمشق وتأسست الدولة العربية في الشام، بعث الامير فيصل القائد شكري باشا الايوبي إلى بيروت ممثلاً للحكومة العربية. غير أن سكان الساحل فوجئوا قبل ان يتم فرحهم برؤيتهم العلَم العربي، بنزول الجيوش الفرنسية، وإنزال العلم العربي عن سراي بيروت. واذا بالحكومة العربية محصورة في المدن الاربع الداخلية منقطعة عن الساحل.

وانكشفت نوايا الانكليز والفرنسيين عن اتفاقية سايكس بيكو وعن وعد بلفور، ولم تجدِ احتجاجات الامير فيصل وجهوده، ولا صرخات الشعب السوري. وشعر الامير بالمشكلات وبالصعوبات التي تجابهه بها القيادة العامة الانكليزية، التي ترمي الى تحقيق رغبة الفرنسيين في البلاد. واتضح له بأنه من المتعذر جداً حمل الانكليز على البرّ بوعدهم الذي قطعوه لوالده الا بالاتصال في لندن وباريس حيث تعقد المؤتمرات التي من واجبها تقرير مصير الامم المغلوبة على أمرها في الحرب العامة، وتقرير حق الأمم الغالبة من الاسلاب. غير أن الامير فيصل منذ اللحظة الاولى التي وطئت فيها قدماه أرض باريس، شعر بأن فرنسة غير مرتاحة لقدومه، وأخذت تعمل بشتى الوسائل للحيلولة بينه وبين مؤتمر الصلح. وهي ترمي من طرف خفي إلى إعلامه بأن فرنسة وحدها هي التي تملك مقدرات سورية، التي تم الاتفاق عليها مع بريطانيا، وأن عليه اذا اراد المحافظة على مكانته في سورية ان يتفاهم مع فرنسة أولاً.

وكانت مقترحات كهذه جد ثقيلة على الامير فيصل، الذي يحمل آمال العرب وأحلامهم، الذين كان لهم قسط وافر من النصر المكتسب، عدا عما يستند عليه فيصل من العهود والمواثيق المقطوعة لأبيه من قبل بريطانيا. وكان لزاما عليه أن يجعل لندن قبلته السياسية، فلم يجد من الانكليز سوى المراوغة ووعود كاذبة جديدة، ونصح بوجوب التفاهم مع فرنسة.

وقفل الامير فيصل راجعاً إلى سورية حيث حصر اهتمامه بتقوية الجيش. وما كاد غورو الذي أمّ بيروت مندوباً سامياً يشعر بنوايا فيصل، حتى أخذ يعدّ العدّة لخنق نهضة العرب في مهدها. وأخذت قوات الافرنسيين في التزايد وحشرت في

الثغور، ولم يكن هذا الاستعداد من قبل الافرنسيين ليثير اهتمام رجالنا بادئ الأمر. وكان للافرنسيين رجال يبثون الدعاية داخل المنطقة العربية ويؤسسون صلات مع الشعب وفي القبائل، فكانوا يسعون بالاموال لاستمالة البعض ولتفريق الكلمة، ولكن أعمالهم هذه لم تكن خافية على أحد. ورمى الافرنسيون إلى احتلال البقاع بحجج تذرعوا بها، حيث يتمكنون بذلك من التقرب الى دمشق والسيطرة من ثم على الداخل.

* * *

كان يجري هذا وتشكيلاتنا التي يعتمد عليها في الدفاع لم تتم بعد، وقررت الحكومة السورية أثر استفحال أمر الفرنسيين الخدمة العسكرية الاجبارية، غير أن الفوضى، ويا للأسف، كانت مرافقة لهذا المشروع الحيوي. كما أن الموجات السياسية كانت تتوالى على ضباط الجيش من مختلف ينابيع الاحزاب السياسية، حتى بت تشعر بالتفكك في هيكل الجيش الذي لم يكن تكامل بنموه بعد.

وفوجئنا صباح ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٩ باعتقال الانكليز للهاشمي بحيلة دنيئة، اذ دعاه الجنرال الانكليزي لتناول الشاي عنده، حيث اعتقله الانكليز وبعثوا به الى مدينة الرملة. وكان لهذه الحادثة تأثير كبير في النفوس، خاصة في نفوس ضباط الجيش، اذ كانوا يعتبرون تدبير الانكليز ذاك اهانة موجهة الى الجيش بالدرجة الأولى ثم للحكومة فللبلاد، ولم نقم بعمل سوى تقديم الاحتجاجات واقامة المظاهرات التي بدأنا نألفها والتي سئمناها فيما بعد. أما أسباب اعتقال الهاشمي فقد شاعت عنه اشاعات أقربها الى الحقيقة كونه أمدّ الثورة العراقية بالاموال والاسلحة، مما أدى الى حنق الانكليز عليه، فاعتقلوه.

كان الامير فيصل كلما ذهب الى باريس أو عاد منها ازداد الهياج السياسي، وعم الطبقات، ولم تكن لتخفّ وطأته حتى بعد تتويج الملك فيصل على سورية ٨ آذار ١٩٢٠. وكانت حوادث البوكمال والاستيلاء على دير الزور وتنظيم ثورة العراق وإمدادها بالاسلحة والاموال، ونشاط الاعمال المسلحة في السواحل لاشغال الافرنسيين، وتنظيم الجيش العربي ونموه، كل ذلك جعل الفرنسيين والانكليز ينظرون

الى هذه الدولة الفتية بعين القلق والارتياب، وانهم اذا لم يقضوا عليها وهي بعد في بدء تكوينها قضت فيما بعد على نفوذهم في الجزيرة، وتم لها ما تريد من وحدة العرب الشاملة في أقرب وقت.

طلبت من القيادة العامة تعييني في احدى الوحدات، وكنت على يقين من نشوب حرب مع الافرنسيين تتوقف مقدرات سوريا عليها. وعيَّنتني القيادة آمراً في السرية الأولى من لواء الخيالة الهاشمي، وتفرغت الى تدريب السرية ، ولم تلبث أن برزت.

وكان الافرنسيون حشدوا قواهم في مدينة زحلة، واذا بخبر يقول بأن ضابط الاستخبارات الفرنسي دخل مدينة المعلّقة العربية فأخرج المسجونين من سرايا الحكومة، وجرد الدرك من اسلحتهم، دون ان يتمكن احد من صد الفرنسيين. وانتدبني المرحوم يوسف العظمة على أثر الحادثة للتوجه الى المعلقة ، معلقاً آماله عليّ في تسكين الاضطراب الذي استفحل أمره فيها. توجهت الى المعلقة بصحبة سريتي بصفتها سرية درك لأنه كان من المتفق عليه أن لا يكون في هذه المنطقة أية قوة نظامية. وما كدت أستلم مركزي حتى قمت بتدابير خاصة تحول دون دخول أي افرنسي مهما عظمت رتبته إلى المنطقة العربية دون استئذاني.

وشاء ضابط الاستخبارات الفرنسي الكابتن « هاك » يوماً أن يدخل المنطقة العربية كعادته، فدهش حين باغته الجندي العربي طالباً منه الانتظار حتى يستأذن له، حتى اذا أذنت له جاءني يحيط به جنودنا ، وهددني برفع شكواه الى وزارة حربيتنا رأساً. وكان لعملي ذاك أعظم وقع في نفوس أهل المعلقة وضواحيها.

وسطا، أثناء وجودي في المعلقة، أهالي احدى القرى المعتزة بنصرة الافرنسيين على قرية مسيحية واقعة ضمن حدودنا فلحق بهم رجال مخافرنا، ولكنهم لم يتمكنوا من تعقب المعتدين لدخولهم حدود المنطقة الفرنسية، غير أنه لم يكن ما يمنعني من تأديب أهالي تلك القرية وايقافهم عند حدودها. ارسلت فصيلاً إلى المخفر وأمرته بان يلحق السرقة الى قريتهم وانطلقت بصحبة فصيلين من المعلقة رأساً على طريق أخرى الى قرية الفرزل، دون استشارة القائمقام، فوصلتها، وبعد

مصادمة لم تدم سوى بضع دقائق، انهزم أهل قرية الفرزل، تاركين جرحاهم وقتلاهم في الميدان ملتجئين إلى الجبال، وساق رجالي قطعان الغنم التي صادفناها، وكانت تخص القريتين الناهبة والمنهوبة. فكان لعملنا هذا أثره، كما كان درساً بليغاً كاد يؤدي الى مشكلة سياسية، ولم يقع بعد هذا أي حادث من نوعه واستتب الامن في المنطقة بكاملها. وقمت بأعمال تأديبية اخرى، أضحت السكينة مخيمة على أثرها على ربوع بعلبك مدة طويلة.

وتلقيت يوماً برقية من القيادة تعلمني بعزم جماعة من دروز الجبل على التوجه الى بيروت للتطوع في الجيش الفرنسي، وان طريقهم سوف يكون عن طريق حاصبيا وراشيا الى جبل لبنان. وأسرعت بسرية خيّالتنا نحو جسر مشغرة ليلاً، وانجزت ترتيباتي، وقسمت رجالي حيث كمن كل فريق على مقربة من الجسر، بعد أن أخفوا خيلهم عن الانظار، ونصبت ما نحمله من الرشاشات في أماكن صالحة انتخبتها. وما كاد يلوح الفجر حتى وصل سمعنا وقع حوافر خيلهم، حتى اذا توسطوا الجسر برزت من مكمني، وانتهرتهم طالبا الوقوف ووجوب تقدم رئيسهم نحوي. ولما شعروا بأننا من الجيش العربي، بادرونا باطلاق انار، فلم يسعني الا مقابلتهم بالمثل فوقع منهم مايقارب الثمانية عشر مابين قتيل وجريح وارتد الباقون. وكان لهذا الحادث أثره المحمود كذلك في تأمين الامن، وبسط نفوذ الحكومة العربية في الارجاء..

* * *

كان الافرنسيون في موقف حرج في الساحل، لسوء ادارتهم ، وقسوتهم في معاملة الاهلين ، الذين لجأوا الى السلاح دفاعاً عن انفسهم وأعراضهم وأموالهم. فكانت أرتال الجيش الافرنسي تقاتل من أقصي حدود سورية الجنوبية إلى أقصاها الشمالية : ففي الحولة والشوف وتل كلخ وجبال العلويين، وفي انطاكية ثورات مشتعلة وحملات مسيرة، ومع كل هذا فقد كان الافرنسيون مخذولين أمام الثورات على طول الخط، كما أن كثيراً من اسلحتهم وأسراهم وقعت في أيدي الثوار. وكانت أرتال المهاجرين من نساء المناطق وشيوخها وأطفالها تسير نحو

دمشق ملتجئة لتأمن شر الفظائع التي يسمعون بها، فكانت مظاهر هذه الجماعات تثير الحقد والبغض للافرنسيين.

ولو أن الجيش ، والامة من ورائه تعززه، أعد عدته، لتمكنت سورية من حل قضيتها وصيانة حقوقها، ولما بقي شيء يقال له لبنان الكبير ولا الصغير، ولما تشتت أهالي البلاد، وسلبوا ، ولما جرى ما جرى فيما بعد. خصوصاً والفرصة كانت سانحة لتأمين اهداف الامة عند قيام مصطفى كمال قومته باشتباكه مع الافرنسيين، حيث مناهم بهزائم خاسرة في جميع ميادين القتال، في كيليكيا، واضطروا معها الى ارسال نجدات عظيمة لتعزيز قواهم في كيليكيا فضعفت عندها قواتهم الموجودة في سورية.

وعم الحماس سورية خاصة دمشق، غير أن الحماس ذاك لم يستثمر، وظل محصوراً ضمن نطاق من الخطب والتظاهرات. والذي يؤسف له أنه عندما استفحل أمر ثورة الترك في الاناضول، شمل البلاد السورية نوع من الخمول عوضاً عن انتهازها فرصة انشغال الفرنسيين مع الترك.

* * *

وأعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية في ٨ آذار ١٩٢٠ بملكية الامير فيصل بن الحسين، ونشرت الاعلام السورية في آفاق سورية، وعم الابتهاج الجميع. كما أن الروح العربية أخذت تنمو في النفوس لدرجة أن رجال الجيش أخذوا يتطلعون الى حرب يخوضونها مع الافرنسيين دفاعاً عن البلاد .

وكانت الحركات العسكرية اذ ذلك لا تزال قائمة في كيليكيا، والفرنسيون يواصلون ارسال نجداتهم اليها، وكنا معشر الضباط تثيرنا أعمال ضباط الترك، فكنا نتمنى لو أتيح لنا عملٌ كعملهم. ولقد أدرك الفرنسيون عجزهم عن الايقاع بالترك فعمدوا الى المهادنة والتفاهم، وأخذوا ثمة في سحب قواهم وحشدها في سورية ليتفرغوا الى حل القضية السورية حيث يعوضون بها عن كيليكيا التي فقدوها.

ونشط غورو الذي كان ملماً بدقائق أحوال سورية الداخلية في اعداد جيشه. وكانت دمشق اذ ذاك منصرفة الى عقد قرض داخلي وتنقيح قانون التجنيد

الاجباري استعدادا للطوارئ، بالرغم من أن جلّ اعتماد سورية وقتئذ متوقف على مقررات مؤتمر الحلفاء. وأخذت فكرة التقرب من الافرنسيين والتفاهم معهم في هذه الظروف التاريخية الدقيقة تسود رجال الحكم، وكبار قواد الجيش، الذين خالوا أن الجيش ليس في استطاعته الدفاع أكثر من بضع ساعات، وعلى رأسهم المرحوم الهاشمي.

أما المرحوم يوسف العظمة وسائر ضباط الجيش فكانوا يرون عكس ما يراه أولئك، اذ كانوا يعتقدون أن الدفاع ممكن، وهم المتعطشون الى مناجزة الفرنسيين. ولم تزد هذه الرغبة الاعداء الا طغياناً وغروراً لاعتقادهم بضعفنا. وكان من المعقول أما أن تتبع الحكومة سياسة التفاهم منذ البدء ، وتعمل في سبيلها، أو تعمد الى الاستعداد اذا رأت في سياسة التفاهم ضياع آمالها.

وتم لغورو التغلب على المناطق الثائرة ، حيث تفرغ بعدها للهجوم على دمشق، وفاجأ صباح ١٤ تموز ١٩٢٠ الحكومة السورية بانذاره المهين، الذي يفرض فيه قبول الانتداب وتسريح الجيش واستلام السكك الحديدية واحتلال حلب وقبول البنك السوري وتسليم المجرمين السياسيين . فذهلت البلاد عند هذه المفاجأة، وأخذت الحكومة تمطر العالم الاوروبي باحتجاجاتها، وتستغيث بحليفتها بريطانيا.

وبدأ رجالات سورية بعقد الجلسات والمؤتمرات وإقامة التظاهرات، والناس تتقاذفهم الافكار والآراء المتناقضة المتباينة، وانتشرت الفوضى بصورة مخيفة، واضطرت الحكومة معها الى قبول انذار غورو. ولما آنس غورو ضعفاً في حكومة سورية وجد الفرصة سانحة للمطالبة بشروط أشد من الأولى، بعد أن قبلت بإنذاره الأول، وأضحى فيصل والحكومة السورية عرضة لشغب الشعب، فأسقط ذلك من منزلتهما واعتبارهما، وأفقدهما ما كانا يتمتعان به من ثقة وسلطان.

وكان من أهم العوامل التي حدت ببريطانيا الى تقديم النصح لفيصل لقبول انذار غورو، رغبتها في التخلص من الحكومة العربية الفتية في سوريا، والقضاء على نفوذ دمشق التي أضحت معقلاً لاحرار رجالات العرب، خاصة رجالات العراق، الذين أمدوا الثورة القائمة آنئذ في العراق بالاموال والرجال والاسلحة، وأسندوها

بنفوذهم السياسي والادبي. وعجز الانكليز عن اخمادها مع كثرة ما حشدوا من قواهم وفقدوا عددا عظيماً من القتلى والجرحى يزيد عن العشرة آلاف جندي، كما فقدوا كثيراً من معداتهم التي استولى عليها الثوار، كما أسروا كثيراً من ضباطهم وجنودهم.

ودعيت على أثر انذار غورو مع سريتي للالتحاق بالكتيبة في دمشق، وسرت ثمة كلمة الحرب على الافواه، وكان الجيش العربي وقتئذ في حالة يستطيع الدفاع والمقاومة، لما يملكه من معدات لابأس بها، وحماس يملك مشاعر الشعب الراغب في الدفاع عن الاستقلال. وكان الجيش السوري قد اقام خطاً للدفاع بجوار مجدل عنجر، غير أن السياسة من جهة والدسائس من جهة أخرى لعبت أدوارها حتى بتنا لا ندري أنحن قادمون على الدفاع أم على الاستسلام؟ اذ ما كاد الجيش السوري يتم استعداده وتحصين خطوطه حتى فوجيء بأمر التسريح.

وسرحت الجنود من خنادقها، كما سرحت الجنود الاحتياطية التي كانت جمعت في الثكنات والتي شرع في تدريبها، وشرع الجيش الفرنسي في تعقب الجيش السوري خطوة خطوة ولكن إلى أين؟ إلى دمشق التي أضحت الفوضى المسلحة فيها عامة، وأخذ الرصاص يدوي في أرجائها فأزهقت الانفس وأتلفت الاموال، وتهدمت أركان الاستقلال الذي كان كحلم لذيذ مفجع.

ومن أغرب سخريات القدر أن نتلقى بعد ساعات من الامر الاول أمراً جديداً بوجوب التجمع والعودة الى الدفاع بعد أن تم تسريح الجند، وأضحينا في حالة سيئة، خير ما يتمناها لنا العدو. وأرسل الهاشمي، الذي كان يشغل بعد عودته من منفاه وظيفة محافظة دمشق، يطلبني اليه، حتى اذا جئته اخبرني بأن جلالة الملك فيصل يرغب في مواجهته في قصره عند الجسر، فتوجهت اليه، وألفيته شاحب الوجه مضطرباً. فتقدمت اليه فصافحني قائلاً: «ان الامر خطير واني منتدبك الى قيادة جموع من بدو نوري الشعلان، وأكثرها من الفرسان، وسلاحها جيد. فقم بما اتصفت به من المرونة والحنكة مقام المرشد القائد، وخذ سريتك معك، وسرية اخرى من الرشاشات وانطلق حيث شئت وراء الجيش الافرنسي. وان في مقدرتك أن

تسطر صفحة خالدة من المجد في دفاعك عن بلادك. وان النوري قد تلقى التعليمات وهو منتظرك في داره، فانصرف على بركات الله».

هرعت إلى دار النوري تملأ نفسي الاحلام الذهبية، فألفيته جالسا بين رجاله تسيطر حركة غير اعتيادية على داره، فاجتمعت اليه وتفاهمنا على الخطة التي يجب اتباعها، وتواعدنا على موافاتي مع رجاله إلى الثكنة الحميدية في البرامكة. ثم أعددت سريتي وسرية الرشاشات وجهزتهما بكل مايلزم، ثم خرجت بهما الى ساحة الثكنة بانتظار النوري ورجاله. وأخذنا نسمع في الموعد المضروب أهازيج بدوية، ثم رأيت الشيخ نواف نجل النوري على رأس كوكبة من فرسانه الذين كان يقرب عددهم من العشرين فارساً. فسألته عن بقية الجموع المتفق عليها، فأجابني بأنها سارت في طرق مختلفة حيث تجتمع بنا في قرية صبورة الواقعة في صحراء الديماس. ووصلنا القرية المذكورة ليلاً، وعبثاً حاولت معرفة مكان الجموع وعددها وظللنا ننتظرها بدون جدوى. وطلعت علينا شمس ٢٣ تموز وارتفعت معها اسراب الطائرات الفرنسية، وأخذنا ثمة نسمع أصوات البنادق والمدافع فاستولى علينا قلق عظيم. وتقدمت من نواف مرة اخرى طالباً منه ارسال رجاله الينا، أو الذهاب حيث ينزلون، وإلا فاتنا الوقت، فكان نواف يماطلني، وهو يعدني بقرب وصول رجاله إليه.

عينت مراكز لسريتي، فتحصنت بها متخذاً الترتيبات اللازمة لاتقاء طائرات العدو، وأرسلت قسماً من الخيل لورود الماء وقد تمكنت الطائرات من سوء الحظ من كشفها فانحدرت تستطلع أخبارنا. وكانت المراكز التي احتللناها عبارة عن مستطيل ساندت رؤوسه ومنتصف أضلاعه بالرشاشات وأمرت المكلفين بقذف الطائرات عندما تتوسط المستطيل، وقد نجحنا في هذه التعبئة إذ ماكادت طائرات العدو تحوم حولنا، حتى قذفناها، فاصيبت أثنتان منها، ولقد سقطت احداهما قريبا منا. غير اني لم أمهل الطيار فانطلقت بفصيل من رجالنا، حيث سددت رشاشاتنا على الطيار ورفيقه طالباً منهما بالافرنسية وجوب التسليم، فرفعا أيديهما مستسلمين فأسرتهما، وأخذت في تدوين بعض الملاحظات ورقم الطائرة وأسماء الطيارين. ولقد وجدنا ثلاث عشرة اصابة في الطائرة، وتقدم مني قائد الطيارة

الكابتن دنكلوجين طالباً أن أوقع له على ورقة بأن محرك طائرته مصاب بثلاث عشرة طلقة، فأجبته الى طلبه. ولقد غافلني قائد الطائرة فمزق بعض أوراق يحملها، فأمرت بجمعها فاذا بها أوامر من القيادة، فاحتفظت بها. وبعد استجوابهما وتهديدهما، سجلت ما أدليا به اليّ وأرسلتهما مع تقريري الى دمشق. ولما يئست من النواف ورجاله عزمت على المسير بجماعتي فقط، وعبثاً حاولت الاتصال بمقر قيادتنا بإرسالي ثلاثة ضباط من سريتي، الواحد تلو الآخر، لاعلام القيادة عن اعمال النواف، وسؤالهم عما يجب اتباعه في مثل هذه الظروف. وكان مقر القيادة وقتئذ في قرية الهامة، فلم يعد أحد منهم وعلمت أن أحدهم قُتل.

وتقدمتُ برجالي صوب الجبهة ، واذا بي أرى فلول جيشنا متراجعة صوب قرية صبورة، وأخذت جموع البدو تسطو على المنسحبين فتستولي على تجهيزاتهم وأسلحتهم. تراجع الجيش فاقداً انتظامه على شكل هزيمة، وكان أكثر الجنود قد ألقوا اسلحتهم واستقل بعضهم البغال لينجو بنفسه.

وبينما أنا في طريقي نحو الجبهة اذا برسول من قبل نواف يوافيني طالباً مني تسليم ما لديّ من الاسلحة والخيل، لتوزيعها على رجاله لعدم استطاعة الجيش الدفاع على زعمه. فاستغربت من هذا الطلب واتضحت لي سوء نية نواف، فعزمت على البطش به وبرجاله قبل أن يبطشوا بنا. قلت للرسول: « ارجع الى نواف، وقل له نحن على استعداد لتسليم ماطلب، وعليه أن يحضر الينا لاستلامها كي لا يحدث ما يكدر». حتى اذا ماذهب الرسول أمرت بالرشاشات فأنزلت، وتمركزت ، ثم طلبت من السرية ان تتوارى عن الانظار وراء قمة قريبة ، وهي على ظهور خيولها، حتى اذا رأوا اشارتي انطلقوا وراء النواف ورجاله. وما هي الا دقائق حتى علا الغبار، وتبيّنا، فاذا بجماعة النواف وهو على رأسهم غائرين صوبنا، وكل واحد يبغي سبق الآخرين ليفوز بالسلب. وتركناهم في غارتهم حتى أضحوا على بضع خطوات منا فأشرت للرشاشات ففتحت أبواب نيرانها فوقع الهرج والمرج في الصفوف، وانقلبوا على أعقابهم، وانطلقت سرية الخيالة بسيوفها من ورائهم. ثم امرت بتحميل الرشاشات للحال وأسرعنا الخطى في طريقنا نحو دمشق. ولقد

سألت نفسي : « أين كانت هذه الجموع التي أبت الظهور في ميدان الدفاع، وجاءت مستبسلة لسلب الجيش العربي، الذي انما جاءت على زعمها لمساندته ولنجدته ».

عاد الجيش والفوضى تسوده الى دمشق. واستشهد القائد البطل يوسف العظمة في المعركة، وقد ذهب ضحية الاهواء السياسية التي لعبت دورها الرهيب في مقدرات البلاد، والتي جرّت الجيش الى مصائب لم يكن مسئولاً عنها، والتي قادت البلاد الى استعمار لن يزول أثره قبل عصور.

وفرّ الملك فيصل الى داريا بصحبة حاشيته، وبذا خمدت أنفاس الحكومة العربية في دمشق في لحظات معدودات قضت على الاحلام الذهبية. وسجّل التاريخ ظلماً، عدم أهلية الجندي العربي للدفاع، ذلك الجندي الذي امتاز بصفاته الحربية وبذكائه وشجاعته وبسالته وتقديره الموقف، مما شهد به القادة الالمان ودوّنه القائد فون كريس باشا في مذكراته.

هكذا كان في ميسلون، ومثل هذا سوف يقع اذا ما فقد الجندي العربي قائداً يحسن قيادته، يخسر معها المعركة وتحل به النكبات.

دخلنا دمشق ليلة الهزيمة، وكانت أصوات البنادق تدوي في كل مكان ، والكل شارد لا يلوي على شيء . وارتفعت الاعلام الفرنسية على بعض الفنادق والمباني وكان الناس سكارى أضاعوا رشدهم. وما كدت أصل الثكنة حتى مرّ بي نوري باشا السعيد في سيارته ، فأوقف سيارته وطلب اليّ بلهفة ، والاضطراب بادٍ على وجهه، ان أتوجه الى قصر الملك للمحافظة. فأسرعت الى القصر وقد امتلكتني هواجس عن مصير المملكة والملك، وصرت أسائل نفسي ما الذي حدا بالملك فيصل الى ان يعود من الجبهة في مثل هذه الساعة التي تزحف فيها جيوش فرنسة على دمشق؟ وطلبت من جنديين أن يتقدماني الى القصر لمعرفة ما يجري حوله، وليعرجا على منزلي لتطمين أهلي بعودتي سالماً، وما كادا يطلان على القصر حتى أطلق عبيد الملك النار عليهما، فأصيب أحدهما وقتل لساعته، وعاد الثاني اليّ فوراً ينبئني بما حدث. وما كادت السرية تعلم بمصرع رفيقهم حتى عم الهرج والمرج، وتمكنت

بعد جهد من تسكين ثآرهم وتقدمت بهم الى القصر وأنا محتدم غيظاً .

وصلت القصر فالفيت الملك جالسا في البهو يحيط به رجال الدولة، والكآبة تعلو وجوههم جميعاً ، حييت الملك وقلت له بأني أتيت خصيصاً بصحبة سريتي للمحافظة على القصر. ثم ذكرت له مصرع الجندي وطلبت منه تسليمي العبد الذي قتله كيما أتمكن من تسكين ثائرة الجنود. فانتصب الملك واقفاً ، قائلاً: « أهذا وقت القصاص يافوزي ؟ أين حكمتك ؟ وأين درايتك ؟ اننا جميعاً معرّضون الى ما تعرض له جنديك ». ولم يسعني الا الرضوخ لمشيئته . وكانت السرية قد وصلت القصر فوزعتها حوله وبتنا ليلتنا في الحراسة خوف فوضى تعم دمشق، فيستغلها البعض للايقاع بالملك، ولم تصل الفوضى ولله الحمد الى ابواب القصر. وجاء منتصف الليل من يطلب مني تخصيص جماعة لحماية الحي المسيحي، فسرت بنفسي على رأس فريق من جنودي، حيث بقيت في حراسة الحي المذكور حتى الصباح وعدت بعدها الى الثكنة الحميدية لآخذ قسطا من الراحة، لانني قضيت ليلتين ونهارين بدون راحة. فاستيقظت على أصوات جيش العدو الذي ملأ ساحة المرجة الاخضر، وأضحت عاصمة بني أمية، عاصمة الملك فيصل يحتلها العدو. وكان منظر دخول الفرنسيين دمشق أرهب وأفجع من منظر دخول الانكليز والعرب اليها .

وكلفني قائد موقع دمشق الشريفي المحافظة على القلعة وما فيها، وكانني نصبت حارساً على بقايا الجيش العربي، لاسلمها الى العدو المغتصب. اذ بينما كنت واقفاً امام باب القلعة متجها الى ساحتها اذ بيد ثقيلة تربت على كتفي ، فالتفتّ ، فاذا بي أمام الكابتن دنكلوجين، آمر سرب الطائرات الفرنسية، اسيري البارحة. فسألني وهو يضحك :« ماذا تفعل هنا ياصديقي ؟ » أجبته بأنني محافظ على القلعة . قال : « لم يبق لزوم الى ذلك الآن، لقد كنت اسيرك بالامس وها أنت أصبحت أسيري اليوم، ومن في القلعة أيضاً ».

وكنت حقا والملك والمملكة أسرى بيد الفرنسيين، ودخل الجنرال غورو بعد حين دمشق والصلف والغرور ملء برديه، وأخذ يخطب في المناسبات ويهدد دمشق التي لم تذق على حد قوله طعم قنابل المدفعية الضخمة. ولقد كانت

الجموع التي وقفت على أطراف الطرق لمشاهدة غورو وهو يدخل دمشق جد عظيمة، والذي آلمني وأغضبني وأحزنني وجود نواف الشعلان على رأس فرسانه – وهم الذين كانوا بالامس معي في ميسلون – من جملة المستقبلين ، ولم يكن ليتبدل فيهم شيء سوى علمهم العربي بالأمس الذي استبدلوه بعلم فرنسي. وأصبحت دمشق يوماً وعلى كل باب من أبواب منازلها جندي سنغالي يطلب من اصحابها دفع ما عليهم من الغرامة الحربية التي فرضها غورو على دمشق، وقدرها عشرة ملايين فرنك ذهباً .

ونزح الوطنيون عن البلاد ، وارتفعت رؤوس الاسافل في كل ناحية كما ارتفعت أصواتهم، وأخذ ضباط الاستخبارات يعملون ليلا ونهارا في بث الفساد بين الناس، وشرع رجال الشرطة والدرك الذين أضحوا في قبضة الفرنسيين يتعقبون الناس ويصادرون أموالهم. كما جد الفرنسيون في تسلم الاسلحة الموجودة في المستودعات، والتي كانت اسلحة احتياطية فيها عدا عن أسلحة الجيش التي جرد منها، كما جدوا في تسلم الاسلحة المفروضة على الاهلين حيث قضوا في شحنها عدة أشهر. ولقد اتضح للخبراء بأن الاسلحة التي تسلمها الافرنسيون من البلاد كانت كافية لتجهيز جيش يبلغ عدده أضعاف أضعاف الجيش الذي أعد للدفاع يوم ميسلون .

وتوالت النكبات على البلاد، كما أن ينابيع الحياة التي ازهرت أيام الحكم الفيصلي اخذت تجف، وعمَّت الثورة حوران لما حلّ فيها من ارهاق. ثم كانت ثورة العلويين بقيادة الشيخ صالح العلي ودوّت مدافع الفرنسيين بعد ذلك في وديان الناعور فأتت على موارد البلاد فيها. وانتقلت العاصفة الهدامة الى جبل الزاوية فكانت مدافع الفرنسيين تحصد الارواح حصدا وتدمر القرى . ثم اتجهت موجة الارهاق الى البادية فكانت فجائع الموالي. ودامت هذه الثورات خمس سنين حيث كانت الثورة السورية الكبرى عام ١٩٢٥ بعدها. فيكون الافرنسيون، الذين ظنوا بحادثة ميسلون البسيطة خاتمة المعارك، قد واجهوا المعارك الحقيقية مع الشعب السوري، وكانت ميسلون مبتدأها. وظلت مدافع الفرنسيين تدوي في سماء سورية ودماء السوريين البريئة تهرق طوال السنين المتعاقبة تحت ستار تمدين شعب

متأخر وارشاده .

أما الحكومة السورية التي شكلها الافرنسيون أثر دخولهم دمشق فلم تكن لتملك من الامر شيئا . ولقد شكلوا جيشاً سورياً جديداً مؤلفاً من سبعة أفواج وسبع سرايا وزعت على المناطق والمدن حسب الحاجة .

الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ – ١٩٢٧ :

طرق باب داري، الواقعة على الجسر قرب قصر الملك فيصل، بعيد دخول الفرنسيين دمشق، شرطي يطلب مني مواجهة الكابتن « هاك » في قصر الملك نفسه. دخلت قصر ملك الامس، فاذا بجنود من المغاربة على بابه عوضاً عن الجندي العربي. وقادني شيخ مغربي الى الطابق الاعلى، وأدخلوني غرفة مرافق الملك حيث يجلس الكابتن « هاك »، ذاك الذي أهنته بالامس القريب في المعلقة فأوقفته مدة على باب غرفتي ينتظر. ما كاد يراني هذا حتى قام اليّ مصافحاً باشّاً، وبادرني بقوله : « أرأيت كيف أن جيشا عربيا لا يستطيع مقابلة جيش عظيم كجيشنا ؟ » تأثرت لهذه المفاجأة ، غير أني جالدت فملكت أعصابي، وأجبته بقولي :« انك خاطيء يا كابتن فلو أن الحظ قادكم الى قبول المعركة معنا في خط دفاعنا في مجدل عنجر لكان الوضع على عكس ماهو عليه اليوم ». وشعر الكابتن بتأثري من حديثه، فغيَّر مجرى الحديث بقوله :« ثق ياعزيزي أنه ليس لدينا أية نية سيئة نحو هذه البلاد، وجل مقصدنا التعاون مع أبنائها لتأمين ازدهارها وإيصالها الى درجة الحكم الذاتي؟!» ثم قال :« ان القومندان ارلابوس يريدك ». وكان هذا قد عين حاكماً لدمشق، فدخلت عليه في غرفته التي كان يحتلها الملك فيصل نفسه بالامس ، وكان القومندان جالسا على مقعد الملك، كما أن كل ما في الغرفة ظل على حاله لم يتبدل منه شيء بعد .

وتكلم القومندان. ولم يخرج معنى حديثه عما تكلم به الكابتن « هاك »، وشعرت أن القومندان يبغي اقناعي بأن الفرنسيين انما يريدون التعاون مع رجالات البلاد في ادارة البلاد. غير أن الهزيمة التي مُني بها جيشنا قد ترك في نفسي جرحاً لا

يلتئم، وشعوري بسوء نية الفرنسيين جعلني أفكر في الثأر ووجوب التفرغ له .

وتلقيت بعد أيام أمراً بتعييني آمراً لسرية الخيالة في حماه، فتوجهت اليها وكان الكابتن « ميك » مستشارها الاداري ممن سبق ان تعرفت عليه وعلى زوجته عندما كانا في طرابلس الشام ايام الحكم الفيصلي. وصدر أمر بعد اسابيع من وصولي إلى حماه بتحويل التشكيلات العسكرية آنئذ إلى تشكيلات (ميليش) أي على طريقة التطوع المأجور. وتشكلت سريتي من متطوعة الاسماعيليين في سلمية ومن شراكس حماه. وأقيمت هذه القوى الميليشية مرتبطة رأساً بمستشاري المراكز، لذا أخذت علاقتي مع الكابتن ميك بصفته مستشاراً ادارياً تزداد رسوخاً كما أصبحت موضع ثقته.

وكانت تصرفات الكابتن « ميك » هذا في حماه جد قاسية، وكان أشد قسوة واعتسافاً للقرويين المساكين منهم ، ينظم الدسائس مع جواسيسه للايقاع بمن يكرهه من مخاتير القرى وشيوخها، وكانت جناياته لا تعد ولا تحصى. وكانت حوادثه هذه تثير من حنقي عليه وتحملني على التفكير في طريقة انقذ البلاد وأهليها من مظالم أمثال هذا المستشار ومجازره. فمن أعماله التي كشفت عن سوء نواياه والتي أدت الى اخراجه من البلاد أنه تنافر مع متصرف حماه وقتئذ المرحوم نوري الكيلاني، والذي كان حائزاً ثقة الجنرال غورو، فعزم على الايقاع به. وفاتحني « ميك » يوماً بأنه اطلع على كتاب مرسل من دمشق، جوابا على كتاب ارسله نوري الكيلاني، يشتمّ منه رائحة التحريض على الكابتن، ووجوب ازالته من حماة . ويحوي الكتاب أيضاً على شتائم وسباب وتنديد بالحكم الفرنسي في سورية، وأنه ترك الكتاب يصل الى يد نوري الكيلاني منتظراً رد نوري عليه، حيث يضع يده على الرد، ويتخذ منه حجة للايقاع به. وأبت عليّ حميّتي أن أرى وجيها من وجهاء البلاد وأشرافها يتربص به الفرنسيون ويكيدون له كثيراً ، وفاتحت السيد الكيلاني بما وصل لعلمي على لسان الكابتن « ميك » ، وما دفعني الى تنبيهه وتحذيره. وقلت له :« يجب عليك أن تجيب على الكتاب، بشرط أن لا يكون فيه مساس بأحد، وأن لا تكثر فيه المدح ولا الذم ». وبعد أيام أتاني « ميك »، قائلاً : « ان المتصرف انتبه، فلم يجب بما يمكنني من ادانته به »، ثم أقسم بأنه سوف

يخرجه من المدينة الى سجن دمشق موثوق اليدين .

وفي ذات يوم، بينما كانت ثورة العلويين تنشر لواءها على أراضي حماة الشمال غربية، والقبائل الرحل عائدة من تشريقها، أصدر الكابتن « ميك » أمراً يحظر فيه على القبائل تلك اجتياز غربي خط حماه – حمص الحديدي ، وكان هذا تدبيراً احتياطياً من الفرنسيين لمنع اتصال العرب بالثوار العلويين. ولم يك في شرقي الخط مرعى عدا المزروعات، فإما هلاك الماشية أو التعرض الى نقمة الفرنسيين. أتى مشايخ العقيدات والموالي الى متصرف حماه السيد نوري ، وطلبوا منه الترخيص لهم باجتياز الخط الحديدي للغرب فأذن لهم، وثارت ثائرة الفرنسيين لهذا وعلى رأسهم الكابتن « ميك » ، وأسرع اليّ يبشرني بوقوع المتصرف في الفخ. ورغب مني الاسراع الى القبائل، لاخذ افادة الشيوخ، وكتابة تقرير بما اسمعه منهم، أبيّن فيه تآمر المتصرف معهم على ارتياد المراعي غربي الخط الحديدي. وذهبت تواً إلى دار المتصرف حيث جلوت له الامر، وأخذ يصرخ قائلاً :« كيف السبيل للخلاص من هذا الطاغية ؟ » وسألته : هل وقع أمراً الى شيخ العقيدات أجابني بأنه أعطى ورقة بذلك، فأعلمته بأنني سأعمل جهدي لاسترجاع تلك الورقة.

وتوجهت في الصباح الباكر صوب منازل العقيدات، وبصحبتي الضابط الفرنسي، وترجمان لبناني لا يعرف من اللهجة البدوية شيئاً. دخلت بيت الشيخ وأخذت أصيح وأزمجر على الشيخ الذي خالف أوامر الحكومة بتجاوزه الخط الحديدي غرباً. وقلت له :« ان الحكومة قررت جلب المتصرف، ولذا جئنا لنأخذ كتاب المتصرف الذي أعطي للشيخ كوثيقة تجيز طلبه ». وكنت أتكلم بلهجة بدوية غامضة، وأومىء بطرف عيني الى الشيخ، الذي لم يلبث أن أدرك مقصدي، فانكر استلام أي أمر من المتصرف. فالتفتّ الى الضابط، وطلبت منه أن نكتب تقريراً مفصلاً، وأن يتولى هو التحقيق، على أن أساعده، ويقوم الترجمان على ترجمة أقوال الشيخ. فأخذ في كتابة تقريره الذي بلغت صفحاته العشر، وهو يحوي على كلام فارغ يشتمّ منه وضع المسؤولية على ضابط الدرك، فكنت أنا الذي أسأل وأملي وأترجم وأجاوب. ثم التفتّ الى الضابط قائلاً :« ما رأيك لو أطمعت الشيخ بالدراهم فلعله يقول لنا شيئاً ندين به المتصرف ». وانتحيت بالشيخ

ناحية، وطلبت منه تسليمي كتاب المتصرف فأعطانيه، ووضعته في جيبي، ثم عدت الى الضابط أعلمه بأن لا فائدة من رشو الشيخ لانه لا يملك أمراً من المتصرف حقيقة. وأسرعنا الى الكابتن « ميك » الذي سألنا عن نتيجة مسعانا، فكان الملازم أسبق مني في الاجابة، وأخذ يقرأ التقرير بغيظ، وهو يأمل أن يجد فيه ضعفاً. ثم ذهبت الى دار المتصرف وسلمته كتابه، فمزقه ارباً.

وعلى أثر هذا التحقيق الموفق، عزل « ميك » من مركزه، ونقل الى خارج سورية ، وتعين مكانه القومندان « موريبو »، الذي لم تمض مدة قصيرة على قدومه الى حماة، حتى كسبت ثقته واعتماده عليّ الى حد بعيد. وصلت هدفي الاول وهو توسيع الثقة حتى تشمل أكثر رجالات الافرنسيين وأمراء الجيش، وتم لي ذلك تدريجياً كما أردت ، وأصبحت محلّ ثقة كبار القواد والمستشارين.

وقد جرت بيني وبين كاترو في دمشق مفاوضات كثيرة من اجل تثبيت رتبتي، وتعديل أوسمتي، التي لا يجوز لي حملها، وتبديلها بأوسمة افرنسية. وحاول اقناعي بأنني اذا قبلت رتبة ملازم ثانٍ في الجيش الافرنسي، فهو يعدني بشرفه بأنه لن يدعني زيادة عن شهرين بهذه الرتبة، حتى يرفعها الى رتبة ملازم أول، ومن بعدها أنال رتبة كابتن ببراءة من وزارة الحربية الافرنسية، عوضاً عن رتبة الكابتن التي أحملها حاليا وهم لا يعترفون بها، فرفضت.

وكان الفرنسيون يرسلونني برفقة كل حملة يجردونها على العرب، وكان من عادة حملاتهم أن تعيث فساداً بالقرى وبأهلها وأموالها، وكثيراً ما كانوا يقتلون القرويين دون أن يعرف لذلك سبب، بمجرد تهمة أو شبهة، أو لجهلهم أمثال هذه الحملات. فكنت بعد أن تمكن نفوذي بين الافرنسيين وقويت ثقة قوادهم ومستشاريهم بي، أحول دون وقوع أمثال هذه الاعمال، وكسبت بذلك حب القرويين وصداقتهم وثقتهم الى أقصى حدودها. ولما رفضت مقترح الكولونيل كاترو، وأصررت على المحافظة على رتبتي وأوسمتي التي رأت ثلاث دول في الكفاءة لحملها، قرر الافرنسيون تكوين سرية أقودها، المقصود منها اختبار معلوماتي العسكرية ومقدرتي. ولقد سميت بسرية فوزي، على أن تكون التجربة

ستة اشهر، وربطت بالجيش الفرنسي العامل. ولم تمض الستة اشهر حتى رفع الافرنسيون تقارير عن مقدرتي وأهليتي، انتهت بمنحي رتبة كابتن من وزارة الحربية الفرنسية ، وبتعييني على رأس سرية خيالة من القوة السورية (اللجون سيري)، وعينت علاوة على وظيفتي العسكرية معاونا للمستشار الفرنسي بحماة. وهكذا اتسع نطاق نفوذي.

وحضر ذات يوم الكولونيل «روبير» آمر لواء الخيالة في سورية ليشاهد مناورات لوائه الذي جمعه في حماة. وكان على كل سرية واجبات استكشافية تقوم بها مستقلة، تقطع خلالها مسافات بعيدة، تنتهي بفوز احدى السرايا على الأخرى لتعلن كأفضل سرية، ولقد انتهت المناورات والتمارين بفوز سريتي حيث أعلن فوزها .

ولقد كان لهذا النجاح صدى عظيم بين وحدات الجيش، فكنت موضع استغراب وتقدير في وقت واحد، وكانت الدهشة تسود نفوس الضباط الفرنسيين من تفوق ضابط سوري مع سرية سورية على سراياهم.

وتلقيت ذات يوم ، وأنا مأذون في طرابلس، برقية من مستشار حماه يدعوني للعودة على جناح السرعة ، وأخبرني بمقتل مصطفى بك العظم في قرية الهبيط من قرى حماه ، وان البعض قد سقطوا عليه فقتلوه، وان حماه هاجت وان الاهلين جمعوا جموعهم لتاديب القتلة . وقد وجدت المستشار مقتنعاً بوجوب السماح للأهلين بتعقُّب القتلة، كما أنه أقنع بدوره كاترو الذي استحصل على موافقة المندوب السامي . أخبرني المستشار بما وقع ، وطلب اليّ بذات الوقت مرافقة هذه الحملة، فاعترضت ، لعلمي أن في الامر ما فيه من سوء نية تؤدي الى اسالة دماء ابناء الوطن الواحد، وبذر التفرقة والفساد، حيث يسبب اشتباك الاهلين بعضهم مع بعض قلاقل تستلزم تدخل الجيش الفرنسي لقمع الاضطراب. فسألني رأيي في الامر، فأبديت له ملاحظاتي: بانه اذا أذن للأهلين بالاقتصاص بأنفسهم، فما هو واجب الجيش اذن ؟ وأبنت له ما ينتج عن ذلك من محاذير متوخياً صرفهم عما عزموا عليه. وورد على المستشار جواب من كاترو فيه تأنيب لانقياده الى فكرة

الاهلين، وتحسين رأيهم لدى المراجع العليا . ولقد طلب اليه اتباع رأيي القائل بأن على رجال الدرك القيام بواجب التحقيق في الحادث، فصدع المستشار بالامر ونلت بهذا ثقة المستشارين من جهة ، وبعض آل العظم من جهة ثانية . وبذا تمكنت من التصرف بأفكار المفوض السامي والمندوب الممتاز في دمشق ومستشار حماة كما اردت لصالح البلاد.

وكانت الحكومة الفرنسية لا تزال ترهب جانب البدو، كما أن البدو كانوا يخشونها، وكنت أسعى دوما لتجسيم الوهم في نفوس الفرنسيين للتخوف من البدو . وكانت قد نشبت خلافات بين عشائر الموالي والعقيدات أدت الى اقتتال بينهم ، فأرسلت الحكومة أولاً الدرك، ثم عززته بوحدات من الجيش لتفريقهم. فلم تفلح هذه القوة في تفريقهم، ونشبت معارك بين القبائل والجند انهزم على أثرها الجنود بخسائر فادحة، وتفرقت القبائل على الاثر خشية ارسال الافرنسيين حملات عليهم. فأثَّر هذا الحادث في نفس القيادة العامة الافرنسية، وقررت تجريد حملة قوية جداً، واعتبرت الحادثة فرصة للتأديب ونزع سلاح هذه القبائل. وقررت القيادة ضرب كل عشيرة وحدها، فاستهدفت أولاً الموالي الذين انسحبوا لقضاء المعرة، وطلب الجنرال حضور المشايخ الى حلب، فلم تلب مشايخ الموالي هذه الدعوة، وكانت المفاجأة بمعركة تعتبر من أشد المعارك هولاً في سورية، وكانت تلك الصفحة الرائعة لبطولة وبسالة وخبرة في فن القتال بهرت الفرنسيين.

وما أن ظهرت هذه القوات بمصفحاتها وفرسانها وطائراتها في المضارب حتى هرعت أبطال هذه القبيلة لملاقاة العدو، بينما كانت النساء يحملن بيوت الشعر وأثقالها على ظهور الأباقر، ونشبت المعركة على طول دائرة تحيط بالقبيلة. وبرز في هذه المعركة وجه البطولة العربية الحقيقي، والخصائص الحربية التقليدية ، ولم تمض بضع ساعات، حتى توقف هجوم الافرنسيين، وتحت ضغط العرب ومهارتهم بدأ الارتداد، ثم الهزيمة الشنعاء. وكان وقع هذه المعركة في نفس القيادة والجنود على أسوأ ما يمكن، فأراد الافرنسيون استعادة هيبتهم ومعنوياتهم، فجمعوا حملة أخرى مثلها، وأخذوا ينشدون النصر والثأر هذه المرة من قبائل العقيدات، لاعتقادهم أنهم أضعف من الموالي. ولكن العقيدات، الذين كانوا يتوقعون مثل هذه المفاجأة كانوا

على استعداد، فنشبت المعركة ، وكانت هزيمة الافرنسيين في هذه المرة أشنع وأبشع منها في المرة الاولى . كان لهذه المظاهر من البطولة النادرة ونتائجها تأثير كبير في القيادة الافرنسية، التي اخذت تحسب الحساب لها، وفي نفس الوقت أخذت اكتشف منابع جديدة من القوة العربية في عناصر عربية جديدة بالنسبة اليّ.

وجاء موسم جباية ضريبة الجمال من القبائل البدوية، فدفع الخوف الافرنسيين الى اعداد حملة كبرى يسيرونها لارهاب البدو من جهة ، ولجباية الضريبة من جهة ثانية . وجاءني الكولونيل كاترو يرغب مني مرافقة الحملات العسكرية، قائلاً : بأنه جلب قوة من دمشق، وأخرى من حمص وتدمر، وستجتمع معاً في قرية الحمرة، حيث تسير منها نحو منازل البدو . قلت له : « أن جباية الضريبة على هذه الصورة قد يسبب اشتباكاً مع البدو ونحن في غنى عنه الآن، ويجرنا الى استخدام معظم الجيش وربما انهزم. الامر الذي يدعو الى التفكير في طريقة أخرى لحل هذه المشكلة، لذا أقترح ارسالي مع سريتي، لاقوم بهذه المهمة » . فرحب الكولونيل كاترو بهذه الفكرة، وتحركت بصحبة سريتي، التي كان من ضمنها ضابطان فرنسيان، وكانت هذه اول حادثة من نوعها في الجيش الفرنسي: كون ضابط فرنسي يعمل تحت امرة ضابط سوري. وسرت الى قرية الحمرة، ومنها الى مضارب قبائل السبعة حيث اجتمعت ببرجس بن هديب شيخ مشايخ السبعة فأسررت له بوجوب الامتناع عن دفع الضريبة، على أن يطلب من الفرنسيين مساواته مع ابن مهيد وابن شعلان، حتى اذا دفعوا الضريبة دفع . وطلبت منه عدم تفريق عشائره، وتجميعها في منطقة واحدة ، فاذا ماضايقناه فليرحل ناحية الشرق قليلاً. ثم التفت الى الضابطين الفرنسيين أوهمهما أن الضغط على هذه القبائل يؤدي الى خطر وخيم العاقبة، لذلك يجب أن نأخذهم بالملاينة والسياسة، فاقتنعا برأيي، وعدت الى قرية الحمراء ومنها الى حماة .

وطرق باب داري ذات ليلة العبد نجراف ، وهو عبد لبرجس، يعلمني بأن الضابطين الفرنسيين اخذا يضايقان برجس، فصرخت بالعبد قائلاً :« على برجس أن يعمل حسب اشارتي له . فاذا ضيقوا عليه رحل الى الشرق » . غير أن العبد رجاني كتابة كلمة الى سيده بهذا المعنى، وعاد العبد برسالتي . وكان برجس، على أثر

مضايقة الضابطين له، طلب منهما امهاله حتى يجتمع مع رؤساء القبائل للمشاورة، وكان يقصد من وراء ذلك انتظار جوابي. فلما وصل العبد اليه وقرأ كتابي صارحهم بقسوة انه لن يدفع شيئاً ، فبهتا لهذا الانقلاب . ولما سألاه عن سبب تمنعه، قال « هذا ما أمرني به فوزي بك» . وكانت فرصة سانحة لهذين الضابطين للايقاع بي ، فعمدا الى استدراجه، فقالا له :« اذا كان ما قلت هو الذي أوصى به فوزي بك، فنحن طوع لأمره» . فأبرز لهما كتابي، ونسخا صورة بالعربية بواسطة الترجمان، ثم ترجماه الى الفرنسية، ثم كتبا تقريراً ضافيا أبانا فيه خيانتي، وأيدا تقاريرهما التي ذكرا فيها سوء نيتي وقيامي بمؤامرات ضد سلاح الجيش .

وجئت صباح يوم العيد المستشار ، فاذا بي أراه غاضباً عليّ. سألني :« ماهذا الكتاب ؟ فشعرت للحال بأن كتابي الى برجس قد وقع في يده، فالتفتّ سائلاً : « أي كتاب تعني ؟» قال :« الكتاب الذي أرسلته الى برجس». قلت:« نعم ، اني بعثت به الى برجس آخذا المسؤولية على عاتقي، لأني بعملي ذاك قد أنقذتك أولاً، وأنقذت الجيش من معارك دامية، وأنقذت حياة الضابطين الفرنسيين اللذين كانا في الحمرة. والدماء التي سالت من الجيش الافرنسي في معاركهم مع الموالي لم تجف بعد وقد كان سببها حماقة ضباط استخبارات، وتقاريرهم غير الصحيحة» . فسألني: « وكيف كان ذلك ؟» قلت :« ان الضابطين ذهبا الى برجس يهددانه بأنه اذا لم يدفع لهما الضريبة بظرف أربع وعشرين ساعة فسوف يسوقان عليه الجند لتنكل به وبعشائره. ولم يسع برجس عند سماعه تهديدهم الا أن يجمع عشائره بغية القضاء على السرية ومن فيها من الضباط الافرنسيين ، والهرب مع رجاله الى حدود العراق. وان الاقدار هي التي دفعته الى استشارتي، فارسل عبده إليّ ، فاقنعته بالعدول عن هذه الفكرة، وطلبت منه الابتعاد برجاله عن الحمرة الى حين حضوري. وأنت ترى حالة البلاد من الفوضى ، والجيش يكاد يكون منهمكاً بجمع قواه في اخضاع العصيانات والثورات التي تتوالى كل يوم، وفي كل بقعة من البلاد، وحالة المدن ليست بأحسن من حالة من هم خارجها، وهذا ما دفعني لاتحمل المسؤولية. ولولا عملي لكان الجيش الفرنسي الآن يخوض المعارك مع القبائل المرتبط بعضها مع بعض من شمالي سورية الى أراضي نجد » . فأثرت كلماتي فيه

على استعداد، فنشبت المعركة ، وكانت هزيمة الافرنسيين في هذه المرة أشنع وأبشع منها في المرة الاولى . كان لهذه المظاهر من البطولة النادرة ونتائجها تأثير كبير في القيادة الافرنسية، التي اخذت تحسب الحساب لها، وفي نفس الوقت أخذت اكتشف منابع جديدة من القوة العربية في عناصر عربية جديدة بالنسبة اليّ.

وجاء موسم جباية ضريبة الجمال من القبائل البدوية، فدفع الخوف الافرنسيين الى اعداد حملة كبرى يسيرونها لارهاب البدو من جهة ، ولجباية الضريبة من جهة ثانية. وجاءني الكولونيل كاترو يرغب مني مرافقة الحملات العسكرية، قائلاً : بأنه جلب قوة من دمشق، وأخرى من حمص وتدمر، وستتجمع معاً في قرية الحمرة، حيث تسير منها نحو منازل البدو. قلت له : « أن جباية الضريبة على هذه الصورة قد يسبب اشتباكاً مع البدو نحن في غنى عنه الآن، ويجرنا الى استخدام معظم الجيش وربما انهزم. الامر الذي يدعو الى التفكير في طريقة أخرى لحل هذه المشكلة، لذا أقترح ارسالي مع سريتي، لاقوم بهذه المهمة » . فرحب الكولونيل كاترو بهذه الفكرة، وتحركت بصحبة سريتي، التي كان من ضمنها ضابطان فرنسيان، وكانت هذه اول حادثة من نوعها في الجيش الفرنسي: كون ضابط فرنسي يعمل تحت امرة ضابط سوري. وسرت الى قرية الحمرة، ومنها الى مضارب قبائل السبعة حيث اجتمعت ببرجس بن هديب شيخ مشايخ السبعة فأسررت له بوجوب الامتناع عن دفع الضريبة، على أن يطلب من الفرنسيين مساواته مع ابن مهيد وابن شعلان، حتى اذا دفعوا الضريبة دفع . وطلبت منه عدم تفريق عشائره، وتجميعها في منطقة واحدة ، فاذا ماضايقناه فليرحل ناحية الشرق قليلاً. ثم التفت الى الضابطين الفرنسيين أوهمهما أن الضغط على هذه القبائل يؤدي الى خطر وخيم العاقبة، لذلك يجب أن نأخذهم بالملاينة والسياسة، فاقتنعا برأيي، وعدت الى قرية الحمراء ومنها الى حماة .

وطرق باب داري ذات ليلة العبد نجراف ، وهو عبد لبرجس، يعلمني بأن الضابطين الفرنسيين اخذا يضايقان برجس، فصرخت بالعبد قائلاً :« على برجس أن يعمل حسب اشارتي له. فاذا ضيقوا عليه رحل الى الشرق » . غير أن العبد رجاني كتابة كلمة الى سيده بهذا المعنى، وعاد العبد برسالتي . وكان برجس، على أثر

مضايقة الضابطين له، طلب منهما امهاله حتى يجتمع مع رؤساء القبائل للمشاورة، وكان يقصد من وراء ذلك انتظار جوابي. فلما وصل العبد اليه وقرأ كتابي صارحهم بقسوة انه لن يدفع شيئاً ، فبهتا لهذا الانقلاب. ولما سألاه عن سبب تمنعه، قال « هذا ما أمرني به فوزي بك » . وكانت فرصة سانحة لهذين الضابطين للايقاع بي ، فعمدا الى استدراجه، فقالا له :« اذا كان ما قلت هو الذي أوصى به فوزي بك، فنحن طوع لأمره » . فأبرز لهما كتابي، ونسخا صورة بالعربية بواسطة الترجمان، ثم ترجماه الى الفرنسية، ثم كتبا تقريراً ضافيا أبانا فيه خيانتي، وأيدا تقاريرهما التي ذكرا فيها سوء نيتي وقيامي بمؤامرات ضد سلاح الجيش .

وجئت صباح يوم العيد المستشار ، فاذا بي أراه غاضباً عليّ. سألني :« ماهذا الكتاب ؟ » فشعرت للحال بأن كتابي الى برجس قد وقع في يده، فالتفتّ سائلاً : « أي كتاب تعني ؟ » قال :« الكتاب الذي أرسلته الى برجس » . قلت: « نعم ، اني بعثت به الى برجس آخذا المسؤولية على عاتقي، لأني بعملي ذاك قد أنقذتك أولاً، وأنقذت الجيش من معارك دامية، وأنقذت حياة الضابطين الفرنسيين اللذين كانا في الحمرة. والدماء التي سالت من الجيش الافرنسي في معاركهم مع الموالي لم تجف بعد وقد كان سببها حماقة ضباط استخبارات، وتقاريرهم غير الصحيحة » . فسألني: « وكيف كان ذلك ؟ » قلت :« ان الضابطين ذهبا الى برجس يهددانه بأنه اذا لم يدفع لهما الضريبة بظرف أربع وعشرين ساعة فسوف يسوقان عليه الجند لتنكل به وبعشائره. ولم يسع برجس عند سماعه تهديدهم الا أن يجمع عشائره بغية القضاء على السرية ومن فيها من الضباط الافرنسيين ، والهرب مع رجاله الى حدود العراق. وان الاقدار هي التي دفعته الى استشارتي، فأرسل عبده إليّ ، فأقنعته بالعدول عن هذه الفكرة، وطلبت منه الابتعاد برجاله عن الحمرة الى حين حضوري. وأنت ترى حالة البلاد من الفوضى ، والجيش يكاد يكون منهمكاً بجمع قواه في اخضاع العصيانات والثورات التي تتوالى كل يوم، وفي كل بقعة من البلاد، وحالة المدن ليست بأحسن من حالة من هم خارجها، وهذا ما دفعني لاتحمل المسؤولية. ولولا عملي لكان الجيش الفرنسي الآن يخوض المعارك مع القبائل المرتبط بعضها مع بعض من شمالي سورية الى أراضي نجد » . فأثرت كلماتي فيه

أيما تأثير، ثم سألني : « ولمَ لم تخبرني عما حدث في حينه؟» قلت :« ان الامر جد خطير وكان يتطلب السرعة درءاً للخطر، وإني لم آت اليك الآن الا لاخبرك بما حدث . وكنت أتوقع منك الشكر والتقدير» . فنهض المستشار مصافحاً ، ثم أخذت أنهال على الضابطين باللوم لشططهما وطيشهما . ثم أثبتّ له عدم تمكني من العمل مع أمثال هؤلاء الذين لابد وأن يسببوا للبلاد وللجيش كارثة تقع على أيديهم، واذا بي أراه يرفع تقارير الضابطين، ويمزقها . ولم تمض أيام حتى كان هذان الضابطان في طريقهما الى بيروت، حيث تلقيا أمراً بوجوب العودة الى فرنسة، على ألا يعودا الى سورية مرة ثانية . ولقد عظمت في عين المستشار قوة البدو وخطرهم، وضرورة مداراتهم في أخذ الضريبة، وبذا انقذت موقفي وتخلصت من غطرسة الضابطين ودسائسهما وخلصت القبائل البدوية من اعتساف الفرنسيين وفتكهم .

وكانت البلاد التي جزئت الى دويلات، والتي أضحت في أيدي حكامها الفرنسيين ومستشاريها، قد وصلت الى درجة من الضعف ظاهرة، وحالة البلاد الاقتصادية تنبىء عن افلاس، فالذهب الذي ازدادت كميته أثناء الحكومة الشريفية تسرب معظمه الى فرنسة، وحلت الورقة السورية محله . وافتقرت البلاد الى الرجال العاملين المخلصين، اللهم الا القليل الذين لا يستطيعون المجاهرة بآرائهم، أو القيام بعمل وطني نافع . ولم يبق في الميدان الا الشعب ، وهو الجوهر ولكن لا قيادة له ولا تنظيم، بينما كان الافرنسيون يفرضون الضرائب والغرامات، والبلاد بما حل فيها من نكبات جسام صائرة الى خراب واستعباد لا محالة . وكانت تجري في هذه الفترة حركات في جبال الزاوية، يتزعمها المرحوم ابراهيم هنانو، وكان لها علاقة بالحركات التركية التي تجري في جنوب الاناضول ، حيث الجيش الفرنسي منهمك في حركات يائسة في كيليكيا في الاناضول وموقفه يتطلب دوما ارسال نجدات متوالية . وخفت المعارك في جبل الزاوية ثم هدأت تماماً، وهذا الهدوء سبب اختلافات ما لبث ان توسعت واكتسبت طابعاً خطراً وهدد ابراهيم هنانو بالقتل وترك الجبل على الاثر .
وفي هذه الفترة يطلبني المستشار على عجل، ويطلعني على برقية وردت من كاترو، يعلمه فيها ان ابراهيم هنانو ترك الجبل وتوجه نحو الجنوب، وانه الآن في جوار جبل البلعاس شرقي حماة، وانه ارسل هجانة تدمر وقوة من حمص وأخرى من دمشق

لتقطع عليه الطريق وتقبض عليه، وانه يعلق اهمية كبرى على اعتقاله شخصياً . لذلك يطلب اليه ان يرسلني مع سريتي وقوة مصفحة من حماة لتعقبه، والتعاون مع بقية القوة المحتشدة للقبض عليه . فكان موقفي حرجاً جداً، فاصغيت للأوامر ، وأفهمته أن لا حاجة لقوات مصفحة ، وانني سأصطحب معي قسماً من القبائل، فقبِل . وأخذت أفكر بطريقة انقاذه شخصياً، وفتح الطريق امامه للوصول إلى حدود الاردن . فانطلقت حالا نحو الشرق وطلبت من الشيخ صالح الحرب مع بعض رجاله ان يوافيني الى قرية عقيربات، فتركت السرية نحو عقيربات بقيادة ضباط، وانطلقت بسيارة مع بعض رجالي الذين أثق بهم، والتقيت بالشيخ صالح الذي وصل اليها في نفس الوقت . وكانت تنقلات ابراهيم هنانو تأتينا أخبارها من عملاء الافرنسيين والمخافر . والتقيت بالشيخ صالح الحرب في القرية وأطلعته على قصدي من انقاذ ابراهيم هنانو، وكتبت له كتابا موجهاً الى ابراهيم هنانو بتوقيعي وطلبت منه ايصاله اليه، وهو يبعد عنا مسافة ١٠كم تقريباً . والكتاب يتلخص بعزمي على انقاذه شخصياً، وعن ترتيبات الافرنسيين في طريقه، والتي لا يمكن التملص منها في مثل هذه الايام من القيظ الشديد ولا يوجد في طريقه أي مورد للماء . لذلك اقترحت عليه أن يأخذ بعض العناصر المهمة، ويترك الذين لا شان لهم به، وتمثل معركة صورية مع هؤلاء، وأعُنُ القيادة في القضاء على جماعة هنانو، فتنسحب القوات الافرنسية من الطريق، بينما هو يتابع طريقه نحو شرقي خمير الى الصفا فالاردن . وأفهمت الشيخ صالح أن يوضح له الموضوع تماماً بعد تسليمه كتابي . وجاوبني المقدم خالد مردم بك الذي كان معه، وهو ضابط عربي ووطني، فشكرني، وأبدى رغبة في قبول الخطة تماماً . وفي المساء ترك هنانو وجماعته مركزهم، وكانوا على قسمين أكثرهم في المؤخرة . وكانت السرية قد وصلت، فوجهت نصفها بقيادة الضابط الافرنسي للشرق، وانطلقت أنا على أثرهم . وهكذا أبعدت الضابط عن حضور تمثيلية المعركة فكانت المعركة مع المؤخرة، ويظهر انهم لم يعطوا التعليمات اللازمة لهذه المؤخرة فكان الاشتباك جدياً . والمهم أنه أثناء القتال فسحنا المجال أمام ابراهيم وجماعته، واستسلمت هذه المؤخرة وكان فيها خالد بك وكثير من الجنود الالمان وبعض العرب، وكان مجموعهم حوالي السبعين مقاتلاً

وقع منهم في أيدينا أكثر من النصف والباقي تمكن من الافلات. وأعلمت القيادة بالقضاء على قوة ابراهيم هنانو، وانسحبت القوات، وهكذا أنقذت ابراهيم هنانو من كارثة محتمة.

لم تتمكن فرنسا، على الرغم من السنوات السبع التي احتكت فيها بطبقات الشعب، من فهم حقيقته وميوله وأخلاقه وصفاته. لذلك بقيت تتخبط في ظلام دامس وتجرد الحملات لتخمد الثورات بغية استقرار سياستها، ولكنها لم تفلح، مكبدة البلاد لهذه الاخطاء النكبات، فساءت حالة البلاد، وضعفت مرافقها. وكانت ثورة مصطفى كمال في الاناضول وصلت الى أشد ساعاتها خطراً، وتأكد لدينا نجاح الترك وانتصارهم في النهاية، بعد أن كانت حركات مصطفى كمال في نظرنا عبارة عن أعمال عصابة مدفعية لا تلبث أن تقضي عليها جيوش الحلفاء المنتصرين في الحرب الكبرى. ولقد أمن الاتراك لانفسهم بانتصارهم ذاك حرية واستقلالا، وكان لانتصاراتهم أثر عظيم في نفسي، وفي نفوس الكثيرين. وأخذنا ننظر الى حالة العرب، فتوهمنا في البداية أننا فقدنا مزايانا الحربية التاريخية.

وبينما كانت نفوسنا ثائرة بتأثير نضال الترك في الاناضول، اذا بأخبار الريف العربي لا تقلّ روعة عن أخبار الترك. فزادت في حماسنا اتقادا واتجهت مشاعرنا كلها الى أعمال أبناء جلدتنا العرب، وعلى رأسهم البطل عبد الكريم في المغرب، الذي كان يقاتل أعداءه بشروط لا تقبل قياساً. وأظهر من البطولة في قتالهم ما جعلنا نعتقد أن الخصائص العربية لاتزال موجودة، فاشتعل حب التضحية في نفوسنا وجعلنا نتتبع خطاه. وكان اهتمامي بما يقع في المغرب عظيماً، فأخذت في طلب خرائط ميادين النضال في الريف، وأخذت أتتبع كل ما تكتبه الصحف الفرنسية وغيرها عن طراز القتال وتطوراته. وأصبحت بعد حين محيطاً بدقائق الموقف من الوجهة العسكرية والسياسية في الريف المراكشي.

ولما علمت باستعراض المارشال ليوتي لقوات فرنسة في مراكش، وجمعه الوحدات من أطراف الجزائر، تأكد عندي نشوب حرب بين فرنسة وعبد الكريم. وكان هذا طبيعياً، لأنه لا يمكن للافرنسيين ان يرضوا بوجود مقاطعة عربية في افريقية، خشية سريانها الى افريقيا العربية بكاملها. فكان لزاماً على فرنسا ازالة عبد

الكريم، الذي كان خطره أشد وطأة على الفرنسيين من الاسبانيين. وأخذت أسائل نفسي: «أليست الفرصة سانحة لنا لنقوم بدورنا بتضحية في سبيل انقاذ سورية؟» وأصبحت لديّ الخبرة التامة بمزايا شعبنا ومؤهلاته الحربية وأساليب القتال عند الافرنسيين. وقد امتلأت نفوس القواد والضباط بما أصابوا من غنائم ثمينة، أصبح الحفاظ عليها يهمهم أكثر من الحفاظ على سورية، وملّ أكثرهم كثرة القتال والضحايا. وشرعت في البحث عما اذا كانت فكرة كهذه يعتنقها بعض رجالات البلاد أو الاحزاب، وبعد بحث لم أقع لها على أثر، فعزمت أن أكون أنا بطلها.

وفاتحت ذات ليلة بعض الخلص من اخواني، المطلعين على أفكاري بوجوب القيام بثورة، وترتيب ما يلزم لها فوافقوا وتعاهدنا. وكانوا في بداية الامر قليلين جداً، هم السادة: سعيد ترمانيني وعبد السلام الفرجي ومحمد علي الداغستاني والمرحوم عبد القادر ميسر وطاهر الداغستاني، وبعض ضباط سريتي. وعزمنا أولاً على تأسيس حزب ديني لجذب العلماء صوبنا، والنفوذ منهم الى الشعب، الذي هو كنز القوة، وأسمينا حزبنا بحزب الله. وبادرت في ارخاء لحيتي وصرت أتعمم ليلاً، وأظهر بشكلي الجديد في معظم مساجد البلدة، حيث أحضر صلوات المغرب والعشاء والصبح، ولم يكن لتفوتني صلاة في وقتها أما نهاراً فكنت أرتدي ملابس الضابط الافرنسي وعلى رأسي البرنيطة. وتطورت العلاقات بيني وبين العلماء الى صداقة، وأخذت أوعز لهم بوجوب توحيد دروسهم وخطبهم في المساجد، وانتقاء الآيات القرآنية الحاضة على الجهاد، وتفسيرها وشرح معانيها للعامة. وزيادة في الحيطة ولستر أعمالي، عمدت إلى اعلام المستشار بانتسابي الى الاحزاب الدينية، مبينا له أن القوم، لانتسابي الى الجيش الفرنسي، أخذوا ينعتونني بالكفر، فلا بد لي من الظهور بقيافة دينية والانتماء الى أحد الاحزاب. فدهش المستشار وسألني عن الاحزاب الدينية تلك، فذكرت له الطرق القادرية والرفاعية والنقشبندية وغيرها، وقلت أن هذه جميعها سخافة ولكن لا مانع من مماشاة رجالاتها. فشجعني على عملي، وقطعت بهذه الوسيلة الطريق على كل من توسوس له نفسه بإيصال أخبار حزبي الى الفرنسيين.

ومددت يدي، بعد أن أمنت لنفسي مركزاً محترماً، الى طبقة الشعب، وفيها

الكنز الذي لا ينضب معينه . فتعاهدت مع فريق من المخلصين من اصحاب النفوذ ، وطلبت من كل واحد منهم اختيار عشرة أشخاص من اصدقائه ومعتمديه . ثم مددت يدي الى الوجهاء الذين كانت الشائعات قد سبقتني الى آذانهم، فتعاهدت مع فريق منهم فارضاً على كل واحد منهم مايستطع اعداده من مال ورجال مسلحين. وتوسع من ثم حزب الله، وانتسب اليه كثيرون، وكنت أشعر بإخلاص كل من انتمى اليه. وبعد أن تم لي النفوذ على جميع طبقات الشعب، عزمت على مفاتحة رجالات الدين، وفاتحت المرحوم الدكتور صالح قنباز، فلم يحبذ الثورة، اعتقاداً منه ان ليس في البلاد قوة تستطيع مجابهة الفرنسيين.

وزرت نجيب آغا البرازي في قصره، وبادرته بما يجول في نفسي، فدهش استغراباً، وأخذ يسألني عن التشكيلات، وعن طرق العمل. فأوضحت له لحد ما، غير أنه رغب بتأجيل العمل مدة لإنجاز الحصاد، وجمع المحاصيل. فطلبت منه عهداً، وفرضت عليه ما يمكنه القيام به من المعونة، وبتأمين سفر مندوبنا الى المدن على نفقة البلدية، التي هو رئيسها ، وتقديم مساعدات مالية . وتمكنت بواسطة دخول نجيب آغا في حزبنا من الاتصال بكثير من وجهاء حماة، الذين أتوسم فيهم الخير. ونفذت الى خارج حماة، فشملت التشكيلات مدن حمص وبعلبك وطرابلس والمعرة ودير الزور. وشرعت اخيراً بمفاتحة ضباط الجيش السوري بعد أن ادخلت في الحزب كثيراً من عرفائه ونوابه، وكان كثير من الضباط يترددون في قبول دعوتي.

وأخذت أخبار الشائعات تصل الى أسماع المستشار عن بعض ما قمت به من التشكيلات. فكان المستشار لا يابه لها، ويردها بإزدراء، لتأكده من اخلاصي، وان ما تحدث به الناس لا يتجاوز ما ذكرته له من انتسابي الى تشكيلات الاحزاب الدينية، ومن ثم ادخال معظم عرفاء الجيش السوري الموجودين في حماة الى حزبنا. وأخذت بالتجوال في المراكز العسكرية خارج حماة واتصلت فيها بالضباط والعرفاء بعد أن مهدت السبل الى ذلك برسل بعثتهم قبل اتصالي بهم. وكنت للتأكد من درجة معرفة المستشارين في حمص وحماة بأعمالي، أذكر لهم بأنني أسمع شائعات كثيرة هذه الايام عن وجود تشكيلات ثورية في البلاد. وكنت من جهة اخرى

اتصل برجال التحري، وأطلب منهم الانتباه لما يحدث في البلاد، كما اني كنت ألفت نظر اخواني بوجوب الاحتراز من رجال التحري.

فكنت أدير بهذه الصورة المستشارين ورجال التحري ورجال حزبي والوجهاء بحكمة ولباقة وبشكل لايمكن أن يفضح تشكيلاتنا، ويخلق لنا الصعوبات قبل الأوان، فكانت أمورنا تسير سيراً حسناً. وعُرض يوماً على مستشار حماة، الكولونيل موريبو، منصب حاكم جبل الدروز، فاستشارني في الامر، فقلت له : «قم بجولة في جبل الدروز قبل قبولك المنصب أو رفضه، تدرس فيها أحوال الجبل» وذهبنا معاً الى جبل الدروز ، وسنحت لي الفرصة للاتصال ببعض رجالات الجبل أثناء تجولنا في مدنه، وعبثاً حاولت العثور على من يوافق على فكرتي. ولم أكن أدري هل كان ذلك ناتجاً عن عدم ثقة من فاتحتهم بي، أم لا؟ وعدنا الى دمشق، واتصلت بالأخ توفيق الشريف، وأطلعته على بعض نواياي، وسألته اذا كان له أية صلة برجالات جبل الدروز. فقال لي :«ان نسيب بك الاطرش، معتمد جبل الدروز في دمشق، صديقي المخلص، وهو وطني يعتمد عليه». فذهبت توا بصحبة الاخ توفيق الى منزله، وأخذت أشرح له بعض ما تم من التشكيلات، وما نامله من نتائج باهرة في ثورتنا. فتعاهدنا على أن يبث فكرة الثورة بدوره في الجبل، ونجعل منه معقلاً وقاعدة للثورة.

وتشكل في دمشق حزب الشعب برخصة رسمية. وأدخلت من رجالنا في هذا الحزب، كيما يطلعوا على نوايا القائمين عليه، وهل ثمة فكرة ثورية عندهم. وبعثت الاخوين سعيد ترمانيني وعثمان حوراني الى مركز الحزب في دمشق، وكانا موضع ثقة حزب الله وحزب الشعب. فاتصلا برئيس الحزب الدكتور شهبندر، ففاتحاه بالامر، وأطلعاه على مانتوي القيام به، وذكرا له اننا معتزمون على الثورة، ومن المستحسن أن تضم جهود حزب الشعب الى جهودنا، فاذا كان لديهم شيء من التشكيلات الثورية تفاهمنا من اجل توحيدها. فأجابهما الدكتور شهبندر سلباً، وقال لهما أن فكرة الثورة الآن خطرة ومضرة جداً لمصلحة البلاد. وأتممنا تشكيلاتنا قبل ثورة الجبل، وكانت أعمال البطل عبد الكريم حقا هي الموحية الينا بثورتنا.

وكان المستشار موريبو قد ذهب مأذونا الى فرنسة، وحل الكومندان

« كوستيلير » مكانه، فتقربت اليه، وسلكت معه الطريقة نفسها التي سلكتها مع زملائه السابقين. وكان الفرنسيون قد اتوا في جبل الدروز من أعمال الظلم والارهاق وسوء الادارة والسياسة والاستهتار برجالات الجبل، وبتقاليده وعاداته، وإهانة رجال العلم والازدراء بهم، ما لا يطاق. كما أن سورية كانت تئن من أعمالهم. فرفع رجالات الجبل ظلاماتهم الى المندوب السامي وإلى مستشاريه، ولكن احدا منهم لم يسمع شكاية. وكان الكابتن « كاربيه » حاكم الجبل يمثل الحاكم بأمره المستبد المطلق التصرف، وكان له من رجال المفوضية الفرنسية جماعة يناصرونه، ولما تعين الجنرال « سراي » مندوبا سامياً لسورية انجذب الى هذه الجماعة. وبالرغم من الشكايات التي أبداها رجالات الجبل، لم يبال برغبات الشاكين، بل عمد الى تحقير الوفد الذي جاءه شاكياً، وأمر باعتقال رجاله ونفيهم. وطلب في ذات الوقت من سلطان باشا الاطرش أن يأتيه ليواجهه، وهو ينوي من وراء ذلك نفيه مع بقية الزعماء، غير أن سلطاناً لم تنطل عليه الحيلة، فرفض دعوة المندوب السامي. من اجل ذلك بعث الفرنسيون بسريتين الى القريّا، حيث يقيم سلطان باشا للقبض عليه. وكان سلطان متوقعاً مفاجأة كهذه فوصلت الاخبار الى الفرنسيين قبل وصول الحملة الى القريّا، بأن سلطاناً على استعداد لمجابهتهم فيما اذا أصر الفرنسيون على دخول القريّا. فعدل قائد الحملة ، ورجع الى قرية الكفر، حيث عسكر فيها، وأخذ يراسل سلطاناً ، ويطلب منه الحضور اليه. وتطورت الحالة في الجبل الى ثورة نفسية، ولما علموا باعتقال زعماء الجبل زحف سلطان بجماعته على قرية الكفر، واشتبك مع الافرنسيين بمعركة حامية قصيرة الامد قضوا على السريتين بكاملهما.

وحضر الجنرال « سوليه » بتاريخ ٢٠ تموز سنة ١٩٢٥، وهو مفتش الخيالة، ليفتش وحدتنا، وأطلعني على ما يجري في جبل الدروز من حوادث. وكانت معركة الكفر التي سلف ذكرها قد انتهت بخسارة الافرنسيين، وأخذ الجيش في تجميع بعض الوحدات، للقيام بأعمال واسعة في جبل الدروز، وكان أكثر هذه الوحدات من شمال سورية. وتقدمت من الجنرال سوليه بملاحظاتي عن وجوب ادخار كثير من الاسلحة والعتاد والقنابل اليدوية في الثكنة، لان انسحاب قوى الشمال الى جبل الدروز مما يؤثر على منطقتنا حتماً. وطلبت منه اعطائي الصلاحية

الواسعة لاستعمال هذه الاسلحة عند حدوث مايكدر، لإيقاف الخطر عند حده، خوف استفحال الامر. ومما قلته للجنرال سوليه :« ان فكرة المستشار الاداري القائلة بوجوب اخذ الامور بالسياسة والادارة لا يفسر في نظر الشعب الا بالضعف والخوف ». فاقتنع الجنرال بنظريتي، وأذن لي باستعمال الصلاحية التامة في شؤوني العسكرية.

وما ان غادرنا الجنرال سوليه حتى جئت الكومندان كوستيلر ، بصفتي معاوناً له، أعلمه بأن الجنرال يرى لزوم البطش والايقاع بالناس، وقد يوقعنا تهوره في ورطة. وطلبت منه حمايتي من الجنرال، وإعطائي الصلاحية الواسعة لاخذ الشعب ورجال البادية بالهوادة والحلم والكياسة. فغضب كوستيلر بدوره على الجنرال ووافقني على ماطلبته منه، وبهذه الصورة حظيت على السلطة الواسعة عسكرياً وإدارياً. وضاعفت ثمة جهودي، وشرعت في مباحثة ضباطنا في الشرطة والدرك، وأخذت منهم العهد. وكنت أعلق أهمية كبرى على هجانة تدمر، وكان منهم فصيلان في القريتين، وفاتحت عرفاءهما، فوافقوا. وجعلت أحدهم رئيسا لهم، وعينت رسلا للاتصال بيني وبينهم وزودتهم بخبرة خاصة، وأخذ كلٌّ يعمل في دائرة اختصاصه. وتم لي بذلك الحصول على عناصر قوية اعتمد عليها في ثورتي المقبلة.

ثم شرعت في وضع برامج التشكيلات الادارية لداخل حماة وخارجها. وكان من المقرر جعل نجيب آغا البرازي حاكما لحماة.

والتفتّ الى تنظيم البادية، فاتصلت برؤساء العشائر ، وتعاقدت معهم ، عما يجب عليهم تقديمه من الرجال المسلحين من خيالة ومشاة، وما يجب علي تقديمه للشيخ ورجاله من رواتب، وكان بطل هذه التشكيلات البدوية الشيخ صالح الحرب. وهكذا شملت التشكيلات أكثر قبائل البادية وأمنعها. وكان والدي قد سمع بما أقوم به من تشكيلات، فزارني متسائلاً ، ولم أخف عنه شيئاً من أمري، فساورته المخاوف لاحتمال نقض من عاهدني، ورجاني الانسحاب لو كان باستطاعتي ترك هذا الامر. فأجبته :« لقد عزمت، وتوكلت على الله فيما أنا مقدم عليه، وقضي الامر الآن ولا يمكنني الانسحاب ». قال اذن توكل على الله،

(وكانت زيارته تلك آخر عهدي به، رحمه الله، اذ توفي الى رحمة الله أثناء اقامتي في كركوك)، وودعني والدي ودعا لي بالتوفيق، وقفل راجعاً إلى طرابلس الشام.

وكانت الفرصة سانحة لإعلان الثورة، والظروف جد ملائمة. وكنت كلما عينت موعد الشروع بالثورة كان نجيب آغا البرازي وآخرون من اخواني يطلبون مني التأجيل، فكنت أوافقهم مضطراً. واستفحل أمر حوادث الجبل، وكانت معركة المزرعة آب ١٩٢٥، التي اندحر فيها الافرنسيون، ثم كانت معركة المسيفرة ١٧ ايلول ١٩٢٥. وعلى الاثر أخلى الافرنسيون القسم الشمالي من سورية من قواهم الاساسية، لحشدها في حملة عامة على جبل الدروز، فكانت الفرصة سانحة. وكانوا يعتمدون عليّ في هذا القسم.

وجاءني المرحوم مظهر السباعي، وهو من أعضاء هذه التشكيلات في حمص، فأطلعته على آخر ما وصلت اليه التشكيلات، والفكرة في تنفيذها، والوقت الذي يجب البدء به. ولقد انتدبته للتوجه نحو سلطان باشا الاطرش قائد الثورة العام، مستصحبا معه بعض الشبان الوطنيين الذين يعتمد عليهم، فذكر لي اسم الاخ الوطني منير الريِّس فوافقت وتوجها. وقد كلفته، أولاً: اطلاع سلطان باشا على ما أعددناه من ترتيبات. ثانياً: أن يقوم سلطان ببعض الحركات أوائل تشرين الاول، لاستجلاب ما بقي من القوات الفرنسية في دمشق وازرع نحوه، حيث يفسح لنا المجال للعمل. ثالثا: تعيين نقطة الاتصال، واعتماد أحد رجاله ليكون صلة وصل بينه وبين رسولي الذي أبعثه اليه. رابعا: اعلامي اذا كان لديه أي اقتراح. وكانت هذه التعليمات شفوية لم يخط منها حرف واحد.

ذهب المرحوم مظهر السباعي بتعليماتي الشفوية فحملها الى سلطان باشا الاطرش، ولقد اطلع عليها الدكتور شهبندر. وحدث يوماً أن كنت في نادي الضباط وترتيباتنا كاملة وثورتنا على وشك الانفجار، ودار الحديث حول حوادث الجبل الخطرة. فقلت: «اننا الآن في خطر، وتحت رحمة أية ثورة يقوم بها أي رجل في شمال البلاد، فماذا نستطيع عمله»: وضربت بنفسي مثلاً: قلت: «ولنفرض ان قام فوزي القاوقجي، وأعد ثورة، وأعلنها في هذه الآونة، وفي هذا المكان

فماذا عساكم تفعلون لاتقاء شر هذه الثورة، والمعروف ان الجيش بكامله منشغل في معارك جبل الدروز؟» فعلَت القهقهات من كل جانب، وأجابني أحد الضباط الافرنسيين بقوله: «ما علينا اذا حدثت ثورة الا أن نعد حقائبنا، ونسرع الى ترك حماه». قلت: «وأنا معكم؟» وقد اردت بهذه المداعبة الخطرة جس النبض لمعرفة نفسية أولئك الضباط.

وكانت جيوش فرنسا قد اشتبكت في القتال مع قبائل الريف بقيادة عبد الكريم، وأخذت أخبار انتصاراته تصلنا، كما كانت تصلنا أخبار نجدات فرنسة المرسلة الى مراكش. وهذا ما شجعنا على المضي بما عزمنا عليه، حيث كنت متأكداً من عدم استطاعة فرنسا ارسال نجدات الى سورية في وضعها الحاضر. وكانت ترتيباتي قد تمت، ولم يبق عليّ الا التنفيذ. وتوجهت الى المستشار مقترحا عليه لزوم خروجي الى البادية لمراقبة قبائل العمارات الآتية من العراق، وترحيلها عن المعمورة الى الشرق، كي لا يكون نزوحها الى أطرافها سببا في وقوع مايكدر. وخرجت من لدنه فأعددت من جنود السرية الذين عاهدوني، فريقاً، وعلى رأسهم السرجان ميشال نحاس، ومراسليّ أحمد الفركلي وعلي المغربي الذين قاموا بضروب البطولة في كافة حركات الثورة، حيث بقوا مخلصين وصابرين معي حتى نهاية الثورة السورية. وكنت اتفقت مع الاخوان على جعل ليلة المولد ليلة الثورة. وكان المقصد من خرجتي المبكرة توثيق العهود مع رجالات القبائل خشية انتقاضهم، ولإعلامهم بميعاد ثورتنا، فاتضح لي ان كل شيء يجري على مايرام. ثم طلبت من اخواني في حماة أن يتصلوا بحمص وليبعثوا وفدا من رجال حزبنا ليشاهدوا ما نقوم به في حماة، ولينطلقوا ليلتئذ الى حمص لمباشرة أعمالهم. وطلبت من حماة ارسال سيارات الى قرية مورك، حيث أودعنا خيولنا، لنعود الى حماة. حتى اذا وصلتنا عدنا الى المدينة، وذهبت توا الى دار احد رجالنا حيث دعوت رجال مفارزنا واستفهمت منهم عن استعدادهم، فأجابوا بالايجاب. فأعددت مفارز لقطع خطوط التلفون داخل البلدة وخارجها، ومفارز أخرى لمحاصرة منزل المستشار ودور الضباط الفرنسيين والقاء القبض عليهم أحياء، لنتخذ منهم أسرى ولنفتدي بهم رجالنا الذين قد يقعون بيد الفرنسيين فيما بعد. ثم اتصلت

بنفسي بقوات موقع الشرطة وأخذت منهم كلمة السر المعطاة تلك الليلة. ثم شرعت في التجول مع فريق من رجالنا الجنود كدورية لحفظ الأمن. كما اتصلت بسائر الثكنات، فأرسلت من تسلق جدرانها، وأيقظ الجنود من نومهم، فلبسوا ثيابهم استعدادا، وكان المقرر ان لا يقوموا بحركة قبل اصدار أمري. وكان عليّ أن اجمع مفارز الاهلين التي كنت أعول عليها بالدرجة الاولى كي لا توصم الثورة بعصيان قسم من الجيش ضد قسمه الآخر، بل لتكون لها صبغة وطنية باشتراك الشعب فيها.

وتوجهت إلى دار أحد اخواني البرازيين، التي تقرر اجتماع الرؤساء فيها، لتلقي آخر الاوامر للشروع. غير أن الدقائق مرت وتلتها الساعات دون أن يصلنا أحد. فكم كانت دهشتي لتخلف اخواني عن المجيء اليّ والساعة الآن تشير الى الثانية والنصف بعد منتصف الليل! فأيقنت بفشل خطتنا تلك الليلة. ولم أر بدا من الحزم والصبر، وبعثت أوامري للحال الى المفارز كلها بوجوب تأجيل الشروع إلى إشعار آخر. وكان سبق لمفارز قطع الاسلاك أن أتمت مهمتها. وعدت بالمفرزة إلى مورك حيث وضعنا خيولنا، وبعثت بتقرير الى المستشار أعلمه فيه عن تمكني من ابعاد قبائل العمارات، وبقية القبائل عن المعمورة دون أي حادث مع ضمان عدم وقوع ما يكدر صفو الامن. وكان تقريري ذاك الصادر عن مورك التي تبعد سبع ساعات عن حماة مع الصباح عند المستشار، كما وصلت بقية التقارير عني اليه في الوقت نفسه، وانني كنت الليلة البارحة في حماة. وامتلأت البلدة بالشائعات، وكان المستشار بين مصدق ومكذب، غير أنه لم يجد بدا من التريث لتعرّف أحوالي.

وبلغتني تطورات حوادث جبل الدروز، اذ تمكن الفرنسيون من حشد قوى كبيرة في ازرع تحت قيادة الجنرال غاملان، الذي سار بها باتجاه السويداء وتمكن بعد معارك حاسمة من احتلالها في ٢٣ ايلول ١٩٢٥، وانقاذ حاميتها من الأسر، وفك أسر الجنود الذين وقعوا في أيدي الدروز في معركة المزرعة. وقد انسحب سلطان باشا على أثرها جنوباً، وتفرق كثير ممن كان معه من اخواننا السوريين ونزح بعضهم الى حيفا والقدس، كما وصل البعض الآخر الى القاهرة. وفي ٤ تشرين الأول دخل

الجنرال غاملان قرية عرى واستسلم الامير حمد للفرنسيين. وأيقن الافرنسيون بأنه قد انتهى امر الثورة عند هذا الحد، وأخذت الاسلاك تنقل البشارات الى أنحاء فرنسا كلها. لم أجد أمامي الا الاسراع في الانقضاض على حامية حماة بما يمكنني جمعه من المجاهدين ومهما كلفني الامر على ان اضع الجميع هذه المرة امام أمر واقع لا يمكن اجتنابه. وقررت أن تكون ليلة ٥ تشرين الأول ١٩٢٥ موعداً للشروع. وكان على مغامرتي يتوقف مصير الثورة وانقاذ الجبل وسحب القوات الفرنسية منه الى حماة. وبمغامرتي وحدها نتمكن من إحياء الثورة.

وقمت صباح يوم الجمعة في ٣ تشرين الأول ١٩٢٥ بجولة بين القبائل، معينا لهم يوم الاحد المقبل ٥ تشرين الأول ١٩٢٥ موعدا للشروع في الثورة. وبعثت رسلاً الى حماة لدعوة هيئة اخرى للاجتماع عصر يوم السبت في ٤ تشرين الأول في قرية معرشحور على بعد كيلومترات من حماة. وكان سائق سيارتي الذي وضعه المستشار تحت تصرفي، يسالني بين آونة وأخرى عن سبب تجوالي الغريب، فكنت أجيبه بأنني أفتش عن فرس منهوبة لأعيدها الى صاحبها، وكان السائق ممن لهم صلة بالمستشار. حتى اذا وصلت القرية، وكان الاجتماع، بعثت السيارة مع جنود على رأسهم ميشال وأحمد الى فصائل السرية المتمركزة في جعلين ومحردة حيث أمرتهم بالقاء القبض على الضباط الفرنسيين، وسوقهم اليّ موثوقي الايدي، وتسليم قيادة الفصائل الى عرفائنا، حيث يسيرون باتجاه حماة حسب التعليمات المعطاة. حضر اخواني من حماة، وحضر كذلك بعض مشايخ البادية. وبينما نحن في احاديثنا عن وقائع الجبل اذا بالسيارة تعود الينا حاملة الضباط الافرنسيين موثوقي الايدي، فأدخلوا الى المجلس، حيث أعلنت للاخوان بأن الثورة قد بدأت فعلاً، وان الضباط الآن تعرفوا على كل فرد من اعضاء مجلسنا، وليس ثمة من سبيل لتجنب وقوعها.

وكانت مباغتة لم يجد اخواني معها بدا من مواجهة الامر الواقع، كما بهت الفرنسيون لوجودهم وجها لوجه مع هؤلاء، وأنا بينهم، وهم لا يدرون سبب القاء القبض عليهم، ولا ما سيحل بهم. وطلبت حالا من كل فرد أن يسجل ما أمليه عليه من الاوامر لتنفيذها. وكلفت أحد اخواننا، ممدوح، المتكفل بتجنيد مفرزة من رجال قراه أن يسرع الى وادي الساروت، لقطع الطريق على الجنود الثلاثة المرسلين

من الفصيل الذي أسرنا ضباطه، وهم يحملون بريداً الى حماة، طالباً منه عدم تمكينهم من الوصول الى حماة، أما بقتل العريف الارمني وجندييه، وأما بأسرهم. فتظاهر بالانصياع الى أوامري ، ولكنه عوضاً عن التوجه الى وادي الساروت للقبض على الرسل الثلاثة ، ذهب توا الى مقابلة مستشار حماة، يخبره عن اعلاني للثورة. وأخذ المستشار التلفون ، وعبثاً حاول الاتصال بالفصائل في مراكزها، وعندها أبرق للحال الى بيروت ودمشق وحمص وحلب معلنا ثورتي. واتخذ كل ما استطاع اتخاذه من التدابير للدفاع عن المدينة: سد أبواب الثكنات بالحجارة، وأقام المتاريس على سطوح الثكنات ببالات الحشيش المضغوط، وعزز حامية السراي بسرية جلبها من حصن الشرفة، غير أن هذه الترتيبات والحيطة والحذر جاءت متأخرة. وكانت ثورة حماة وزن الثقل الذي رجح كفتنا في النصر، فانقذت ثمة الجبل ، وأدت الى اخلائه من جيوش العدو وهزيمته، والتزم خطة الدفاع بعد أن كان مهاجماً ، وفتحت أمامنا أبواب ميادين سورية للثورة. وبهذه الترتيبات والاعمال التي قمنا بها تحت ظل رجال الجيش ورجال الامن الافرنسيين، خلال أربعة أشهر، انخذل الذكاء والدهاء الفرنسيين أمام ذكاء العرب ودهائهم.

وطلبت مشايخ القبائل الذين تعاقدت معهم للحضور لمواجهتي. ولما حضروا، أعلمتهم أن الثورة أعلنت، وان الهجوم سيبدأ هذه الليلة على حماة ، وطلبت منهم جمع رجالهم في مكان، وإرسال مراقبين منهم على التلال المشرفة على حماة. والوعد بيني وبينهم لهيب النار الذي سيشاهدونه مندلعا في حماة، عندئذ يحضرون ويتلقون التعليمات بشأن واجباتهم مساء ٥ تشرين الاول ١٩٢٥ مع صوت المؤذن عشاء « الله أكبر » . وحلت الليلة الرهيبة، ودخلت حماة مع غياب الشمس ، لدار السيد الكيلاني، المقرر اجتماعنا فيها. حتى اذا تم اجتماع الاخوان، قمت فخلعت عني قيافة الجندية الفرنسية، ورفعت القبعة التي على رأسي بكل احترام لأنها، وثوبي العسكري، كانا خير درع تمكنت به من إعداد الثورة، ولولاهما لكانت ثورة حماة ، وما نتجت عنه أمراً مستحيلاً.

كانت تنحصر خطة مشروعنا بمايلي: الاستيلاء على مخافر الدرك والشرطة والاستيلاء على اسلحتهم وعتادهم. تخصيص مفرزة بقيادة سعيد ترمانيني لحماية

حي المسيحيين من أي تعدٍّ. الهجوم على السراي واطلاق سراح المسجونين، والاستيلاء على مافيها من أسلحة وعتاد. ثم كان علينا بعد انجاز الصفحة الاولى من الخطة، الهجوم على الثكنات في اليوم التالي واحتلالها.

اخذت المفارز مكانها المقرر. وجعلت بدء الشروع أذان المؤذن وقت العشاء، فكان خير وسيلة يتوسل بها لابلاغ جميع المفارز الامر بالشروع في لحظة واحدة. وما كادت كلمة التكبير تدوي في سماء حماة ، عشاء الليلة، حتى دوّت معها أصوات البنادق في جميع أطرافها، وما هي الا سويعات حتى تم الاستيلاء على المخافر كلها. فتجمعت قوى الفرنسيين داخل السراي التي هاجمناها في نفس الوقت. وبعد قتال عنيف دام حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تمكنا من اقتحام البهو الرئيسي، والاستيلاء عليه، وإخلاء سبيل المساجين، والاستيلاء على ماوصلت اليه أيدينا من البنادق والعتاد والسيوف وتمكن من بقي حياً من رجال الحامية من الافلات من أيدينا، بفتح ثغرة في جدار السراي الخلفي المطل على اسطبلات آل العظم. ولقد كانت خسارتنا في الانفس جد عظيمة، اذ كنا ونحن المهاجمين ، مكشوفين تحت ضوء القمر، بينما المدافعون كانوا يقاتلوننا وهم في ظلمة حالكة. وتمكن الثوار من إشعال السراي بما فيها، كما أشعلوا دائرة اخرى واقعة على الجسر ، وتعالت النيران وشاهدها المترقبون من البدو. تمت هذه الصفحة الاولى من أعمالنا بنجاح عظيم.

تمكنت من جمع قوة من رجال الشعب المجتمعين في مختلف انحاء المدينة ، وبعثت رسلاً الى القبائل بوجوب اللحاق بنا في اليوم التالي، وقد أوفى رجال البدو بما عاهدوني عليه، فجاءني فريق كبير منهم في الصباح. فجمعت قوانا في محلة الحاضر، ثم شرعت في توزيعها على منطقة الجسر، وعلى الدور المشرفة على حماة، وفريق في المآذن المسيطرة على ثكنات الجيش. ولقد حاول الفرنسيون الخروج بخيالتهم من الثكنة، ولكنهم ما كادوا يصلون الجسر حتى قابلهم رجالنا بنيران مؤثرة، ردوهم على أعقابهم، وظلوا قابعين في ثكناتهم طوال مكوثي في حماة.

وما أوفت الساعة السابعة صباحاً، حتى ظهرت طائرة مقاتلة في سماء حماة ، حلقت فوق محلة الحاضر ، حيث قذفت قنابل ثقيلة، ولقد تمكنا من إصابتها

فاضطرت الى الانسحاب والسقوط خارج المدينة. وأتت بعد وقت قصير طائرة أخرى، وأخذت تقذف قنابلها على الحاضر، وعلى أحياء المدينة، ولم تلبث أن ولّت بعد أن أصيبت. وأشتد وطيس المعركة، واستطعنا الصمود أمام جنود ثكنة المرابط، وألحقنا بمن فيها خسائر فادحة. ولقد أرسلت مفرزة من خيرة رجالنا لمحاصرة دار المستشار، الذي سبق أن أحاط داره بالجنود، ونصب مدفعاً رشاشا، أخذ يمطرنا بمقذوفاته. واندلعت ألسنة النيران في أطراف حماة، خصوصاً في سوقها الكبير، وتمكن رجال الثكنة الملاصقة لسوق السمانة من الدفاع ضد هجومنا بقنابلهم اليدوية. ولقد أظهر رجالنا من البطولة ما يعجز عن وصفه القلم، اذ أنهم كانوا يتلقون ما يقذفهم به رجال الثكنة من القنابل اليدوية قبل انفجارها فيسرعون الى قذفها على الجنود، حيث تنفجر.

وفي اللحظة التي اشتد فيها ضغطنا على حامية حماة، والتي أيقن فيها الافرنسيون انه لا مناص لهم من الوقوع بأيدينا لقمة سائغة، ارتفع علم أبيض فوق دار المستشار، فتعالت أصوات رفقائي، وأكثرهم من الجنود والسجناء، ولم نر بدّاً من ايقاف قذف دار المستشار. وظهر في هذه اللحظة من خارج حماة، خارج الدور، نجيب آغا البرازي، في عربة، وحوله فرسانه الذين لم يشترك أحد منهم معنا، متجها نحو دار المستشار. فأسرع الثوار الى رميهم فأمرت بعدم الرمي، لانني كنت معتقداً أن نجيباً انما جاء لاستلام المستشار. اذ كنت حاولت الاتصال بنجيب آغا الليلة البارحة وصباح اليوم، طالباً منه ارسال ما تعهد به البرازيون من رجال وفرسان، فلم اتمكن. وعلمت انهم متجمهرون بأسلحتهم في دورهم داخل المدينة، فداخلني الشك من موقفهم الشاذ، وعدم قيامهم بما تعهدوا لي به . وعند رؤيتي نجيب آغا، ومن معه، استبشرت وأيقنت انه انما قدم ليشترك معنا. دخل نجيب آغا دار المستشار. ولقد علمت فيما بعد بانه انما جاء للاتصال بالمستشار والتفاهم معه ضدنا، ومُراد نجيب آغا ان يفهم المستشار بأن هذه الثورة التي اعلنها فوزي القاوقجي، لا علاقة للاهلين بها، وانما هي عبارة عن عصابة من الجنود قاموا ضد فريق آخر من الجنود أنفسهم. واستقبل المستشار نجيب آغا بغضب شديد، مهدداً، ومما قاله له: «ان فرنسة التي قهرت المانيا لن تعجز عن إخماد الثورة وان أهالي حماة

مسؤولون. ولا يمكن لنجيب آغا ولا للأهلين تبرير موقفهم من الثورة، الا اذا نادوا بسقوط تشكيلات فوزي، وإجبار فوزي ورجاله على ترك المدينة. وبدون هذا لن يتمكنوا من تجنب المسؤولية التي سوف تقع على رؤوسهم». وظل العلم الابيض مرتفعاً على دار المستشار حيث خدعنا به. ولو أنزله لتيقنا من خيانة نجيب آغا في تلك الساعة، ولتابعنا ضغطنا على دار المستشار من جهة، وهاجمنا البرازي ورجاله من جهة اخرى، حتى نتمكن من القبض على الجهتين.

وخرج نجيب آغا من لدن المستشار، وبدلاً من أن يأتي صوبنا لإخبارنا بما جرى بينه وبين المستشار على الاقل، اتجه صوب دور الوجهاء مرسلاً جماعة من رجاله للاتصال بالمجاهدين، طالباً من الجميع الكف عن قتال الافرنسيين، مهدداً بورود نجدات عظيمة منهم. ولم يتورع عن التنديد بأعمالي، وانني كنت المسبب في خراب حماة، وان على الحمويين، اذا ارادوا دفع الكارثة، ان يجبروني على ترك المدينة، والخروج بمن معي. وبذا تمكن نجيب آغا ورجاله من التأثير على الاهلين، وعلى الاخص على المجاهدين، فأخذوا ينفضون من حولنا، ومع كل ذلك لم يتمكن الفرنسيون من الظهور أمامنا. ومر في هذه الاثناء قطار الجنوب، متجها الى حلب، فأرسلت حالاً مفرزة كي ترميه ببعض الطلقات، تنشر الرعب في ركابه فيحملون معهم أخبار الثورة الى حلب. وتعمدت ذات الوقت اطلاق النيران الكثيرة، فأسرع القطار في سيره وهو لا يلوي على شيء.

كنا قطعنا الاتصال بين الشرفة وبقية الثكنات، حيث انعزلت تماماً. وكانت ثكنة المرابط والموقف قد خمدت نيرانها، وضعفت حاميتها لدرجة عدم استطاعتها متابعة الدفاع، واستحالت الى مستشفى من كثرة الاصابات التي وقعت في الجنود، حيث امتلأت بالقتلى والجرحى، ولم يعد يسمع صوت طلقة. فكان الثوار هذه اللحظة منتصرين على المراكز العسكرية كافة، ولم يبق الا حصار تحكيمات الشرفة، وقطع الخطوط الحديدية شمالاً وجنوباً عن المدينة. ولكن ويا للأسف، قد أثمرت جهود البرازي، فلم نفعل.

وجاء في اللحظة من أخبرني باجتماع يعقده وجهاء المدينة في دار الكيلاني

وكان نجيب آغا قد عقده لاقناعهم بالتخلي عني . فأسرعت اليها فاذا بي امام علماء البلدة ووجوهها، وكان معظمهم ممن عاهدني عهد الله وميثاقه على جهاد الافرنسيين. فوقفت فيهم خطيبا حيث أعلمتهم ما نحن عليه من التفوق والفوز في هذه اللحظة، فرد السيد فريد الكيلاني، قائلاً : « انك يا فوزي عاهدت الله، ووفيت. اما نحن، فلا نشعر بقوة تدفعنا لتحمل هذه المصيبة دقيقة واحدة. وان لك الوجه الابيض ». فأجبته : « بأنني لم أعاهد لخوض معركة واحدة، وإنّا سادة الموقف الآن، منتصرون على الفرنسيين القابعين في ثكناتهم ، وانهم لن يستطيعوا الخروج لمقابلتنا ما دام سلاحنا في أيدينا . فهبّوا للوفاء بعهودكم. فاذا لم تفعلوا وخرجت من بلدتكم ، فوالله ستحل عليكم المصائب، فادفعوا الوهم عن رؤوسكم، واستعينوا بالله وثقوا بنصر يأتيكم من لدنه ».

ولم يكن جوابهم على خطبتي الا البكاء والنحيب ، وعبثاً حاولت اقناعهم، وافرنقع عني كل من قاتل معي الا مراسلي الامين الجندي علي المغربي . فاتجهت بعد أن وصلت ثورة حماة الى هذا الموقف، شطر القبائل، لإثارتها، ونشر الثورة في ربوع البادية . خرجت من حماة تحت ستر الظلام ميمما شطر منازل الموالي، الذي سبق لهم أن عاهدوني . حتى اذا وصلت بيت الشيخ فارس العطور، سألته منفعلاً : « أين العهد الذي عاهدتنيه ؟ » أجابني :« انني في انتظار أمرك ». قلت : « أرسل حالاً بضعة فرسان من رجالك الى محطة كوكبان لحرقها ». فلم يتأخر الشيخ، ثم طلبت منه فريقاً من الفرسان للهجوم على حامية المعرة، فأعد لي ماطلبت . ويمّمت المعرة حتى اذا جنّ الليل كمنت في أحد وديانها حتى الظهر، حين بعثت حامية المعرّة خيلها لبئر واقعة خارج الثكنة لسقيها. وكانت الحامية نصبت الرشاشات على أسطحة الثكنة، وأعدت لمفاجأة أي طارق عدتها .

خرج الفصيل الاول للورود، حتى اذا رجع الى الثكنة، وخرج فصيل آخر، انطلق رجالنا مغيرين كالعاصفة. وتمكنا من الوصول الى قلب الخيل، قبل أن تتمكن جنود الرشاشات من طلقة واحدة ، فقُتل أحد الضباط وعدد من الجند . وغنمنا مايقارب الثلاثين فرساً وعدداً من بنادق الجنود وعدنا الى مخيم الشيخ غانمين، دون

أية خسارة تقع فينا . وعم المنطقة فوضى، بعثت السلطة على أثرها طائراتها، وقطاراً مصفحاً لتأديب قبائل الموالي . وبذا نجحت الصفحة الثانية من الثورة، وهي نشر الثورة خارج حماة . وبقيت عشيرة الموالي في اشتباكات مستمرة مع الافرنسيين.

وتركت قبيلة الموالي، وتوجهت انا ومراسلي المغربي ونجدة منّ عشيرة العبادات يرأسها أحمد الكردوش، صوب منازل السبعة معاهديّ أيضاً. وطلبت من الشيخ افراز جماعة من قومه لمشاركتنا في الهجوم على قرية الحمرة ، المتمركز فيها فوج الجيش للاستيلاء على اسلحته. فبعث معي عدداً كبيراً من رجاله، وتبعنا كذلك رجال كثيرون وأباعر لتحمل المنهوب. وسرنا بآخر الليل، وخفت من كثرة الجمع الذين يصطحبهم كثير من غير المحاربين، من فوضى تحصل خلال المعركة، فنتعرض لخسائر كبيرة دون فائدة. فعمدت الى حيلة قد تنطلي على الفوج الفرنسي وهم منقطعون عن بقية الجيش، ومعنوياتهم لا بد أن تكون متحطمة. لذلك اخترت رسولاً أرسلته اليهم يعلمهم بقدومنا على رأس عدد عظيم من الثوار كامل العدد، وطلبت من الرسول ان يبالغ في وصف قوانا، وأن معي جموعاً عظيمة من رجال القبائل وأن يطلب منهم أجرا على خبريته. وطلبت اليه في الوقت نفسه ان يتجسس لنا عن ترتيباتهم على أن يوافينا بالاخبار قبل الوصول إلى أطراف القرية. وأقبل رسولنا مع الصباح نحونا يبشرنا بأن الجيش انهزم من القرية، تاركاً فيها بعض معداته وأرزاقه، وانتشر الخبر بين رجال البدو. وعبثاً حاولت توجيه جموعهم لقطع الطريق على الجيش المنهزم ، والاستيلاء على أسلحته، فقد آثروا الهجوم على القرية والاستيلاء على متروكات الجيش، وفي لمحة كانت المنهوبات محملة على ظهور الخيل والإبل ، حتى ظهور رجالنا أنفسهم. ومع ذلك تمكنت من اصطحاب قسم لا بأس به من الفرسان، وانطلقنا وراءهم، وما نشبت المعركة حتى هرع أهالي القرى الموجودة في جوار الطريق، واشتركوا في القتال. ولقد مُني الفوج الافرنسي المنهزم في طريقه الى حماة بخسارات فادحة ، اذ لحقت به بقية أهالي القرى التي مر بها، وتمكن أخيراً من الوصول الى مدينة حماة، ولكن بحالة يرثى لها، وبكثير من الخسائر في معداته وأرواحه.

وجرت مخابرات على أثر استفحال أمر ثورة حماة بين الجنرال غاملان

والجنرال سراي ، اذ أصرّ هذا على وجوب ترك ثلث القوى الفرنسية في الجبل وسوق الثلثين الى حماة، لاخماد ثورتها. فاعترض الجنرال غاملان لاعتقاده بعدم استطاعة هذا الثلث الصمود أمام قوى الدروز في الجبل، والح بوجوب سوق جميع القوى الى دمشق وحماة. فنزل سراي على رأي زميله، وأخلى الجبل من الجند وأبقى حامية قوية في ازرع. ولقد اعترف «رون دوكيه» في أحد تقاريره، كما أقر بذلك الجنرال سراي ، بأنه :« لولا ثورة حماة التي قام بها أحد الضباط السوريين، الحائز لثقة القواد الفرنسيين الاداريين والعسكريين منهم، لقضي على ثورة الجبل بدخول الجنرال غاملان السويداء. ولكن ثورة حماة اضطرتنا الى سحب قواتنا من الجبل، وسوقها الى سورية، التي عمت الثورة أرجاءها، وجعلتنا نشعر بأننا نعسكر في بلد معاد». وكان من أهم نتائج ثورة حماة حقا انقاذ الجبل ، وفتح ابواب الغوطة وإقليم البلان والقلمون وسائر الميادين أمام الثوار. وهكذا تحولت الثورة الدرزية الموضعية الى ثورة سورية شاملة دامت ما يقارب السنتين.

قضي الامر، وعمت ثورة حماة جميع القبائل القاطنة ما بين حماة وحمص والدير، وشعر الفرنسيون بخطورة الموقف في شمال سورية الخالية من الجند. ولم يبق أمامي بعد اثارة تلك القبائل الا ادخال محجم بن مهيد زعيم قبائل الفدعان في عداد الثوار. وكان علينا لاستدراجه أن نثير نخوته القبائلية، وأن نؤكد له عدم مقدرة الفرنسيين على البقاء في البلاد، وأن لانضيع هذه الفرصة لانها لا تتكرر، وكتبت اليه بهذا المعنى. وتمكنت اخيراً من اقناعه بأن يرسل فريقاً من رجال قبائله الينا لمهمة قطع الطريق بين الفرات وحلب، فقبل وأرسل بعض من ينتمون الى عشيرته. وانقطعت الطرق في شمالي الجزيرة وعمت الفوضى. وكان سبب تخلفه هو تخوفه من قبائل العقيدات التي يعتقد بموالاتهم للافرنسيين وكانوا يقطنون أطراف دير الزور وعلى ضفاف الفرات. ولقد اشترط وجوب اشراك قبائل العقيدات المذكورة لانضمامه الينا، فكان لابد لي من الاتصال بمشايخ العقيدات. فسرت مع رفيقي الشيخ أحمد بن كردوش شيخ العبادات الى مشايخ العقيدات، لاقناعهم، فأقسموا لي بعدم الاتيان بأية معركة ضد قبائل ابن مهيد، فيما اذا اشترك معنا في الثورة، بالرغم من تخوفهم من الشيخ نجرس العقود شيخ قبائل الدليم. على أني اذا

جئتهم بعهد من نجرس بعدم التعدي عليهم، ثاروا معي. وكانت قبائل الدليم تنزل ضفاف الفرات، ضمن الحدود العراقية، وعدت بذاكرتي الى سنواتي الاولى في الموصل، يوم انقذت الشيخ نجرس نفسه من المشنقة. وتركت منازل العقيدات، واتجهت صوب تدمر، وشاهدت سيارة تقترب من مخيمنا، فأشرت على سائقها بالوقوف. فاذا بها جماعة من تجار الاغنام في حلب، ورغبت منهم اعطائي سيارتهم لشدة حاجتي اليها، على أن أعيدها اليهم بعد أيام. فأبوا، فاضطررت الى اخذها، وكان سائقها مصرياً. وأخذت لمرافقتي الحاج مصطفى الديب أحد ثوار حماة وطلبت دليلاً شمريا، عالما بمسالك طرق العراق جيداً. وسارت السيارة بنا في البراري والهضاب حتى وصلنا حدود العراق. وسلكنا في بعض الاودية، وخرج علينا جنود عراقيون وبأيديهم اسلحتهم، وتقدموا صوبنا، واضطررنا الى النزول في هذه النقطة العسكرية التي أسست جديداً على الحدود، أثر حوادث الثورة السورية.

أدخلنا الجنود الى أحدى الخيام، وقام رئيسهم بسؤالي عن هويتي ومقصدي من سفري. أجبته بأني تاجر أغنام حلبي، وأن رعاة غنمي من قبائل عنزة، وأني آت الى أول مدينة عراقية لمشترى بعض الملابس والفراء لهم. قال :« عليك اذن الذهاب الى الرمادي، حيث تعرض على متصرفها أمرك». وكان في هذا القضاء المبرم على حركتي، ودام الأخذ والرد بيننا مدة. وفيما نحن في جدالنا عرفني أحد جنود المخيم، وكان سابقاً هجانا في الجيش التركي، وفي الجيش الافرنسي فيما بعد. فتحايل صارخا في وجهي وهو يجرني اليه، متباعداً بي عن رئيسه، وسألني: «ألست فوزي؟» قلت : « نعم ، أنا هو ». قال : « أعلم أنك والله هالك اذا لم تخرج حالا من هذه النقطة. لان لدينا تعليمات بعد اعلان الثورة السورية بوجوب القاء القبض على أي شخص يجتاز حدودنا، وارساله الى الرمادي. وعما قليل يأتي الضابط الانكليزي، وعندها يمسي الامر مشكلا ». ثم قال :« اسمح لي أن اختلق موضوعا لشتمك وطردك، على أن لا تجابهني». وبادرني الجندي بسبابه وطردنا شر طردة، ولما ابتعدنا عن المخفر سردت على رفاقي ما وقع بيني وبين الجندي، وما اتفقنا عليه. وحين أصبحنا على بعد ساعات من عانة، وهي أقرب بلدة عراقية منا، نفذ

بنزين السيارة ، واضطررنا الى دفعها بأيدينا مسافة ما، لمداراتها في أحد الاودية .

وبعثت الدليل واحد الرفاق الى عانة لمشترى مانحتاجه من البنزين والطعام، ثم اتجهت بنا السيارة نحو هيت حيث ينزل نجرس العقود . وكانت قضية الموصل وقتئذ قائمة بين الترك والانكليز، وقد سبق للاتراك ان أرسلوا دعاتهم وجواسيسهم الى أطراف العراق، فكان لزاماً على السلطة ان تتخذ الحيطة والحذر . لذا كان الوصول الى هيت دون لفت نظر المخافر من الصعوبة بمكان . فأمرت السائق بتجنب الطريق والاتجاه نحو كبيسه ، حتى اذا ظهرت علينا بساتينها ترجلنا، وبعثنا بالسيارة الى الرمادي لانتظارنا فيها . سرنا في بساتين الكبيسه، حتى اذا حاذينا كوخاً على ضفاف الفرات التقينا أصحابه الذين خالونا أتراكاً ودعوا لنا بالنصر . وتدرجت في حديثي معهم الى ذكر نجرس العقود ومكان نزوله، فأشار أحدهم بيده نحو القصر الواقع قبالتنا، وبعثت أخبره بأنني صديق حميم له من الموصل . وبعد هنيهة جاءني فعرّفته بنفسي، فرحب بي، وقال أنه على أتم استعداد لطرد الحكومة العربية من البلاد . وهو يخالني ضابطاً مرسلاً من قبل الترك، وكان قد سبق أن عاهدني على الاخلاص لهم، ليبرهن لي أنه لم ينس العهد الذي قطعه . ولكني طمنته بقولي : «اني لم آتك لهذا » . ثم أخذت في سرد ما وقع لي منذ أن فارقته والغرض الذي من أجله أتيته . وأظهر استعداده للموت معنا، فشكرته . ثم ذكرت له خطورة موقفي من حكومة العراق، واني أخشى ان تعلم بأمري، وأن الامر الذي من اجله قصدته الحصول على عهد خطي منه بعدم تعدي قبائله على قبائل العقيدات . فنادى (الملا)، وأملى عليه عهداً بتأمين قبائل العقيدات على أنفسها وأموالها . ثم كتبت كتابا الى صاحب الجلالة الملك فيصل، وآخر للمرحوم أحمد مريود أعلمهما بتفاصيل ثورة حماة وما تبعها من الاعمال .

وشاعت الاخبار بوجود رجل غريب، قد يكون جاسوساً تركياً عند نجرس العقود، فأخذت السلطة تتحرى الامر، ودخلت كوكبة من الفرسان باحة القصر . وكنت وقتئذ متنكراً بلباس عربي، لا يستطيع أقرب المقربين الي معرفتي فيه، وكنت أتقن اللهجة البدوية، فشرعت أباحث بعض من كان في المجلس عن المراعي الخصيبة التي جذبتنا للنزول فيها . ثم التفت الى نجرس قائلاً : « انني منصرف الساعة الى

منازلنا على الضفة الغربية » . وخرجت من قصره، حيث تواريت عن الانظار، حتى اذا خرجت الدورية من القصر خرجت من مخبئي وعدت الي نجرس، حيث طلبت منه إعداد وسيلة لحملي الى الغوطة التي استفحل أمر الثورة فيها . فأعدّ لنا جملاً ودليلاً شمرياً وزاداً وقربتي ماء ، حتى اذا خيم الظلام عبرنا النهر غرباً متجهين نحو الشام . وكانت المسافة مابين قصر نجرس ودمشق لاتقل عن الستماية كيلومتر، فكنا نسير ليلاً ونهاراً، يتخلل مسيرنا في الاربع والعشرين ساعة أربع ساعات مابين نوم وراحة وأكل ورعي البعير . وكان وقت قدومي الى العراق شتاء، وكانت عودتي من رحلتي الى نجرس في – مربعانية الشتاء – ، والوسيلة الوحيدة التي لدينا للوقاية من البرد هي السير فقط . لذلك أضحت أقدامنا من تأثير السير كخف البعير غلظة .

وعند وصولنا أطراف (القعرة) ، وهي مراعي تجتمع فيها القبائل السورية في فصل الشتاء على الاغلب، وجدت فريقاً من قبائل العقيدات، فطلبت منهم رسولاً يرافقني الى الشيخ . فقال لي أحدهم :« لا فائدة من ذلك الآن لان المستشار الافرنسي كوستيلير سبقك الى ابن مهيد، وأقنعه بلزوم البقاء على الحياد مغدقاً عليه الاعطية وشتى المواعيد » . وقد أثر موقفه ذاك على سائر قبائل العقيدات، وأضحى من الصعوبة بمكان إثارتهم . ولم تجد محاولتي نفعاً، وأضاعت عليّ الوقت الثمين الذي كبدني مشاقاً ومتاعب كنت في غنى عنها .

وبعد سير خمسة عشر يوماً بدأت تطلع علينا منازل القبائل السورية . وكنا نصادف أحياناً بعضا من رجال القبائل الذين اشتركوا في الثورة، حتى اذا سألناهم أخبارها، أخذوا يقصون علينا أخباراً غريبة، ولولا بعض الحكايات المختلقة عني، لأيقنت بصدق ما يخبرونني . وكنا حينذاك على مقربة من قرية ضمير، فنكون اذن قد قطعنا الصحراء الممتدة من ضفة الفرات الغربية الى هذه القرية التي هي على أبواب دمشق بأربعين يوماً .

وكنت جد متشوق لاستطلاع الحالة العامة للثورة : كان الهدوء عند وصولي الى ضمير شاملاً جبل الدروز ، ولم يكن للافرنسيين فيه أثر . وقد سبب هذا الهدوء غير المألوف اختلافاً في الآراء بين زعماء الجبل، فكان سبق أن ارسلت بعض المفارز

الدرزية الى اقليم البلان وحاصبيا وراشيا للقيام ببعض الحركات فيها. أما الغوطة فكان فيها معارك موضعية استكشافية بين حين وآخر، وكان بطلها حينذاك المرحوم حسن الخراط، الذي أحرز انتصارات عديدة على الفرنسيين. أما منطقتي جيرود وجبل قلمون فكان السيد نسيب البكري يقوم فيهما بعمل اداري أكثر منه حربي، كما كان يغذي الغوطة بنجدات من متطوعي تلك المنطقة. ولم يكن أثر للنظام في مناطق الثورة. واتصلت أخيراً بالسيد نسيب البكري، وكنت لا أزال محتفظاً بقيافتي البدوية القذرة، فتلقاني وصحبه، ومن بينهم المجاهد توفيق هولو حيدر بالترحاب، وأخذت أسألهم عن وضع الثورة، فوجدت أن نفوسهم غير مطمئنة للحالة، وآمالهم بالنصر ضعيفة. عندها قررت التوجه الى الجبل لمقابلة سلطان، وللاطلاع عن كثب على حالة الجبل، ولاطلب منه قوة درزية أنحدر بها الى الغوطة وجبال قلمون، أستعين بها على تنظيم مناطق الثورة وتأمين مواردها، وتنظيم مجاهدي القرى على شكل نضمن به الاستمرار في الاعمال.

وكان الاستياء عاماً جميع قرى الغوطة لكثرة ما يطلب منها من التكاليف ومواد الاعاشة، خاصة من معاملة بعض مجاهدي الدروز. ولما عرضت فكرتي على نسيب البكري، حبذ رأيي، وكان يميل لمقابلة سلطان، فسرنا معاً، حتى اذا وصلنا حيث سلطان باشا، أنزلنا ضيوفا عليه. وزارني الامير عادل ارسلان اذ ذاك، وكان له نفوذ عظيم في الجبل، وهو يتحلى بصفات الشجاعة والتضحية والاخلاص. كما زارني الدكتور شهبندر وكان غادر الجبل الى فلسطين أثر تقدم الجنرال غاملان الى السويداء، ثم عاد اليها بعد انسحاب الافرنسيين، وانتشار الثورة ثمة في سورية. وللدكتور صفات نادرة من الذكاء والمقدرة في الخطابة والدهاء والتأثير على مخاطبه.

واتصلت بمعظم الزعماء السوريين. وبعد درس وتمحيص وجدت أن حالة الجبل أسوأ مما كنت أتصور، اذ كان الاختلاف بين الزعماء، أمثال نسيب البكري والامير عادل والدكتور شهبندر من جهة، وسلطان باشا وبعض زعماء الدروز من جهة أخرى، وكان لكل حزب من يعضده ويشجعه. أما السبب في توسع شقة الخلاف فيرجع الى طرق توزيع أموال الثورة على المجاهدين، كان قسم من التبرعات

يرسل رأساً باسم سلطان باشا، كما أن قسما يأتي باسم الامير عادل وقسما آخر باسم الدكتور شهبندر. وكان كل من الاحزاب الثلاثة في عمان والقدس والقاهرة يسعى لتأمين نفوذ رجاله الموجودين في الثورة، حيث يبعث بما يصل الى يده من الاموال والتجهيزات الى حزبه لتقوية نفوذه والسيطرة على رجال الثورة، وكل حزب يرمي الى اظهار نفسه بمظهر المسيطر على سياسة الثورة كيما تنحصر المفاوضات معه دون سواه. فكانت اللجنة التنفيذية في القاهرة والتي يرأسها ميشيل لطف الله تتمتع بأكبر نفوذ سياسي، وكان للامير ميشيل وقتئذ مطامع في سورية يأمل الوصول اليها عن طريق الثورة. وكان أكثر أعضاء هذه اللجنة تؤيد الدكتور شهبندر، ومنهم رئيسها وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي. أما الشيخ رشيد رضا وأسعد داغر فكانا يريدان حزب الاستقلال، الذي يهيمن عليه السيد عادل العظمة في عمان، كما أن رجال حزب الاستقلال، ولجنة القدس كانوا يسندون الامير عادل من جهة، وسلطان والمرحوم رشيد طليع من جهة اخرى.

وسعى الدكتور شهبندر الى استمالة بعض زعماء الدروز وبعض زعماء الغوطة الى صوبه. أما الامير عادل فأسس مقراً له في السويداء، وكان يبذل مايصل ليده في مشترى الاسلحة والعتاد خصوصا الرشاشات، وكان لديه أفضل مجموعة مجهزة. وكان السيد نبيه العظمة في قصر الامير عادل.

أما سلطان فكان يتمتع بأكبر نفوذ بين ثوار الدروز، وكان مركزه الاجتماعي وانتصاراته خير معين له لضم الاكثرية الى جانبه. وكانت الفرصة سانحة للمستشار كوستيلير، المقيم حينذاك في درعا، لاستثمار الخلاف الواقع بين المجاهدين. وكان يرمي من وراء ذلك عزل الجبل عن الغوطة وسائر مناطق الثورة، بإغداقه الأموال علّه يصل الى هدفه عن طريق المال بعدما فشل عن طريق الجيش.

وجدّ الافرنسيون من جهة في تحصين مراكزهم المتعددة، وجمع ما يمكنهم جمعه من قواتهم فيها، بقصد مفاجأة منطقة من مناطق الثورة والقضاء عليها. وبث دعاتهم داخل مناطق الثورة وخارجها لبذر الفساد بين الصفوف من جهة ثانية.

هذه مجمل الحالة عندما وصلت الى الجبل . . .

* * *

شمل الهدوء الغوطة الا بعض حركات العدو الاستكشافية، وطائراته الاستطلاعية. فعزمت على الذهاب الى القلمون لايقاظ روح الكفاح فيه. وبينما أنا في قرية الرحيبة مع نفر من أصحابي، وصلتني رسالة من نسيب البكري يطلب مني فيها الالتحاق به بسرعة في عسال الورد، لأن الافرنسيين استطاعوا التأثير على بعض اهالي القرى وشكلوا منهم جمعاً يحارب تحت لوائهم ضد ثوار الغوطة لحماية جبل قلمون. ولما وصلت اليها لم أجده هناك بل كان في قرية مجاورة، وما كدنا نستقر حتى هاجمتنا طائرتان ثم ظهرت خيالة العدو، فاتخذنا لانفسنا مواقع دفاعية، لكن جماعتنا انسحبوا وشردوا، فأخذت أنادي الى أن عادوا ثانية الى خط الدفاع. ثم تركت الخط بقيادة الاخ عادل الحامدي وذهبت مع من معي من الخيالة لأغامر بمهاجمة مؤخرة العدو وجناحه الأيمن. وطلعنا على العدو ومن معه من العرب الذين ضمهم الى جانبه من الأودية على شكل دائرة كبيرة، ففوجئ بنا وأسرع جنده الى جيادهم، فتتبعناهم وأصليناهم ناراً حامية الى أن هزمناهم الى قرية جبعدين فدخلناها أثرهم فسقط منهم الكثيرون. ثم احرقنا القرية بما فيها من أرزاق وأثاث حتى نلقن كل من تسول له نفسه التعاون مع الافرنسيين درسا قاسياً. ولم ندع للافرنسيين مجالا للتحصن في جبال يبرود، وطاردناهم إلى جهة النبك، فاحتللنا القمم المجاورة ليبرود، ودخل بعض رجالنا القرية فلم يجدوا مقاومة، وملأ الذعر قلوب الاهالي فتركوا القرية والاسواق . وشغلت المجاهدين بأعمال الاستعداد لما قد يصل من النجدات الفرنسية من النبك، ووزعت القوى على الهضاب المجاورة. ووضعنا مدفعاً من عيار ٣٧م غنمناه من الافرنسيين على قمة مشرفة، وكان بدون (سيبة)، وكان رجالنا يخافون من اطلاقه أكثر من خوفهم من مدافع العدو. وطلبت رئيس البلدية ووجوه القرية ولمتهم على اشتراك بعض رجالهم مع الافرنسيين وهددتهم. ووصلت بعد الظهر طلائع العدو تتقدم بسرعة صوب يبرود ، فاشتبكنا معها في قتال عنيف، ولم يستطع العدو اختراق صفوفنا لاستعدادنا الكافي. ثم قمت بمن جمعته حولي من الخيالة بهجوم على جناح العدو الايسر، فارتد من عنف

المفاجأة وانسحب ، وتتبعناه، وانقلب الانسحاب هزيمة نكراء. وكان نصيب الجيش الافرنسي في هذه المعركة أسوأ مما أصابه في معركة الصباح، وتمكن من الافلات الى النبك. وكان من نتائج هذه المعركة استعادة نفوذنا على جبال قلمون كافة. ولكن الافرنسيين نظموا بعد أيام حملة جديدة كبيرة لطردنا من القلمون، وأخذت أخبار تجمعاتهم في النبك ترد الينا. ووردت أخبار حملة قادمة من دمشق عن طريق وادي منين، فأصبح موقفنا حرجاً، لذلك اتخذت مركزاً متوسطاً ، وأرسلت من يرصد حركات جيش العدو.

خرجت علينا القوتان في وقت واحد، ورغم محاولاتي إشغال قوة النبك، أو تأخير مسيرة قوة دمشق، فان قوة العدو كانت متفوقة، ولم نتمكن من المقاومة طويلاً لقلة عتادنا، ولنفاذه. وأخذنا نتراجع نحو الهضاب الشرقية لقرية برزة، وانتهت المعركة بانسحابنا الى الغوطة وبعودة جيش الفرنسيين الى دمشق. وكانت خسارتنا مهمة، كما أن العدو تكبد خسائر فادحة.

كانت الغوطة لا تزال على ما كانت عليه قبل معارك القلمون من الاختلاف والانقسام، لكن ظهر لي اخيراً أن هناك رغبة عند الكثيرين في التنظيم والتوحيد، وفاتحت نسيب البكري بالفكرة واتفقنا على محادثة الزعماء والرؤساء. وصدف أن حضر الدكتور شهبندر، فشرحت له الحالة، واقترحت عليه الاستفادة من هذه الفرصة المؤاتية، لتنظيم الثورة في الغوطة، فوافقني. لكنني اكتشفت فيما بعد أن الدكتور كان يحاول القضاء على نفوذ البكري وغيره في الغوطة، وإقامة زعامة له، ولاسيما أن مركزه في الجبل قد ضعف أمام نفوذ الامير عادل. وأخذ يوزع الاموال على بعض المجاهدين، ويسعى ما أمكن لابعاد البكري عن رئاسة أي اجتماع، وأخذ البكري بدوره يسعى لاستمالة فريق آخر. فازداد الموقف حراجة وتوسعت شقة الخلاف، وعمت الفوضى في الغوطة. ولما تأكدت أن لا فائدة البتة من أي مسعى عزمت أن أترك ميدان الغوطة، وأن أتخذ من جبال قلمون منطقة للثورة أقوم على تنظيمها وإدارتها لتكون نموذجا ومثالاً يحتذى . وأنا أعلم ما يتطلب ذلك من جهود ومغامرات .

انتخبت من اخواني المخلصين فئة، وتوجهت الى قرية ضمير، وكانت أعمالي

في جبل قلمون قد زادت من ثقة الناس بي. وألّفت للحال محكمة برئاسة عادل الحامدي وعضوية مشايخ ومخاتير القرية، وفرضت على القرية عدداً من الرجال احتياطيين يعدّونهم لتبديل من معي من المجاهدين كل خمسة عشر يوماً، ويؤمنون إعاشتهم ووسائط نقلهم . وأصبحت لنا قوة ورهبة خاصة بعد تنفيذ حكم الاعدام في أحد الجواسيس. ثم رحلت عن القرية تاركاً المحكمة فيها الى قرية الرحيبة، وقمت فيها بما قمت في قرية الضمير بنجاح باهر. وقد راق هذا لاهل القرى ، اذ خفت عنهم الاعباء، وأمّن ذلك دوام الثورة طويلاً، حيث لم أكلف القرية الا بإعاشة رجالها. ثم قسمت الجبل الى مناطق وقيادات ، وشكلت دركا وطنيا من أهل القرى لتأمين الامن. فوحد لنا هذا العمل جبل القلمون، وأصبحت هناك حكومة وطنية تقوم بالاعمال، ولم يشغل الاهلون عن أعمالهم الزراعية .

لم يرق للافرنسيين لهذه الاعمال والاخبار، فقرروا تحشيد قوات كبيرة في حمص والنبك. فتوجهت مع من معي بقصد احتلال النبك قبل أن يبدأ الفرنسيون بتحشيداتهم. تقدمت الى يبرود حيث كمنت بالقرب منها طيلة النهار، ثم تابعت المسير الى النبك ، فقسمت القوة ووزعتها لنقوم بهجوم على محيط البلدة فنخترق الى المركز للاستيلاء عليه. وتم الاستيلاء على النبك ما عدا المركز الاساسي المحض وبعض المراكز القريبة منه، وبدأت خسارتنا تتزايد . ولما أيقنت أن لا فائدة سحبت القوى وتراجعنا باتجاه يبرود . وطلبت القسم الثاني الاحتياطي من المجاهدين، وأخذت أقيم خطاً دفاعياً وأحفر الخنادق استعداداً للقاء الفرنسيين بالقرب من يبرود.

زحفت الجيوش الفرنسية الى يبرود، واحتلت هضابها الجنوبية، وأخذت ترسل المصفحات للاستطلاع، ثم زحفت في صباح اليوم التالي برتلين قويين بينهما الخيالة. وبدأت سلسلة من المعارك شديدة للغاية ، وعلى نظام لم تعهده ميادين الثورة. وكنا نتراجع من موضع الى آخر، والفرنسيون يتكبدون خسائر فادحة. وقد تضايقت من قلة العتاد، وأخذت استصرخ الغوطة ، التي تم فيها تشكيل مجلس وطني يرأسه نسيب البكري، أما الامور العسكرية فكان يستلمها مصطفى وصفي. ولكن ذهبت نداءاتي بلا فائدة ، في الوقت الذي كان في الغوطة آلاف مسلحة

عاطلة عن العمل بسبب عدم خروج الافرنسيين للقتال فيها . وقد أثر ما وصل الى الغوطة من أخبار تنظيمنا، ومعاركنا في نفوس رجالها، فبدأوا يثورون على الوضع عندهم . واضطررنا بعد معارك لامعة خالدة الى اخلاء الجبل، وانسحبنا الى الغوطة لنفاذ العتاد، ولتفوق العدو بعدَده وعدده بصورة هائلة .

وما كدت أستقر فترة ، حتى حدث في الغوطة مايشبة الثورة، وتهددت حياة بعض القادة والزعماء. وكان بطلا هذا الانقلاب الشهيد المرحوم شوكت العائدي والدكتور أمين رويحة ، اذ ختما المضابط وأتياني طالبين مني استلام القيادة في الغوطة . وعلى الاثر حضر نسيب البكري يرجوني التمهل الى أن يعقد المجلس الوطني جلسة يقرر فيها ما طلبه الثوار من إسناد القيادة اليّ، فيكون الامر قد تم برضى الجميع . وتم ذلك وقرر المجلس في جلسة فوق العادة إسناد قيادة الغوطة وشمال سورية اليّ مع اعطائي صلاحية المجلس نفسه ، وتعطيل المجلس السابق مؤقتا، وإخبار سلطان باشا بالامر وطلب الموافقة منه .

عقدت على أثر قرارهم جلسة حضرها أكثر الزعماء، واشترطت لقبول القيادة أمراً واحداً هو الطاعة، ما دمت عاملاً للمصلحة ، وفي سبيل إنجاح الثورة. وانتهت الجلسة بمظاهرة حماسية. وهكذا أصبح هذا الجندي البسيط، الذي بدأ جهاده، ولم يكن يملك سلاحاً ولا نفوذاً ، قائد ثورة الغوطة المطاع عن رضى وثقة.

كان أول عمل قمت به بعد استلامي القيادة ، اقامة خط دفاعي مقابل خط الافرنسيين الدفاعي، ثم قسمت الغوطة الى مناطق، وفي كل منطقة قوة وقائد . وألفت هيئات ادارية مستقلة عن الاعمال العسكرية تقوم بجمع الضرائب والاعاشة التي تؤخذ من القرى كلّ حسب طاقتها، ثم توضع في مستودعات حريزة خلف الجبهة . وألّفت هيئة لجمع الأعشار ، وجباية الرسوم على كل مايصدر من الغوطة أو يردها من دمشق. وجعلت من المرج الذي قسمته الى منطقتين منابع احتياطية، فتحسنت الحالة، وزادت الموارد. وأخذ الفرنسيون ينظرون الى ما يصلهم عنا من أخبار بقلق عظيم. وكان قد وصل الكونت « جوفنيل» الذي اراد أولاً التفاهم ثم أعلن كلمته المشهورة « الحرب لمن أراد الحرب والسلم لمن أراد السلم» . وقد قال هذه الكلمة لما أخذت الفرق الفرنسية تأتي الى سورية، بعد أن لاح للفرنسيين النصر

في الريف المغربي. ويظهر تقرير نشرته (المجلة الفرنسية للمشاة) أن الوحدات التي جلبوها الى سورية يتجاوز عددها العشرين الفاً، ساقوها الى المراكز المخصصة لها بشكل سري دون أن تمر بالمدن، في الوقت الذي كان رجالهم الاداريون يتظاهرون برغبتهم في السلم والتفاهم معنا.

حشد الافرنسيون قواهم في مراكز تحيط بجانبي الغوطة لعزلها، فاتخذنا الترتيبات اللازمة ، وبعثنا المفارز الى الاطراف البعيدة حتى لا نفاجأ. وكانت حاجتنا ماسة الى ضباط مدربين يتقنون أعمال الرصد. وبرغم وجود الكثيرين في دمشق الا أن قلة اشتركوا معنا، ومنهم ، وهم لا يتجاوزون العشرة سعيد العاص وشوكت العائدي وفؤاد سليم وعبد القادر مليشو وزكي الحلبي (وجميعهم استشهدوا)(*) وصادق الداغستاني وصبحي العمري وزكي الدروبي وغيرهم. وكانت كلما ازدادت أخبار تحشدات الفرنسيين، ينسلّ بعض الثوار من الغوطة الى جبل الدروز بحجج مختلفة، فضعفت قواتنا في الغوطة كثيراً. ولم أكن متشائماً ، وأخذت التقارير ترد عليّ من كل الانحاء عن تنقلات الجيش الفرنسي ونشاطه، وشعرت أن مركز الثقل واقع على جناحنا الايمن. فضاعفت الجهود لمجابهة الخطر المقبل، وأرسلت مفرزة قوية مجهزة بالرشاشات بقيادة ممدوح العظم الى الهضاب القريبة من القطيفة في الشمال، والي الطرق الآتية من جهة ازرع. أكملنا استعدادنا، وكنت أتوقع الهجوم على شكل احاطة واسعة تفصل المرج عن الغوطة. وكنت مؤمنا بأن الصدمة لا تواجه الا بعد أن تكون وطأتها قد خفت، فنتحرى النقاط الضعيفة في صفوف العدو لننقضّ عليها.

وفي صباح ١٦ تموز ١٩٢٦ كنت في « دوما » قلقاً أفكر، واذا بأحد المجاهدين يصل صارخاً :« ها أن الفرنسيين في بساتين دوما». فقفزت لايقاف الخطر، اذ لم يكن لدينا متسع من الوقت، وهرعت مع فريق من اخواني وجماعة من دوما لصد العدو. ولحسن حظنا وصلنا البساتين التي تفصل المنطقة المكشوفة من المنطقة المشجرة قبل الفرنسيين. وكانت معركة حامية سريعة قضينا فيها على الفصائل

* – استشهد سعيد العاص خلال معارك الثورة الفلسطينية الكبرى

المتقدمة ، التي ولّت الادبار ، واضطر الفرنسيون الى التراجع وإقامة خط دفاعي يبعد عنا كيلومتراً واحداً . وزحف بعضهم نحو القرية التي فيها جرحانا، وعبثا حاولنا افهامهم أن فيها مستشفى ، اذ رفعنا الاعلام وشارات الهلال الاحمر. وشرع من في المستشفى ، وعلى رأسهم الدكتور أمين رويحة، بالدفاع زهاء ساعة الى أن تمكنّا من رد الفرنسيين . وقد أصبت بجرح في خاصرتي، وأصيب الحاج مصطفى ديب في ركبته وهو يحاول سحبي الى الخلف. وهدأت المعركة وقت الظهر. وقد أبدى الدكتور رويحة بطولة وشجاعة نادرتين في علاج جرحانا وفي قتال الافرنسيين على السواء. وكانت حاجتنا ماسة الى الاطباء، وهم كثيرون قابعون في دمشق.

وتمكن شوكت العائدي والامير عز الدين الجزائري من صد الافرنسيين في الجبهة الجنوبية أيضاً، كذلك نجحت مفرزتنا في جبهة برزة في تعطيل قوة الجيش في مضيق منين وتأخيره. وقد ظهر من أوراق الافرنسيين ، التي حصلنا عليها من أسراهم وقتلاهم، انهم كانوا يهدفون اولا الى الاستيلاء على الخط الذي يمر من برزه – دوما – كفربطنا – حبرين، حيث مقر القيادة العامة للثوار، فيحصرون الثوار داخل هلال يستند رأساه على تحكيمات دمشق من الشمال والجنوب. أما المدفعية فتمركزت في دمشق، تقصف بسهولة مواقع الثوار، كذلك كانت الطائرات تسهل مهمة الجيش وتستكشف، وتلقي بقنابلها أيضاً.

كانت خسارتنا في هذا اليوم جسيمة ، لكنها لم تكن كما كنا نتوقع. كان الجيش الفرنسي يهدف الى التقدم الى خط : القابون – جوبر – عين ترما – ببيلا – القدم – الاقصر ، فيحصر الثوار ويساقون الى أفواه حصون دمشق، ولا يبقى لهم الا الموت أو الاستسلام. وبرغم توقيفنا للفرنسيين خارج الغوطة، فإننا أصبحنا الآن داخل هذا النطاق المضروب ، الذي سيستحيل أضيق غدا، ولم يكن أمامنا الا القيام بمغامرة للافلات من هذا النطاق الليلة. وبعد الاستطلاع تبين لي أن أفضل نقطة للاجتياز من بيت نايم حيث توجد فيها قوة من المراكشة، وفعلاً تمكنّا من الإفلات بعد مناوشة بسيطة عن طريق أقنية الماء المجاورة للقرية. ثم وصلنا العتيبة وصرنا محاصِرين بعد أن كنا محاصَرين، وقررت مهاجمة مؤخرة الجيش. وفي الصباح

أخذت الطائرات والمدفعية تقصف مشكّلة سداً نارياً يتقدم خلفه الجيش ببطء، وتحولت الغوطة الى ساحة لمعركة رهيبة. ووصل الفرنسيون الى هدفهم بدون مقاومة، وظنوا أن الثوار قضي عليهم بالمدفعية والطائرات. وصلنا مع غروب الشمس أطراف الغوطة قريباً من حبرين، فوجدنا جموعا من الفرنسيين بأحمالهم وآلياتهم يستريحون، فداهمناهم، فذهلوا، وسرت الفوضى فيهم، وتعقبنا فلولهم، وسقط منهم الكثيرون، ومن بينهم الكومندان «ونك» قائد الخيالة، وهو صديق لي قديم. ذعر الجيش الفرنسي، واشتد حماس الثوار، فارتموا على الجيش من كل جانب. وحاصرنا كفربطنا ودخلناها بعد اشعال الحرائق وانفجار العتاد. وكانت مجزرة لم تدر في خلد الفرنسيين. وما أن بزغت الشمس حتى اخذت الطائرات تلقي قنابلها بدون وعي، وعلى غير هدى.

وبدأت النجدات القوية تصل لانقاذ الفرنسيين، فتقدمت وشوكت العائدي لنحول دون تقدمها. وظلت المعركة حتى عصر اليوم، حيث تمكن الفرنسيون من انقاذ من نجا من سيوفنا من محصوري كفربطنا. ثم تراجعوا الى دمشق، التي كان مقرراً ان يدخلوها منتصرين، ولكن الاقدار أبت الا أن يدخلوها مدحورين. وبهذا فشل هجوم «تطهير الغوطة» بعد معارك دامية استمرت ثلاثة أيام، هي في الحقيقة أكبر معارك الثورة. ظل الثوار بعدها يحتلون الغوطة، ويصدون حملات الفرنسيين أكثر من شهرين.

وأعاد الفرنسيون الكرة، ونظموا حملات جديدة، تتبع أسلوباً جديداً، وتمشط منطقة الغوطة وتأسر أو تقتل من يقع في طريقها. وأثرت هذه الحملات في الثوار، فقابلناها بطرق قتال جديدة، تعتمد على الكمائن التي ننصبها في الاطراف بعيداً عن مركز الغوطة. ونفعت هذه الخطة، وتوقفت حملات الفرنسيين. وكانت المشكلة الخطيرة، التي تهدد الثورة وتفوق خطر العدو، هي مشكلة العتاد المتناقص. وقد دفعنا هذا الى تجنب خوض المعارك الكثيرة، وأخذنا نسعى لتلافي هذا النقص ما أمكن. وإني أذكر باحترام أسماء الابطال الذين ثبتوا نفوسهم، وهم الشهداء شوكت العائدي، والامير عز الدين، والابطال الدكتور أمين رويحة وعادل الحامدي، ومن زعماء الثورة المخلصين أبو عجاج الشيخ وأبو محي الدين شعبان.

وأعدنا تنظيم أنفسنا ما أمكن، وأخذت محكمتنا تنشط في محاكمة الجواسيس، وكنا لا نضنّ بالاعدام.

وقد اخذت جرائد الفرنسيين ودعاياتهم تنشر أخبار القضاء التام على الثورة بدليل الهدوء المخيم على ميادينها، فأردنا تكذيبها بوقائع مدوية. اتخذنا خطاً دفاعياً موازياً لطريق دوما – دمشق، وأرسلنا كتابا مع ركاب سيارة الى المستشار نتحدى فيها قواته. انتظرناها من الصباح الى مابعد الظهر، ثم قررنا الانسحاب، لكن قوات الفرنسيين فاجأتنا، ونحن منسحبون. وحاولت أن أمنع اتصال القوات الفرنسية الخارجة من دوما وحرستا ودمشق، وسرت مع من بقي معي وعددهم تسعة نحو مديرة. وفاجأتنا القوات الفرنسية المتحصنة في مقبرة البلدة، ودارت معركة، تكاثرت فيها القوات من ثلاث جهات، ولم ينقذنا أخيرا الا شوكت العائدي وعادل الحامدي ومفرزتهما. اتصلنا بمجاهدينا المنسحبين وجمعنا قواتنا وارتددنا بهجوم على رتلين للعدو، وانقلبت الآية الى صالحنا بأعظم مما كنا نتوقعه، وكبدنا العدو خسائر كبيرة، ونجونا من موت محقق. وكان لهذه المعركة أثر كبير في اضرام نار الحماسة في المجاهدين وأهل القرى، وأثبتت أن الثورة لم تنته.

حاول الفرنسيون بعد ذلك تأمين الهدوء في الغوطة بوسيلة أخرى، فأرسلوا الينا رسولاً يعلمنا بأن القائد الفرنسي يطلب مفاوضتنا. فحددنا قرية مسرابا مكانا للاجتماع، وبثثت رجال استخباراتنا في أطراف القرية وعلى الطرق المؤدية اليها. ولما تأكدت من وصول الوفد الفرنسي برئاسة الليوتنان «الكسندر» ذهبت بصحبة الدكتور رويحة وعادل وشوكت العائدي، وأخذ الوفد يعرض علينا رغبة الجنرال «غوامه» في الاجتماع بنا في دوما مع كتاب بخطه يؤمننا فيه على حياتنا وعودتنا سالمين. وعرفت من أعضاء الوفد، أن تعليمات أتت من «بوانكريه» نفسه، بأنه يود التفاهم مع المجاهدين الشجعان لا مع أصحاب الاقلام المشاغبين، وأن الحكومة الفرنسية مستعدة لاقامة مجلس تأسيسي في سورية يسنّ دستور البلاد، وانها تعفو عن المجاهدين. أما عني وعن سلطان باشا الاطرش فلا بد لنا من القاء السلاح والاستسلام الى السلطة ريثما تتم الاجراءات الجديدة. فرفضت ذلك وقلت: «ان ليس بوسع من حمل بندقية طيلة سنتين أن يرميها ويستسلم لرحمة من قاتلهم،

ومع ذلك فلا بد من الرجوع الى رأي سلطان باشا الاطرش وهو القائد العام للثورة » . وأعلمتهم أن هذا أمر سهل سريع اذا هيأوا لنا سيارتين وبنزينا كافياً، وكنت في الحقيقة أخدعهم وأطمعهم بأسرنا والقضاء علينا، لانني كنت محتاجاً حقاً الى الاتصال بسلطان باشا لاستطلع حالة الجبل، وأطلب قسما من المجاهدين بسرعة . وطلب مني المستشار « الكسندر » ، جمع جثث قتلى المعارك السابقة في كفربطنا . وقد أرسل فعلاً سيارة واحدة الى المحمدية مساء اليوم نفسه، فأخليت القرية وكمنت في البساتين المجاورة، وجعلت مفرزة في قرية قريبة، ودعوت مفرزة أخرى الى ملاقاتنا الليلة في المحمدية . وقررت الانتظار حتى الثانية عشرة، وإلا فأنا في حلّ من وعدي، وسأقوم بهجوم على دمشق لأثبت قوة الثوار، وتحديهم السلطة .

ولكن الافرنسيين قرروا الغدر ومباغتتنا في المحمدية، فأخرجوا حملة خفيفة دخلت القرية . وكانت المفرزتان اللتان أعددناهما أو دعوناهما قد حضرتا ودخلتا القرية من جهتين، وكنا نحن من الجهة الجنوبية، فجعلت المصادفات الفرنسيين في وضع لا يُحسدون عليه ونحن نحيط بهم من جهات ثلاث . وبدأ اطلاق النار، وتأكد الفرنسيون انهم محاصَرون ، وقد وقعوا في كمين متقن، فانسحبوا بسرعة الى دوما تاركين بعض أحمال العتاد، وانسحبنا نحن من المنطقة كلها بدون خسائر . وأرسلت الى المستشار كتابا مؤثراً أؤنبه فيه على غدره، وبعد أيام أتانا رسوله يؤكد أسفه لحادثة المحمدية، وأن هذا حدث بدون اذنه، وأنه قد أعفى قائد موقع دوما واستبدله بآخر . وأظهر ثانية رغبته في التفاهم، فتظاهرت بتصديق كلامه وباستعدادنا للمفاوضة، وعينت له قرية مسرابا مكانا للاجتماع . وكنت أقصد من هذه المفاوضات كسب الوقت واراحة المجاهدين وإكمال النواقص . وكنت كعادتي بثثت الجواسيس من الاطفال والنساء حول القرية وعلى الطرق المؤدية اليها . وفي الوقت المعين سرت مع شوكت العائدي والدكتور أمين رويحة وما يقرب من العشرين خيالاً ، وكنا مسترسلين بأحاديثنا، لما وصلنا مفترق الطرق المؤدية أحداها الى مسرابا، فألهانا الحديث، وسرنا في طريق أخرى . وكانت هذه الصدفة مشيئة القدر لانقاذنا مرة أخرى من فخ نصبه الافرنسيون لنا بحشود كثيرة طوقت مسرابا

في الساعة العاشرة فلم تجدنا . فأرسلت رسالة شديدة الى قيادتهم، وكانت هذه آخر محاولات غدرهم .

كان الخريف قد جاء ببرده، وخلت الغوطة من سكانها الذين نزحوا الى دمشق، ونضبت الموارد التي كنا نعتاش منها، وبدأ عدد المجاهدين يتناقص من العناء، ومرض الدوسنطاريا . وفي هذه الاثناء وردت كتب من جبل الزاوية يدعوني أهله اليهم لاجعله قاعدة أجدد فيها حياة الثورة . راقت لي الفكرة، فقررت الجلاء عن الغوطة والذهاب الى جبل الدروز لاعداد الحملة . ولما تركنا الغوطة بعد ثلاثة أشهر من هجوم التطويق، كان عددنا لايتجاوز الستة عشر مجاهداً .

أقمنا في أطراف وعرة اللجا . وكان كثير من المجاهدين قد نزح الى الاردن . وكتبت تقارير عما يجب عمله، وما نطلبه . وتمكنت في عشرين يوماً من جمع قوة لا بأس بها ضممت اليها مفرزة نظامية من الجنود المغاربة . وكان الاخوان المرحوم شوكت العائدي والامير عز الدين وعبد القادر مليشو ومظهر السباعي من أبرز المجاهدين في هذه الحملة . وتركنا في ١٩ تشرين الاول ١٩٢٦ الى الغوطة ثانية فوصلنا قرية زغبر جنوبي الكسوة . فوجئنا هناك بطائرتين ، ثم بمفرزة من الخيالة، فأسرعنا بالكمون، ثم أصليناهم ناراً حامية مباغتة، فولُّوا تاركين قتلاهم . ثم مر قطار من جهة الجبل الى دمشق، فاطلقنا عليه الرصاص، لينقل الركاب خبرنا الى دمشق . وما كنا نعلم ساعتها أن القطار يحمل المندوب السامي، وأن الطائرتين والخيالة لحراسته .

انتقلنا الى بساتين داريا، ومنها الى كفرسوسة . وقررنا أن نداعب دمشق بعد طول غياب، فهاجمنا في ٢٢ تشرين الأول ١٩٢٦ القطار الخارج ليلاً من دمشق الى بيروت عند عقبة المزة، حيث لا يمكن اجتيازها بسرعة، فتحول القطار الى مستشفى سيار يحمل الجرحى والقتلى . وما كنا ندري أيضاً بوجود المندوب السامي فيه، وأفلت منا بأعجوبة هذه المرة أيضاً . وفي الوقت نفسه هاجمت مفرزة أخرى التكنة الحميدية . ثم انسحبنا نحو حي الميدان ، ونزلنا في بستان باكير الملاصق للحي، وأمضينا ليلة ٢٣-١٠-١٩٢٦ بهدوء . وكنا كامنين بينما كان

الافرنسيون يفتشون في كل أنحاء الغوطة البعيدة، واتخذنا كل أسباب الحيطة ليلاً ونهاراً. ثم تابعنا سيرنا ليلة ٢٤–١٠ الى عين ترما في قلب الغوطة، ورتبنا أمورنا في بساتينها كلّ في موضع دفاعه استعداداً لأي طارئ. وطلع الصباح ولم يحدث شيء، فأخذت أبحث في تأمين اعاشة المجاهدين، وكان هذا الامر صعباً لأن نفوذ الفرنسيين كان قد امتد على أنحاء الغوطة، التي خلت الا من القليل من أهلها.

ورأى بعض خفرائنا قبل الظهر حميراً محملة بالخبز يسوقها الاهلون ووراءهم جنود السنغال، فأطلقوا النار، وبدأت معركة اشتعل معها خط النار من جهات معسكراتنا الثلاثة، فانسحبنا الى الوراء تاركين أحمالنا وبعض أمتعتنا. وكانت معركة رهيبة، فالقوى غير متكافئة، والمسافات قريبة، والشجاعة التي أبداها مجاهدونا لا توصف، كذلك أظهر الجنود المغاربة المنضمون الينا شجاعة فائقة. وقد نتج عن المعركة خسائر فادحة في الفرنسيين وفينا، وتركنا شهداءنا في أرض المعركة ، وكان من بينهم عدد من خيرة رجالنا منهم مظهر السباعي وعبد القادر مليشو وكثير من المغاربة. وقتل من الفرنسيين خمسة قواد بينهم عثمان شركس الذي غدر بالمرحوم أحمد مريود، وكان قد وعد أهالي ضمير وجبل القلمون الذين يحبونني بأن يوزع أعضاء من جسمي عليهم. وكان عدد من بقي حياً من الثوار الذين قاتلوا قتال الابطال ثلاثة غيري هم شوكت العائدي وعبد الرحمن الصالحاني ومحيي الدين أبو شعبان.

هدّت معركة عين ترما قوانا، وخف عددنا، اذ فقدنا قسماً من اخواننا في المعركة ، كما انسحب قسم آخر الى دمشق، ولم يبق لدينا من العتاد الا القليل. فعزمت على الانسحاب من الغوطة الى ملجأ نأوي اليه، ونعيد تنظيم أنفسنا. واخترت وعرة زاكية، ووصلناها صباح ٢٥–١٠–٢٦ بمشقة، واتخذنا من حدودها المشرفة على السهل خطاً للدفاع. وبعد منتصف النهار ظهرت الطائرات، ثم تبعتها المصفحات، وبعد قليل وصلت كتائب الخيالة، ولما اقتربت فتحنا نيراننا المؤثرة فأسقطنا الكثير من الخيالة، وتراجع الآخرون. لكن الكتائب ظلت تتوارد، ترافقها السيارات المسلحة، وبدأت قوات آتية من قطنا والقنيطرة تحاول تطويقنا، فقابلتها مفرزة بقيادة صادق المغربي. ووردتني أنباء نفاد ذخيرة بعض أقسام الجبهة،

فقررت الانسحاب ، وبدأت مفارزنا تنسحب واحدة أثر الاخرى. ولما أدرك العدو ذلك، بدأ يطاردنا بعنف وقوة، وأصيب صادق المغربي في فخذه، فساعدته على السير، وأردفته وراء مجاهد على فرسه. وبقيت وحدي، فأسرعت للحاق برفاقي، لكن المطاردين لحقوا بي، وغفلوا عني لانني كنت أرتدي ملابس عسكرية، وظنوني من جنودهم المتقدمين. وأخذت الطائرات تفعل فعلها، بشظايا قنابلها، وبشظايا الحجارة، فأصيب عدد كبير من جنودنا.

ووصلنا أخيراً الى طرف الوعرة الجنوبي، حيث يبدأ السهل. وكان المجاهدون قد توسطوا السهل في طريقهم الى تل أبي عيابة، فأخذت الطائرات تطاردهم. وأسرعت مع جماعة من الخيالة لإشغال التلال المحاذية، لنحمي تراجع جنودنا. وظل القتال ملتهباً حتى غابت الشمس، وأخذ السكون يشمل المنطقة تدريجيا. وكان شوكت العائدي قد وصل التل مع جماعة لا يزيد عددهم عن سبعة، ومعهم صادق المغربي، وبعد أن استراحوا واطمأنوا قليلاً فاجأهم هجوم جديد، فاستشهدوا جميعاً، بعد أن فتكوا بالعدو. وأصبح التل قبراً لمن كان عليه.

وانطوت بذلك آخر صفحة من صفحات ميدان الغوطة المجيد، وتم جلاء المجاهدين عنها نهائياً. وانسحبنا باتجاه جبل الدروز، ونفوسنا يحزها الألم.

* * *

وصلنا اللجا ٢٧–١٠–٢٦، وقد مضت علينا أيام خمسة بلا نوم ولا غذاء. وجابهنا حملة الفرنسيين الخارجة من الشهباء، ودام القتال يومين، ولم يستطع العدو دخول لاهثه ، وأسقطنا له طائرة في الخالدية، فارتد على أعقابه. وقد انسانا نصرنا في هذين اليومين شيئاً من الحزن، وملأ نفوسنا ارتياحاً. كانت السويداء والشهباء وصلخد قد سقطت في أيدي الافرنسيين، وانتشر نفوذهم في الجبل كله، ولم يبق الا الاستيلاء على اللجا حتى يتم لهم انهاء الثورة. وكان كثير من أهل القرى، الذين أصابتهم الثورة بكثير من النكبات والآلام، قد مالوا الى السلم، ونزح كثير من مجاهدي الدروز الى الاردن وعلى رأسهم قائد الثورة سلطان باشا الاطرش والامير عادل.

ولما تأكدت انه لا يمكن القيام بعمل في الجبل، قررت الذهاب الى الاردن لاتصل باللجان، وأستعين بأموالها في جمع المجاهدين الذين يملأون الاردن. وصلت الاردن في ٢-١١-٢٦، وذهبت الى عمان متخفيا ثم الى القدس، وعدت ثانية الى عمان في ١٢-١١-٢٦. كان الازرق يعج بمخيمات الثوار، وأكثرهم من الجبل. وكانت عمان مركزاً آخر يغص بمجاهدي الغوطة ودمشق، والزعماء مثل نسيب البكري وسعيد العاص وزكي الدروبي. وكان كلّ من المركزين يطالب بالمال لتجهيز المجاهدين، والكل يشكو وغير راضٍ. وانقسم المجاهدون الى أحزاب وجماعات متخالفة، وتطور الخلاف الى نفور، فعداء. وبدأت فكرة الثورة تضعف وتتقلص، وأصبح من المتعذر اقناع المجاهدين بالعودة الى ساحة القتال بدون رواتب تؤمن حاجاتهم. وفي رأيي أن المجاهد الثائر اذا حارب براتب وأجر، فقد الصفات التي يتفوق بها على الجندي العدو. وتزايدت أخطار الفوضى كل يوم، ولما عجزت اللجان عن تامين اعاشة المجاهدين، بدأ بعضهم يبيع سلاحه وتجهيزاته ليؤمن معيشته. ومع كل سلاح يخرج من يد الثائر تنهار دعامة من دعائم الثورة.

ورأيت ان الواجب يدعوني الى العمل ثانية في ميادين الثورة مهما كلف الامر. وعبثاً حاولت أن أقنع اللجان بالا يعتبروا الثائر الا من كان ضمن حدود الثورة السورية، فلا ينفقوا على أحد خارجها. ولما لم أفلح اتفقت مع خمسين فارساً للعودة الى الجهاد، وقد كلفني تجهيزهم مبالغ طائلة. تحركت من الاردن في ٣٠ تشرين ثاني، وكانت الامطار الغزيرة تتساقط، فأعاقت مسيرنا وتأمين الاعاشة وعلف الدواب. واتجهنا على الرغم من هذا الى الصفاء لاجعل منه قاعدة جديدة، بمساعدة صديقي الشيخ خلف النعير. والصفاء أرض بركانية صعبة المسالك بمحاذاة جبل الدروز من الشرق، تتصل جنوباً بالاردن وشمالا بجبل قلمون. وتحدها الصحراء شرقاً، فهي أفضل ملجأ ومعقل. ولم يتحمل الفرسان صعوبة الطريق، فرجعوا قبل أن نصل، ولم يبق معي سوى ثمانية خيالة منهم الدكتور أمين رويحة، وأولاد النبواني من أشراف عائلات دروز الجبل، ومراسليّ المخلصين.

وصلنا الصفاء ونزلنا في ضيافة الشيخ خلف النعير، ولم يكن معنا مال نؤثر به على عربان النعير، فأخذت أعده بالمواعيد الذهبية وأحاول دفعه الى التاثير على

بعض عربانه لتأمين فريق منهم يشترك معنا. ولما تيقنت افلاسنا من هذه المنطقة، أخذت أفكر فيما آلت اليه الثورة التي كلفتنا آلاف الشهداء، والاموال الكثيرة، والدمار.... فعزمت أن أغامر بمباغتة مراكز دمشق نفسها، مصمماً على ألا أعود من هذه المغامرة، وحبب الى نفسي الاستشهاد على أبواب دمشق الشرقية. ففاتحت اخواني الثمانية بما يجول بخاطري، فوافقوني، وأكبرت فيهم هذه الروح العظيمة. ويممنا دمشق مع غروب الشمس. ولما وصلنا أطراف المرج إلى خربة الدير شرقي عتيبة، ترجلنا ودفنا أوراقنا هناك، وتواعدنا على أن من يعود حياً منا يأخذ الاوراق، ويوصلها الى أهلنا. ومما كتبته في دفتر مذكراتي موصياً بتاريخ ٢١-١٢-١٩٢٦:
«... فنحن الآن سائرون الى هذه الطريق التي توصلنا الى ذروة الشرف، وفيها آخر المفاداة، ونهاية التضحية. فلتحيَ بلادي، ولتحيَ أمتي، وليعش مجدي (ابني) مجيداً من بعدي».

كانت الامطار الكثيرة قد أحالت المرج الى بحيرة. أما الافرنسيون فقد اطمأنوا لاستتباب الامر لهم، وأقاموا في قرى الغوطة حرسا مسلحا من أهلها، وأوصلوا أسلاك البرق الى كل المراكز. فلجأنا الى الحيلة بعد عبورنا المرج بسلام، فرتبت جماعتي ترتيب دورية افرنسية، وأخذت أكلم كل من أمرّ به بالفرنسية بفظاظة، وكان الدكتور رويحة ترجمانا لي. وانطلت الحيلة على الجميع الى أن وصلنا جوبر ومنها الى القابون حيث تركنا خيلنا، وتقدمنا الى مركز جسر تورا، وكانت الليلة ليلة عيد ميلاد، والافرنسيون في مرح ونشوة. ثم أطلقنا نيران حامية، فأذهلت المفاجأة من في المركز، فاندفعوا يطلقون النار على غير هدى، وانطلقت بعدها النيران من بقية المراكز، واستولى الذعر على دمشق، واشتعلت الغوطة من جديد.

انسحبنا على الاثر، وامتطينا جيادنا متجهين نحو جوبر، وقمنا بالحيلة السابقة نفسها. ووصلنا أخيرا الى قرية عربين، فطلبت رئيس الحرس وأمرته بجمع عناصره، وأخذت أوبخهم وأشتمهم، وكان في نيتي أن أجردهم من سلاحهم، لكن وصول المصفحات حال دون ذلك. فانسللنا من عربين الى غيرها من القرى نفعل ما فعلناه فيها. ثم خضنا سهل المرج، ومنه الى الدير، فأرحنا خيولنا، واسترجعنا أوراقنا. وكانت الطائرات تملأ سماء الغوطة بحثاً عن معكري السكون. وكان لهذا الحادث دوي كبير. ولما وصلنا خلف النعير، كانت الاشاعات المضخمة قد سبقتنا،

فاستقبلنا بفرح وترحاب، ووجدت في رجاله رغبة صادقة في العمل معنا.

أرسلت رسولي هزاع الى حمص وحلب وجبل الزاوية استطلع الحالة فيها، وأعطيته كتابا ختمته بسبعة أختام زورت فيه رسالة من مصطفى كمال يعلن فيه استعداده لمساعدتنا وأنه بدأ يشحن الاسلحة، ويعلمنا فيه أن الدول السبع قررت محاكمة فرنسة في الربيع المقبل. وطلبت من هزاع عند رجوعه أن يطلق عيارات نارية اعلانا لفرحته بما يحمل من البشارة العظيمة لنا. وقد أتاني رسول من هزاع يعلمني باستعداد الشمال استعدادا تاما، ويعلمني بأنه اتصل بزعماء جبل الزاوية النازحين الى تركيا، وأنهم مستعدون، وأنه ليس لي إلا أن أحدد الزمان والمكان. فأرسلت لهم حالا أن موعدنا صباح عيد الفطر في ٤ نيسان ١٩٢٧، منتظراً نهاية الشتاء. وأخذت أعمل على تكوين مفرزة كبيرة من خيالة عرب النعير. لغزوة الشمال، مستفيداً مما أثارته الغنائم السابقة، ومن الكتاب المزور الذي جاء به هزاع بعد أيام.

تركت الصفاء، بعد أن أمنت من رجالها مفرزة قوية برئاسة خلف النعير نفسه، واتجهت الى الازرق لتأمين عدد من المجاهدين وتجهيزاتهم. فوصلنا الازرق ثم عمان، وكانت الاحوال هناك تزداد سوءا، فالاموال قليلة، وأكثر المجاهدين باعوا اسلحتهم، ولم يعد أحد يفكر بالثورة. ولم يكن لديّ متسع من الوقت، فعليّ أن أقطع مسافة ٥٠٠ كم الى أن أصل جبل الزاوية في الوقت المحدد، لذلك ذهبت بنفسي الى القرى متنكراً، أحاول جمع التجهيزات. ثم عدت الى عمان واجتمعت مع الدكتور الشهبندر وعدد من الزعماء، وكان موضوع الاجتماع يدور حول المحافظة على حقوق ثوار الغوطة ودمشق. ولما صارحت المجتمعين بعزمي على الذهاب الى جبل الزاوية سخروا مني، وتحدوني، في مثل هذه الظروف التي سيطر فيها الافرنسيون على البلاد، وخلت من الثوار، وتحدوني أن أصل الى النبك، ورأوا في مغامرتي ضرباً من الجنون. لكني بقيت مصراً، وتمكنت من جمع خمسة وأربعين مجاهداً، دسّوا بينهم ثلاثة أقسموا اليمين على اغتيالي اذا بدأت بالمغامرة، لان فيها خروجاً على المجموع، ومجازفة بأرواح دون فائدة.

تركنا الازرق مساء ٩ آذار ١٩٢٧ الى الصفاء، يودعنا خوف وقلق بعض

اخواننا وسخرية بعضهم الآخر وحقدهم. وكنا جميعاً عالمين بالاخطار والمهالك، وكنت آمل أن أضيف الى قوتنا القليلة فريقاً من عرب النعير. وقد كانت ميادين سورية قد هدأت كلها، عدا منطقة اللجا المنيعة، التي أخذ الفرنسيون يحاصرونها بجد، وحشدوا لها جيشا ضخما، لا يشغله شيء عن هدفه. وفرضت السلطة على أهالي مناطق الثورة تقديم الاسلحة والاموال، ووكل أمر جبايتها الى الوحدات الشركسية. سرنا نحو الشمال والموقف العام على ما ذكرت، وليس معنا من العتاد الا ما نحمله، ومن الاعاشة الا ما سنحصل عليه، ولا شيء من المال. وكنت أقصد من مغامرتي هذه ان أستفز نفوس الآلاف من المجاهدين المحتشدين في الاردن، للعمل، فإما أن نعيد الحياة للثورة ؛ وإما أن يقضى علينا فنلحق بمن سبقنا من الشهداء.

وصلنا بعد أربعة أيام منازل خلف النعير، لكننا وجدناه للاسف قد خضع للفرنسيين، وتفاهموا معه وأطمعوه بالوعود، بعد أن أوقعت الطائرات في بدوه الرعب والخسارة. وقد أحسن خلف وفادتنا، وأمليت عليه كتابا الى المستشار الافرنسي في الضمير « تيريه » :« ان فوزي القاوقجي اتى ومعه ٥٠٠ خيال ومدفعان وعشرة رشاشات.. وأنه توجه الى الغوطة ليخرب سكة حديد دمشق – درعا ثم دمشق – بيروت ». واتجهنا بعد ذلك الى الشمال في الحادي والعشرين من شهر آذار، والتقينا شمال شرق جيرود بجماعة من حمص على رأسهم نظير النشواتي، كانت متجهة الى الاردن، فأقنعناهم بمرافقتنا، فأصبح عددنا ٧٤ مقاتلاً منهم ٢٧ فارسا. وكنا نسير ليلاً، ونكمن طول النهار. وكان الفرنسيون يفتشون عنا باتجاه الجنوب والغوطة.

اضطررنا بسبب قلة الاعاشة الى دخول قرية الغنطو، وباغتنا أهلها، وجردنا الدرك من اسلحتهم وخيلهم، وكمنّا فيها الى الصباح حيث قدمت خيالة درك مع الجابي، فاستولينا على اسلحتهم وجيادهم. ووصل الخبر الى حمص، فقامت القيامة وأخذت الطائرات تجول وتبحث. وكنت أوهمت سكان القرية اني متجه الى القريتين جنوباً، ثم سرت شمالاً. وصلنا صباح ٢٦-٣ جبل البلعاس، وكان يغص بقبائل حمص وحماه، وكلهم يعرفني، ولم أستطع الاختفاء، فقررت الظهور، واستقبلني العربان بالترحيب. ولكنهم للاسف كانوا قد خضعوا للسلطة الفرنسية،

فكان طبيعياً أن يخبروها عن قدومي، فاعلنت ، لتضليلهم، انني سائر الى السلمية لتأديب أهلها الذين انضم كثير منهم الى الافرنسيين. ثم اتجهت في ٢٨ آذار نحو الشمال تاركا القوات الفرنسية تتحشد في حماة والسلمية .

كان الجو لا يزال بارداً ، وقد أنهكت قوى المجاهدين، وتقطعت أحذيتهم من المسير المتواصل بمعدل ٤٠ كم كل يوم، ولم يكن لديهم الا الصبر والايمان . وكنا الآن في ارض منبسطة تملأها منازل عشيرة الحديدية الموالية للافرنسيين، ومن الصعب اجتياز هذه البقعة ليلاً دون أن يحسوا بنا. فقررنا السير نهاراً وتنكرت في زي ضابط افرنسي، ومثلت مع من معي دور سرية متطوعة في الجيش الفرنسي. ونزلت في منازل القبيلة ، ولم يشك احد بأمرنا، وعلمت منهم أن هناك قوة تنحدر من حلب وتتحشد في المعرة وجوارها. ولما أمسى المساء طلبت دليلاً لإيصالي الى محل التجمع، وسرنا الى أن قطعنا السكة الحديدية شمال حمدانية، وبقيت لنا حتى سفوح جبل الزاوية الشرقية ارض منبسطة بمسافة ٢٥ كم . وأعملنا الحيلة، وأخذنا نجتاز القرية تلو القرية والمعسكر تلو المعسكر، والجميع يظننا جزءاً من القوة الفرنسية المحتشدة. ثم نزلنا خربة تبعد ٧ كم عن المعرة، وأرسلت هزاعاً الى دار حكمة الحراكي في المعرة، وهو أحد من راسلني طالبا قدومي الى الشمال. فصعق لخبر وصولي في هذا الوقت الذي تغص فيه المعرة بالجند، وأمّن لنا بعض الاحذية والاعاشة، كذلك أمن لنا الامير شايش أمير الموالي بعض الذبائح.

تركنا الخربة بعد الغياب ، وسرنا الليل بطوله نحو الجبل، ووصلنا صباح عيد الفطر ٣ نيسان ١٩٢٧ الى قرية جدار. واتخذت قرية حاس مركزاً لي، وأرسلت رسلي ليعلموا من طلبني بحضوري، وليستنفروا الناس. ولكن كانت أول طلقة أطلقت علينا من قرية كفرنبل التي ذهبنا نأتي منها بالإعاشة، فتأكدت أن الامر صعب، وأننا مقبلون على أحداث جسام. وصلت أخبارنا الى الافرنسيين، فبدأت الطائرات تحوم فوق رؤوسنا، فشعرنا هناك بالضياع والغربة، وأن الاعداء يحيطون بنا من كل جانب. ولم يكن أمامنا الا أن نستمد المعونة من مناعة الارض، فاتجهت شمالا نحو الجبل الوسطاني، واتخذت من الجبال المجاورة لبالس موضعا للدفاع. وزاد وقع الامر سوءاً في نفسي لما عاد مراسلي هزّاع ليخبرني أن الاهلين لن يقدموا المساعدة أو يشهروا الثورة ما لم يأت الزعماء الموجودون في تركيا. فايقنت ألا مفر

لي الا الصبر والاستبسال، خاصة في المعركة الاولى حتى أخيف العدو أولاً، وندفع الاهالي الى احترامنا والاشتراك معنا ثانياً .

جمع العدو قواته من حلب والمعرة وإدلب وحارم وغيرها، وزحف على مواقعنا صباح ٥ نيسان، وحاول الإحاطة بنا، ونشبت المعركة ، واحتدمت. وتمكن العدو من التقدم، وضغط على جناحنا الايمن المنيع فافرزت قوة لمساعدته وتمكن من دحر القوة المهاجمة ، كذلك فعلنا في جناحنا الايسر، وعبثاً حاول الفرنسيون. ولما مالت الشمس الى المغيب، وأيقن الفرنسيون ان لا طاقة لهم علينا، انقلبوا مدافعين، واستمرت المناوشات المحدودة حتى ما بعد العشاء، ثم انسحب آخر جندي. وقد كان أثر هذه المعركة عظيماً ، اذ تأكد الاهالي من قوتنا وصدقنا وامتلأت نفوسهم اعجابا بنا واحتراما لنا. وقد سقط في هذه المعركة أولاد النبواني، وأصيب كذلك الدكتور رويحة. وقد جرت هذه المعركة تحت المطر الغزير والبرد الشديد، ونحن لم نرتح بعد، وما كنا نملك الكساء أو الغذاء الكافيين.

أخذ العدو، بعد هذه المعركة يحسب لوجودنا ألف حساب، ويخشى من نشر الثورة في هذه الانحاء الخطرة. لذلك أسرع الى جلب الوحدات من كل انحاء سورية، ولاسيما منطقة اللجا،التي انقلب فيها مدافعاً، وتمكنّا بذلك من انقاذها. قررت الانسحاب الى الجنوب ، وترك الجبل بعد أن تأكدت من عدم امكان الحصول على المساعدة من أهله. وكان علينا ان نفكر في طريقة سليمة للانسحاب، نضلل بها الفرنسيين، لان المنطقة بعد جبل الزاوية منبسطة. وتظاهرنا بالاتجاه الى أريحا لاحتلالها، حتى أجعل الفرنسيين يحشدون قواتهم هناك، وفي نيتنا أن ننحرف بسرعة نحو الجنوب. وسرنا في جو قارص البرودة، وماطر، بعد أن أودعنا جرحانا عند أهل قرية بالس. ووصلنا سفوح جبل أريحا مع شروق الشمس، ففوجئنا بحملات العدو المرابطة في سفحه الشمالي. حاولت اجتناب المعركة، لقلة العتاد، والتعب والمرض الذي أصاب رجالنا، ولكن اضطررت الى دخول المعركة. وصلت أولا فرسان العدو، فرددناها، ثم وصلت المشاة تتقدم بحماية المدفعية. ولم يستطع العدو الاقتراب منا، وجاء الليل، وتوقفت المعركة ، وكانت خسارتنا ثلاثة جرحى .

تابعنا الانسحاب الى جوار قرية كفرسنجة ومنها الى الجنوب، ثم انعطفنا فجأة في الليل نحو الغرب مقابل جبل شخشبيو ، فأضاع العدوّ أثرنا، وكنا قد وصلنا المنطقة السهلية، أي سهول حماة وحمص. وجمعت اخواني وقلت لهم ان من الاسلم لنا أن ننقسم هنا قسمين ، المشاة ومعهم الدليل هزاع، وأنا مع الخيالة نتحرش بالعدو، ونلفت نظره الينا فينجو المشاة. وكان المطر الشديد والضباب الستار الوحيد لنا، يحجبنا عن أعين العدو، الذي عاد الى الشمال باتجاه جبل شخشبيو. فاجتزنا سهل حماة جنوبا باتجاه قرية الطيبة، ثم تابعنا السير الى حماة. ولما اقتربنا من المستشفى الاهلي، ألهاني حديثي مع الدكتور رويحة عن ذكريات ثورة حماة، فلم أسمع الا صوت جندي فرنسي ينذرنا، ثم يطلق النار، وتبعه في اطلاق النار مخفر الحاضر الشرقي. فحنَّت نفسي لمداعبة حماة، فأطلقنا الرصاص على المخافر والمستشفى وفي سماء البلدة تحية للبلدة، ثم أسرعنا بالسير جنوباً الى أن وصلنا مشارف حمص، فدخلنا أحد منازلها المتطرفة ليلاً. وبعد استراحة قصيرة تابعنا مسيرنا، حتى جبال حسية، وما كدنا نشرع في تناول فطورنا حتى كان الجند على مقربة كيلو مترين منا. فتسلقنا المرتفعات، ثم سرنا حتى العصر باتجاه الجنوب نحو قرية الحميرة، لكنها كانت خالية من أهلها، وهنا لم تعد قوتنا المنهكة قادرة على مواصلة السير، واستولى عليّ النوم. ثم تابعنا السير وأشرفنا على سهل جيرود من الجبل الشرقي، وكان طريق تدمر – القريتين – دمشق يمر بهذا السهل، ورأينا حملة فرنسية تهبط الى السهل، ولو كان العتاد معنا كافياً لما نجا واحد منهم.

ظللنا في أماكننا نرقب الى ان تركت قوات العدو نحو جيرود فانحدرنا أثرها، وكانت حاجتنا الى الماء شديدة. ولما وصلنا أول الصفاء أخذنا نفتش عن منازل الأعراب أو عن قطرة ماء، فلم نجدها الا في العِشاء، وكانت بركة ماء آسن مليء بالديدان، فمرضنا جميعا. ثم تابعنا المسير ووصلنا منازل الأعراب في ١٤ نيسان، وكان الى جوارها منازل الدروز الذين نزحوا من اللجا. فاستقبلونا وأطعمونا لأول مرة منذ أربعة أيام عشناها بلا طعام، وبعد مسير ثمان وعشرين ليلة مضنية مخيفة. وحدثني النازحون عن أخبار معارك اللجا، وكيف كان لحركتنا في جبل الزاوية فضل تخفيف الضغط عن المدافعين ، بعد أن كاد عتادهم ينفذ، حتى ان السلطة الفرنسية أصدرت بلاغاً بينت فيه أن حركة جبل الزاوية قد تمت بعد اتفاق بيني

وبين سلطان باشا الاطرش.

كان في الصفاء عدد عظيم من الثوار، فوجدت الفرصة سانحة لاتخذ من هذا المعقل قاعدة نعاود منها الاعمال في مختلف الميادين. فأرسلت تقريراً مع الدكتور رويحة وعادل الحامدي، الى اللجان في الاردن أشرح فيه ما تم معي، وأقترح عليهم ارسال المجاهدين الموجودين في الازرق وعمان. وكنت أخشى أيضاً أن يتدخل الانكليز فيضغطوا على الثوار في شرق الاردن بعد أن يروا الثورة قد ماتت. وأثبت لهم ، أي للجان ان الثورة الآن تلفظ أنفاسها، لكن هناك امكانية للعمل في الصفاء وفي الشمال، وعليهم تأمين أسلحة لثلاثمائة أو أربعمائة ثائر من الذين نزحوا الى الحدود التركية، أما برضاء الحكومة التركية أو سراً عنها، فالحكومة التركية كانت تستغل هؤلاء على شكل عصابات من اجل مصالحها الخاصة. وقلت لهم اني على استعداد أن أكون على رأس القسم الشمالي، وبذلك نجعل سورية ميداناً لثورة جديدة، توزع قوى الفرنسيين، ويكون جبل الزاوية ومنطقة الصفاء قاعدتين لهذه الاعمال.

وصلت في هذه الاثناء مشاتنا مع هزاع بحالة أحسن منا، ووصل معهم جرحانا. وانتعشت أحوالنا قليلاً في الصفاء بما يقدمه لنا خلف النعير وقومه. لكن الافرنسيين بدأوا يهتمون من جديد بالمنطقة، ويرسلون الطائرات لقصفنا، وفي أول ايار ١٩٢٧ باغتتنا طائرات العدو العديدة قبل طلوع الشمس. ثم ظهرت في الافق الغربي قوات العدو، فاشتبكنا معهم في ملحمة دامت حتى الظهر، حيث ارتدوا صوب جبل الدروز تاركين كثيراً من الخيل والقتلى ، وسقطت ثلاث طائرات. وكانت هذه المعركة آخر معركة خضتها في الثورة السورية، اذ ورد في كتاب من الدكتور رويحة يعلمني فيه طلب الاخوان حضوري للمداولة بأسرع ما يمكن، فتركت الصفاء في السادس من أيار. وقد استوقفني وأنا على حدود الصفاء شعور غريب وتمثلت أرواح الشهداء الذين ضحوا بحياتهم في سبيل حياة سورية ومجدها وقد انتصبت أعمدة من نور. وتساءلت :« أتذهب هذه الضحايا سدى وبدون ثمن؟» وأجبت نفسي :« كلا ، ان هذه الارواح ستوحي الى شبيبة الاجيال المقبلة روح الثورة والتضحية ».

وتابعت المسير نحو عمان في التاسع من شهر ايار، والتقيت في الطريق بالامير عادل وسلطان باشا الاطرش ومعهما سرية من الفرسان المجهزين. فاقترحت عليهما اتخاذ الصفاء قاعدة للتمركز، فرفضا اقتراحي بعد تداولهما مع بقية زعماء الدروز. وكان هذان الزعيمان قد رحلا عن الازرق لان الانكليز ما عادوا يرضون بوجود الثوار اكراماً لفرنسا، وبعد أن كادت الثورة تخمد أنفاسها. حتى انهم استضعفوا أمرهم ومنعوهم ورود ماء الازرق وهم عطشى.

أما ثوار الغوطة ودمشق، فقد أثرت في نفوسهم أعمالنا في جبل الزاوية، فاندفعوا يؤلفون حملة بقيادة الامير عز الدين وسعيد العاص، وتوجهوا الى الغوطة. لكنهم مع الاسف لم يتخذوا الحيطة الكافية ، فقد اصطدموا عند دخولهم الغوطة مع قوات العدو في معركة عنيفة استبسلوا فيها وجرح سعيد العاص. وأسر بعض المجاهدين لأول مرة في تاريخ الثورة. وانسحب الامير عز الدين مع عدد قليل من جماعته الى وادي منين ، حيث لاحقتهم القوات الفرنسية، وسقطوا جميعاً شهداء، وكانوا آخر شهداء الثورة السورية.

دخلت عمان متنكراً في مساء العاشر من ايار، وكان كثير من الزعماء والثوار قد نزح عنها الى القدس ومصر. والتجأ عدد منهم الى قرايا الملح التابعة لابن سعود، فغدت هذه معقلاً لهم ، وأودع هناك السلاح الذي ابتاعته الثورة أمانة، على أمل استلامه عند اللزوم. وقد فرض عليهم ابن سعود شروطاً قاسية للاقامة، وحاول تجريدهم من السلاح لولا تدخل الوطنيين في الامر. اجتمعت مع الاخوان، فأخبروني بأن التدابير قد اتخذت لسفري الى تركيا، لاقناعها بمساعدتنا، ولنجعل حدودها ملجأ نلتجئ اليه عند الحاجة، واذا لم نحصل على معونة رسمية ، فعلينا العمل سراً لشراء مائتي بندقية وما نحتاجه من العتاد. وكان لا بد من التكتم في هذه السفرة، وصعب علينا اخراج جواز سفر من حكومة فلسطين أو شرقي الاردن. وبعد عناء وحيلة وتنكر، ومساعدة بعض الاخوان تمكنت من الحصول على جواز سفر من القدس باسم : عمر فوزي عبد المجيد، وكان لهذا الجواز فضل كبير في تسهيل سفراتي كلها.

اخفيت امر سفري عن كثير من اخواني الذين صادفتهم في القدس وفي مصر،

مما سبّب ملامتهم فيما بعد . ووصلت استنبول في نفس اليوم والساعة التي كان فيه كمال أتاتورك يصلها لاول مرة قادما من أنقرة بعد انتصاراته. وقد أثر في نفسي مشهد الاحتفال، وأخذت أوازن بين حالنا وحال الأتراك وقدراتنا وقدراتهم، وما توافر لأتاتورك من ظروف هيأت نجاحه، وما جابهنا من مشكلات، لولاها لكان نصرنا المؤكد، يفوق نصر الاتراك. مكثت في المدينة بصفة تاجر مهتم بإقامة معمل للنسيج، وكان ذلك ستاراً لي يمنع عني أعين مخابرات الحكومة. وزرت أضنة حيث اتصلت بالسيد عمر البيطار زعيم ثورة جبل صهيون، ثم انتقلت الى مرعش فعينتاب فكلّس ثم الى قرية الحاج فاتح المرعشلي على الحدود السورية. وكنت أسعى الى التعرف على الثوار الملتجئين هناك ومحاولة تدارك الامر وتأمين السلاح. وكان هؤلاء الثوار لا يملكون سلاحاً، وقد شددت عليهم الحكومة التركية، حتى تعذر عليهم الاجتماع ببعضهم.

وفي أثناء عودتي قُبض عليّ، وأتهمت بالتجسس، ثم أخذت الى ازمير على أن أغادر على أول باخرة. وأخيراً طلبت أن يعلموا توفيق رشدي بك بأمري، فورد جواب بعد مدة بلزوم ارسالي الى أنقرة. قابلت توفيق رشدي فاظهر لي احترامه وعطفه على القضية السورية، واستعداده في الفرصة المناسبة للمساعدة، حتى لا تتأزم علاقات تركية بفرنسة. وطلب مني أن أواجه فوزي باشا رئيس الاركان للاتفاق معه على الخطة .

اجتمعت بفوزي باشا، وشرح لي اهتمامه بالقضية العربية، وتتبعه لاخبارنا، وسألني رأيي في الخطة الواجب اتباعها، فشرحت له الامر. ثم طلب مني تقريراً مفصلاً، فوضعته بعد أيام وعرض الخطة على الغازي وعصمت ، وقال أنهما وافقا عليها بدون تبديل فيها، وأعجبا بإحكام وضعها، وستظل هذه الخطة في طي الكتمان الى أن تسنح الفرصة لتنفيذها. وكان الدور التمهيدي فيها أن أقوم متنكراً بجولة على الحدود التركية السورية لتنظيم المجاهدين. فحصلت على أوراق رسمية باسم « فورد نجدت » ، وذهبت الى الحدود ، وأتممت هذه التشكيلات، دون أن تشعر الحكومة المحلية بالامر. ثم رجعت الى أنقرة.

لكن بعض الاخوان في القاهرة أشاع أمر سفري الى أنقرة ، وتناقلته الصحف،

ووصل مسامع الحكومة الفرنسية، فاهتمت بالامر، وتقصت أخباري بواسطة جواسيسها، ثم ارسلت احتجاجاً عن طريق سفيرها « دي شاميرون » ، وطالبت بتسليمي لها لانني محكوم من محاكمها. وأطلعني توفيق رشدي بك على ذلك، وعلى رد الحكومة التركية الذي ينفي وجودي في تركيا.

أما ما دار بيني وبين الاتراك عسكريين ومدنيين خلال هذه الرحلة فيتلخص بمايلي:

– ان تركيا تريد أن يكون شكل الحكومة في سوريا ملكيا.
– انهم يخشون فرنسا وجيوشها المحتشدة في سوريا على حدودهم، ولو كان الامر بيد السوريين لما خافوا شيئاً.
– ان قضية الاسكندون وانطاكية تتخذها تركيا ذريعة لتعجيز فرنسا، ولولا ذاك لما ذكروا هذه القضية.

وكان وضع الاتراك السياسي صعباً حرجاً: فإيطاليا تستعد في الجزر المقابلة لأزمير، وكانت هناك مشكلات حدود معقدة مع ايران ومع فرنسا في سورية، لذلك كان وجودي خير وسيلة لتهديد فرنسة. وهكذا تظاهر الاتراك من جهة بالاستعداد لمساعدتنا، وأخذوا يساومون الافرنسيين من جهة اخرى. وبالرغم من تثبتي من هذه الحقيقة، فقد تظاهرت بتصديق وعودهم، اذ كان يهمني الحصول على بعض المعونة التي تقررت بيني وبين فوزي باشا، ثم الانطلاق الى سوريا لاشعال الثورة من جديد، غير مكترث بالاتراك، حتى ولو سدوا الحدود في وجوهنا.

ضاعفت السعي، وتوقفت لاعداد التشكيلات وتعيين أمكنة الاستلام. لكن، بينما نحن في هذا، اخذت ترد الينا أخبار صحف القاهرة وسورية وفلسطين عن خلافات اخواننا المجاهدين، والتهم التي يكيلها بعضهم للآخر. حتى صار اسم ثورة أو ثائر أو مجاهد وصمة عار، لكثرة ما نشر من فضائح مدعومة بصور الزنكوغراف، ومعظم هذه الفضائح اساسها المال للاسف الشديد. وصارحني توفيق رشدي بالامر، وحاولت الدفاع والتبرير. لكن الاتراك أخذوا يماطلون كلما

ازددت إلحاحاً، فقد وفقوا في مساومة فرنسا الى الحصول على معظم مايطلبون، وتعددت زيارة مندوب فرنسا السامي الى أنقرة، وعقدت اتفاقيات الجمارك والحدود لصالح الاتراك.

ولما يئست من الاستفادة من الاتراك، ومن حالة الثورة وزعمائها، استأذنت من الاتراك للسفر الى مصر، فاذنوا لي. وصلت القاهرة، فوجدت حالة اخواننا سيئة، وعداءهم لبعض أشد من عدائهم لفرنسا، وقد انقسموا الى احزاب وهيئات وشيع. وكان أبرز معسكرين متخاصمين معسكر حزب الاستقلال ومن أعضائه الامير شكيب والامير عادل وأسعد داغر وعادل العظمة والشيخ رشيد رضا وشكري القوتلي، وحزب الشعب، وعلى رأسه ميشيل لطف الله واخوانه، والدكتور شهبندر وحسن الحكيم وتوفيق اليازجي والمرحوم الدكتور خالد الخطيب. وكنت حائز لثقة الطرفين، فأخذت اتصل بهما محاولا ازالة ما أمكن من أسباب الاختلاف، وإيجاد قواعد جديدة للتفاهم. وكان أساس الاختلاف حب الظهور والتزعم، والاستئثار بمقاومة الفرنسيين، واتهام بعضهم بعضا بالتلاعب بأموال الثورة.

ثم اقترحت بعد دراسة، عقد مؤتمر تمثل فيه الاحزاب والثوار للعمل على اعادة الثورة، قبل أن تستثمر فرنسا الاختلافات وخلو البلاد من الثوار فتتخذ تدابير يصعب معها العمل، فحبذ الجميع منفردين هذه الفكرة. فعقدت اجتماعا مع الاستقلاليين أولا فحبذوا الفكرة. ثم عقدت اجتماعا مع اللجنة التنفيذية فدار حديث طويل مع أفراد اللجنة اساسه أن اللجنة هي صاحبة الحق في تزعم أمر الثورة والثوار، وكانوا يعدّون الاستقلاليين منشقين. ولما أيقنت الفشل اقترحت انتخاب واحد من كل فريق، ثم نجتمع نحن الثلاثة لنبحث الامر بهدوء. فكان الدكتور شهبندر عن الشعبيين والحاج أديب خير عن الاستقلاليين، واجتمعنا في داري. وبعد جدال ومناقشات توصلنا الى النتيجة التالية:

تشكيل هيئة عليا تتكون من ثلاث لجان مختصة مستقلة: سياسية ومالية وعسكرية، وتنتخب من خيرة الرجال، ويكون الاقدام على امر خطير باتفاق اللجان الثلاث. ثم قررنا ابلاغ الطرفين قرارنا، وقد قبل الاستقلاليون فكرتنا على الفور، أما

الشعبيون فقد قامت قيامتهم، على الدكتور شهبندر لقبوله مقترحاتنا، وتطور الامر الى خصام بينهم. فخرجت من هذا الاجتماع موقنا أن صفحة الثورة قد انتهت، وأنه لم يعد في وجه الفرنسيين أي عقبة تحول دون تنفيذ خططهم في البلاد. ولقد أيدت الحوادث ما كنت ألمسه وأشعر به، من أن الخير كله في طبقة الشعب الساذجة، وأن البلاء كل البلاء من المتزعمين من رجالنا المتفانين في حب الظهور. وجزمت أن الثورات الحقيقة التي سوف تضطرنا أعمال المستعمرين لخوضها يجب أن ترتكز على طبقة الشعب الشريفة وحدها.

أما أسباب فشل ثورتنا التي وصلت يوماً الى حد إلجاء الحكومة الفرنسية لمفاوضة رجالنا في لوزان والقاهرة وفي ميادين الثورة... فتتلخص في نقطتين:

أولاهما: اختلاف زعمائنا، الذي بدأ بينهم، ثم انتقل وانتشر في ميادين الثورة ففرق الثوار.

ثانيتهما: استسلام الامير عبد الكريم في الريف المغربي، مما مكّن الفرنسيين من ارسال النجدات الكبيرة الى سورية حتى بلغ مجموع القوات ٩٥ ألفاً.

وانني اكتفي بسرد أسباب فشل الثورة باختصار، تحاشيا لاظهار مساوئ أخرى قد يكون ذكرها ماسًا بكرامتنا القومية.

* * *

أخذت أبحث عن ملجأ، فلم أجد سوى الدولة السعودية النجدية الفتية، التي تحتاج الى خدماتنا، والتي عليها كانت تعقد الآمال في تكوين الكيان العربي الكبير.

القسم الثاني من المذكرات(*)

اقامتي في نجد ١٩٢٨-١٩٣٢

وانتقالي الى بغداد ١٩٣٢-١٩٣٦

أنا الآن أتمشى على ظهر احدى بواخر الشركة الخديوية، التي تشق عباب البحر الاحمر متجهة الى جدة. الشمس محرقة، والبحر هادئ، والباخرة تحمل القافلة الأخيرة من الحجاج، لتدرك الحج الذي لم يبق له الا أيام معدودة وتمركز نظري في أفق هذا البحر، وأخذت الافكار تتوارد على مخيلتي، فأتصور الدولة السعودية الناشئة، والتي بسطت نفوذها على ربوع الحجاز وعسير ونجد. وكنت أشعر بغبطة وابتهاج وأنا أفكر في أن أكون جنديا يخدم في هذه الدولة. وكنت كلما تقدمت الباخرة من جدة ازداد شغفي وعظمت آمالي وأحلامي.

كنت قرأت ما كتبه الخبراء العسكريون الاجانب عن الحركات الحربية التي قام بها جيش ابن سعود، وهو يغزو العراق وشرقي الاردن والحجاز في آن واحد مقتحماً الصحارى الممتدة من الرياض الى تلك الاماكن. وقارنت بين المعارك التي قضت جيوش الفتح الاسلامي بها على جيوش الفرس والرومان والمعارك التي قامت بها جيوش ابن سعود في تربة، ومعارك جدة الدفاعية.

نزلنا جدة محرمين، واتصلت عند نزولي بالأخ فؤاد حمزة حيث كان على علم بقدومي ومكثنا قليلاً في جدة، توجهت بصحبته بسيارته الى مكة. ولم يثر منظر مكة المكرمة، التي تعج بالحجاج من كل فج في نفسي شعوراً جديداً لأنني كنت شاهدت هذه المناظر في حجة سابقة، ولكن المنظر الذي استولى على مشاعري كان منظر الجندي العربي الباسل، بلباسه البدوي وبتجهيزاته الكاملة.

* – هذا القسم من مذكرات فوزي القاوقجي هو استكمال للجزء الاول ودوّنه القاوقجي في منفاه بكركوك ١٩٣٧.

نزلنا دار فؤاد حمزة ، وكان الأخ الامير شكيب ارسلان نازلا فيها وهو الذي مهد لي سبيل قدومي الى الحجاز، وكان قد دعي اليها من قبل الملك ابن سعود. وتعرفت بالسيد يوسف ياسين، مستشار الملك ابن سعود، والسيد خالد الحكيم والدكتور مدحت شيخ الارض طبيب الملك الخاص، والدكتور محمود حمودة رئيس الصحة، والسيد رشدي ملحس محرر جريدة أم القرى . وكانت أحاديث هؤلاء تدعم ما في نفسي من الآمال وتقويها. ثم اتصلت بسمو الامير فيصل نائب الملك في الحجاز، والسيد عبد الله سليمان وزير المالية، وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى، وكثيرين غيرهم من كبار النجديين والحجازيين. ثم سنحت الفرصة فاجتمعت بالملك في مكة. جلسنا على سماط قد مدّ للعشاء، وكان يتصدره الملك والامير شكيب عن يمينه، وكنت على مقربة من يساره، ومشايخ نجد وكبار رجالات الحجاز يحيطون بهذا السماط. ثم انتقلنا بعد العشاء الى مجلس الملك الخاص، حيث لم يكن فيه سوى الامير شكيب وسواي وفؤاد حمزة والشيخ يوسف ياسين. فبدأ الملك يتدفق بالاحاديث بلهجته النجدية البدوية الى أن قال :« أني والله لا أنام الليل من الخوف ، والخائف حذر. وأني لا ائتمن أحدا على ملكي، حتي اخي أو ولدي هذا، مشيراً الى سعود، واني أحتفظ بمفاتيح مستودعات السلاح والمدافع والعتاد بجيبي هذا، ولا أسلمها لاحد الا عند الحاجة». وكان الامير شكيب يصغي وأنا متأكد أنه لم يفهم مما قاله الملك شيئا. ولقد أثار حديث الملك في نفسي من عدم ائتمانه لاحد، حتى اخيه أو ابنه، وإبقاء المهمات في مستودع ومفاتيحها في جيبه، أثار في نفسي شيئاً من الريبة والقلق في امكان تحقيق أي أمل من آمالي بهذه العقلية.

وبعد القهوة عاد الملك الى الحديث من جديد وكان الآن سياسياً محضا. قال الملك: « شكيب شُف سلَّمَكَ الله. اني أعلم بسياسة الدول، وأنا اللي أعلّمك. شف سلمك الله : أمَّا أمريكا فهي أمة تجارية لا تقدر على الحرب وما هي الا صوت وبطن خالٍ. والله كأنها مربوطة أوصالها بخيطان من عنكبوت ، ان انقطع خيط منها تفككت كلها عن بعضها . وأما فرنسة فهي قوية ضعيفة: قوية بمعدّاتها الحربية، وضعيفة لان الانكليز منوخين عليها من كثير، والالمان باركِن عليها من كثير ثاني. وأما الالمان ، والله، انها أمة قوية ولكنها معدومة من معدات الحرب. وأما

ايطاليا ما قدامها غير الهلاك واللي على راسها هذا هللي يسمونه موسوليني سايقها للهلاك ، كأنه حامل على راسه قدريَّه، ويموت ما يدري وين متجه والله ان وقع الجدر غير يطيِّره ويطيِّر معاه ايطاليا . وبارك الانكليز على رقبة ايطاليا مثل ما تبرك بحملة الشمندفير على الريل. وأما الانكليز والله انهم أقوى دولة وأأمن دولة. والله ما عاهدوني وخانوا ولا أوعدوني وأخلفوا، وهم أهل كتاب. والله اني ما اقدمت على عمل الا استشرتهم به قبل الاقدام، والله ما غشوني يوم وهم ينصحونني في كل يوم. وأما يحيى ، سلمك الله، ويش أقول عنه ؟ هو شيطان صامت. والحسين شيطان متكلم. أما نحنا ، سلمك الله، والله سالكين مسلك السلف الصالح، المصاحف برقابنا والسيوف بيدينا ».

وهنا ينتهي تصوير مجمل الموقف السياسي العالمي في نظر جلالته. وهذا الانطباع السياسي في فكر جلالة الملك كان أشد وقعا على آمالي وأحلامي من طراز استعماله المهمات الحربية ، فاصطدمت آمالي وأحلامي بحديث جلالته في هذه الجلسة فزعزعتها وحطمتها. والامير شكيب مصغٍ بكليته، وأنا أعتقد أنه لم يفقه شيئا من أحاديث جلالته . وأخيراً التفت الملك اليّ سائلاً :« وأنت ايش تقول» . فقل :« طوّل الله عمرك. أنت أعلم منا بكل شيء ونحن ما أتينا الا لنخدمك بما تأمر وتستنسب ». قال :« بارك الله فيك. وعندك فؤاد ويوسف اتصل بهم».

* * *

نحن الآن نسير من مكة الى عرفة ، وكان الوادي الذي تمر الطريق منه يغص بالحجاج، والعجاج يتصاعد الى السماء. وكان موكب الملك يسير ببطء وتؤدة وهو ممتط ذلولاً، تحيط به حاشيته ورجاله على هجن، منحسري الرؤوس ، محرمين. وكان الخشوع ظاهراً على وجه « فيلبي» أكثر من وجوه من كان في الركب، وكان للملك كظله، لا يفارقه الا عندما يستنسب موقفاً لأخذ صورته، والمسبحة وآلة التصوير هما الشيئان الملازمان «لفيلبي» التقي الورع !.

كان فيصل الدويش شيخ قبائل مطير، الذي كان ساعد الملك ابن سعود الأيمن في فتوحاته بنجد، وفاتح مكة، قد اشتد الخلاف بينه وبين الملك، ولم يعد بالامكان معالجة هذا وإزالته. فخرج على الملك فجمع قبائله، وأخذ يشن الغارات

على العراق ويسلب قبائلها ويهدد الامن فيها، مما دعا حكومة العراق والانكليز معا، الى اتخاذ التدابير. وقد استفحل أمر الدويش ولم يكن للملك ابن سعود بد من قتاله، فأخذ يجمع بدوره الجموع ويرسلها الى نجد. أما وجهة الخلاف فترجع الى اسباب عديدة : أهمها ان فيصل الدويش الذي يعتقد أن له أكبر حق، لبذله أعظم مجهود، لم يستطع تحمل معاملة الملك لبقية الرؤساء ، الذين كانوا بالامس أعداءه وأصبحوا اليوم من المقربين لديه، وما يبذله من الاموال، والعطايا لهؤلاء أكثر مما يبذله لفيصل ورجاله. والقصور التي اخذ يبنيها جلالته لنفسه وللامراء، والسيارات التي اقتناها والتي أهداها لسواه دون تخصيصه بالعدد الاوفر منها، وعدّ ذلك اجحافا بحقه من جهة، وإسرافا في أموال بيت المسلمين من جهة ثانية. ولما لم يكن بالامكان تسوية الامور استطار شر الخلاف فانقلب فيصل عاصياً على ابن سعود.

وبعد أن أتم الملك استعداده، وحشد جيوشه، عزم علي السفر ليتولى قيادة هذه الجيوش بنفسه، ومقاتلة الدويش. ولقد اعتبرت هذه الفرصة ملائمة لتقديم خدماتي لجلالته، فطلب الامير شكيب منه أن يأذن لي بالاشتراك في هذه الحركات، لكنه لم يقبل لان لون وجهي في نظره يشبه لون الانكليز، وهو يخشى أن يتهمه الدويش والعرب باستعانته بالانكليز على قتاله. مع أنه قد اشترك ضباط عديدون من الانكليز في قتاله مع ابن رشيد، وقتل أحد هؤلاء الضباط المدعو الملازم شيكسبير في ميدان المعركة.

وقررت أمانة العاصمة في مكة اقامة حفلة لتوديع جلالة الملك حضرها الاعيان والوجهاء، ثم اتجه بركبه لاحقا بجيوشه حيث واعدهم الاجتماع. وكان الدويش من جهة اخرى قد سمع بهذا الحشد العظيم، فجمع قواه واتجه لاطراف قرية السبيلة فحصّن مركزه، وحفر الخنادق وأقام المتاريس وأخذ ينتظر قدوم جيوش الملك اليه. ومن هنا يتضح لنا أن الامر جد للغاية، وان المؤتمر ينعقد لامر خطير ، وقد شطر نجداً الى قسمين، وأصبح الملك مهدداً. وتابع المسير مع جيوشه الى السبيلة أمام مواقع الدويش، فأخذ يراسله ، ويحاول اقناعه ليصرفه عن القتال، ولكن لم يتفقا وأصبح القتال أمراً واقعاً . وسار الملك ومن معه نحو مواقع الدويش، وكان التفاوت في القوة عظيماً، اذ كان جيش الملك ٣٠ ألفاً بينما كان جيش الدويش لا يتجاوز ٨

آلاف ، فكانت ملحمة عظمى قضت على جيش الدويش بجرح في هذه الموقعة، وتمكن من الفرار ومكّنت الملك من الجزيرة مرة اخري ، وانتشر نفوذه فيها بدون معارض.

عاد الملك الى الحجاز منتصراً، ودخل المدينة المنورة، ومكة المكرمة دخول الفاتح الظافر تحت أقواس النصر، ولم يبق في الجزيرة معارض، أو من يخشى الملك أمره. فجعلت هذه المعركة في نفس الملك نشوة عظمى وغروراً كبيراً.

وكان الامير فيصل السعود قد تمكن بدهائه وحنكته من ادارة الحجاز وعسير بطريقة لم يدع معها مجالا لمن تخامره نفسه في استسناح الفرصة للانقضاض على الملك ابن سعود. وكان فيصل قد تمكن كذلك من أن يؤمن لجيش الملك كل ما يحتاجه من المؤونة والتجهيزات والعتاد والبنزين من تجار الحجاز، دون أن يدع أحداً منهم يرفع صوته بشكاة. وبهذا يكون فيصل قد حمل العبء الثقيل في اقرار الامن من جهة وتموين الجيش، مما يصعب بدونهما نجاح حركات الملك .

وكان « فيلبي » يلعب دوراً خطيراً في مقدرات البلاد وخاصة في موضوع السيارات التي حبَّب اقتناءها الى الملك . ولكن المئات من السيارات التي كانت ترد للملك سنوياً كانت لا يدور الحول عليها الا وهي هرمة ، وذلك لفقدان الطرق، وصعوبة الاراضي الرملية من الحجاز ونجد، وقلة أهل الخبرة بين ميكانيكيين وسواقين.

وقد استقرت سياسة الدولة وانتشر نفوذ الملك في الحاضرة والبادية.

كان الملك يجلس جلسة عامة، يأتيها من يشاء ، وكنا نتردد لحضور جلساته هذه .وكنا كثيراً ما نساق الى هذه المجالس الخاصة، حيث تدور فيها بعض الابحاث السياسية وبعض الابحاث العاطفية. فكان كل منا يذكر موضوعا أو يقترح اقتراحاً فخطر لي يوماً أن أذكر لجلالته مزايا الجيش النظامي الذي يستعمل الاسلحة الحديثة، عدا البنادق، فيكون هذا خير عون للجيش الباسل في تسهيل واجباته الحربية، ويخفف من وطأة المعدات الفتاكة اذا ما اضطر يوماً للاشتباك مع جيش نظامي. فأجاب الملك بشيء من الشدة :« اني والله لا أترك رجالي تحت رحمة أعدائهم لا يقاتلون ولا يتقدمون الا بأمر ضابط يتآمر عليهم. واني لا أرغب أن

اراهم مصفوفين يتقدمون ذبائح لأعدائهم». وأخذ يشرح لي ماعمله جنوده في المعارك النظامية في وقائع حربية مع الجيش الشريفي النظامي ووقائع ابن الرشيد الذي اشرك الجيش التركي النظامي فيها. فأدركت وقتئذ ان الوقت لم يحن بعد لافهام الملك قيمة الجيش النظامي ولزوم وجوده. ودار الحديث نحو السياسة، فذكر احد الحضور ما قالته بعض جرائد مصر عما تعمله الاحزاب المصرية في نضالهم مع الانكليز، فتدفق الملك يخطب غاضباً: «ان الاحزاب كلها بلاء وضرر للبلاد، ولولا حكمة البرلمان الانكليزي لذبحت جنود الانكليز في مصر مليون أو مليونين أو ثلاثة من أهل مصر ولذبحت عشرات الملايين من الهند فماذا عساهم يصنعون؟ ولكن كل البلاء من أهل التحارير (وهي الجرائد) الذين يكون أحدهم في الليل خمار رقاص زمار، ولما يصبح الصبح يكثر الوسائد وراء ظهره، ويلف رجلاً على رجل ثم ... العب ياقلم ... فيكتب ما يشاء من الفساد ويحرك ما يشاء من العباد ويكون سبباً للشر والبلاء». الملك يرى أن هذه الاحزاب التي لافائدة منها يجب أن تلغى ويجب أن يتفاهم رجالها مع السلطات المحتلة التي تحتل بلادهم ويرضخون، ثم يجمعون المال سراً، ويرسلونه للحجاز ليتقوى به. واذا ارادت ان تقوم البلاد العربية بعدئذ قومة رجل واحد لطرد عدوهم فالملك يقسم ان يمشي عندئذ من ورائهم لمعونتهم، وبغير هذه الطريقة لا يأمن العرب. ثم قال: «ان العرب خرجوا من دينهم فحق قتالهم. والانكليز أهل كتاب. والله لو تقع حرب في هذه الجزيرة بين العرب والانكليز. فاني اقف في صف الانكليز، وليغضب من يغضب من العرب وليرضَ من يرضى منهم». وكان يسمع هذه التصريحات نبيه بك العظمة وخالد الحكيم وفؤاد حمزة ويوسف ياسين.

أما سياسته الخارجية، فترتكز على صداقة بريطانيا العظمى التي يرى فيها وحدها الضمان الكافي لسلامة حدوده، فهو حريص جد الحرص على عدم ايجاد أي حادثة أو ظروف تمس بهذه الصداقة. أما ايطاليا التي لم تكن لتعترف به بعد كملك على عسير، بالرغم مما يظهر من نواياها السيئة تجاه عسير، فهو لم يكن ليخشاها ويحسب لها حسابا كبيراً، بناء على متانة صداقته لبريطانيا، التي هي في نظره أقوى الدول، وكلمتها نافذة على كل الدول، ولم يكن لايطاليا وقتئذ جيش مهم في الارتيريا على الساحل المقابل لسواحل عسير. وأما علاقته مع اليمن فكانت

ممزوجة بشيء من المطامع يغذيها «فيلبي» دوما، وكان للملك صلات قوية مع رؤساء قبائل الشوافعة في اليمن ومع بعض قبائل أخرى، ممن لم يكونوا على صفاء مع الإمام يحيى. فكانت هذه الروابط ورسائل مشايخ القبائل اليمانية المذكورة، الذين كانوا يحثونه فيها دوما على الاقدام على احتلال اليمن وانقاذهم من الحكم الزيدي، كما كان تحريض «فيلبي» وتهوين أمر فتح اليمن، بما يبديه لابن السعود من الآراء والخطط التي لم يسر الترك عليها وبتقديمه المعدات اللازمة لهذه الغزوة، كانت هذه الامور كلها تملأ نفس الملك بالاحلام والمطامع.

أما العراق فقد كان ابن سعود يخشى وجود الملك فيصل فيه حيث يعتقد فيه الدهاء والمقدرة والكياسة والحنكة الكافية لايجاد المشاكل المهمة لتعجيز ابن سعود في بلاده. ولكن هذه المخاوف كانت تتلاشى امام ثقته ببريطانيا التي لها الكلمة العليا في العراق. وكان يكره الامير عبد الله ويخشى طيشه ولكن كان يستضعف عمله ويطمئن من وجود بريطانيا الحاكمة في شرقي الاردن للقضاء على مايحتمل أن يقوم به من الدسائس. فليس لابن سعود بالاجمال ما يشغل باله أو يخيفه على سلامة حدوده. أما علاقته بمصر فكانت سيئة جداً، وذلك لعوامل تاريخية: أولاً فهو لم ينس بعد غزوة مصر بقيادة محمد علي وابراهيم باشا وطرد المصريين سعود الكبير منها، ثم مطاردتهم لابن سعود في نجد واحتلالهم اياها، ودخولهم الرياض، التي لا تزال احدى ثكناتهم قائمة فيها حتى اليوم. كما كان لقطع المصريين مخصصات الحرمين الشريفين من الاموال والارزاق، وعدم ثقتهم بالسعوديين بتسلمهم أموال الحرمين، التي يخشون تصرفهم بها على غير وجوهها، ولما حدث في الشهر الاول من حكم السعوديين في قضية المحمل التي كان لها الاثر السيء في توتر العلاقة بين البلدين، وعدم اعتراف مصر بالمملكة السعودية وما يلمسه ابن سعود من ميل الشعب الحجازي وعطفه على المصريين، كل ذلك جعل علاقة ابن سعود بمصر متوترة وفي اضطراب مستمر. ولقد سعى الملك كثيراً للتفاهم مع مصر على اساس استلام المخصصات ليصرفها على الحرمين، فلم يثمر مسعاه. وكان لغنى مصر التي تستطيع معه تجهيز الجيوش، ولما تتمتع به من عطف ونفوذ معنوي في الشعب الحجازي خاصة أثر في جعله في قلق وريبة مستمرين.

أما السياسة الداخلية فترتكز على ما أوجده من النفور والعداء بين القبائل

النجدية والحجازية، ثم علي قوة أهل العارض، وبعض القبائل الموالية له وجيشه الصغير. ولقد تمكن من تسليح سيارات وأقام في كل مراكز الدولة اللاسلكي التي سهلت له الاطلاع على أي حادث يقع في حينه، وسرعة القضاء عليه قبل استفحاله. ولقد قطعت المعاهدات التي عقدها مع العراق وشرقي الاردن والكويت كل أمل في نفوس من ينوي القيام عليه. فخيّم الامن بذلك، وخلدت القبائل الى السكينة، وارتفعت الثقة من بين القبائل، حتى اصبحت تنظر كل قبيلة الى الاخرى بعين الريبة والحذر. وقد بث الملك بين جميع هذه القبائل عيونا له تخبره بالكبيرة والصغيرة من أعمال هذه القبائل.

أما الحجاز فما كان ابن السعود ليخشاه، اذ وطد نفوذه فيه على الطريقة نفسها التي اتبعها في نجد وزيادة على ذلك بما اقامه فيه من الجيش النجدي وبما لحق الحجاز من فقر.

وكان ابن سعود في بادئ الامر لا يهتم بشأن الجرائد، ولا بسلاح دعاياتها، وكان يعتقد أنه باستطاعته الاستغناء عن العرب كافة، ولكن العرب لا يستطيعون الاستغناء عنه فهم مجبرون على التمسك به ومجاراته لافتقارهم لمعونته بينما هو في غنى عن معونتهم، التي لا يحسب لها حسابا، ولا يقيم لها وزناً، طالما هو حاصل على صداقة بريطانيا العظمى ومودتها. وأما منشأ هذا الغرور فكان مما تنشره الجرائد من الفصول الطوال عنه، وبما تعلق عليه الامة العربية من آمال لانقاذها من الاستعباد والاستعمار. وكان كل من يخرج من رجالات العرب من الحجاز يعطون الاحاديث للصحف، ويبالغون جداً في تعظيم أعماله، ولم يلمّحوا ولو مرة واحدة عن أعمال انتقدوها فيه انفسهم. مما جعله يعتقد بنفسه ما تقوله الصحف عنه، والرجالات أيضاً، فهذا ما حمل اليه الغرور، وجعله يستصغر شأن العرب، ورجالاتهم الخارجين عن حدود سلطانه.

كان نبيه بك العظمة جاء الحجاز، كما أن الامير شكيب غادرها. وكانت أحوال الدولة تسير من سيء الى أسوأ، وتمشي الى الانحطاط بسرعة. وكان للضائقة المالية العالمية أثرها القوي في الحجاز، الحجاز الذي يستورد كل حاجياته من الخارج، وليس فيه ما يصدره للخارج. واحتياجات الدولة والبلاد تدفع أثمانها

من موارد الحج، وقد أخذ يتناقص هذا المورد ويضأل لدرجة أنه لم يتجاوز في عام ١٩٣١ المائتي الف دينار، وهو مبلغ لا يكفي لسد حاجيات العائلة المالكة وحدها. وتناقصت اعطاءات الملك للقبائل والرؤساء، مع تناقص الواردات، وكانت هذه الاعطاءات مصدراً للمعيشة للبعض، وضماناً لاستكانة الآخرين. وأخذت القبائل تطالب بمخصصاتها بإلحاح، واتخذت الأخرى مواقف أثارت الريبة والمخاوف في نفس الملك. وراجت فكرة تأسيس جيش نظامي تحت هذه العوامل والظروف، وذلك ليكون الجيش سببا في إعالة كثيرين من النجديين، وقوة احتياطية تطمئن مخاوف الملك من مواقف القبائل المريبة. فتقرر أن يعهد الى نبيه بك العظمة تأليف هذا الجيش، وأن أكون معاونا له. فأخذنا نضع منهاجاً مفصلاً، وأردفناه بتقرير شامل قدمناهما لنائب الملك الامير فيصل وطلبنا أن نقوم بجولة تفتيشية لفحص ماهو موجود في المستودعات من الاسلحة والعتاد والتجهيزات، فوافق النائب على هذه الفكرة. بدأنا أولاً من مكة. وكانت هذه المستودعات تحت سلطة ابن سليمان مباشرة، وكان مستحيلاً معرفة مايحويه هذا المستودع مما يهمنا، ففيه كل شيء، وضائع فيه كل شيء، ولا يدري أحد عما فيه من محتويات.

وذهبنا الى جدة، فكان الصدأ والعفونة حرس هذه المستودعات. وذهبنا الى بقية المراكز الى أن وصلنا المدينة، وهناك حظر أمير المدينة علينا رؤية المستودعات، لأنه سر من أسرار الدولة. منعنا من الدوام على التفتيش، وطلب منا العودة حيث قدمنا تقريراً الى نائب الملك مفصلاً، فقبله بارتياح. ولكن الموافقة الوجاهية لا تعني الموافقة على التنفيذ، وأخذت المماطلة تسود الموقف. وبعد أيام زارنا «فيلبي»، وكان يظهر اهتمامه بأعمالنا المفيدة الى هذه الدولة العربية، وأخذ يشرح لنا سياسة بريطانيا، ويؤكد لنا أنه ليس لها أدنى منفعة من كل مستعمراتها، ويتمنى لو تخرج هذه المستعمرات من يدها، مكتفية بالتعامل التجاري معها. وانتقل الحديث الى التحدث عن الملك فذكر «فيلبي» عدله وعبقريته وذكاءه ومزاياه النادرة. وقال: «يجب أن يكون هو وريث العباسيين. وأنا ساع الآن لحمل الملك على تحقيق هذه الفكرة. فيجب أن تكون العراق والسعودية واليمن وشرقي الاردن ممزوجة في هذه المملكة». ولما سألته عن فلسطين وعدن قال: «بالطبع يتفاهم ابن سعود مع بريطانيا من اجلهما». واحتدم بيننا الحديث، فصارحته عن حقيقة أمره، وأمر

بريطانيا، وأننا لسنا بالبلهاء ولسنا بفاقدي العقول، حتى نقبل مثل هذا الهذيان. فبريطانيا بمعاملتها أمة العرب، وبقطعها العهود لها وقطعها عهوداً أخرى عليها، في الوقت نفسه، ونكثها بما عاهدت عليه العرب، وتنفيذها بما عاهدت عليه اليهود بالسلاح، تكون أسفل عدو عرفه التاريخ. فتدخَّل فؤاد حمزة، وقال: «انه لايحق لك وأنت تتمتع بصفة رسمية، أن تتكلم مع «فيلبي» بمثل هذا الكلام». ثم انقلب الحديث أخيراً الى مواضيع أخرى، وبرودة الدم الانكليزي مسيطرة على أعصاب «فيلبي» التي أثبتها بدعوته أيانا لنتناول الشاي عنده.

ذهبت أنا ونبيه بك الى منزله قبل الموعد، ودخلنا غرفته، واذا بنا أمام منظر جد غريب: اذ رأينا «فيلبي» جالسا وأمامه عدة وسائد، موضوع عليها عدة أكياس من الذهب. وأمامه من شيوخ نجد الذين يتلثمون عندما يرون أمثالنا كي لايشموا رائحة الشرك فينا، جالسين يتفاهمون مع «فيلبي» على أمر الذهب بكلّه. ولما رآنا «فيلبي»، قام، فحيانا، وقال: «ان هؤلاء يحبون المعاملة مع البنك، وأنا وسيطهم». فجمع الاكياس، وأومأ للجماعة، فخرجوا. وقلت له وهو خارج للاجتماع: «انك يافيلبي واسطة خير في هذه البلاد!» وبعد أن أتم أعماله مع المشايخ، وصرفهم، حضر لعندنا، واحتسينا الشاي معا. وكان يدلي بأفكاره في سهولة عن غزوة اليمن والخيرات التي فيها، واذا استحوذ عليها الملك تخفف عنه الضائقة. ومما قاله ان الاتراك اذا لم ينجحوا في استيلائهم على اليمن واستقرارهم فيها فذلك لانهم كانوا يغزونها دوما من السواحل. ولكن اذا توجهت الغزوة من الشمال فهذا طريق لا يتوقعه اليمنيون، ويتم النصر فيه لابن سعود، ويسهل عليه تأمين استقراره في اليمن لعلمه وسعة اطلاعه على عوائد وأخلاق اليمنيين مما كان الاتراك يجهلونه. ومما قاله ايضا انه لا فائدة من بناء السكك الحديدية التي اصبحت من الوسائل القديمة، والتي انصرفت عنها أوربا اليوم، واستعاضت عنها بالسيارات، فهي خير وسيلة في هذه البلاد.

خرجنا من عند «فيلبي» وأنا أفكر بما يحمله من هذه الافكار الغريبة، والغريب أن عباراته هذه كان جلالة الملك يرددها عينا في تبيان آرائه لنا في مجالسه الخاصة. وفيلبي في نظري أعظم من لورنس ولا شك، لان لورنس كانت مهمته حمل القبائل العربية لقتال الاتراك في جانب الملك فيصل، وكان المرحوم حليفاً للجيش

البريطاني، وكان في متناول يد لورنس كل ما يحتاجه من الذهب، والسلطات التي يتمتع بحق استعمالها والتصرف بها دون استئذان. ولكن «فيلبي» لوحده يقوم بإرشاد الملك الى اهداف معينة، ويدافع عن الملك في لندن، وينشر من الدعاية في الخارج كذلك، ويرشد دائرة الاستخبارات البريطانية الى الطرق التي يجب اتباعها مع الملك، كما أنه يحمل حكومة بريطانيا على تعقيب السياسة الصالحة لتأمين نفوذها في الجزيرة. فهو يمثل شركات السيارات التي تدر عليه الارباح الطائلة، ويمثل مستشارية ابن سعود ويمثل دائرة الاستخبارات، ويمثل الحكومة البريطانية. فهو يكتب تقاريره يومياً ويرسل نسخا منها الى السفير في جدة، والى الانتلجنس سرفيس في لندن، ويحتفظ بنسخة منها في خزانته، وله محاضرات قيّمة ومقالات مهمة ينشرها بصورة علنية في الصحف من وقت الى آخر، ويلقيها في مجتمعات لندن.

وتقرر اخيراً ذهابنا الى مكة لاستلام أمور الجيش، فوصلناها بصحبة نبيه بك. وكانت كل أعمالنا لا تتجاوز القرطاس، وفي كل مطلب من مطاليبنا، كبيراً أو صغيراً نجد أنفسنا في تحقيق أمام ابن سليمان وزير المالية وغير مرتبطين بنائب الملك، فلم نتقدم خطوة واحدة في أعمالنا خلال الاشهر الاولى من وجودنا في الحجاز. وأيقنّا اخيراً انه لا فائدة ولا امكان للعمل، فلم يسع نبيه بك الا أن قدم استقالته، وبحكم هذه الاستقالة أكون كذلك مستقيلاً. غادر نبيه بك البلاد وراجت الشائعات كالعادة عندما يغادرها أي شخص ما، فلم يأت شخص من الخارج من رجالات العرب المعروفين الا وخرج غير راضٍ وآسف، كما كان الرجال المسؤولون غير راضين وغير آسفين على مغادرته البلاد.

كلفت باستلام الجيش، ولكني أعلمتهم انه لا فائدة من استلامي انا أو أي شخص آخر على الطريقة السالفة الذكر، ولما الحوا عليّ أعلمتهم بما ارتأيته لانهاض الجيش وإصلاحه، فقبلوا. واستلمت الجيش وكان من مقترحاتي أن يجتمع الجيش كله في جدة، ما عدا مفارز صغيرة تترك في المراكز اللازمة. ثم تجمّع الجيش وأخذ بتوحيد أسلحته، وبدأت بتنفيذ برنامج لتدريبه، وأخذت حالته تتحسن تدريجيا. وقد أبدى الجندي النجدي استعدادا عظيماً في تلقي العلوم العسكرية والتدريب المنظم فلم تمض بضعة اشهر حتى كان الجيش بجميع اسلحته في مستوى يعادل

مستوى الجيوش النظامية في الشرق. وتوسعت في التمرينات والتطبيقات والمناورات حتى جلبت الانظار، وأخذت تدور عني بعض الاشاعات عن سر هذا الاستعداد والنشاط الذي ظهر في الجيش. وكانت صلتي أخذت تقوى بسمو الامير فيصل، وتأسست بيننا صداقة متينة. ولكني كنت أشعر من ابن سليمان بمجاملة غريبة بنسبة تقدم هذه الصداقة بيننا، وكان يسعى لارضائي وجذبي نحوه ما استطاع بتأمين كل مطالبيي عامة وخاصة. حتى قرب يوم جلوس جلالة الملك، فقررنا القيام باستعراض نظامي باهر، بالرغم من بعض النواقص الموجودة، فلم يكن لدينا مثلاً حيوانات لجر المدافع، فاستأجرنا بغال رواة الماء في جدة، وتدبرنا الحبال وغيرها من الوسائل وأخذنا نمرنها يومياً على سحب المدافع. حتى اذا كان يوم الاستعراض تمكنت من اظهار الجيش أمام جلالة الملك والسفراء والاعيان بمظهر تجلّى فيه النظام الذي لم يعهده أحد في الحجاز، حتى في دور الحكومة العثمانية. وعندما كانت تمر المدافع أمام الجمهور في الاراضي الرملية، وأنا عالم بوهانة البغال المجروحة، ووهانة الحبال، كان يزداد خفقان قلبي، خوف انقطاع حبل، أو تعثر بغل، فتغوص عجلات المدافع في الرمل، ويتوقف المهرجان، حيث يستلزم سحب هذه المدافع لافساح الطريق، جهود الجنود كلها وربما بعض المتفرجين. فتم الاستعراض بدون حادث وعلى غاية مايرام، وبعد هذا قمنا باستعراض آخر على الطريقة النجدية بلباسنا العسكري أمام الملك والسفراء، والذين باركوا لي وللملك. وقد أهداني الملك على أثر هذا الاستعراض سيفا قيِّما تاريخيا لآل الرشيد، كما أعلمني جلالته أنه أهداني سيارة وفرساً كريمة.

وكان الابتهاج عام شاملاً لمناسبة الاحتفالات في عيد الجلوس الا عند علماء الدين الوهابيين، الذين اعتبروها كبدعة، وطلبوا الغاءها، وانه يجب على الملك أن يستغفر من الآثام التي لحقته لرضائه بإقامتها. فنشر جلالة الملك كتابا استغفر فيه ذنبه وأعلن الغاءها معترفاً بخطيئته، وهكذا كانت سلطة رجال الدين ظاهرة بارزة لا يعارضها أحد.

كانت الضائقة المالية آخذة بالاشتداد، فلم تُصرف للجند رواتب منذ ستة أشهر، وكانوا يؤمنون معيشتهم بما يستقرضونه من أصحاب الدكاكين، ولكن هؤلاء لم يعد بوسعهم دوام قرض الجند، فأصبحت حالتهم حرجة. وعبثاً راجعت

وكتبت بوجوب صرف شيء من الرواتب، وأخيراً قررت أن أذهب بنفسي لحل هذه المشكلة مع الامير فيصل. وقبل أن أغادر جدة الى مكة فاجأني عبد الله ابن سليمان بزيارة نصحني فيها بلهجة التهديد بترك الامر كله. كان نفوذ ابن سليمان قد امتد الى فروع الحجاز كافة من حضر وبادية. وكان أخصاؤه، وبقية المنتسبين اليه من حزبه، يتمتعون بأنواع الخيرات، وهم في حصانة تامة من أن ينالهم عقاب. وكان للامير فيصل حزب، الصداقة فقط تربطه به، ولكن هذا الحزب كان ضعيفاً مهضوم الحقوق. فالكل يخشى سيطرة ابن سليمان، ويأمل نيل الخير منه، وذلك لما له من النفوذ المطلق عند الملك، ولما أعطاه من الصلاحيات، وهذه الصلاحية خولته السيطرة على كافة رؤساء القبائل الاحرار، حتى على العائلة المالكة نفسها.

غادرت جدة الى مكة، وواجهت الامير فيصل، وأعلمته بما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف الواحد، وطلبت منه اعفائي من الخدمة. فقال لي: « لا تفعل يافوزي، واذا احد يجب أن يطلب اعفاءه من الخدمة، فهو أنا، وهذا مقدّر، ويجب علينا احتماله وانها فرصة تخبر الملك بما جرى بكتاب عنها. وسأكون حاضراً عنده لمعاضدتك». فكتبت للملك مبينا حالة الجيش قبل استلامي له، وما صار اليه بعد استلامي له. أعلمته ان المشاريع التي وافق عليها سمو الامير، وأمر جلالته بتنفيذها، قد عرقلها ابن سليمان جميعها. ثم ذكرت له ما جرى بيني وبين ابن سليمان بالحرف، وطلبت اخيراً اذا لم يكن في الامكان تنفيذ المشاريع التي صدرت ارادته به أن يعفيني من الخدمة. وحملت الكتاب بنفسي الى الملك، ثم صاح أين ابن سليمان؟ فحضر ابن سليمان، والتفت اليه الملك قائلاً بجد: « ايش وراك مع فوزي» (سنّعه)، أي: دبِّر أمره. وناوله كتابي فأخذه ابن سليمان بدوره قائلا: « سمعاً وطاعة». ثم تناول الملك مواضيع أخرى. وبعد برهة انصرفت، واذا بفيصل ينتظرني بسيارته، ولما سألته عن سبب خروجه قال كي لا يشك الملك في اتفاقنا على هذا الامر. وأعلمته بما جرى فقال: « والله ماهي بشارة». فتوقعت مكيدة يحيكها ابن سليمان، كما توقع ذلك الامير فيصل.

* * *

عدت الى جدة وتابعت أعمالي في الجيش، ولكن الحالة كانت تزداد سوءا.

وأخذ طيارو الانكليز يرفعون أصواتهم بالشكاوي، وطلب مرتباتهم، حتى انتهى الامر بمراجعة سفيرهم، والطائرات والادوات الاحتياطية وبقية الاسلحة يأكلها الصدأ وفي حالة سيئة. وعبثاً حاولت إفهام هذه الحقيقة، ففي كل مرة كان ابن سليمان في وجهي، ولم يدعني مرة لاصلاح وإنقاذ هذه المهمات. ولما أيقنت أنه يستحيل أي عمل مفيد وتقديم أية خدمة مع هذا الوضع، صممت أن أفاتح فيصل في أمر اعفائي من الخدمة ثانية. وكان قد زارني ابن سليمان مرة اخرى وأظهر لي اخلاصه ومحبته وتقديره الي، ونصحني بأن أقدم استقالتي، اذ بها الخير لي. فاعلمته بما كنت عزمت عليه قبل مجيئه، وبينت له بأنني ذاهب لمفاتحة الامير بهذا الموضوع، وانصرف. وكان الملك والامير في الطائف، فذهبت اليها بحجة تفتيش وتفقد شؤون حاميتها، فصارحت الامير بما عزمت عليه وأصر عليّ بان لا أفعل، وأقنعني بوجوب التريث الى أن نجد طريقة نتخلص فيها من ابن سليمان.

ولم تكن في الحقيقة حاشية جلالته من السوريين، من العنصر الصالح، فهم أولا غير مثقفين، وليس لهم أي ماضٍ مجيد، وقد اصابوا نعمة لم يكونوا ليحلموا بها، وأصبحوا بفضل جلالته من الاغنياء وأصحاب المقامات الرفيعة. فكان طبيعياً على أمثال هؤلاء أن لا يدعوا مجالا لتقرب غيرهم من الصالحين المخلصين لخدمة العرب، وخدمة جلالة الملك. فكانوا يختلقون دوما على هؤلاء شتى التهم، ويحذرون جلالته منهم. وهكذا حُرم جلالة الملك من خدمة خيرة رجال العرب، الذين ثبت اخلاصهم وتفانيهم في سبيل الامة العربية. وكانت هذه الحاشية من جهة أخرى، تحذر الملك وتصور المشكلات الجسيمة من مداخلاته في أمور الاقطار العربية التي تحتاج الى مساندة الملك الادبية. ففي نظري اذا كان جلالته معذوراً بعض العذر في اتباعه سياسة حيادية، فان المسؤولية التاريخية ترجع بالدرجة الاولى الى هذه البطانة السيئة. وكان من جراء هذه السياسة التي زينوها لجلالته، موقفه من فلسطين في ثورتها عام ١٩٢٩ عندما استفحل امرها. ولقد صرحت الجرائد الانكليزية على لسان أكثر ساستها ان قضية فلسطين تابعة لموقف جلالة الملك ابن سعود منها، أي كلمة واحدة من جلالته تكفي لحلها، أما لمصلحة العرب، أو لمصلحة الانكليز واليهود. فكانت كلمة جلالته التي اذاعها حافظ وهبة سفيره في

لندن وقتئذ: « ان جلالة الملك يثق بعدل بريطانيا ». وهكذا ذهبت الجهود والدماء في فلسطين هدراً. كما كان موقفه من قضية عمر المختار، الذي احتجت كافة الامم العربية والاسلامية وأخفضها شأنا مستفظعة عمل ايطاليا في اعدامها البطل المجاهد عمر المختار.

ولقد حرمت الاقطار العربية في محنتها من عطف ومساندة اعظم قوة عربية تخشاها الدول الاوروبية. ولم يكن موقفه من الاقطار العربية مثل هذا الموقف قبل اكتساب هذه الحاشية نفوذها لديه ومكانتها عنده. فهو لم يبخل بمعاونته لسورية في بدء حكمه بالمال والعطف والتدخل المؤثر، ولما احتج سفير فرنسة عما وصل اليه من أخبار معاونة جلالته المالية قال له: « انهم مني (السوريون) واذا أردت معاونتهم فلست أكتفي ببضعة آلاف من الدنانير، بل أعينهم بعدة آلاف من المقاتلين». ولكنه مع الاسف بتأثير هؤلاء، وبتأثير « فيلبي » تبدل موقفه وتطور لدرجة انه لم يسمح بإعادة ما كنا أودعنا عنده من الاسلحة، التي اشتريناها بأموال الثورة السورية، عندما طالبناه بها مراراً بواسطة خيرة من يعتمد عليهم من رجالات العرب. وكانت هذه الاسلحة وحدها تكفي لاعادة ثورة أو لإحياء ثورة وإنجاحها في سورية وفلسطين. ولكنا حرمنا هذا الركن العظيم مع الاسف بفضل وسوسة حاشيته الكريمة !!!.

ولما وصلت جدة، وأخذت الاشاعات تسري في المدينة عن نوايا الملك نحوي من عزل وعقاب وغيرهما، لم يكن مني الا أن ارسلت له كتابا وطلبت منه أن يرخص لي للحضور لاعلمه بما جرى. ولما لم يرد عليّ جواب منه خلال أسبوع، أبرقت له طالباً المقابلة لازالة سوء التفاهم. ولما لم يجبني لم يسعني الا أن أقدم استقالتي، أبيّن فيها ان الخدمة في جيش يحكمه ابن سليمان حرام. فكان الجواب هذه المرة ما معناه: انني معزول من مقام أنا فيه منصوب وقضي الامر.

فعدت الى مكة، وعزمت أن أرسل كتابا للملك، أبيّن له فيه حقيقة ما جئت من أجله، وحقيقة أمره، وحقيقة ما شاهدته في بلاده. وأردت بذلك أن أعلمه انني لا أغادر البلاد حتى أتأكد من استلامه كتابي، كي لا أكون كالجبناء الذين ينافقون له بحضوره ويشتمونه بعد خروجهم من بلاده في غيابه. فأرسلت كتابا

طافحا بالحقائق المرّة التي أقول فيها :« انني أتحمل مسؤولية كل كلمة فيه غير صحيحة، كما على جلالته أن يتحمل مرارة كل حقيقة فيه ». ثم أعدت السيف الذي أهداه الملك اليّ سابقاً، وكان أول هدية تعاد اليه. وبعد وصول كتابي اليه أتاني فؤاد حمزة مهدداً بقوله :« ماذا يمكنك أن تفعل مع الملك وباستطاعته أن يفعل فيك مايشاء ». فأجبته :« انني استطيع أن أعلم العرب الذين علقوا عليه الآمال الجسيمة بحقيقة أمره. والآن يعلمون انهم اذا أرادوا خلاصهم فلا يعتمدوا الا على أنفسهم. فهذا كل ما استطيعه، وللملك أن يفعل مايشاء ». ولما رأى فؤاد حمزة عنادي وإصراري أخذ يلاطفني، ويكيل لي بوعود ذهبية فيما اذا اردت البقاء، فأعلمته عن عزيمتي على السفر، وعبثا حاول. وبعد هذا اتاني يوسف ياسين فأوسع عليّ الاماني والوعود، فلم تفلح. وأتاني الدكتور مدحت شيخ الارض كذلك، فلم يفلح . وكان قد جاء الحجاز في هذه الايام الامير عادل ارسلان، وبعد أن اجتمعنا، نصحني بالبقاء، فلم أتراجع عن عزمي. وأخيراً طلبني الامير فيصل اليه، وكان صديقي الحميم، قال لي :« لا تكن أحمق وأبله. فهذه الحادثة هي خير فرصة تستثمرها ضد ابن سليمان ». وأصر عليّ بالبقاء، فطلبت منه امهالي. وكان الملك بدوره قد أرسل اليّ كتابا يعلمني فيه انني محسوب عليه وان عليّ، وعلى أمثالي أن أتحمله، وهو قد أمر لي بما يرضيني. فعاد الامير عادل وقال : « ان مغادرتك البلاد بعد هذا الكتاب غير لائقة »، كما ان الامير فيصل أصرّ عليّ بالبقاء، وأقنعني بذلك. ولما علم فؤاد حمزة برضائي على البقاء اتاني فرحاً واستكتبني كتابا أقول فيه :« انني رضيت بالبقاء في الحجاز باختياري ». وانتهى الامر ، وسافر الملك الى الرياض ولم أحضر لوداعه. ولازمت بعدئذ الامير فيصل، حيث أصبحت مستشاراً خاصاً له، فلم أفارقه في اقامة أو سفر أو اجتماع خصوصيا كان أو رسمياً.

* * *

بدأت القلاقل في فلسطين عام ١٩٢٩، وأخذت تتطور حتى وصلت الى حد خطر شمل البلاد المقدسة بأسرها تقريبا. وقد كتب اليّ احد اخواني المخلصين عن الحالة المتفاقمة فيها، فكتبت له انه « ما دامت الهجرة الصهيونية مستمرة وما دامت لليهود المطامع الكبيرة، وما دام الانكليز يفسحون المجال لهذه الهجرة والمطامع بأسنة

حرابهم، وبالقوانين الصارمة التي يستحيل معها أن يحافظ العرب على أرضهم، فيجب أن تتوقع تكرر أمثال هذه الحوادث والتعديات الصهيونية بصورة أوسع. بينما اليهود يقومون بالتشكيلات العسكرية والاقتصادية الواسعة، ويسلحون أنفسهم بما يجلبونه من أنواع الاسلحة، سراً وعلانية، وينظمون كتلاً من شبابهم على نمط تنظيم الجيوش ، ويأتون بالضباط من اليهود المطرودين من المانيا ومن بولونيا. سكون العرب واستكانتهم ، وعدم استعدادهم ، سوف يزيد من مطامع اليهود، ويدفعهم الى استعجال تنفيذ خططهم . واني أخشى ان يصبح العرب، وهم على غير استعداد مكتفين بثقتهم واستكانتهم على وعود الانكليز، في فلسطين يوماً من الايام وجها لوجه مع اليهود المنظمين والمسلحين، فلا يستطيعون مجابهتهم، فتقع كارثة تودي بحياة العرب في فلسطين، وتحل قضيتها بالامر الواقع. لذلك يجب أن لا تأسف أمة العرب اذا لم تحصل من اعمالها الآن على نتيجة، بشرط ان تبدأ استعدادها منذ الساعة، بطريقة تضمن لها ايجاد قاعدة خارج فلسطين تشن منها الغارة حين الدفاع، وتقلب القضية الفلسطينية الى قضية عربية عامة ». ورسمت مايجب لذلك من الخطط. وبالطبع لا يمكن الآن ذكر أي شيء عن ماهية هذه الخطط التي تصبح بيد الانكليز واليهود خير سلاح يقاتلوننا به، ويسدون به علينا الطريق. فكان لكتابي هذا الوقع المؤثر في نفوس اخواني في فلسطين، فطلبوا اليّ الحضور للتفاهم على الخطة مهما كلف الامر. ففاتحت الامير فيصل بما أنويه، وطلبت منه أن يساعدنا ببعض (التعديلات) يقوم بها. ثم استرخصته بالذهاب الى مصر، ورجوت ان يبقي سفرتي مكتومة، ففعل. ثم تظاهرت بأني ذاهب للمدينة بقصد الزيارة، فاتجهت شمالا نحوها، ثم عطفت جنوباً الى جدة. وركبت الباخرة ثم وصلت العريش وكان احد اخواني في انتظاري، حيث ركبت منها رأساً الى إحدى العزب دون أن اعلم احداً من اصدقائي في مصر عن قدومي. ولشد ما كانت دهشتي حينما بلغني سؤال الشرطة في مصر عني من القاهرة. اتصلت حالا بكل من يجب الاتصال به من رجالات فلسطين وشرقي الاردن، وببرهة قليلة تم التفاهم والاتفاق وبدأت الاستعدادات للعمل. ولكن الانكليز الذين كان موقفهم في العراق وفي الهند وفي مصر وفي فلسطين سيئا، أخذوا يطلبون الوفود الى لندن للتفاهم. فبينما كانت الوفود تسافر

الى لندن، وتتفاوض فيها ، كانت رجالهم تعمل في البلدان لبث التفرقة والفساد، وحمل الشعب على التقاتل مع بعضهم بعضاً. وبهذا يكونون قد اكتسبوا الوقت اللازم، وشلوا نفوذ ونشاط الزعماء عندما يعودون مخفقين.

مر الوفد الفلسطيني حين ذهابه الى لندن بمصر، فاجتمعت مع من يجب منهم، وكانت الفكرة أن لا نأتي بأي عمل ما يشتمّ منه رائحة سوء نيتنا، ما دام الانكليز انفسهم يظهرون حسن النية. فقلت :« أنه لا بأس من ان نستعد وننتظر نتيجة المفاوضات فان كانت شراً ليكن جوابنا حاضراً » . ولكن عبثا حاولت حمل اخواني على تحقيق فكري، وكانت النتيجة كما توقعت، إذ بعد أن تمكن الانكليز من تفريق الكلمة في فلسطين رفضوا كل شيء، وعاد الوفد دون ان يتمكن من عمل أي شيء. فقفلت راجعاً الى الحجاز والالم يحز في نفسي والاسف يملؤها.

* * *

وفي ذات يوم استلمت كتابا من الامير شكيب، يعلمني فيه ان الملك فيصل بلغه ما حدث بيني وبين الملك ابن سعود من سوء التفاهم، وانه آسف جداً. ويقول انه « اذا لم يكن في الامكان رتق الفتق فاترك الحجاز، واحضر الى العراق على الرحب والسعة، واعلمني تاريخ حركتك». ولكي لا يكون هذا الكتاب موضع مؤامرات جديدة ضدي اطلعت الامير فيصل عليه كما اطلعت فؤاد حمزة، ثم كتبت كتابا الى الملك ابن سعود أعلمته فيه مضمون هذا الكتاب، وطلبت منه أن يأذن لي بالذهاب اذا لم يكن لديه عمل أخدمه فيه. فأجاب عليه بأنه اطلع على كتابي، وانني محسوب عليه، وانه سوف يقوم بأعمال تسرني، وان أنتظر عودته من الرياض، ويدعو لي وللمسلمين بالتوفيق، فانتظرت.

كانت الازمة الاقتصادية وصلت الى أقصى حدودها في اوروبة، وأخذ يظهر تأثيرها في الحجاز على شكل مخيف، اذ لم يكن لدى الدولة أي مال احتياطي فحسب، بل كانت غارقة بالديون الخارجية والداخلية. وكان مورد الحج ، هو المورد الوحيد للدولة، يكاد أن ينضب معينه، حتى ان ابن سليمان عجز عن تأمين ما يلزم من البنزين لسفرات الملك. ولاجل الخروج من هذه الضائقة الخطرة، كان التحسب يدور بأن يقوم الامير فيصل برحلة الى اوروبا، يدور فيها على عواصمها،

ويحاول الحصول على قرض بفائدة مناسبة. فصارحني سمو الامير بهذه الفكرة، ورسمت له خطة للسفر تبدأ من مكة، تمر الى العواصم كافة وتنتهي في بغداد وبعدها في الرياض، وطلبت منه أن أكون معه في هذه الرحلة، فوعد خيراً. وفاتح جلالة الملك فلم يرفض ولكن ابن سليمان أفسد عليّ السفرة بحجة انني لا يمكن مرافقة الامير الى باريس ويدي لا تزال تقطر من دم الافرنسيين.

قام الامير برحلته يرافقه فؤاد حمزة، الذي كان له اصبع في عدم رفقتي للامير، وكان من عادة هذه الحاشية أن يأكل بعضها بعضاً بابتداع الوشايات والنميمة والدسائس التي يتقنونها. حتى اذا ماظهر في أفقهم شبح أعلى منهم، هادنوا بعضهم بعضا، وتعاقدوا وكوّنوا من انفسهم صفاً واحداً في وجهه، كي لا ينفذ الى قلب الملك.

أتاني يوسف ياسين ومعه خالد الحكيم، يبلغني ان جلالة الملك يعتبرني من الآن فصاعداً من حاشيته الخاصة، وقد أمر لي بالعطايا وخصص لي راتباً جديداً. ولما صارحته انني غير واثق من أي شيء ما دام ابن سليمان موجوداً في الوجود، وانني لابد وأن أكون هدفاً لمكيدة جديدة يدبرها هذا لي. وبعد يومين أعلمني يوسف ياسين أن جلالة الملك أمر أن يكون راتبي من أحد أبواب الميزانية التي لا يصلها تبديل أو تأخير، وأن الملك أمر لي بسيارة فورد.

أخذت الشائعات السيئة تنتشر عن جلالة الملك في خارج المملكة وفي داخلها، وأخذ يظهر تأثيرها جلياً، خاصة في الهند. فأخذ يهتم بالصحف اهتماماً كبيراً ، لاستخدامها في الدعاية، وكان قبلا، كما أسلفت، يسخر من هذا السلاح. وأخذ شبح جلالة الملك فيصل المخيف يظهر في أفق العالم العربي، فاتجه العالم اليه بكليته، وأصبح ابن سعود كأنه في عزلة وشعر الآن ان الامة العربية يمكنها ان تعيش بدونه، وتأكد ان لاغنى له عن الرأي العربي العام. فأخذ يسعى السعي الحثيث، ولكن الوقت كان قد فات.

كان موسم الحج قد انتهى، وكان من المقرر ان يقضي جلالة الملك ردحا من الزمن كعادته في الطائف. وبعد أن بلغني يوسف ياسين عن لسان جلالته تخصيص راتب دون ان يكون لي اتصال بابن سليمان وزير المالية، وانني اصبحت من حاشية

جلالته الخاصة، أبلغني عن رغبة جلالته بالسفر مع ركبه الى الطائف، وقد خصص لي منزلاً لائقا في الطائف.

ولقد تأخرت في مكة يوماً لاستلام أدوات السيارة الجديدة، وفي الطائف أقام المرحوم عبد القادر الشبيبي حفلة عشاء لي دعا اليها الكثيرين من حاشية الملك، وبعض الوجهاء. وهناك أخبرني أحد خدم الشبيبي، ان رجلاً بالباب يريد مواجهتك، نزلت ، فوجدت أحد عبيد الملك، فسألته عما يريد فأخبرني بوجود مدير الامن العام السيد مهدي في انتظاري في الخارج، وأحاطتني شرذمة من الشرطة، قادتني الى سيارة قريبة، فيها السيد مهدي وشرطيين مسلحين. ووجدت حقائبي وأغراضي في السيارة، فتأكدت ان في الامر مكيدة جديدة. وأخبرني السيد مهدي أن جلالة الملك يريد مقابلتي، ولما وصلنا قصر شبرا حيث ينزل جلالته، اذا بعبد الملك الخاص يقترب، فيهمس في اذن السيد مهدي همسات لم أسمعها، فاذا بالسيارة تسرع صوب مكة. ولما ايقنت انني مساق لامر أكون فيه ضحية مكيدة، لم أشأ أن أفاتح السيد مهدي طيلة الطريق، بل أخذت أحدثه أحاديث طريفة ونكات مستظرفة، حتى وصلنا مكة أمام دار الحكومة، فاذا بثلة من الشرطة المسلحة في انتظاري. ودخلت السراية والشرطة تحفّ بي من كل جانب، حتى اذا دخلنا احدى غرف السراي أخبرني السيد مهدي اني موقوف بأمر من جلالته، وانه سيوجه لي أسئلته في الغد.

وفي اليوم الثاني، قدم لي السيد مهدي خطياً هذا السؤال :« انه تحقق لدى الحكومة انكم قائمون بمؤامرة لقلب الحكومة، فاعلمونا مع من كنتم تجتمعون وما هي مقرراتكم والاسباب التي حملتكم على ذلك ؟».

فأجبته تحريرياً وباختصار : « انني لم اجتمع الا بالامير فيصل، وأقرب حاشية جلالة الملك وسموه وكبار موظفي الدولة، ولم أتعرف بعد الى غير هؤلاء الذين أقضي كل أوقاتي معهم. ومع ذلك اذا كانت الحكومة قد تحقق لديها قيامي بما تدعيه من المؤامرة، فلتظهر من الادلة دليلاً واحداً، وأنا اكفيها مؤونة التحقيق، وأرضى بأقصى عقاب يستطيبون تنفيذه». وبقيت خمسة عشر يوما في محبسي هذا، قام خلالها السيد مهدي بالتحقيق مع كل من اشتبهوا به، وقبضوا كذلك

على آخرين ممن اساؤوا الظن بهم، فسجنوهم وعذبوهم بغية اقرارهم بشيء يثبت ما أسند اليّ من التهم. ولما خابوا أتاني السيد مهدي وقال لي :« أبشرك بأنه قد تحققت براءتك بما قمت به من التحقيقات الجدية»، وأنه قد فتش جميع اوراقي وأغراضي فلم يعثر فيها على مايثير أية شبهة. وكان من جملة أوراقي دفتر مذكراتي، وفيه صورة الكتاب الذي أرسلته الى الملك، والذي يحوي على انتقادات مرة لتصرفات « فيلبي » خاصة وابن سليمان والحاشية. وفجأة تبدلت المعاملة معي، وأخذت أشعر بأنني أصبحت حراً، وزادت صداقتي مع السيد مهدي ارتباطا. ثم ذهب الى جدة بمهمة كلفه بها ابن سليمان، ولم تمض ساعتان على ذهابه حتى وجدت نفسي أمام ابن سليمان يدعوني للذهاب معه، وشعرت انه استسنح الفرصة للانتقام. فتبعته الى قصر وزارة المالية، حيث وجدت سيارة قد أعدت من السيارات الجديدة الفخمة. فركبت فيها، وركب هو مع عبيدٍ وحاشية خاصة في سيارات أخرى، حتى وصلنا الى منى، فنزلت من السيارة، فاذا بسيارة لوري يحيط بها حرس ابن سليمان الخاص، وطلب مني ابن سليمان ركوب السيارة وانصرف، وعاد مقبلاً وبيده (زنجير الخاص بتحديد الخيل) بخيلاء، ودفعه الى أحد عبيده طالباً تحديدي. اتجهنا صوب الرياض، حيث وصلناها بعد أربعة أيام.

فك العبد الحديد من رجليّ قبل أن ندخل قصر ابن سعود، حيث فيه ولي العهد الامير سعود، فدخلت عليه، وكان مجلسه غاصاً بشيوخ نجد، وبمجرد وقوع نظرهم علي تلثموا وغطوا لحاهم. فخاطبني الامير بقوله :« أهكذا تفعل يافوزي ؟! نحن الذين قدرناك أكثر من قدرك وأكرمناك أكثر مما تستحق وأخيراً تخوننا ؟!» فأجبته بجدّ : « بماذا ياطويل العمر»؟ قال :« بمخابرتك السبع دول علينا». فقلت : « وكيف كانت هذه المخابرة أتحريرياً أم شفاهيا ؟» قال: « بل بالمكاتيب»، وأردف قائلاً : « يقول الشيوخ» (ويعني الملك) (وهذا اللقب يطلقه كافة عربان نجد على الملك وأولاده) والله لو سبق ان قتل العرب ضيفهم لقتلك على فعلتك هذه». فأجبته غاضباً : « ياطويل العمر ليأت الملك بكتاب مني الى السبع دول، أو من السبع دول اليّ ومشيئة الملك مردودة». ولم أكد أتفوه بكلمة مردودة حتى سلت سيوف الشيوخ دفعة واحدة، ولكن الامير هدأ من روعهم، والتفت اليّ اخيراً : «اذن ماذا جرى حتى حل بك ماحل؟» فقلت له :« ياطويل العمر، أما تعرف

دسائس ابن سليمان ومكائده؟ »، فأطرق هنيهة ثم لعن ابن سليمان، والايام التي سلطت ابن سليمان، وأخذ يهون عليّ، وأمر لي بدار أنزلها وخدم وعبيد، وأجرى لي الارزاق ومرتباً، وأعطاني حرية في التنقل والتنزه في الرياض وخارجها. ولقد أنساني مالاقيته طيب قلب هؤلاء الامراء الذين لا يزالون على الفطرة ولم يدنس طيب محتدهم بسفالات الحضارة وبعض رجالها الفاسدين. ولكني لم آمن وأنا في الرياض شر ابن سليمان الذي هو في نظري الملك بدون عرش، و« فيلبي » مستشاره المطيع.

ولما كنت أجهل نوايا الملك نحوي وأرتاب من دسائس ابن سليمان للملك، أخذت أدبر أمر الفرار، فاتفقت بعد اختبار مع رجال من قبائل عتبة التابعين للاشراف سابقاً، وقد سئموا الحياة في نجد، على تدبير خمسة من الهجن الاصايل والاسلحة، وجمعناها في امكنة حريزة. ثم انتظرت قدوم الملك حتى اذا شعرت منه نية لا تناسبني فررت.

وكانت قد قامت ضجة من اجلي عظيمة في دمشق والقدس والقاهرة، وأرسلت الى الملك عدة رسائل وعرائض اخبرني القرقني عنها بقوله : « انني اشتري نصفها بضعف ماحل فيك »، لما أظهره فيها قومي من الشعور الحي والعطف النبيل حتى أنساني اساءة ابن سليمان. ولقد اغتبطت وافتخرت كثيراً لاهتمام اخواني بشأني الذي خلق في نفسي آمالاً طيبة لنوايا الملك.

وصل الملك الى الرياض كعادته، وأوفد ابن معمر رئيس ديوانه اليّ، وأعلمني بأن الملك قد أفرج عني وهو يود مواجهتي. فذهبت اليه، ومما قاله لي: « اننا نحن أهلك وعشيرتك، فان احببت جوارنا فانت عند أهلك ، وان أردت الخروج من البلاد فالرأي لك ». فطلبت منه السماح بمغادرة البلاد. قال :« الى أين »؟ قلت : « لعند فيصل في العراق ». ففقش بإصبعيه وقال : « ابوي، ان فيصل يروج اليوم في وديان فلسطين » (يعني يتنقل كالتائه)، وكان الملك فيصل وقتئذ في فلسطين، فماطلني. وبعد محاورة أخبرني انه مرسلني الى ابنه في الحجاز، وأوسع عليّ العطايا والهدايا، وخصص لي سيارته وسائقه الخاص لايصالي الى الطائف، ففرقت هذه الهدايا كلها على من كان عندي من الخدم وعلى اصحابي.

تركت الرياض الى الطائف، وحيث وصلتها بعد تسع عشرة ساعة، فرحب الامير فيصل بي، وعدت معه الى سابق صداقتي ومودتي. وصرح يوماً بحضور السيد مهدي وعبد الله الفيصل رئيس ديوان الشورى، « ان كل ما أصاب فوزي هو بسببي، وانه يصعب على الرجل الشريف الآتي من خارج هذه البلاد أن يعيش فيها »، وكانت هذه الكلمات لي خير عزاء.

انه بالرغم من كل ما شاهدناه من الادارة الابتدائية في البلاد، ومن العقلية الساذجة الفطرية عند الملك والامراء والرؤساء، ومن بعض التصرفات التي لا تتناسب مع النهضة العصرية ومطامع دول الاستعمار في الجزيرة، فاني ارى أن في الشعب العربي في هذه الدولة من الكفاءة والقدرة في ادارة الشؤون الحربية والمدنية ما يجعلنا نطمئن على حياتها. وان ما في نفس الملك من الشجاعة والبسالة والعروبة يجعلنا نعتقد ان ما شاهدناه من الشذوذ ان هو الا عارض، وان الاخطار المحدقة بتزاحم الدول.الاوربية على بسط نفوذها في الجزيرة، وما يجري من الحوادث في اوروبا وعلى شواطئ البحر الاحمر القريبة ، لا تلبث ان تلجئ الملك الى التفكير العميق، والقيام بما تستلزم الحالة من اتخاذ التدابير الحازمة والوسائل الضرورية لوقاية حدود البلاد، ولا بد ان يتلاشى يوما أثر حاشية الملك و« فيلبي » أمام هذه العوامل الخطرة .

كنت عازماً هذه المرة العزم الاكيد على ترك البلاد، وقد ألح سمو الامير فيصل ليصرفني عن عزمي، ولكني لم أطاوعه خشية وقوعي في مكيدة ثالثة . كما ان فؤاد حمزة سعى كثيراً لاقناعي بالبقاء في البلاد. وأخيراً جاءني سمو الامير ببرقية من جلالة الملك يقول فيها : « اتفقوا مع فوزي على ابقائه في الحجاز بأي شرط كان ». وكان فيصل فرحاً بهذه البرقية، ولكني سألته : « هل تستطيع حمايتي من اهانة أو أذى يلحق بي اذا وقعت في مكيدة جديدة الى ان يظهر الحق ». قال : « والله لو تقع على رأس عبد الله – ويعني ولده – لا استطيع ذلك ». فقلت له : « اذن ياسمو الامير الاشرف لي ولك أن اترك البلاد، وأن لا أؤخذ مرة ثالثة من بين يديك، وعيناك تنظران فأسجن وأهان وأنت لا تستطيع عمل أي شيء ». فتأثر كثيراً، وقال : « والله الحق معك، توكل على الله، وعسى ان لا يكون هذا آخر العهد بيننا ». فتركت الطائف، وتوجهت الى جدة، وأنا محفوف بكرم الأمير وعطفه .

وركبت الباخرة متجهاً الى مصر، وكانت جدة تبتعد عن أنظاري وتبتعد معها الحجاز، وأخذت تعاودني في هذه اللحظات أحلامي وآمالي التي كنت أتلذذ بها وأنا قادم صوب جدة. واستعرضت كل الحوادث التي توالت عليّ والتي شاهدتها خلال مقامي في الحجاز السنتين والنصف. ثم استعرضت من جهة أخرى موقف الامة العربية بأسرها، وما يحيط بها من أخطار خارجية، وما يثقل كاهلها من مشاكل داخلية، فشعرت عندئذٍ ان ماكنت أحمله من الآمال والاحلام في رجال هذه البقعة من الجزيرة، والثقة بهم لم تنزع بعد، وانه لا بد وأن ينتهي شذوذ الملك وتصرفات المسؤولين من ذوي السلطة الواسعة في مملكته، عندما يجابه الملك الاخطار فيقدم على غزو اليمن التي يسوقه اليها «فيلبي» ويزينها له، وعندما تصطدم سياسة الامبراطورية البريطانية ومصالحها مع الدولة الايطالية الفاشيستية في البحر الاحمر وفي الحبشة. فيشمر عندئذٍ عن ساعد جده ويلتفت الى شؤون مملكته، ويطهر بلاطه من نفوذ حاشيته السيئة، ويتجلى له عندئذٍ قيمة الرأي العام العربي، وضرورة ارتباطه بالاقطار العربية، ويتأكد كذلك ان لاحياة له ولا لبقية الاقطار بدون وحدة وثيقة تتأسس على دعائم الدم العربي والعبقرية والكفاءة العربية. وغابت جدة عن أنظاري وأنا مستغرق في هذه الاحلام اللذيذة.

* * *

وصلت القاهرة ... واجتمعت باخواني الموجودين آنئذٍ فيها: اسعد داغر، الشيخ رشيد رضا، والدكتور شهبندر، ومن الصدف ان كان المرحوم ياسين الهاشمي فيها. وكان الكل متلهفاً لسماع الاخبار عن حقيقة الدولة السعودية، فكنت أقص عليهم ما أراه مناسباً، كما ان كثيراً من أرباب الصحف العربية ارهقني بأسئلته عن الحالة فيها، فكنت أدلي لهم بالمعلومات المقتضبة عن النواحي الطيبة في تلك البلاد. واجتمعت بعد حين بالمرحوم الهاشمي اجتماعاً خاصاً في فندق الكونتننتال، وكان قائما بسياحة في الاقطار العربية، يمهد فيها السبل لربط هذه الاقطار بعضها مع بعض بشتى الوسائل. وفي أثناء طوافه هذا تالق نجمه في سماء البلاد العربية، حتى أصبح ينظر اليه كرجل الساعة الذي ستتم على يده وحدة العرب، وكان يؤكد انه سيعمل لتحقيق هذه الامنية.

ودار الحديث بيننا في مختلف المواضيع، ثم انتقلنا الى موضوع سورية الذي كان في نظري الموضوع الاساسي للوحدة العربية. وقلت ان الانقلاب التركي الاخير وما سبقه من الانقلابات انما تم على أيدي الضباط والعسكريين الذين تخرجنا معهم من مدارس واحدة، ولم تكن كفاءتهم ولا نباهتهم أعظم من كفاءة ونباهة اخوانهم العرب. ولكن مع الاسف لم يقم ضباطنا العرب بأي عمل يسجل لهم كما سجل اخوانهم ضباط الترك، وعزوت ذلك الى شعور الضابط التركي بالسيادة التي يتمتع بها، والتي يمتاز بها على قرينه الضابط العربي. فأمن الهاشمي على قولي، وزاد: «وانه ليجب العناية والالتفات الى هذه الناحية الحيوية». ولما سألته بما يجب عمله من أجل سورية وانقاذها من الانتداب، قال: «لدينا وسائل شتى نضغط بها على الافرنسيين، أهمها البترول. فاذا لم تثمر عمدنا الى تشكيلات على الحدود السورية العراقية، نبعث منها العصابات لإقلاق الافرنسيين». فقلت: «ان هذا صعب نظراً لما يفصل الحدود عن المعمورة السورية من المسافات الشاسعة من الصحاري، حيث يتعذر العمل فيها. ولكن اذا قصدتم الاقدام على أمر. فان هناك طرقاً أخرى». فقاطعني قائلاً: «ماذا عساها تصنع فرنسة؟ فلتأت بمليون جندي وتحتل العراق». فأيقنت ان ليس في الامر جدّ. وانتقلنا الى مواضيع أخرى.

وقصدت بغداد، فوصلتها بعد مخابرات عدة مع الملك فيصل، ودخلتها أواخر ١٩٣٢. وطلبني المرحوم الملك فيصل لمواجهته في بلاطه، وبادرني بقوله: «حيا الله فوزي، والله انك كنت مجهولاً، وعرفت الناس بأعمالك. وان ما قمت به فخر لنا كلنا. فانت المثال الحي للتضحية يقتدي به ضباطنا على الاخص». ثم دار الحديث حول المملكة السعودية، وأحيانا كان يسألني عن الثورة السورية، وكنت أحدثه بالتفصيل، فكان يسرّ ويقول: «عساك تكون دوّنت أعمالك هذه، فهي حقاً مذكرات قيّمة». ثم توالت اجتماعاتي بجلالته، وكان في كل مرة يستزيدني من مباحث الثورة السورية، وأخبار المملكة السعودية وكلما زدته تفصيلاً ازداد بي الحاحا بوجوب تدوين مذكراتي على أن يقوم هو بكل ما تحتاجه من النفقات، وكنت أعده وأماطله لأن تدوينها في نظري لم يحن حينه بعد. ولقد رغب الملك فيصل في تعييني في الجيش، وكان أمر تعييني تحيط به كثير من المشاكل السياسية والقانونية. وقد ارتأى الهاشمي تعييني في شركة النفط العراقية الانكليزية،

وفي الدوائر الملكية، فكان من المتعذر عليّ قبول أمثال هذه المقترحات التي لا تتلاءم مع روحي ومسلكي، كما أنها كانت في الحقيقة غير ممكنة. وأخيراً عينت استاذاً للفروسية في المدرسة الحربية العسكرية الملكية برتبة رئيس. وكان لطه باشا الهاشمي رئيس أركان الجيش وقتئذٍ، وناجي الأصيل رئيس الشعبة السياسية في وزارة الهاشمي، الفضل في ازالة العقبات من سبيلي للوصول الى هذا التعيين.

وكنت أزور الملك علي، الذي يحنّ كثيراً الى سماع أخبار المملكة السعودية بصورة خاصة، وكان قد اتخذ له من بغداد مقراً يأوي اليه. وكان كثيراً مايتوق الى تبوّء عرش سورية، وقد جعل الافرنسيون من رغباته وسيلة لحل قضية سورية، وإرضاء السوريين بوعود عن لسانه. وكان ضعيف النية والارادة، وقد استغل كثير من السوريين هذا الضعف الذي فيه، فبذل في سبيل الدعاية الى هذا العرش كثيراً من الاموال التي ذهبت سدى وسببت له بعض التقولات.

وكان العراق مستقراً في سياسته، ويتقدم من نواحيه كافة تقدما محسوساً، فاصبح بوجود فيصل على عرشه رمزاً للعروبة، وملجأ لمضطهَدي العرب السياسيين. وكانت ميول عديدة تتجاذب سياسة العراق منها العربية العامة والاقليمية والشعوبية كذلك، ولكن دفة السياسة، وهي في يد الملك فيصل، تتجه دوما باتجاهها العربي العام.

وكثيراً ما حدثت المشاكل الداخلية والاخرى الخارجية مع بريطانية على جانب من الخطورة، ولكن فيصل كان يتغلب عليها دوما بحنكته ودهائه اللذين لا مثيل لهما بدون اراقة نقطة من الدماء. وفي عام ١٩٣٣ حدثت حوادث الآشوريين المقلقة، وكانت الاشاعات الكثيرة تدور عن قوتهم العظيمة، وعن تغذية الانكليز لهم بالسلاح والمال، وعن معاملة الافرنسيين الحسنة لهم عند اجتيازهم الحدود السورية التي اتخذوا منها قاعدة لاعمالهم. وشاع كذلك إمداد الافرنسيين هؤلاء بالمال والعتاد ووسائط النقل أيضاً، مما جعل الحكومة العراقية وعلى رأسها فيصل، تهتم الاهتمام الشديد وتتفرغ لدرء هذا الخطر. وقد تأكد للناس سوء نية الانكليز والافرنسيين واتفاقهما على إثارة الآشوريين، ليتمكنوا من قطع جزء كبير من شمال العراق وشرقها، فيجعلوه امارة مستقلة لهؤلاء، تحت اشراف بريطانيا، وتكون منابع

النفط العراقية ضمن هذه المنطقة المستقلة. اخذ الجيش العراقي يحتشد في شمالي غربي الموصل، ويترصد معابر دجلة وفيش خابور، وأصبح الجيش على أتم الاستعداد. وعم الحماس القبائل العربية، خاصة شمر والقبائل الكردية أيضاً. وذهبت المحاولات لاعادة السلم سدى، لما كان عليه الآشوريون من الغرور بانفسهم، والاعتداد بفرنسة وبريطانيا معاً. ولقد تطوعت للاشتراك في قمع هذه الثورة، ولكن رئيس أركان الجيش شكرني قائلاً: «ليس ثمة من حاجة لاشتراكك الآن».

وتقدمت جموع الآشوريين من المعابر، وتظاهروا بالاستسلام الى الجند المرابطين هناك، ولما وثق الجند من استسلامهم، وتقربوا اليهم بادروهم باطلاق النيران معلنين خيانتهم. ثم هاجم الآشوريون المعسكر العراقي فصدتهم الجنود بقسوة، وما هي الا سويعات حتى قضي الامر، وتشتت من بقي سالماً منهم، فطاردهم الجيش والقبائل، ولم تبق منهم باقية. وبهذا انحلت هذه المشكلة بنصر بهر عيون الانكليز والافرنسيين.

طلبت مواجهة فيصل على اثر هذه الحوادث، وذكرت له انني تطوعت للاشتراك مع اخواني، ولم ير رئيس أركان الجيش حاجة لاشتراكي، وان الفرصة الآن سانحة للعمل في سورية لقاء ما قامت به فرنسة من الاعمال والنية السيئة تجاه العراق، ووعدت أن أريه دخان دمشق من قصره لو سمح لي بثورة اقوم بها بعشر ما قدمته فرنسة للآشوريين من المساعدات. فسرّ جلالته جداً من تصريحي هذا ثم قال: «ان بيدنا الآن وثائق مهمة جداً، تثبت تدخل فرنسة في حوادث الآشوريين. ونحن سنرغم على حل القضية السورية في جنيف حلاً يرضي الجميع». فقلت له: «ان المنتظر من جلالتك هو هذا، وأنت محط آمال العرب، ولكن للسياسة اساليب شاذة، ربما لايتاح معها حل القضية السورية». فقاطعني قائلاً: «عندئذٍ اقول لك استعد. ونحل القضية عن طريق الثورة التي تتطلبها»، وأردف قائلاً: «هل فكرت في الطريقة التي يجب اتباعها في ثورة جديدة»؟ قلت له: «نعم». وكنت في الحقيقة قد درست موقف سوريا درساً عميقاً، واتصلت خلال وجودي في العراق بكثير من الرجالات الذين يعتمد عليهم، وكنت على استعداد تام لرسم افضل خطة تلائم الحالة الراهنة في سوريا، وتقوم على تجارب واختبارات الثورة السورية الماضية.

وطلبت منه ورقة أشرح له عليها تفصيل الخطة التي أردت اتباعها، على خريطة رسمتها على هذه الورقة. وكان جلالته يصغي الى ان انتهيت. فقال: «انك أصبحت خبيراً يافوزي. وسأحتفظ بهذه الورقة في دفتر جيبي عند الحاجة». وسألته: «هل أشرع بالاتصال مع الشخصيات التي ذكرتها لك، وأبدأ بالاستعداد؟» قال: «تربص حتى تأتيك مني اشارة». وانصرفت من لدنه مترقباً أخباره من جنيف، حتى فاجأتنا الاقدار بانتهاء حياته الدنيا التي تعب بها كثيراً من اجل العرب. ولقد ترك موته فراغا في العالم العربي كان محسوساً بالدرجة الاولى في العراق، اذ اخذت الفتن تنشب، والاختلافات تتوالى، ولم يقدر أحد على قمعها حتى خيرة رجال العراق الذين يعتقد العرب فيهم الكفاءة كلها. ولقد حدثت في زمن حكومة الهاشمي وحده من الفتن والقلاقل ما جعله يعلن الاحكام العرفية سبع مرات، خلال السنة والنصف.

* * *

اخذت الحالة السياسية في سورية تزداد حراجة وتفاقماً، وكثرت المخابرات والمداولات بين فريق من الاخوان وبيني، وحضر الكثير منهم الى العراق آملين بالحصول على بعض المساعدات المادية والمعنوية من حكومة العراق. وقد اجتمعت مع احسان الجابري وأسعد داغر وسعد الله الجابري، كما اني اجتمعت بعد حين بالاخوان جميل مردم وفخري البارودي في طريقهما الى الحجاز. وكان يقتنع كل واحد بعد محادثتي معه، بان لا طريق لنا لحل القضية السورية الا طريق الثورة، ويعد بأن يعمل مايستطيع لتحقيق هذه الفكرة. وكنا نستمزج احيانا اخواننا من رجالات الحكم في العراق، فكان من يكون في الحكم منهم لا يحبذ الثورة، ومن كان خارجه يحبذها، ويهون علينا أمرها بامكان مساعدة العراق سراً. ولكن لم ينجز شيء من هذه المواعيد لا من قبل اخواننا السوريين ولا العراقيين.

واشتدت الازمة السياسية أخيراً في سورية، وتطورت الى اضراب شديد لابد وأن ينتهي بأحد الامرين: اما الثورة واما بخضوع الافرنسيين لمطاليب السوريين، لذلك كان لابد من المباشرة في الاستعداد والمجازفة مهما كلف الامر. وكان قد حضر اسعد داغر من القاهرة، وكان يومئذ الهاشمي في الحكم، ولما فاتح داغر

الهاشمي عن حالة سورية، ووجوب مساعدتها لم يستطع الهاشمي ضبط عواطفه، فبكى، ووعد. وكان يلوح لي أن وعد الهاشمي هذه المرة صادق، وكان ماوعد من المعاونة غير المالية يكفي تماماً لاضرام نيران الثورة التي نريدها. ولكن الايام مرت ولم يتحقق شيء منها مع الاسف. وربما كانت السياسة في هذه المرة كما كانت سابقاً هي التي منعته من البر بوعده.

وأخذت الحوادث في سورية تزداد خطورة، ويزداد معها عدد الضحايا المتظاهرين، وأخذت السجون تمتلئ كما أخذت تنضب ينابيع البلاد الاقتصادية، التي لم يبق الافرنسيون عليها. فكان لا بد من العمل، وكان لابد لي من أن أعمل، فاستسنحت فرصة العيد الاضحى، وذهبت الى الموصل، ومنها اتجهت غرباً واتصلت بزعماء قبائل شمر والعقيدات وغيرها من القبائل في أراضي سورية، وكوّنت حلفاً من هؤلاء البدو، يضمن لي على الاقل اربعماية مقاتل. وقفلت راجعاً الى بغداد، واتصلت باخواني في عمان ودمشق، لتكوين قوة اخرى من مجاهدي الدروز والشوام، بما يعادل هذا العدد. وأخذنا نسعى لتجهيزهم وتسليحهم، حتى اذا ما أكملنا استعدادنا تركت الجيش العراقي وانقضضت بجموع شرقي الاردن على الصفاء، وبعد ما أجلب اليها القوة الافرنسية تنطلق القوى الشمالية من الاتحاد البدوي، الى اتجاه دير الزور، وجبل الزاوية، فتشطر القوة الافرنسية شطرين وتعم الثورة مرة اخرى البلاد السورية أجمع، التي هي اليوم على استعداد أقوى وأشد منه في الثورة الاولى. ولكن الافرنسيين الذي شعروا بحراجة موقفهم في سورية وفي اوروبة، أنهوا الاضراب بطلب وفد يؤم باريس للمفاوضة على اساس تحقيق المطالب السورية.

* * *

كانت قضية فلسطين تشغل فكري دوما، وتقلق بالي. فاقترحت لاول مرة عام ١٩٢٩، وأنا في الحجاز، اعداد منهاج للدفاع المسلح عنها، يكفل سلامة العرب فيها ويجعل لها في خارجها دعائم عربية قوية. طُلبت لتنفيذ هذه الخطة، ولكن حال دون تحقيقها طلب الانكليز لجنة فلسطينية للمفاوضة في لندن.

وكان قلقي يزداد بازدياد حوادث فلسطين، وطغيان الصهيونية والانكليز فيها،

فذهبت وأنا ضابط في الجيش العراقي مأذوناً الى فلسطين عام ١٩٣٤، واقترحت خطة واسعة النطاق نسعى لاعدادها، على ان تنفذ عند الحاجة، وتم الاتفاق على كل شيء ، ولكن مع الاسف لم يقدم احد على اعداد ما اتفقنا عليه.

فسافرت الى القدس مرة ثانية في سنة ١٩٣٥، وكانت يومئذ حالة سورية تدعو الى القلق الشديد من اعمال الافرنسيين فيها، التي وصلت الى حد لا تطاق معه الحياة. فوضعت خطتي لثورتين في سوريا وفي فلسطين على ان تنفذ الواحدة تلو الاخرى، وعلى أن نتجنب أي حادث يجعلنا نجابه الدولتين في آن واحد. وكان المقرر ان نبدأ بسورية أولاً، لأسباب كثيرة، حتى اذا انتهينا من مشروع سورية وبقيت حياً، اتخذنا منها قاعدة لتنفيذ المشروع الثاني في فلسطين على شكل اقوى وأعم. وكان لهذا المشروع أدوار، أشرع بالدور التمهيدي منه وأنا في بغداد. فعدت اليها، وشرعت في اعداد الدور التمهيدي ، وتقدمت فيه تقدما محسوساً وبنجاح تام دون ان نصادف ما يعكر علينا سير الخطة. وبينما انا في أعمالي التمهيدية هذه اقتضى سفري الى القدس مرة اخرى للتفاهم على بعض تفصيلات ضرورية، فذهبت اليها بنيسان ١٩٣٦ . فتم في هذه التفاهم على كل شيء، وبصورة جدية، ونحن لا نزال على قرارنا الاول بترجيح سورية أولاً، حيث ان الاضراب في سورية قد بدأ، وكان خير وسيلة نتذرع بها للثورة. ولم يكن أحد مطلعاً على هذه المقررات سوى خمسة أشخاص من سوري وفلسطيني.

اخذت أسارع في اعداد مشروع سورية مع تطور الحالة في دمشق. ولكن لم استقر في بغداد اياما، حتى فاجأتني حوادث فلسطين في الشهر نفسه وأخذت تتطور بسرعة. فحاولت تحديد حوادث فلسطين، لكي نتمكن من تنفيذ مشروع سورية. ولكن الحوادث التي استفحلت، جرفت مجهودنا، ولم يعد بامكان أي رجل الحيلولة دون حوادث فلسطين أو تجنبها. ومن حسن الحظ أن اضراب سورية الذي استفحل أمره بعد ٥٤ يوماً قد الجأ الافرنسيين الى طلب وفد للمفاوضة في باريس، على اساس عقد معاهدة تضمن للسوريين أمانيهم، فتوقف الاضراب. وكان الفرنسيون قد شعروا من جهة بترتيبات الثورة، التي اخذت تعم شمالي سورية. ولم يكن موقفهم في اوروبا من جهة اخرى يسمح لهم بإرسال الجيوش من جديد الى سورية لقمع ثورة تقوم فيها مجهولة العواقب. فقررنا عندئذ الالتفات

الى تنفيذ خطة رقم ٢ وبدأت بالاستعدادات أوائل شهر حزيران. وفي الواحد من شهر آب ١٩٣٦ كانت قوافل المجاهدين من العراق وجبل الدروز وجبل لبنان ودمشق وحمص وحماة في طريقها الى نقطة التجمع العام الاخيرة، في ميدان الجهاد في فلسطين. وفي الخامس والعشرين من آب، اطلقت أول عيارات نارية من هذه المفارز على الطائرات الانكليزية في جبل جريش وأسقطت منها طائرتين.

القسم الثالث من المذكرات

الأحداث الكبرى في فلسطين(*)

١٩٣٦ - ١٩٣٧

لا أرى لزوماً لشرح قضية فلسطين، والتحدث عنها، اذ انها مع ما كُتب عنها من التقارير العديدة، والنشرات الكثيرة وغيرها، لم يبق فيها خافية يجهلها حتى أبسط الطبقات في الامة العربية. وتتلخص هذه المأساة الفلسطينية بأن بريطانيا تحت ضغط عوامل الحرب العامة ، التي اصبحت حياة الانكليز فيها معرضة للخطر، ضحكت على العرب بعهود قطعتها لهم، في الوقت الذي صرحت لليهود بوعود أخرى. فتعهدت في الاولى أن تكون فلسطين عربية ووعدت اليهود في الثانية بوطن قومي لهم في فلسطين، فاستغلت بذلك دماء العرب، واستثمرت أموال اليهود وأقلامهم لمصلحتها الخاصة. وحقيقة الامر ان بريطانيا تريد فلسطين لا عربية ولا صهيونية، بل بريطانية محضة، وذلك بأن تكون القاعدة التي تسيطر منها على الجزيرة العربية، وما يمر منها من الطرق المهمة الى الهند، ولتجعل مصب بترول العراق في قلب هذه القاعدة الحصينة، ولتجعل من حيفا والعقبة جناحين حصينين لقنال السويس، ولتقيم في فلسطين مركزاً حربياً منيعاً، يتعاون مع مركزها البحري في مصر، لدرء الاخطار عن العمود الفقري في جسم الامبراطورية البريطانية، فيصبح بذلك البحر الابيض والاحمر وجزيرة العرب كلها تحت نفوذ هذه المراكز المنيعة.

فتمسك العرب بعهود بريطانيا المقطوعة المستندة على شرفها، وتمسك اليهود

---

* - دوّن فوزي القاوقجي هذا القسم من مذكراته في منفاه بكركوك بين كانون ثاني / يناير - تموز / يوليو١٩٣٧.

بوعود بريطانيا كذلك. اصطدم العرب واليهود بالسياسة البريطانية في فلسطين فأصبحت منذ السنة الاولى التي تلت الحرب مسرحاً، تقع فيه الضحايا مع مطلع كل شمس وتحولت الاراضي الفلسطينية المقدسة، والتي عُرفت طيلة الحكم العثماني بالوداعة والسكينة، بركانا يتلظى بنيران الثورات والقلاقل، وبحيرة من الدماء البريئة بفضل سياسة بريطانيا الخرقاء.

أما الشعب الفلسطيني الواثق من مشروعية قضيته، فقد كان معلقا كل آماله وواضعاً كل ثقته في عدل بريطانيا وشرفها، مما حدا به ان يستنكر ، باحتجاجات واحيانا بلسان وفود يرسلها الى لندن، السياسة البريطانية في فلسطين. ولكن لم تثمر هذه المحاولات، وتمادت بريطانيا بتمهيدها الطغيان الصهيوني الدولي بقوة الحراب من جهة، وقوانين تسنها من جهة أخرى، تكبل بها العرب وتلجئهم الى بيع الاراضي. فاضطر الفلسطينيون الى الدفاع عن حوزتهم المقدسة، وعن حياتهم بثورات قاموا بها حينا بعد حين، حتى بلغ مجموعها سبع ثورات، سفكوا خلالها الدماء الزكية البريئة ، وتكبدت البلاد من جرائها الخسارات الفادحة بالاموال والانفس. يكفي هذا لاعلان فشل السياسة البريطانية، وعدم امكان تنفيذ سياسة الوطن القومي الصهيوني في فلسطين. ولكن تغابى الانكليز، وأمعنوا في الارهاق، وامتلأت نفوسهم غروراً، فازدادوا طغياناً حتى اصبحت هذه البلاد، التي لم يحدث فيها خلال الحكم العثماني كله حادثة اضطراب واحدة، بالرغم من بسالة وشجاعة أهلها، بحيرة من دماء. وهم الذين فرحوا بالعهد البريطاني الجديد مؤملين منه تأمين الاستقلال والحرية والرفاهية على يد الحليفة البريطانية، فأضحوا يترحمون على العهد العثماني الزائل، ويتمنونه من جديد. وكانت بريطانيا ترسل لجان التحقيق، تحقق في كل ثورة أو اضطراب يضطر اليها العرب، وتنتج هذه مئات القتلى والجرحى، وألوف المساجين. ومن المحقق ان جميع تقارير هذه اللجان كانت تبيِّن الاجحاف والظلم اللاحقين بالعرب، وتقدم النصائح للحكومات البريطانية بلزوم انصاف العرب حسب العهود التي قُطعت لهم، كما انها تبين ان الوطن القومي الصهيوني لن يتم الا بقوة السلاح، ولكن كانت تذهب جميع هذه التقارير سدى، كما تذهب جهود العرب. أما الاقطار العربية فلم تكن تظهر اهتمامها كما يجب بقضية فلسطين، خلا مظاهرات وبعض احتجاجات تقوم هنا وهناك. اذ بينما

كانت الصهيونية تستخدم جيش بريطانيا في فلسطين، ورجالات الادارة فيها تسمح لجلب المهاجرين من اليهود بصورة شرعية وغير شرعية، اضعاف ما هو مقرر، ويستوردون الاسلحة سراً وعلانية، كما انها كانت تعمل على نيل عطف اليهود في العالم، مستفيدة بأموالهم ونفوذهم لتأمين الوطن القومي، وتجعل بذلك قضية فلسطين قضية جهود عالمية، كان العرب لا يبدون أي تعبير، فنجد والحجاز كانتا واقفتين الموقف الحيادي من فلسطين. والعراق لبعده كان يكتفي بالاحتجاجات في الصحف، وببعض المساعدات المالية الطفيفة يقدمه لها. أما سورية، التي أصيبت ببلاء لا يقل خطورة عن مصاب أختها فلسطين، فكانت لا تستطيع أكثر من بعض المظاهرات التي يقع فيها احيانا عدد من القتلى والجرحى، والاحتجاجات. وشرقي الاردن كانت دوما حصنا منيعا لعزل فلسطين عن سائر العالم العربي، وتحرسها تحت اشراف وقيادة الساسة والضباط البريطانيين، الذين بيدهم وحدهم كل مقدرات شرقي الاردن. وكان هذا الموقف العام يجعل فكرة المقاومة المسلحة مستحيلاً، حتى التحدث بها كان في نظر رجالاتنا المفكرين (جنون). والموقف نفسه هو الذي جعل الانكليز والصهيونية يعتقدون أن لا معارض يعترض تنفيذ سياستهم في البلاد، بل دفعهم هذا الى الاسراع في اقامة الوطن القومي الصهيوني قبل حلول الوقت المقرر عندهم. فاستخف الانكليز بحلول العرب، وتناسوا تاريخهم، حتى اصبحوا لا يرون أي محذور في اطاعة الصهيونية، وتنفيذ مأربها في أعين العرب كافة. توالت الفجائع، ودامت المصائب في فلسطين، البلاد المقدسة العربية الاسلامية المسيحية، وأصبح الخطر على حياة العرب من حليفة العرب بريطانيا العظمى، التي تعقد كل يوم محالفة جديدة مع هذه الاقطار العربية : العراق – الحجاز – مصر. ولقد طفح الكيل، ولم يبق الا مغامرة يقوم بها رجل من العرب، يزيل الاوهام، ويحطم الحواجز التي عزلت فلسطين عن شقيقاتها، ويرجع بريطانيا الى صوابها، ويجعل من قضية فلسطين الموضعية قضية عربية عامة، كما جعلها الصهيونيون قضية صهيونية عامة.

* * *

كنت كثير الثقة ببسالة الشعب الفلسطيني، وعلاوة على شهرته التاريخية التي

يتمتع بها، خاصة في مناطق نابلس وغزة والخليل، كنت قد خبرت جنوده بالفعل ابان الحرب العامة وخلال الدولة الشريفية في سورية، حيث كنت على رأس سرية من جنود فلسطين أتت بأعمال باهرة. ولكن كانت تساورني بعض الشكوك من جهة أخرى لانقطاعهم عن التدريب العسكري منذ الحرب العامة، اذ لم يتح لهم تأليف جيش، كما أن عدد ضباطهم كان قليلاً جداً خلاف سورية والعراق .

كنت ازود عادل العظمة باقتراحاتي المستمرة في تطوير الثورة الفلسطينية واحتياجاتها لتحقيق نجاحها واستمرارها حتى النصر المؤكد. ومن هنا اصبحت صداقتي مع عادل وصلتي الاخوية والوطنية متينة لاتزعزع. وكان بدوره معتزاً بصداقتي واصبح يجاهر بما قمت به من مغامرات ولما انتجت من انتصارات اعتبرت خارقة للعادة وانه لم يقم احداً بمثلها لامن قبل ولا من بعد. ويعني بذلك مغامراتي في عملية الهجوم على الجيوش الافرنسية في عقر دارها في جبل الوسطاني، جسر الشغور، بعدد من الثوار اقل من المائة انطلقوا من الازرق في شرقي الاردن، في حين لم يبق في الغوطة ولا خارجها ثائر واحد .

فكان عادل بك يطلع المفتي على هذه الاعمال، والمفتي كان يعجب بها ويؤيد لكل مايمكنه تقديمه لهذه الفئة من مساعدات. ومن هذه الاسباب والحوادث الجسام تأسست كذلك صداقة واخوة بيني وبين المفتي مع احترام قلبي زائد، قبل أن اراه أو يراني.

وعلى اساس هذه الثقة والمحبة والتقدير التي تربطنا نحن الثلاثة حضر عادل بك لعندي في بغداد يحمل معه صورة عن الحالة في فلسطين واقتراحات من المفتي في هذا الموضوع فأخذ يشرح لي الحالة السائدة في الميدان. يقول: ان اعضاء اللجنة العليا التي تأسست لادارة الثورة غير متفقين على كلمة واحدة أو مخطط واحد معين، وان بينهم خلافات شديدة واندفاعهم لجهة الثورة والقتال ضعيف. اما الشعب فهو ثائر بقلبه وفكره وايمانه ولكن يفتقر الى القيادة التي تتناسب مع حاجة الموقف وتستطيع توحيد القوى وتوجيهها حسب مخطط مدروس ومتفق عليه. وان الاهلين الذين خرجوا من ضائقة الاضراب الشديد والطويل والمضني هم الذين يقومون بتأمين اكثر حاجيات الثورة ونفقاتها من سلاح وعتاد، واعاشة وجميع

احتياجاتها وان المساعدات العربية ضئيلة جداً الى درجة الاسف، حتى يمكن القول انها كانت مساعدة رمزية. اما قيادة الثوار فهي ليست موحدة الكلمة وهي عبارة عن أن كل شخصية ذا نفوذ في القرية يصبح قائداً لجنود قريته، وكل يعمل على ترتيبه وتفكيره الخاص. والخلاصة ان الشعب مستعد للقتال والتضحية ولكن لا قيادة عسكرية ولا زعامة سياسية متفقة ومؤهلة لادارة المعارك والسياسة كما تتطلبه الظروف. وبهذه الطريقة والاساليب لايمكن ان يحسب أي حساب لنصر يرغم العدو لتأمين حقوق الفلسطينيين. وان القادة مستقلون عن بعضهم البعض في شؤونهم العسكرية وترتيباتهم وخططهم.

وبعد مضي مايقارب العشرة أيام حضر لعندي الأخ عز الدين الشوا ليعلمني بأن: « سماحة المفتي ينتظرك في سيارته بالقرب من الدار لتصطحبه في جولة معه، لتتحدثا في موضوع فلسطين.» فقفزت فوراً خارجاً من الدار وأنا أتصور بأنني أصبحت في صفوف الفلسطينيين اقاتل الانكليز.

وبعد جلوسي إلى جانب المفتي، أخذ يحدثني عن أعمالي العظيمة في الثورة السورية وعن الانتصارات الباهرة التي حققتها، وعن بطولات ونتائج اسطورية. (وكان المفتي رئيساً للجنة التي كانت تقوم بتأمين حاجيات الثورة السورية وجميع شئونها، وكان مقر هذه اللجنة في القدس سنة ١٩٢٥ وتعرف المفتي بالسيد عادل العظمة الذي كان ابرز وأهم أعضاء هذه اللجنة ومعه عادل الحامدي كذلك).

وكان حديث المفتي مجاملة ثم اطراء زائداً واعجاباً وتقديراً بعيد المدى والحدود. ثم قال لي: « والله يافوزي ثق بأنني مستعد لأبيع أملاكي وأقدمها لك لتنظيم ثورة في فلسطين تقودها أنت ». ففرحت كثيراً لهذا الحديث ورغبته في قيادتي انا للثورة وثقته من النتيجة. واعتبرت المفتي منذ هذه اللحظة بأنه أصبح القائد الأعلى لفلسطين واني قائد تحت أمرته، فقلت له: « ياسيدي، بل أنا الذي اشترى هذه الثقة وهذا الشرف بأعظم التضحيات في تأمين أكبر الانتصارات وبأغلى ماعندي، وهو دمي الذي اقدمه لآخر نقطة يدفعها قلبي على تربة فلسطين المقدسة ».

وفرح المفتي وشعرت بثقة قوية تربطني معه منذ الآن. وقلت له: « ياسيدي

أرى من الضروري ان تفاتحوا الهاشمي أولاً وتأخذوا رأيه في موضوع خروجي من الجيش وذهابي لفلسطين ومساعدتي في تأمين مايمكنه من احتياجاتنا » . فقال لي : « ثق بأن الهاشمي رجل عربي شريف وسيقدم لنا كل احتياجاتنا ومايلزم من التسهيلات اللازمة » . واصبحت مطمئناً كذلك من موقف الهاشمي المشرف نحونا، وهذا أمر عظيم ودعم كبير، سيقودنا الى نصر عظيم. كما أعلمني بأن الهاشمي هو الذي سيطلبني لمحادثته في الموضوع .

وعلى هذا الاساس أخذت أدون احتياجاتي على قائمة اصطحبها معي لاقدمها للهاشمي عند مقابلتي له، تشمل على كمية كبيرة من السلاح والعتاد من مختلف الانواع، وعدد من الجنود العراقيين الذي اتموا الخدمة وسرحوا من الجيش وخاصة من اولئك الذين اشتركوا في حروبهم ضد الاكراد في الجبال الوعرة. وفكرت كذلك بطلب مدربين، ليدربوا مفارز صغيرة تتكون من جنود الهندسة للنسف والتخريب، ومفارز اخرى ليتدربوا على القتال ضد الطائرات، ثم مفرزة صحية صغيرة لمعالجة الجرحى لمنع النزيف. والى جانب ذلك الاعتناء في الناحية الاخلاقية والوطنية التي يجب أن نحسب لها حسابها بالدرجة الاولى . ولم أنس ان يكون لنا مفرزة هندسة للتخريب وبث الألغام وتفجيرها . وعلى هذه الأسس وضعت قائمة متواضعة لاقدمها للهاشمي عند مقابلتي له. وطلبني لمقابلته، وتمّ ذلك في مركزه في غرفة رئاسة الوزراء في السراي.

واستقبلني باشّا ثم بدأ فوراً يحدثني عن الاوضاع السياسية العالمية وخاصة عن موسوليني الذي اخذت مطامعه تتفجر على شواطئ البحر الابيض وعلى سواحل البحر الاحمر على شواطئ الحبشة. واسترسل في مثل هذه الاحاديث السياسية العالمية أكثر من ساعة وأنا أسمع ساكتاً ومتعجباً اذ انه لم يذكر ولا مرة اسم فلسطين ولا حتى تلميحاً.

فقلت له : « ياسيدي أنا اجتمعت مع سماحة المفتي قبل بضعة أيام وتحادثنا عن موضوع فلسطين وعن الحالة الحاضرة السائدة في الميدان هناك، وطلب مني أن اقابلكم لاعرض عليكم بعض احتياجاتنا الضرورية للثورة » . فقال لي : « طيب ايش يلزمك » . فقلت له : « يلزمنا الكثير ولكن بالدرجة الاولى المهم والمستعجل هو

السلاح والعتاد الكافي » . فقال : « زين راجع حسام الدين جمعه (وهو مدير الشرطة العامة آنذاك) وأنا سأتكلم معه. ليدبر لك هذه الاحتياجات » .

وكان من الضروري جداً أن تكون لدي قوة شبه نظامية بتجهيزاتها وتسليحها لتكون دعامة قوية في جبهات القتال تستند اليها قوات المتطوعين في ظروف المعركة الحرجة والخطرة، ثم لتقابل هجمات العدو باسلحتها وبمناوراتها وتحمي الجبهة من الفوضى والتشتت، عندما تشمل المعارك القاسية والشرسة كافة الجبهات. لذلك طلبت منه أن يسمح لنا ببعض الجنود العراقيين وبعض العرفاء الذين اتموا خدماتهم العسكرية وسرحوا من الجيش وقد تدربوا على استعمال مختلف الاسلحة، وخاصة من اولئك الذين اشتركوا في حروبهم ضد ثوار الاكراد في الجبال الوعرة وبعض عرفاء وجنود الهندسة، للتخريب والنسف، وبعض ممن تدربوا على القتال ضد الطائرات . فكان يجيبني على كل طلبياتي بصورة فورية وبموافقة كاملة تثير في نفسي بعض الشبهات . ثم قلت له : « ياسيدي لنا حاجة أخيرة وهي بعض الجنود الذين تدربوا على التضميد ومعالجة الجرحى الفورية » . فضحك قائلاً : « آغاتي، أنت تريد تشكيل جيش نظامي » . فقلت له : « طمعي بعطفك على قضية فلسطين ووطنيتك العربية تشجعني على كل هذه الطلبات الصغيرة الرمزية، ونحن مقدمون على مقاتلة جيش انكليزي نظامي كبير مهمته تنفيذ مخططات اسرائيلية في فلسطين لاقامة الدولة الصهيونية فيها. ألا ترى معي ياسيدي باني لو أخذت الجيش العراقي كله معي لمنع الانكليز من تنفيذ مخططاتهم البعيدة المدى في جعل فلسطين يهودية، لم أكن مبالغاً في طلباتي » . فضحك وقال: « كل الجيش العراقي سيكون مستعداً للدفاع عن فلسطين أؤكد لك ذلك. وسأتمم لك طلباتك واتمنى لك من قلبي النجاح في مهمتك الكبيرة ونحن واثقون من مقدرتك وكفاءتك في تحقيق أكبر نجاح ونصر في فلسطين» . ثم اجابني على طلبي العرفاء قائلاً: « مايخالف اتصل بمحمود الهندي وصبحي العمري واطلب منهم حاجتك المختصرة وهم يدبرونها لك » . وانصرفت فرحاً مطمئناً، وتأمنت كل طلبياتنا تقريباً.

كنت عالماً اننا سوف نجابه جيشاً انكليزياً حديثاً بعدده واسلحته الميكانيكية، لذلك كان أول ما فكرت فيه ان اكوّن مفرزة من الجند النظامي تكون نواة ومحوراً للمعارك التي سنخوضها، كما اني لم اغفل عن ضرورة استخدام الثوار السوريين

أرى من الضروري ان تفاتحوا الهاشمي أولاً وتأخذوا رأيه في موضوع خروجي من الجيش وذهابي لفلسطين ومساعدتي في تأمين مايمكنه من احتياجاتنا». فقال لي: «ثق بأن الهاشمي رجل عربي شريف وسيقدم لنا كل احتياجاتنا ومايلزم من التسهيلات اللازمة». واصبحت مطمئناً كذلك من موقف الهاشمي المشرف نحونا، وهذا أمر عظيم ودعم كبير، سيقودنا الى نصر عظيم. كما أعلمني بأن الهاشمي هو الذي سيطلبني لمحادثته في الموضوع.

وعلى هذا الاساس أخذت أدون احتياجاتي على قائمة اصطحبها معي لاقدمها للهاشمي عند مقابلتي له، تشمل على كمية كبيرة من السلاح والعتاد من مختلف الانواع، وعدد من الجنود العراقيين الذي اتموا الخدمة وسرحوا من الجيش وخاصة من أولئك الذين اشتركوا في حروبهم ضد الاكراد في الجبال الوعرة. وفكرت كذلك بطلب مدربين، ليدربوا مفارز صغيرة تتكون من جنود الهندسة للنسف والتخريب، ومفارز اخرى ليتدربوا على القتال ضد الطائرات، ثم مفرزة صحية صغيرة لمعالجة الجرحى لمنع النزيف. والى جانب ذلك الاعتناء في الناحية الاخلاقية والوطنية التي يجب أن نحسب لها حسابها بالدرجة الاولى. ولم أنس ان يكون لنا مفرزة هندسة للتخريب وبث الألغام وتفجيرها. وعلى هذه الأسس وضعت قائمة متواضعة لاقدمها للهاشمي عند مقابلتي له. وطلبني لمقابلته، وتمّ ذلك في مركزه في غرفة رئاسة الوزراء في السراي.

واستقبلني باشّاً ثم بدأ فوراً يحدثني عن الاوضاع السياسية العالمية وخاصة عن موسوليني الذي اخذت مطامعه تتفجر على شواطئ البحر الابيض وعلى سواحل البحر الاحمر على شواطئ الحبشة. واسترسل في مثل هذه الاحاديث السياسية العالمية أكثر من ساعة وأنا أسمع ساكتاً ومتعجباً اذ انه لم يذكر ولا مرة اسم فلسطين ولا حتى تلميحاً.

فقلت له: «ياسيدي أنا اجتمعت مع سماحة المفتي قبل بضعة أيام وتحادثنا عن موضوع فلسطين وعن الحالة الحاضرة السائدة في الميدان هناك، وطلب مني أن اقابلكم لاعرض عليكم بعض احتياجاتنا الضرورية للثورة». فقال لي: «طيب ايش يلزمك». فقلت له: «يلزمنا الكثير ولكن بالدرجة الاولى المهم والمستعجل هو

السلاح والعتاد الكافي». فقال: «زين راجع حسام الدين جمعه (وهو مدير الشرطة العامة آنذاك) وأنا سأتكلم معه. ليدبر لك هذه الاحتياجات».

وكان من الضروري جداً أن تكون لدي قوة شبه نظامية بتجهيزاتها وتسليحها لتكون دعامة قوية في جبهات القتال تستند اليها قوات المتطوعين في ظروف المعركة الحرجة والخطرة، ثم لتقابل هجمات العدو باسلحتها وبمناوراتها وتحمي الجبهة من الفوضى والتشتت، عندما تشمل المعارك القاسية والشرسة كافة الجبهات. لذلك طلبت منه أن يسمح لنا ببعض الجنود العراقيين وبعض العرفاء الذين اتموا خدماتهم العسكرية وسرحوا من الجيش وقد تدربوا على استعمال مختلف الاسلحة، وخاصة من اولئك الذين اشتركوا في حروبهم ضد ثوار الاكراد في الجبال الوعرة وبعض عرفاء وجنود الهندسة، للتخريب والنسف، وبعض ممن تدربوا على القتال ضد الطائرات. فكان يجيبني على كل طلبياتي بصورة فورية وبموافقة كاملة تثير في نفسي بعض الشبهات. ثم قلت له: «ياسيدي لنا حاجة أخيرة وهي بعض الجنود الذين تدربوا على التضميد ومعالجة الجرحى الفورية». فضحك قائلاً: «آغاتي، أنت تريد تشكيل جيش نظامي». فقلت له: «طمعي بعطفك على قضية فلسطين ووطنيتك العربية تشجعني على كل هذه الطلبات الصغيرة الرمزية، ونحن مقدمون على مقاتلة جيش انكليزي نظامي كبير مهمته تنفيذ مخططات اسرائيلية في فلسطين لاقامة الدولة الصهيونية فيها. ألا ترى معي ياسيدي باني لو أخذت الجيش العراقي كله معي لمنع الانكليز من تنفيذ مخططاتهم البعيدة المدى في جعل فلسطين يهودية، لم أكن مبالغاً في طلباتي». فضحك وقال: «كل الجيش العراقي سيكون مستعداً للدفاع عن فلسطين أؤكد لك ذلك. وسأتمم لك طلباتك واتمنى لك من قلبي النجاح في مهمتك الكبيرة ونحن واثقون من مقدرتك وكفاءتك في تحقيق أكبر نجاح ونصر في فلسطين». ثم اجابني على طلبي العرفاء قائلاً: «مايخالف اتصل بمحمود الهندي وصبحي العمري واطلب منهم حاجتك المختصرة وهم يدبرونها لك». وانصرفت فرحاً مطمئناً، وتأمنت كل طلبياتنا تقريباً.

كنت عالماً اننا سوف نجابه جيشاً انكليزياً حديثاً بعدده واسلحته الميكانيكية، لذلك كان أول ما فكرت فيه ان اكوّن مفرزة من الجند النظامي تكون نواة ومحوراً للمعارك التي سنخوضها، كما اني لم اغفل عن ضرورة استخدام الثوار السوريين

الذين رافقوني في الثورة السورية، واختبرتهم في المعارك مع الجيش الافرنسي الميكانيكي.

وأول ماطلبت استلامه العرفاء. فأخذت منهم العريف ناجي، وكان فعالاً ذكياً وجدياً خلال خدمته في المدرسة العسكرية عندما كنت معلم الفروسية فيها وكنت اقدر مؤهلاته منذ تلك الايام. وطلبت منه أن يجمع العرفاء، ثم حضرت لأعلمهم بقيادة العريف ناجي الذي اخترته رئيساً عليهم، وطلبت منهم تنفيذ تعليماته لانه يمثلني، «والعمل الآن هو بداية استعداداتنا للمعركة في فلسطين ضد الانكليز، لذلك اطلب منكم اطاعته ومساعدته في اداء مهمته».

واختار العريف ناجي مجموعة من العرفاء حسب الشروط وتحت مسؤوليته، ثم كلف كل عريف بان ينتقي من الجنود العراقيين المسرحين، الوطني والمطيع والشجاع، وهو المسؤول، لتشكيل أول سرية تكون نظامية الى جانب المتطوعين من الاقطار العربية. وبدأ تنظيم هذه السرية تدريجياً طبق التعليمات بالحرف، وأخذت هذه النواة تتكون وتكبر وتتسع وهي تتدرب في معسكر تدريب نظامي.

وأرسلت أخي ظافر الى دمشق وعمان، ليتصل في دمشق مع الحاج أديب خير وهو المعتمد للجنة في تامين المتطوعين وحاجياتهم وتسفيرهم حيث يطلبون. وكان الاخ منير الريس هو المكلف بالاتصال بالمجاهدين وتنظيمهم حسب التعليمات المرسلة له مباشرة أو عن طريق الحاج أديب خير. ثم ذهب ظافر الى عمان واتصل بالاخ عادل بك العظمة وهو رئيس المركز العام لشؤون الثوار في الاردن وفي سورية. وبدأوا جمع المجاهدين من كل الفئات في سورية. وكان الاخ البطل حمد صعب مكلف بتشكيل المفرزة الدرزية من سورية. ومن دروز لبنان (وكان منير الريس وحمد الصعب من الذين ابلوا أحسن البلاء في معارك الثورة السورية ضد الافرنسيين). واخذت أعمال التجنيد والتنظيم تدور في سورية والعراق والاردن على أحسن وأكمل وجه، وبصورة هادئة وواعية وضمن كتمان شديد فوق العادة. وكان عليّ خلال فترة التكوين والتنظيم هذه ان أطلب عمل كل الاحتياطات لحمايتها من أي تطرف أو عمل يفشي عملها فيقضي عليها.

وبينما كانت اعدادات التجنيد تجري كان علينا استطلاع الطرق الواجب اتباعها

ودرس الاراضي والترتيبات التي اتخذت من قبل حكومة شرقي الاردن والتي يشرف عليها (أبو حنيك) تجاه الحدود السورية والعراقية والنجدية، وعدد الدوريات وأنواعها (سيارات مسلحة، الهجّانة والخيالة والطائرات) وقواتها وأوقات حركاتها، ودرس ما اتخذ من ترتيبات على ضفتي نهر الاردن كذلك، وعلى حدود فلسطين الشمالية، كي نكون على بصيرة تامة، ولنتخذ ما يلزم لاجتياز هذه الترتيبات المتخذة من قبل العدو بنجاح. وكان أصعب مافي الامر استطلاع طرق الصحراء الواقعة مابين العراق وسورية ونجد وشرقي الاردن خلال شهري حزيران وتموز، حيث يندر وجود الماء في الصحراء، التي يتراوح عرضها الثمانماية كيلومتر. وكان لا بد لنا كذلك لانجاح هذا المشروع من الحصول على أمهر الأدلاء خبرة، وأوسعهم معرفة واطلاعاً. وقد جعلت مهمة استطلاع طرق الصحراء ودراسة الترتيبات على عاتق أخي ظافر، واستدعيت اخواناً لي من بدو شمر، وأرفقتهم به، فانطلقوا بسيارتي الخاصة لتحري الأدلاء. وبعد جولات قاموا بها في جنوبي العراق وشماله وغربه، جلبوا اليّ خيرة من عرفت الجزيرة من أدلائها، وكانت طرق السيارات وطرق أنابيب بترول العراق قد فُتحت على أيدي هؤلاء. وبعد الاتفاق معهم شرعوا يجوبون وديان الصحراء وحزونها وسهولها. فكان أخي ظافر يسجل مخططات الاتجاهات التي عليه سلوكها في الوديان والسهول، ونقاط المياه التي لم تجف بعد، ومن عليها من القبائل، والمسافات، ونوع الاراضي من رملية أو صخرية. وقد قطع في تجولاته العديدة أكثر من ثلاثة آلاف كيلومتر في صحارى العراق ونجد وسورية وشرقي الاردن. وكان هناك مسألة حيوية وهي مسألة تدارك الاسلحة والعتاد بأثمان ملائمة، وقد أنيطت بصديقي النوري ابن مشعل باشا الجربا من قبائل شمر البحث عنها. وقد قام بدوره بجولات من حدود سنجار الى داخل الكويت الى حدود نجد، حيث أتاني بتقرير مفصل عما يمكننا الحصول عليه منها. وكانت كل هذه الاعمال تجري بسرعة واتقان وكتمان شديد. وخلال هذه الفترة كانت تشكيلاتنا في سورية قد تمت وتنظمت حسب تعليمات أرسلت الى الاخ الوطني الكبير منير الريس بأن يتولى جمع وتنظيم مجاهدي حمص وحماه تحت قيادته. كما تبلغ الاخ المجاهد محمد الاشمر عن طريق منير الريس ان يقوم بجمع وتنظيم متطوعين من دمشق والغوطة، ليكونوا جاهزين عند صدور الامر

بالتحرك نحر فلسطين.

وأخذت أحداث فلسطين تتطور في هذه الآونة الى شكل مريع، حيث بدأت تنشب بعض المعارك البسيطة هنا وهناك، وأخذت الاضطرابات تعم انحاء فلسطين، والانكليز جادون في مكافحتها واخمادها داخل حدود فلسطين. واتسعت التشكيلات عندنا في العراق وفي سورية وفي شرقي الاردن، ولقد جمعت المجندين العراقيين في جزيرة في نهر دجلة حيث يكثر فيها الاجتماعات والنزهات وكان هؤلاء الجنود قد نظموا بشكل حظائر يقودها عرفاء وتمكن كل عريف من ان ياتي بحظيرته الى مركز الاجتماع من طريق خاص عين له، وفي وقت معين حدد له. وتم الاجتماع وخطبت فيهم مبينا لهم شرف مهمتهم التاريخية، التي سوف يقدمون عليها، فكان الحماس والوطنية تملأ نفوسهم. ولقد أبنت لهم أن المطلوب منهم النظام والطاعة والكتمان وأخذت عليهم عهداً بذلك، وكان هذا أول اجتماع تم على شكل يسر.

وأخذت الشائعات المختلفة تدور في البلدة عن وجود جماعة يرغبون الالتحاق بثورة فلسطين، وانبثّ على الاثر رجال التحري في كل ناحية، يبحثون عن حقيقة الشائعات. وكان للسفارة البريطانية جيش خاص من التحري يبحث ليلاً ونهاراً للتحقق من هذه الاخبار المقلقة. وأخذت من جهة ثانية الشبهات تحوم حولي وكان لا بد لي من التضليل، فعمدت الى نشر الاشاعات عن وجود قطعات من الجيش العراقي النظامي، وعن قبائل عديدة ترغب في الالتحاق أيضاً، وان قسماً من قطاعات الجيش وبعض القبائل قد وصلت ميدان فلسطين، وغير هذا من الشائعات التي لايمكن تصديقها حتى ضاعت بينها الشائعات الحقيقية. وعمدت من جهة أخرى الى التودد والتقرب من مراكز الاستخبارات البريطانية المهمة. كما اني اخذت أتظاهر بالتهتك والسكر، فمن مطاعم الأوتيلات الكبرى في بغداد، الى دور السينما، الى النزهات الخلوية، الى دور العائلات المتصلة بصداقتها مع البريطانيين، وأنا لا أخلو ولا مرة من صحبة سيدة أجنبية في هذه المظاهر. فتنوعت الشائعات الكثيرة عني، منها انني جاسوس انكليزي، وبعضها انني لا أصلح لعمل وطني، وغير ذلك مما كان يسرني اشاعتها وأزيد في تأييدها.

وكان لابد لي كذلك من أن أعمل للحصول على تجهيزات عسكرية للمفرزة النظامية من زمزميَّات وحقائب وأجندة للعتاد وملابس عسكرية. فوجدت نفسي مضطرا لتوسيط من يتمكن من الحصول على هذه التجهيزات من المعسكر الهندي الانكليزي بأية طريقة كانت، مبايعة أو سرقة، فتم لي ذلك على الطريقتين. فجمعت هذه التجهيزات وأودعتها في بساتين أمينة.

وكان لا بد لي من الاستقالة من الجيش، حيث قرب وقت العمل، ولكي تتم استقالتي بدون ضجة، عمدت الى تبرير عذر أنتحله لأظهر امر استقالتي طبيعيا. وقبل أن أقدم على الاستقالة أردت الاستفادة من القواعد الحديثة التي وصلت الى المدرسة الحربية حديثا للرمي ضد الطائرات، فأعددت ما يجب لها من الادوات، ووزعتها على عرفاء المفرزة، حيث يقوم عريف بتدريب حظيرته عليها في الاسبوع كرتين. فاتخذت يوما اختلافا، تعمدت أثارته بيني وبين أطباء عراقيين، عذراً لتقديم استقالتي. ثم راجعت ياسين الهاشمي حيث كان رئيس الوزراء، وصارحته بما عزمت عليه، ولما تأكد من عزم لن أنثني عنه وافق على الاستقالة، وتمت بصورة طبيعية ولكنها لم تخل مع ذلك من كثير من التقولات.

ازدادت المراقبة عليّ حيث اصبحت داري محاطة برجال التحري، وكما ازدادت مراقبتهم لجنودي، وقد قبض على سبعة منهم فاستجوبوا، وأوسعوا ضربا لحملهم على الاقرار. ولكن لم يعترف أحد منهم بشيء وظلوا في السجن، وطلب من كل منهم كفالة قدرها خمسون ديناراً، لقاء اخلائهم. فلم يكن منا الا أن نقدم من يكفلهم من رفقائهم المجندين فتم ذلك وأخرجت الكافل والمكفول وبقية الجند من بغداد، حيث وضعت الفصيل الاول في كربلاء، والثاني في النجف، والثالث في الكوفة مع عرفائهم الذين زودتهم بتعليمات شديدة يتبعونها، وبقوا في سراديب هذه المدن ولم يخرجوا منها الا يوم السفر.

أخذت أتقرب من رجال الاستخبارات الانكليز، وأتودد اليهم، وكنت تعرفت على بعضهم سابقاً. وأخذ أحدهم، وكان أهم شخصية استخباراتهم، يتظاهر لي بالاهتمام بقضية فلسطين. وكنت كذلك أبيّن له أن قضية فلسطين على وضعها الحاضر هي وصمة سوداء في تاريخ بريطانيا الحديث، ولولاها لكانت

العرب تثق كل الثقة بها، ولكن قضية فلسطين اثارت الشكوك في نفوس العرب من نية الانكليز. وفاتحني ذات يوم قائلاً : «ان الاشاعات تدور كلها حول عزمك على السفر الى فلسطين، ولم يكن لاستقالتك سبب غير هذا العزم، ولكن صداقتي معك تدفعني لان أنصحك، يجب أن تعلم أولاً انك تحت مراقبة انكليزية شديدة. واعلم انه يصعب عليك كثيراً الوصول الى فلسطين مع الترتيبات المتخذة على حدود شرقي الاردن وداخلها، وعلى ضفتي الاردن. وهب انك اجتزتها كلها ودخلت فلسطين، فهناك تجابه جيشاً انكليزيا قوياً قابضا على ناصية البلاد. واذا نجوت على فرض، فليس لك ملجأ تلجأ اليه». فأجبته : «بأنني اذا عزمت على الذهاب الى فلسطين وقتال الانكليز فيها فلا يهمني بعد ذلك اذا مت أو بقيت مسجونا طيلة حياتي فعلى كلا الحالتين أكون قد قمت بواجب لبلادي. ولكن الذي يمنعني من الذهاب هو خوفي من اتفاق فرنسة وانكلترة للقضاء على سورية وفلسطين وشرقي الاردن، فنكون أضعنا البلاد بدون ان نتمكن من قهر أعدائنا. فهذه هي الفكرة التي تمنعني من الاقدام على قتال الانكليز في فلسطين». فقنع بهذه الفكرة، وقال :« ثق ان ماتتصوره واقع لامحالة، اذا اشتركت بقية الاقطار العربية في الاعمال المسلحة ضد بريطانيا». ومن جوابه هذا أيقنت ان الحيلة قد انطلت عليه. وبعد أيام اجتمعت به فقال لي: «ان الانكليز مهتمون بأمرك، وانهم مستعدون لايجاد عمل لك ان شئت في مصر أو في شرقي الاردن»، فتظاهرت بالفرح الشديد وشكرته. وحافظت على صلتي به وثابرت على التظاهر بالتهتك، مما سبّب انتشار الشائعات الكثيرة بحقي، والتي اتخذت منها ستاراً أواصل من ورائه العمل ليلاً ونهاراً لانهاء دور الاستعدادات. وكنت أفكر أن يكون لي مفرزة بدوية غير المفرزة النظامية، فبعثت الرسل الى القبائل أتتني ببعض الرجال من القبائل المطلوبة. وبعد التحدث اليهم كل بمفرده، صرفت النظر عن تشكيل هذه المفرزة، لما تتطلبه من النفقات الباهظة من جهة، وتخوفي من اخلالهم بالنظام وبالأمن اللذين جعلتهما شعاري في هذه الثورة.

أخذت الحوادث في فلسطين تفتر قليلاً، وكذلك الحماس في العراق وفي سورية أخذ بالفتور أيضاً.

راجعت الهاشمي فيما اذا كان في استطاعته مدّنا بشيء من الاسلحة التي

جمعت من قبائل العراق الثائرة، وبعد محاولات ومناقشات طويلة تم الاتفاق على امدادي بمئة وثلاثة عشر بندقية، كما اني تعهدت بدوري له أن أجلب السيارات من شرقي الاردن لنقلها من العراق الى هدفنا. وكان يرى عدم امكان النقل بدون ان يكشف الانكليز أمرها، ولكنه ترك لي الامر. وخصصت هذه الاسلحة لتسليح المفرزة العراقية، وبعد تدقيق ما لدينا من الاسلحة في المستودعات المختلفة، وجدت انه ينقصني العتاد الالماني والعثماني. وحيث انه لم يكن لدينا متسع من الوقت لتأمين هذا النقص بالمخابرات بواسطة الرسل، عمدت الى المخابرة مع المراكز المختصة ببرقيات تجارية.

وأصبح الموقف العام في فلسطين وفي العراق يتطلب ارسال الجنود الى فلسطين تدريجيا وبدون أي ضجيج. وطلبت من الاخ السيد خالد القنواتي ليقوم هو بهذه المهمة لنقل القسم الاول من القوة الجاهزة الى فلسطين بسيارات شحن ثم تجهيزها في شرقي الاردن وهي على أتم الاستعداد للحركة الى العراق والعودة وهي تحمل الدفعة الاولى من القوة العراقية. وتحرك في ١٨ تموز من بغداد الى عمان حيث قابل السيد عادل العظمة، الذي كان في انتظاره، وكانت سيارات الشحن (وعددها أربع) والركوب (وعددها احدى عشرة) جاهزة، وبعد مكوثه ثلاثة أيام تسلم السيارات خارج عمان، مع الدليل المشهور جدوع الخريشه، وهو أخ حديثه الخريشه زعيم قبائل الخريشه الشهيرة. وكانت كل سيارة تحمل الى جانب سائقها معاون له، وفي حالة جيدة جداً كما فحصت عدة مرات من خبراء تابعين للمنظمات التي تخصنا. كما كانت تحمل عتاداً عثمانيا، للبنادق التي استلمناها بأمر الهاشمي للمرة الاخيرة حيث لم يكن هذا النوع من العتاد موجوداً في العراق.

وقد اصطحبوا في طريق عودتهم السرية العراقية النظامية التي كانت تتدرب في منطقة كربلاء والنجف. وقد تجمعت هذه القوة كلها في الوديان المتفرعة من وادي حوران وفي نقطة تقع على منتصف طريق الرطبة – النخيب ومكمنها هذا بعيد عن الطريق العام ، بانتظار أمر الحركة. وحضر خالد لعندي الى بغداد ليعلمني عن وصول القوة الى نقطة التجمع المقررة، وانه مع امراء الفصائل والدليل الخريشة ينتظرون لامر والتعليمات في المقهى المعين على رأس جسر الملك علي، في طرف الكوخ. وكان ظافر والنوري معه ، بعد ان استمر باستكشافاته حتى تجاوز الحرّة

غرباً. وقابل هناك قبل خروجه من عمان عادل العظمة والاخ أبو قوره وبلغني رسالة شفوية من عادل يقول فيها: « يسلم عليك ويقول اسرع الحالة هناك (فلسطين) ماهي سارة والجماعة الكبار يطلبون الصلح مع الانكليز ». فاستغربت هذا الخبر وتأثرت وتحمست وقررت الانطلاق من هذه الليلة مهما كان موقف الهاشمي. فتركتهما في البيت ينتظراني، وذهبت مع خالد لمقابلة الهاشمي لاعلمه عن وصول السيارات ولاستلام الاسلحة وتوديعه وشكره. وكانت الساعة حوالي السابعة مساء عندما وصلت الى دار الهاشمي، ودخلت عليه لوحدي فوجدته ومعه الخضيري. وقلت له: « ياسيدي كل شيء على مايرام، والسيارات قد وصلت ومعها العتاد العثماني والقوة متجمعة خارج بغداد، تنتظرني وجئت استأذن وأودع لأذهب بالسرعة الممكنة لتدارك الموقف قبل فوات الأوان »، فقال بنبرة عصبية ظاهرة: « أين متجمعين الجماعة؟ »، ولم اطمئن الى هذا السؤال فقلت له فوراً: « انهم متجمعون في منطقة النجف وكربلاء ».

ولشد ما كانت دهشتي عندما فاجأني بقوله، انه لا يمكنني الذهاب الى فلسطين، لان الانكليز قد علموا بالامر تماماً، وانه يجب عليّ أن أغادر بغداد الى كركوك أو الموصل، حيث أنتظر شهراً، تكون قضية فلسطين خلاله قد حلت بالمفاوضات السياسية، التي ابتدأت والتي انتدب نوري باشا السعيد لها، على ان أعيد السيارات الى شرقي الاردن ويجب ان يراها الانكليز عائدة فارغة. فبهتّ من هذه المقابلة التي تقضي على كل استعدادتي، وتقلب الخطة المنظمة الى فوضى لا يمكن تلافيها. وعبثاً حاولت اقناعه، وأخيراً قال بحزم: « هذا مايجب عليك عمله »، وتركني أنصرف. خرجت من منزله وأنا لا أعي من تأثير هذه الصدمة، وافكر بكل تلك الجهود والموقف الحرج في فلسطين والجماعات المتجمعة في مراكزها، في سورية وفي العراق وفي فلسطين تنتظر هذه اللحظة. فرأيت من الواجب عدم اضاعة دقيقة واحدة، وأن أغامر فارسل الجنود بهذه السيارات، وبدون سلاح، على أن أبرق للمراكز بتأخير تسليح بعض المفارز، وتخصيص اسلحتهم الى المفرزة العراقية. اجتمعت بأخي وخالد والدليل وقلت لهم: « الآن تتحركون إلى مركز التجمع وتأخذون معكم القوة من هناك وتنطلقون فوراً نحو فلسطين ومعكم الادلاء ، ويكون هذا الرتل بقيادة جاسم الكرادي آمر السرية تحت

رقابة رئيس العرفاء ناجي وباشراف خالد القنواتي ». وأرسلتهم لجمع التجهيزات واشتريت سيارة كريسلر مستعملة قليلاً، بدون رقم تحمل لوحة الفحص، وتوجهت بها لمحل التجهيزات، حيث شحنتها وسيارتي الى مركز التجمع الاول. وباشرنا في نقل الجنود تلك الليلة من مراكزهم الى مكان التجمع، ولم تأزف الساعة الثالثة بعد منتصف الليل حتى كانت القافلة في طريقها تحمل الثلاثة فصائل الى ميدان القتال. وفي الصباح كانت احدى الطائرات تحوم فوق الموقع الذي عينته للهاشمي مكانا للسيارات. وقضيت ثلاث ليال في قلق عظيم، اذ كانت هذه القافلة بما فيها من جنود غير مسلحين وتجهيزات وشرفي كذلك، تحت رحمة مصادفة، تكشف أمرما أخفيت. وأخيراً وردت البرقية الآتية: « وصلت العائلة بسلامة ». وكانت القافلة هذه وصلت الى أول مرحلة عينت لها بسلامة.

أما ما جرى لهذه القافلة أثناء سفرتها، فاني أذكره لاظهار ما تعرضت له من المخاطرة:

تركت القافلة نقطة تجمعها غربي كربلاء ، منتصف ليل ٦ أغسطس ثم سارت متجهة نحو حدود نجد. ولم تكد تقطع مسافة مائتي كيلومتر، حتى تعطلت احدى السيارات، فأخفيت السيارة المعطلة ، ورجع ظافر الى بغداد، لتدارك أوائل السيارة وداومت القافلة مسيرها الى نقطة مياه، حيث تمكن ظافر من جلب الأوائل اللازمة، وتصليح السيارة، والالتحاق بالقافلة في النقطة المعينة والوقت المعين. وتابعت القافلة مسيرها متوغلة في اراضي نجد الشمالية مقدار مائتين وخمسة وسبعين كيلومتراً على الطريق المرسوم. ولكن القافلة ضلّت مساء عن الطريق، فاتجه ظافر مع بعض اخوان له شمالاً الى رؤوس المرتفعات لتحري أنوار (H 4)، مركز البترول، ودام تحريهم هذا حتى الصباح حيث اهتدوا بالنور. ومن هنا تمكنوا من التثبت من مكانهم، وتعيين طريقهم، وتابعوا المسير. وكانت الرياح السموم الشديدة معاكسة للسيارات، فنفذت المياه التي يحملونها. وأخذ اليأس يستولي على القافلة وهم لا يزالون في منتصف طريقهم، ولكنهم تجلدوا، وتابعوا السير الى أن وصلوا حدود منطقة بركانية تقطع الجزيرة من الشمال الى الجنوب. وهنا بدأ يتساقط وابل من المطر ملأ تجاويف هذه الاراضي الصخرية، فارتوى القوم وملأوا الصفائح وما لديهم من مستودعات الماء، أنقذهم من الهلاك. وتابعت القافلة

مسيرها على خطتها المقررة، وازدادت من الحيطة والحذر لتقربها من معمورة شرقي الاردن . وكمنت القافلة في اليوم التالي، وأخفت سياراتها بين الادغال، ثم ارسلت سيارتين الى الآبار المعلومة لجلب الماء مرة اخرى، وكانت هذه الآبار ممر دوريات أبي حنيك المسلحة. ثم تابعت القافلة مسيرها الى نقطة معينة على مسافة من عمان، وكانت هذه النقطة مكمنا، واتصلوا ليلاً مع عمان وكان كل شيء من اسلحة وعتاد وإعاشة معداً في هذا المكمن.

ووزعت الاسلحة والعتاد على الجنود، وبدأ كل واحد بتنظيف سلاحه. وإذ بطيارة تمر فوقهم، فأخذت تحوم عليهم فكشفتهم، وعادت مسرعة صوب عمان. وما كان من ظافر الا أن سار بالقافلة مسرعاً نحو الغرب وبعد أن قطع مقدار عشرين كيلومتراً ، توقف عن المسير، وأنزل الجنود من السيارات، واتجه بهم الى احدى الوديان القريبة، حيث تمكنوا من الاختفاء عن أعين الطائرات، كما أن السيارات ارسلت منفردة الى نقطة معلومة. وما ان أتموا اخفاء آثارهم، حتى ظهر عليهم سرب من الطائرات الانكليزية، مرت من فوقهم متجهة الى المكمن الذي كشفتهم الطائرة الاولى فيه، فأخذت الطائرات تبحث عنهم على ارتفاع قريب من الارض، واستمر البحث مقدار ساعة حاولت العثور عليهم، فعاد السرب أدراجه. كما أن غبار أرتال السيارات المسلحة المليئة بالجنود الاردنيين، كان يسير يمنة ويسرة وأحيانا بالقرب من الكمين، حتى عجزوا عن كشف مخابئهم، فعادوا موقنين بأن ما رأته الطائرة الاولى كان سرابا. وبعد غروب الشمس تجمعت السيارات مرة أخرى، وتابعت القافلة مسيرها على نظام خاص الى المرحلة الثانية حيث وصلوها بسلام. وبهذه الرحلة كانت القافلة منطقة شرقي الاردن المعمورة بكاملها، ثم تابعت مسيرها الى نقطة التجمع العام الاول في فلسطين بعد أن عبرت نهر الاردن من معابر درست وعينت قبلا.

ترك ظافر الجنود في هذه النقطة، وقفل عائداً الى عمان، فاستصحب معه السيارات اللازمة للقافلة الثانية التي أقودها بنفسي.

ازدادت في بغداد الاشاعات عني وعن ظافر كذلك، وأنا لا ازال على ملازمة رجالات الاستخبارات من جهة ، وتظاهري بالتهتك من جهة أخرى. ولكن كثرة

سفرات ظافر الى شرقي الاردن وفلسطين وسورية التي بلغ عددها في ظرف عشرين يوماً ثماني مرات بجوازات سفر، وأربع مرات بدونها، أثار الشكوك في نفوس رجالات الاستخبارات، ونفوس بعض اخواني. فخصصوا مراقبين ثابتين أمام داري، وكان واجبهم ينحصر في تدوين ساعة خروجي من البيت، وعودتي اليه. وكنت قبل أسبوع جعلت خروجي من منزلي صباحاً وعودتي اليه في مواعيد ثابتة. ولكي أنجو من المراقبين أرسلت يوماً اليهما من يفهمهما بأن لدي قافلة من السلاح والعتاد أريد ارسالها الى فلسطين، وهي ستأتيني من حدود تركيا الى الموصل ومن هناك أرسلها الى سنجار فدير الزور فجبل الدروز ففلسطين، ورغبت أن يفهمهما بانني أعتمد غليهما كل الاعتماد، وأطلب منهما مصاحبة القافلة من الموصل الى سنجار فقط بقصد اخفاء أمرها عن أعين الجواسيس. فطلبا مهلة ، ثم رجعا فرحين بتطوعهما في هذه الخدمة الوطنية، وكانت هذه المهلة بدون شك لاطلاع دائرة الاستخبارات وأخذ تعليمات منها عما يجب عمله. وانطلت الحيلة عليهما وعلى مرجعهما وأرسلتهما الى الموصل بعنوان اختلقته ربما قضوا في البحث عنه حتى موعد صدور البلاغ الاول عن أول معركة في فلسطين.

وفي الصباح تحركت حظائر القافلة الثانية من مراكزها في بغداد الى مكمن السيارات الواقع غربي النجف، وفي اليوم نفسه تناولت الغداء بصحبة ظافر عند رئيس الاستخبارات، ودعوته لتناول العشاء في الثالث والعشرين من الشهر في داري. وخرجت من داره أثر الغداء، ثم تناولت الشاي عصر اليوم في دار أخرى كانت مركزاً من المراكز الاستخبارية الانكليزية. فشكوت لصاحبها حالتي من قلة العمل، واتفقت معه على انشاء مزرعة لتربية الخيل، كما اني دعوته مع العائلة لتناول العشاء مساء ٢٣ في داري. كما اني كنت دعوت كثيراً من اخواني الصميمين وغير الصميمين لتناول العشاء هذه الليلة، وقد تعمدت اشاعة هذه الدعوى تضليلاً. وكان من المقرر ان يكون العشاء متأخراً لاتمام الترتيبات والاسهم النارية في الحديقة . . .

خرجت من دعوة الشاي الساعة السادسة مساء ممتطيا تاكسياً الى طريق كربلاء حيث كانت احدى السيارات الآتية من شرقي الاردن تنتظرني، فامتطيتها مسرعاً إلى نقطة تجمع السيارات غربي النجف. وأبقيت ظافراً في بغداد، واضعاً

سيارتي أمام الدار، شارة على وجودي فيها، على ان ينتحل بعض الحجج لمن يطلب مواجهتي.

وصلت منتصف ليلة ٢٠ أغسطس الى النقطة، فوجدت المفرزة على أهبة الاستعداد. واتخذنا نظام المسير، وكانت سيارة الدليل قدوة القافلة تتقدمنا على مسافة معينة. وكان أول حادث صادفنا قبل الفجر سيارات الدوريات العراقية، فأطفأنا النور، واتجه الرتل الى الشمال ثم استدرنا على مسافة ١٥ كيلومتراً على نفس اتجاهنا الأول. وقد علمت بعد عودتي ان هذه الدورية صرفت طيلة نهارها في التحري علينا في تلك البقعة، بينما كنا قطعنا مئات الكيلومترات عنها.

اجتزنا المرحلة الاولى والثانية بسلام، ووصلت نقطة التجمع النهائية العامة مع بعض المفارز الآتية من خارج فلسطين في اليوم المحدد لهذا الاجتماع، وهو ٢٥ أغسطس ١٩٣٦. وبلغ الحماس والابتهاج في المجاهدين وأهالي القرى مبلغاً فوق التصور، ونحن منذ هذه الساعة مستعدون للقتال وسعيدون بنجاحنا في هذه الادوار.

كانت خلاصة الدور الاول من استعداداتنا ان نعين لكل من مفارز بغداد ودمشق وحمص وحماة وجبل لبنان وجبل الدروز ودروز شرقي الاردن ومفارز شرقي الاردن أياماً خاصة لحركة كل مفرزة، وطرقاً خاصة تقطعها على مراحل، تجد كل مفرزة في كل مرحلة قسماً من التجهيزات والأسلحة والعتاد والإعاشة. كما أنه قد تعينت نقطة اجتماع عام أولي، تجتمع فيها بعض المفارز، وتكون كافة المفارز قد اجتمعت في نقطة الاجتماع العام الثانية التي اخترنا جبل جريش (فلسطين) لها. وتم هذا الدور باتقان وتوفيق لا أذكر له مثيلاً منذ الفتوحات الإسلامية حتى اليوم إلا حركة خالد.

ولقد كان من المقرر أن يكون موضوع الدور الثاني إثارة شرقي الأردن وقلب الحكم فيها واتخاذها قاعدة لحركات فلسطين، ولكن الظروف مع الأسف الجأتنا إلى صرف النظر عن تنفيذ هذا الدور الحيوي بنظري جداً. كما أنه كان من المقرر تشكيل مفرزة لتخريب خطوط الأنابيب داخل حدود شرقي الأردن، يقوم بها جنود من فوج الهندسة العراقية، كنت استصحبتهم خصيصاً لهذا الأمر، ويكون

لهذه المفرزة قواعد خفية مختلفة في صحراء سورية وشرقي الأردن ونجد تمونني بما يلزم من البنزين والماء والأرزاق وتقوم بالغارة على الأنابيب ليلاً في نقاط مختلفة. وبالرغم من إتمامنا كل ما يلزم لهذه المفرزة فقد صرف كذلك النظر عن أعمالها لأسباب خاصة لا علاقة للعدو بها.

ولكن وجدنا الأردن من الناحية الوطنية العربية، والغيرة والحماس، بمثابة قاعدة تستطيع تدعيم الحركات في فلسطين بكل الوسائل. وعند اللزوم كان أهله مستعدين للانضمام، والعمل على تسهيل وحماية كل اتصالاتنا مع العراق أو مع سورية عند اللزوم. وبدون الموقف الذي وقفه الشعب الأردني في قتالنا مع الانكليز، كان يصعب علينا تحقيق ما حققناه من انتصارات عظيمة.

كان يوم ٢٥ أغسطس اليوم المحدد لاجتماع المفارز كلها الآتية من العراق وسورية وجبل لبنان والأردن وجبل الدروز في منطقة جبل جريش داخل أراضي فلسطين. وقد تم هذا بنجاح، وكانت المفارز في مواقعها في الرابع والعشرين. وكنت في هذا النهار وصلت مع آخر مفرزة إلى جوار قرية طوباس. وكانت الطائرات الانكليزية قامت ذاك النهار بالاستكشافات على جبل جريش فشاهدت بعض المجاهدين الذين كانوا متعطشين للقتال فرموا الطائرات ورمتهم بدورها بالقنابل. واستمرت أول معركة في فلسطين نحواً من ساعتين أسفرت عن استشهاد علي زيون وجرح طعمة جبر العراقيين، فكانا أول شهيد وجريح. وهرعت أنا ومن معي إلى جبل جريش فكان الحادث في نقطة الاجتماع فوصلته قبيل مساء الـ ٢٥. واجتمعت مع إخواني رؤساء المفارز في الجديدة بين الهتاف والحماس والاهازيج وزغاريد النساء ودوي الرصاص من كافة المجاهدين.

وكان لا بد لي من الشروع في التنظيم فورا، فأخذت المفارز وسرت بها ليلاً إلى أراضي (قرية) حيث نزلناها، وأنشأت فيها أول معسكر منظم بعد تنظيم المفارز على الأسس العسكرية الملائمة مع روح الثورة والثوار، وكانت المفرزة العراقية خير وسيلة لتعميم وتثبيت النظام في بقية المفارز. وكنت أعول على وجود قوة نظامية في يدي لتتمكن من الصمود في المعارك التي سنجابهها قريباً، والتي سوف تدور على محور القوات الميكانيكية الحديثة، كما كنت أعول كذلك على هذه القوة

النظامية لبث روح النظام في نفوس الثوار الفلسطينيين، ولحملهم على تنظيم صفوفهم للقضاء على الفوضى بين ثوار البلاد. كما أني كنت أرمي علاوة على هذا التنظيم موارد الأعاشة من القرى، وتنظيم رجالها ليصبح لدينا جيش احتياطي يتبع أوامر القيادة. فمضت ليلة ٢٦ بهدوء ونهارها. وقد منع لأول مرة اختلاط المجاهدين بأي شخص كان من الاهلين، حيث استحال على أي فرد دخول المعسكر إلا من نقطة واحدة حيث كنت موجودا تسهيلا لمن يود مواجهتي.

كان لزاما عليّ قبل خوض المعارك أن أدرس طرز القتال الجاري بين الثوار الفلسطينيين والانكليز، وان اتفهم بالتفصيل الموقف العام في فلسطين، من الوجهة السياسية والحربية والاقتصادية. وكنت على علم قبلا بالاشخاص الذين يمكنني الاتصال بهم، والاعتماد عليهم، وبالاشخاص الذين يجب عدم الثقة فيهم. وكان من الضروري أن أسرع لمقابلة قائمقام جنين احد من يعتمد عليهم. وكان الموقف دقيقا جداً إذ أنه لم يتم بعد تنظيم صفوفنا كما يجب، وتركي المعسكر ولما يمض عليّ بعد ٢٤ ساعة أمر غير مستحسن، ولكن الموقف يتطلب سرعة الاستعداد للطوارئ. فتركت المعسكر ليلة ٢٧ على أمل التمكن من المواجهة، والتفاهم، والعودة قبل الصبح، دون أن أدع أحداً يعلم بمغادرتي سوى منير الريس، قائد مفرزة حمص وحماه، والذي اعتمد عليه كل الإعتماد. فتنكرت بزي تاجر زيت، ولما وصلت إلى قرية الوسيط الذي كان عليه أن يصحبني، أعلمني أنه لايمكن الذهاب ليلاً بسبب قانون منع التجول، وأنه لابد لنا من الانتظار في القرية حتى الصباح. وكانت قرية الوسيط قريبة من المدينة، فأصبح الأمر مشكلا في نظري: أولاً: قضية تغيبي عن المعسكر. ثانياً: من إمكان إكتشاف أمري في دخولي المدينة إذ كنت لم أحفل بالتنكر التام، فأبقيت السروال العسكري. ولكن كان لا بد من المواجهة، فدخلت المدينة حوالي الساعة التاسعة صباحاً، ممتطياً فرسي في أزقتها، ودخلنا سوية على صاحبي في دائرته الرسمية. ولم يكد الوسيط يهمس في أذنه أنني فلان، حتى قفز من مكانه قفزة عصبية، ولم يكن ليتوقع مجيئي لعنده إلى دائرته فصرف الوسيط وجلسنا، وإذا بالباب يطرق طرقتين فيفتح، وإذا بنا أمام منظر أعترف أنه كان رهيباً للغاية: وهو أن ضابطاً انكليزياً برتبة كولونيل يدخل ومن ورائه ضابطان (وقد علمت فيما بعد أنه كان قائد المنطقة العسكرية والضابطان من

ضباط البوليس) فتقدموا نحو صاحبي الذي ازداد دهشة واضطراباً، وظهر لي من عدم التكلف فيما بينهم أنهم كانوا أصدقاء. وبدا الحديث بالانكليزية، وإذا باسمي يتردد على لسان الكولونيل وإذ بالحيرة والارتباك يظهران على صاحبي، فتدخلت حالاً، وسألت صاحبي عما يقولون؟ فأجابني: «أنهم يسألون عن أخبار فوزي القاوقجي، وهل وصل الى فلسطين أم لا»؟ فقلت لصاحبي: «اذاً فلنترك حديث تجارة الزيت التي أتيت من أجلها، ولأحدثك عن فوزي القاوقجي الذي أعرفه كل المعرفة. فقد كنت في بغداد منذ فترة حيث شاهدته مرتدياً لباسه العسكري في الجيش العراقي، وقد تركته فيها، ولا يمكن أن يأتي الى فلسطين». فترجم الموظف كلامي اليهم، فقال الكولونيل: «ولكن الاخبار الموجودة لدينا من بغداد ودمشق تؤكد لنا بأن فوزي القاوقجي ترك الجيش، وهو لابد أن يكون الآن في فلسطين، واذا لم يكن دخلها بعد فهو على وشك الوصول اليها. ولقد اتخذت التدابير اللازمة على حدود شرقي الاردن - فلسطين، وشرقي الاردن - العراق، للقبض عليه قبل دخولها».

فبينت لهم استحالة مجيء فوزي القاوقجي، ووصوله الى فلسطين، بالنسبة الى ما اتخذ من التدابير. فقال الكولونيل: «ان الاخبار لا تدع مجالا للشك عن عزمه وعن مجيئه». قلت: «هل تعرفونه؟» قالوا: «لا ولكن لدينا كثيراً من صوره وهذه احداها». فتناولتها منه، فاذا بها احدى صوري المأخوذة عن جواز سفري المزور بعد ثورة سورية، الذي تمكنت به من السفر الى مصر. وطلبت منهم اذا كان بامكاني الاحتفاظ بهذه الصورة، لاساعدهم عند اللزوم، فقدمها اليّ فاحتفظت بها. وقمت مستأذناً صديقي، راجيا منه ان يسعى لي في تأمين كميات الزيت التي طلبت منه تسهيل مشتراها. ثم التفتّ الى الضابط الانكليزي، ورجوت صاحبي أن يفهمهم بأن مجيء فوزي القاوقجي الى فلسطين مستحيل، واذا جاء فيكون عمل المستحيل. وأسرعت الى الوسيط، وامتطينا جوادينا، وخرجنا من المدينة بين الجنود والشرطة.

رجعت المعسكر، بدون نتيجة. ولكني قررت الاتصال بصديقي مرة اخرى في مكان آخر، فاجتمعت به اليوم الثاني في دار خاصة لاحد اخواننا الاطباء. وأخذت ما أردته من المعلومات والاخبار، وأحطت بالموقف العام من جميع

نواحيه، وكانت الاعمال تجري في المعسكر على غاية مايرام. ولقد اتصلت بالمجاهدين الفلسطينيين، وأرسلت في طلب بعض الزعماء. وتحوّلت يوم ٢٨ الى قباطية، حيث عسكرنا فيها على أبدع نظام، مما استرعى تقدير الاهلين والمجاهدين واحترامهم، وأخذوا ينظرون الينا كقوة نظامية كفء لمنازلة الجيش الانكليزي النظامي. ووصل ليلة ٢٩ الاخ فخري عبد الهادي (عرابة) والأخ عبد الرحيم أبو كمال (دنابة) والشيخ توفيق رئيس مجاهدي (علار) وتحادثنا معا، واستوضحت منهم عن طريقة جريان الثورة حتى الآن، فوجدت انه لا وجود حقيقة لثورة قوية تقلق بال السلطات الانكليزية، وتلجئها الى جلب قوات كبيرة من خارج فلسطين. وأخيراً أوضحت لهم عما أنوي عمله مختصراً. وتحركنا هذه الليلة الى (كفر راعي) في (٢٩-٣٠ أغسطس).

* * *

كانت طريقة القتال المتبعة في فلسطين حتى الآن عبارة عن تجمع شراذم من الثوار، يكمنون في احدى سفوح الوديان، أو رؤوس الجبال المنيعة، حيث ينتظرون مرور قافلة من السيارات من أمامهم. فاذا ما مرت أصلوها ناراً حامية، ثم قفلوا مسرعين كل الى قريته أو بلدته، فينزعون عنهم الأسلحة والعتاد، حيث يوارونها في مكان حريز، ثم يختلطون بسكان القرية، كأنه لم يحدث شيء. وأما من جهة الانكليز، فكانوا عندما يقذفهم الثوار يجاوبونهم برشاشات سياراتهم، ثم يترجلون، ويقتفون آثار الثوار، ثم يخبرون مراكز الطيران عن مكان الحادثة، وبعد برهة قليلة تأتي الطائرات. وبهذه الوسيلة يتقدم الجند الى القرى التي وقعت الحادثة في جوارها، فيدخلونها ، ويفتشونها، ويأتون بأنواع القسوة والظلم أثناء التفتيش، ويسوقون من يشكون به من القرية، ثم يفرضون عليها الغرامة الباهظة ويعودون. وبهذه الطريقة لا تقع في الجند اصابات مهمة، كما أن الثوار أنفسهم ، لعدم ثباتهم في خط معلوم، تكون الاصابات فيهم قليلة جداً. وأما من يثبت أو تكشف الطائرات مكانه أثناء الحادثة، فهذا يصعب نجاته. كما أن هذا الطراز من القتال لا يحمل الانكليز على جلب قوات جديدة من خارج فلسطين. وكان الثوار عبارة عن عصابات صغيرة مستقلة بعضها عن بعض، تعمل تحت زعامات أشخاص مختلفة، ولها مناطق خاصة بها لاتتعداها، تقوم فيها عندما ترى فرصة سانحة بما تستطيعه

من الاعمال. كما انه كان هناك جماعة اخرى تقوم بتخريب الطرق والسكك الحديدية، وكانوا يؤدون مهمتهم على غاية مايرام. اما الاعاشة والاحتياجات الضرورية، فكانت تؤمّن من قرى المناطق ، مما أدى الى تحميلها أعباء ثقيلة أخذ الكثيرون يتذمرون منها.

أما الموقف السياسي فكان الرجال الوطنيون المسؤولون يلمسون الضعف الذي بدأ يستولي على الثورة من جهة، وبما تعانيه البلاد في اضرابها الذي استمر الى مايقارب الثلاثة أشهر من جهة اخرى، وما تكبدته البلاد من الخسائر، وما يكلفها هذا الاضراب من الاموال للانفاق عليها. هذه العوامل وغيرها دعت الرجال المسؤولين الى طلب توسط ملوكنا وأمرائنا، وعلى هذا اتفقت الكلمة على احتجاج ملوك العرب، وايفادهم مندوباً عنهم للتوسط. وقد مهد المرحوم ياسين باشا الهاشمي لهذا الاجتماع في بغداد، ثم توفق لانتداب نوري باشا السعيد، لان يكون ممثلاً لملوك العرب وأمرائهم للتوسط في قضية فلسطين في القدس. وكانت أنباء هذا التوسط قد أخمدت من جهة الشعور الملتهب في الاقطار العربية نحو فلسطين، وألهبت الغرور من جهة ثانية في نفوس الانكليز. وكانت آخر مرحلة وصلت اليها هذه الوساطة ان يفوض رجالات فلسطين أمر البلاد الى نوري باشا السعيد ، الذي يمنّيهم بحل القضية في صالح العرب، اعتماداً على شرف بريطانيا.

وصادف وصولي الى فلسطين عندما وصلت البلاد الى هذه المرحلة السياسية، وكادت اللجنة العربية العليا تستسلم لهذا الاقتراح. ولقد وصل اليّ احد اخواني (اسحق درويش) وأخبرني الحالة المؤسفة التي وصلت اليها البلاد، وقال: « لو تأخرت يوماً أو يومين لكانت اللجنة استسلمت الى الاقتراح بتوسط نوري السعيد ووقف اطلاق النار والصلح الملوث للشرف ». وأخبرني بما تم، وبما هم عازمون عليه، فطلبت منه أن يسأل الاخوان امهالي اسبوعاً واحداً، يماطلون خلاله المفاوضين، حيث أقوم بعمل جدي خطير، فإما أفسح لهم طريقاً يوصلهم لغاية أمانيهم، وإما أبوء بفشل يقبلون عندها الاقتراحات المعروضة. فتم الاتفاق على هذا الرأي.

أما العمل الذي كنت أتصوره، فينحصر في نقطتين: اما مهاجمة اليهود

مهاجمة عنيفة أبيد فيها قسماً كبيراً من القرى والنفوس والزرع في ضربة واحدة، حيث أحملهم على الاعتقاد باستحالة بناء الوطن القومي في فلسطين، وأما تحدي القوات البريطانية ومنازلتها. ولقد وجدت نفسي، بعد الدرس، انني سأجابه في الحالة الاولى الانكليز قبل اليهود، لذلك أجّلت الفكرة الاولى، بالرغم من سهولة تنفيذها، ورجحت الثانية، بالرغم من صعوبتها.

دب الحماس من جديد على أثر مجيئي فلسطين، كما أبنت، في نفوس أهالي فلسطين. وأخذ المجاهدون يفدون عليّ من كل صوب، يظهرون شكواهم من الحالة السيئة التي وصلوا اليها، ويضعون ثقتهم وكل آمالهم بي. كما أن وفوداً اخرى من المدن كانت تصلني، وكلها تظهر لي الشعور ذاته. وقد كان شعورهم الفياض يثير في نفسي الثقة بالمستقبل، بما كنت ألمسه فيهم من وطنية صادقة، وحماس وحب في التضحية، كما اني كنت أشعر بعظمة المسؤولية التي أحملها في هذه الساعات التاريخية. لذلك واصلت السعي ليلاً ونهاراً، ودعوت الامة الفلسطينية والامة العربية والاسلامية، ببلاغ نشرته للعالم، الى حمل السلاح، والجهاد في سبيل انقاذ حرم الله المقدس من الظلم والاعتساف. وكان لمنشوري هذا تأثيره العظيم، مما زاد من حماس القوم، وتمسكهم وتعلقهم بي. ولقد بادرت حالا في التشكيلات الادارية، وتأسيس محكمة للثورة، لاقضي على الفوضى وعلى التجسس من جهة، وفصل ما يقع من المشاكل بين الاهلين من جهة أخرى، وتأمين طلبات القيادة. كما اني شكلت لجاناً خاصة للاعاشة والتموين، وأخرى للمالية، وحصرت جميع المنابع التي يمكن الاستفادة منها في هذه اللجان التي ربطتها بي رأساً، فوضعت حدا للتذمر والشكاوي التي أمطرني بها أهل القرى والمدن من كثرة طلبات الثوار المنفردة. وأذعت أنباء هذه التشكيلات ببلاغات تقبلها الاهلون بمنتهى الترحيب والارتياح، وأخذ دولاب العمل والتنظيم يدور بسرعة وبإتقان، مما خولني السيطرة التامة على الموقف من كل نواحيه. ولم يبق أمامي الآن إلاّ أن أدرس الاراضي، وتوزيع الجيش الانكليزي وحركاته، لأتمكن من تنظيم خطة المعركة الاولى، أفتح بها للجنة العربية العليا مجالا واسعا للاصرار على مطالبها كاملة، وأبعث في نفوس الثوار الفلسطينيين روحا جديدة، يثقون بعدها بالفوز، وألجئ الانكليز لالتزام خطة دفاعية، يفسحون بها لنا المجال، وأحملهم على جلب نجدات جديدة، فأخرج قضية

فلسطين من نطاقها الحالي الذي حرص الانكليز على ابقائها عليه، وجعلها قضية عربية عامة.

اذاً، في هذه المعركة الأولى أضع كل آمالي، وعلى نتيجتها يتوقف تحقيق أمانينا القومية، لذلك تفرغت لتنظيم هذه المعركة بكليتي. تم درس الاراضي دراسة وافية، كما تم لي درس نفسية الثوار الفلسطينيين. وعلى هذين الاساسين انتخبت منطقة بلعا ميدانا لهذه المعركة.

أما نظام المعركة: فهو عبارة عن خط اساسي للدفاع، يشغل قلبه المفرزة العراقية النظامية، بقيادة السيد جاسم، وعلى جناحه الايمن المفرزة الدرزية بقيادة حمد صعب، يساعده محمود ابو يحيى، وعلى يمين هذه المفرزة المفرزة الحمصية الحموية بقيادة منير الريس، وعلى الجناح الايسر المفرزة الشامية بقيادة الشيخ محمد الاشمر. وكان ترتيب هذا الخط الدفاعي على شكل زمر تحتل الاقسام الناتئة من السفوح، حيث تسيطر نيرانها على الاودية التي أمامها وخطوط اجتماع المياه التي على جانبيها. وهي مرتبة على طريقة تستطيع كل منها حماية مواضع الزمر المجاورة لها، بحيث لا يستطيع العدو التقدم نحو زمرة الا ويكون تحت تأثير نيران الزمر الاخرى. وكان لنا ترتيبات اخرى لستر هذا الخط الاساسي، وهي عبارة عن مفرزتين قويتين من الثوار الفلسطينيين، احداهما بقيادة عبد الرحيم ابو كمال والثانية بقيادة العريف يونس. ومهمة هاتين المفرزتين ان تكمنا على مقربة من الطريق العامة التي اخترناها للتعرض الى رتل السيارات الانكليزية، بحيث يقوم هذا الكمين على نفس الطريقة التي اعتادها الفلسطينيون والانكليز حتى اليوم، بأن يهاجموا بالنيران فقط ثم ينسحبون، مستدرجين الانكليز اليهم. فيكونون قد شطروا القوة الانكليزية الى قسمين، احدهما يبتعد عن ميدان المعركة الاصلي جنوباً، دون أن يكون باستطاعته معاونة القسم الآخر عندما يشتبك بالخط الاساسي. أما القسم الثاني، فيستدرجه العريف يونس أمام مواضعنا الاساسية، حيث يشتبك مع خط الدفاع الاصلي. وتكون مفرزة يونس قد توارت في الوديان متجهة نحو مؤخرة جناحنا الايمن، فتكون لنا هذه القوة أمنية للجناح، واحتياطا لهجمات نقوم بها عند سنوح الفرصة. كما اننا خصصنا مفرزة فلسطينية لحراسة جناحنا الايسر على طريق يتفرع عن طريق جنين — نابلس العام.

وكان لهذا الطريق الذي يساعد السيارات للمرور عليه بسهولة اهمية خطيرة، اذ أن باستطاعة أية نجدة تأتي على هذه الطريق ان تحيط بجناحنا الايسر، وتوقع الجبهة في خطر يصعب تلافيه. لذلك جعلت المفرزة الموكل اليها حراسة هذه النقطة قوية جداً، بحيث تستطيع صد العدو، اذا حاول الالتفاف علينا من هذه النقطة أو من أية نقطة اخرى، وذلك لاشرافها على كافة الوديان التي تمكن العدو من التقرب الى جناح خط الدفاع الاساسي الايسر.

تجمعنا في قرية بلعا ليلة ١–٢/٩/١٩٣٦ دون أن يدري أحد الغاية من هذا التجمع، وقد استقبلنا اهالي القرية بحفاوة زائدة. وأبنت لكل من رؤساء المفارز مكانه وواجباته، ونوع التحكيمات التي يجب ان يشتغل فيها. اما اخواننا الثوار الفلسطينيون فقد تقصدت ان لا أجعلهم في خط النار، يجابهون صدمة عنيفة، ويجبرون على مجابهة الاسلحة الميكانيكية الفتاكة طيلة النهار، وذلك لعدم اعتيادهم على هذا النوع من الدفاع. وقررت ان يكون على الثوار الفلسطينيين حماية الاجنحة في نقاط بعيدة عن ميدان المعركة. كما انني ألفت منهم مفرزتين للتخريب، احداهما لطريق طولكرم – عنبتا بجوار الكمين، والاخرى للطريق الفرعي الذي يصل من قرية سيلة الضهر الى قرية بلعا، من وراء خطنا الدفاعي. ولم يصبح صباح ٣–٩–١٩٣٦ الا وكانت جميع المفارز محتلة الاماكن المخصصة لها، ومفارز الكمين في محلاتها والطرق قد تخربت ولغمت في المحلات المطلوبة. وبعد جولة تفتيشية على الترتيبات التي وجدتها على غاية مايرام، رجعت الى النقطة التي اخترتها مقراً لادارة المعركة.

ثار غبار قافلة السيارات الآتية من طولكرم الساعة الثامنة والخامسة عشرة، وكانت تتقدم ببطء وكانت جنودنا تنتظر باضطراب وحماس شديدين. وفي الساعة الثامنة والاربعين كان رأس رتل القافلة وصل للنقطة المعينة، حيث يقوم الكمين بعمله. فأطلق الكمين النيران على القافلة من شمالها وجنوبها، وما هي إلاّ برهة حتى انفجرت الرشاشات والمدافع الخفيفة من هذه السيارات والدبابات، ثم ترجلت الجنود، وشرعت تزحف بحماية نيران الرشاشات والدبابات صوب الكمين الذي أخذ يصب نيرانه عليها. فترك الكمين مواقعه، وانسحب حسب الخطة المرسومة. فتبعته الجنود الانكليزية منشطرين الى قسمين، احدهما يتعقب المفرزة

الجنوبية والآخر وراء المفرزة الشمالية الى خطوطنا الاساسية. فانفجرت مفارزنا عليهم بنيران حامية مؤثرة من مسافات قريبة، ولم يكن الانكليز يتوقعون مثل هذه المفاجأة، فكانت الاصابات منذ اللحظة الاولى كثيرة، فتثبتوا في أمكنتهم، حيث لم يعودوا يستطيعون التقدم او الانسحاب. وكانت سيارة اللاسلكي قد بعثت تستنجد، فاذا بنا بعد برهة تظهر علينا تسع طائرات انكليزية، وكنت قد خصصت زمراً صغيرة على مرتفعات تحيط بالجبهة وفي وسطها، خصيصا لمقاومة الطائرات أخذتهم من الجنود الذين سبق ان دربناهم على الرمي. وبعد مدة قليلة أخذنا نشاهد ارتالا من السيارات، تقف خارج الميدان ثم يترجل الجنود ميمّمين صوب خطوطناً. ولكن كل شيء كان في حسبان فلم يكن يتقدم فريق منهم الا ويجد نفسه تحت وابل من نيراننا المؤثرة، وكثيرا ما حاولت القيادة الانكليزية الالتفاف فكان نصيبها في كل مرة الخسران والفشل. وبدأت فعالية زمرنا المخصصة للطائرات، واذا بأول طائرة تسقط محترقة على طريق طولكرم، فعلا الهتاف والصياح من خطوطنا. وهذه طائرة اخرى تقع مابين خطوطنا وخطوط الانكليز وأمام مفرزة الدروز والحمصيين، فأحرقوها، وكان قائدها قد قتل، فأخذوا دفتر مذكراته، وما لديه من اوراق، ثم رجعوا الى خطوطهم. واذا بالطائرة الثالثة تبتعد عن ميدان المعركة وهي تجر وراءها ذيلاً آخر من الدخان. وقد استغربنا من مجيء دبابات ومدافع ثقيلة تجرها موتورات، وبعد مدة اخذت هذه مواقعها أمامنا، وبدأت تمطر جبهتنا بقنابلها. وكانت الساعة الآن الثانية بعد الظهر، ووصلت المعركة الآن الى منتهاها من الشدة، اذ تكاثفت نيران المدفعية وقنابل الطائرات على السفح الذي كان يحتله قلب خط دفاعنا، محاولة بذلك تحطيم هذا القلب الذي ندافع فيه بمنتهى الثبات. كما ان الانكليز حاولوا الاستيلاء على هذا القلب بهجوم قامت به جنودهم تحت حماية نيرانه الهائلة، ولكن صدّت حملاته، وحافظنا على مراكزنا. ولقد أثرت بعض الشراذم الانكليزية، التي تمكنت من التقدم على نقاط ذات تأثير، على أجنحتنا، فاضطررنا الى افراز قوة من خط دفاعنا، وصرف قوانا الاحتياطية بكاملها لدرء هذا الخطر. وكنا كلما ازداد الضغط على الجناحين نضطر الى تقوية هاتين الجناحين حتى ضعفت الجبهة. ولاجل انقاذ الموقف لم يكن بد من سحب الجبهة بكاملها تدريجيا الى الوراء حيث احتللنا قمما اصبحنا فيها أقوى وأمنع من

الاولى، كما انا أضحينا نهدد القوات التي تحاول الايقاع بجناحينا. تم احتلالنا لهذا الخط في الساعة الثالثة دون ان نتكبد خسائر تذكر، بفضل مناورات قمنا بها بكياسة وحنكة. ولما وجد العدو نفسه تحت سيطرة نيراننا من جديد، وتأكد من مناعة مراكزنا الجديدة، أخذ يعمل على انهاء المعركة والانسحاب من الميدان.
وبانت لي هذه العلائم عندما اخذت دباباته تتقدم في الاودية، وعلى بعض السفوح، حتى وصلت الى محاذاة جنودهم وأخذت ترمي برشاشاتها وبمدافعها الخفيفة. كما ان نشاط المدفعية قد اشتد والطائرات لدرجة قصوى، حيث بدأت تنشل جنود العدو من الجبهة تحت حماية هذه النيران. ولم تمض ساعة الا وكانت جنود العدو مرتدة خائبة. وهنا تنتهي المعركة ولكن لا تزال مفارز قوية من العدو تحتل القمم الواقعة على مقربة من الطريق من جهة الشمال، ولم تترك هذه المفارز أمكنتها الا بعد الغياب، حيث أتموا حمل جرحاهم وقتلاهم الى سيارات الاسعاف.
وانتهى هذا اليوم بفوز المجاهدين على المستعمرين، وبفوز الايمان والارادة على الظلم وقوة الميكانيك، فوزاً باهراً لا يقدر قيمته، ولا مدى تأثيره ونتائجه، الا الاجيال المقبلة.

أما خسائرنا في هذه المعركة الخالدة فبلغت من الشهداء تسعة ومن الجرحى ستة. وكان بطل بني معروف، محمود ابو يحيى، من جملة الشهداء، وهو الذي كان له الفضل في الصمود والمحافظة على خط دفاعنا المركزي. وقد أبدى – شأنه في كل معركة عرفته فيها في معارك الثورة السورية – من الجرأة والشجاعة مايعجز عن وصفها القلم.

وكان الباقون من الشهداء والجرحى من المفارز العراقية والحمصية – الحموية، والشامية، ولم يصب احد من الفلسطينيين في هذه المعركة. ونظراً لعدم اعتياد الفلسطينيين على هذا النوع من القتال فقد تخلوا عن مراكزهم منذ الساعة الاولى من المعركة، وان تخليهم هذا لم يكن ناشئاً عن جبن فيهم، بل لعدم اعتيادهم كما أسلفت. وان الذي أظهروه فيما بعد في المعارك من الشجاعة والبسالة والتضحية، التي تسجل لهم صفحات من الفخر في هذا الجهاد القومي لاكبر دليل وأسطع برهان على قولي. وأما الذين امتازوا في هذه المعركة فاذكر بإجلال وإكبار الأخ منير الريِّس قائد المفرزة الحمصية –الحموية، والأخ حمد صعب قائد المفرزة الدرزية

اللبنانية، والعريف صالح العراقي، والمرحوم الشيخ سليمان الصانوري الفلسطيني الذي استشهد فيما بعد في موقعة كفر عبوش في هجوم قام به على دبابات العدو، والذي سأصف معجزات جهاده فيما بعد. وكانت خسارة العدو ثلاث طائرات ومئة وخمسين قتيلا.

نتائج المعركة: حققت هذه المعركة الاهداف التي قصدناها فيها، فقد:

١– عزل الانكليز القائد العام في فلسطين واستعاضوا عنه بالجنرال ديل.

٢– أقفل الانكليز أي باب مفاوضة مع العرب، وأخرجوا نوري باشا السعيد، الذي يحمل كلمة ملوك العرب من فلسطين، على شكل يكاد يكون اهانة له ولملوك العرب وللعرب كافة.

٣– وانفتح امام اللجنة العربية العليا في فلسطين أفق جديدة للعمل، وللمطالبة بالحقوق، حل مكان الضعف والاستسلام. وانبعثت روح جديدة في نفوس المجاهدين والشعب الفلسطيني كافة.

٤– وقرر الانكليز لأول مرة بعد الحرب العامة ألغاء المناورات السنوية في لندن لجلب النجدات الى فلسطين.

٥– وتساهل الانكليز مع مصر، فأسرعوا للتفاهم وعقد معاهدة معها، تمكنوا على أثرها من جلب قواتهم المرابطة على حدود مصر الغربية تجاه طرابلس الغرب، وأمَّنوا ذلك خلود مصر الى السكينة خلال الحركات في فلسطين.

٦– أصبحت القضية الفلسطينية قضية عربية عامة، اذ اشتعلت النفوس حمية وحماساً، وتألفت اللجان في كل مكان لمساعدة فلسطين المجاهدة، كما أمطرت لندن بالاحتجاجات، فأصبحت علائق بريطانيا مع العرب مهددة وفي خطر. ووصل هياج طبقات الشعب العربي وحماسه لدرجة تعذر معها على الحكومات العربية التسكين من ثائرتها، فجرف الشعب حكوماته لمساعدة فلسطين.

أما تأثير هذه المعركة في نفوس الشعب الفلسطيني ورجاله المسؤولين فكان عظيماً، يظهر هذا مما وصلني من الكتب والوفود أثر هذه المعركة للتبريك وللتهنئة،

وبما نعتوني به من عبارات، أمثال : «بيضت وجوه العرب، أنقذت شرف العرب، أنت فخر العرب، خليفة صلاح الدين»، وغير ذلك. ومما لابد من ذكره أنه بالرغم من التعليمات المعطاة من لدينا الى الجنود كافة بوجوب الاقتصاد التام في العتاد فان المعركة لم تكد تنتهي الا ونفذت آخر طلقات نحملها من عتادنا. كما ان هذا النقص الخطر في العتاد لازمنا في كل معاركنا.

التزم جيش العدو في كافة انحاء فلسطين خطة الدفاع بعد هذه المعركة، وشرعوا يحصنون مراكزهم، ويطوقونها بالاسلاك الشائكة، وهم بانتظار النجدات التي أخذت بريطانيا تعدها في مصر وانكلترة. وقد علمت من مصدر أكيد ان هذه النجدات سوف لا تصل قبل العشرين من الشهر، فاتخذت من الخمسة عشر يوماً فرصة لتنظيم الثوار الفلسطينيين، ومناطق الثورة وادارتها. وكنت اتوقع ان تعلن الحكومة الاحكام العرفية في فلسطين، فتعرقل علينا الانتفاع من القرى، لذلك قررت ايجاد مستودعات للاعاشة وللعتاد في المناطق الجديدة للثورة، على أن تكون هذه في اماكن خفية لايعلم مراكزها أحد سوى مدير الاعاشة العامة.

وقررت ان أدرس كافة المناطق التي سنضطر فيها لقبول المعارك المقبلة، وللتعرف على أهالي القرى والاطلاع على كل مايهمني أمره. فقمت بجولات من بلعا الى الشمال نحو وادي عرعرة، وكانت القرى تستقبلنا استقبال الفاتحين المنتصرين. وكان يشتد حماسهم ويندفعون لقبول تكاليفنا، والاندماج في تشكيلاتنا عن طيبة خاطر وبرغبة صادقة.

ولقد قسمت ميدان الثورة الرئيسي الى ثلاث مناطق، المنطقة الاولى: تمتد شمال طريق طولكرم – دير شرف وغربي دير شرف – جنين وجنوبي وادي عرعرة، وعينت فخري عبد الهادي قائداً لهذه المنطقة. والمنطقة الثانية: جنوبي طريق دير شرف – طولكرم وغربي طريق دير شرف – نابلس حتى السهول الغربية، وجعلت قائداً عليها عبد الرحيم أبو كمال يساعده عارف عبد الرزاق (الطيبة)، الذي كان مثالا لروح الجندية النظامية بين كافة مجاهدي فلسطين. والمنطقة الثالثة: هي التي تمتد شرقي طريق جنين – نابلس، وكانت بقيادة الشهيد البطل الشيخ سلمان السعدي الصانوري.

وكانت هناك، عدا المناطق الثلاث، مناطق صغيرة مستقلة في حركاتها الخاصة، ولكننا كنا ربطناها بقيادة الثورة العامة، لتشترك حين الحاجة، بأن تقوم بأعمال تجلب عليها القوات الانكليزية، فتشاغلها، وتمنعها من الاشتراك بالمعارك الكبرى التي تجري مع قواتنا الرئيسة. وكانت وسائل الارتباط قوية جداً بحيث لم تخطىء مرة في ايصال الاوامر الى هذه المناطق التي لم تتخلف مرة عما طلب منها القيام به من الحركات والاعمال. وهذه المناطق كانت منطقة صفد في الشمال، ومنطقة القدس، ومنطقة الخليل، ومنطقة عكا، ومنطقة حيفا، ومنطقة المزار الواقعة بين بيسان وجنين بقيادة الشيخ فرحان الدرع.

ولقد كان المطلوب من قواد المناطق الرئيسة الثلاث ان يؤلفوا في كل منطقة مائة مقاتل نظامي ثابت، على ان يخصص لهم عرفاء من المفرزة العراقية النظامية، يقومون على تدريبهم حسب منهاج وضع خصيصاً. كما أن لجنة الاعاشة قامت على تنظيم قوائم تحوي على مقادير من الارزاق تتناسب مع مقدرة كل قرية، تقدمها الى الجباة الخاصين ويقوم كل قائد بجمع هذه الارزاق في قرى معينة أولاً، ثم تنقل الى أماكن في الحال سرية. فبدأت المناطق القيام بأعمالها على غاية مايرام.

كان الانكليز حريصين جداً على الاطلاع على أعمالنا، فكانوا يبثون رجالهم وجواسيسهم في أنحاء المناطق كلها. ولكني خوّلت محكمة الثورة صلاحية واسعة للغاية للقضاء على دابر التجسس، ولازالة الريبة والشك. فقام السيد منير الريِّس رئيس المحكمة بجهود جبارة، وكان يساعده حمد صعب وأبو كمال وفخري والشيخ سليمان السعدي ومنير الخطيب وخضر العلي سكرتير المحكمة، حتى اضطررنا يوماً أن نحكم على الشبهات. كما اني أخذت أعزل المعسكر عن الاختلاط بأي شخص، وكان نصيب كل من يقترب من المعسكر، بحسن نية كانت أم بسوء نية، أن يجلد خمسين جلدة، الا من كان قادما بمهمة بيِّنة الينا. وتمكنّا بهذه التدابير من تطهير المناطق عامة، والمعسكر خاصة، من عناصر التجسس، وكثيراً ما حكمت المحكمة بالاعدام ونفذ.

وكان لي تشكيلات سرية خاصة في كافة مدن وقرى فلسطين تمونني بالاخبار

الصادقة، وقامت هذه التشكيلات بأعظم الخدمات التي يجهلها الكل، واني مدين في نجاحنا وانتصارنا الى هذه التشكيلات. تمت هذه التشكيلات والاعمال التي أخذ دولابها يدور بنظام وإحكام خلال العشرة أيام. وأردت اختبار درجة ما بلغت اليه هذه التشكيلات من القوة لاكون على بيِّنة من الامر فطلبت في ١٠-٩-١٩٣٦ تجميع قوات المناطق النظامية، ونصف القوى الاحتياطية لكل منطقة في قرى صيدا وكفر راعي والنزلة الغربية. وبظرف ٣٦ ساعة تم تحشد القوى كافة في المناطق المعينة، وفي الوقت، على مايرام، وكان أول ظاهرة لاستعداد الفلسطينيين لتقبل النظام والتكيف بالجندية النظامية. ولقد قام العرفاء العراقيون بتنظيم هذه المفارز كما أسلفنا. ولقد استبشرت خيراً مما رأيت، فقررت التصدي للقوات الانكليزية، وانزال ضربة قاضية في معركة نعدها قبل وصول النجدات. وبعد أن تمت دراسة الاراضي تبين لي ان منطقة عرعرة ملائمة جداً لخوض معركة فيها. فزحفنا يوم ١٢-٩-١٩٣٦ على وادي عرعرة على نظام مسير أرتال صغيرة منفرجة، تتقدمها أرتال أصغر منها. ولاول مرة تتجمع المفارز الفلسطينية وتسير على نظام عسكري خاص، وكانوا يشعرون بروح جديدة في اتباعهم هذا النظام، كما أن أهالي القرى كانوا ينظرون اليهم بهيبة واعتبار. وصلنا الوادي ورتبنا على سفوحه وقممه خطة لمعركة، أملنا منها بنصر يقين. ولبثنا كامنين للتحرش بالدوريات والقوات التي تمر هناك، كي نجبرهم جلب قواتهم وقبول المعركة في هذه البقعة.

مرت قرب الظهر خمس سيارات مسلحة، وخمس سيارات مصحوبة بالجند، ولما اقتربت من مراكزنا الامامية، اطلقت مراكزنا عليها النيران، ولكن السيارات قفلت راجعة بسرعة، دون أن تجاوب بطلقة واحدة. وبعد مضي عشرين دقيقة تقريبا وصلت فوقنا طائرتان، فحامتا مدة، ولقد اطلقت فصائلنا المخصصة لرمي الطائرات عليها، فأصيبت واحدة منها فولّت نحو الغرب والدخان يتصاعد منها، وسقطت في السهول الغربية، وتبعتها اخرى دون ان ترمي قنبلة أو رصاصة. ادركت ان الانكليز يتحاشون الآن خوض أي معركة معنا قبل ورود نجداتهم. ولكن لا أدع هذا التجمع يمر بدون فائدة، رتبت مفارز لمهاجمة مستعمرة «المراح» (كفار آدا)، ومفارز أخرى لتخريب طريق كركور - خضيرة ولغمه، وأرسلناها. وفي

١٣-٩-١٩٣٦ سرنا الى قفين حيث أعدت مفارز المناطق الى مناطقها، وأبقيت جيش المنطقة الاول مع قواتنا فقط. وتابعت ارسال مفارز صغيرة لتعجيز المعسكرات الانكليزية والمستعمرات اليهودية، وتخريب الطرق ولغمها. ولكن الانكليز كانوا يتجنبون تحرشنا، ولا يقابلونه إلا إذا كان في مراكزهم، فتجلّى لي أنهم متوهمون كثيراً من قوتنا، وان معركة بلعا أثرت في نفوسهم التأثير المطلوب. ولقد صرح لي احد اعضاء تشكيلاتنا السرية، أن حاكم نابلس صرح في مجلس ان رجال الاستخبارات الانكليزية حصلت على المعلومات الوثيقة من اننا نملك رشاشات ضد الطائرات، التي بواسطتها تمكنا من اسقاط الطائرات في موقعة بلعا، وان قواتنا النظامية تبلغ الالفين، وان معاركنا كانت من حيث الترتيب والنظام لا تفرق عن ترتيبات أي جيش حديث، وانهم يعملون ويبذلون ما في وسعهم للقبض عليّ أو لاغتيالي بأية وسيلة، وقد خصصوا من أجل ذلك مبلغاً غير محدود. كما انهم يسعون لبذر الفساد في صفوف المجاهدين الفلسطينيين وغير الفلسطينيين.

وأخذت تردني أخبار متواترة بأسماء اشخاص قد أطلق الانكليز سراحهم من السجن، وبعض منهم من المحكومين مؤبداً، بقصد اغتيالي، إما خلال التنقلات أو خلال المعركة. وفعلاً قبضنا على كثير من هؤلاء، فأعدمنا من ثبتت الادلة بإدانته، وقاصصنا من لم تتم الدلائل والشبهات على ادانته.

وأخذت الدعاية الانكليزية تنشط في فلسطين، مدنها وقراها، فيما يتعلق بورود النجدات العظيمة، والتي سوف لاتلبث بعد وصولها ان تقضي على الثورة والثوار، وتجازي كل من ساعد وعاون واشترك من الاهلين، وغيرها من الدعايات التي تنشر الذعر والوهن والرهبة في القلوب. ولم تخل هذه الدعايات من التأثير على بعض مخاتير القرى، حتى أصبح الكثير منهم يلازم الحياد، والبعض الآخر يتظاهر بالولاء للانكليز، ونشط ضباط الاستخبارات الذين اخذوا يسعون للاتصال مباشرة مع المخاتير. وكان قد وصل الجنرال ديل الى فلسطين وطبَّلت الصحف اليهودية والانكليزية بشهرته ومقدرته وبما أعطي له من الصلاحيات الواسعة لاستئصال الثورة، كما أنها أشادت بعظمة الجيوش والمعدات العظيمة التي سوف تصل الى فلسطين لقمع الثورة، الامر الذي تعهد الجنرال بحله بمدة لاتتجاوز الخمسة عشر يوماً. ولقد زار الجنرال ديل الامير عبد الله بصحبة المندوب السامي،

وتطرق معه الى حديث الثورة في فلسطين وقد قال المندوب السامي الى الامير عبد الله: «نحن هذا قائدنا – ويشير بيده الى الجنرال ديل – وأما أنت فالقاوقجي قائدكم، وسوف ترون المصير». ولقد استولت موجة من الوهن والوهم الاوساط العربية في فلسطين حتى خارجها، وكان لابد لي من عمل أضع فيه حداً لنشاط ضباط الاستخبارات الانكليز وأمنع اتصالهم بمخاتير القرى.

بدأت النجدات تصل فلسطين شيئاً فشيئاً، وتتجسم معها الاخبار والاشاعات فعزمت على ترتيب معركة أنازل فيها الجيش الانكليزي قبل تكامل نجداته، فأضع حدا لهذه المعركة لايقاف انتشار هذه الشائعات ، ولتحطيم قوى الانكليز بضربة لازبة.

بتاريخ ٢٠-٩-١٩٣٦ طلبت من المناطق ان تجمع قواتها النظامية والاحتياطية في مراكز عينتها داخل المناطق، منتظرة الاوامر. وتحركت في اليوم نفسه من المنطقة الشمالية مستصحباً قوات المنطقة ، وانحدرت جنوباً الى المنطقة الثانية . وبتاريخ ٢٢-٩-١٩٣٦ مساء تحركت من هذه المنطقة الى بيت إمرين في المنطقة الثالثة مستصحبا معي قواتها. و٢٣ مساء تركت بيت إمرين متجها الى جبع حيث قررت التحرش بالانكليز وقبول المعركة في منطقتها. ولقد رتبت خطاً دفاعياً يمر من جنوب قرية فندقومية ويتجه شمالاً بمحاذاة الطريق العام الى جبع ، الى نقطة المزار الواقعة على مرتفعات جبع الشمالية. وقد استصحبت معي كل ما يلزم للغم الطريق العام والجسور، بحيث نعزل النجدات الانكليزية، التي سوف تأتي من جنين وطولكرم ونابلس، عن الاتصال بالقوات الانكليزية الموجودة في هذه المنطقة. ولأجل تضليل القيادة العامة الانكليزية أفرزت جماعة بقيادة عبد الرحيم أبو كمال يساعده عارف عبد الرزاق مستصحبين معهم رشاشين خفيفين وبنادق راميات القنابل، ليتخذوا من مواضعنا في بلعا نفس ترتيبات المعركة السابقة، حيث يتصدون للقافلة ويصمدون الى أن تأتيهم النجدات. وبينما تكون النجدات الآتية من الشمال تسير من أمامنا في جبع لنجدة جندهم في بلعا، ننقض عليهم من مراكزنا، وننسف الطريق الملغوم، فيقع قسم كبير من الجيش في قبضتنا، ونقضي عليه قتلا وأسرا قبل أن تتمكن بقية النجدات التي ضللناها بترتيبات بلعا الصورية، والتي تكون تغلغلت في جبال بلعا، من نجدة الافواج التي تقع في شراكنا. تم تنظيم كل شيء حسب مانرغب ولكن

عندما وصلنا قرب منتصف الليلة ، قرية جبع سألت فخري عبد الهادي عما تم بشأن العملية المطلوبة مع الادوات للحفريات من قرية جبع وفندقوميه فأعلمني بأن أهل القريتين غير راضين عن نوايانا، وانهم لم يوافقوا وبدأوا يماطلون. فطلبت حالا المخاتير والوجوه، وأعلمتهم عن عزمي الذي يستحيل عليّ التخلي عن تحقيقه، لذلك أصررت بوجوب تنفيذ طلباتنا بأسرع ما يمكن. وبعد أخذ ورد، تظاهروا بالقبول وذهبوا لتأمين ما طلبناه، وبقينا نحن بانتظارهم. واذا بخفرائنا يخبروننا عن وجود دبابات على الطريق العام قبالة القرية، فهرعت الى خارج القرية للتحقق من الامر بنفسي، فألفيت في الحقيقة دبيب السيارات تتقدم نحو القرية. وبعد لحظة اذا بأنوار تنبعث من هذه الدبابات، لم أعهد بمثلها من قبل اذ كانت أنوارها تخطف أبصارنا، فتوارينا حالا، وأمرت بلزوم السكينة، وعدم الحركة والحذر. واستطلعت السيارات قدر عشرين دقيقة مراكزنا ثم انسحبت تحت جناح الظلام. ولم تكن وصلتنا الادوات المطلوبة حتى الساعة، فتأكدت من مؤامرة محاكة قام بها بعض المفسدين من أهالي القريتين. فانسحبت فوراً من القرية الى خارجها، حيث اتخذت من الجبال المحيطة بالقرية من الشرق والجنوب والشمال مراكز حصينة للدفاع. وكانت مفرزتنا المخصصة للتضليل في بلعا قد توجهت اليها. وبقينا على نفس القرار والخطة ببعض التعديل، ولكن وصول أخبارنا الى الانكليز، قبل الشروع بالعمل، انقص من قيمة الضربة الفجائية التي كنا نأمل فيها النتائج العظيمة.

وفي صباح ٢٤ حضر مخاتير قرى جبع وفندقوميه معلنين قبولهم مطاليبنا. ولكن الفرصة كانت قد افلتت، فشكرتهم وأعلمتهم بعزمي على مغادرة المنطقة. وفي الحقيقة كنت مصمما على خوض المعركة فيها، لأن انسحابنا بدون معركة هو فشل وانكسار يؤديان الى تشتيت كلمة الثوار، وتنقيص قيمتهم وهيبتهم ومعنوياتهم. وما ازفت الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، حتى ظهرت فجأة فوق رؤسنا طائرتان، كما أن سيلاً من السيارات والدبابات أخذ يتدفق من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال نحو جبع حيث كانوا يعتقدون بوجودنا فيها.

كانت ترتيباتنا الدفاعية في جبع عبارة عن ثلاث مجموعات ، يحتل قسم من المجموعة الاولى القمم الواقعة شرقي وادي جبع، والمشرفة عليه، ممتدة على خط

يوازيه من الشمال الى الجنوب، وقسم آخر من هذه المجموعة يحتل القمم الشمالية لهذه السلسلة المشرفة على الوادي الذي يتفرع من وادي جبع متجهاً من شمال السلسلة نحو الشرق ويمتد هذا القسم من المجموعة الاولى على خط يحاذي الوادي المتفرع، بحيث تسيطر على جميع منعطفاته. وتتألف هذه المجموعة من مجاهدي الشوام والحوارنة وبدو شرقي الاردن ومفرزة الدروز وفصيل من المفرزة العراقية، ومقر القيادة العامة.

وأما المجموعة الثانية فكانت على جناحنا الايمن وعلى نفس السلسلة محتلة القمم الشمالية والشرقية والشرقية الجنوبية. وتتألف هذه من فصيلين عراقيين، ومفارز المنطقة الاولى الفلسطينية، ومن احتياط المنطقة الثانية الفلسطينية. وأما المجموعة الثالثة فكانت تحتل القمم الواقعة في السلسلة الممتدة من قرية جبع الى الجنوب، يحدها وادي جبع شرقاً، والطريق العام جنين – نابلس غرباً. وتتألف هذه المجموعة من مفارز المنطقة الثالثة الفلسطينية النظامية والاحتياطية، وفصيل مختلط من الشوام والعراقيين، وكانت تسيطر على الطريق العام – جنين – نابلس – وعلى قرية جبع وقسم من واديها.

ولقد كانت مجموعاتنا تشكل هلالا يحيط به فرع وادي جبع الشمالي وطريق جنين – نابلس، ويقطعه وادي جبع الى قسمين. كان أول عمل قمنا به على أثر ظهور السيارات أن ارسلنا الاثقال والخيل الى قرية ياصيد التي تبعد ١٢ كيلومتراً عن جبع متسللين في الوادي. وقد افتتحت الطائرات المعركة، وكانت تحوم على ارتفاع قاصي جداً، فأخذت قناصتنا الخاصة بالطائرات ترميها، ولم يمض عشر دقائق حتى كانت الأولى مصابة مولية، تجر ذيلاً طويلاً كثيفاً من الدخان الاسود، وعلى أثر اصابتها ارتفعت بقية الطائرات الى ارتفاع، أصبح تسديد قذائفها علينا صعباً.
وكانت الجنود قد ترجلت من السيارات وأخذت الارتال تتقدم منتشرة نحو قرية جبع، وأفواج أخرى نحو مرتفعات تقع مقابلة للسلسلة التي تحتلها مجموعاتنا الاولى والثانية. كما أن المدفعية الآلية اسرعت الى قمم الوادي بالقرب من قرية جبع، حيث أخذت مواضعها تحت اشجار الزيتون الكثيفة. وبدأت المدفعية والطائرات ترمي القنابل بسرعة وبشدة، كي تمكن الافواج من احتلال القمم وبدون خسائر. وكان رتل ثالث مؤلف من عدة أفواج يستدير من وراء السلسلة المجابهة،

للاحاطة بجناحنا الايمن، ولقد تمكن الرتل الاول الموجه الى قرية جبع من احتلال القرية دون عناء، ثم تقدم متسلقاً القمم المحتلة من قبل مجموعتنا الثالثة. كانت القمم هذه معرضة الى نيران المدفعية التي تمكنت من صب نيرانها المسددة، فالجأت مفارزنا الى التخلي عنها والتراجع الى الوراء، حيث تمكن الرتل الانكليزي من احتلالها بسهولة. ولم يكتف هذا الرتل باحتلاله هذه القمم فقام بهجوم عنيف، تحميه المدفعية والطائرات ورشاشاته العديدة على القمم الممتدة نحو الجنوب. فتمكن من طرد مفارزنا منها، وأصبح بتقدمه هذا يهدد جناح المجموعة الاولى الايسر، وأخذت رشاشاته تمطر نيرانها على هذا الجناح، حيث وقعت فيه اصابات عديدة.

وقام الرتل الثاني بدوره بهجوم عنيف على جهة المجموعة الاولى، بحماية نيران جهنمية مدفعيته ورشاشات ومدافع الدبابات التي تمكنت من التقدم الى هذه الجهة، بينما أخذ الرتل الثالث يزحف حتى تمكن من التقرب الى جهة المجموعة الثانية التي كاد يحيط بها ويخترقها. وكانت الجبهة كلها في هذه اللحظة على أشد مايمكن تصوره من الخطر، وكانت المعركة قد وصلت الى منتهاها من الاحتدام والشدة. وأي تراجع من أي نقطة كانت، في مثل هذا الموقف يؤدي حتماً الى كارثة لا يمكن تلافيها. فالسلاح الوحيد والحل الوحيد كان في الثبات وتحديد تقدم العدو في الاجنحة، أما الثبات فكان ظاهراً في جميع أقسام الجبهة، وقد أبدى الفلسطينيون في هذه المعركة ما حقق آمالنا فيهم. وكان لا بد لي من هجوم أقوم به على احد الارتال لتوقيف امتداد حلقة التطويق، ولانقاذ الموقف من الخطر المحدق، فانتخبت أخطر رتل اذا تمكنا من صده استطعنا ترجيح كفة النصر الى جانبنا. ولقد وجدت في وضع الرتل المهاجم لجناحنا الايسر، والذي يستند في تقدمه على الدبابات التي تحميه من الطريق العام، الفرصة الملائمة التي أتحراها، فوجهت هجوما مقابلاً من مفارز فلسطين، تسندها مفارز اخرى دمشقية وعراقية، على الجناح الايمن لهذا الرتل. وكان هذا الهجوم عنيفاً وسريعاً ومفاجئاً، بحيث لم تتمكن الدبابات من صده، ولم يكن قائد هذا الرتل ليتوقع مثل هذا الهجوم في مثل هذا المكان الامين بالنسبة اليهم. وكانت بسالة الفلسطينيين في هذا الهجوم كذلك مثالا للشهامة والشجاعة والنظام. وأصبح هذا الرتل في لحظات محاطا

ومهدداً من ورائه، وقمنا ببقية المجموعة الثالثة بالضغط الزائد على جبهة الرتل هذا، فلم يسعه الا التراجع تحت نيراننا المؤثرة، ولم يلبث هذا التراجع أن انقلب الى هزيمة. فأصبحت قرية جبع نفسها الآن، والسيارات والاثقال الانكليزية كلها، تحت نيران مفارزنا، التي اخذت تصليها ناراً حامية. وكان لايزال رتل الاحاطة يحاول اختراق المجموعة الثانية بهجمات عنيفة يقوم بها، تحميه الطائرات والمدفعية بكل ما أوتيت من قوة. ولاجل ايقاع هذا الرتل في ورطة أو اجباره على الانسحاب، عمدت الى توجيه مفرزة مختلطة من العناصر كافة الى القمم التي تصل جناح هذا الرتل الايمن بالجناح الايسر للرتل الآخر المجابه لمجموعتنا الاولى. وكانت وعورة الاراضي خير عون لنا على مثل هذه المحاولة، وكانت خفة جنودنا ونشاطهم اللذان يمتازون بهما على الجنود الانكليزية، تؤثر التأثير الحسن على مجرى أعمالنا. وكان هذا الهجوم في ذات الوقت مباغتة للعدو غير منتظرة، فارتد جناح الرتل أمام وثبة مفارزنا التي لم يشاهدها الا فجاة، وعلى مسافة قريبة منه، ولم يلبث أن ارتد الرتل بأجمعه الى الوراء، منحدراً السفوح والوديان تحت النيران الشديدة. فمالت كفة النصر الى جانبنا ميلاً عظيماً، فاشتد حماس القوم، كما اشتد الذعر في نفوس عدونا، الذي أخذ يتقهقر على طول الجبهة تاركاً كثيراً من التجهيزات والمعدات وراءه. وكانت معركة اليوم هي معركة تكريم للنجدات الانكليزية التي وصلت حديثاً الى فلسطين، فهي تنهزم مسرعة الى قافلة السيارات، ولكنا لم ندعها تفلت بسهولة، اذ أرسلت أكثر المفارز في تعقيبها، واحتلال القمم المشرفة مباشرة على الطريق العام: جنين – نابلس شمالي جبع وجنوبها، وكنت كلفت المفارز الفلسطينية القيام بهذا الدور. وأصبح الطريق العام وما فيه من ارتال السيارات تحت نيران المجاهدين، فأدرك القائد الانكليزي الخطر، وتأكد له انه واقع في كارثة لاينقذه منها الا التجاؤه الى الحيلة، فعمد الى حمل اهالي قرية جبع قسراً، حيث وضعهم وقوفا مجابهين المجاهدين، واختبأت الجنود الانكليزية وراء أظهرهم واضعين حرابهم في أقفية هؤلاء المساكين. وقد أفادتهم هذه الحيلة كثيراً، حيث كف المجاهدون عن الرمي كي لايصيبوا اخوانهم. ومع ذلك فقد ظلت فجوات كثيرة في أرتال السيارات غير محمية فاصلاها المجاهدون، واستمر التقتيل، والنيران تحف بالارتال حتى وصلت الى مراكزها.

جعلت هذه المعركة الفجائية التي كانت نتيجة غدر ووشاية، الاهلين في يأس وقنوط من خلاص مما وقعنا فيه. ولكنهم لم يتمالكوا أنفسهم عندما رأوا هزيمة الجنود وتعقب مجاهدينا البواسل لهم، من الاندفاع بحماس وراء السيارات وعلى جوانبها. كما أن المجموعة التي أرسلناها الى بلعا (والتي تبعد ١٥ كيلومتراً من جبع) بقيادة عبد الرحيم وعارف عبد الرازق للتضليل، قامت بمهمتها خير قيام. اذ انها عند احتدام المعركة تصدت لقافلة السيارات التي تنقل النجدات من طولكرم الى جبع، فأوقفتها، وأجبرتها على قبول معركة واستدرجتها الى أطراف قرية بلعا، حيث أدركت القافلة بعدئذ انها خدعت، فصرفت النظر عن تعقب المفرزة، وتابعت سيرها الى ميدان جبع، ولكنها وصلت متأخرة. ولقد قامت هذه المجموعة بواجبها عند انسحاب الجنود ليلاً الى مراكزهم واستلمت فلولهم المتجهة الى طولكرم فاصلتها ناراً مؤثرة سببت لها خسارة زائدة. ولقد استقبلت معسكرات الجيش الانكليزي هذه الليلة جنودها الذين غادروها صباحا بأنفة وشموخ، بذلة وانكسار تجر معها قتلاها وجرحاها.

جرت هذه المعركة الموفقة على تعبئة تخالف ما اتبعناه في قتالنا في معركة بلعا. اذ كنا في معركة بلعا مدافعين فقط، ولكنا في جبع كنا مدافعين مهاجمين معا.

وكان لهذه المعركة صدى عظيم من الاعجاب والتقدير في الاوساط الفلسطينية والعربية كافة. وكانت برهاناً ساطعاً على فضل سلاح ايمان جنودها القوي، وتفوقه على مفعول سلاح العدو الآلي الفتاك الذي كان وسيلة لفرض الاستعباد والظلم على النفوس.

وكانت خسائرنا في هذه المعركة: ستة شهداء وتسعة جرحى. أما خسارة العدو فتجاوزت المائتين من الجنود، وضابط ذو رتبة عالية، وعدة ضباط وثلاث طائرات. وكانت غنائمنا في هذه المعركة من المسدسات والعتاد ومخازن الرشاشات والخوذ الفولاذية والبرانيط والتجهيزات الشيء الكثير.

أما القوى، فكان مجموع قواتنا لا يتجاوز الثلاثمائة. وتجاوزت مجموع قوات العدو في خط النار الاربعة آلاف جندي، وله من الاحتياط والقوات المرتكزة

في النقاط المحيطة بمنطقة المعركة ما يقارب العدد نفسه.

ولم تنته المعركة وذيولها الا بعد الساعة التاسعة مساء. ولم نتمكن من جمع الجرحى، وارسالهم الى قرية ياصيد والشهداء ومواراتهم في التراب الا بعد الساعة الحادية عشرة، حيث وصلنا الى قرية ياصيد بمجموع المجاهدين. وكان التعب والاعياء بالغين أشدهما، وكان لاهالي القرى المجاورة لميدان المعركة الفضل الاكبر في تخفيف العناء عن المجاهدين، وذلك لانهم لم تكد تنتهي المعركة، حتى جمعوا لنا المياه في براميل بثُّوها في الوديان المقررة للتجمع وقدمت للمجاهدين الذين أخذ الظمأ منهم كل مأخذ، لما صرفوه من جهود أثناء المعركة في حركاتهم في الجبال والوديان المحرومة من المياه، وتحت تأثير حرارة الشمس المحرقة.

كما أن رجالهم ونساءهم انتشروا في ميدان المعركة يتفقدون الجرحى والقتلى ويعاونوننا في جمعهم، كما انهم أمدونا بالارزاق وبوسائط النقل، فسهلوا علينا سرعة التنقل الى ياصيد.

وبالجملة كانت هذه المعركة اروع وأعظم من معركة بلعا، وكان النصر كذلك أعظم. وكان من أبرز نتائج هذه المعركة تلاشي الدعايات، وزوال هيبة جيش العدو في فلسطين، واندلاع نار الحماس في النفوس، وازدياد الثقة والامل لدى رجالات البلاد المسؤولين. كما ان الاضطراب والقلق اخذا يظهران بوضوح في الجيش والادارة الانكليزية في البلاد وعلى صفحات الجرائد والمجلات الانكليزية خاصة والاجنبية. اما خارج فلسطين فقد اشتد الحماس والهياج في العراق لدرجة الخطورة، وكذلك في سورية، خلا نجد والحجاز اللذين اعتقد انهما لم يدريا بالحروب القائمة في فلسطين البتة. فأخذت على الاثر تتألف لجان الاسعاف والاعانات في العراق وسورية وشرقي الاردن، وأخذ العرب يبذلون بسخاء لمساعدة فلسطين. كما أن الرسائل أخذت ترد عليّ في ميدان المعركة من كل أنحاء العالم العربي، مُظهرين استعدادهم للتطوع.

كانت النجدات الانكليزية لم تصل جموعها الكاملة بعد، ولكن النشاط والهمة ازدادت على أثر لإمداد الجيش في فلسطين بقوات كبيرة بأسرع وقت، وأخذت ترد من مصر براً، بينما كانت البواخر تجتاز البحار مشحونة بالجنود

والذخائر الى فلسطين. وكنت أشعر بقلق زائد من فقدان العتاد أولاً، والذي نضب معينه لدينا، والذي لم يرد الينا منه بعد. كما انه كان لا بد لي من أن اقوم بايجاد منابع قوة جديدة للثورة، واكمال تنظيم الثوار وتدريبهم استعدادا لمجابهة القوات الجديدة، التي ولا شك سوف يدخل منها المعارك المقبلة عشرات أضعاف قوتنا. لذلك قررت:

أولاً: تنظيم قوات فلسطين الاحتياطية، وذلك بتقسيم المجاهدين الى أجزاء صغيرة، تدرب تحت قيادة عرفاء عراقيين، حسب منهاج خاص، من شأنه أن يهيء هذه الاجزاء لقتال جيش آلي في ارض وعرة بأسرع وقت، وخصوصاً تعلُّم أصول الرمي ضد الطائرات والدفاع ضد الدبابات. وبدأت هذه الاعمال تدور بسرعة واتقان صباح كل يوم ومساءه. حتى اصبحت مناطق الثورة تشبه معسكرات التدريب لجيش نظامي، وكان استعداد الفلسطينيين وإقبالهم شديدين. وقد استطعنا بذلك ان نحصل على نتائج قيّمة، وعلى عناصر نظامية، يركن اليها في المعارك المقبلة. وكنت أتوقع ان تكون المعارك هذه شديدة للغاية، وذلك لان انكسار الانكليز في جبع وضع القيادة الانكليزية في مأزق حرج جداً، فهي مضطرة لاعادة هيبتها واعتبارها اللذين أضاعتهما، بقيامها بجهود جبارة لتنظيم معركة تدخل فيها أكبر عدد يمكنها من القوة لتقضي بها علينا، ولتستعيد فيها مركزها السالف.

وبينما كانت أعمال التدريب قائمة على قدم وساق عندنا، وورود النجدات والاستعداد جارياً في معسكر العدو بنفس الحماس والشدة، كنت أسعى بقوة لتأمين منابع قوة جديدة، لذلك كانت رسلنا تعمل في شرقي الاردن وسوريا والعراق. وأخذت تردنا زمر المتطوعة الواحدة تلو الاخرى من شرقي الاردن وسوريا، وتم لنا الحصول على كميات لا بأس بها من العتاد، فكنا جاهزين لقبول معركة جديدة. وقد ظهر لي ان الانكليز قد أتموا في الوقت نفسه استعداداتهم، وهم ينتظرون ورود آخر النجدات التي أعدوا لكل وحدة منها عملها في المعركة التي يعدّونها: كما أن ضباط الاستخبارات والادارة الفلسطينية نشطتا من جديد، وأخذتا تستميلان مخاتير القرى وشيوخها، مستعملة الشدة معهم، منتحلة أعذاراً من أوهى الحوادث لنسف الدور في القرى، وفرض الغرامات كذلك من جديد، مما

ضعضع معنويات الاهلين. وكان الجنرال ديل يطوف ذات الوقت مراكز الاقضية، ويطلب وجهاء القرى ومخاتيرها، حيث يخطب فيهم واعداً متوعداً، مظهراً لهم حسن نوايا بريطانيا وانه لا يوجد مانع ما لاعطائهم حقوقهم، الا وجود الثوار الغرباء الذين هم سبب القلاقل والاضطرابات في البلاد، وقام الحكام العسكريون في جميع المناطق بالمهمة نفسها. ولم تخلُ هذه المحاولات من نتائج سيئة جداً بالنسبة لنا، اذ أن كثيراً من القرى الضعيفة آثرت الانسحاب، كما أصبح بعضها وسيلة لتهبيط العزائم، مع العلم انهم من المجاهدين..

ولم يسعني، مقابلة لهذه الاعمال، الا أن اقوم بأعمال مماثلة لايقاف دعاياتهم والحيلولة دون استمالة الاهلين، مستفيدين من سذاجتهم وطيبة قلوبهم. لذا جمعت كثيراً من صناديق الديناميت والقنابل، وأعلنت عزمي على نسف دور كل من تسول له نفسه الاتصال مع رجالات الانكليز، أو يقدم لهم أي نوع من المساعدة. كما اني اخذت ادعو المخاتير لاجتماعات أعقدها في أماكن مختلفة، أبيّن لهم فيها خبث الانكليز وما يرمون اليه من الافساد والتفرقة ليسهل عليهم القضاء على الثورة وعلى البلاد، بعد أن عجزوا عن القضاء عليها بقوة السلاح. فكان لهذه الاجتماعات أثرها الحميد.

وبعد أيام من معركة جبع ايقظني الحارس بعد منتصف الليل، يُعلمني بأن هناك رجلاً يلح في مواجهتي، فأذنت له بمقابلتي، فاذا برسول يحمل كتابا اليّ من الامير عبد الله، ورسالة شفوية منه أيضاً، يقول فيها ان الحالة الراهنة في فلسطين ستؤدي حتما الى الدمار، بسبب تعنت اللجنة العربية العليا، وإصرارها على آرائها المتطرفة، وانه ثبت عدم اهليتها لادارة شؤون البلاد، وانه يجب تأليف لجنة عليا أخرى، يكون أعضاؤها من اهالي القرى ووجوهها وزعماء المجاهدين، ويقول الامير ان لجنة كهذه، اذا تألفت، تجد من الانكليز تساهلاً وميلاً للتفاهم ورغبة. كما أخبرني ان سمو الامير يرغب في معرفة الاشخاص الذين اتفقت معهم على المجيء الى فلسطين، والقيام بالثورة فيها، ومعرفة قوتنا، وأنواع اسلحتنا وعتادنا، وعن حالتنا، كي يتمكن من مساعدتنا. فبهتّ، ودهشت لسماعي هذه الفكرة التي ترمي الى شطر البلاد الى قسمين وبث بذور الفتن والفساد في الصفوف، وايقاع اهالي البلاد بعضها مع بعض في اختلافات، وكان الثورة تنتقل بعدها من خصام

بين العرب والانكليز، الى خصام بين العرب والعرب انفسهم. فأجبته بغضب: «ان هذه الرسالة غير صحيحة، واذا صحت لايمكن تحقيقها، أو التحدث بها»، وأثبتّ له ان ما يطلبه سموه مني من المعلومات يهم الانكليز امرها اكثر منه. وبينما الشكوك تخامرني، اذا به يناولني كتابا من الامير ففضضته، واذا به ما يأتي:

٧ رجب

« عزيزي القائد الوطني الباسل فوز الدين بك القاوقجي حفظه الله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فقد بلغني في حينه خبر قدومكم الى فلسطين، فلم استغرب ذلك منكم، ولا استعظمته، لعلمي بما طبعتم عليه من حميّة دينية، وما تحملون في صدوركم من غيرة وطنية. وانكم لكما قال الشاعر:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم   في النائبات على ما قال برهانا.

ولقد علمت كذلك بمقدم القواد المجاهدين، ومن تطوع في سبيل فلسطين العزيزة من ابناء الوطن العربي الكريم. الا ان الاخبار عنكم مشوبة بالكثير من الغموض. وأما الذي أجمعت عليه الكلمة، فهو اخلاصكم لله وللأمة، فيما نعلم، وان لا هدف لكم الا خدمة البلاد.

اني لا أدري عن الوضع الحاضر بالنسبة اليكم. وجلّ ما أعلمه أن الحكومة البريطانية كانت ترجو طيلة مدة الصيف انتهاء الحركة بفلسطين، ولما قنعت الان ان الشوط بعيد، ابتدأت تنظر الى المسالة بعين الجد. وقد أمدت قواها بفلسطين بقوى أخرى، دأبها في كل حرب خارجية أو غائلة في مستعمراتها. ولقد أقبل الشتاء وهي بادئة أعمالها، وفلسطين متعبة تحت تأثير التعطيل في الاعمال والاضراب، ولا يعلم ما وراء هذا الا الله.

أما اللجنة العربية العليا واللجان الاخرى، فلا يساورني شك أنهم من أرباب الحمية وذوي النية الصادقة، الا أن الاوطان كان أثمن من أن تعرض للخطر لمجرد ملاحظات غير مدعمة ببراهين، أو لاوعود غير مؤيدة بحقائق. وأسأل الله التوفيق في حل الاشكال الحاضر بأسرع مايمكن، قبل ان تقضي بقية العرب دون جدوى. ان آماني الوثيقة بأن اهل فلسطين، اذا اغتنموا الفرصة قبل فواتها، سينالون في

المفاوضات بعض المهم مما يطلبون، ويدرؤون الكثير من الخطر الذي يخافون، ولا أخالكم ورفاقكم المحترمين الا على هذا الرأي ان كانت الوضعية العامة كما أعلم، ولم يكن لديكم جميعاً ما يخفى عليّ. وان كان لديكم منه شيء، فاني واثق باخلاصكم لله والوطن. وما اردت بما كتبت الا ايضاح الحالة لكم كما هي، وكما اراها أنا، لعلمي باعتدادكم بآرائي، وعلمكم باخلاصي لله وللوطن».

قرأت كتاب الامير عدة مرات، وتأكدت من التوقيع. فزادت دهشتي واستغرابي من موضوع الكتاب الذي يتلخص بتهديدنا بنجدات الانكليز وقواتهم الهائلة، وبتحميلنا مسؤولية اضراب البلاد، والطعن باللجنة العليا وطلبه ضمناً انعزالنا عنها، وتشويقنا وترغيبنا في الاستسلام، قبل ان تبطش نجدات العدو بنا، واستدراجنا الى اعطائه اسرار الثورة، وهذا ما لايمكن تصور صدوره من أمير عربي، كما أنه لا يمكن تنفيذ أو اعتبار أية فكرة منه.

كانت تشكيلاتنا السرية للاستخبارات داخل فلسطين تقوم بأعمالها على غاية مايرام، وكانت التقارير ترد عليّ من أعمال الانكليز، ودرجة استعدادهم وعن نواياهم، ومقادير النجدات التي وصلت، بتفصيل شامل ووضوح ، بحيث كنت أعد أعمالي على ضوء هذه التقارير. ولقد تبين لي منها ان أواخر النجدات على وشك الوصول، وأنه يصبح مجموع الجيش الانكليزي بعد تكاملها ستين الفاً، وكان هذا العدد عظيماً جداً بالنسبة الى عددنا الضئيل، وبالنسبة الى ضيق المنطقة الى نحارب فيها. وكان أهم سلاح في نظري يحمله هذا الجيش سيارات النقل، التي كانت تستطيع جلب اكبر قوة من الجنود الى المركز المطلوب في أسرع وقت. ونظراً لعدم تمكن القيادة الانكليزية من القضاء علينا، ولما منيت به من الانكسار والفشل في المعارك السابقة ، ولما يتوفر لديها الآن من القوى الفائقة، كنا نتوقع معركة فاصلة تضع القيادة الانكليزية فيها كل آمالها. لذا كان من المتحتم علينا ان نعمل على اشغال وحدات كثيرة من جيشهم في مناطق مختلفة، كما كان يجب علينا عرقلة تنقلاتهم السريعة، وتحشيدهم القوى في النقاط الخطرة علينا. فعمدت الى اثارة نشاط ميادين الثورة البعيدة عن الميدان الرئيسي، فبدأت هذه أعمالها، مما اضطر الانكليز الى توزيع كثير من قواهم في تلك الميادين. كما انني نشطت الى تخريب الطرق والسكك الحديدية والجسور وأنابيب البترول، وأخذ هذا النشاط

يزداد، وتزداد معه عرقلة أعمال الجيش الانكليزي. وكنت كما ذكرت سالفاً أعددت مفرزة خاصة للتخريب بقيادة عرفاء الهندسة من المفرزة العراقية، ولم يتم تشكيل هذه المفرزة في حينه مع الاسف لاسباب، فعمدت الآن لتشكيلها، نظراً للحاجة الماسة اليها في هذه الظروف. وتم جمع ما نحتاج اليه من صناديق الديناميت والمفرقعات وغير ذلك من الادوات، في الوقت الذي كانت المفرزة تعمل في تخريب الانابيب بنشاط. ولقد شعر مدير شركة النفط في حيفا بالخطر الذي يهدد الانابيب في منطقته، وأيقن ان الجيش الانكليزي لا يستطيع حماية هذا الخط من عبثنا فيه. لذلك طلب مدير فرع حيفا بتاريخ ١٨-٩-١٩٣٦ مواجهتي، للتفاهم على طريقة يتفق عليها لحفظ أنابيب البترول من التخريب، فعينت له مكانا وزمانا، حيث حضر فيه، وتباحثنا. وكان يحمل ملفات يعرضها عليّ لاقناعي بأن متوسط ما تتكلفه الشركة من تخريباتنا شهرياً الف وخمسمائة جنية فلسطيني، ولقد أبدى لي استعداده لدفع مبلغ خمسمائة جنية شهرياً لقاء عدم تخريبنا الانابيب في منطقته، حفظاً لاعتباره وشرفه. كما أنه اشار عليّ بتخريب أماكن خارج منطقته، يكون مفعولها أعظم، وبتخريب انابيبها ينقطع مرور البترول الى منطقته بدون تخريب فيها. فتظاهرت له بقبول فكرته ولكني أعلمته في الوقت نفسه ان هذا المبلغ الذي يعرضه عليّ لا يكفي، لانني احتاج الى حراسة الخط، والى تشكيل مفارز اخرى للتخريب في المناطق الاخرى، وهذا يكلفني مبلغا أعظم ، واذا كان المعدل المتوسط لخسارتهم ١٥٠٠ دينار الى الآن، واذا نفذنا المنهاج الذي أعددناه تصبح الخسارة في منطقته أكثر من عشرة أضعافها. فدهش، وظهرت عليه علائم القلق والاضطراب، وقال لي: «ماهي خطتكم؟» قلت: « ان الامر بسيط، تدمير خط الانابيب من بيسان حتى حيفا في ليلة واحدة على شكل يتعذر على الشركة تعميره في وقت قصير. على ان تتكرر هذه العملية كلما جددت الشركة عمارة الخط». فعاد يسائلني عن المبلغ الذي أطلبه، فقدمت له رقما عظيماً. فقال: «حسن ، اني سأعمل على اقناع اعضاء الشركة لقبول مقترحاتكم». فحددت له اسبوعين للاجابة، وافترقنا.

كانت رسلنا في شرقي الاردن ناشطة للغاية في اعداد هذه المنطقة لتكون معدة لثورة، نشعلها فيها عندما نشعر بعدم استطاعتنا مقاومة الجيوش الانكليزية في

فلسطين، فنوسع ميدان الثورة، وندخل اليها عناصر جديدة تلجئ الحكومة الانكليزية الى جلب أضعاف أضعاف ما جلبته الى الآن من القوى. واني متأكد بأن ظروف اوروبة السياسية غير ملائمة للانكليز، ولا تسمح لهم بجلب مثل هذه القوى الى ميدان الثورة الجديدة. كما اني متأكد بأن اشتعال الثورة في شرقي الاردن يسبب ثورات اخرى في بقية المستعمرات الانكليزية ويجبر الجزيرة العربية على الاشتراك الفعلي فيها، فتصبح بريطانيا امام خطر يهدد كيانها، كل ذلك في سبيل تفانيها في خدمة السياسة الصهيونية في فلسطين.

ولما وصلت آخر وحدة من نجداتهم الى فلسطين، كانت شرقي الاردن معدّة للثورة. ولقد طلبت تأجيل إرسال النجدات من شرقي الاردن نفسها، فاكتفيت بما أعددته في فلسطين.

وفي ليلة ٢٥–٢٦/٩/١٩٣٦ وردتني التقارير المفصلة عن كثرة تحشيد الانكليز القوى في نابلس، التي ضاقت بهم حتى اضطروا الى وضع الإبهم على الفنادق والمؤسسات الحكومية، حتى المنازل، التي طردوا اصحابها منها ليسكنوا ضباطهم فيها. اما الجنود فقد ملأت أطراف البلدة بخيامهم ومعداتهم ومدافعهم وسياراتهم في معسكرات محصنة بالخنادق والاسلاك الشائكة، يحرسها خط من الدبابات من الخارج. ولقد بلغ الغرور بقائد المعسكر هذا لدرجة انه لمجرد سماع عدة طلقات اطلقت حوالي معسكر نابلس في احدى الليالي، قبض على زعيم نابلس سليمان طوقان رئيس بلديتها، وجلبه الى المعسكر قائلا له: «ان كلابك لم تدعنا ننام». ثم امر جنده احضاره الى سطح الفندق، حيث وضع الرشاشات بين أكياس الرمل، فأمضى الزعيم ليلة ليلاء وراء الرشاشات. ولقد كان في هذه المعاملة من الجبن أكثر من الغرور. ولقد أجابه الزعيم في اليوم التالي باستقالته من رئاسة البلدية مع بقية الاعضاء، كما رد الوسام الرفيع الذي يحمله من الحكومة البريطانية الى المندوب السامي، رافضاً حفظه. ولقد أحسن الزعيم كل الاحسان فيما فعل. فكانت الفرصة ملائمة للقيام بعمل أتحدى به الجيش الانكليزي بعد تكامله، وأظهر به عدم اكتراثنا بقوتهم. فعمدت الى تنظيم مباغتة ليلية لهذا المعسكر، يكون خير عمل استقبل به النجدات الجديدة التي وصلت، وأزرع في نفوس رجالها الخوف والرهبة، فيكونون سمعوا مني بهذه المحاولة أصدق أخبار الثورة.

خصصت لهذه المباغتة أكثر الجنود خبرة بأراضي هذه المنطقة. وألفت خمسة مفارز تطوق معسكر العدو من نواحيه الثلاث، حيث تمطره نيران مؤثرة من سفوح الجبال المتحكمة عليه من قريب. تم تأليف هذه المفارز كل في مكانه وطلبت رؤساءهم، حيث اعطيتهم التعليمات اللازمة عن كيفية تنفيذ هذه المباغتة، وحددت لهم ساعة حركة كل مفرزة من مكانها، وطريقها الى موضعها، كما اني حددت لهم ساعة الشروع، وهي التاسعة تماماً، معتقداً ان الجند الانكليز في مثل هذه الساعة يكون في حالة تناول الويسكي بعد عشائه، وفي سمر ومنادمة. تم كل ذلك دون أن يطلع احد على اخبار هذه المحاولة، وكنا حينئذ في قرية عصيرة. وبعد ان زودت رؤساء هذه المفارز بالتعليمات اللازمة وأرسلتهم، قفلت راجعاً مع الجيش الى قرية ياصيد. وفي ليلة ٢٨–٢٩، وهي ليلة المباغتة، خرجنا من القرية لنزهة حواليها بعد تناول العشاء، بين اشجار الزيتون، وكنا نفحص ساعاتنا دقيقة دقيقة، وكانت الساعة التاسعة الا خمسة، وأخذنا ننصت، وكانت أقل حركة تهيجنا. وأخذ كثير من اخواني في تلك اللحظة علماً بما أعددنا لهذه الليلة. وبعد دقائق اذا بنا بانفجارات متتابعة سريعة من مدافع معسكر نابلس، وكانت المفارز قد شرعت في المباغتة، ومن عظم الانفجارات وكثرة اطلاق المدافع والرشاشات والانوار الكشافة التي تحوم على السفوح المحيطة بنابلس علمنا بأن المباغتة كانت موفقة. وكان منظر الانوار المتصاعدة من وديان نابلس رهيباً للغاية وممتعاً. وقد دامت هذه المباغتة، التي انقلبت فيما بعد الى معركة حامية مع المعسكر الانكليزي، حتى الساعة الحادية عشرة حيث تمكنت مفارزنا من الانسحاب كل الى مركزه المعين، حسب التعليمات المعطاة بسلامة. وبعد انتهاء المباغتة انسحبت مع الجنود من قرية ياصيد الى بيت إمرين. وقد علمت ان المباغتة كانت على غاية مايرام، وان المفارز احتلت مواضعها في الوقت المحدد، وان بنادقنا قاذفات القنابل هي التي افتتحت المباغتة فتبعتها رشاشاتنا المغتنمة من الانكليز ثم عمت النيران الجبهة حتى أصبح المعسكر داخل هلال من نار. وكانت النيران مؤثرة للغاية، اذ كانت الاهداف قريبة وكبيرة، وكانت المفارز كلما اطلقت النيران تترك مواضعها عقب اطلاقها، فتطلق من جديد مواضع جديدة، مما جعل الانكليز يعتقدون ان المباغتين هم الجيش الثائر بكامله، ولكن في الحقيقة لم يكن عدد المباغتين سوى مئة مجاهد. وبالرغم من كثرة النيران التي أطلقها العدو من كافة اسلحة المعسكر، ومن نيران رشاشات الدبابات التي

تقربت من مواضع الثوار كثيراً، كان لهذه المباغتة أثر عظيم على معنويات الجند الانكليزي القادم حديثاً، والذي لم يعرف عن الثورة أكثر مما سمعه من أفواه الضباط. وكانت الاصابات فيهم عديدة لحد كبير وتأثير هذه المباغتة على معنويات الجند لمسناها في معركة اليوم التالي في بيت إمرين.

كان العدو بعد ان تكاملت قواته على أتم استعداد للقيام بحركات واسعة النطاق، ليقضي علينا في مدة لاتتجاوز الاسبوع، كما كان يصرح قواده في كل مناسبة. يدفعه للاسراع في تنفيذ خططه. وكنت قبل تركي عصيرة متوقعاً معركة في اليوم الثاني. وكانت خطة هجوم الانكليز علينا مرتبة بالنسبة الى وجودنا في ياصيد، ولكن انسحابي من ياصيد الى بين إمرين، جعلنا نتحكم على مجرى حركات العدو نحو ياصيد بدون ان يشعر.

وفي صباح ٢٩–٩ أخليت الثكنات والمعسكرات في كافة انحاء فلسطين من الجيش، وأخذت الارتال الطويلة من السيارات تسير نحو المراكز التي خصصت لها، وأخذت الطائرات تحوم فوق ياصيد وجوارها، وظلت ملازمة لهذه المنطقة ولم تنفك عنها حتى الليل. ولم تأزف الساعة العاشرة صباحاً حتى كانت الوحدات الانكليزية محتلة الجبال الجنوب غربية لقرية عصيرة الشمالية، طلوزة، الفارعة، طوباس، جديدة، سيريس، ميثلون، صانور، عنزة، عجة، بحيث يكون تأسس من هذه القرى نطاق على شكل قوس يبتدئ رأسه من جنوبي شرقي مراكزنا حتى الشمال الغربي، وبعد ان ألفوا من سبسطية وبرقة وفندقومية وجبع والسيلة قوساً آخر اصبحنا ضمن دائرة كاملة محيطها أكثر من ٢٥ كيلومتراً. وبعد ان تركوا في هذه القرى قوى يتألف منها النطاق الخارجي، وتربطها السيارات المصفحة، زحفوا بثلاثة ارتال من الشمال والشرق والجنوب مستهدفين قرية ياصيد حيث اعتقدوا بوجودنا فيها. ولما اصبحت مدن فلسطين وقراها على رؤية هذا السيل من السيارات المشحونة بالجنود، قلقت، وزاد في قلقها ما أظهره الحكام السياسيون من الغرور والكبرياء، بقولهم: «انكم اليوم سوف تشاهدون فوزي حيا أو ميتا في أيدينا».
أما نحن فكنا قد وصلنا بيت إمرين منتصف الليل، واتخذنا الترتيبات الضرورية لحراسة المعسكر مستصحبا قواد المفارز، حيث اتخذنا ترتيبات دفاعية على شكل هلال، يستند رأساه على جبال نصف جبيل وسبسطية. وبعد ان احتلت قواتنا

مراكزها التفتّ الى امر الاعاشة، فهيأت لنا قرية بيت امرين وقرية نصف جبيل. ولما ازفت الساعة العاشرة والنصف ولم يبد لنا أية حركة من العدو نستريبها أخذت في سحب القوى من مراكزها متتابعا لتناول الغداء تاركاً في النقاط المهمة من هذه المراكز قوات لا بأس بها.

وكان خط دفاعنا يحتل جبلين يفصلهما وادي بيت امرين، فينحدر شرقاً من ياصيد الى الطريق العام المار بسبطية – بيت امرين. وكانت الجبال ترتفع عن الوادي بحيث يحتاج المرء لقطع المسافة من الوادي الى القمة زهاء اربعين دقيقة.

وما كادت قواتنا تتوسط السفح منحدرة من مراكزها الى القرية لتناول الطعام، حتى سمعنا طلقات متقابلة في مراكزنا التي انسحبت منها أقسام للطعام، وأعقبت هذه مباشرة طلقات الرشاشات والمدافع الجبلية في آن واحد. فأيقنت عندئذ ان قوة كبيرة وصلت خطنا الامامي، والحقيقة انه لم يمض دقائق حتى شاهدنا جنود خطنا الامامي ينسحبون مسرعين الى الوادي. فكان الموقف أشد ما يمكن تصوره من الحراجة، وكان السلاح الوحيد في مثل هذه الساعة الاعتدال ورباطة الجأش، ومن حسن الحظ أني كنت في هذه الدقيقة في جبهة الهجوم.

اخذت النيران تسري وتمتد يمنة ويسرة، حتى اصبحت بعد مرور بضعة دقائق اخرى على طول الخط. وابتدأت بشدة زائدة، ولم تلبث ان خمدت تدريجياً، اذ ان جبهتنا بكاملها كانت منحدرة الى الوادي، وستصبح بعد بضعة دقائق طعمة لنيران رشاشات العدو ومدافعه. وإذا استمرت في الانحدار، ووصلت الى الوادي فهناك القضاء المبرم على قوتنا وعلى الثورة بأسهل ما يكون. وكانت خطورة الموقف ظاهرة، فالتفتّ يمنة ويسرة أصيح محمساً الجنود للعودة وللثبات. وفجأة تقع عيني على قمة صغيرة لم يكن لها أي شأن في نظرنا قبل احتلال الجيش المرتفعات التي كانت في أيدينا، واذا بهذه القمة تكون مفتاح المعركة، وعليها تكبر كل آمالنا. اخذت استنهض الهمم والحماس لاحتلال هذه القمة الواقعة تحت سلطة قمم أعلى منها يحتلها الآن الانكليز برشاشاتهم، ولكن عبثاً حاولت دفع المجاهدين اليها ولما يئست قمت بآخر محاولة مفضلاً الموت على هذه القمة التي تتوقف عليها حياتنا، من الموت في الوادي تحت أقدام الانكليز. فسرت بنفسي متجها نحو القمة، دون

ان ألتفت أو ان أصيح الى أحد . ومن غريب الصدف ان تتجلى قيمة هذه القمة في أعين الخصم كذلك، وتسير وحدة من قواته تحت حماية المدفعية والرشاشات لاحتلالها . وكان ان تبعني في هذه المغامرة بعض المجاهدين، فأخذنا نتقدم بسرعة، وأخذت النيران تمطر هذه الناحية، ولم يكن من المجاهدين بعد أن رأونا على هذه الحالة الا أن ابتدأوا بكاملهم يتقدمون مكبرين نحو القمة حيث نحن. وصلنا قبل العدو، وكانت جنوده تتسلق السفح، فاستقبلهم المجاهدون بنيران حاصدة، فتكت منهم فتكا زائداً. وهنا ينتهي الدور الاول من هذه المعركة وهو دور التقهقر الذي حل بنا، ويبتدئ الآن دور الثبات والمقاومة. فطمأنت نفسي من الموقف الساعة تلك فتركت القمة وعليها فصيلين ورشاشتين وانثنيت الى توزيع بقية المجاهدين وتثبيتهم على خطوط ملائمة شرقي الوادي، فأصبحت جبهتنا في هذه الناحية أمينة أيضاً لا خوف عليها. وأخذت المعركة تدور باحتدام وعنف متزايدين، وتحولت الى تركيز وتثبيت بقية المراكز الواقعة على القمم القريبة من الوادي، فأفرزت من الدروز والفلسطينيين والشوام مفارز، سددت بها الثغرات الواقعة في جوار بيت امرين وسبسطية، بحيث تتحكم على الوادي من طرفيه، ويتعذر معها على العدو النفوذ منها الى ماوراء أجنحتنا. وامتد القتال الى هذه المراكز، ولم يبق الا الجبهة الجنوب شرقية من جبهتنا في حاجة الى ترتيب وتنظيم لدرء احتمال أية محاولة من العدو فيها، وتكون الجبهة هذا قد انقذت بكاملها من الخطر. وبينما كانت الجبهة تدافع بحماس ونشاط ونجاح كانت أرتال اخرى عظيمة من الجيش الانكليزي تتقدم نحو ياصيد القرية التي تركناها، وكانت هذه القرية التي يعتقد الانكليز بوجود أهم قواتنا فيها الهدف الاساسي لارتاله. فأفرزت بدوري مفرزة صغيرة تسير بموازاة الارتال المتجهة نحو ياصيد لمراقبتها. وكان لايزال تحت تصرفي احتياطي قوي، وضعته في سفوح الجبل المقابل للجبهة، تحت أشجار الزيتون، يسترون اخوانهم من الخلف بنيرانهم، وللعمل حين الحاجة، وكان لمواجهتهم هذه أعظم الاثر في صد تقدم الانكليز. اخذ الانكليز الآن يحاولون اختراق الجبهة بهجوم متتابع ولكنهم فشلوا في كل محاولة ، وأخذت الطائرات تحوم، وتشارك المدفعية والرشاشات بقنابلها لحماية هجماتهم.

وكانت المعركة في هذه اللحظة وصلت منتهاها من العنف والشدة، وقد

فشلت محاولات الانكليز جميعها في هجماتهم. وهنا ينتهي الدور الثاني من المعركة وهو دور الثبات والمقاومة والدفاع، ويبدأ فيه الدور الثالث، وهو دور الهجوم المقابل.

وبالرغم من شدة المعركة ومن كثرة الاعداء ومن حراجة الموقف الذي كنا فيه، انتعشت نفوس المجاهدين وامتلأت حماساً وايماناً، وكانت معنوياتهم مجسمة، أكاد ألمسها بيدي، فانتهزت فرصة وجدتها ملائمة للقيام بهجوم. ووجهت مفرزتين من الاحتياط، وبقية ماتمكنت من اقتصاده من الجهات الثانوية، ووجهت احداها باتجاه بيت امرين حيث تفصل الجيش المقاتل أمامنا عن الجيش المرابط في برقة وفندقومية والمفرزة الاخرى باتجاه سبسطية، حيث سيتسلطون على سيارات النقل والمصفحات والدبابات التي تحميها، وهي على الطريق العام. فمرت المفرزة الاولى من قرية بيت امرين، وأثارت في شيوخها ونسائها الحماس. فاصطدمت هذه المفرزة بالوحدات المرابطة، والتي لم تتوقع أي عمل من هذا النوع، فبوغتت وصدت، وتعقبها المجاهدون حتى أوصلوها الطريق العام بجوار قرية برقة. وكانت الساعة الآن وصلت السادسة والنصف، ولكن قوات جديدة من برقة اسرعت الى هذه الناحية فصمدت بوجه الثوار.

أما المفرزة الاخرى فقد تمكنت من مباغتة المفارز الانكليزية المرابطة على مرتفعات سبسطية، وطردتها منها، وأصبحت مسيطرة بنيرانها على القافلة، حيث اخذت تمطرها نيران مؤثرة. وعبثاً حاولت قوات من العدو اخرى بحماية الدبابات استرداد القمم، وأخفقوا وأصيبوا. وأخذت كفة النصر تميل نحونا، وبدأ الانكليز الذين ايقنوا بالفشل ينسحبون. وكانت طائرتان تحومان على الوادي جيئة وذهابا دون أن تشتركا في القتال، حيث كان في احداها الجنرال ديل القائد العام نفسه، الذي حضر ليشاهد كيفية القضاء علينا، ونتيجة حركات جنده المبنية على اقوى وأمتن الخطط الفنية. وأبت الاقدار الا ان تجعله يشاهد في هذه اللحظة انكسار جنوده على طول الخط وانسحابهم مسرعين تحت نيران الثوار. ولم يعد بالامكان ضبط الثوار فانطلقوا في أثر الجيش المثخن يصلونه ناراً حامية، وأخذت الارتال تنسحب الى مراكزها. وكان نصيب المنسحبين على الطرق العامة القتال الذريع

طيلة سيرهم حتى وصولهم الى مراكزهم، وقد تركوا لنا هذا اليوم كثيراً من الغنائم من اسلحة وعتاد وتجهيزات، ولاول مرة يتركون وراءهم جرحاهم وقتلاهم. وكان الليل قد أرخى سدوله حيث كانت الساعة التاسعة.

استدعيت الارتال التي كانت مرابطة في احدى منعطفات الوادي فحضرت، وكان يرافقها السيد بهاء الدين الطباع حيث استلم الآن صحة الثورة وقد كان رئيسا للكشاف المسلم في فلسطين الذي قام هو على تنظيمه وايجاده. وقد حاولنا بعد وصوله تأليف مفارز مستقلة من الكشافة تكون نواة للجيش النظامي الفلسطيني، ولكنا مع الاسف لم نتمكن من ذلك، بسبب اندماج هؤلاء الكشافة مع بقية الثوار في مختلف الميادين، فأرجأنا هذه التشكيلات الى وقت آخر.

وأخذت في جمع الجرحى والشهداء الذين أعاننا أهالي القرى، وخاصة أهالي قرية بيت امرين، في حملهم. كما انني اخذت أجمع المجاهدين كافة في الوادي. وبعد جمع الجرحى واجراء الاسعافات الاولية لهم، ومواراة الشهداء، اخذنا نفكر في ارسال الجرحى الى بعض القرى القريبة للاقضية، لنتمكن من تداويهم وادخالهم المستشفيات بصور شتى. وأرسلنا الجرحى الخطرين الى مستشفيات المدن بمشقة وعناء. وكانت الناحية الصحية، بالرغم من توفر الاسباب الصحية لدينا تماماً، مؤلمة، وذلك لعدم وجود أطباء. وكان السيد خالد القنواتي الصيدلاني يقوم بواجب الطبيب، كما قام بواجب الجهاد، فكان يستعمل المشرط والبندقية في آن واحد ولكن ها هو أصيب بجرح بليغ في صدره. أوليس من العار أن لا يكون لدينا في الجبهة طبيب عربي واحد على الاقل؟ ولقد أتى يوم على جرحانا أن توسلوا لو يقضى عليهم فيموتون تخلصاً من الآلام المبرحة من جراء عدم الاعتناء بجراحاتهم.

تركت وادي بيت امرين ليلاً، عادتي في الانتقال عقب كل معركة، واتجهت صوب جبال بلعا، قاطعاً مايقارب العشرين كيلومتراً حيث وصلتها صباحاً. وكانت وعورة الطريق وعدم النوم ومتاعب المعركة أنهكت قوى المجاهدين، حتى لم يكادوا يطؤون أرض المعسكر حتى ارتموا، وقد اخذهم النوم. وساعات كهذه هي أخطر الساعات في حياة الثورة.

كان تأثير هذه المعركة في نفوس أهالي فلسطين وفي الخارج أعظم من تأثير بقية المعارك. كما انه تسجل لنا نصر آخر أعظم مما نلناه في الانتصارات في المعارك السابقة، لأنا دخلنا هذه المعركة بقوتنا العادية، بينما دخل العدو بكافة قواته التي تتألف من قوات فلسطين السابقة، ومن قوات النجدات التي وصلت أخيراً. فكان انكساره وانتصارنا على اساس هذا التفاوت.

وكان تأثير هذه المعركة في الاقطار العربية لا يقل عظمة عما أحدثه في فلسطين، فقد هاجت سورية وشرقي الاردن والعراق، وأخذت الرسل والكتب ترد عليّ من الاقطار كافة، ويعلمني مرسلوها باستعداد العدد العظيم من المتطوعين للمجيء الى فلسطين لمشاركتنا في جهادنا. وفعلاً أخذ يتسرب الينا من جديد — بالرغم من اننا لم نطلب نجدة — المجاهدون من سورية وشرقي الاردن. أما العراق فقد اصبحت الحالة فيها خطرة جداً، اذ ان الحماس بلغ أشده، كما أن اليهود في العراق أخذوا يتبارون مع العرب بتقديم الاعانات لمجاهدينا بفلسطين، وتنصل الحاخام في العراق من الصهيونية ومن أعمالها في فلسطين، بمنشور اذاعه. كما ان رئيس مجتهدي الشيعة في النجف أصدر منشوراً أعلن فيه الجهاد، فزاد هذا الشعور في الموقف حراجة وخطورة. ولم يكن الجيش العراقي بنجوة من هذا، فقد وصل التأثر والحماس منتهاهما، وتطوع منه المئات لنصرة اخوانهم، وطلب اليّ بإلحاح أن أعمل لنقل هؤلاء الى ميدان القتال، ولنقل ما جمع من السلاح والعتاد كذلك. ولم يكن في الميدان من يستطيع القيام بهذا العبء سوى أخي ظافر فوجهت اليه رسالة وطلبت منه تدبير الوسائل اللازمة، والتوجه بها الى العراق، لحمل المتطوعين والاسلحة، وجلبهم على الطرق التي سبق ان اتبعناها، والتي لم يكشف امرها الى الآن. فتوجه أخي الى عمان والقدس، ثم بغداد، ولكن مع الاسف لم يتمكن الاخوان من تامين الوسائل المطلوبة. أما أنا فكنت في حاجة الى العتاد اكثر من أي شيء، اذ قد نفذ لدينا في معركة بيت امرين، حتى أستطيع القول انه لم يبق عندنا شيء البتة، وكنت في موقف أشد حراجة مما يتصور. ولا يمكن منع المجاهدين الذين يراجعونني، ويلحون بطلب العتاد، من اظهار شكاياتهم التي تنتقل من فم الى آخر، حتى تصل أذن مراكز الاستخبارات الانكليزية. وقد وردت اليّ تقارير من مراكزنا تفيد ان شائعات نفاذ العتاد عندنا وصلت الى مراكز البريطانيين، فكان لابد لي

–حتى نتدارك العتاد – أن الجأ الى حيلة أضلل بها استخبارات العدو.

انتقلت من بلعا الى دير الغصون، وكان في هذه القرية بعض من لهم صلة بالانكليز في طولكرم، فعمدت الى تدبير بعض الاباعير، حيث ارسلتها ليلاً الى قرية كفر راعي، على أن تأتي ثاني يوم بالارزاق، وأرفقت مع هذه جماعة أحدهم يأتي اليّ صباحاً بكتاب كانه يحمله من خارج فلسطين، ينبئني بقدوم قافلة العتاد. وكنت أعددت هذا الكتاب، على أن تأتي القافلة عصر ذاك اليوم، فيتقدمها قسم من الفرسان، يبشرونني بوصول العتاد مظهرين فرجهم وابتهاجهم باطلاق عدة طلقات في الهواء. وهكذا تم لي ، فشاع على الفور وصول العتاد الكثير، وبذا ضللت دائرة الاستخبارات التي تأكدت من وصول العتاد الينا.

وكان امر العتاد في الحقيقة عقدة العقد في الثورة، فلم ندع واسطة الا طرقناها، ولكن الموارد كانت ضئيلة جداً. وقد وصلت رسلنا الى الاناضول والى الكويت والى الخارج، ولكنها لم تات بالثمر المطلوب.

كان في الفشل الذي مُني به الانكليز في بيت امرين الضربة القاضية على آمالهم، ولقد تأكدوا ان القضاء على الثورة امر عسير جداً. وكان لزاماً عليهم ان يلجأوا الى خطة جديدة، فقرروا الدفاع في فلسطين. وظهر هذا في انتخابهم مراكز، يحصنونها ويقيمون فيها حاميات قوية مجهزة باللاسلكي، بجانب القرى الممتدة على طول طريق جنين – نابلس، وعلى طرفي طريق نابلس– طولكرم. ورموا بهذا فصل مناطق الثورة الثلاث عن بعضها، والضغط على القرى المجاورة لنقاطهم، وحصر الثورة.

وكان يصعب على الثوار حقاً العمل ، لقلة وسائل التدمير لديهم، واقتصر عملهم على إشغال الحاميات وتثبيتها في مراكزها. وقد أثرت هذه المراكز الانكليزية على القرى، فخضعت لها القرى المجاورة، وامتنعت عن تقديم المساعدات خوفاً من تدمير الانكليز لها، فاضطررنا الى نشر بلاغات تهديدية لهذه القرى، لكن هذه التدابير كانت لاتكفي. وكان لابد لنا عندئذ من اتخاذ قرار خطير، يلجئ العالمين العربي والاسلامي الى التدخل في أمر فلسطين، وهو القيام بهجوم على بيت المقدس، حيث يقع الانكليز بين امرين: اما مهاجمتنا، في أطراف المسجد الاقصى،

فتقوم قائمة العرب والمسلمين، وإما ان يتجنبوا هذه المجازفة، فنكون قد اتخذنا من القدس مركزاً للثورة.

شغلتني هذه الفكرة، وأخذت أهيء لها، ولم أفاتح احدا من الاخوان بها. وأرسلت الرسل الى المناطق النائية، أطلب حضور قوادها وزعمائها، أسوق فيه الثوار كافة، من الفلسطينيين وغيرهم، الى هذه المغامرة المقدسة. وبعد أن أتممت اعداد ما أحتاجه من الوسائل، فاتحت بعض اخواني الزعماء، واحداً تلو الآخر، فمنهم من استعظم الامر، ومنهم من بهت لهذه المفاجأة، لكنهم أظهروا جميعاً استعدادهم للتضحية. كما انني كتبت تلميحاً الى القدس أطمئن الاخوان فيه عن حالتنا الجيدة وقواتنا وما ننوي القيام به، فاستهولوا الامر، وطلبوا مني التريث، ولكني بقيت على عزمي.

وكان بعض اخواننا قد سئم الحياة المضنية التي نحياها، فاخذوا ينسلون أفراداً وجماعات من الميدان، حتى لم يبق منهم الا القليل. لم يبق من العراقيين، الذين لم يلائمهم الطقس والاكل، الا ما يقارب النصف. فاضطررت الى ادخال مجاهدين فلسطينيين مدربين مكانهم اتماماً للعدد. كما لم يبق من الثوار الشاميين الا القليل، وقد استأذن الشيخ محمد الاشمر بالانسحاب الى شرقي الاردن.

كانت هذه حالتنا ونحن نخطط لمغامرة القدس. لذلك اخذت أجلب عناصر جديدة من الخارج، جلبت مفارز من شرقي الاردن، درزية وأردنية وشامية. وتلافينا النقص ما أمكن ، لكن النقص الاهم كان في العتاد.

كانت القرى تحتفل بنا بحماسة، وتقدم لنا الاعاشة بسخاء. وكنا مرة في قرية الطيبة نلبي دعوة العشاء عند عارف عبد الرازق ليلة ٧–٨/١٠/١٩٣٦، تركنا القرية قبل طلوع الفجر متجهين الى كفرلاها، وكان المعسكر في كفرصور. تسرب الخبر، مع الاسف، الى المراكز الانكليزية، وفي الساعة العاشرة من نهار ٨/١٠ كان رتلان من الدبابات يتقدمان نحو كفر صور، كل رتل مؤلف من خمس دبابات. وكانت سرايانا تحرس وادي الطيبة الذي تتقدم فيه الدبابات، ووادي البراق الذي يقع في نهاية الطريق العام بين قلقيلية وطولكرم. أنذر خفراء السرايا المراكز الخلفية، فاخبرتنا هذه بأمر الدبابات، فأرسلنا حالا تقوية للسرايا. أطلقت الدبابات، بعد أن

أحست بوجود رجالنا طلقات الرشاشات، وفوجئت عندما لم يتحرك أحد من مكانه أو ينسحب، بل أخذ الثوار يطلقون النيران عليها. وكانت السرايا في الحقيقة منظمة على شكل يحيط بالواديين. أعجبني الموقف، لصرفنا العتاد بدون ثمرة، من جهة ، ولخوفي من ظهور قوات انكليزية من احد أطراف المعسكر تفاجئنا ونحن مشغولون بالدبابات، من جهة أخرى. فأمرت المفارز بالدفاع وانتظار التعليمات، واتجهت بما لديّ من قوة لرصد وسد الوديان، والطرق المؤدية الى معسكرنا من الغرب، فلم نتبين احداً. فعمدت الى تجربة خطيرة، أختبر فيها صمود رجالنا وقدرتهم على قتال الدبابات، فأرسلت مفارز مختلطة من الفلسطينيين والعراقيين والدروز والشاميين يقدر عددهم بستين، الى القمم المشرفة على الوادي. وانحدرت هذه المفارز من جهات مختلفة صوب الدبابات، التي بهت رجالها، فأخذوا يطلقون النار بدون وعي، بينما ينقض الثوار على الدبابات كالنسور، فتعطل بعضها وقتل من فيها، وظل بعضها الآخر قابعاً في مكانه. ووصلت الطائرات لنجدة الدبابات فرمتها مفارزنا. ثم عادت المفارز الى مراكزنا في التاسعة ليلاً، بعد أن خاضت معركة من أعظم المعارك ونالت أعظم نصر، ارتفعت بعده معنويات الثوار حتى اصبحوا يسخرون من الدبابة بعد أن كانت البعبع الذي يبعث الموت. وهذا ما أيده مخبر جريدة «الديلي تلغراف» في وصفه للمعركة كما أخذه من أفواه ضباط الدبابات انفسهم.

أخذت ترد اليّ أخبار عن استعداد الانكليز لمعركة فاصلة يخوضونها غداً، ولم يكن لدينا متسع من الوقت للاعداد، فسحبت المعسكر بكامله من كفرصور الى شرقي كفرعبوش. ولما درست الخريطة تبين لي أننا في منطقة يسهل على الانكليز فيها احاطتنا من جهاتها الاربع. وكانت جبال دير بلوط خطوط الرجعة الوحيدة لنا اذا حوصرنا، لذا كان لابد من القيام باستعدادات جبارة الليلة لاحباط حركات العدو في الغد، برغم تعبنا اليوم. أقمت نقاطا استنادية بعيدة عن خط الدفاع الاصلي لتلجئ العدو الى التوقف والانفتاح، وكانت النقاط ثلاثاً على شكل مثلث، رأسه الشمالي بقيادة عبد الرحيم. وأرسلت مفرزة قوية معها بندقية قاذفة للقنابل لمهاجمة نقطة اكتابة العسكرية التي أنشأها الانكليز، وهي تبعد عن مراكزنا اثني عشر كيلومتراً، وكان هدفي من ذلك دفع العدو لافراز قوات من مجموعه

وارسالها لحماية هذه النقطة. وعزمت على تخريب الطريق بين نابلس – عزون، لأعزل القوات البريطانية قبل وصولها أمام خط دفاعنا، ويسهل عندئذ دخول المعركة والانقضاض على النقاط الضعيفة. خصصت مجموعة من القرى الشرقية لتخريب الطريق شرقي نابلس – جنين باشراف المجاهد سعيد طوقان، وخصصت مجموعة من القرى الغربية لتخريب طريق عزون باشراف مختار جيوسي. ولم ينبثق فجر ٩-١٠-١٩٣٦ حتى كانت الطرق مخربة بشدة،وكانت مفارزنا تحتل نقاطها الاستنادية، وقامت مفرزة اكتابة بواجبها خير قيام. وبينما كنت أوزع قواتنا ظهرت فجأة طائرات العدو والشمس لم تشرق بعد. ثم وصلني خبر استشهاد سعيد العاص فتأثرت كثيراً.

تمت ترتيباتنا على مايرام، وأخذت انتظر وصول قوات العدو باطمئنان وثقة وتوكل. وطلعت علينا أول أشباح العدو من جهة الشمال الغربي آتية من اتجاه الطيبة، وكان رتلا من عدة أفواج تقدم حتى جدار قرية كفرصور، ووقف هناك يحكم مدافعه في انتظار وصول بقية الارتال، دون أن يدري بما أعددناه من عوائق.

ازداد نشاط الطائرات فوق مواقعنا، وبدأ الرتل الشمالي يحتل مواقعه ويقوي تحكيمها فاتم ذلك في العاشرة صباحاً. ولكن الرتلين الجنوبي الشرقي والجنوبي الغربي صرفا جهودهما في ازالة العوائق من طريقهما، فأخذت مفارزنا تهاجمهما من الخلف. ففوجئا بالهجوم ووقع الانكليز في حيرة. وبعد معركة استمرت حتى الواحدة بعد الظهر انسحبت مفارزنا، وتعقبها العدو، وخلا الميدان الا من الرتل الغربي المتمركز امام كفرصور. وكان الخوف مسيطراً عليه، فلم ينجد الرتل الشمالي، ولم يجسر على التحرش بخطوطنا الامامية علي الرغم من انها لا تبعد عنها أكثر من ٦٠٠ متراً، وأدرك هذا الرتل انفراده في الميدان، فأخذ ينسحب تدريجيا نحو الغرب. وبهذا تكون آمال العدو قد ضاعت سدى لآخر مرة، وانهزم شر هزيمة، دون أن يكلفنا كثيراً، وأيقنت ان العدو لن يقوم بمهاجمتنا بعد اليوم وسيلتزم خطة الدفاع. وأيقنت أيضاً ان الميدان أصبح فسيحا أمامنا للعمل، فأخذت أجمع القنابل وصناديق الديناميت وأحضر من المدن ما يلزم من أدوات التخريب

والبنائين، لنقوم بتخريب الجسور والطرق والسكك الحديدية والانابيب دفعة واحدة وفي ليلة واحدة، فنقطع أوصال الجيش الانكليزي ثم نقوم بهجوم عام على مستعمرات اليهود فأدمرها، وبهذه الطريقة فقط تحل القضية الصهيونية ويعرف اليهود والانكليز ان بلاد العرب لن تكون وطناً للصهيونية قط. وكانت الخطة تبدو لي ناجحة. وتمكنا بعد مدة قليلة من جمع ٥٢ صندوقاً من الديناميت و٩٤ قنبلة مختلفة وعدداً من الالغام، وتم توزيع هذه في النقاط القريبة من محل استعمالها.

وكنا في أواسط تشرين الاول، وأصبح الطقس بارداً، خاصة في الليل وعلى رؤوس الجبال. وكنا فرحين بقدوم الشتاء، فالمطر يعيق حركة الجيش البريطاني وآلياته الا على الطرقات المعبدة، حيث أعددنا الوسائل اللازمة لتخريبها، ونسف الجسور. وأخذنا جميعاً نشعر بأن الظروف بدأت تميل الى جانبنا.

* * *

بدأت اللجان تستشيرني في امكان فك الاضراب مع بقاء الثورة، فأبنت لهم أن حل الاضراب لا يؤثر على حركاتنا قط، بل هو في صالحنا، وذلك لان الفلاحين سيلتفتون الى الزيتون والبرتقال، وهما موردا البلاد الحيويان. فننقذ البلاد من الخسارة، ونؤمن بذلك احتياجات الثورة. كما ان أموال الاعانات التي تبذل لمساعدة القرويين تقطع عنهم وتحول الى تغذية الثورة اذا فك الاضراب. ومن الوجهة الحربية يضطر الجيش الانكليزي لارفاق القوافل بسيارات مسلحة وقوات يعززها خصيصا، واقامة نقاط عديدة على طول الطرق، مما يؤدي الى تجزئة قواه، وان لم يفعل ترك القوافل تحت رحمتنا نحرسها بشرط استيفاء ضريبة منها، تكون مورداً جديداً لنا كما فعلنا في الثورة السورية.

لا ضرر إذاً من فك الاضراب، لكن المحذور الوحيد هو سريان روح المسالمة. لهذا اقترحت ان يكون في كل منطقة من مناطق الثورة ثوار تدفع لهم رواتب، الى جانبهم عدد من الاحتياطيين يعملون في قراهم ويستبدل القسم العامل كل خمسة عشر يوماً، فيعود الى عمله وهكذا دواليك، واذا مست الحاجة حمل الاحتياطي سلاحه وانضم الى الثورة. وكان يكفينا ٣٠٠ مقاتل برواتب و٣٠٠ احتياطي.

ولقد استغرقت دراسة هذه المقترحات مدة طويلة.

* * *

اخذت اللجنة العليا تسمعني، بإبهام، عن امكان عقد هدنة مع الانكليز، وكنا لانكره الهدنة، ولكن في موقف كموقفنا، وبعدما بذلنا مابذلنا، يجب ان يكون للهدنة شروط تضمن اولاً كرامتنا ثم سلامتنا وسلامة مناطقنا. واستمرت هذه النغمة المبهمة حتى فوجئنا باعلان الهدنة من قبل الانكليز، وبنداء ملوك العرب على لساني بالراديو دون ان يكون لي سابق اطلاع، وهذه اول خطيئة كبرى ارتكبت منذ اعلان الثورة. فقد كنت انتقلت بالجيش بعد معركة كفرعبوش ليلة ١١-١٠-١٩٣٦ شمالاً، ومررت بالقرى نهاراً، فاستقبلنا بحفاوة وعطف منقطعي النظير، وأخبرنا الاهالي بخوف الانكليز وقلقهم، وتغير معاملتهم لابناء القرى عند دخولها، فبعد ان كانوا يهينونهم في السابق ويسرقونهم، صاروا يحسنون المعاملة ويدفعون أثمان ما يأخذون.

كنت أقصد بلعا، وكان علينا ان نتخطى طريق طولكرم - عنبتا المحصن المحروس جيداً. فأرسلت مفرزة تشاغل بعض النقاط البعيدة عن خط سيرنا، وقطعت الطريق بجانب بيت ليد الى عنبتا، حيث استقبلنا الاهالي بإكرام لا مزيد عليه، دون أن يأبهوا بالجيش الانكليزي، وكانوا من قبل لا يجرؤون على ذلك وقد شارك مجاهدو هذه القرية في معركة بلعا الاولى مشاركة تذكر لهم. وقبل طلوع الشمس وصلنا جبال بلعا واتخذنا ترتيباتنا فيها كالمعتاد، وبينما كنت أفتش مراكزنا اذا بنيران غزيرة تنطلق من جهة الشمال ثم عمت الشرق والغرب وكافة القرى، فدهشت، لكن أهازيج النساء طمأنتني. ثم علمنا ان الانكليز اعلنوا الهدنة، كما ان اللجنة العربية أعلنت فك الاضراب. فزادت دهشتي لاقدام اللجنة على ذلك بدون اطلاعي وأخذ رأيي، ولكني قلت في نفسي: «لاشك ان الاخوان أخذوا عهوداً تضمن لهم حقهم، فلم يروا داعيا لاطلاعي».

وكان الانكليز قد اعلنوا الهدنة بعد ان يئسوا من القضاء علينا وخشوا سريان الثورة الى شرقي الاردن، وخافوا من التأييد العربي الحماسي لها في الاقطار العربية وهم لم يكسبوا الى يومنا هذا حتى ولا معركة واحدة. فتلافيا لما قد يحدث من

المشاكل أوعزوا الى سفرائهم في بغداد وجدة يطلبون توسط ملوك العرب، وكانوا بالامس رفضوا وساطة نوري باشا السعيد . فالثورة أليوم منتصرة، ويحق لفلسطين ان تجعل يوم ١١–١٠ عيداً وطنياً .

اليوم تنتقل المسؤولية المادية والمعنوية من ميدان الثورة الى ميدان السياسة، وأصبح الموقف اليوم ملائماً لحل القضية، وما على الرجال المسؤولين الا أن يشمروا عن سواعدهم لنيل الحقوق كاملة . ان هذا اليوم عظيم حفظ كرامة العرب، وأثبت الحيوية الكامنة في نفوس هذا الشعب النبيل، وإن هذا الشعب لايحتاج الا الى قائد أو زعيم يعرف كيف يستثمر مزاياه، فلا تهان له كرامة، أو يضيع له حق . والموازنة بين ما كنا عليه من قلة وحرمان في العتاد والوسائل المادية وبين ماكان يملكه عدونا تدفع الى تمجيد هذا اليوم واعتباره عيداً للعرب كافة . فلو قص ما وقع على معظم قواد العالم وأقدر الاخصائيين العسكريين أو على المغامرين وقيل لهم أن العرب تمكنوا مع هذه الوسائل الضعيفة وتحت هذه الشروط القاسية من التغلب على الانكليز حتى جعلوهم يطلبون الهدنة، وان كل ما صرفه الثوار في جميع المعارك من العتاد لايساوي ما صرفه الانكليز في معركة واحدة معنا، وان جميع خسائر الثوار خلال الثورة في الانفس لا تكاد تعادل خسارة العرب في مظاهرة سياسية واحدة لما صدق احد، حتى الجنرال ديل نفسه الذي بنى خطط قتاله على عملية حسابية كما أعلن فلم يصدق حدسه وحسابه .

* * *

تركت بلعا وتوجهت الى علار مساء ، امعانا في الحذر وخوفاً من خدعة، واستقبلنا الاهالي بالمشاعل والزغاريد واطلاق الرصاص، وبالاكرام . وخشيت تسرب الفوضى الى الجيش فسحبته ليلاً الى قرية صيدا واتخذت التدابير اللازمة لحفظ سلامته .

أخذت وفود المدن والقرى تتوافد علينا صباح ١٥–١٠–١٩٣٦ مهنئة بالفوز، حاملة بيانات اللجنة العربية العليا . وحدثتني الوفود عن الفرح الذي عم معسكرات الانكليز ابتهاجا بالهدنة، وكيف ان جنودهم تلقفوا صوري من الباعة وطافوا بها على العرب في الشوارع . وكان هذا الابتهاج الذي عم الانكليز في

فلسطين وفي لندن دليلاً قاطعاً على عظمة النصر الذي أحرزناه، كما قالت وكالة رويتر .

وعلى الاثر أذعت بيانا لميادين الثورة في فلسطين معلنا فيه الهدنة، طالباً من كل مجاهد الاحتفاظ بسلاحه وعتاده والهدوء والسكينة انتظاراً لنتيجة المفاوضات السياسية .

وقد اجتمعت في اليوم التالي مع احد اخواني الذين لهم علاقة رسمية بالاوساط العسكرية الانكليزية وأخبرته انني لن أتحرش أو أتصدى مالم يحصل تعدّ من الانكليز . وان مرور الطائرات فوق منطقة عيَّنتها له، ووصول الجند أو الدبابات الى حدود هذه المنطقة أعتبره تعدّياً سأقابله بالمثل . وأتاني الجواب بأنهم سيحافظون على خطتهم في الدفاع وأنهم لن يخرقوا النطاق الذي حددته .

* * *

وكان من حقنا نحن أيضاً أن نظهر ابتهاجنا بما نلناه من نصر، فاستدعيت قواد المناطق والقوات لنقوم باستعراض عام في ميدان صيدا ، وتنظمت القوات على الترتيب التالي :

المفرزة العراقية في الصف الاول بقيادة السيد جاسم، فالمفرزة الدرزية (لبنان وجبل الدروز وشرقي الاردن) بقيادة حمد صعب، ثم مفرزة دمشق مع بدو حوران وشرقي الاردن بقيادة أبي أنور وبشير الزعيم . فالقوات الفلسطينية للمنطقة الشمالية بقيادة فخري عبد الهادي، والقوات الفلسطينية للمنطقة الجنوبية بقيادة عبد الرحيم أبو كمال وعارف عبد الرازق . ثم قوات المناطق الشمالية بقيادة الشيخ فرحان والشيخ عطية والشيخ أبي ابراهيم .

كان العرض على غاية من النظام، والجماهير تملأ الميدان، وقد استعرضت الوحدات التي تتقدمها أعلامها، وقدمت الجوائز للممتازين في كل مفرزة .

عم الابتهاج البلاد كلها، وأخذت الوفود ترد من كل الانحاء مهنئة . وقدم مراسلو الصحف لاخذ الاحاديث منا، ومعظمهم للاسف اجانب . وأخذت الجرائد تنشر المقالات الافتتاحية تطربني وتمجد أعمالي . وكنا نعيش لحظات تاريخية

مخلدة بالفخار والمجد والانتصار.

* * *

كنت حريصا جداً لمعرفة حقيقة مايدور في خلد الانكليز، ولم أجد مايثير الريبة، وبرغم هذا كان لابد من الحيطة والبقاء على أهبة الاستعداد، فنظمت مستودعات الاعاشة من جديد، ومواقع الدفاع، ورجال القرى الاحتياطيين، والتجهيزات الشتوية اللازمة. واتصلت باللجان، فوجدت من الجميع استعدادا عظيما لتقديم ما يلزم.

وقد أثرت كثرة الاختلاط فيما بعد بين الوفود والمجاهدين في الانضباط والنظام في المعسكر، وأخذت الامور تتطور الى حد لا يخلو من الخطورة، فوجدت نفسي من جديد أمام مشكلات داخلية يجب التغلب عليها. وفي رأيي ان أعظم ما يجابه قائد ثورة هي المشكلات الداخلية، التي تتضاءل أمام خطورتها المعارك الحربية. ومن أمثلة ما عانيت من مشكلات انني منذ اللحظة الاولى للثورة وجدت نفسي أمام زعامة دينية وعسكرية تطلب مني مماشاتها في كل ماتراه، وكانت هذه الزعامة مجسدة في الاخ الشيخ محمد الاشمر. ولم يكن من الممكن معالجة هذه المشكلة الا بالحكمة وسعة الصدر. ولم أكد أفرغ من هذه المشكلة حتى جابهتني مشكلات أخرى، أبرزها شكايات أهالي القرى من اللجان، التي تصرف الاموال، حسب قولهم في غير مواضعها، فهم يضطرون الى ابتياع السلاح من أموالهم الخاصة، ثم يقدمون فوق ذلك الاعاشة، وكانوا يتذمرون من المخاتير، وبعض الزعماء الذين يأخذون الاموال ويصرفونها على رجالهم. وكانت هذه المشكلات تتطور احيانا الى خصومات شديدة، تصل الى حد الانسحاب من الميدان، أو استعمال السلاح، وكانت هذه المشكلات تؤخر أعمالنا، وتصرفنا عن كثير من المهمات.

أما المشكلات بين المجاهدين فكانت فوق كل مشكلة، وأول مشكلة صادفتني عصيان المفرزة العراقية بسبب الرواتب، واضطررت الى الحزم والحيلة لاقمع العصيان وأنهيه. وقد تكرر العصيان أكثر من عشرين مرة حتى نهاية الثورة، بأنواع مختلفة، وفي مناسبات مختلفة. كما كانت تقع اخلالات اخرى بين الحماصنة والشوام، تصل احيانا الى استعمال السلاح. وأخطر من ذلك كله اختلاف مجاهدين من

مفرزتين فتهرع كل مفرزة لنصرة رجلها دون أن تعلم السبب. وكانت كل حادثة من هذه الحوادث من الخطورة بحيث تكفي للقضاء على الثورة تماماً، لكن الحكمة أحيانا، أو الحزم أحيانا أخرى كان ينهيها بخير.

ومن المشكلات الداخلية ماكان يدلي به بعض الزعماء من آراء وخطط، يطلبون تنفيذها بإصرار، فكنت أسعى الى اقناعهم ما أمكن. ولقد سرّحت كثيراً من العناصر المشاغبة. وكان بعض الافراد القلائل قد اتصلوا برجال الاستخبارات في فلسطين، أو رجال الاستخبارات الفرنسيين في درعا. وكنت أشعر مع هذه المشكلات أن الثورة وصلت الى نهايتها. وقد حدث يوما انني اصبحت ولم أجد أثرا لمفرزتي حمص وحماة فقد انسحبتا، وعوضت عنهما بتشكيلات أخرى. واعترف ان المفرزة الدرزية اللبنانية كانت نموذجا عظيما للمجاهدين، في تحملهم وصبرهم وقلة مشاكلهم، وكان قائدها حمد بك صعب مثال النخوة والاقدام. كما أذكر باعجاب الاخ فخري عبد الهادي، اول من أطلق بندقية في سماء فلسطين، وأعظم الزعماء الفلسطينيين تأثيراً، عمل دون كلل أو ملل ليلا ونهارا لتأمين حاجاتنا، ولم يتركنا ساعة.

والخلاصة انني كنت أشعر أن أقل ساعات الثورة عناء وأكثرها راحة هي ساعات القتال.

* * *

كان سيل الوفود لا يزال يتدفق علينا من القرى والمدن الفسطينية، وكلهم يظهر اعجابه وتقديره وحفاوته، يلح في قبول دعوته في قريته، وكانت الاسئلة تنصب على رأيي وما أنوي عمله بعد الهدنة. وقد سمعت خلال الاحاديث، ولاول مرة، من احد أعضاء لجنة طولكرم ويافا سؤالا عن رأيي في الانسحاب الى شرقي الاردن، فاستغربت فكرة الانسحاب، وأجبته ان انسحابنا يترك المجال حرا للانكليز، ويجعل العودة صعبة. ولم أكن أعلم ساعتها ان السؤال مقدمة لتكليف من المسؤولين يرونه ضروريا. وقمنا بزيارة بعض القرى استجابة لالحاح أهلها فاحتفلوا بنا احتفالا عظيما يعبر عن درجة وطنية القرويين، واخلاصهم للثورة.

ثم كلفت بالاجتماع ببعض الاخوان المسؤولين في قرية كفر راعي، وبعد

مباحثات مختلفة سألني احدهم عن رأيي في الانسحاب، وكان معنا فخري عبد الهادي وحمد صعب والسيد جاسم وبعض المجاهدين، فأجبتهم: «ان الانسحاب مضر، سيقود الى تشتت المجاهدين، ثم انني لا ارى مايستوجب الانسحاب». فأخذ السائل يهوّن عليّ الامر، ويقول ان هذه هي رغبة الجميع، وان الانكليز يعتبرون وجودي استفزازا لهم. عندها طلبت منهم أن يعطوني وثيقة رسمية من المسؤولين في القدس تبين ان الانسحاب بطلب منهم، وأنني قمت بالواجب وأنهيت مهمتي. وقد ذهب احدهم الى القدس وعاد في ١٧-١٠-١٩٣٦ برسالة يقول فيها انهم أقروا جميع ما طلبت، وهم يتعهدون بكل ما نحتاجه للانسحاب والى ما بعده، أما الكتاب فهم يرون أن لا يمكن تقديمه الآن، وقد يجوز ذلك بعد حين.

اخذت أهيء عملية الانسحاب بترو، وسرّية، لأن أمر الانسحاب امر شاق، قد يستغل العدو فيه الفرصة، فيبطش بنا. لكن خبر انسحابنا تسرب، وبدأت القرى ترسل الرسائل والوفود تطلب منا عدم الانسحاب، وهذا جعل الانسحاب محفوفا بالاخطار والمشاكل. أمنت أولا انسحاب الجرحى والمرضى بصورة افرادية، ثم أودعنا حاجاتنا الزائدة في مستودعات أمينة في الجبال. واستدعيت اخي ظافر من دمشق ليهيء لنا ما يلزمنا للانسحاب، وينتقي لنا مكانا امينا في شرق الاردن ويدرس المعابر والطرق إليه.

أخذت، مع شيوع أمر الانسحاب، علائم الفوضى تظهر في معسكرنا، وأطلت عناصر الفساد من جديد، تشجع التمرد والعصيان، ولكنا تغلبنا على الفتن بالتهديد والوعد والوعيد. وبينما كنت على وشك ترك المنطقة واذ بعبد الله سمارة، وهو مندوب اللجنة، يأتيني مستغربا الانسحاب فكان استغرابي أشد. وأخبرته بقصة اللجنة وطلب الانسحاب، فافتعل الاستغراب، وأخبرني ان اللجنة ترغب في عدم انسحابي ولكنها تترك الامر لي. فقلت: «ان كل شيء قد أعد، ولا يمكنني التراجع عن الانسحاب».

وقررت ان يكون انسحابي بقوة مختلطة، أدخل فيها عناصر فلسطينية قوية على رأسها بعض الزعماء. كما اني تركت السيد عبد الرحيم أبو كمال وكيلا عني

في فلسطين، بمهمة ربط الثوار بعضهم ببعض، وتأمين احتياجاتهم بواسطة اللجان، وللمحافظة على اسلحتهم وعتادهم، وحمل اللجان ان أمكن، على شرائها من الثوار وإيداعها في القرى لحين الحاجة، خوفاً من تسرب هذه الاسلحة الى اليهود. وتقرر ان يكون معي من الزعماء فخري عبد الهادي وعارف عبد الرازق والشيخ فرحان الذي استأذن بالذهاب الى بلدته على ان يعود في ٢٢ في قباطية حيث أكون فيه.

وفي ٢٠-١٠-١٩٣٦ تركنا النزلة الشرقية منسحبين شرقا الى كفر راعي، ثم صانور الى أن وصلنا قباطية. وكان أهالي القرى يستقبلوننا استقبالاً حافلاً رائعا، وكنت ازاء هذه الاحاسيس أشعر انني اصبحت في نظر الفلسطينيين أمانا وضمانة للنصر، وأصبحت كلمتي هي الكلمة الوحيدة النافذة، وشعرت بمسؤولية كبرى تجاه كل هذا، ووجدت في الانسحاب كسرا وتحطيما لهذا الشعور العام. ولقد جاءتني الوفود من كل صوب من أعيان البلاد وأشرافها ومن صحافييها أيضا وفريق من الشبيبة ووجهاء القرى حتى كانت قباطية تغص وتعج بهؤلاء، وكان محور احاديثهم يدور على ما يشعرون به من الاعجاب والتقدير. وكانوا يحملون اليّ الجرائد الطافحة بالمقالات الفياضة بالشعور بعناوين ضخمة أمثال: «أمة تودعك. الرجل العظيم». وكانت الصحف الاجنبية نشرت الكثير عن أعمالي في فلسطين: ومما نشرته جريدة «الديلي هرالد» تحت عنوان «هل يستعد القاوقجي للعودة للقتال» بتاريخ (١٢ شعبان معرباً في جريدة «الايام») وجاء فيه «ان استلام القاوقجي لادارة الثورة هي التي مددت أجلها وأثارت كثيرا من المتاعب في وجه انكلترة... واذا توقفت الثورة الآن فان وجود فوزي القاوقجي في فلسطين وحده لايضع حدا نهائيا للثورة ولا بد أن يعود القاوقجي الى القتال اذا لم تحقق مطالب العرب».

لكنني كنت أنتظر بفارغ الصبر ثلاثة اشخاص أولهم أخي ظافر الذي يتوقف على مجيئه أمر انسحابنا، والثاني رسول القدس، والثالث الشيخ فرحان. أما الثاني والثالث فلم يأتيا، ولا أدري سببا لتخلفهما، أما أخي فقد كاد الانكليز يقبضون عليه وهو قادم من الاردن الى فلسطين على جسر الحسين. ولولا الحيلة ومساعدة شرطي عربي لما نجا، وقد أخبره الشرطي بأن القوات الانكليزية تتجه لتطويق قباطية.

كان المعسكر تتحكم فيه الفوضى لكثرة الوفود، وكنت أشعر بقلق داخلي لا أدري سببه. ثم جاء رئيس لجنة جنين لمقابلتي، فخرجت معه الى مكان بعيد هادئ، وفهمت من حديثه ان امر انسحابنا وصل الى الانكليز، وعرفوا مكاننا. وبينما كنا في حديثنا رأيت سيارات كثيرة قادمة، ظننتها سيارات الوفود العربية، ثم تبين لي انها قوات انكليزية أحكمت تطويقنا، فأسرعت بجمع الجنود وأرسلت دوريات الاستطلاع للتفتيش على منفذ في هذا الطوق يمكننا من النجاة. وعمت الفوضى وكثرت الآراء والمقترحات، ولم يقض على ذلك سوى الحزم والثبات الذي أظهرته، وأظهره فخري عبد الهادي. فانصاعوا جميعاً لاوامري.

علمت من دوريات الاستطلاع ان خير منفذ من نقطة على بعد مائتي متر من قباطية، واذا مررنا منها بسلام صرنا وراء العدو، وسيطرنا على ظهره من مسافة قريبة. وكان قراري خطيراً، يتوقف نجاحه على الاتقان في تنفيذ الخطة، فأصدرت أوامر قاسية وتعليمات مشددة يجب تنفيذها بالحرف. وهكذا نجحت الخطة وانسللنا مجموعة وراء مجموعة، بدون صوت ينبه العدو، نكمن عند مرور الدبابة، لنمر بعد ذلك مستغلين الزمن والمسافة بين دبابة وأخرى. وراودتني نفسي بعد ان اصبحت خارج النطاق، وأصبح العدو تحت رحمة نيراننا، أن أنقض عليه بهجمة مفاجئة تذهب عقله. لكن منعني أن الملوك طلبوا ايقاف الثورة، وخوفي أمام مقدرة الانكليز في الدعاية والتضليل، من عدم تمكني من اثبات اعتدائهم، وغدرهم. واكتفيت بتركهم يلقون غداً فشلاً وخيبة أمل.

وانسحبنا الى قرية رابا، حيث وصلناها بعد منتصف الليل، وتكاملت جموعنا بدون نقص على الاطلاق وكنت قد ادخرت فيها ما أحتاجه من الاعاشة. وقد حضر أخي ظافر، وأخبرني بقصته. كما أخذت ترد بعض الشخصيات لتهنئتي بالسلامة.

وفي صباح ٢٣، وبعد أن أعددنا ترتيباتنا الدفاعية، كنت أجلس على رأس قمة تشرف على قباطية وأشاهد طائرات العدو على ارتفاع منخفض فوق قباطية، وأشاهد الجنود يتقدمون، ثم ارى خيبتهم اذ لم يجدوا ثائرا. وكان امر هذه الخديعة قد شاع في أنحاء فلسطين، فقامت وقعدت لهذا، وهرع الكثيرون

بأسلحتهم لنجدتنا، وقد عم الابتهاج بعد ذلك حين وصلت أخبار نجاتنا.

وكنت ارسلت رسلا الى بعض شيوخ القبائل الساكنة على ضفتي نهر الاردن باتجاه مكان عبورنا ليرسلوا رجالهم فيرابطوا على الطريق المقرر سلوكه، ويستعد آخرون لمشاركتنا عند اللزوم. وقد أتممت ترتيباتي للعبور الى اراضي الشيخ نمر العرسان يوم ٢٤-١٠-١٩٣٦ من اراضي وادي شوباش، وأرسلت مفرزة صغيرة للتأكد من الطريق. وكان وضعنا في قرية رابا سيئا لفقدان المياه فيها. وانني أذكر جهود آل رشيد وأهالي قرية طوباس بإجلال وتقدير.

أكملت الترتيبات، وجاءتني رسل الاستطلاع عصر ٢٤-١٠ تخبرني بخلو الطريق، فتركنا رابا مساء في رتلين متوازيين نحو قرية بردله الواقعة على منفرج وادي شوباش، فوصلناها في الحادية عشر مساء، ووجدت الامير محمد الصالح والشيخ نمر ورجالهما حسب الاتفاق. لكن الانكليز علموا على ما يظهر بنوايانا، فأرادوا ان يجربوا حظهم معنا لآخر مرة، فاقاموا مساء سدا من بيسان شمالا الى أريحا جنوبا. ويظهر ان استطلاعنا لم يحس بهم، لذلك فوجيء رتلنا الجنوبي بهم وجها لوجه، وتبادلوا معهم إطلاق النار، وعادوا إلى بردله حيث كنا، فأرسلت مفرزة لتعيق الإنكليز إن حاولوا اللحاق بنا، وتظاهرت أمام القرية بأني عازم على العبور الليلة من نقطة أخرى جنوبا. واتجهت فعلا جنوبا، وبعد مسير ساعة عطفت نحو الغرب، الى قمم خرائب جباريس وهي لا تبعد فعلا أكثر من ٦٠٠ متر عن بردله. وكنت في الخربة، وأخفيت الاثقال والحيوانات بين الاشجار الكثيفة، ولم يبزغ فجر ٢٥-١٠ حتى كنت أتممت استعدادي لدفاع مستميت أمام أي جيش مهما تبلغ قوته. ومع طلوع الشمس طلعت الطائرات تبحث عنا، وتدفقت سيول السيارات من الشمال الى الجنوب وبالعكس، واحتل الجند الطرق والمعابر والقمم، وتقدموا الى قرية بردله، وجمعوا أهلها، وأخذوا يستجوبونهم. وبعد التحقيقات الدقيقة يئسوا، وأدركوا اننا أتممنا العبور، فانسحبوا فاشلين، وانفتح الطريق أمامنا.
وكنت أثناء ذلك كله أرصدهم من بعيد بمنظاري، وأرى الفرصة سانحة للفتك بهم لولا أن كثيرا من معداتنا بعيدة عنا، ثم ان الجند متعبون. وكان الظمأ قد استبد بنا لولا شهامة أهالي طوباس الذين بذلوا رجالا ونساء وأطفالا في ارواء الجند ونقل

الماء اليها .

وكان يوم ٢٥ يوما مشهوداً في فلسطين، حيث قامت قيامة الناس، وأمطروا المندوب السامي ببرقيات الاحتجاج، وأرسلت اللجنة العليا وفوداً اليه لاستنكار أعمال الانكليز، وتدفق الناس بالسيارات مسلحين لمساعدتنا . وقد أثبتت فلسطين في هذا اليوم حيويتها، وبرهنت أن في البلاد شعبا لن يموت . وكان تجمع الاهالي في قرية رابا صباح ٢٦ حيث كنا عبرنا ليلة ٢٦ الى الاردن بأمان .

وأرى لزاما عليّ أن أذكر القرى التي يجب تسجيل اسمائها بافتخار، وهي بعلا، علار ، صيدا، بيت امرين، عصيرة، برقه، السيلة، صانور، قباطية، نصف جبيل، شوفة، كفر صور، كفر عبوش، النزلة الشرقية ، قفين. وهذه القرية الاخيرة تحملت منا ما لم تتحمله بلدة أخرى وان هناك قرى لا تقل عن هذه القرى حمية وشهامة . ومن الزعماء الذين برزوا فخري عبد الهادي والسيد عبد الرحيم و كمال وعارف عبد الرازق والشيخ توفيق العلاري والشيخ فرحان وآل رشيد وأخص منهم مصطفى، وسعدي بك طوقان الذي قدم للثورة والثوار أعمالا هامة ومعلومات مفيدة ومعاونات قيِّمة .

* * *

انحدرنا من مكامننا في رؤوس الجبال الى بردله، فوصلناها مع الغياب، فارتوينا، ثم رتبنا نظام السير، يرافقنا الامير صالح والشيخ نمر العرسان والشيخ محمد الزناتي الذي تولى أمر قيادة المقدمة وتحضير نقطة العبور. وكان أخي ظافر قد حضر الى بردله مع شيوخ شرقي الاردن، فأرسلته مع آل رشيد بمهمة الى القدس . وانضم الينا في الطريق الكثيرون، حتى تضاعف عدد قواتنا .

كان نهر الاردن عالي الماء على غير عادته، اذ كانت بوابات الخزانات في بيسان قد فتحت خصيصا لهذه الليلة . ولكن ذلك لم يحل دون عبورنا مفرزة اثر مفرزة . ثم أشعلنا النار على الضفة الشرقية، لتجفيف الملابس، وصنع الشاي . وتم العبور حوالي الساعة الواحدة بسلام .

ثم تركنا نقطة العبور الساعة الثالثة والنصف صباحا يتقدمنا فرسان شرقي

الاردن الى منازل الامير بشير، وكنا مع الفجر نسير شمالا على خط يوازي السلسلة الشرقية . وكانت بيسان تتراءى لنا عن بعد، وتذكرت ساعتها حادثة انقاذي لمصطفى كمال في هذه البقعة .

نزلنا في بيت الامير بشير الواسع، فاستقبلنا باشّاً مهنئا بالسلامة . وتوزع الجنود على المنازل، ونحرت الذبائح، وأخذت الوفود الاردنية ترد الينا من المدن والقرى مهنئة .

تركنا منازل الامير بشير في الساعة الثالثة بعد الغداء، الى منازل الامير صالح على الضفة الشرقية قبالة بيسان، وكان موكب الفرسان يتقدمنا بالأهازيج والاغاني والالعاب على مرأى من معسكر بيسان الانكليزي . وصلنا مع الغروب، وأقبلت الوفود . وحضر اليوم الشيخ محمد الاشمر.

كنت أشعر بقلق، على الرغم من وجودي في بلاد عربية، وكنا في حالة أشبه بالفوضى، وفي أرض سهلة لا تصلح للدفاع، فوجب عليّ، وقد رأيت من قبل غدر الانكليز، أن أتوقع غدرا جديدا . لذلك سعيت أن انتقل الى ارض جبلية، لكنها بعيدة، ويحتاج الانتقال المأمون اليها الى سيارات . وقد زارني في المساء عادل العظمة وعادل الحامدي والشيخ قاسم الامعري وسليمان باشا السودي وعبد الله أبو قوره الذي كان له أعظم الفضل على الثورة حين سهل نقل جنودنا من العراق الى شرقي الاردن بسياراته معرضا نفسه وأمواله للخطر. وقد انتحيت بهم جانبا بعد العشاء، وقررنا أن ننتقل الى قرية قم أو المنطقة الواقعة مابين قم وكفر أسد وصيدور، فنرابط فيها . وقررنا ارسال سليمان باشا السودي لمواجهة ناجي باشا عزام صاحب كفر أسد وصيدور، وارسال أبي قوره لتأمين السيارات اللازمة . وكلفنا قاسم الامعري بتأمين ما يلزم من الاعاشة وادخارها في المنطقة . وتم كل ذلك .

ووصلنا قم في التاسعة صباحا، وقد حيّانا على الطريق جنود المخفر بسرور وعاطفة عربية أصيلة . ونزلنا في ضيافة الشيخ الشهم ناجي باشا عزام، الذي أظهر من الحفاوة والوطنية ما يفتخر به، وانتقلنا بعد الغداء الى كفر أسد حيث اتخذناها مقرا، وأعددنا فيها الترتيبات الدفاعية .

* * *

كان الامير عبد الله متغيبا عن الاردن في اجازة عشرة ايام يقضيها في مصر، وكان الامير طلال وكيلا له. ويظهر ان الامير أوصى ولده أن يعمل ما بوسعه لترحيلي عن الاردن، بشيء من اللباقة والمجاملة الممزوجتين ببعض التهديد بقوة الجيش البريطاني والجيش الاردني.

وقد وصلني رسول من عمان يخبرني بنية الامير طلال زيارتي في المعسكر مساء. وكانت الوفود ترد الينا تحيينا وتهنئنا. وكنت حريصا على أن أعلم شعور ضباط الجيش الاردني، والموقف الذي سيقفه بيك باشا قائد الجيش، وعلمت ممن استطلع خبره أنه يقول بانه لن ياتي بأية حركة عدائية نحونا اذا لم نحاول الاعتداء، حتى ولو خالف بذلك أوامر المندوب السامي والقائد الاعلى في فلسطين. وقد دهشت لهذا الخبر المليء بالمراوغة الانكليزية. أما شعور الضباط فكان شريفا للغاية، وقد عمدت الى توثيق عرى العلاقة بهم، وإثارة الروح الوطنية في نفوسهم توطئة لما قد يحتمل حدوثه. كما أخذت أستنبط من آراء ناجي باشا عزام موقف الباشوات في الاردن حال وقوع حادث، فكانت آراؤه تشجعني. وطلبت منه دعوة بعضهم لنتداول في الامر، فحقق فكرتي.

حضر الامير طلال في السابعة مساء يرافقه الشريف فواز مهنا العربي الوفي، فاستقبلته، بعد أن حيته مفرزة نظامية من جنودنا. وبعد ذلك قال ان والده أوصاه بوجوب تامين احتياجاتنا، وطلب مني أن أسرّح الجند ليعود كل الى بلده. وقال انه مستعد لانزالي في قصر رغدان، لانه يخشى عليّ كثيرا، وان الانكليز لا يهمهم من الامر غيري، فطمأنته. ويظهر ان حكومة شرقي الاردن هي التي حملته على هذا التكليف، وأقسم لي أنه لايحمل لي في قلبه الا أطيب النوايا، وانه لخوفه عليّ فقط يقول مايقول. وكان يلح بوجوب تسريح المجاهدين قبل عودة والده. وكنت من قبل عازما على تبديل بعض الجنود غير الصالحين بجند من الاردن، فوعدته بتسريح الجند على مراحل، فسرّ وانصرف شاكراً. وكنت فعلاً قد اخذت استغني عن بعض العناصر وأستلم سلاحهم وأسلح به غيرهم من الاردنيين.

وقد تبين لي من خلال أحاديث الامير أن الانكليز قد هددوه ليعمل على مغادرتي الاردن بأي وسيلة كانت، ولاحظت انهم يخشون من وجودي حتى

لاتنفجر في وجوههم ثورة الشعب في الاردن. وكنت عازماً على عدم الاعتداء على الحكومة الاردنية أو الانكليز، ولكني كنت أتمنى ان تتحرشا بي فأشعل عندها الثورة في البلاد.

وكان لابد لي من توثيق الصلة بالباشوات وبشيوخ القبائل، وبضباط الجيش الاردني، ومن ايجاد منطقة أكثر ملاءمة للدفاع، فعينت جبال عجلون المنيعة نصب عيني. وطلبت زعماء المنطقة للاجتماع بي والتفاهم معهم، ومنهم مثقال الفايز وحديثة الخريشة والامير محمد صالح وسليمان السودي ومحمد العزام وراشد الخزاعي وسالم الهنداوي، وغيرهم، وكان بطل هذه الاجتماعات ناجي العزام.

وكان سيل الوفود والهدايا لا يزال يتدفق، وقد أثّر هذا تأثيرا سيئا في جنودنا. كما أن الشيخ محمد الاشمر أخذ يجمع شوام اربد وعجلون وعمان ويحشدهم في المعسكر تحت اسم مجاهدين، مما أحدث ضررا عظيما في ضبط المعسكر. وبينما كنت أنا أعمل جهدي لتكوين قوة صالحة لثورة شاملة تجمع القبائل والجيش الاردني الذي أكثر ضباطه من القبائل، كان الانجليز مع القصر يعملون في الخفاء، لاثارة ثورة في جيشنا نفسه. اتصلوا بالاشمر، فكانوا يحرضونه بواسطة أذنابهم، ويدخلون الى عقله انه هو أحق من فوزي بالقيادة والزعامة، فهو من رجال الدين، مقامه كمقام المفتي، فهو الزعيم. كذلك حركوا الفتنة باتصالهم بجاسم الكرادي قائد المفرزة العراقية وحرضوه عليّ، فمزّق صوري وداسها وأعلن زعامته، وطالب برفع الرواتب. وقام السيد علي العراقي ببث الافكار الشيوعية، والتحريض على الثورة. وعلاوة على ذلك لم تنفذ اللجنة في القدس ماتعهدت به من ارسال رواتب الجنود والاعاشة وملابسهم الشتوية.

وبتاريخ ٣٠-١٠-١٩٣٦، وفي هذه الفوضى، أتت الاخبار بأن رتلا من السيارات المصفحة جاء الى عمان من فلسطين وتوجه شمالا نحونا، فوجدتها فرصة لاعادة النظام الى المعسكر، ولانذار الحكومة، واعلان الثورة في الاردن. فأنذرت الحكومة، بانني سأكون في حل من واجب الضيافة، حراً في اتخاذ ما أراه مناسبا للدفاع اذا تعدّت السيارات إربد، وسأنتقل الى خط الانابيب لتدميره. وكان الجو العام في شرقي الاردن مناسباً. وأردت اختبار درجة اخلاص زعماء الاردن، فطلبت

من القريبين مني أن يبعثوا رجالهم المسلحين، وقررت نقل المعسكر من كفر أسد الى صيدور، وكان أول من لبى النداء ناجي العزام، ففرحت. لكن كدّرني علمي بأن الشيخ محمد الأشمر أخذ جماعته واتجه إلى اربد، فلحقت به وأنبته بشدة، فعاد وبقي خاضعاً للنظام. والشيخ محمد الاشمر في الحقيقة رجل وطني مخلص الا أنه طيب القلب ساذج يسهل التأثير عليه بسهولة.

عاد الامير عبد الله من مصر، فكان اول عمل قام به جمعه لباشاوات الاردن وزعماء البدو بقصد ابعادهم عني. لكنه بعد أن رأى تعلقهم بي، واصرارهم، قال لحديثة الخريشة: «ان فوزي ليس احسن من الحسين الذي سلم في هذه المنطقة للانكليز..» فأجابه هذا: «ان فوزي غير الحسين، ففوزي حارب الانكليز والحسين اعتمد عليهم وحارب معهم، والمنطقة لم تسلمه بل انت ياعبد الله سلمته. ولن يخرج فوزي من شرقي الاردن بمؤامرة ونحن فينا عرق ينبض».

ولما أدرك عبد الله ذلك، بعث اليّ برسالة يقول فيها ان عليّ ألا أعتمد على الزعماء والشيوخ، فهم غير صادقين. وبعد أن عرفت ما جرى طلبت عقد اجتماع عام للشيوخ والباشوات، فحضروا جميعهم يوم ٢,٣-١١-١٩٣٦ في قرية قم عند الشيخ راجي عزام أخي ناجي باشا (الذي ارسل اليّ رسالة يؤيدني فيها ويقدم كل مايملك فداء). خطبت في الشيوخ، وأخبرتهم انني ضيفهم وأنني جئت بدعوة من الامير، ويصعب عليّ أن أرى الانكليز، بعد فشل جيوشهم يسعون بالمكيدة والحيلة للقضاء علينا، فذلك عار ما بعده عار. وطلبت منهم أن يبينوا موقفهم بوضوح، فان كانوا معي فليرسلوا رجالهم المسلحين الى المعسكر، وان لم يكونوا كذلك فأنا أعرف كيف أدافع عن نفسي. هاج المجتمعون بعد سماع كلماتي، وافتدوني بأولادهم وعاهدوني، فسألتهم أن يبعثوا ببرقية للامير يعلمونه بما عاهدوني عليه، وذهبوا في اليوم الثاني لمقابلة الامير. وقد جن جنون الانكليز، واضطرب الامير، فأخذ يعمل مع الحكومة العراقية الجديدة لتطلبني الى العراق، فاتصل الملك غازي على الاثر ببعض اخواني يرجوهم ان يقنعوني بالحضور الى العراق لتكريمي، كما ان رئيس الوزراء حكمت سليمان كان يتوسط لهذه الغاية عند رجالات الاردن. شعرت بعد الاطلاع على هذا كله بالطريقة الجديدة التي

يتوسل بها الانكليز لترحيلي عن شرقي الاردن، فاحسست بقوتنا وبأن الاردن صار تحت سيطرتنا، وقد آن الاوان لجعله قاعدة لنا نرابط فيها الى أن ينجلي موقف الانكليز في فلسطين.

وكنا نتابع ارسال رسلنا الى القدس لتأمين احتياجاتنا، لكن للاسف كان الرد عدم قدرة القدس على تأمين ذلك، والمطالبة بتسريح الجنود. فتأكد لدي ان الفرصة ستفلت منا، وأن تسريح الجنود خطيئة كبرى ثانية بعد خطيئة الانسحاب.

ترجح لديّ الآن الانسحاب، وعزمت على الانسحاب الى قرايا الملح في اراضي ابن سعود، لكننا لم نوفق في اتصالاتنا معه، فلم يبق أمامنا مفتوحاً الا العراق. وأخذت أتظاهر بقبولي آراء الامير عبد الله بالانسحاب. وبتاريخ ٣-١١ جاءني مستشاره فؤاد الخطيب برسالة منه يحييني فيها، ويذكرني بعدم الاعتماد على الشيوخ والباشوات، وعلمت من إلحاحه أن الانكليز يشترون خروجي من الاردن باي ثمن، حتى لو طلبت سيارات الجيش البريطاني لنقلي الى العراق.

كان أمر الانسحاب خطيرا، فقد تكون هناك مؤامرة يدبرها الانكليز، لذلك اشترطت أن يكون معي في الانسحاب مستشار الامير فؤاد الخطيب وأمينه الخاص الشيخ جوير، وباشوات الاردن وشيوخ القبائل، وألا تظهر في طريقنا طائرة انكليزية أو سيارة مسلحة، وإلا استلمت خطوط الانابيب حيث أدمرها، وأن تكون ايضا معنا حظيرة من جند أبي حنيك تدلنا وترافقنا الى الحدود. وافق الامير، فطلبت على الفور سيارات لنقل المفرزة العراقية، وبعض الجنود من المفارز الفلسطينية والدرزية ومعهم فخري عبد الهادي وحمد صعب، هذا بعد أن رتبت أمر انسحاب الفلسطينيين الى فلسطين والشوام الى دمشق. نظمت المسير بحذر، متخذا كافة الترتيبات لمنع أي مفاجأة. وفي الصباح كان رتلنا الذي يزيد عدد سياراته عن الستين يتجه نحو الشرق مارا بالقرب من نقطة المفرق حيث تعسكر قوات أبي حنيك، ويمر خط الانابيب. ثم وصلنا H 5 فاسترحنا على مرأى من الجنود الانكليز هناك. وتابعنا السير بعد الاستراحة بجموع سورية عراقية فلسطينية اردنية تجسد وحدة العرب التي تتخطى الحدود الوهمية التي صنعها الاستعمار.

وكانت مفرزة الحدود الاردنية المرافقة لنا تقوم بواجبها خير قيام، ولمسنا منها

شعوراً عربيا حيا، فكانوا يكرموننا بشعور صادق أخوي.

وصلنا الحدود العراقية، فاستقبلتنا شرطة الحدود بالحفاوة والترحيب. وعادت المفرزة الاردنية. ثم وصلنا الرطبة، فاستقبلنا مفوض الشرطة السيد محمد الياسين، ورحب بنا. ثم اتصل بي هاتفيا متصرف الرمادي، فرحب بي باسم الحكومة، وأخبرني ان الحكومة ترغب في ايداع اسلحتنا في مستودعات الرطبة، فامتنعت، لكنه تعهد لي بشرفه وشرف الحكومة برده الينا عند الطلب. فتم تسليمه بموجب وصل.

وحمّلت الشيخ جوير رسالة شكر للامير عبد الله ذكرت فيها اننا قد شعرنا في رحلتنا هذه بأن لا حواجز ولا حدود بين البلاد العربية، وانه لا الحدود ولا الحواجز تفصلنا عند اللزوم عن تأدية الواجب. ثم ودعنا من بقي من الوفود شاكرين لهم شهامتهم، وتابعنا مسيرنا الى الرمادي، وكان معي فخري عبد الهادي وحمد صعب والسيد بهاء الدين والمفرزة العراقية فقط. ولاول مرة بعد خروجنا من العراق نسير باطمئنان وبسلام، وبدون حرس أو سلاح. وصلنا الرمادي بعد منتصف ليلة ٦-١١-١٩٣٦، فاستقبلنا مفوض الشرطة وأنزلنا في الفندق على حساب الحكومة. وفي الصباح اتصل بي الامير طلال من قصر الحارثية، وهنأني بالوصول، وأعلمني انه وجلالة الملك غازي بانتظارنا. ثم اتصل بي جميل المدفعي مهنئا، وكذلك فعل كثيرون غيره.

كان الحماس في بغداد في أوجه، وخشيت الحكومة حدوث ما يعكر الامن، فأدخلتنا بغداد في غير الوقت المحدد. وبالرغم من ذلك وجدنا جموعا كثيرة محتشدة في المطار المدني تنتظرنا وتهتف لنا، وجرفنا سيل الناس الى بهو المطار، فاسترحنا وألقيت الخطب والقصائد. ثم خرجنا الى نادي المثنى، فرحب بنا القوم وحملوني على الكلام فحدثتهم عما جرى معنا في فلسطين. ثم أنزلنا في فندق كلارج واستقبلنا هناك متصرف بغداد، وكانت الوفود لا تبارح الفندق.

زرنا الملك صباح ٧-١١-١٩٣٦. وانفرد بي الامير طلال، ثم طفنا على رئيس الوزارة وبقية الوزراء ورئيس أركان الجيش، والجميع يرحبون بنا ويحيون بطولتنا ويشكروننا على أعمالنا، ويعلنون استعدادهم للخدمة في سبيل العرب والعروبة.

انتقلت بعد ايام الى داري في الكرادة، يملأني شعور غريب، ففي هذه الدار المتواضعة وضعت أسس الثورة ونظمتها ونفذتها بنجاح، وإليها أعود سالما. وهرع الاخوان لزيارتي، كما أتتني وفود الوطنيين، والاجانب.

* * *

اخذ القلق يساورني، منذ عودتي من ثورة فلسطين الى بغداد من موقف الحكومة المريب، كما ساور اخواني اثر تلك الحفاوة البالغة والاستقبال الرائع الذي قامت به حكومة الانقلاب العراقية [1] والشعب العراقي معا، مما أدى الى دفع كثير من الشائعات عن سياسة الحكومة ونواياها بالنسبة الى الفكرة العربية. وكنت غير مرتاح الى بقائي في بغداد لما أخذ يتسرب اليّ عما يخامر نفوس فريق من زعماء العراق من المخاوف لوجودي فيها. فكتبت الى اخواني في سورية استحثهم على حل قضية العفو عن المبعدين للعودة الى سورية، حتى اذا تعذر هذا في الوقت الحاضر خرجت من العراق الى بلد آخر.

ولكن ماكنت أخشاه قد وقع ونُفيت الى كركوك قبل ورود أية نتيجة من اخواني.

أما عوامل نفيي هذا فتنحصر فيما يلي:

أولاً: ضغط الحكومة الانكليزية على حكومة العراق لتمتعي بحرية واسعة في البلاد.

١- تأسست حكومة الانقلاب، أثر مؤامرة اتفق على تنفيذها حكمت سليمان التركي واللواء (الجنرال) بكر صدقي الكردي وجعفر أبو الثمن أحد كبار تجار العراقيين الشيعة. وقد عمل هؤلاء على تضليل بعض قواد الجيش وبعض الموظفين والرجالات، فتمكنوا من اسقاط وزارة ياسين الهاشمي بقنابل الطائرات، وزحف الجيش الثائر على بغداد واحتلها. وكان قد تم الاتفاق بين حكمت سليمان وبكر صدقي على أن يترك الأول للثاني اليد المطلقة في كافة ما يتعلق بشؤون الجيش والأمور العسكرية والحربية، على أن يترك الثاني للأول اليد المطلقة في سياسة المملكة وادارتها.

وما كاد بكر صدقي يتسلم منصبه حتى أخذ يجمع كل العناصر غير العربية الموجودة في الجيش حوله، ويقربهم إليه ويباعد بين ضباط العرب ويبعدهم عن المراكز الحيوية في الجيش. وأصبح صدقي ديكتاتورا عسكريا في العراق يفعل ما يشاء. فازدادت المخاوف وكثرت الاشاعات والتهم بالحكومة العراقية من كافة الاقطار العربية حتى أصبحت توجس خيفة على مركزها في العراق. فصادف مجيئنا في مثل هذه الظروف وكانت فرصة سانحة للحكومة أن تتخذ من قبولنا في العراق وحسن استقبالنا واكرامنا وسيلة تظهر فيها عروبتها المزيفة وعطفها على العرب وقربها منهم.

ثانياً : موقفي من قضية اسكندرون، واحتجاج سفير تركية في بغداد عليه .

ثالثاً : مخالطتي أصدقائي من زعماء العراق، وهم الذين لم يكونوا قرروا بعد الاشتراك في الحكم مع حكومة الانقلاب، وضباط العرب من الجيش العراقي الذين لم يطمئنوا لحركة بكر صدقي وكانوا غير مرتاحين الى نواياه . ويتجلى أثر الانكليز في نفيي :

١- بما ألقاه الكولونيل ووجود النائب الانكليزي اليهودي من الاسئلة في البرلمان، وطلبه من الحكومة البريطانية اتخاذ الاجراءات الضرورية ضدي، وجواب الحكومة عليه بأنني لم أحكم من لدن محكمة بريطانية . وبعودة الكولونيل ثانية الى اثارة الموضوع من جديد في مجلس النواب بعد اسبوعين، مندداً بي بأنني كنت المسبب لاطالة أمد الاضطراب في فلسطين، واني مسؤول عن الدمار والدماء اللذين حلا بها منذ وصولي اليها، وان ذهابي الى فلسطين مع قوات أخرى كان تحديا مني ومسًا بكرامة الجيش البريطاني، فهو من اجل ذلك كله يطلب من الحكومة البريطانية اتخاذ اجراءات فعالة ضدي، وما كان من رئيس الوزراء المستر ايدن الا أن سأل الكولونيل ووجود تقديم مقترحاته في هذا الموضوع الى الحكومة تحريريا .

٢- وما تبع ذلك من احتجاجات السفارة البريطانية لدى الحكومة العراقية لما أثارته جرائد الانكليز ومجلاتهم من الحملات الشديدة ضدي، فقد كتبت هذه الشيء الكثير عني وعما أحيكه من المؤامرات الجديدة في بغداد ضد السلطة في فلسطين. حتى ان احدى مجلاتهم (النيرايست) ذكرت تحت عنوان (فلسطين) بتاريخ ٧-١-١٩٣٧ : « ان الاضطرابات قد تعود الى فلسطين، وان العرب واليهود يترقبون حركات قائد الثورة الفلسطينية بشوق ولهف » . وزادت على ذلك نشرها صورتي بقيافة الثورة حاملا سلاحي، وكتبت تحتها الجملة التالية: فوزي القاوقجي لا يزال طليقا فماذا لا يستطيع عمله » ؟ .

من هذا وأمثاله يظهر جليا استغراب الانكليز بقائي حتى الساعة حرا طليقا . فهل هناك اجراءات تجري طي الخفاء لتوقيفي؟ وهم يستغربون تأخير تنفيذها حتى

الساعة؟ وهل تنوي بريطانيا لفلسطين سوءاً حتى تتوقع عودة الاضطرابات اليها من جديد ؟ .

ولقد ظهر لي من مختلف المصادر الصحفية والرسمية والخاصة ان بريطانيا متوقعة حدوث اضطرابات في فلسطين من جديد، وان الذي تخشاه عودتي اليها . اذاً كل ما يهم بريطانيا من امري ان أكون في موقف يتعذر معه عليّ العودة الى ميدان الثورة في فلسطين . وقد فاتها انني عند الحاجة لا يحول بيني وبين فلسطين حائل، أولا يكفيها ما قدمت لها في مغامرتي الاولى في فلسطين من برهان .

٣- بما قامت به حكومة فلسطين من مصادرة رسومي من الباعة والحوانيت ومن المنازل، واحالة باعتها الى المحاكم، كما جاء في مجلة « الصباح » المصرية بتاريخ ٢٢-١-١٩٣٧ .

٤- من حادثة تذكرتها الآن ويتجلى لي مغزاها : وذلك ان الامير طلال استاذن أباه الامير عبد الله في صرف شهر في ضيافة ابن عمه الملك غازي في بغداد، حتى اذا جاءها سعى الى الاتصال بي . ولقد ذكر لي الامير انه كان على مائدة العشاء في القصر، وكان السفير البريطاني مدعوا، ومما قاله السفير للامير : « ان ما يتقوله الناس ان سبب مجيء سموك الى بغداد رغبتك في الاتصال بفوزي القاوقجي، وللتحدث اليه في أمور ذات شان » . فأجابه الامير : « اني لا أعجب من اشاعة اتصالي بفوزي القاوقجي، ولكني أستغرب قولهم للتحدث معه بأمور ذات شان » . ولما هممت بالانصراف، على أمل ان نتمّ حديثنا في مقابلة ثانية، التفت سموه اليّ قائلا : « ان هذا لن يكون لانني مسافر اليوم، فانا لا أريد احراج موقف اخي غازي، وتجدني مع الاسف مضطرا لمغادرة بغداد الساعة دون اختياري » . ثم ودعته وانصرفت، وكان الامير طلال يشير اليّ من طرف خفي : « ان سبب خروجي من بغداد وجودك يافوزي فيها » .

هذه الحوادث واجراءات الشرطة في فلسطين، التي تقع في نفس الاسبوع الذي نفيت فيه، ومباحثات الانكليز في مجلس نوابهم، واحتجاج الحكومة البريطانية لدى حكومة العراق لوجودي في بغداد أحيك المؤامرات عن فلسطين على

زعمهم، وتبرير حكومة العراق اقدامها على نفيي بأنها لم تقدم عليه الا لتتمكن من متابعة تقديم المساعدة الى فلسطين – حسب تصريحها لمن اتصل بها من اجلي من الاخوان –، كل هذا يجعلني أجزم بأن تشبثات لندن قد أثمرت في بغداد. وان الحكومة العراقية التي أحسنت استقبالي والحفاوة بي عند عودتي من ميدان الثورة في فلسطين، ثم نفتني الى كركوك بعد حين، قد تقربت بي في الاولى الى العرب– ازالة للشبهات وقضاء على الشائعات من أن حكومة العراق الحاضرة حكومة كردية تركية شعوبية– كما تقربت بي في الاخرى الى الانكليز كسبا لصداقتهم وتأييدا لاخلاصها لهم.

أما أثر الاتراك والاسكندرون، وهو العامل الثاني في هذا النفي، فيتلخص بأن فريقا من السوريين عقدوا على أثر اثارة قضية اسكندرون اجتماعا في منزل الدكتور أحمد قدري، حضره كثير من خلص اخواني، ومن بينهم الوطني سعيد الحاج ثابت، لبحث القضية، وما يمكن للعراق ان يقوم به من المساعدة. وكنت استخففت فكرتهم، ولكني طلبت من المجتمعين ارسال مذكرة شديدة اللهجة الى رجال الكتلة الوطنية في دمشق بوجوب اثارة حماس الشعب، والقيام بالتشكيلات المسلحة، والشروع باتخاذ التدابير اللازمة للدفاع. وقلت وقتئذ لاخواني: «اذا تم لدمشق ان تفعل هذا، قام العراق، حكومة وشعبا، وقامت من بعده سائر البلاد العربية لمساعدة سورية في جهادها دفاعا عن حدودها، كما حدث في قضية فلسطين». فكان السيد سعيد الحاج ثابت أول من وافق على مقترحي، وأول من وقع معي على المذكرة التي بعثتها الى دمشق. ولقد طلبت في الجلسة نفسها انتخاب لجنة يطلق عليها اسم (لجنة الدفاع عن اسكندرون) وانتخاب رجل حازم يتمتع بثقة الشعب رئيسا لها، كي تستطيع القيام على تحقيق رغبات الامة وأمانيها. ولقد عقد اجتماع آخر ثاني يوم أسند المجتمعون فيه رئاسة اللجنة اليّ وبعث المجتمعون بخلاصة ما حدث الى دمشق.

وما عدا ذلك كنت جاهرت في رأيي بكتب ارسلتها للاخوان المؤمنين في سوريا، وأحاديث للصحف، حيث أفهمت الجميع بأن قضية اسكندرون قضية حياة وممات بالنسبة الينا، واننا باستطاعتنا الدفاع عنها، وانه لا يكون احد مسئولا

عن ضياع اسكندرون سوى الزعماء وهم رجال الحكم وحدهم، وأن ما يلحق من العار فهو بشخص هؤلاء دون الشعب، لأن الشعب مستعد للدفاع والذي يمنعه عن ذلك هؤلاء الرجال.

فكان لهذه التصريحات أثر عميق في نفوس الاتراك الذين اخذوا يسعون لبقائي بعيداً عن سورية. وكانت حكومة حكمت سليمان في جانب الترك في هذه القضية على شكل صريح، وهي تعمل على أن يقبل السوريون مطاليب الترك، لأن هذه الحكومة لن تكون الا في جانب الترك اذا حدث اختلاف ما.

ان قضية اسكندرون في نظري قضية حيوية بالنسبة الى سورية، فهي بدون اسكندرون لا يمكنها ان تعيش. واغتصاب الترك لها يكون سابقة للدول المغلوب على امرها في الحرب العامة الطامحة لاسترجاع مستعمراتها أو التعويض عنها. وقد يشجع اغتصاب الاتراك لاسكندرون – مع سكوت العرب وسكونهم – الدول على اغتصاب أجزاء أخرى من البلاد العربية، كفلسطين واليمن والحسا ونجد والحجاز ايضا. وباستكانة الامة العربية الى ضياع اسكندرون تثبت للملأ انها غير جديرة بالحياة، وانها فاقدة كل حيوية من حماس وحمية يدفعانها الى الذود عن حياض الوطن.

ان في ضياع اسكندرون اذاً ضياعاً لاستقلال سورية بأسرها، وقضاء على الوحدة العربية، لان دخول منطقتي اسكندرون وانطاكية في حوزة الترك يجعل حلب ودير الزور والجزيرة الشمالية تحت النفوذ التركي، بل ان الخطر يتعدى لشمالي العراق. وبعد هذا لا تبقى سورية، وبدون سورية لا عرب ولا عروبة.

ولقد تسرب بعض ما أدليت به من الآراء لاخواني هنا وفي دمشق، الى سفير تركية في العراق، فاحتج لدى حكومة العراق على تشبثاتنا.

أما العامل الثالث في هذا النفي فقد كان للانقلاب العراقي الاخير أثر فيه. اذ لم يكن وضع الحكومة قد استقر بعد، وكانت تخشى كثيرا رجالات العراق الذين كان لهم صلة وثيقة بالحكومة السابقة، وببعض الرجالات الذين تولوا الحكم قبلا، والذين لم يتقدموا للاشتراك والتعاون مع الحكومة الحاضرة، وآثروا الحياد الى ان تتضح لهم أعمالها. وكان الود والصداقة يربطاني بهؤلاء، وبحكم هذه الصداقة

وذلك الود كنا نتزاور كثيرا ونجتمع معا في الحفلات التي اقاموها أو أقمتها. وزد على ذلك كثرة تردد ضباط العرب عليّ، فكان اكثر الضباط يستشيروني بالعمل اللازم لازالة وجود رئيس أركان الجيش ورئيس الحكومة. أحدثت هذه الصلات شيئا من القلق والريبة في نفوس رجال الحكم الحاضر، الذين شرعوا باتخاذ اجراءات حاسمة للقضاء على المعارضة التي ظهرت في اوساط بغداد. وأخذت أشعر بأنني مراقب من الحكومة العراقية، فتجنبت مايثير شبهتها أو تتخذه حجة ضدي، فحاولت الابتعاد، وذهبت الى البصرة، يلاحقني الجواسيس كظلي، ثم استدعتني الحكومة الى بغداد. وعدت بعد اسبوع، قابلت فيه الوفد الفلسطيني العائد من نجد، واجتمعت به في حفلة غداء، واقترحت ارسال تقرير الى اللجنة الملكية التي وصلت فلسطين وقاطعها العرب، أشرح فيه الدواعي التي ألجأتنا الى حمل السلاح. وكتبت التقرير، وشاع أمره، ووصلت نسخة منه الى السفير البريطاني فاتخذه سلاحا جديدا يستعمله ضدي لدى حكومة العراق التي وجدت الفرصة سانحة فنفتني الى كركوك.

قام اخواني، على اثر ابعادي، بالتوسط لدى الحكومة بإلحاح، وقد صرح حكمت سليمان رئيس الحكومة، انه يقدر أعمالي، لكنه فعل ذلك تحت ضغط ظروف قاهرة، وانني مازلت ضيفاً على الحكومة، نقلتني كما ينتقل الضيف من غرفة الى غرفة. وكان على رأس الساعين المتوسطين جميل المدفعي وسعيد الحاج ثابت رئيس لجنة الدفاع عن فلسطين، الذي بذل جهودا جبارة لاغاثة فلسطين، وتمكن من قبل بمرونته من حمل الحكومة الهاشمية على اغاثة فلسطين ماديا وسياسيا.

القسم الرابع من المذكرات(*)

بين بغداد وبرلين

١٩٣٧ - ١٩٤٧

عدت من فلسطين أعاني جرحا نفسيا بالغا لانني لاول مرة في حياتي ادخل معركة وأنتصر انتصارا خارقا، وذلك بعد ان تمكنت من تحطيم الجيش البريطاني الاول بقيادة «ويفل» الذي عُزل من الميدان وأرسل بدلا منه رئيس أركان الامبراطورية الجنرال «ديل» وأتى مغرورا وهددني عن طريق الامير عبد الله بأنه سيسحقني. وقد هُزم هذا الجنرال وجيشه في المعركة الثالثة على شكل لم يبق امامه من مخرج الا طلب الهدنة، وبطلب الهدنة انفتح مجال واسع امام الزعامة العربية لفرض شروط تضمن لفلسطين استقلالها واستمرارها، قبول الهدنة بلا قيد ولا شرط وبدون مشورتي قضى على كل ثمرات هذا النصر.

اذ ما كدنا ندفع خارج فلسطين، حتى بدأ الجنرال «ديل» في اقامة النقاط العسكرية القوية في مناطق الثورة واتخاذ التدابير اللازمة لحماية الحدود من الشمال والشرق، وتجريد قبائل ضفتي الاردن من السلاح، وفتح طرق عسكرية جديدة وقيام الجيش بمناورات كثيرة على معارك الجبال وحرب العصابات، وهذا كله يوضح النية السيئة التي يضمرها الانكليز لفلسطين.

وشعر الجميع بالغدر البريطاني ومدى اعداد الصهيونيين، استُخدمت ظروف حرجة كانت تتفاقم من جديد وذلك بعدما بدأ يظهر من امتداد السيطرة الانكليزية ونمو القوة الصهيونية، التي اصبحت وكأنها قوات بريطانية في دور النشوء.

* – مادة هذا القسم مستقاة من أخبار متفرقة سجلها فوزي القاوقجي في مفكراته وأوراقه بين ١٩٣٧-١٩٤٧

ولقد قامت الحكومة البريطانية ونوابها بالضغط على حكومة العراق، والاحتجاج لديها مختلقة التهم العديدة ضدي، لتحجز الحكومة حريتي، فيستحيل عليّ العمل، أو العودة مرة اخرى الى فلسطين اذا اضطرتنا الحاجة اليها. على اني تمكنت وأنا في منفاي بكركوك وتحت أعين الرقباء الذين يلازمونني كالظل من الاتصال بعدد من الشخصيات العربية في سورية وفلسطين لتنظيم خطة أتوصل بها الى ميدان فلسطين:

كانت فكرة الحملة على شرقي الاردن تخامر نفوسنا وتشغل أفكارنا منذ نهاية الثورة السورية، لما لهذه المنطقة من الاهمية العسكرية كقاعدة للاعمال الثورية اللازمة في سورية وفي فلسطين عندما يتطلب الموقف ذلك، ولقربها واتصالها المباشر بالحدود السورية والفلسطينية من جهة وبالحدود النجدية الحجازية من جهة اخرى. ولقد عزمنا على اثارتها في أواخر الثورة السورية لنجدة الثورة ولكن التخوف من فكرة تعاون الجيش الانكليزي والافرنسي على قمع الثورة أخّر هذا المشروع.

ولقد تقرر نهائيا وثبتت فكرة الحملة على شرقي الاردن عندما دعيت لفلسطين سنة ١٩٣٤ و١٩٣٥ من قبل المفتي، على ان تبدأ هذه الحملة بعد اضطرابات بسيطة تقوم في فلسطين، حيث يكون هدف الحملة ازالة الامير عبد الله وقلب حكومته والتغلب على الجيش العربي الصغير ثم تكوين قوى عربية من المنطقة تنجد وتساعد فلسطين في ثورتها وتصبح بعد ذلك فلسطين وشرقي الاردن بقعة واحدة ثائرة في وجه الانكليز يتطلب اخمادها جيشا انكليزيا كبيرا لا يساعد موقف الانكليز على ارساله وابقائه مدة طويلة. واذا تمت الوسائل والاستعدادات اللازمة يبقى ناحية مهمة جدا تؤثر على نجاح هذه الحملة وهي، موقف ابن سعود من هذه الحركة، فاذا كان مساعدا فكل شيء يتم بسهولة، والا يتعذر القيام بهذه الحملة اذا كان الموقف معاكسا.

وعلى هذا الاساس والقرار افترقنا من القدس، وبدأت الاضطرابات في فلسطين كما كان مقررا ولكن تطور الحالة وتوسع الحركة اضطرنا على ان نقوّي الثورة في فلسطين قبل ان يتغلب عليها الجيش الانكليزي وأن نصرف النظر عن

حملة شرقي الاردن مؤقتا وأن نعدها كقوة احتياطية لنا عندما نرى انه لا يمكن الصمود بوجه الجيوش الانكليزية في فلسطين. وهكذا أرسلنا كل قوانا الى فلسطين ولما شعرنا بتزايد الجيش الانكليزي ونفاذ المهمات من أيدينا أعددنا شرقي الاردن وبدأنا أولا نجلب منها ما تيسر من القوات فتمكنا من استخدام ما يقارب مائة اردني من مختلف القبائل قاتلوا ببسالة فائقة وأرغمنا الجيش الانكليزي على المهادنة قبل ان نحتاج الى اثارة المنطقة كلها.

وبعد انتهاء ثورة ١٩٣٦ زادت قيمة الحملة في شرقي الاردن وأهميتها واتفقنا من جديد على اعداد العدة اللازمة لهذا المشروع لنشرع به وبالثورة في فلسطين معا اذا ما دعت الحاجة، بعد مقررات اللجنة الملكية، الى ثورة جديدة. وفي كركوك تجددت المخابرات وقد كتبت في مقدمة مفكرتي وأنا في منفاي مايلي:

« التطورات في قضية فلسطين بعد انتهائها:

١- أول كتاب بلزوم الاستعداد وذلك بناء على مايظهره الانكليز من النشاط في الترتيبات والاستعدادات من انشاء مخافر جديدة وطرق في مناطق الثورة ونسف المغاور والمناورات وغيرها كان يدل دلالة صريحة على اننا امام طوارئ جديدة، وحدث جديد نفاجأ به. والاستعداد المطلوب هو تهيئة العتاد والسلاح ومبايعة ما هو موجود في أيدي الثوار في القرى والقيام بالتشكيلات اللازمة لاستبقاء المجاهدين منظمين وتحت الطلب. وكان الجواب اهمال.

٢- فوجئنا بالحدث وكان قرار التقسيم، فكتبت في ليلة من كركوك انه لا شيء يمنع التقسيم الا الاستعداد لثورة نشنها بأقوى مايمكن وباستماتة عظيمة. ومن العبث تعليق الآمال على الملوك وغيرهم. وان الرأي العام العربي المؤثر لا يكون ولا يهيجه مثل ثورة قوية تشترك فيها الاقطار العربية وتسيل فيها الدماء الغزيرة. فبهذه وحدها نؤثر على الرأي العام الغربي والصهيوني ونمنع كارثة التقسيم. وكان الجواب اهمال.

٣- ولما لم تجد المفاوضات مع الملوك ولم نؤثر على عزم الانكليز على مشروعهم

المشؤوم اخذت (الجماعة)(*) بالاستعداد وأخذوا كذلك يبحثون عن قائد للثورة الجديدة. فبحثوا في دمشق والعراق، وأخيرا استقر الرأي على محمد العجلوني (**).

– كتب لي العجلوني عن عزمه على عمل في شرقي الاردن. فكتبت له اني مستعد ان أكون جنديا في معيته.

وكتبت (للجماعة) بواسطة عادل العظمة ألا يحسبوا حسابي في ادارة اي عمل أكون فيه مسؤولا. واني أعرف واجبي عندما يدعوني الامر.

– اتصل العجلوني بجماعة ابن سعود كذلك. وتعلقت الآمال كلها عليه في عمل يقوم به في شرقي الاردن يستثمره ابن سعود و(جماعة) فلسطين.

– بدأ عمل العجلوني الذي كان معلقا عليه كل آماله والذي أعده من عشر سنين، وانتهى حيث بدأ وسبب أضرارا مادية ومعنوية. فانتبهت السلطة واحتاطت واعتقلت الشيوخ وأرسلتهم الى العقبة».

وبتاريخ ١١–٨–١٩٣٧ علمت نبأ مقتل بكر صدقي وكنت لا أزال في كركوك، وقد أبلغتني النبأ سرية من الفرسان كانت تمر بي يوميا في طريقها للتدريب اعتادت تحيتي صباح كل يوم. وبعد ساعتين جاءني هاتف من بغداد يبشرني به جميل المدفعي باستلامه الوزارة، وان أول امر أصدره هو الافراج عني ونقلي الى فيلا بكر صدقي في بغداد للاقامة بها.

وفي بغداد تعددت الاتصلات بي من جهات عديدة، بعضها جدية واقعية وبعضها نظرية خيالية، وكانت الاضطرابات قد تجددت في فلسطين الا انها لا تزال ضعيفة فكانت بحاجة قصوى لمعاونتها.

وعدت أكتب في مفكرتي :

« – انهارت الآمال المعلقة على العجلوني بعد فشل الحركة، واتجهوا نحوي من

* – أقصد جماعة المفتي.

** – هو ضابط اردني وكان يصرح لي أنه بدون وجودي لا أمل له بالنصر.

جديد. وكان الرأي العام في سورية وفلسطين وشرقي الاردن يرى ضرورة وجودي في قيادة الثورة الجديدة.

– اخذ ابن سعود يميل نحوي ويشوقني على العمل في الاردن، ويشترط المساعدة بعد البدء، و(الجماعة) يفهمونني بأن ابن سعود مستعد لمساعدتهم على شرط عدم اشتراكي في الثورة. وان ابن سعود ينفي ذلك ويقول العكس، والمدفعي صرح انه لم ير من (الجماعة) ميلا نحوي في العمل المقبل.

– حضر لعندي عز الدين الشوا وأفهمني انه مندوب (الجماعة) وانهم لا يثقون الا بي وهم مقتنعون انه لا يمكن أي عمل بدوني، وانهم يضعون أنفسهم تحت تصرفي ويطلبون مني ان اضع الخطة اللازمة وأعطي التعليمات وهم ينفذونها حرفيا، وان ثقتهم في العجلوني انتزعت.

– رسمنا الخطة والتعليمات بالتفصيل، ثم أعدنا الصلة (بصديقنا)(*)، وهو بدوره جدد الثقة والعلاقات مع (أهله)، ووعدنا بحضور مندوب مفوض ١٨–١٢–١٩٣٧ على ان يذهب عز الدين ويأتي بتفويض (من المفتي) ليكون في ١٨ حاضراً. سافرنا البصرة وحضرنا خطة تسليم (البضاعة) واتفقت مع جماعته وتم كل شيء على مايرام، ثم ارسلت حميد (مرافقي) الى بيروت ليطلعهم على تفاصيل الاتفاقيات.

– كان عز الدين قد سافر وهو يعدني بأن كل شيء سيتم خلال ٢٠ يوما، وعليه يطلب مني أن اكون جاهزا خلال هذه المدة، فوعدته، وعملت على ان اكون جاهزا واتصلت بالجماعات هنا وعطلت بعضهم عن أشغالهم.

– رجع عز الدين في ١٨ وأفهمني ان كل شيء على مايرام، ويجب ان اكون على استعداد، وان الطلب للحركة قريب جدا وانني مفوض للمذاكرة مع المندوب. حضر المندوب في الوقت المعين، ومعه ماطلبته منه. وبدأنا المذاكرة، وأخبرني ان

* – كانت المفاوضات قد بدأت بيني وبين الدكتور غروبا سفير المانيا في بغداد الذي اعرفه حق المعرفة، وكانت لديه تعليمات لمد الثورة وتقديم كل المساعدات لانجاحها والموضوع كله ينبثق عن شعور الماني يبغض كل نفوذ بريطاني. والأمر لم يتعد وعودا بالمساعدات.

(الجماعة) يعتمدون رجلا غير عز الدين وان العمل على هذا الشكل غير صحيح وغير جدي . فأقنعناه اننا سنحصل على تفويض لعز الدين وحده .

– ذهب عز الدين ولم يوفق لانهم كانوا فوضوا (الإمام)(*) من جهة وكنا مسخرة في عين (الصديق وأهله) (**) . ولما علم أهل (الصديق) ان غير الإمام شخص كذلك مفوض طردوه من عندهم على ألا يرجع اليهم الا بتفويض مني ومن (سميح)(***)، رجع وحضر لعندي وأعطيته التفويض وعاد الى مقر (الاهل) وكانت فضيحة .

– أتى كتاب ابن سعود، وهو تقدير وثناء على اعمالي وتضحياتي في سبيل العرب والاسلام وانه سيواجهني ويقدم لي أعلى الرتب والمناصب . وحماسه القديم بالنسبة للعمل فاتر، وعوده مبهمة، والموضوع غامض، وهو يطلب لنا التوفيق في العمل . وأخيرا رضينا منه أن يسمح لنا بالمرور في اراضيه فقط بدون أي مساعدة أخرى . لم يأت الجواب بعد .

– حضر (عزت دروزة) وأفهمني ان مطاليبي جاهزة من سلاح وتجهيزات ولا ينقص الا مقادير العتاد وهي على وشك الاتمام . وطلب مني ان استعد وأعد الجماعة ووعدني ان يزيد عدد السلاح ١٠٠ أخرى وانه لا يحسب أي حساب مسؤول للعجلوني فالكل تحت تصرفي .

– حضر (طلال) ووضع نفسه تحت تصرفنا وأنه مستعد للقيام بما نطلبه منه على شرط ألا نقتل أباه، فوعدته وأعطيته واجبات وانصرف .

– أحضرنا (الجماعة) مرة اخرى هنا، وعطلناهم عن أعمالهم ومنهم من استعفى أو استقال، وأرسلت حميد ليعلم الجماعة عن استعدادنا وليأتينا بمصاريف هؤلاء المقررة والتجهيزات . لم يحضر حميد .

* – هو الدكتور سعيد الامام (طبيب اسنان دمشقي) وكان يعرف الالمانية وقد ذهب إلى المانيا والقى خطابا شكر فيه المانيا علنا وهي أمور كان الاجدى ان تبقى سرية .

** – أقصد غروبا والمانيا .

***– أعني سماحة المفتي .

– حضر (كمال) وهو يعلمني ان قسما كبيراًمن السلاح والعتاد أرسل لفلسطين لتموين الحركات . وان الموجود قليل وأن العتاد يكاد يكون مفقودا . وأنه اذا لم يؤمن لي مقادير كافية يجب ألا أذهب . ثم يطلب مني ماهي مطاليبي وأنه مرسل من قبل (سميح) وان لا علاقة لهم بعزت ولا يدرون ما يعمل عزت .

– كان المقرر ان تضم قوة فلسطين من رجال ومال وسلاح وعتاد الى يوم الثورة الكبرى ، وان نموّن الموجود بالشيء القليل حتى نجعل الامن مضطربا فقط بحيث لا نصرف ما عندنا بثورة محلية ضعيفة .

– ابن سعود يقول عن لسانه (يوسف ياسين) و(كامل القصاب) انني انا المجاهد للاسلام والعرب، وانه يعتبرني كولده، وأن مقامي ومكانتي عنده أعظم مما يتصور، وأنني سأرى ذلك بأم عيني . وأما المساعدة فقد وكل الامر الى القصاب وسلّم للجماعة ٥٠٠ بندقية و١٢٠ صندوق وان مثلهم جاهز . وان ارتباطنا مع القصاب .

– بدأنا بالقيد والتنظيم . كذلك ارسلت ظافر ونوري (الجربة) وخلف (النعير) للاستكشافات والاستطلاعات، (وحمد صعب)، و(منير الريس) للقيد .

– تطوع ابن ياسين للمساعدة . حماس عظيم .

– تأخر عزت عن تنفيذ التعليمات وخاصة استكشافات الفرق والتفاهم مع المثنى عن المقر .

– حضر الحاج (*) بعد أن ارسل البضاعة التي صودرت مع الاسف، وتأخر العمل . ارسلت التعليمات المفصلة للتنفيذ مع الحاج ١٩–٤ » .

وتعثر بذلك مشروع حملة شرقي الاردن، الا ان مسألة انقاذ سورية كانت تشغل أذهاننا وخاصة بعد أن توضحت مطالب تركيا في الاسكندرون .

وسجلت في مفكرتي بعض خواطري عن قضية سورية :

« – أما المؤسف حقا فهي مسألة الاسكندرون . فاذا كان ما قرأته حقا ان

* – الحاج اديب خير وكانت اتصالاتنا بالمانيا عن طريقه .

الاتراك بقبولهم لغة ثانية في السنجق تكون سيادتهم مشوهة، تكون اسكندرون ضاعت واختنقت اصواتها بين الهتاف والتصفيق والضجيج للمجاهدين الذين تفتخر الحكومة بأنها تمكنت من ارجاعهم. فهل ارجاعهم يعادل خيانتهم اسكندرون. يجب احضار مغامرة جديدة.

– فاذا جاهدنا من اجل الغاء انتداب ودفع الظلم في سورية فأحرى بنا أن نجاهد من أجل اقتطاع رأس جسم سورية منها، من أجل اسكندرون.

– هل لا تصبح سورية بعد اتفاقية جنيف تحت حماية تركيا بموجب المادة التي تحتم على الدولتين حماية سورية من كل طارئ مهاجم – وفي نظري قد اصبحت سورية منذ تنفيذ المعاهدة تحت الحماية التركية– وبذلك تتجلى مطامع الترك والخطر المداهم لسورية. وهلا تطمع تركيا بسورية منها فتقفز عليها في أول فرصة تستسنحها على غرة وينتهي الامر ؟».

وفي ٢٧–٤–١٩٣٨ جاء في مفكرتي:

« حضر ظافر يحمل تكليف عادل العظمة بخصوص القيام بعمل شامل في سورية، كما كلفتهم عندما كنت في كركوك. يعترفون بفشل سياستهم، وبالخسارة التي لحقت البلاد لعدم اتباعهم نصائحي. يطلبون التعليمات. ارسلتها وهي مع ظافر».

ولخصت هذه التعليمات في مفكرتي بتاريخ ٣٠–٤–١٩٣٨:

«– يبدأون من الان بالاستعدادات التي تشمل جميع طبقات الشعب. ولتثبيت عدد من المجاهدين للقتال، وآخرون للاضراب وغيرهم للاغتيالات، وتثبيت أموال ضريبة على المتمولين والتجار، وأموال من ضرائب الحكومة التي تحول الى التشكيلات. والاتصال بالقبائل الساكنة والرحل والدرك والشرطة والجيش والارمن والاكراد وكافة الاحزاب، لتثبيت مقدار المسلحين منهم وتنظيمهم وتشكيلهم.

– ايجاد ثلاث قواعد للعمل:

١– الشمال الشرقي، جبل عبد العزيز.

٢– والشمال الغربي، جبل الزاوية وجبال اسكندرون وانطاكية.

٣– جبل الدروز والصفا.

– تبدأ الحركة بعد انتشار الثورة في الجنوب الشرقي والغربي: أولا باضراب شامل. ثانيا– بحركات مسلحة من القاعدة رقم ١. ثالثا – القاعدة رقم ٢. رابعا – القاعدة رقم ٣ . وتسري الى مناطق لبنان الملائمة.

– اعلان حكومة وطنية ديكتاتورية تدير الثورة القائمة في كافة سورية واعتبار قضية فلسطين وشرق الاردن وسورية ولبنان قضية واحدة وثورة واحدة تحت زعامة زعيم واحد.

– يشكل مجلس لادارة البلاد من سورية الكبرى وكل لجنة من اللجان أو الاحزاب الحاضرة تختص في منطقتها والزعيم يسير الامور على الاطلاق».

وتابعت الكتابة في مفكرتي بتاريخ ٢١–٥–١٩٣٨.

«– الوضع الحاضر في فلسطين دقيق جدا يتطلب النجدة.

– الهدف حسب القوة والترتيب إما عمان أو الجنوب من عمان تثير العالم.

– جميل المدفعي يكره كثرة الاتصالات (*) قائم بكل ما يجب بدون تحميس وضد فكرة مخاطبة رئيس نواب مصر. لا يمكننا ان نحصل على شيء لولا موافقته وتدبيره».

وفي ٢٤–٥–١٩٣٨ كتبت:

« حضر الهر (غروبا) وأعلمني انه أحضر الخرائط من لندن والماكينة وأبدى العطف القوي ومعلوماته عن وضعنا. فتفاهمنا. وأعلمني انه سيحضر في أواخر الشهر شخصيا مفوضا للمفاوضة وربما كانت النتيجة عملية، سنرى».

---

* – ورد في مفكرتي أن السفير البريطاني قد احتج مرارا عند جميل المدفعي وأعلمه أنه لم يعترض على جلبي إلى بغداد ولكنه لا يقبل اشتغالي بمؤامرات ضد فلسطين وبمسائل السلاح وقال له: « يجب أن يعلم فوزي أنه لا يمكن لفرنسة أن تسمح له بالدخول إلى سورية إذا لم توافق لندن على ذلك». وتكررت هذه الاحتجاجات مرارا وزادت مراقبة الجواسيس الانكليزية والعراقية عليّ كثيرا. زيد العدد في الاعظمية فقط ٥٠ تحريا اضافيا.

١٣-٦-١٩٣٨

«- اجتمع الهر. تأجيل حركة المندوب بسبب توتر اوروبا. يحضر في أول تموز. أمله في امكان المساعدة لسورية بسبب اسكندرون».

١٤-٦-١٩٣٨

«- (جمال الحسيني) كذلك يعطف ويرى ضرورة العمل في سورية، ويقول انه احتج لدى الاتراك والانكليز والافرنسيين.

- يقبل البضاعة وهو يدرس الموضوع».

١٧-٦-١٩٣٨

«- طلبني الهر (غروبا) وأعلمني انه سيرسل مندوبا خاصا يحمل تعليمات مطلوبة من المقامات المسؤولة. لذلك يطلب مني كل ما عندي من اقتراحات لطريقة تأمين مساعدة تكون نتيجتها اشغال الخصوم لمدة طويلة بصورة جدية. فأعطيته مقترحات من هذا النوع وطلبت منه السرعة الزائدة فوعد».

٢-٧-١٩٣٨

«- وصل المندوب وأحضر لي معه ماكينتين للتصوير، وتفرعاتهم وانهم مستعدون لتسليم البضاعة. وأراد المدير أن يتصل بهم (الدكتور) زيادة في التستر ويأخذ التعليمات مني».

٦-٧-١٩٣٨ (من موضوع نبيه العظمة)

«- خطر الترك أصبح ملموسا عند الكل. هنا (أي بغداد) يميلون الى عدم ايجاد أي شكل جديد - فرنسة استمالت تركية على حساب سورية. يخشون هنا من استمالة انكلترة لتركية على حساب العراق. الخط الشمالي داخل الميثاق التركي. جماعتنا يرمون الى توقيف مطامع الترك وايجاد وحدة عراقية سورية وبقية البلدان العربية على ان تصفي حسابها مع الاتراك وضمانة الحدود والاستقلال. هنا يريدون التقرب للترك بصفة زعامة العرب وجر العرب من ورائهم. هذا حسن ولكن الموضوع خيال.

انما القصد الاساسي لنبيه (العظمة) المشروع الثاني الذي اقترحته على عادل.

- ربما كانت هذه المصائب هي السبب الوحيد لتوحيد العرب وايقاظهم طالما لم يتمكن من ذلك الى الآن لا زعيم ولا هيئة».

٩-٧-١٩٣٨

«- الترك يرفضون التوسط.

- كتاب لابن سعود بلزوم مساعدة قضية سورية.

- الجواب سيدرس الموضوع.

- كتاب بلزوم المساعدة المالية».

١٦-٩-١٩٣٨

«- حضر المندوب ويقول كل شيء جاهز ضمن المركب ويطلب مندوبا للاستلام من المركز ويطلب ان يكون كل شيء منظم لآخر رصاصة».

١٧-٩-١٩٣٨

«- حضر المندوب بنفسه وقال أنه يوجد صعوبة في طريق البحرين، لذلك قرروا ارسالها الى الجزر محل التفريغ المقرر مباشرة على ظهر باخرة خصوصية. وان البضاعة مشحونة بكاملها داخل المركب ووزنها ١٢طن. وهو يطلب ذهاب مفوض لمرافقة المركب الى الجزر. وان السفرة تتحمل اسبوعين فقط.

- أعلمتكم اننا اضطررنا الى تبديل الطريق الاول ولقد ثبتنا طريقا يمر من الاراضي النجدية وهو أضمن من الاول ويصل الى نقطة الاجتماع العامة مباشرة. وأرسلنا الأدلاء للكشف وبعضهم رجع ينتظر.

- طلبنا حضوركم حالا وكنتم وعدتم الحضور قبل ذلك بأسابيع فلم تحضروا ولم تعلمونا الا اليوم. هذا اهمال لا يشجع على العمل الجاد المتوقف على أقصى التنظيم.

- ان احضار الجماعات اللازمة وترتيبهم يتطلب على الاقل شهراً فان كنتم

جادين احضروا أو اتصلوا انتم مباشرة مع من تحبون.

– احضروا معكم عبد القادر الحسيني.

– سنرسل حميد للكويت – وربما ذهبت بنفسي للبصرة وذلك اقتصادا في الوقت».

١٠–١–١٩٣٩

«– حضر عادل العظمة لنفس الموضوع الذي راسلني من اجله منذ اشهر عديدة. وان كل الثقة فيَّ انا. يضعون كل شيء تحت تصرفي ورغبتي لانقاذ سورية المستهدفة للهلاك وبدونها لن تستقل فلسطين.

– سوريا أم شرقي الاردن أم فلسطين؟

– الكل يطلب ويستصرخ والكل غارق في الدمار.

– سوريا قاعدة الجزيرة وحصن العروبة.

– نثابر على استعدادنا لخطة رقم ٣ كأننا لا نعمل بغيرها. ونهيىء خطة رقم ١ بحذافيرها. وننتظر نتيجة المؤتمر فاذا انتهت قضية فلسطين على وجه يرضي العرب فاجأنا العالم عندئذ بخطة رقم ١ والا نثابر على رقم ٢ ورقم ٣ واذا الجأتنا الظروف القاهرة ولم نجد مناصا فنغامر عندئذ في تنفيذ رقم ١ مع ٢و ٣ والله معنا ونصيرنا».

٢٦–١–١٩٣٩

«– أثنى راديو لندن على موقف شرقي الاردن من فلسطين، كيف ستكون حالة لندن عند المفاجأة. أي انذهال ودهشة تعتريهم وكم يكون جهلهم بروح العرب.

ولقد عاودنا الاتصال بابن سعود لضمان مساعدته في حملة شرقي الاردن وبعثنا له بكتاب مع الدكتور (أمين رويحة) ٥–٢–١٩٣٩ نشرح ما طرأ على المشروع من تطورات منذ رجوعي من المنفى وكيف ان هذا المشروع بقي يتأخر الى يومنا هذا لعدم تكامل اسبابه وقد شرحنا في هذا الكتاب أهمية شرقي الاردن، والاهداف التي ترمي اليها الحملة:

١– بسقوط الامير وحكومته يمكن الحصول على عدد كبير من الجيش العربي الذي ينضم الى الثوار مع اسلحته.

٢– يمكن الحصول على قوات مهمة من العشائر والقبائل الساكنة التي من شأنها تكوين عامل أكيد للتغلب على قوات الانكليز في فلسطين.

٣– تصبح شرقي الاردن قاعدة عسكرية وسياسية مهمة جداً لتموين واسناد أي حركة ثورية تقوم في فلسطين وسورية وتكون العامل الاساسي على انجاحها.

٤– تضطر شرقي الاردن الحكومة الانكليزية بعد ثورتها، الى ارسال قوات عظيمة جدا ولا يستطيع الجيش الانكليزي التغلب على ثورة تعم في شرقي الاردن وفلسطين بأقل من ١٠٠ ألف جندي، ومثل هذا العدد يتعذر جداً ارساله في مثل الظروف الحاضرة بل هو مستحيل.

٥– انقاذ شرقي الاردن من سيطرة الامير عبد الله الذي أصبح آلة صماء في يد الانكليز والذي يرمي الى قتل الروح العربية فيها وبث روح العداء ضد المملكة السعودية وبقية البلدان العربية المجاورة بما فيها فلسطين ليتسنى له عزلها عن المجموعة العربية ولتسهيل عملية بيع اراضيها للصهيونية وفتح أبوابها للمشاريع الاستعمارية الانكليزية – الصهيونية.

٦– وبما أن منطقة شرقي الاردن هي المنطقة التي تجاور كافة الاقطار العربية فهي كهمزة صلة يربط بينهم جميعاً وبضياعها تفكك الاجزاء العربية عن بعضها البعض ويصعب تامين أي وحدة بينها سياسية كانت أو اقتصادية أو عسكرية فيسهل استعمار كل قطر على حدة فتخف الآمال وتضعف النفوس».

وأكدنا في نهاية الكتاب أن كل هذه الاسباب والعوامل الحيوية تدفعنا للتضحية في هذا المشروع الذي ينقذ شرقي الاردن وفلسطين معا ويكون حجرا أساسيا لحل مشكلة سورية فيما بعد. واذا تيسرت لنا أسباب الحملة المادية وعطف ابن سعود ومساعدته نستطيع تامين كل الاهداف المذكورة. وان أشد الظروف حاجة الى هذه الحملة وأكبر الفرص السانحة هي هذه الايام التي نحن نعيش فيها وروائح البارود تتصاعد من كل عواصم اوروبة. أما احتياج الحملة فلا يتجاوز

حسب تقديراتنا ٤٠٠ مقاتل خارجي و٢٠٠ اردني يحتاجون الى ٦٠٠ بندقية والى ٣٠٠ صندوق من العتاد. ويحتاجون الى ألف دينار شهري وألف دينار للتجهيزات والسيارات وتكاليف الشروع والاعاشة».

وفي ٢٣-٢-١٩٣٩ رجع الجواب من ابن سعود فكتبت في مفكرتي:

«٢٠٠٠ دينار، ٧ مسدسات – ترحيب زائد – الطمع عقبة ومعان فقط – لا يعارض في المرور – بعد العملية وإزاحة قوة الحدود مستعد للمقاومة – سفير بريطانيا محتج على وجود الرسول (صديق فوزي) انه لذلك لا يمكن ان يسلم شيئا الآن – الخلاصة خائف حذر ...».

وكنت في ٢٠-٢-١٩٣٩ قد كتبت:

«حضر سفير بريطانيا لعند ناجي شوكت وسأله: هل الحكومة الحاضرة متعهدة بعدم السماح لفوزي بالخروج من العراق لفلسطين كما كانت الحكومة السابقة؟ ولما سأله: ناجي لماذا هذا السؤال؟ قال له: ان فوزي يجهز حملة لفلسطين. فضحك فقط».

في ٥-٣-١٩٣٩ كتبت:

«حضر عادل العظمة من دمشق.

– تمكن من تمهيد السبيل للسكينة في البلاد بينما تمت الترتيبات.

– أتم اتصالات التفاهم مع الشمال والغرب والجنوب.

– أنجز قسما كبيرا من الاستكشافات والاستخبارات. وأتى بخرائط وتقارير وستأتي البقية المفصلة.

– أتممنا بعض الاستكشافات والمستودع العام. (طه ومشرف).

– يجب ان نستلم السلاح والا نكون فاشلين امام حادث فجائي غير منتظر يضطرنا للعمل.

– السلاح بعد عودة الرئيس من مواجهة (عاصم) وأخذ رأيه والوقوف على

نواياه وهذا بطيء جدا.

– نوري يقول: لا تستقيل الوزارة وينقسم المجلس ويعارض ثم يطلب قسم منه الالتحاق بالعراق وليعلن ذلك. نوري يذهب حالاً لمواجهة عصمت.

– طه مستعد للتسليم حالا. أجريت التدابير اللازمة للاستسلام».

وفي ٢١-٣-١٩٣٩ كتبت:

«– ارسلت الدكتور لتأمين تنفيذ التعليمات الامنية التي لم تنفذ منذ ستة اشهر والتي دوما يفهموننا انها جاهزة.

– تأمين الاتصال مع ما يمكن من الجند المسرحين من أبناء القبائل وجلب الممكن جلبه لدمشق ووعد الباقي في نقطة التجمع واعطائهم.

– تثبيت نقطة التفريغ التي يجب ان تكون في نهاية السهل وأول الوعر في المنطقة الجنوبية.

– احضار الاشخاص الأدلاء اللازمة لجلب جماعة فلسطين الى نقطة التجمع.

– الاتصال مع رؤساء الجنوب والاستطلاع منهم عن حقيقة درجة استعدادهم وما يمكنهم تقديمه من الرجال المسلحين فور وصولنا.

– التثبت من المابة بندقية افرنسية مع ١٠٠ مشط اين صارت ولمن وزعت وأين هم الرجال الأردنيون الذين استلموها. واعدادهم جاهزين للاشتراك عند وصولنا في نقطة التجمع. واذا لم تكن ارسلت لتأمين ارسالها كاملا للجنوب.

– تأمين مركز في البلقاء لوصول قوة فلسطين اليها وتثبيت طرقها ودليلها واعاشتها».

وفي ٤-٤-١٩٣٩ كتبت فجأة في مفكرتي:

«عاد الدكتور (أمين رويحة) بالنتيجة الآتية:

ابن سعود معلم الانكليز عن كل خططنا – لن يشترك اردني واحد مسلح معنا.

وقد يحضر ٤٠ منهم على ان ننقص من موجودنا الحاضر لنسلحهم – كافة شرقي الاردن والحكومة تعلم عن عزمنا على حملة شرقي الاردن.

حضر الدكتور ملحس وهو يقول: ان ابو غنيمة كتب كتابا مفصلا عن خطتنا في الجنوب الى اصدقاء له اعلموا الامير بكل تفصيل – ارسل الانكليز على الاثر ٨ دبابات الى الطفيلة – الخلاصة لا يوجد أي استعداد مهم في شرقي الاردن – لذلك اما احضار حملة من ٤٠٠ مجاهد خارجي وضرب شرقي الاردن أو الذهاب مع الموجود الى فلسطين رأسا لانقاذهم على طرق وأسس سنة ١٩٣٦. الحل النهائي أصبح في يد طه: الترخيص لنا، ١٠٠ أو ٥٠ بندقية، ١٠٠ أو ٥٠ صندوق».

وتابعت الكتابة في مفكرتي كما يلي:

« – تطور قضية فلسطين – رغبة الاخوان، الحاحهم، مقاصدهم، آراء الجماعة هنا، مقاصدهم وما يرون عمله.

– مذاكرات تركية ومطاليبهم.

– مايرونه هنا من أجل سورية.

– موقف الانكليز المحتمل بالنسبة الى سورية.

– مراحل المسألة السورية.

– موقف الاحزاب وتأثيرها السيء عند الاصدقاء والاعداء.

– ابن سعود بالنسبة الى فلسطين وسورية والعراق.

– اقتراحي بشأن عملية شرقي الاردن وفلسطين وسورية وجعل القضية واحدة في هذه المنطقة.

– خلاصة المذاكرة مع الهر (غروبا) ٢٣–٤–١٩٣٩.

– آخر قرار. وتفاهم مع معين (الماضي).

– تصريح طه بحضور عادل العظمة ٢٩–٤ ايش بصير على العراق. ابدا ما بصير شيء من ذهابك ولكن المفاوضات يجب ان تنتهي.

– موقف الجماعة هنا الجامد بعد اندفاعهم وما سببه من أضرار في ترتيباتنا في سورية وعلى حملتنا بفلسطين.

– حضور جمال ١١–٥. أعاده الموضوع بفس القرار الذي أتفق مع معين. الحركة بعد موسم الحصاد.

– ١٣–٥ مواجهة جمال لطه. طلب طه اجتماعنا مع عادل وجمال للبحث في الموضوع. المفاوضات فشلت. الانكليز لم يقبلوا بمقترحات العرب. ربما كان هذا الرفض ناتجا عن انحلال الثورة – ودخول تركيا في جانب الانكليز. جمال واخوانه يرون استمرار الحركة في فلسطين واهمال كل امر مهما كلف الامر.

– تقدم الاستعدادات في سورية.

– مجلس طه: ١٥–٥–١٩٣٩.

– بسط عادل قضية سورية والاستعدادات القائمة وألحّ بلزوم السرعة في العمل، ثم أيد فكرة المسارعة الى مساعدة ثورة فلسطين بعد فشل المفاوضات، وترك البت الى طه.

– جمال – اعطى الفشل في المفاوضات ورجوع الانكليز للوراء، واستعدادهم للعمل وترتيباتهم الجديدة في فلسطين وشرقي الأردن، وعدم امكان قيام ثورة في سورية، لانفراط الاحزاب بصورة مشينة، وانحلال الكتلة والتخاذل السائد وعدم استعداد الشعب للمساهمة بالثورة. لذلك يطلب صرف النظر عن سورية.

– أنا – شرحت الاستعدادات الموجودة وطريقة العمل المثمر وحماس الشعب وعدم تأثير الاحزاب وتحالف الاحزاب على قيام ثورة سورية، ثم الحالة الهادئة في فلسطين وشرقي الاردن وانها تطلب ٤٠–٥٠ مقاتل يشعلها ويلهب فلسطين ويجعل قاعدة من شرقي الاردن للعمل فيما بعد في ثورة سورية المهيئة، وان هذه الثورة أو الحملة تتوقف على موقف العراق.

– طه – سأل لماذا وقفت الثورة.

– جمال – من تأثير المفاوضات.

– طه – ماهو احتياجكم؟

– جمال – مال وعتاد.

– طه – هذا مؤمَّن والعتاد بقدر ما تحتاجون.

– انا الجمال – لِمَ لم تطلب منه ذهابي مع الحملة؟ الموضوع الذي هو بيت القصيد.

– جمال لطه – نحتاج لفوزي (*) ليجعل منها قوة ولها رونق وتأثير عاجل للنتيجة.

– طه – أنت لم تطلب فوزي، فاترك مسألة فوزي فهذا موضوع مستقل لا يمكن البت فيه وحدي فهو مكفول من قبل الحكومة العراقية، ومسألة فوزي مسألة دولية ومسألة اعلان خصومة حكومة العراق للانجليز، ومع ذلك سنرى فيما بعد الموقف والظروف فاذا فهمت الظروف فسنرسله بالرغم من كل شيء.

ذهب جمال على ان يكتب لنا بعد التفاهم مع (سميح) ويكتب لطه بلزوم ارسالي، ووعد ذلك بظرف ١٠ أيام فلم يكتب ولم يجاوب، كما فعل معين الماضي عينا اذ ذهب من هنا على ان يكتب لنا بمجرد ظهور الكتاب الابيض لأكون في حل من كل قيد وعد اعطيه لطه. وهكذا اهملنا للمرة الثالثة.

– راجعني عز الدين (الشوا) ١٠–٧ وأعلمني ان الجماعة أي (سميح) يحبون أن يعلموا فيما كنت لا أزال مصمما على العمل معهم، فأجبته بأني مستعد على شرط أن يكون الموضوع جديا ويبقى مكتوما عن أمين رويحة، فرجع على هذا الاساس وعلى أن يأتيني بالتفصيلات فلم يكتب ولم يحضر الا بعد ٢٠ يوما

* – ورد في رسالة بعث بها أمين رويحة في ٣–٧–١٩٣٩ ما يلي: « وجمال الحسيني يعلق أهمية كبيرة على امتداد الثورة الى شرقي الاردن. كذلك المفتي، وقد اطلعني على كتب جاءت له من شرقي الاردن دلت على كثرة اهتمامه بالموضوع وعلى شعور طيب في شرقي الاردن. وهذا ما أكده أيضاً الشريقي وأبو صلاح الطباع. والأخير يقول ان الاهالي لا يثورون من نفسهم ولكنهم متحمسون وخصوصاً إذا جئت أنت بنفسك فسينضم معك الكثيرون منهم وانهم سيسعون لزيادة رجال فلسطين ولكنهم لا يمكنهم الوعد بالنجاح. ولكنهم واثقون من أن الآلاف من المجاهدين سينضمون إليك بعد وصولك وأظن أنهم جادين معنا وسيبذلون كل جهدهم لاجابة جميع مطالبنا ».

وبدون أي اقتراح.

– كتب لي (....) يطلب مني اعلامه عن عزمي العمل معهم وذلك بعد مقابلته لسميح وتكليفي له فأجبته، وأنا واثق بعد رغبتهم، انني مستعد، وانني كلفتهم مشروعي الضخم الذي يضم كل ماعندنا من سلاح لفلسطين ولسورية، فأجاب، ان سميح يقسم بأنه لا يعلم بهذا المشروع وانه مستعد حالا لتنفيذه، ومن هذا القسم أيقنت انهم يماطلون ويراوغون من جديد، الا أن هذا المشروع قدم لهم على الاقل ١٠ مرات باقتراحات عن طريق معين وعز الدين وجمال وأمين، ومني.

اتاني كتاب من (...) يستغرب تأخرنا في اجابته ويقول ان هذا المشروع الضخم هو مشروعكم فكيف لا تجيبون. لذلك يلح علينا بناء على طلب سميح ان نجيبه ونكتب اليه ما يحتاجه هذا المشروع ليقدموا لنا ما نحتاج فورا.

فأرسلنا ميزانية مفصلة وبعد مدة كتبوا لنا ان (المهر باهظ) لذلك صرفوا النظر عن المشروع. وراجعنا أمين التميمي في الموضوع وطلب الينا ان نعلمه درجة استعدادنا. فأعلمنا بالمشروع وتفصيلاته، فاظهر حماسه الشديد لتأمين ما يلزم وانه سيكتب لنا عند مواجهته لسميح. والى يومنا هذا لم يكتب لنا.

– الخلاصة: انهم لم يرغبوا يوما واحدا رغبة حقيقية في استلامي قيادة فلسطين وكل ما ارادوه ان اكون ضعيفا جدا بحيث لا استطيع إحياء الثورة، ولكنها على ظنهم انها لا تموت بوجودي فيها، فيستمر المورد والعطف ويكونون من جهة اخرى قد منعوني من العمل في سورية وهذا بيت القصيد بالنسبة اليهم، لانهم يعتقدون ان ثورة في سورية تعرقل عليهم اعمالهم في فلسطين. هذا صحيح ولكن ما العمل والافرنسيون جعلوا من سورية كيانا مستعمرا وممزقا ومعرضا للفناء أبديا وبسرعة؟ لذلك لا بد من سورية فهي ان انقذناها ننقذ بها فلسطين والعرب وبدونها لا عرب ولا عروبة».

وعن تطور قضية سورية كتبت في مفكرتي أنه:

« بعد اليأس والمماطلة:

– اضطرارنا مفاتحة الضباط وارغامهم على المداخلة.

– تهديداتنا للوزراء – ثورة الجيش عليهم في حالة عدم مساعدتهم لنا ونكوثهم بالوعد.

– ارسال عادل لنجد – التفاهم معه على طريقة العمل، تعهده بتقديم مايلزم كما يقدم العراق، وانه يحارب لمنع الملكية.

– اعادة الكرة هنا مع الجيش والوزراء.

– اعطاء الف، أخذ الفين.

– ابن سعود على الوعد بالدوام – تسليحه لنا – وان هذه ثقة الملك وان حكومتين تساندني في مشروعي هذا.

– كثرة الحاج امين (رويحة) بالمداخلة واشاعاته علينا من كل نوع من أنواع الفساد.

– ثباتنا، كتماننا ومضينا.

– ١٤–٨ اعادة الكرة وارسال الكتب للمراكز بلزوم الاستمرار.

– تأثير قضية المؤامرة وتدابير السلطة على احراج موقفنا واشكال أعمالنا.

– لزوم جمع المجاهدين وارسالهم عن طريق الاردن الى العراق.

– لزوم تضليل الافرنسيين عن حركتنا بعد الاشاعات العديدة عن عزمنا حركة في سورية.

– صبغ حركتنا وتوجيهها كأنها لفلسطين.

– تثبيت القواعد في حدود العراق.

– تأمين الأدلاء.

– كيف الطرق (جبل الزاوية، الفرات، الدير، تدمر، قريتين وخاصة قلمون).

– استخبارات عن مراكز الافرنسيين ودورياتهم وجمع ترتيباتهم.

– البحث عن امكان ارسال السلاح الى جبل الزاوية، جبل الدروز، الصفا، الغوطة.

– تأسيس ارتباط واتصال مع شخصيات لتأمين عصابات معاونة في جبل المتاولة، منطقة الزبداني، الغوطة، الصفا، جبل الدروز.

– البحث عن مراكز للاعاشة في جبال قلمون وتأمين ايداعها.

– الخيل والبغال شراؤهم وحفظهم في مختلف القرى إلى حين الطلب مع محافظين لهم وعددهم الكاملة ليساقوا الى ميدان العمل.

– رسل المخابرة بنا والمراكز.

– رجال الاغتيالات وتأمين جلبهم.

وفي ٢٠–٨–١٩٣٩ كتب:

«– استلام الدكتور (رويحة) ٥ آلاف من المانية، شروطه للتسليم الاطلاع على الخطة والاشتراك بكل التدابير. فهل طلب المعلومات والاشتراك بالتدابير، لاطلاع المصدر على كل أعمالنا وتوجيه هذه الاعمال حسب سياسة المصدر، لقاء المبلغ؟ وهل هذا هو كل المبلغ أم هنالك مبالغ أخرى مجهولة؟

– تحريضه الجيش على عدم الاشتراك في اي حرب تقع ضد المانية وابن سعود».

وفي ١–٩–١٩٣٩ كتبت في مفكرتي:

«اشتبكت المانية بالحرب وسيجر من ورائها بقية الدول. ماذا عسى يكون حظ مشروعنا؟ ما دام السلاح والتجهيزات والاعاشة والمال في قبضتنا فلا بد من انقاذ سورية في فرصة تأتي، ولربما لعب هذا السلاح الدور الخطير المنتظر».

والحقيقة اننا وعدنا بالسلاح وعلى اساس هذه الوعود كنا نرسم الخطط ونستكشف الطرق ونقدر الاحتياجات، ولو استلمناه لكنا استخدمناه في فرص كثيرة، الا أن الحرب قد أوقفت هذه المشاريع.

وقد اتيحت لنا فرصة العمل مجددا بنشوب ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق ١٩٤١ . وكنت قد كُلفت بمهمة رسمية في منطقة الرطبة بعد أن تجسم لدى القيادة خطر طريق عمان الرطبة والحرة. وفي مفكرتي دونت بعض الوقائع أثناء تنقلنا في المنطقة بين الحدود العراقية والسورية، وما واجهته من صعوبات في الطريق مع أخبار اشتباكاتنا مع القوافل المعادية القادمة عن طريق الاردن .

وفي ١١-٥-١٩٤١ كتبت :

« – تمرد الجنود المتطوعة واصرارهم على الرجعة – وكذلك بعض أفراد الشرطة .

– تمرد جماعات البوكمال وتجريدهم من السلاح .

– سوء حالة الاعاشة لعدم رضا معاون الرطبة اعطائنا الارزاق الكافية والبنزين » .

١٢-٥-١٩٤١

« – نقصان (التايرات) جعلتنا نقطع المسافات بمدة طويلة .

– ثقل الاحمال في اللوريات جعلتنا نتحرى الاراضي الصالحة .

– قلة البنزين حدت من اتجاهاتنا .

– العطل المستمر في السيارات المسلحة وغيرها جعلت المسير بطيئاً للغاية .

– اللاسلكي بطارياته فارغة وشحنها يحتاج الى أربع ساعات .

– اضطرارنا الى الاتجاه الى الرحالية لعدم رغبة الشرطة في السير الى الشمال نحو محيور والكبيسة ولبعد الطريق ولقلة البنزين ولضعف القاوتشق .

– بسقوط الرطبة سقط كل امل في امكان تأسيس قاعدة في هذه المنطقة لحركاتنا .

– جمع السيارات الانكليزية الموجودة في المراكز وارسالها لنا بكامل تجهيزاتها .

– سيارة تحمل ادوات تصليح كاملة مع مهندسين للسيارات .

– اقتراح .

– ان العمل الجدي لا يكون بالمتطوعين .

– خطورة الرطبة بعد سقوطها .

– ضرورة جدية العمل قبل استفحال خطرها .

– قوة نظامية لاستردادها وتطهير حدود العراق من العدو .

– جمع المجاهدين والمتطوعين » .

١٥-٥-١٩٤١

– « سيارات الشرطة المسلحة وإلحاقها بقوتنا .

– استخبارات عن الرطبة .

– تنظيم شفرة للحركات » .

٥١٧-١٩٤١ « تقرير من قرب الروضة .

مرور الرتل :

– من جبهة الى الكرم – ١٥٠-٢٠٠ سيارة – الفجر كان يمر من جبهة الى الكرم – نشاط الطيران البارحة – أخبار الرسل عن الجسر – وصول السيارات .

– من طريق الجسر المحمديات – لم أجد أحداً من العدو – الظاهر ان الرتل تحميه مسلحات ومصفحات – حرارة هائلة ، عاصفة رملية هوجاء – السيارات التي خرجت من الجسر عادت المساء – مدفعين نصبوا في الجانب الغربي – سألوا عن قوة الفالوجة .

– قوة العدو (أبو الفروخ) البارحة ليلاً وهم باقين الى الآن ، عشر سيارات أو أكثر قيافة هجانة تماما ضابطهم يلبس غرة بيضة لغته العربية ركيكة . حجزهم ان يبقوا الى الصباح وقبل الفجر ارسلهم وافهم انه ٧٠ سيارة ذهبت للجسر وهو يخشى عليهم من مصادفة السيارات – الضابط عيونه زرق .

– انتهت المهمة ، رجعنا من مكمننا في جوار الروضة الى الرحالية » .

١٨–٥–١٩٤١ « الرحالية .

– فعالية طيارات فوق منطقتنا – اخبار الرسل عن قوة أبي حنيك – الجاسوس اعترف انه مرسل من أبو حنيك لتصيدنا – دورياتنا في منطقة الروضة – العدو مجمع في قارة فهد . ترتيباته نقطة في أبي الفروخ وأخرى في قصر الحير وفي جبهة– تم تنظيم المفرزة عندنا – خبر خروج قافلة الارزاق والسيارات من بغداد . استعداد قوتنا للحركة من بغداد . طلب التعاون للمباغتة مع سعيد » .

١٩–٥–١٩٤١

« – نحن لانزال بانتظار عودة سياراتنا من التصليح في كربلاء ووصول القافلة والقوة من بغداد . حياة بطالة مملة بدون عمل – العدو الموجود في قارة فهد انسحب امس الى جسر الحبانية – حرارة الجو معتدلة جداً » .

٢١–٥–١٩٤١

« – وصلت المفرزة الى كربلاء – سياراتنا في كربلاء لم تصلح بعد . ارسلت وجيه لجلب ما يمكن جلبه منها – ارسلت مفوض اضافة على المفوض صالح الذي ارسلناه امس لجلب المفرزة وحراسة السيارات التي يمكن تصحيحها – لم يشاهد نشاط للعدو اليوم .

– أخبار جسر الفلوجة والفلوجة تقلقنا – الجو جيد » .

٢٣–٥–١٩٤١

« من رحالية الى هيت – الحركة للمقر الجديد .

تجولنا في منطقة ابي الفروخ وسرنا على طريق الجسر طريق الرطبة . وبتنا في عين وزا» .

٢٤–٥–١٩٤١

– « تقدمنا الى الطريق قرب المحمديات بقصد العبور الى المقر الجديد . معنويات الشرطة رديئة جداً خاصة المفوض صالح فهو يكاد يثير قضية سوري عراقي وفتنة المعسكر. اما السيارات الثقيلة فهي بلاء ولا يمكن أي حركة معها وتسبب

اجهادا لا يطاق وإضاعة في الوقت لا يتلافى . لا بد من التخلص منها .

– تحركنا صباحا من وزا الى قرب الطريق . فكان رتل من سيارات مهمات العدو يمر باتجاه الرمادي . رؤيتهم فقط سببت ذعرا عظيما خاصة في نفوس الشرطة وآمر السرية . أضاعوا رشدهم . ارسلت سيارات مهمة لاستطلاع احدى الوديان . فأخذوا يتخيلون كل حجرة أو شجرة دبابة معادية . وهذه المعنويات سببت لنا عدم الاتيان بأي حركة ضد العدو . وهكذا فلتت من أيدينا فرصة قيّمة نادرة . ولكنا اخيراً أرغمناهم على العبور وتم بسلام . ولكن سيارات الشرطة المطلوب منها اتخاذ التدابير اللازمة لحماية المرور لم تلتفت اليها، بل مروا الطريق مرور الشريد وتركوا القوة تحت رحمة أي سيارة معادية واحدة . وصلنا مساء الى الكبيسة . فكان حماس شديد وهوسات وكرم زائد . فاتصلنا مباشرة بصديمي وهيت والحديثة » .

٢٥–٥–١٩٤١ « كبيسة

– ارسلت المعاون السيد محمد الياسين مع ضابط من كل سرية لتأمين محلات للقوة في هيت . نحن ننتظر تلفونا للحركة الى هيت – تبدو باتصال مستمر مع العدو من الكفرة الى الرطبة . وهو مركز للدعاية والاستخبارات المعادية وللشغب .

– رسول أبو حنيك : عيسى الكباس – رسل من قبلنا الى مناطق العدو من اهالي كبيسة » .

٢٧–٥–١٩٤١

« نزحت عوائل كثيرة من الرمادي بفوضى وحالة يرثى لها . هوجمت ونُهبت من قبل بعض أفراد أبو عساف – اتخذت تدابير شديدة وأنقذ الكثير منها . سرقات عامة وفوضى واسعة . ارسلت مقترحات وتقارير خاصة – تنتهي القوة للحركة نحو الغرب استطلاع وقتال » .

٢٨–٥–١٩٤١

« أخبار الرسل – قوة ضعيفة في الرطبة – تحكيمات جوارها ونقل الجنود بالطائرات الى أبي قور من فلسطين – الاتيان بسرية للرطبة – الرطبة قاعدة –

تموين – الحركة غداً».

۲۹–٥–۱۹٤۱

«تحركنا الساعة ٤ صباحاً باتجاه العوامل. فصيلين ٨ سيارات مدفعين ٣ مدرعات. الساعة ١٠ تصدينا الى قافلة مسلحة معادية، وبعد غارة قصيرة شتتنا القافلة، وأسرنا ١١ نفر وجندي وستة سيارات وكثير من العتاد والسيارات المعطلة. تأثير عظيم، حماس كبير (*).»

۳۱–٥–۱۹٤۱

– «تحليق الطائرات اليوم – الاخبار السوداء. هدنة. فرار القواد. قرار الحركة الحديثة.

– تأثير أخبار الهدنة السيء والخطير».

۲–٦–۱۹٤۱

– «وصولنا الحديثة – الاوامر بتسليح المعدات والسيارات والجنود.

– حماس الضباط. قرار الاشتراك بالحركة. التردد. القرار. وأخيراً الثبات على اتباعي».

۳–٦–۱۹٤۱

– «وصول عانة. الحماس الشديد والهوسات. الاستقبال. وضع القائمقام مع متصرف الرمادي. التجسس علينا من قبل حكومة الرمادي. الخوف والحذر الشديد بنا.

* – أذكر أن بين السيارات واحدة فيها قطع غيار لآليات الجيش البريطاني والثانية فيها قطع أقمشة كيميائية ضد الاحتراق. وقد مر بمقري بعد الحادثة عز الدين الشوا وطلبت منه أن يقوم بمهمة الترجمة بيني وبين الأسرى البريطانيين. وبهذه المناسبة أذكر أنه في أثناء اعدادنا لثورة ١٩٣٦ قدم إلى منزلي في بغداد عوني عبد الهادي ومعين الماضي وعز الدين الشوا مبعوثين من قبل المفتي، وقد ذكر عوني عبد الهادي أنه يتمنى لو يرى فلسطينيا يصفع ضابطا بريطانيا على وجهه وأجبته أن صفعة عربي لضابط بريطاني ثمنها القتل، وطلقة رصاص على ضابط ثمنها القتل، فلماذا تفتش عن الارخص. أما عز الدين فقد قال ان ما يتمناه أن يرى في يوم ما ضابطا عربيا يأسر قوة انكليزية ويتولى، أي عز الدين، الترجمة.

– ارسال حمد بك مع الاخ للاتصال – وصول علي عبد الكريم (الدندشي) – تلفون المدفعي لنا».

٤–٦–۱۹٤۱

«ارسال علي عبد الكريم (الدندشي) للاتصال – الاتصال والقوة والحركة والحالة – الاعانات – ملجأ».

۹–٦–۱۹٤۱

«أرقام المصفحات الانكليزية المعطوبة في معركة الخضيرة حصيبة».

وتصمت مفكرتي بعد هذه الحادثة، ولكني أذكر جيداً أنه زارني بعد معركة الحصيبة في مقري بين الحدود العراقية السورية الدكتور «ران» مندوب ألمانية الذي حضر الى سورية للتأكد فيما اذا كان الجيش الافرنسي الموجود في سورية قائماً بتنفيذ وقف القتال بعد هزيمة الجيش الفرنسي في اوروبة. وقد طلب مني ان يأخذ السيارات التي وقعت في يدي أثر الموقعة لانهم أحوج لها مني، وطلبت مقابل ذلك ان أعطى تجهيزات لعشرة آلاف مقاتل من ملابس وسلاح ومدفعية عدا الطائرات من النوع والمقادير التي يستخدمها الجيش الفرنسي، بعد ان تهيأت الفرصة الآن لتنفيذ خطتي في سورية التي رسمت قبل الحرب. وكنت قد عاودت الاتصال برجال القبائل على الحدود. ولكني علمت وقبل أنْ أتمّ الاعداد بأن قوة بريطانية تتقدم نحو تدمر لتطويقها، وتوجهت مع جماعة صغيرة لانقاذ تدمر، وخشية أن تطول المسافة وجهت نداء خاصاً دعوت فيه القبائل للانضمام وطلبت من أكرم زعيتر أن يذيعه بعد انطلاقي. واتجهت من الحصيبة الى البوكمال في رتل من السيارات. وبعد استراحة قصيرة في الطريق، سبقتني خلالها مخابرات قائد منطقة الفرات الفرنسي الكولونيل «ريو دوكرو»، وكان مقره في دير الزور، وقامت طائرات بريطانية بقصف سيارتي وكنت استقلها مع ثلاثة آخرين بينهم حمد صعب، ولم أعِ سوى أصوات مدوية ودماء ساخنة تسيل على جسمي. ما حدث فعلاً أنه إثر القصف قُتل حمد صعب والسائق وجرحت مع مرافقي الآخر، ونقلت في سيارة بيك آب الى المستشفى في دير الزور ثم الى مستشفى حلب حيث جاء الزعماء السوريون لزيارتي وقد فقدوا الامل في انقاذ حياتي. ودبّر الدكتور «رآن»

أمر نقلي الى ألمانية .

. . .حينما فتحت عينيّ، وجدت نفسي في مستشفى « هنزا كلينيك » في برلين وكان لباسي عبارة عن اربطة بيضاء تلفني من أعلى الرأس الى أخمص القدمين . وهنا عاد الوعي الى نفسي، فتمثل لي شبح المعركة التي صُرعت فيها .

فقد كنت يومئذ مسرعا الى نجدة تدمر، بعد الهدنة التي عُقدت بين الجيشين العراقي والبريطاني في حرب ١٩٤١، ولم أتقيد يومئذ بهذه الهدنة أولاً لانني لم أكن مرتبطاً بصورة رسمية بالجيش العراقي، وثانياً لشعوري بمقدرتي على الاستمرار في الكفاح .

كانت عناية الالمان بي ممتازة فعلاً، وقد استقدموا لمعالجتي من الجبهة البروفسور « تونيس » وهو من اشهر جراحي العالم، فأجرى لي العمليات اللازمة في رأسي وجسمي ، وأخرج منهما تسع عشرة قطعة رصاص، ولكن رصاصة واحدة في مؤخر الرأس عجز عن اخراجها ، وهي لاتزال في نقطة ما من رأسي . وقد وصف جسمي بأنه منجم رصاص وان بقائي حياً هو أغرب حادث عرفه بين ألوف الحوادث التي مرت به في عملياته لجرحى الحرب . وكان يعودني من وقت لآخر شخصيات من الحزب النازي تتفقدني في المستشفى بصورة تكاد لا تنقطع، وكانوا يسألونني باهتمام عن المعاملة التي ألقاها في المستشفى . وبعد مضي ستة أشهر تقريباً على وجودي في المستشفى، سمح لي بالتجول في حديقته، وبدأت احاديث الذين يعودونني تتخذ شكلاً جديداً ويتخللها الاعراب عن اغتباطهم بشفائي، وترديد هذا القول على مسمعي : « انك ستستطيع قريبا مغادرة المستشفى، فتستعيد نشاطك وتشترك في القتال » . وكانوا يشيدون بالنصر الذي تلاقيه الجيوش الالمانية في مختلف ميادين الحرب، ويستبشرون باقتراب بعض هذه الجيوش من حدود البلاد العربية .

وكان قد لحق بي الى المانيا المرحومان اخي يمني وابني مجدي، ليطمئنا الى سلامتي ويطمئنا والدتي، وكانا ينامان في المستشفى حيث كنت أعالج . وذات يوم دخل عليّ ضابطان المانيان ومعهما اشخاص باللباس المدني، وأخذوا يرددون عليّ تلك الاحاديث التي كنت بدأت أملّها . على انهم كانوا هذه المرة أوفر صراحة

وأكثر جداً، فأضافوا الى أقوالهم السابقة قولهم : « ستتعاون معنا في تحر[illegible] العربية » . فقلت لهم : « انا لست قائداً في جيش ولازعيما، وليس لي أية صفة رسمية ينتفع بها في حالة اشتراكي في الحرب . ولديكم في المانيا زعماء عرب، كسماحة المفتي الحاج أمين الحسيني والسيد رشيد عالي الكيلاني، وهما قادران ان يعاوناكم معاونة قد تنتفعون بها » . فرد عليّ أحدهم قائلاً : « أنت محارب قديم ولك خبرة ونفوذ، فمعاونتك لنا قد تكون أجدى من معاونة السياسيين، ونحن في حالة حرب » . قلت : « وعلى أي اساس تطلبون مني الاشتراك معكم في الحرب، وماذا يمكن ان يجني العرب من هذا في حالة انتصاركم؟ » قال : « هذا أمر ليس بذي بال، والمهم هو أن تثق بالفوهرر » ، قلت : « وما إلفائدة من ثقتي بالفوهرر، وأنا فرد من أفراد العرب؟ ان المهم ان تثق الامة العربية بالفوهرر، وبما يقطعه لها من عهود » . وانصرف الجماعة وفي نفوسهم شيء من عدم الارتياح (*) .

* * *

وقد عاودت الكتابة في مفكرتي بعد أن اجتزت مرحلة النقاهة :

« من كروم ماخر (**) ١٤-٨-١٩٤١ .

– زيارات أنواع السيارات المسلحة والمقاتلة – المتحف العسكري وبقية المتاحف – مستودعات التدريب .

– طلب كروم ماخر كتاب (البدو) رقم ٢ من الحركات .

– وافق على كل المواضيع ووعد بالتنفيذ وبمرافقتي شخصياً » .

وقد طلب كروم ماخر ان اكتب تقريراً كاملاً عن الحركات في العراق وأسباب الهزيمة وكتبت في مفكرتي مايلي :

* – حدثت مشادة بيني وبين أحد الضباط الالمان من تشكيلات القوة المعروفة بـ .S.S بعد أن اصررت على اخذ اعتراف رسمي بحقوقنا واستقلالنا قبل الالتزام بالعمل بجانب المانية، وهددني قبل مغادرته غرفتي في المستشفى . وفي اليوم التالي علمت أن ابني قد نقل لاجراء عملية سريعة في معدته أثر تناوله دواء معينا توفي على أثرها وحضر لتعزيتي ضباط المان كبار على رأسهم غروبا . وأخبروني بأن الفوهرر أمر باقامة جنازة عسكرية له، ورفضت الخروج بالجنازة مخاطبا اياهم بأن الذي قتله هو الذي سيخرج بالجنازة .

**– كان من القيادة العامة الالمانية وقد بدأ يتردد عليّ وأنا في المستشفى .

... « – العوامل التي أدت الى الحرب – حالة الجيش العامة قبيل الحرب – العوامل التي أدت الى خسران الحرب – حالة البلاد العربية وشعورها خلال الحرب العراقية الانكليزية – موقف الالمان من العراق والبلاد العربية قبل الحرب وبعد الحرب – اعلان الحرب – حالة القيادة العامة والوزارة ومدى تأثير مداخلات الشخصيات غير العراقية في الامور العسكرية والسياسية مباشرة – أهمية طريق عمان الرطبة والحرة – أهمية الدجلة – درس تشكيلات الحرب – استعداداتنا الناقصة ، بعد تجسم خط الرطبة لدى القيادة طلبهم ذهابي ولو شخصياً لوحدي – الحركة من بغداد. الصعوبات والمشكلات في الطريق، من المتطوعين والسيارات وأدوات السيارات . معارك الرطبة، تأثيرها، نتائجها. تخوف العدو من التقدم . تعطيل المواصلات » .

وعدت أفصّل في مكان آخر من مفكرتي حركات بريطانيا في العراق في تقرير (سيقدم) على النحو التالي :

– « كيف استعمل الانكليز آلياتهم في حرب العراق – الآليات في التموين في الهجوم الصحراوي – في الهجوم على المواقع – كيف نحن استعملنا آلياتنا في جميع هذه الحالات – الطائرات الانكليزية – تأثير الاراضي الرملية والمياه على حركات العدو – جذب العدو الى الاراضي الصعبة ومباغتته. تمسك العدو بالطرق بعد تضليله. قطع مواصلاته وإلجائه على الدفاع دوما – استعمال الحنازير في الرمل للسيارات الثقيلة. تطبيق سياراتنا – الاعمال الخلفية ضد قواعد العدو – النقص الفادح عندنا – عدم وجود الاسلحة المقاومة للآليات – ماذا استفاد العدو في نصب الكمين والتستر من الطائرات – استخباراتنا واستخباراتهم – الانجليز: –البدو جنود البادية–. أهالي المدن واليهود – عدم كفاية وسائط النقل للمياه والبنزين والتموين . – مياه الصحراء والاعاشة – ماذا يجب ان يعلم الجندي عن مشكلات ومتاعب الصحراء –. السيطرة على كديم تدمر سبع بيار والرطبة والتنف والهباريات تجعل الباديتين الشامية والعراقية تحت السلطة المطلقة – تأثير حركاتنا في الصحف الافرنسية – صعوبة تموين واتصال القطعات مع بعضها في الصحراء –. النقاط الجوية والمؤثرة على هذه الطرق –. منطقة الحرة وأهميتها – احتلال التسع نقاط مع الحرة وتحصينهم ثم تخصيص ارتال صغيرة آلية لربطهم ولاعمال مشتركة يؤدي الى

قطع كل صلة مابين جيش العدو في سورية والعراق ويجعل أجنحتهم ومؤخرتهم في خطر دائم – الطرق، المياه، محطات الطيران في هذه الاماكن – أثر البرد والامطار والحر والزوابع الرملية – الصحراء والوديان في أيام الامطار وأيام الصيف – استعداداتنا » .

وكنت أتابع في الوقت نفسه تطورات الاخبار في العالم العربي وجبهات القتال فكتبت في ١٤–٨–١٩٤١ :

« خلاصة تقرير الاخبار :

١– عُهد الى الامير عبد الله بحماية طريق حيفا – بغداد .

٢– واجه ناجي السويدي محمد علي الشيخ ومحمود علي محمود سفير العراق في طهران وطلبوا منه العودة مدعين أن رشيد عالي كان يحكم حكما ديكتاتوريا في العراق .

٣– مظفر عين مديراً للامن العام في بغداد. متصرف الديوانية وآخرون ممن حُكموا سنتين حبس من قبل الانكليز مع كثير من الضباط ومن فرقة واحدة (٥٢) ضابطاً حُبسوا في احدى معسكرات الاعتقال .

٤– تعهدت روسيا وبريطانيا مساعدة تركيا في حالة اعتداء دولة أوروبية عليها ثم بضمان حدودها .

٥– تذهب وحدات (فيلمي) (*) في أول آب الى أثينة . أي يبدأ بالنقل .

٦– ويفل في بغداد وقد أعد حملتين ميكانيكيتين احداهما في العراق للزحف الى معاونة روسية في اتجاه القفقاس والاخرى في سورية للزحف في نجدة تركيا عند اللزوم » .

وكان الالمان يبدون للشخصيات العربية التي لجأت الى المانية كل استعداد لمساعدتنا في تحرير البلاد العربية مقابل الانضمام الى القوات الالمانية التي ستزحف .

---

* – جنرال الماني كلف على رأس جيش الماني بالزحف نحو البلقان .

نحو البلاد العربية عن طريقي البلقان وشمال افريقية، ولكن كنا نشترط قبل الاقدام على هذه الخطوة اخذ ضمانات كافية من الحكومة الالمانية حول مصير البلاد العربية وضمان حقوق العرب وحريتهم واستقلالهم . وكنت انا واخواني نرفض الانفراد بالموضوع لاننا لسنا مفوضين وليس لنا صلاحية ونطلب الاتفاق مع الزعامات العربية التي كان بعضها يقيم في المانية والآخر في البلاد العربية . وقد كتبت بهذا الشان في مفكرتي تحت موضوع (المطاليب من الالمان) مايلي :

« – الاعتراف باستقلال العراق وسورية وفلسطين – السعي لاعادة الحدود المسلوخة من الاراضي السورية – اتحاد عربي بين أقطار سورية والعراق وفلسطين والسعي لادخال بقية الاقطار الى هذا الاتحاد – المساعدات اللازمة لانهاض البلاد ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا » .

وتقدمت بتقرير سياسي لخصته في مفكرتي :

« مقدمة : خدمة العرب وألمانيا وإزالة الافكار المغلوطة، أقوى وأصدق حليف لألمانية العرب : خصائصهم . وفاؤهم . تاريخهم. مجدهم. حضارتهم. خدمتهم للبشرية . بأسهم وقابليتهم وذكاؤهم. حبهم للالمان وآمالهم منهم.

– مصلحة ألمانيا: يقضي بتكوين هذه الامة. هي تكون استنادهم في الشرق وهي التي تخلص وتعاون المانيا وحدها. وبتكوينها تحترم الانسانية ومبادئ هذه الامة أقربها الى المبادئ الالمانية. فهي عدوة اليهود والرأسمالية. وكل ما جاء في موضوع الآري والسامي غير صحيح. وان أرشد المانيا بهذا الطلب لمنافع ومجد وأحذرها من مشاكل وكوارث تتجلى بعد عشرات أومئات السنين.

– ان مظاهرات الانحطاط والتفرقة لا يدل على طبيعة العرب . ولا يوجد أمة من الراقية والمتمدنة تخلو من هذه المظاهر والاختلافات ولا يوجد أمة على الارض تحملت ما تحمله العرب وصمدت على مر الدهر كما صمدت الامة العربية.

– ان أكثر المعلومات عند الغرب عن العرب مغلوطة وكان يؤثر فيها الحقد والتعصب الديني فتشوه تاريخ العرب وحصلت الافكار المغلوطة التي نقشت في أذهان الاوربيين ولم تذهب الى يومنا هذا.

– ان فتح السيف يزول بانثلامه وبقيام سيف ضده. ولكن الفتح الخالد، فتح القلوب والمصالح المشتركة.

– اسباب فشل السياسة الانكليزية والافرنسية في الشرق. وكره العرب لهم. المقاصد الاستعمارية . سوء النية . سلب البلاد.

– اعتمادهم على الشخصيات غير الوطنية. تحكيم العناصر الاجنبية واليهود في البلاد . فقدان الشعب الثقة من كل من عمل معهم حتى ولو كان وطنيا .

– قوة البلاد هي قوة الشعب. انتباه الشعب اليوم.

– اختلاط العناصر الغريبة في المدن وتقربها من السلطات الاجنبية سببت المشاكل وضياع الصورة الحقيقية للأمة العربية .

خلاصة :

يجب أن لا يدخل الجيش الالماني للبلاد العربية كفاتح ومستعمر كما دخلت جيوش فرنسا وانكلترا البلاد حيث أصبحت البلاد كلها في حالة عداء مستمر وأضاعت كل فرصة لانهاض البلاد وتأمين مصالحها. فكان باستطاعة كل منها ان يكوّن من البلاد العربية أمة قوية حديثة مخلصة تؤمن بمنافعهم وتغنيهم عن كل المشكلات التي وقعت لهم طوال السنين . لذلك يجب ان لا يكون الجيش الالماني في البلاد العربية كما هو في بولونيا أو صربيا أو تشيكوسلوفاكيا الذين ينتظرون الفرص للايقاع بألمانيا.

– اني لم أجد بين الامم من يحب الالمان كما يحبهم العرب . وتأمل منهم.

– يجب أن يسبق الحركات تصريح رسمي يضمن للعرب استقلالهم ووحدتهم.

– تشكيل قيادة عربية تؤلف جيشاً عربياً يسير جنباً الى جنب الجيش الالماني كما هو الحال في الحرب الماضية مع الشريف حسين.

– بدون هذا لا يمكن ان يكون العرب اصدقاء ولو كان معكم الرسول بنفسه. ولا يستطيع أي عربي حر الاشتراك قطعا وكل من يدخل معكم البلاد يدخل بوجه أسود ».

وقد اتبعت هذا التقرير السياسي بملحق ورد فيه :

« – ان العرب يمكنها ان تشترك بالسراء والضراء معاً .

– ان يعطي للجيش تعليمات بانهم يدخلون بلاداً صديقة وان البلاد معادية للانكليز واليهود وان العرب ليسوا من اليهود .

– ان كلمة (انتي سميت) هي دسيسة يهودية استغلتها ضد الالمان ليكون هجومهم على اليهود موجه الى شعوب اخرى أيضاً » .

وتعددت لقاءاتي مع الشخصيات الالمانية وسجلت بعض مادار من حديث مع مليشر وورمن:

« سياحة نوري السعيد الى سورية – نشاط الانكليز في البلاد العربية لاستجلاب العرب – الاذاعة عندنا وضرورة ترتيبها – ضرورة تنظيم العرب في المانيا وربطهم في مركز واحد – مستقبل البلاد العربية وسياستها – وضع التدريب في اثينة (*) . الجنود لا ينفعون والضباط في أثينة لايتدربون – خطيئات الالمان تجاه اخواننا في سورية وايران – مطالب الالمان وأهدافهم في البلاد العربية – اذاعة اخرى من راديو برلين وروما » .

وفي ٣ ايلول ١٩٤١ دونت محادثاتي مع « مليشر» و« ورمن» :

« ١– لم يسمع لنا نصحا منذ القديم واعتبر رأي من لا يمثل وأدى الى خطيئات متزايدة .

٢– تصريح المانيا في الراديو بخصوص اعتماد العراق على المانيا في قتالها كان له أسوأ تأثير . خطأ فاحش .

٣– بعد الهدنة لم يسعَ أحد من الالمان للاتصال بي وأنا أقاتل وكل يعرف مكاني . وقصدوا قائد الموصل وهو مستسلم .

٤– لم يهتم احد برجالي الذين حاربوا والذين اعطيت قائمتهم وكذلك

---

* – وجدت تشكيلات عربية في معسكر للتدريب في أثينه محل (سو نيون) وكان الرئيس المسؤول عنها هو المفتي .

برجالنا السياسيين مما أدى الى انجرارهم وجلب عوضا عنهم اطفال لا قيمة لهم برأيي اشخاص لاقيمة لهم .

٥– لم أدرِ الى اليوم ماذا حل بمن وصل الى تركيا ولا عن طريق اسمائهم شيء .

٦– لم يعمل أي شيء لجلب الضباط من طهران وترك امرهم للانجليز وسوف يكون مصيرهم أفدح ثغرة في اعتبار المانيا في البلاد العربية .

٧– انني أمثل الشعب العربي وثقة أكثر من أي شخص أو ملك آخر .

٨– نحن نطلب من المانيا ان تصحح خطيئاتها الماضية وتعترف لنا باستقلالنا السياسي والعسكري والاقتصادي ووحدتنا وحدودنا كما اعلنت وكما يأمل كل عربي .

٩– كما اننا نريد أن نعلم مطاليب المانيا من البلاد العربية .

١٠– نريد من المانيا تعهداً خطياً بذلك، لنضمن انحياز العرب لنا جميعاً وقتالهم في صفنا .

– انني لا استطيع الاشتراك الا على هذا الاساس . والا فانني معذور عن الاشتراك .

– ضرورة تنظيم ارتباط بيني وبين الخارجية للاتصال الدائمي » .

أما مطالبينا العسكرية من فيلمي فقد لخصتها في مفكرتي كمايلي :

« – ملاك التشكيلات . فرقتين – الجيش السوري وضباطه والعراقي وضباطه . وتشكيل قوة مختلطة من هذه الصفوف كنواة الجيش العربي المقبل – تشكيلات صحية – تصحيح الاخطاء التي ضيعت الاعتماد على المانيا – محاربة الدعاية الانكليزية – تصريح عن استقلال العرب وحريتهم وأن لا يدخل الجيش الالماني فاتحا ومستعمراً كالافرنسي والانكليزي – ضرورة مرافقة جيش عربية يتكون في البلاد العربية مع الجيش الالماني » .

واستمرت مساعينا خلال عام ١٩٤٢ دون ان تحقق نتائج عملية . وزاد في

عرقلتها الانشقاق الذي وقع في المعسكر العربي بسبب اختلاف الآراء بين الزعامات العربية التي كانت تنتقل بين المانيا وايطاليا وعلى رأسهم سماحة المفتي ورشيد عالي الكيلاني (*). وسجلت في مفكرتي خلال ذلك العام بعض اليوميات التفصيلية:

« ٢ كانون ثاني ١٩٤٢:

– مواجهة مع (سميح)، تحذير من الاسترسال والتساهل قبل اعتراف كامل (تحريري). موضوع المعسكرين.

١– تثبت الغاية : وهي الاشتراك في القتال لاجل تحرير واستقلال البلاد العربية التي تعترف به الحكومة الالمانية.

٢– قيادة عربية وعلم عربي ولباس عربي والايعازات عربية.

٣– يتعاون بعض ضباط الركن للجنرال فيلمي مع القيادة العربية للتدريب والتجهيزات والارتباط مع مقر فيلمي.

٤– يجمع كل أبناء العرب ويفرقون حسب قابليتهم الى صفوف حث تفتح دورات للاسلحة الحديثة والاساليب الحديثة.

٥– تكون الدورات ثلاثة مراحل. الاولى ضباط صف – الثانية رؤساء عرفاء– الثالثة ضباط.

٦– تعترف الهيئة العربية برتبهم ويكونون نواة الجيش المستقبل. اظهرت (لسميح) تألمي من عدم سؤال رشيد عني وأنا أحد الضباط الذين قاتلوا حتى النهاية وجرحت وصديقه الخاص.

* – اذكر بهذه المناسبة أن الجنرال (فيلمي) قد دعاني لشرب فنجان شاي في منزله، وعندما حضرت إلى منزله وجدت الدكتور غروبا كذلك (صهره)، وأخذنا نبحث في طريقة للتخلص من المأزق الخطر الناجم عن خلافات الزعماء فاقترحت عليهم بانه نظرا لأن السيد رشيد عالي كان رئيساً للوزارة العراقية، والمفتي كان رئيسا للمجلس الاسلامي الأعلى في فلسطين، أرى ان تتشكل حكومة عربية في المنفى (في المانيا) وان يكون رشيد عالي رئيسا للحكومة، وان يكون سماحة المفتي رئيسا للمجلس الوطني، على أن تكون مقررات الحكومة بكاملها خاضعة لمراقبة وتصديق رئيس المجلس الوطني. وبهذه الطريقة يستلم كل واحد رئاسة كانت من اختصاصه. وقد أقر الاثنان على أن الاقتراح معقول ويجب الأخذ به والتخلص من هذه الفوضى الخطيرة.

٧– تدريبهم حسب منهاج يعطى من القيادة العربية وذلك ينظم على اساس ماتحتاجه من التدريب.

٨– تأمين الاسلحة والتجهيزات لملاك شامل وليس لموجود المعسكر (*) فقط ».

١٥ يناير – سميح يريد الملك والخلافة.

الحامي (**) أكبر مشجع لهذه الفكرة. لايقبل أي مداخلة ولا يعترف بوجود أي شخصية من العرب. مستبد بكل المواضيع. كلف الرشيد برئاسة وزارة عربية ولما سأله من الملك أفهمه ضمنا وهل غيره أحق للمُلك.

٢٢ يناير – انشقت العرب الى شطرين عراقي وسوري والمسؤول (سميح)، وانشطرت القضية بذلك الى شطرين عراق وسوريا وفلسطين. ولكن السوريين كذلك مستائين والالمان اخذوا يتذمرون من الوضع غير المتحد. الجهود متجهة من كل ناحية لحصر السلطات في مركز رشيد والناحية الدينية والدعاية (بسميح).

٢٦ يناير – برقية الى عدنان في اسطنبول في الامور القضية في خطر. سميح يستبد – سرعة ارسال التفويض (***).

٣١ يناير – برقية من عدنان. انه سيرسل التفويض غداً مستعجلاً. سيبقى في اسطنبول ينتظر كتابي.

٣ فبراير– تحادثت مع (سميح) بوضوح وصراحة عن حراجة الموقف وانشطار العرب والقضية العربية بسبب اشتغال كل من ناحية. وبعد حديث طويل في هذا الموضوع طلبت من (سميح) حفظاً للسمعة وحرصاً على المصلحة وتوفيراً للجهود وذلك ان يتولى العراق الدفاع والتمثيل عن العرب وان تعاونه سورية. وقد عاهد وأقسم الايمان الغليظة بأنه مستعد بتوقيع وثيقة يتعهد فيها بأنه لامطمح له بأي

* – أعني معسكر سونيون في آثينة.

** – أعني به موسوليني.

*** – المقصود عادل العظمة. وكنت أطلب ارسال تفويض إلى رشيد عالي الكيلاني لأننا رأينا أن المفتي متفاهم مع الايطاليين.

منصب في المستقبل وأنه يمشي وراء رشيد بصفة ممثلاً رسمياً ويسانده بدون أي مخالفة فأفهمت ذلك الى رشيد فسُرّ سروراً شديداً. ولكن بلغني بأنه مساء اليوم ذاته قلب عن فكرته وادعى انها مؤامرة ضده وطلب مواجهة الاميرال سراً لوحده دون علم من رشيد وغروبا.

١٢ فبراير – أفهمني رشيد أن (سميح) يقوم بجميع المقابلات والمحادثات الرسمية وحده ويستأثر بالكبيرة والصغيرة ولم يطلعه على شيء الا التافه وانه فهم بأن (سميح) يريد القضية لنفسه وان القضية العربية في خطر. لذلك اضطر اخيراً الى انقاذ العراق على حد قوله فسعى للحصول على اعتراف باستقلال العراق.

١٥ فبراير – (سميح) يقول بأن الجماعة لم يعطوا أي شيء رسمي ما عدا الوعود واظهارهم حسن النية لانهم لم يقبلوا بتشكيل حكومة عراقية في برلين كما طلب رشيد.

١٩ فبراير– أفهمني كروم ماخر بأن كلاً من (سميح) ورشيد طلبا من الخارجية تأسيس مكتب عربي على انفراد أي مكتب للعراق وآخر سوري. ولكن الخارجية رفضت وأقرت طلب رشيد فقط. يقول كروم اننا عندما نمتشق الحسام فلا يبقى (سميح) ولا غيره،أي عند بدء الحركات في بلادنا تكون الكلمة للجماعة(*) فقط.

٢٦ فبراير – أفهمني غروبا بعد رجوعه من روما بأن الجماعة (**) يتمتعون بأقصى الرفاهية فكل بقصر لوحده وخدمه وحشمه وسياراته مؤمنة. ولما سألته عن القضية قال انهم ممنونون جداً من سيرها. وعندما سألته هل حصلت نتيجة ما مثبتة من المفاوضات أجاب لا،بعد لم يحصل شيء. ولما سألته عن السبب وهل لموقف فرنسا في الموضوع من تأثير على مجرى قضية سوريا قال نعم. وهذا يؤيد ما قاله لي كروم ماخر من أن وضعية فرنسا وانحيازها لطرفهم واحتمال استعمال أسطولها

---

* – يعني الألمان فقط..

** – أي جماعة المفتي. اذكر بهذه المناسبة أن الدكتور غروبا قال لي بأن الكونت تشيانو قدم كتابا لريبنتروب وزير خارجية المانيا: يعترف فيه باسم الحكومة الايطالية بان يكون المفتي زعيما على البلاد العربية ويطلب من الحكومة الألمانية اعترافا مماثلا ورفض الطلب.

في صالحهم كل ذلك يدعو الجماعة بأن لا يعملوا ما يزعل الافرنسيين ولو كانت الرشوة من جلدنا.

٧ مارس – أفهمت غروبا في اجتماع بأن الدعاية بالنسبة الى البلاد العربية ضعيفة وان البلاد تجهل نوايا الالمان وأخذت تشك. فقال:صحيح ان الدعاية ضعيفة ولكنه اتخذ التدابير لاصلاحها. وانه عندما يعود رشيد سوف يتكلم بالراديو، ثم يعقبه (سميح) فيتكلم ويخاطبون العرب، وعندئذ تلتهب الجزيرة من أقصاها الى أقصاها ضد بريطانيا. قلت:ولكن العرب اذا لم يحسوا شيئا يطمئن استقلالهم وأمانيهم فلن يسمعوا أو يعملوا مع أي شخص كان.

١٤– مارس – قال غروبا اننا سنذهب الى هناك أقوياء وهذه ترددت من نسيبه (فيلمي) وجماعته ومن كروم وجماعته عدة مرات (*).

١٩ مارس – أما ملاحظاتي الشخصية فالالمان ليسوا حسني النية بلا شك ولا يعطفون على العرب بصورة أكيدة، ولا يتمنون لهم كل خير حقيقة. ولكن مع ذلك زعماءنا ليسوا أكفاء لادارة السياسة العربية في هذه الظروف العالمية القائمة.

٢٢مارس – بلغني أن (سميح) ينشئ معسكراً عربياً آخر في روما شبيهاً بمعسكر أثينة. فالعرب سيكونوا اذن في صفوف ايطاليا والمانيا لتأمين نفوذ في مناطق مختلفة.

٢٦ مارس – أما في روما (فسميح) ورشيد كل يعمل لوحده. ويقابل لوحده ويفاوض لوحده. وقد انشطرت القضية منذ بدئها الى شطرين وأظن من الصعب تأمين مطاليب العرب بهذه الطريقة والوسائل، فالانانية قتالة وفي سبيل الكرامة الفردية كرامة الامة تداس وتضيع.

٢ ابريل – صرح وزير الاقتصاد الالماني فونك عند زيارته روما بأن سواحل

---

* – في حديث جرى بيني وبين غروبا بحضور محمود الرفاعي وبعض الاخوان من العرب قلت لغروبا: اني أعتقد من صالحكم ان لا تدخلوا البلاد العربية إلا والعرب متاكدين ومطمئنين من حسن نواياكم وإلا ستجدون العرب معارضين وعند اللزوم بالقوة. قال لي: أشكرك وتأكد باننا سنذهب أقوياء.. وهذه بينت أسلوب تفكيره.

البحر الابيض المتوسط هي ضمن نفوذ ايطاليا ولا يحق لاحد التدخل في شؤونها مطلقاً .

٩ ابريل – الالمان يقولون انهم يريدون ان يعطوا كل شيء ولكن الطليان غير موافقين والطليان يدّعون خلاف ذلك (وما بين حانا ومانا) .

١٥ ابريل – مونش (ميونيخ) : اليوم تقابلت مصادفة مع عباس الحلي آتياً من روما الى برلين فأدلى اليّ بالحديث التالي :

١– عدم ذهابي الى روما من تخوف (سميح) وحتى رشيد لما قام به من الدس والشعب ضدي (للحامي) فتخوف (سميح) وعرقل سفرتي .

٢– ان المفاوضات الجارية هي فردية وتنحصر أولاً بطلب كل منهم ملكا أي موقعاً شخصيا ثم في قضية البلاد ولكن اقليميا . فهذا يريد ملك سوريا وفلسطين وذلك ينشد العراق فقط . وعلى هذا الاساس تنقسم العرب في روما كما في برلين الى معسكرين يتراشقان المسبات ويدسان ويشاغبان ضد بعضهما لتأمين مراكز زعمائهم .

٣– ان (سميح) أقنع رشيد بلزوم الموافقة والاشتراك بتشكيلات (اللازيون) العربي في ايطاليا . وقوامه من عرب سوريا والعراق والمغرب وغيرهم، وأودع هذا المشروع للتنفيذ الى ناجي، ولكنه لم يقبل وتغيب رشيد لكي لا يتظاهر بالقبول وينسب اخيراً الى المفتي وناجي .

٤– ان ناجي أنذر الرجلين اما بان يتفقوا على منهاج عربي أو أن ينسحب الى اسطنبول ويعلن مطامعهم الشخصية وتضر القضية العامة من ذلك .

٥– ان (سميح) أنذر غروبا بلزوم فصل يونس البحري عن الاذاعة نظراً لمسباته المتوالية (للسميح) فلم يقبل غروبا وحصل خلاف شديد بين الطرفين وان (سميح) اقام ضجة ضد غروبا في روما ومن قبل احتجاجات وغير ذلك طالبا عدم مداخلة غروبا بشؤون العرب أو أنه ينفصل ويذهب الى سويسرا .

٦– ان ابراهيم الراوي اراد الانضمام وحبذ ذلك المفتي ولكن دس عليه

سليمان عند رشيد فأبى خروجه من معتقله .

– ان ناجي ومحمد حسن سلمان غير ممنونين بتاتا ومعهم الشريقي وانهم ينوون القيام بتشكيلات جديدة للمعارضة والمطالبة بقبول قضية عربية وانهم ينوون التعاون معي في برلين . وهكذا اصبحنا في نظر الالمان كما يصرحون دوما كل فرد مستقل لوحده وضد اخيه من العرب . وان ناجي بك يطلب ان لا يكون مربوطا برشيد وغروبا بل يطلب ان يكون مربوطا بالجبهة العسكرية فقط .

١٢ أيار ١٩٤٢

١– صرح لي كروم ماخر ان (سميح) طلب من موسوليني تأسيس (اللازيون) العربي في روما فلم يجدوا سوى ١٥ عربي و١٥ هندي . ولعدم كفاية هذا المقدار طلب من موسوليني نقل المعسكر من (سونيون) الى ايطاليا فطلب موسوليني في اجتماع سالزبرغ من الفوهرر نقل المعسكر وكافة العرب من المانيا الى ايطاليا فلم يوافق .

٢– بمناسبة طلب ممدوح من المعسكر قال كروم انه لا اعتبار للتعهد الذي وقعه العرب فيجب ان يبقى في الخدمة الى نهاية الحرب وليس كما يظنون الى نهاية التدريب وانهم لبسوا لباس الجندي الالماني لذلك يجب ان يخضعوا للقوانين الالمانية وللاوامر والتعليمات الالمانية الى نهاية الحرب والا تبدل المعاملة مع العرب وتلغي كل شيء وتقلب كل شيء .

١٣ ايار – زرت رشيد بك بمناسبة عودته فأفهمني انه حصل على كل شيء وعلى الاستقلال المطلق التام وانه لم يبق أمامنا الا تنظيم شؤوننا الداخلية كما نرغب وانه لا بد من ازالة كثير من الشخصيات في سوريا والعراق وتنظيف البلاد منهم بتاتا . واما ابن سعود فاما ان يدخل الى نطاق الوحدة أو الاتحاد أو يرغم على ذلك بالقوة وانه سيجتمع معي للتداول في كل هذه المواضيع ولأي الامور .

١٥ ايار

تغديت عند المفتي وبعد الطعام اختلينا مقدار ساعتين ودارت عدة احاديث ومواضيع وعتابات . والخلاصة فيما يتعلق بالقضية كما يأتي :

١- ان المحور لم يعترف برشيد كرئيس حكومة العراق الآن ولكن سيعترف به في المستقبل لان الفوهرر كان قد انتقد الحكومات التي لا أرض لها ولا شعب انتقاداً شديداً.

٢- انه تبودلت تحارير اعترف المحور بها للعرب بالاستقلال التام والسيادة، بالوحدة العربية، بالغاء الوطن القومي اليهودي وبطلب التعاون في الحركات المقبلة في البلاد العربية. وهذه الكتب عبارة عن وثائق وليست معاهدة لأن المعاهدة لا تعقد الا بين حكومة وحكومة وانهم لا يعتبرون رشيد يمثل الحكومة الآن. ثم تكلمنا في حالة العرب المحصورين هنا وبعض الدسائس والمشاغبات فقررنا بعد الاقتراح عليه: معالجة حالة (سونيون) - حالة اولاد العرب وتنظيمهم - تنظيم الدعاية العربية. وعلى هذه الخلاصة تقرر ان نجتمع اجتماعات عديدة وأن نبدأ بالعمل معاً وانه كلما سمع أو علم بشيء يطلعني وأن أعمل انا كذلك مثله.

١٩ ايار - زارني الكولونيل سيمن من الشعبة الاجنبية في القيادة الايطالية. وبعد المجاملات دار الحديث حول (اللازيون) العربي في روما أفهمني انه تأسس هذا اللازيون منذ شهر واحد وأن الموجودين عددهم ٣٠ بقيادة بدري الذي يمثل الجبهة العسكرية العربية وأنه سيجلب الى هذا المعسكر الاسرى الفلسطينيين والمصريين من ليبيا وستكون مهمتهم التخريب والاستخبارات وسيلقون بالبراشوت وراء الخطوط في الجزيرة وانه لا يمكن تشكيل جيش نظامي للقتال. وعندما سألته عن مصير الضباط والجنود العرب الذين سيلتحقون من البلاد العربية، قال يكونون تابعين لقيادة هؤلاء كما كان الامر مع الضباط العرب الذين التحقوا بجيش الشريف حسين. الفكرة لا تختلف عن فكرة الالمان وقصدهم استخدام أفراد عرب لمصلحتهم وليس تكوين جيش كما نفهم نحن ونطلب.

٢٢ أيار - أخبرني كروم ماخر ان الدوتشي يعتقد بأنه حامي العرب (*)

* - اذكر بهذه المناسبة أنه في أثناء زيارتي لرشيد عالي الكيلاني في روما اقترح عليّ بعد احاديث طويلة عن المستقبل العربي وعن مواقف الالمان وايطاليا، ان ازور رئيس الوزارة الايطالية من باب المجاملة بعد أن أخبرني بان الطليان يحملون عني فكرة مغلوطة، وقد رافقني في الزيارة الدكتور جابر العمر من الشخصيات العراقية المرموقة. وقد سالني رئيس الوزارة الايطالية (الدكتور ملليني) في اثناء نقاشنا حول اقتراحات المانيا للزعامة العربية واصراري على أننا لنا وحدنا حق الاختيار ولا شان للآخرين بذلك، قال لي بنبرة عصبية=-

وذلك بسبب نفوذه المقرر على شواطئ البحر الابيض. ولذلك هو وحده يحق له تشكيل (اللازيون) العربي وأما مفرزة سونيون فما هي الا مفرزة عربية من تشكيلات (فيلمي) تابعة للقيادة الالمانية وليس للعرب أي شأن بها. وان محمد سلمان يجب ان يذهب الى سونيون وأنني عند بدء الحركات يجب ان اشترك مع حملة الجنرال (فيلمي) للاستفادة من نفوذي وخبرتي في البلاد العربية وبالطبع للصالح الالماني فقط وليس للعرب والقضية العربية. هذا ما يفكرونه وشتان مابين مانفكر نحن وما يفكرون والله المستعان.

٢٥ أيار ١٩٤٢ - أفهمني (سميح) أن غروبا سأله هل تكلم مع الدوتشي في موضوع (اللازيون) العربي في روما فأجابه بأنه لم يتكلم معه في موضوع (اللازيون) بل كان الاتفاق على موضوع (مركز تدريب عسكري في روما فقط). فقال له غروبا: ان الشائع بأن (سميح) متفق على الموضوع مع الدوتشي. فقال انه مستعد ان يدلي بتصريحات وبأسئلة يطرحها على الغير الايطالي في برلين بحضور مسؤول الماني وعسكري ألماني وبحضور سيمن الضابط الايطالي الموجود الآن في برلين. وطلب هذا الاجتماع الذي سيكون فيه رشيد بك أيضاً، فتقرر أن يكون يوم الخميس الموافق ٢٨ مايس. ثم سأل (سميح) غروبا عما يشاع عن محادثات الدوتشي والفوهرر في سالزبورغ عن موضوع نقل المعسكر العربي من سانيون الى روما. فأجابه انه لا يعتقد ولكن الدوتشي والفوهرر متفقان على جميع الشؤون العربية منذ سنين. فيقول (سميح) انه يريد ان يعرف منهم اذا كان هناك اتفاق يجب ان يكون بعلم العرب أو أن يطلعوهم عليه. وطلب مني (سميح) ان ننسى الماضي وأن نتعاون من جديد بكل اخلاص! وأنه ترك بدري للتدريب على الهندسة العسكرية فقط وانه سيطلب رحيلهم الى برلين.

* * *

-= ظاهرة: «اننا أدخلنا في حسابنا عندما ندخل بلادكم بأن نفرض سياستنا بالقوة». فقلت له: «ليتك لم تذكر القوة لاننا نحن الذين اعتدنا على استعمال القوة ضد كل معتدي وطردناهم من بلادنا وأنت لستم أقوى من الانكليز ولا من الافرنسيين، الذين خرجوا من بلادنا مطرودين اذلاء، تاركين الكثير من معداتهم واسلحتهم في الميدان». فوقف وقال بعصبية: «سوف يكون الحساب عسيراً». وقلت له: «نعم بأن الحساب سيكون عسيرا وداميا أكثر مما تظنون وتعتقدون». وخرجنا من مكتبه.

مع تراجع المانية على جميع الجبهات خفت نشاط مفاوضاتنا وفقدنا الامل في تحقيق مانصبو اليه . وقدر لنا أن نشهد تقدم قوات الحلفاء نحو برلين في أعنف المعارك التي عاصرتها في حياتي . كانت برلين تكسوها طبقة كثيفة من الثلج، ويتصاعد من خرائبها بدون انقطاع، دخان الحرائق التي سببتها قنابل المعارك قبيل فاجعة الهزيمة . وكان الشعب الالماني الذي انقلب فجأة الى شعب شبه بدوي، يعيش في ملاجيء رطبة قذرة مظلمة، يئن تحت هذه الطبقة الجليدية برداً وجوعاً . وكان يقتات بكسرات من الخبز من فضلات الجيش الاحمر، وأجسام أبنائه تكاد تكون عارية كمساكنه، بفضل موجات النهب المتتالية التي طغت عليه .

لقد اختفت من برلين الاعلام الالمانية، واختفت معها صور زعماء الرايخ الثالث، وكذلك الملابس العسكرية الالمانية، لتطلعك في كل مكان الملابس العسكرية الروسية، وكانت سيول قوافل السيارات الروسية تنقل الالمان رجالاً ونساء وأولاداً ، الى مصير مجهول، تتلوها قوافل اخرى تحمل أدوات المعامل الالمانية المفككة الى روسية، واستمرت هذه العمليات اشهراً طوالا . وفي صباح يوم ماطر دخل الى منزلي نفر من الشرطة المدنية وطلبوا مني أن ارافقهم فوراً، ففعلت، ومعي زوجتي ومرافقي حميد الصافي، فقادونا الى مركز عسكري روسي، رأينا فيه الوفا من الاجانب منتشرين في الخلاء . وبعد برهة أطل علينا ضابط روسي، كلم بعض الجنود، فاذا هم يسوقون هذا القطيع من البشر ، مشياً الى حيث لا ندري . كان ذلك في ٢٩ أيار من عام ١٩٤٦ . وصلنا مساء الى بسدورف قرية في ضواحي برلين، حيث اوقفنا الجنود تحت الاشجار ، بالقرب من مقبرة، لم يتم فيها بعد دفن قتلى معارك برلين الاخيرة . وفي الصباح الباكر، ساقونا الى معسكر لا يبعد كثيراً عن القرية المذكورة، وهناك أفهمونا أنهم سيعملون على اخراجنا من المانيا لنلتحق بأوطاننا، فاستبشرنا خيراً . ولبثنا في هذا المعسكر عشرات الايام، كنا نساق طيلة هذه الايام لتكنيس الطرقات، وتنظيف الاراضي المحيطة بالمعسكر من الاقذار، ومن ... الاموات . وفي احد الايام، وبينما كنا نقوم بمثل هذه الاعمال، اقترب مني ضابط روسي وخاطبني باللغة التركية وباسمي الصريح، طالبا مني ان ارافقه لمقابلة قائد روسي كبير في احد المواقع العسكرية . فأخذ يستجوبني بدقة وتفصيل، استجوابا، تناول سيرة حياتي كلها، ولاسيما خلال اقامتي في برلين، وامتد حتى

الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، وفي اليوم الثاني اعاد الكرة، واستمر الامر هكذا مدة اسبوع كامل . وكان الذين يستجوبونني يحرصون على ان يؤكدوا لي اقتناعهم بتعاوني مع الالمان ضد الحلفاء، فصرحت لهم انني كنت أميل الى التعاون مع الالمان، وروسيا نفسها كانت تتعاون معهم، واني نقلت الى المانيا فاقد الوعي بسبب جراحي الثخينة وبقيت فيها قصد التداوي . ثم انقطع الاستجواب مدة شهر كنت خلالها في سجن في حي « أورانين شتراسه » . وطلبت اعلام زوجتي ومرافقي بمكان وجودي، وفهمت انهما قضيا المدة التي قضيتها أنا نفسي، في السجن نفسه دون أن يعلم أحدنا بالآخر ثم مكثنا في السجن معاً ستة أشهر، خرجنا بعدها وليس بين أيدينا ورقة ما، تثبت هويتنا . وفهمت أن سبب اخراجنا من السجن، بعد التشديد المرهق علينا فيه، كان تحقق المراجع المختصة من صدق قولي، وكان ذلك خلال الشهر الذي انقطعوا فيه عن استجوابي .

* * *

بعد ان خُلي سبيلنا، فرضت السلطات الروسية علينا اقامة جبرية، في غرفة من دار مقابلة لمركز عسكري روسي في برلين، وعادت هذه السلطات تطلبني للتحقيق معي من جديد، من حين الى حين . وأخذت أفكر في ايجاد وسيلة، تساعدني على الاتصال بالبلاد العربية للحصول على وثيقة تتيح لي الظهور والتجوال، بشيء من الحرية، حتى يكون في استطاعتي حين الاقتضاء اعداد العدة للهرب، والعودة الى الوطن . وكنت مطلعا الى حد، على حوادث بلادي بواسطة الراديو، فكنت اعلم مثلاً أن دمشق قصفت بالمدافع، وان الفرنسيين خرجوا منها، وان سورية اعلنت استقلالها . فكانت هذه الحوادث من جهة، وما أعانيه من مرارة المراقبة والقلق من جهة اخرى، تغمرني بموجات من الامل والالم، وتزيد في نفسي الرغبة في العودة السريعة الى الوطن لاشاطر الشعب شرف الكفاح . وكنت على مثل اليقين أن أحداثاً جساماً ستتناول كيان الامة العربية، لما كنت اسمعه عن مدى نشاط اليهود في الاوساط الاميركية والانكليزية من اجل مايسمونه وطنهم القومي . وأبلغني بعض الالمان القادمين الى برلين من مناطق الاحتلال الغربية عن وجود مدارس عسكرية لتخريج ضباط صف من اليهود يشرف عليها مدربون انكليز وأمريكان ويهود، وان وحدات يهودية كاملة من مختلف الاسلحة تقيم في معسكرات

انكليزية وأمريكية، ولم يكتم الجنود اليهود عزمهم على الذهاب الى فلسطين بعد اعادة الاستقرار الى المانيا. وعلمت بأن كثيراً من الجنود والضباط البولونيين الذين رافقوا الجيش البريطاني في قتاله ضد المحور ارسلوا الى فلسطين وان عدداً آخر سيتبعهم في مابعد. وأكد لي كثير من الالمان المطلعين ان لليهود تشكيلات خاصة في المانيا وايطاليا تعمل على جمع الاسلحة المختلفة والعتاد بكميات كبيرة ووضعها في مستودعات منتشرة على شواطئ البحر المتوسط.

وبالاضافة الى ذلك وردت اليّ اخبار كثيرة عن مدى نشاط واستعداد اليهود للاسراع في تحقيق الدولة والوطن اليهودي في فلسطين، وهذا ما جعلني أتأكد ان نزاعاً مسلحا سينشب عاجلاً أم آجلاً في فلسطين. وكان توقعي هذا النزاع المسلح، وشوقي الشديد الى الاشتراك فيه، يزدادان يوماً فيوما، ولكن الاخطار التي كانت تحدق بي، والرقابة الشديدة المفروضة عليّ، كانت تجعلني أكثر حذراً مني في أي وقت مضى.

فما العمل ؟ كانت هيئة مشتركة من الدول الاربع في برلين، قد تأسست ذلك الحين لاعطاء جوازات خاصة، يجب ان تؤشر عليها السلطات الاربع، كيما يستطيع المرء ان يغادر المنطقة بصورة رسمية علنية، وكان أملي بهذه الطريقة ضعيفاً جداً. وأخيراً تيسر لي ارسال احد رفاقنا (السيد ابراهيم المسقاوي) من ابناء طرابلس، الى باريس ليحصل لنا على جوازات سفر بأسمائنا الصريحة من المفوضية السورية. وزودته بكتاب الى القائم بأعمال المفوضية السيد شاكر العاص، أرجو منه ان يتصل بالمراجع الفرنسية المختصة لتوعز، اذا أمكن، الى من يمثلها في القطاع الفرنسي في برلين، ان يسهلوا لي اتمام معاملة جوازات السفر. وقد حدث ذلك فعلاً، اذ أن مسيو «لافاستر» الذي يعرفه السوريون معرفة جيدة يوم كان في دمشق وفي حلب، ويعرفني جيداً يوم ثورتي على الفرنسيين سنة ١٩٢٥، والذي كان ممن يمثلون فرنسا في القطاع الفرنسي في برلين، والذي اندهش أو غضب - لا أدري - يوم عرض عليه ضابط فرنسي جوازات سفرنا. وكان همي الوحيد ايجاد طريقة لايصال هذه الجوازات الى القطاع الفرنسي مع بقائي حيث أنا، أي في القطاع الروسي، للتأشير عليها دون الاصطدام بأي حادث قد يفسد علينا العملية كلها. وكان قد اتصل بي ان السلطات الانكليزية في برلين، تجدّ في طلبي، وتنوي ان

تطلب من السلطات الروسية ان تسلمني اليها بحجة ان القضاء الانكليزي حكم عليّ بالموت بسبب قيادتي ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦. فصممت على تضليل هذه السلطات ما استطعت. وكان للجاسوسية الانكليزية عمال من الالمان انفسهم كان لا بد أن اتقي شرهم فتلبست شخصية كولونيل روسي من سمرقند - تركستان - وحملت اسم نزار ملحقاً به (اوف) فأصبحت اعرف بين الالمان في تلك المنطقة باسم الكولونيل (نزاروف).

وأخيراً تمكنت من الحصول على وعد أكيد من سيدة فرنسية كانت تعمل في القنصلية الفرنسية في القطاع الفرنسي من برلين بمساعدتنا، وكانت الواسطة بينها وبيننا، سيدة المانية صديقة، وقد سلمنا هذه السيدة جوازات السفر. وبعد اسبوع جائتني وقالت لي انني استطيع تسلم الجوازات قريباً جداً من الجهات المختصة. وفي اليوم الثاني ارسلت مرافقي، فعاد اليّ ووضع بين يديّ جوازات السفر تامة المعاملات. ولم استطع الا أن أرى كثيراً من النبل، في عمل المراجع الفرنسية العليا في باريس، تجاه خصم ثار عليهم وحارب جيوشهم.

ولن أنسى مساعي الحكومة اللبنانية في هذا السبيل فقد أوعز رئيسها في ذلك الحين السيد سعدي المنلا الى وزيرها المفوض في موسكو السيد خليل تقي الدين أن يقوم بكل ما يمكن من جهود لتسهيل مغادرتي المانيا وعودتي الى لبنان ففعل، ولكن الروس في موسكو وفي برلين أنكروا وجودي انكاراً تاماً.

* * *

لم يبق علينا سوى ترتيب العملية اللازمة الحكيمة، لمغادرة الدار، في غفلة من عيون الرقابة الروسية. وكان عليّ أن أبعد زمرة المراقبة عنا نهاراً واحداً على الاقل، وأخذت استعرض الوسائل وأدرسها بتدقيق، فلم ترضني واحدة منها. عدا الدفتيريا.. كان مرضى الدفتيريا منتشراً يوم ذاك في برلين، يفتك يومياً بالمئات من الالمان، وكان الروس يخشونه خشية شديدة. واستدعيت طبيباً المانياً كانت تربطني به صداقة متينة، وطلبت منه ان يشخص فيّ مرض الدفتيريا، وأن يعالجني شكليا وينشر الخبر مجسماً في مختلف الاوساط، وقام الطبيب بالمهمة وأشاع أنني في خطر الموت فهلعت قلوب المراقبين وابتعدوا عن مركز المراقبة. فاغتنمت الفرصة

بسرعة فائقة وهيأت أمتعتي والسيارة التي ستقلني وكانت لصديق عربي، وأبلغت صاحبة الدار والخادمة انني ذاهب الى براغ، وأوصيت الخادمة ان تقول للروس اذا هم سألوها، ان شخصية عربية تظن انها سياسية، أتت اليّ بسيارة عليها علم غريب، وسلمتني اوراقا لا تدري ماهي، واصطحبتنا معها، أنا وزوجي ومرافقي، لنسافر الى الوطن عن طريق براغ – بودابست – استنبول. وكان لا بد لي من هذا التضليل لتوجيه البحث عني وجهة غير الوجهة التي أقصد اليها، فأتمكن خلال ذلك من الوصول الى أول مفوضية عربية في باريس.

وهكذا غادرنا المنزل في ٨ شباط سنة ١٩٤٧ وخرجنا من القطاع الروسي في برلين الى القطاع الاميركي منها، دون حادث. ولجأنا الى بيت صديق عربي هو السيد أنور بركات وهو الذي أقلنا بسيارته، فأعد لنا كل مايلزم من المعاملات للسفر في قطار الى باريس. وانتقلنا الى محطة «فانزيه» لنستقل قطار الساعة الثامنة مساء الى عاصمة فرنسا. وفي القطار وجدنا عدداً غير يسير من الجنود العرب المغاربة المسرّحين، فاختلطنا بهم وتبادلنا الاحاديث معهم بلغتنا العربية فأفسحوا لنا مكانا في احدى العربات وأحاطونا بكثير من الرعاية. وحوالي الساعة الواحدة صباحاً، كنا قد دخلنا في المنطقة الفرنسية، ووصلنا بعد الساعة الثانية الى حدود فرنسا. وفي محطة «فورباخ» وطأت أقدامنا أرض فرنسا ولم يبق يخامرني أي قلق، فان الحكم بالموت الذي كان أصدره عليّ القضاء الفرنسي بسبب الثورة السورية سنة ١٩٢٥، كانت قد ألغته السلطات الفيشية، على أثر حوادث العراق وسورية عام ١٩٤١.

وصلنا الى محطة باريس وذهبنا فوراً الى المفوضية السورية فيها، ووجدت نفسي لاول مرة في ظل علم عربي، وفي دار حكومة عربية، في عاصمة فرنسا، وحينما كنت أصافح السيد شاكر العاص، القائم بأعمال المفوضية، كنت أشعر كأنما أنا أصافح العرب أجمع. وبعد هنيهة رافقنا أحد موظفي المفوضية الى فندق «برنس دي فال» في «الشانزيليزه» ليحجز لنا محلاً فيه. وفي مكتب الاستقبال طلب موظف المفوضية حجز جناح باسمنا، ولما علم المستخدم ان الجناح يحجز لنا، القى علينا نظرة ازدراء، ما أزال أشعر بوطأتها حتى اليوم. وما كدت أستقر في غرفتي حتى قرع جرس التلفون، وكلمني أحد المستخدمين قائلاً ان مستر «هارولد كنغ» مدير شركة رويتر في فرنسا، يرغب في مقابلتي . وكان صوته ينم عن دهشته، على

ان اعتذاري عن عدم تلبية رغبته كان مدعاة لدهشة أعظم. ولكن المستر «كنغ» عاد فأصر على طلبه مقابلتي، فعينت له موعداً في مساء اليوم الثاني. وطلب مني عدد غير قليل من مراسلي الصحف الامريكية والفرنسية والسويسرية، أن أتحدث اليهم فحددت لهم الموعد نفسه الذي حددته للمستر «كنغ». وانتشر بعد هذا خبر وجودي في باريس، في كثير من الصحف العالمية والاذاعات.

* * *

... كانت باريس في ذلك الحين لا تزال تعاني وطأة البؤس والشقاء نتيجة الحرب والاحتلال، وكان الضباط والجنود من أميركان وانكليز يملأون الشوارع والملاهي والفنادق ومن النادر ان ترى ضابطاً فرنسياً. وكنت أسعى جهدي لاغادر باريس بأسرع مايمكن، خوف الوقوع في شراك الروس، وخشية من ملاحقة الانكليز، لاسيما وقد بدا لي جلياً، ان الاميركان والانكليز هم أسياد الموقف في فرنسا. وفي صباح ٢٢ شباط سنة ١٩٤٧ ذهبت مبكراً الى مطار «بورجيه» فاحتللنا أنا وزوجتي ومرافقي المقاعد التي خصصت لنا في الطائرة، لننتقل الى القاهرة مباشرة وبدون توقف. وارتفعت بنا الطائرة الى مافوق الغيوم، والارتياح يملأ جوانحي علماً مني، اننا سنصل مساء ذلك اليوم الى أرض الوطن بعد غياب طويل وحوادث جسام. وكان ركاب الطائرة من الاجانب الذين لا اعلم عنهم ولا يعلمون عني شيئا، ثم علمت فيما بعد ان ركاب الطائرة من اعضاء الوكالة اليهودية في تل أبيب، يعودون الى فلسطين بعد انتهاء مؤتمرهم في لندن.

وبينما الطائرة تسبح بنا في الفضاء، كنا نحن نسبح في أحلام لذيذة من مشاهدة للأوطان والاهل والاصحاب، الى مضي في العمل والجد والكفاح. ولم يقطع سلسلة هذه الاحلام الا تحول فجائي في سير الطائرة واتجاهها الجديد نحو الشرق، الامر الذي لم أستطع تعليله، وأحببت أن أستفسر عنه من مواكب الطائرة الذي كان يمر في تلك اللحظة بجانب مقعدي، فسألته متى نصل الى القاهرة؟ فأجاب اننا سنصل متأخرين عن الموعد مع الاسف، واسترسل يقول انه ورد على الطائرة برقية من فلسطين تدعوها للهبوط في مطار اللد. فذهب بي الخيال الى انه فخ نصبه الانكليز للقبض عليّ، وأمعنت في التفكير، فلم أوفق هذه المرة الى

مخرج، ووددت لو ان الطائرة تسقط بنا في البحر ولا تسقط في أيدي الانكليز. وأحببت أن لا تشعر زوجتي بشيء مما بي فرحت أحدثها ولكن دون أن استطيع اخفاء انفعالي، غير انها وقد اعتادت المفاجآت برفقتي منذ عرفتني، قالت لي ببرودة لا بد أن شيئاً جديداً قد حدث، فأجبتها اننا سنتأخر قليلاً عن موعد وصولنا. وغرقنا في تفكير لم نفق منه، حتى شاهدنا أنوار اللد. هبطت الطائرة وغادرها ركابها جميعهم، بينما بقينا نحن الثلاثة في مقاعدنا. وبعد برهة وجيزة دخل الى الطائرة اثنان من الموظفين في الامن العام الفلسطيني العرب واستعرضا حقائبنا بالقرب من باب الطائرة ثم اقترب احدهما وجلس على مقعد خلف مرافقي ودار بينهما باللغة العربية الحديث التالي:

ـ الحمد لله على السلامة كيف حالكم؟

ـ الله يسلمك، وأنتم كيف حالكم؟

ـ ايش حالنا الله يخلصنا من هذه الحال، ثم اشار نحونا وسأل مرافقي:

ـ من هؤلاء؟

ـ لا أعرفهم.

ـ قرأت اسم فوزي القاوقجي في لائحة الركاب فهل هو هنا؟

ـ لا أدري، عمري ما سمعت بهذا الاسم.

ـ لابد هؤلاء (مشيرا الينا) من اليهود.

ـ لا أعرف.

ولكن موظف الامن العام أصر على أننا من اليهود، فوافق مرافقي أخيراً على احتمال كوننا يهودا. ثم جاء شرطي عربي الى ربان الطائرة وسأله: «هل هناك غير هؤلاء الركاب الثلاثة». فأجابه الربان بالنفي، فانصرف وبقينا نحن الثلاثة في الطائرة، ثم نهضت ومشيت نحو الباب وأنا أتصور أن أسلاك التلفون في فلسطين مشغولة بنقل أخباري الى السلطات البريطانية وان التعليمات بشأننا في طريقها الى من يلزم للقبض علينا. ووقفت في باب الطائرة وأنا أدخن على مهل باحثاً، دون جدوى، عن حيلة لإنقاذنا، واذا ضابط بريطاني يقترب من سلم الطائرة ويصعد

السلم بالبرودة الانكليزية المعروفة، حتى مر بجانبي ودخل الى الطائرة ثم قفل راجعاً، وكنت اترقب في كل لحظة ان يوجه اليّ كلمة أعد لها جوابا ولكن لم يقل كلمة واحدة وغادر الطائرة ولم يعد. فبقيت جامداً في مكاني بضعة دقائق مثقلاً بأعصاب متوترة، ومر ربان الطائرة، فسألته هل يطول بقاؤنا في هذا المطار؟ فأجاب ان الطائرة ستتابع السفر بعد انتهاء تموينها بالبنزين ولن يتجاوز ذلك عشرين دقيقة.

وكنت أراقب حركة المطار قدر ما استطيع لأعلم اذا كان هناك من ترتيب يؤول انه ضدنا ولكنني لم أتأكد من شيء.. وعندما انتهى تموين الطائرة بالبنزين أغلق المواكب بابها ودرجت الطائرة ثم.. طارت. وأخذ مطار اللد يتضاءل ويتوارى تدريجيا، وتضاءلت وتوارت معه نوبة القلق والاضطراب التي لازمتنا مدة وجودنا في المطار. ولم أشعر براحة الا بعد ان دخلنا سماء مصر وبدت لنا أنوار القاهرة، وعندها فقط شعرت براحة نفسانية.

ودخلنا الى غرفة الشرطة في المطار وكانت الساعة آنئذ تشير الى الثانية صباحاً ولما سألت ضابط الخفر متى نستطيع الذهاب الى القاهرة، فوجئت بجوابه أنه يأسف أن يبلغني، أن هناك أمراً خطياً يمنعني من دخول القطر المصري، وأطلعني على منطوق ذلك الامر، فاذا هو أمر قديم العهد صادر عن وزارة سابقة، ارسل الى شرطة المطار بتاريخ جديد. قلت: «وما العمل اذن؟» قال: «ان في الصباح الباكر طائرة مسافرة الى اللد وبيروت وسيحجز لنا مقاعد فيها». فطلبت اليه ان يسمح لي بالاتصال تلفونيا بالسيد عبد الرحمن عزام، وطمأنني السيد عبد الرحمن عزام انه سيتصل بالوزارة المختصة لايقاف مفعول الامر المذكور. واتصلت بالمفوضية اللبنانية في القاهرة فكلمني السيد حليم أبو عز الدين الذي عمل كثيراً من أجلي. وبعد مخابرات كثيرة مع المراجع الرسمية في القاهرة وفي الاسكندرية، حيث كان السيد النقراشي رئيس الحكومة المصرية يومئذ، أبلغني ضابط الخفر أنه تلقى امرا يخولنا حق البقاء في مصر اربع وعشرين ساعة. وبينما أنا أوقع على أوراق بهذا المعنى وصل السيد حليم أبو عز الدين بسيارة المفوضية اللبنانية التي أقلتنا معاً الى فندق «كونتيننتال» فوصلنا اليه في الساعة الثامنة صباحاً، ثم استمرت المباحثات والمقابلات بشأن اقامتنا في مصر الى أن أبطل مفعول الاقامة المحددة.

القسم الخامس من المذكرات (*)

هكذا ضاعت فلسطين

١٩٤٧ - ١٩٤٨

تمهيد :

اعتدت منذ من ربع قرن ان ادون مذكراتي مسجلاً فيها كل مايتعلق باعمال الكفاح الحربي الذي اشتركت فيه بنفسي، وما يتصل منه، بالكفاح السياسي العربي العام من جلاء الاتراك عن البلاد العربية حتى يومنا هذا. وقد رسمت في هذه المذكرات صورة جلية للعقلية التي كانت تسود الشبيبة العربية في كل مكان اقمت فيه، أو كانت لي بأهله علاقة ما. كما سجلت صورة للامال التي كنا نحلم بتحقيقها والاعمال التي كنا نعتزم القيام بها منذ ان كنا بعد، من الرعية العثمانية ، تلك الامال التي أحيتها الحرب العالمية الأولى.

وها أنذا أنشر اليوم من هذه المذكرات ما يتعلق بقضية فلسطين والحرب التي أثيرت من اجلها، ولما تنته بعد، إذ اننا ما نزال في حالة هدنة مع اليهود ، لا يعلم أحد – رغم جميع الظواهر – كيف تنتهي.

صحيح اننا نعيش في زمن تقوم فيه، هيئة أمم متحدة، ترتكز على اسس من الحرية والحق والعدل والسلام... غايتها الحؤول دون اعتداء امة على أمة أخرى. ودفع هذا الاعتداء اذا هو وقع، أما بالطرق السلمية المختلفة، أو بقوة السلاح اذا اقتضى الامر. ولكننا رأينا كيف أن هيئة الامم المتحدة هذه خرجت في قضية العرب في فلسطين عن مبادئها المكتوبة ، وخالفت تعاليمها المنشورة، فهيأت للعدوان

* – دوّن فوزي القاوقجي هذا الجزء من المذكرات في بيروت في آب / اغسطس ١٩٥٠ .

سبيلاً وشجعته وساعدته ثم راحت تبرره وتقره باسم " الامر الواقع" . وتفرضه على المعتدى عليه وتطلب منه القبول به والرضى عنه. ثم تحرم على المعتدى عليه استعمال أية وسيلة من وسائل القوة لنقض " الامر الواقع" بأمر واقع آخر بحجة الحرص على السلام العالمي والخوف من الاخلال بالامن الذي يؤدي الى الاضطراب فالحرب، مفضلة عليه بقبول احتجاجه على ان يكون احتجاجاً دبلوماسياً لبقاً، فتنظر فيه، فيما بعد.

ولعل هيئة الامم ما يبرر موقفها هذا من العرب واليهود لان مصالح الاميركان والانكليز في بلاد العرب وفي العالم كله تقضي بذلك. اذ هي تزن الفريقين بميزان هذه المصالح الدقيق فترى وزن اليهود وهم قبضة، أثقل بكثير من وزن العرب باجمعهم ، وعددهم لا يقل عن سبعين مليونا... ثم تحسب حساب حرب عالمية تقع بين المعسكرين ، الديموقراطي والشيوعي، فيرى الانجليز والاميركان ان اليهود انفع لهم من العرب، لان لدى اليهود العلم والمال والنظام والاتحاد ، فهم اذاً أقوى وأجدى. لذلك سيظل الاميركان والانكليز كما كانوا من قبل في جانب اليهود، في السنين الآتية أيضاً، إلى أن يثبت لهم العرب عملياً خطأ نظريتهم ، فيدللوا، بالفعل على انهم أقوى من اليهود وأنفع، وأكبر وزنا في الميزان العالمي، فعندئذ فقط، تنقلب الآية ويصبح « الامر الواقع » العربي، حقاً كان أم باطلاً معقولاً مقبولاً جديراً بالرضى والمساندة والتشجيع العلني. ويعتبر أنه لا يهدد السلم العالمي فقط، بل انه دعامة من دعائم هذا السلم...

في « مشروع » حرب فلسطين ، تمني الجامعة الى القيام بدور ما على رأس قوى المتطوعة المعروفة باسم " جيش الانقاذ " ، ولقد مثّل هذا الجيش في حرب فلسطين دوراً، ولكنه لم يكن الدور الذي اردته له، ولا الذي اراده هو. ولما كانت تلك الادوار ماتزال مغموره، فانني اقدمت على اخراج هذه المذكرات، لجلاء الغوامض وتنوير العرب بكثير مما يجهلون.

وان مذكراتي هذه ، هي سرد لحوادث ووقائع مثبتة بوثائق رسمية من رسائل وبرقيات بتواريخها وارقامها واسماء أصحابها، وبمداولات واحاديث كانت تدور في مؤتمرات واجتماعات حضرتها، وما يزال اصحابها أحياء يرزقون، انشرها

بالحرف، فان تعذر فبالمعنى والروح تماماً.

وسيلمس فيها كل من يقرأها الحقيقة المرة ولكن الناصعة، لمساً، ويجد فيها وثيقة تاريخية دامية مؤلمة مليئة بالعبر لمن يريد ان يعتبر. وهناك حوادث حربية وقعت في مناطق خارجة عن منطقة جيش الانقاذ مررت بها بايجاز لان الوثائق التي تثبتها تنقصني.

وارجو أن يكون في نشري هذه المذكرات التي تجلي الحقيقة جلاء واضحاً في أسباب كارثتنا في فلسطين، خدمة لبني قومي، في ميدان النشر لا تقل عن خدمتي المتواضعة لهم في ميادين القتال.

فلسطين في مصر – من القاهرة الى بيروت

بعد ان نزلت القاهرة أحاطني بنو قومي، من مصريين وغير مصريين، بأحسن مظاهر الرعاية والتكريم وظلت قاعات «الكونتيننتال» مدة غير قصيرة، تغص بالمهنئين بسلامة العودة، وخصتني الصحافة بعناية فائقة، وقد كان الحديث الغالب في هذه الزيارات والحفلات، وفي ماعقبها من اجتماعات حضرتها، خاصة وعامة، حديث فلسطين. وشعرت ان الحماس لنصرة فلسطين قوياً جداً، في نفوس الذين اجتمعت اليهم من المصريين، وغيرهم من رجالات العرب في مصر، ولمست اعتقاد الجميع ان قضية فلسطين ستحلّ في مصلحة العرب وبقوة السلاح. وفهمت من خلال الاحاديث المختلفة عن فلسطين، ان سماحة الحاج أمين الحسيني معني بالامر عناية خاصة وانه بدأ يعد العدة ليوم عصيب قريب، وان الجامعة العربية قدمت اليه أموالاً طائلة بدأ يشتري بها السلاح والعتاد لتحرير فلسطين، وانه قد جمع كميات كبيرة في مستودعاته الخاصة في فلسطين وفي مصر. كما انه بدأ ينظم تشكيلات واسعة النطاق داخل البلاد، تكفل – اذا اقتضى الامر – القيام بعمل حاسم لحل قضية فلسطين حلاً حاسماً. وانه أصبح لديه من المعلومات الدقيقة عن تشكيلات اليهود وقواهم ومدى تسلحهم، ما يؤكد تفوق العرب في فلسطين عليهم، ويؤيد الاعتقاد بسهولة تطهير فلسطين منهم. فاثلج صدري ما سمعت وأسرعت الى مقابلة سماحته، وتحدثنا في كل المواضيع الا موضوع فلسطين... فقد لمست عنده رغبة في عدم التحدث معي بهذا الموضوع، لم أفهم لها سببا ومع ذلك فقد وضعت

نفسي تحت تصرف سماحته، من أجل فلسطين، اذا ما أقدم يوماً على القتال وأراد أن أكون في عداد المجاهدين، فشكرني بسرعة وغيَّر مجرى الحديث. وقد حرت في تعليل وضعه ذاك، وودعته وأنا اقول لنفسي لعل سماحة المفتي قد هيأ من الترتيبات ونظم من الصفوف، ما يجعله مطمئنا الى التغلب على اليهود، وحل قضية فلسطين، من دون أية حاجة الى «ازعاج» اخوانه وأبنائه العرب من غير فلسطين.

وتوالت الحفلات والاجتماعات وتكررت الاحاديث عن فلسطين في حماسة واطمئنان، ولكنني كنت دائما قلق البال غير مطمئن القلب، وهذا ما حملني على ان أزور سماحة المفتي ثانية وأن أكاشفه بقلقي على فلسطين وبرغبتي في القتال، ولكن صدوده هذه المرة – وقد أذهلني – كان أشد منه في المرة السابقة. فأخبرته بعزمي على الاشتراك في معركة فلسطين وانصرفت وأنا عازم على ان أعود وأتحدث مع سماحته مرة ثالثة ورابعة اذا اقتضى الامر، بعد أن استقر في البلاد واطلع على الحالة العامة. وكان يرافقني في زيارتي الاولى والثانية الاستاذ محمد علي الطاهر. وخلال وجودي في مصر ورد عليّ برقيات كثيرة من مختلف أنحاء البلاد العربية، وخاصة من طرابلس تدعوني الى زيارتها، على انني شعرت من برقيات وزير خارجية لبنان السيد هنري فرعون التي ارسلها اليّ عن طريق المفوضية اللبنانية في القاهرة ان هناك خوفاً من ظهوري في لبنان مظهر المتمتع بقوة شعبية كبيرة، وانه من الانسب ان ادخل الى لبنان دون سابق موعد.

فنزلت عند هذه الرغبة دون مبالاة، وهبطت بيروت دون موعد سابق، ولكن هذا لم يمنع سريان خبر وصولي بسرعة غريبة فتدفقت جماهير من مختلف الهيئات والاحزاب في بيروت وطرابلس تهنئني بعودتي الى الوطن وترحب بي. وعلمت ان طرابلس تعج بالمستقبلين الذين جاؤا من داخل البلاد السورية يظهرون فرحهم بعودتي. ومن الاحاديث العادية المتبادلة بين بعض الذين زاروني في بيروت، شعرت ان هناك فئات وأحزابا متخاصمة تتجاذبني، والبلاد على أبواب انتخابات نيابية، فلم ترتح نفسي الى ذلك وتقرر أن أذهب الى طرابلس على أساس منهاج وضعته لجنة للاستقبال تمثل فيها مختلف الهيئات والاحزاب في طرابلس.

* * *

الدماء في طرابلس

غادرنا بيروت في ٤ آذار ١٩٤٧ في قافلة صغيرة من السيارات كانت تزداد كلما اقتربنا من طرابلس، وكانت هناك قوة من الدرك والشرطة لتأمين النظام فعجزت عن تأمينه، وبدأ اطلاق النار بشكل يكاد يكون جنوناً، فأيقنت ان حوادث دامية ممكنة الوقوع في كل لحظة لا يمكن الحيلولة دونها الا بمعجزة. واستمر الموكب في سيره نحو طرابلس والجماهير تزداد كثافة وحماسة، وأزيز الرصاص يتفاقم لحظة بعد لحظة، حتى كأننا في معركة. وما أن وصل الموكب الى مدخل المدينة حتى بدا لنا معسكر كبير فاذا هو لاخواننا الذين جاؤوا من داخلية البلاد حمويين وحماصنة، ويريدني المعسكر على أن اتوقف وأتناول القهوة، وما هممت بالنزول من السيارة، حتى اختطفت اختطافاً، ولم اشعر الا وأنا على الاكتاف، فاقد الارادة، وهتافات الجماهير الغارقة في هتافات الرصاص، تقرع أذني قرعاً، وانقضت زيارة المعسكر بعد عناء شديد بسلام. ثم اختلط الحمويون والحماصنة في الجماهير، وكانت هذه الامواج البشرية تجرفنا انا وقوى الدرك حتى وصلنا الى ساحة التل في منتصف المدينة، وتوقف الموكب على ان اطلاق النار بقي مستمراً بدون انقطاع، وخيل اليّ انه اتخذ شكلا عنيفا حادا. على أن اصابة واحدة لم تقع، رغم كثافة الجماهير في الشوارع، وفي الشرفات والنوافذ وعلى السطوح. لم يبق بيننا وبين منزل الشيخ فخر القاوقجي الذي تقرر ان أقيم فيه، الا مسافة قصيرة جداً. وهنا انبرى فريق يريد ان يأخذ قيادة الموكب، من الفريق الذي كان يقوده حتى هذه اللحظة، ووقعت الواقعة التي لن أنس حياتي كلها، وقعها الهائل المؤلم في نفسي، مالت أفواه البنادق والرشاشات من الاتجاه العمودي الى اتجاه أفقي منخفض، وأخذت الجثث تتساقط والدماء تسيل في الساحة وفي المقاهي، فخيل اليّ كأنما نحن في معركة كبيرة، وبقدر ما أذكر انني كنت احتفظ برباطة جأشي في أية معركة من المعارك التي قدر لي أن اخوضها، شعرت بانقباض شديد جارح في أعماق نفسي. وكان عجزي عن عمل أي شيء مجدٍ، يزيد في وقع الموقف المحزن في نفسي. وتدخلت قوى الدرك والشرطة بالسلاح، فتفرقت الجماهير، ولكن عدد القتلى والجرحى زاد كثيراً. وبعد ساعة من الزمن دخلت المنزل وأنا أكاد لا أعي من شدة ما نزل بي من عذاب نفساني، يندر أن أكون شعرت بمثله في حياتي.

أخذت أفكر في هذه الجماهير وحماستها، وهذه الاسلحةوكثرتها، وهذه الارواح التي طارت دون أي داع أو مبرر. وخطرت ببالي فلسطين، فقلت أليس الاولى بهذه القوة المسلحة ان تصارع اليهود، وتصب نيران اسلحتها في صدور اليهود ؟ ومن يدري فقد يحدث هذا يوماً. وحوالي منتصف الليل دخل عليّ في المنزل ضابط برتبة رئيس في الدرك اللبناني يقول ان قوة من الجيش في طريقها الى طرابلس للمحافظة على الامن، وان المدينة ستشيع قتلاها غدا الى مرقدهم الاخير وانه قد تقع حوادث دامية، فهو لذلك يرجو مني باسم الحكومة مغادرة طرابلس الى قرية اختارها من قرى جبل لبنان، فغادرت طرابلس، مختاراً قرنايل في فندق سعد زغلول. وانتشر في القرية خبر وصولي اليها، فأخذت وفود كثيرة تجيء الى قرنايل كل يوم من القرى المجاورة للسلام عليّ. كما جاءت وفود من طرابلس، ومن دمشق وغيرها من المدن السورية. وألح عليّ الاخوان السوريون في المجيء الى دمشق وتحديد يوم وصولي بغية استقبالي استقبالاً شعبيا رائعا ولكنني قررت أن ادخل دمشق دون سابق موعد ودون اطلاع أحد على الاطلاق.

خلال اقامتي في قرنايل كان كرم بني معروف الذي خبرته من قبل يتجلى امام عينيّ بأروع صوره، فأعاد هذا الى خاطري ذكرى كثير من شبان هذه العشيرة رافقوني في ساحات القتال، ووضعت بفكري انني سأنتقي من هؤلاء الشباب المتحمسين المندفعين فريقاً للقتال في فلسطين يوم ينتصب سوق القتال وكنت أحس أن ذلك اليوم قريب.

وخلال المدة التي أقمتها في لبنان ، درست الحالة من جميع الوجوه، وعرفت في ما عرفته ان التسليح الشعبي غير قليل، واختلطت بالعناصر المقاتلة التي سبق ان اختبرت قسما منها في ثورات وطنية ماضية، فتأكدت ان هناك امكانيات واسعة، لتشكيلات مسلحة قوية، يمكن الاستفادة منها الى حد بعيد، في معركة فلسطين التي كنت أحس انها تقترب منا بسرعة فائقة. وكتبت الى سماحة المفتي في مصر وشرحت له الحالة بوضوح كما عرفتها، ووضعت نفسي مرة اخرى تحت تصرفه من اجل فلسطين، مبينا له قيمة الاستفادة من الامكانيات الشعبية اذا هي عمل لتنظيمها بجد واخلاص. وسلمت الكتاب الى السيد عز الدين الشوا الذي سلمه الى سماحة

المفتي يدأ بيد، ولكنني لم أتلق جوابا. وعلمت فيما بعد ان سماحة المفتي يعتمد على تشكيلات شعبية فلسطينية باسم «الخلايا» منتشرة في انحاء فلسطين كلها، وهي من القوة، بحيث تستطيع ان تحل قضية فلسطين، وان كل ما يطلبه من الدول العربية هو ان تمونه بالمال والسلاح والعتاد. أما أنا فكنت أخالف سماحة المفتي بكل اخلاص في رأيه واعتقاده رغم انه لم يكن توفر لديّ من المعلومات الموثوقة ما استطيع ان أقيم معه البرهان المحسوس على خطأ ذلك الرأي. ولكنني كنت أحس وأستنتج أن اليهود الذين ينوون، في تصميم، اقامة دولة يهودية بالقوة في فلسطين، بين مجموعة الدول العربية والشعوب العربية، وهم من هم في اميركا وأوروبا، علماً وفكراً وجدا وغنى وحيلة ومثابرة، لا يمكن الا ان يكونوا هيأوا لانشاء دولتهم، ما تقتضيه مغامرة كهذه، من اسلحة وعتاد وأموال وقوى مدربة وتحصينات واتفاقات مع بعض دول غربية لهذا الغرض. مما لا ينفع معه الا مايماثله، أو ما يقرب منه على الاقل.

* * *

الجماعات الشعبية المسلحة – اعتداءات اليهود ودعايتهم

دخلت دمشق دون أن أطلع أحداً، مساء ١٢ آذار سنة ١٩٤٧ وحللت في فندق «أوريان بالاس» نزولاً عند رغبة الحكومة وذهبت تواً الى القصر الجمهوري بصحبة السيد نبيه العظمة. فاستقبلني فخامة الرئيس القوتلي استقبالا ودياً حاراً، وجرت بينه وبيني احاديث متنوعة، ولكنه لم يتعرض لفلسطين ولا أنا رأيت التعرض لها في المقابلة الأولى، ولكنني صرحت لفخامته انني اضع نفسي تحت تصرفه المطلق في نطاق خدمة الوطن. وما تنفس صباح اليوم الثاني، حتى سرى في المدينة خبر وصولي اليها، فأخذ الناس وفي مقدمتهم اخواني وأصدقائي القدماء، يتوافدون على الفندق، معربين عن ابتهاجهم بعودتي سالما الى الوطن. ورأت هيئة النادي العربي ان اتخذ من النادي مكاناً للاستقبال ففعلت شاكراً. واستمرت الزيارات والاستقبالات مدة طويلة، كان يتلطف كل وفد خلالها، فيدعونني الى زيارة المدينة التي يمثلها، ولكنني مع الاسف لم اتمكن من تلبية هذه الدعوات الكريمة. وانصرفت الى درس حالة الشعب من وجوهها المختلفة، فاذا في سورية كما في لبنان، جماعات شعبية كثيرة مسلحة، وأصبح همي تهيئة الطريقة الصالحة

للاستفادة من هذه الجماعات، في فلسطين اذا ما وقعت الواقعة، – وهي ستقع حتماً – بين العرب واليهود. فقررت ان خير طريقة، هي أولاً – تحديد عدد هؤلاء المسلحين في كل منطقة، وتسجيل أسمائهم وتفويض أمر كل فريق منهم الى زعيم فيهم مطاع، يتولى قيادتهم. ثانياً – تحشيدهم في أماكن معينة وتدريبهم تدريباً عسكرياً. ثالثاً – تنظيمهم في وحدات مستكملة شروط القتال بأساليبه المختلفة، حتى اذا جاءت الساعة رمينا بهم اليهود قبل اللجوء الى الجيوش النظامية، فتستفيد الدول العربية منهم فائدة كبيرة.

وكانت الاعتداءات اليهودية، خصوصاً على الجيش البريطاني، في فلسطين، بدأت تشتد ويتردد صداها ليس في هذا الشرق الاوسط فحسب، بل في اوروبا وأميركا أيضاً. وكانت اعتداءاتهم تدل دلالة واضحة على مقدار تنظيمهم، وتسلحهم، ومدى استعدادهم العسكري وكثرة ما يملكون من مواد متفجرة وأسلحة أوتوماتيكية، يستعملونها ضد الجيش البريطاني ومؤسساته في مختلف انحاء فلسطين، الى حد أظهر الجيش البريطاني بمظهر الضعف والتردد. وكان ينبغي لنا أن نرى في هذا كله، مايدل على مبلغ استعداد اليهود ويحملنا على ان نحسب لهم حسابا. على انني وان كنت حتى ذلك الحين، غير مطلع اطلاعاً حقيقياً كافياً على مبلغ ما في فلسطين من استعداد، لدى العرب، من ناحية التنظيم والتشكيلات والتسلح، فقد كنت أميل الى الاعتقاد ان الحالة حسنة من هذه الناحية، كلما تذكرت ما قاله لي سماحة المفتي بهذا الشأن في مقابلتي الأولى له في مصر. ثم اقول لنفسي لا بد أن يكون سماحته قد أتم خلال هذه المدة، النقص الذي يمكن انه كان موجوداً، للقضاء على هذا الطغيان اليهودي، الذي كان يتجسم يوماً بعد يوم. وكان هذا الاطمئنان اذا حدث ما يصدّعه أو يقلقه، يستنجد بذاكرتي فتنجده بما تعيه من ذكريات، عن سماحته تعيد الى خاطري ماكان يتمتع به في المانيا وايطاليا من نفوذ ومن سلطان، يحملان الاوساط الالمانية والايطالية على تعليق آمال كبار على سماحته، في بادئ الامر، للتقرب من العالم العربي والعالم الاسلامي، والانتفاع بهما بواسطته، فتزيده هذه الاوساط من لدنها، قوة الى القوة التي كان يخيل اليهم انه يتمتع بها، فتضع بين يديه مبالغ طائلة من الاموال، عدا ما كان يرد على سماحته من الخارج وتضع تحت تصرفه وسائل

مختلفة للاتصال بالبلدان العربية والاسلامية. أذكر هذا كله فاعود الى الاطمئنان، وأقول لنفسي ان سماحة المفتي لا يمكن إلا أن يكون استعمل تلك الامدادات والوسائل لتسليح فلسطين وتنظيمها وتهيئتها. ويمكّن لهذا الاطمئنان من جهة اخرى، ماكان يبدو من طمأنينة سماحته وارتياحه الى كل مايجري، مما نقل عدوى الاطمئنان الى جامعة الدول العربية نفسها كما كان يظهر، يوم كان سماحته يحضر بعض اجتماعاتها، فيخيل الى الجميع أن النتيجة الحسنة المشرفة مضمونة.

* * *

اجتماعات – مؤتمرات – تصريحات

اخذت حمى المؤتمرات والاجتماعات تسري بشكل غريب، حتى كاد لا يسلم منها رأس سياسي ولا عسكري، وأخذ نشاط الرسل والوفود بين الاقطار العربية يشتد، حتى ليخيل الى المرء ان عواصم البلدان العربية كلها، غارقة في مؤتمر واحد مستمر لا ينقطع. واسم فلسطين على كل لسان، والحرب مع اليهود حديث كل فرد كائما الاقطار العربية في حالة « نفير عام ». لقد كانت حماسة حقيقية فعلاً، لا يعوزها الا ان يستغلها استغلالا شريفاً منظماً لمصلحة الوطن وخير العرب جميعاً، هؤلاء الرؤساء الرسميون والزعماء الكثيرو العدد، بأن يجمعوا الصفوف ويضعوا الخطط ويعدوا العدة لقتال عملي جدي، وانهاء الجولة أو جولات حربية قليلة، بعد ذلك ، مع اليهود في فلسطين، ويحل العرب قضية فلسطين، ويضعون العالم أمام الامر الواقع.

حينما أتذكر تلك المظاهر الحماسية والتظاهرات الصاخبة، يمر أمام عيني ماشهدته منها في لبنان، في مهرجان قرنايل يوم ٥ تشرين الأول ١٩٤٧، الذي تسابق اليه من الشمال ومن الجنوب زعماء يبايعون، ويقسمون اليمين ليكونوا في الطليعة من المحاربين، فاذا هي – ويا للاسف – كما تبين فيما بعد ، عهود لم يكن أصحابها يشعرون بما لها أو بما ينبغي ان يكون لها، من خطورة وقدسية. وكان ان ذهبت كما تذهب كلمات المجاملة التافهة، على موائد الطعام والشراب. ومثل هذا الاجتماع كانت اجتماعات كثيرة في مناطق كثيرة، من أقطار عربية كثيرة.

ولكنني كنت أعتقد وأعلم، أن هناك فئة حية الشعور، طيبة النفس، صادقة الحماسة في هذه الشعوب العربية انها في غير جماعات الزعماء والمتنفذين وأصحاب الوجاهات. وقد وجدت هذه الفئة فعلاً، ومددت اليها يدي في لبنان وسورية. وكانت هذه الفئة موزعة في مناطق مختلفة، منها عدد ممن سبق لهم ان خدموا في القوات المسلحة كالجيش والدرك والشرطة، كما بين هؤلاء فريق مسلح بالبنادق فاتفقت معهم بسهولة على القتال في فلسطين. وأفهمتهم ان تعليمات مفصلة ستجيئهم، ينفذونها لهذا الغرض، وأعددت لوائح بأسمائهم وعناوينهم ووعدتهم انهم سيسلحون تسليحاً كاملاً. فقد كنت أعتقد وما أزال، ان الشبان الذين يهرعون الى القتال ثقة بك، وحبا بفخر القتال في سبيل الشرف، يشكلون –اذا هم تدربوا تدريبا حسنا وتسلحوا تسليحا كافيا – قوة فعالة، ينتفع بها في الملمات الى حد بعيد. وقد ساعدني في هذه الناحية ، مساعدة فعالة، في لبنان ، وطني مخلص مشهور، هو الاستاذ علي ناصر الدين.

وفي ١٠ تشرين الاول ١٩٤٧ عقدنا في قصر الجمهورية في دمشق وبحضور فخامة الرئيس الاول اجتماعا من أجل فلسطين، حضره رئيس الحكومة السيد جميل مردم والعميد طه الهاشمي، ومن الفلسطينيين السيدان معين الماضي وعزة دروزة. وقد لمست في حديث هؤلاء السادة، مايدل على انهم ينحون نحواً، يختلف اختلافا تاما، عما كان قائما في ذهني بشأن فلسطين. نحواً لعله يبدو لأول وهلة بمظهره المنطقي الخارجي، انه لاغبار عليه. وهو يتلخص بما في هذه العبارة – مثلاً – من دلالات. .« ان قضية فلسطين لاتُحل الا بالقتال، تقوم به الجيوش العربية النظامية، ولكن يجب ان يسبق القتال نشاط سياسي قوي شامل في دوائر هيئة الامم المتحدة، ولدى دولها كلها، فلعل هذه الدول تتهيب الموقف وتبادر الى حل القضية بطرق سلمية، فان هي لم تفعل، فاننا نقذف الى الميدان بجيوشنا النظامية ونحطم اليهود ». كانوا يقولون هذا بسخاء وحماسة. ولا أدري لماذا خيل اليّ كائما وراء هذه الاقوال امراً، وكائما يقولونها وكل واحد منهم يعتقد – دون أن يفضي الى الآخر – ان بريطانيا وأميركا ستحولان حتما دون وقوع حرب في فلسطين، لانهما حريصتان على ان يكون الامن مستتباً والهدوء مخيماً في ما يسمونه الشرق الاوسط وبالنتيجة، فانهم لن يحاربوا. اذن فما المانع ان يظهروا بطولتهم

بالكلام . . .

وأما الفلسطينيون، فقد بدا لي انهم يرون القتال الشعبي بينهم وبين اليهود امرا واقعا لا مفر منه، وانه يجب ان يسبق دخول الجيوش العربية النظامية، وقد كانوا على صواب، وكانوا يلحون في طلب السلاح والعتاد، غير مطمئنين الى ان الاستعدادات التي كان سماحة المفتي يجاهر انه اتخذها، كافية للقتال. على انهم من ناحية اخرى كانوا يشيرون، تلميحاً تارة، وبصراحة تارة أخرى، الى خوفهم من ان تستيقظ الاحقاد، وتتجدد الانقسامات والخصومات القديمة في فلسطين، في حالة القتال، اذا ما بقي سماحته منفرداً في التصرف بالامكانيات التي تتوفر لفلسطين، في المال والسلاح والعتاد، كثرت هذه الامكانيات أم قلت. على ان الاطمئنان الى ان حرباً لن تقع، كان بالجملة هو الغالب على الرؤوس السياسية الكبيرة في العرب ومن رسميين وغير رسميين. وكان الاطمئنان يبدو للمتيقظ من خلال الحماسة التي كانت ترتفع درجاتها في التصريحات، من يوم الى يوم، بل لعله – أي الاطمئنان – كان السبب الرئيسي في هذه الحماسة .

خذ مثلاً قضية التقسيم، فقد كان الرؤوس يقولون عند الكلام على التقسيم، ان التقسيم لم تبت به هيئة الامم المتحدة، وان قرار التقسيم، لابد له من اكثرية غالبية في اعضاء الهيئة، ويأخذون في عمل الحساب، حساب التصويت على التقسيم، ويتفلسفون في الاسباب والعوامل التي تحمل هذه الدولة على التصويت معنا، وتلك الدولة على التصويت ضدنا، فيخرجون بنتيجة حتمية – على رأيهم – ان الدول التي ستصوت ضد التقسيم، عددها أكثر، فتزداد حرارة الاطمئنان، وتزداد معها حرارة الحماسة للحرب، وحرارة التطاحن بالكلام على الحرب. وينسيهم هذا كله، نفوذ اليهود في أميركا وفي انكلترا، وسلطانهم الشخصي في العلم والمال والتنظيم والاتحاد، والحركة القائمة على الخطط المدروسة المقررة.

* * *

وأخيراً اعلن التقسيم. وبرزت الحقيقة عارية مخيفة. وأسقط في ايدي الرؤوس برهة، على انهم سرعان ما عادوا الى طرقهم وأساليبهم المعروفة المنجية: اجتماعات ، مؤتمرات، تصريحات، وأشياء اخرى. . . ولكن ها هو العلم الصهيوني

يرتفع لأول مرة في تل أبيب.

وفجأة وبطريقة تكاد تكون اوتوماتيكية، تتحول اعتداءات اليهود على البريطانيين، الى اعتداءات وحشية على العرب، وتروح هذه الاعتداءات تشتد ويتسع نطاقها بأساليب مختلفة، غير انها في مجموعها تدل على الحيلة والغدر، كما تدل على الجد والتنظيم، والامعان المقرر في الوحشية. ومع ذلك فالرؤوس لا يزالون يعتقدون أن هيئة الامم لن تفسح مجالا للقتال. وأما الانكليز، فان الاعتقاد السائد على الرؤوس الكبيرة، ان الانكليز معنا في كل حال. أما الشعب في فلسطين، وفي غيرها من البلاد العربية، فقد بدأت صدوره تغلي غليانا شديداً، وأخذ يقوم بمظاهرات صاخبة يطلب ان يسلح، انه يريد ان يقاتل. فأمطرته الرؤوس الكبيرة تصريحات كبيرة، في كل مكان، كأنما هي على سابق موعد واتفاق. التصريح تلو التصريح، بالمناوبة تسكن روعته وتهدئ ثائرته، وتعده خيراً. واليهود يعملون جادين في فلسطين وخارج فلسطين، دونما اجتماعات، في الظاهر ، ولا مؤتمرات ولا خطب ولا كلام ولا تصريحات.

وفي هذه الفترة المؤلمة الرهيبة، بدأت تنهال عليّ من الافراد والجماعات برقيات أكاد لا أستطيع لها عدا، بطلب التطوع للقتال، ما الطريقة لاستثمار هذه الحماسة البريئة استثماراً شريفاً مجدياً في سبيل فلسطين،؟ هذا ما كان يأخذ على مناحي تفكيري كلها.

* * *

مع جامعة الدول العربية في عاليه

في ٦ تشرين الاول ١٩٤٧ اجتمع في عاليه في فندق طانيوس، مجلس جامعة الدول العربية أي رؤساء حكومات الدول الاعضاء في الجامعة، لتقرير ما ينبغي عمله في قضية فلسطين، بصورة جدية وسريعة. ولم أكن أحضر جلسات مجلس الجامعة بصورة رسمية – طبعاً – فأنا لست رئيس وزراء ولا وزيراً، ولكنني كنت على اتصال دائم برجال مجلس الجامعة، وعلى اطلاع تام على ما يدور من ابحاث ويتخذ من مقررات. وفي اليوم نفسه أي في ٦ تشرين الاول سألني السيد

عبد الرحمن عزام أمين الجامعة، والسيد محمد علي علوبه، رأيي في موضوع الحركات في فلسطين، فاقترحت عليهما الاقتراح التالي:

أولا – تأليف قوة من المتطوعين ينظمها نفر من الضباط ويدربونها تدريباً عسكريا وتسلحها الدول العربية تسليحا جيداً. مع العلم ان هناك جماعات من الراغبين في التطوع مسلحة بالبنادق فقط.

ثانياً – تكوّن هذه القوة من مختلف الشعوب العربية، خاصة الفلسطينيين.

ثالثاً – دخول هذه القوة الى فلسطين بعد ان يتم تدريبها وتسليحها، على احسن وجه، وبالسرعة الممكنة.

رابعاً – حشد الجيوش العربية النظامية على الحدود كأداة تهديد، على أن لا تدخل فلسطين الا اذا استدعت ذلك ضرورة قصوى، وبعد ان تكون قوات المتطوعين قد مهدت لها السبيل، وزودتها بكل ما تحتاج اليه من معلومات عن العدو وسلاحه، وتحصيناته، ومواصلاته، وأساليب قتاله، وقواه المعنوية والمادية ومدى استعداداته كافة. وقد لا تحتاج هذه الجيوش الى اجتياز الحدود.

خامساً – تنظم قيادة قوات المتطوعين بعد دخولها فلسطين، وحدات من الشبان الفلسطينيين تدربهم على القتال تدريباً منظماً، وتضمهم اليها للانتفاع بهم في مناطقهم بالدرجة الاولى. وقد وافق أمين الجامعة والسيد محمد علي علوبة على هذا الاقتراح.

وتناولت طعام الغداء في ذلك اليوم، مع السيد محمد علي علوبة والسيد عبد الرحمن عزام، وقبل الفراغ من الطعام استدعي السيد عزام الى التلفون، وبعد دقائق عاد وعلائم القلق بادية عليه. وأخبرنا ان رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح، أعلمه الساعة ان سماحة المفتي الحاج امين الحسيني وصل الى بيروت. وتشاءم السيد علوبة وقال: «ما مد هذا الرجل يده الى مسألة الا وأفسدها... ربنا يستر». وكنا قد بدأنا نتحدث في موضوع القتال في فلسطين فاستأنفت الكلام في الموضوع، ومضيت فيه، وأشار عزام الى عدم ارتياح العراق والاردن الى مداخلاته، والى اصرارهم على عدم التعاون معنا، اذا أصر سماحته على السيطرة

على كل شيء كما كان يطلب.

وذهبت بعد الظهر الى بحمدون، لمقابلة رئيس الحكومة العراقية السيد صالح جبر، وأطلعته على اقتراحي وما دار بين السيدين علوبة وعزام وبيني من حديث، فوافق عليه باسم العراق والاردن، ثم اشار الى وصول سماحة المفتي وقال: «ربما عرقل وجوده هنا المباحثات، وشق الجامعة الى شقين»، – وكان السيد جبر ممن يعلمون ان سماحته يأبى ان ادخل فلسطين – فاستمر يقول: «سنتساهل معه حرصاً على وحدة الصفوف، وسنأخذ موافقته على مشروع الحركات ثم نصارحه ان مسألة ادارتها يجب ان تترك للعسكريين». وعدت الى عاليه وبقيت فيها على اتصال دائم بأعضاء مجلس الجامعة ومن اليهم من رجالات العرب السياسيين والعسكريين الذين كانوا يترددون الى عاليه في ذلك الحين، ومن بين العسكريين الذين كنت اتصل بهم بصورة خاصة اللواء صفوة اسماعيل والعقيد محمود الهندي. وكان مجلس الجامعة استدعاهما لأخذ رأيهما بموضوع الحركات في فلسطين.

وبدأ سماحة المفتي يتصل بالرجال العسكريين في سورية ولبنان وبفريق من المجاهدين ورؤسائهم الذين أخذوا يترددون الى عاليه، وكان يطلب من كل واحد منهم تقريراً عن الحالة في فلسطين، ورأيه في الخطة الواجب اتباعها. موهما كلا من الرؤساء انه سيوليه القيادة، على ان هؤلاء – الا أقلهم – كانوا يقترحون عليه، اسناد القيادة اليّ، ويبينون له أسباب ذلك، فيستاء ويرفض. وكانت وفود تجيء من فلسطين ومن بعض مدن سورية ولبنان لزيارته، ومعرفة ما يمكن معرفته عن مصير فلسطين، فيغدق على نفوسهم الطمأنينة. وكان الفلسطينيون يطلبون منه السلاح فيعدهم خيراً. وكانت هذه الوفود تتصل بي قبل أو بعد مقابلة سماحة المفتي، فافهم من مقدميها انهم لا يطمئنون الى قيادة عامة محلية، خوفاً من استيقاظ الاحقاد، وتجنبا للمآسي التي وقعت خلال سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨. وكانوا يعلنون ان الضمانة لتلافي هذا في الحركات المقبلة هو ان أتولى انا القيادة. وكنت على أثر وصول سماحة المفتي الى عاليه، قد زرته، فرحب بي كثيراً ببشاشته المعروفة ودماثته الحلوة، فعرضت عليه خطورة الحال في فلسطين، وقلت له انني مستعد – كما كنت

دائماً – للقتال حتى الموت في سبيل فلسطين. وأضفت انني لا أعنى كثيراً بأن ادخل فلسطين كقائد، وان الذي يهمني ان أقاتل لانقاذ فلسطين من مخالب اليهود والمستعمرين، واني أقاتل كجندي بسيط، استطيع – اذا أنا شئت واقتضت ضرورة القتال – ان أقود المقاتلين في كل حين. فلم يتعد حديثه نطاق الشكر والثناء والتوكل على الله.

وفي ١٩ تشرين الاول سنة ١٩٤٧ سافرت الى دمشق مع السيد عبد الرحمن عزام، وكان حديثنا طول الطريق لا يتعدى موضوع التدابير التي اتفقنا على اتخاذها في عاليه، وموقف سماحة المفتي. وفي صباح اليوم التالي استقبلني فخامة رئيس الجمهورية، فأطلعته على ماجرى في عاليه فارتاح الى ذلك، وطلب مني ان نجتمع في قصر الرئاسة، وفي اليوم نفسه اجتمعنا في القصر، وحضر الاجتماع رئيس الحكومة السيد جميل مردم، والعميد طه الهاشمي والسيدان عزة دروزة ومعين الماضي، وتناقشنا في موضوع الحركات. وطلب اليّ فخامة الرئيس، ان أقدم اليه تقريراً مفصلاً بالموضوع، أبين فيه رأيي في كيفية اشتراك الدول العربية في اعداد جيش المتطوعين، ونصيب كل دولة في الاعداد. وانصرفنا لكي نجتمع في منزلي في دمشق، وبعد بحث الامر ودرسه من وجوهه المختلفة قررنا مجتمعين مايلي:

أولاً – تجنيد ألف متطوع ممن سبق لهم الخدمة في الجيش، أو أية قوة مسلحة.

ثانياً – تكليف بعض الضباط وضباط الصف من الجيش السوري لقيادة هؤلاء المتطوعين.

ثالثاً – وضع ميزانية لتجهيزهم كما يجهز الجندي النظامي عادة، ولكن بصورة مصغرة.

رابعاً – تقوم الحكومة السورية بتسليحهم بالبنادق والرشاشات.

خامساً – ينشأ معسكر في قطنا لتدريب المتطوعين من أين ما أتوا، على اساس منهاج يوضع لهذا الغرض.

اتفقنا على هذا، وأخذ العميد طه الهاشمي على عاتقه قضية التجهيز والتسليح والتدريب وتكفل السيد عزة دروزه بقضية الاعانات. وتشكلت على أثر ذلك لجان لجمع التبرعات وتسجيل أسماء المتطوعين. وفي ٢٥ تشرين الاول

١٩٤٧ قدمت الى فخامة الرئيس القوتلي التقرير الذي طلبه مني. ووزعت عدد المتطوعين وأسلحتهم على الشكل التالي:

سورية – ألف مقاتل مع بطارية واحدة ٧٥ مم.

لبنان – خمسماية مقاتل.

العراق – ألفا مقاتل مع بطاريتين.

الاردن – خمساية مقاتل مع بطارية واحدة.

السعودية – ألفا مقاتل.

مصر – ألفا مقاتل مع بطارية واحدة.

ويضاف الى هؤلاء جماعة المسلحين الفلسطينيين، فيتألف من المجموع جيش يتراوح عدده بين عشرة وخمسة عشر ألف مقاتل. وسلمت من هذا التقرير نسخة الى فخامة الرئيس القوتلي ونسخة الى رئيس الحكومة السيد جميل مردم. فوعداني انهما سيحيطان الدول العربية علماً بالامر ويطلبان موافقتها عليه.

كان سماحة المفتي في خلال هذه المدة، يعلن امام الرجال الرسميين أنه لا يقبل ان أتسلم قيادة جيش المتطوعين. وكان هؤلاء الرجال، وغيرهم من الرجالات غير الرسميين، يحاولون اقناعه بضرورة تسلمي القيادة من أجل خير فلسطين، فيصر على الرفض، دون ان يبدي أي سبب معقول مقبول. وأخيراً ضاقوا به ذرعا، كما ظهر، فصارحوه بأن الافضل والاليق ان يعلن قبوله، من ان يفرض عليه الامر فرضاً، وكان بين الذين صارحوه بهذا ، اللواء اسماعيل صفوة، والعقيد محمود الهندي. وأفهمه فخامة الرئيس القوتلي، ورئيس الحكومة السيد جميل مردم انهما قررا تسليم قيادة المتطوعين السوريين اليّ.

وبعد مجيء سماحته الى دمشق في أوائل تشرين الثاني ١٩٤٧ عقد اجتماع في الزبداني، وآخر في القصر الجمهوري حضرهما بعض الضباط ولم احضرهما، ومن جملة الذين حضروا العقيد محمود الهندي، الذي أخبرني ان المسألة كلها كانت محاولة لاقناع سماحة المفتي بقبوله أن أكون قائد جيش المتطوعين، ولكنه بقي مصراً على الرفض.

وكان بدأ يظهر شيء من الاشمئزاز في احاديث رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة والقواد والضباط عن سماحته لاصراره الغريب على موقفه مني، ليس الا لأنه يريد ان تكون القيادة العامة له شخصياً، وأن يكون هو وحده، صاحب الحق في تعيين قواد المناطق في فلسطين وأن يكون كل ما يخصص من مال وسلاح وعتاد لفلسطين تحت تصرفه الشخصي. وبعد عودته من دمشق الى عاليه، اجتمع به السيد معين الماضي وكلمه في الموضوع. وبعد أيام لقيت السيد الماضي، فقال لي باسما، أن سماحته، وافق اخيراً على أن أكون ضابط ركن من ضباطه، على ان لا أدخل فلسطين. على ان الجماعة قد عيل صبرهم، فجاءني اللواء اسماعيل صفوة والعميد طه الهاشمي في ٦ كانون الاول ١٩٤٧ وكلفاني، الاول باسم جامعة الدول العربية ، والثاني باسم الرئيس القوتلي قبول القيادة ، فقبلت.

* * *

جهود واختلاقات – دعايات منظمة

من اليوم السادس من شهر تشرين الاول ١٩٤٧ الى اليوم السادس من شهر كانون الاول من السنة نفسها، شهران كاملان، بذل خلالهما سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني من الجهود لعرقلة الاعمال وتفريق الصفوف. ان جهوده هذه بأساليبه الخاصة المتنوعة، وان تكن ذهبت هباء من جهة القيادة، ولم تنفعه شيئاً، فقد أخرت الحركات شهرين كاملين واعتقد انها تركت غير مباشرة، تأثيراً سيئا جداً في تصرفات جامعة الدول العربية، من جهة ، وفي سير الحركات في فلسطين من جهة اخرى.

وما كدت أتسلم قيادة جيش الانقاذ، وأحاول المباشرة في العمل، حتى طغت على بر الشام كله، وعلى غيره من الاقطار العربية ، موجة من الاشاعات والاتهامات، ومن التهديدات بالقتل، وبالثورة ضدي في فلسطين، بشكل غريب عجيب. انه تقرير يفاجأ به الناس، صادر عن مكتب «المفتي الاكبر – برلين –» وموقع بامضاء «بدري قدح». وهو تقرير كان قدمه سماحة المفتي الاكبر الى السلطات الالمانية، الغرض منه ايهام هذه السلطات انني جاسوس انكليزي، وهو آخر سهم أطلقه سماحة المفتي ضدي، في برلين، ثم عاد فاطلقه في البلاد العربية عل أثر اسناد جامعة الدول العربية ، قيادة جيش الانقاذ اليّ. وبلغ بي الاستغراب

والدهشة مبلغاً لا حد له. وأعترف انني قلت بيني وبين نفسي، لأول وهلة، هذه فرصة يهيئها لي هذا الرجل، دون ان يريد ، للهجوم. ثم ترددت، كيف أجيز ذلك لنفسي، ونحن في بدء الاستعداد لمعركة فلسطين. واستدعيت السيد شوقي العبوشي احد أصدقاء سماحة المفتي، وهو من وجوه مدينة جنين ومدير البنك العربي في دمشق ، وطلبت منه ان يبلغ سماحة المفتي، ان نفي هذه التهمة السخيفة امر سهل عليّ جداً، ولكن الاعمال الجانية، التي عملها في برلين والمثبتة لديّ بوثائق ناطقة لا يستطيع اذا أنا نشرتها ان ينكر واحداً منها. ويكفي ان انشر في الناس وثيقة تطوعه في خدمة الالمان والطليان، وتشكيله فرقتين يوغوسلافيتين من مسلمي البوسنة، خلال الحرب العالمية الثانية، وما قبضه من اموال طائلة مقابل ذلك، ومن وعود بمنصب الخلافة الاسلامية الذي كان يحلم به، في حالة انتصار المحور، وما سببته هذه المغامرة السخيفة التي كان يعلم انها مغامرة، وانها فاشلة، من ويلات ونكبات لهؤلاء المسلمين اليوغوسلافيين الطيبين، نعم ان هذا وحده يكفي. فقل له ان يكذّب في الحال هذه التهمة الكاذبة، وان يرعى حرمة الحق والحقيقة والوطن. وإلا فاني ناشر حقيقة أعماله وتصرفاته من دون أن الجا الى الاختلاق.

وبعد أيام قليلة عاد السيد شوقي العبوشي يتأبط عدة صحف مصرية تحمل في مكان بارز منها تكذيب سماحته.

في تلك الاثناء كان كثير من مراسلي الصحف الاجنبية يجوبون عواصم البلدان العربية وكل واحد منهم الصديق الصادق... للعرب. والعدو الألد لليهود... وكان الاميركيون منهم أكثرهم نشاطاً. وتحت ستار أخذ الاحاديث والتصريحات، كان يكمن غرضهم الحقيقي المرتكز في نقطتين، الاولى – اطلاعهم على كل كبيرة أو صغيرة، اذا أمكن، في الميدان السياسي والعسكري، والثاني – ايهام العرب – باعتبار انهم اصدقاء للعرب – ان اليهود يملكون من اقوى مقداراً هائلاً، فيتحدثون عن الدبابات الضخمة والمدفعية الثقيلة المتنوعة، والاسلحة الحديثة الفتاكة عند اليهود، وما الى ذلك. وقد تركز نشاطهم برهة من الزمن حولي، ولما كنت أقول لهم ببرودة، ان العرب سيستولون بواسطة بنادقهم، على هذه الاسلحة الرهيبة، التي يتحدثون عنها لدى اليهود، أو شيء منها على الاقل، كانوا ينظرون اليّ مبهوتين. (وقد استولى جيش الانقاذ فعلاً بسلاحه الخفيف القليل، على مصفحات ومدافع هاون وأسلحة يهودية متنوعة، وعند الحكومة السورية، واللجنة

العسكرية لجامعة الدول العربية ، مصداق لما أقول).

على أن هؤلاء المراسلين قد لاقوا كثيراً من النجاح – ويا للأسف – في ايهام العرب وتضليلهم، وتثبيط عزائم فريق كبير منهم، خاصة في فلسطين. ولعل هذا كان سبباً من أسباب الفشل المؤلمة.

* * *

بين النظام والفوضى – مشكلة السلاح والعتاد

بدأت هجمات اليهود على العرب في فلسطين تأخذ شكلاً منظماً، وبدأت صرخات الاستغاثة منها، تتعالى طالبة الاسراع في النجدة. وتبين من المعارك الاولى بين العـرب الفلسطينيين وبين اليـهـود، ان ليس لدى العـرب أي نوع من أنواع الاستعداد المسلح المنظم، ولا أي أثر للتدريب. وان المقاومة التي يبدونها بشجاعة فعلاً، انما هي مقاومة دفاع شخصي ومحلي ضيق، كما يقع غالباً ضد اعتداء طارئ وعادي، وبسلاح بسيط، يملكه عادة قرويون اشتروه بأموالهم الخاصة، دون أي ارتباط بنظام معين، أو رجوع الى خطة مرتبة. وكان هناك جماعات تنتمي الى سماحة المفتي، قد سلحها تسليحا بسيطاً، وأقام على رأسها قواداً، يفرضون ضرائب من أموال وأسلحة، على الاهلين، بحجة القيام بأعباء حرب. وبدأت الشكاوى تنهال على اللجنة العسكرية في دمشق، وهي اللجنة التي تمثل جامعة الدول العربية. وازداد الشعور عند الجماهير في الحاجة الى السلاح، وتدفق مئات بل ألوف من هذه الجماهير في طلبه، على كثير من الاقطار العربية، القريبة منها والبعيدة، حتى ان منهم من وصل الى الكويت، ومنهم من اجتاز الحدود ووصل الى تركيا لهذا الغرض، وارتفعت اسعار السلاح حتى بلغ ثمن البندقية ألف ليرة سورية. بينما كنا نلاحظ من جهة اخرى، ان الذين كانوا من الفلسطينيين ينتمون بصورة خاصة الى سماحة المفتي، كانوا يحصلون بسهولة على السلاح من بعض جهات لها صبغة رسمية، كبعض هيئات في مصر مثلاً، وكاللجنة العسكرية في دمشق. غير انه ليس من شك في ان عرباً فلسطينيين غير قليل عددهم ، كانوا يحبون أن يتسلحوا، ويتسلحون فعلاً ما استطاعوا، ولكن السلاح قليل وأقل منه العتاد، وفي العتاد كانت المشكلة الكبرى. وعلى هذا الاساس لا يمكن ان يقوم هؤلاء الفلسطينيون المتحمسون، الا بأعمال محدودة جداً، مهما يكن في نفوسهم

من شجاعة ورغبة في التضحية. وأنكى من ذلك أنه انكشف لنا ان الذين كانوا يفدون من كل صوب وإلى كل صوب، لشراء السلاح، كان بينهم – على غير علم منهم – اشخاص يدسهم اليهود في صفوفهم، مزودين بأموال اليهود ليشتروا لهم سلاحاً، ليس لحاجة اليهود الى البنادق، ولكن ليحرموا العرب – ما استطاعوا – حتى من هذا النوع من السلاح، من جهة، وليساعدوا على ارتفاع الاسعار وتجسس الاخبار من جهة اخرى.

* * *

الجيش البريطاني – سياسة بريطانيا – موقف الدول العربية

كان الجيش البريطاني في هذه الفترة، وبعد ان أكدت بريطانيا غير مرة عزمها على الجلاء عن فلسطين في ١٥ أيار ١٩٤٨، يعلن من وقت الى آخر، ان مهمته –بانتظار ١٥ أيار – تنحصر في المحافظة على الامن الداخلي، وتأمين اسبابه. والحقيقة ان الجيش البريطاني كان موقفه كمايلي: في الحوادث البسيطة كان يتدخل فيحول دون استمرار القتال. وفي الحوادث المهمة، كان اذا بدا له تغلب اليهود، يقف متفرجاً، واذا بدا له تغلب العرب يتدخل ضد العرب.

على انه من الانصاف ان أعلن الآن أن أفراداً غير قليل عددهم من الانكليز، من جنود وضباط، ساعدوا العرب بشكل فردي، قدر استطاعتهم، ومنهم من انضم الى العرب وقاتل في صفوفهم قتالا صادقاً، محمولين على ذلك بعوامل مختلفة: فمنهم من كان يبغض اليهود ويحتقرهم، ومنهم من كان حاقداً على اليهود لكثرة ما أنزلوه بالجيش البريطاني من اهانة واختطاف وقتل. أما السياسة البريطانية العليا فكانت في الواقع، في جانب اليهود، وكانت الاوامر الصادرة الى القيادة البريطانية العامة في فلسطين، لا تخرج عن نطاق هذه السياسة، مع العمل من ناحية اخرى لايهام السياسيين العرب في كل مكان، من رسميين وغير رسميين، ان بريطانيا تقف – بالجملة – الى جانبهم في صراعهم مع اليهود. وكان مقياس التثبت عند «الدهاة» العرب من صحة هذا الامر، موقف دولة شرق الاردن. فحينما اعلن جلالة الملك عبد الله انه سيدخل فلسطين مقاتلاً، تنفست الدول العربية الصعداء... اذن ، فالانكليز سيقفون الى جانب العرب. وإلا لما أقدم جلالة الملك عبد الله على التصريح بعزمه على القتال في فلسطين.

ترى أيكون جلالة الملك عبد الله عازماً على تحقيق مشروع « سورية الكبرى » عن طريق فلسطين؟ هذا ما كان يشغل بال الدولة السورية في الدرجة الاولى. والعراق ، التي سترسل جيشها الى ساحة الحرب في فلسطين، ماراً بشرق الاردن، ماذا عساها تفعل ؟ هل ستدعم الاردن لتحقيق هذا المشروع ؟ والملك عبد العزيز بن سعود، ماذا تراه يدبِّر ؟ يجب ان يكون على استعداد للعمل حين تظهر هذه النيات بوضوح . . . . .

ويسألني فخامة الرئيس القوتلي ذات يوم : « ما هي التدابير التي يجب ويمكن اتخاذها للحيلولة دون وقوع هذا الخطر العظيم ؟ ». فأجيب : « ان جيش الانقاذ في فلسطين يستطيع ان يحول دون ذلك، فيحول دون وقوع حرب بين الدول العربية، الى أن تتمكنوا من اتخاذ ما ترونه لازما من احتياطات ، دون ان يؤثر ذلك في مجرى الحرب بيننا وبين اليهود في فلسطين ». فيأمر فخامة الرئيس في الحال بارسال لواء من الجيش السوري الى الحدود الفلسطينية الاردنية، يجمد هناك.

وطلب جلالة الملك عبد العزيز بن سعود ان يخصص له منطقة ما ، في شرق الاردن، يحشد فيها قواته استعداداً للدخول الى فلسطين – وقد لا يكون هناك قوات للحشد – فتخوف جلالة الملك عبد الله من هذا الطلب، واعتذر عن تلبيته، معتقدا ان الغرض منه قد يكون احتلال شرق الاردن، تنفيذاً لمؤامرة ما، بين الرئيس القوتلي والملك ابن سعود، على ان يكون القسم الشمالي لسورية والقسم الجنوبي ، وهناك العقبة ، لابن سعود. . . وطلب من الحكومة العراقية بإلحاح ان ترسل فوراً قوة الى شرق الاردن لاحباط كل مؤامرة سعودية سورية. ووصل إلى شرق الأردن لواء عراقي مختلط من المشاة والآليات والمدفعية، فاطمأن جلالة الملك عبد الله وسكن. وكانت مصر تميل الى المعسكر السعودي السوري، وتعده بمعاونتها عند الحاجة، ولكن هذا المعسكر كان لا يعتمد كثيراً على هذه المعاونة.

كل دولة من الدول العربية تخشى « شقيقتها » وتطمع بشقيقتها وتتآمر على شقيقتها. وفي احد اجتماعات مجلس الجامعة العربية في تشرين الاول سنة ١٩٤٧ أطلق رئيس الحكومة المصرية السيد محمود فهمي النقراشي باشا تصريحاً، جاء فيه، « ان مصر تشترك في (مظاهرة عسكرية) مع الدول العربية من أجل فلسطين،

ويجب ان تعلم هذه الدول مقدماً، ان الجيش المصري لن يشترك في القتال، وذلك لاسباب مصرية داخلية بحتة، فلتعمل الجيوش العربية حسابها على هذا الاساس ». فجاء هذا التصريح عاملاً جديداً من عوامل التخوف والبلبلة، تخوف كل دولة عربية من « شقيقتها » . . . كما ذكرت آنفاً. هكذا كان موقف الدول العربية وهي تستعد لانقاذ فلسطين، وهذا ما كان يشغلها في الدرجة الأولى، وبعد هذا بمراحل بعيدة جداً، تأتي قضية فلسطين.

* * *

حالة الجيوش العربية – أوهام الرؤساء – تحاسد – فوضى – فساد

تسلمت قيادة جيش الانقاذ رسمياً في ٧ كانون الاول ١٩٤٧ بعد ماكنت مارستها برهة بصورة غير رسمية. وبدأت بتشكيل هيئة القيادة والمقر، بعد ان تقدمت الى المفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي، باحتياجات هذا الجيش، من سلاح وعتاد وغير ذلك. وكانت المفتشية العامة هي المسؤولة عن مثل هذا رسمياً. وكان المفتش العام موضع ثقة مطلقة من فخامة الرئيس القوتلي ومن أمين الجامعة ، حتى انهما جعلا منه – كما اتضح لي فيما بعد – المراقب الاول على حركاتي لما كان دخل في رأسيهما من أوهام – ولا أدري لماذا – بأنني وبعض الضباط سنكون عونا للملك عبد الله في تحقيق مشروع سورية الكبرى. أو انني قد « أفلت » – على حد تعبيرهم – من بين أيديهم، فاعلن في فلسطين ادارة مستقلة، وأقوم بانقلاب في سورية، وأقبض على زمام الجيش السوري، فتفقد « الرؤوس الكبيرة » سلطانها وتفقد معه كل شيء. وذهبت يوماً الى عمان في شأن من شؤون الجيش بناء على طلب جلالة الملك وبت فيها، فقال لي وزير الدفاع السوري، السيد أحمد الشراباتي، « أتعرف ان القصر في الشام لم ينم ، ليلة نمت انت في عمان . . . ».

وقد كنت استمع الى حديث هذه الاوهام، ينقلها اليّ بعض الذين يحضرون جلسات الساسة والقواد الرسميين، بكثير من الاستغراب والدهشة. ولكنني لم أكن لأبالي، وكان همي الوحيد، الحصول على الوسائل التي تمكنني من القيام بواجبي نحو أمتي ووطني. وأعمل دائباً لتأمين احتياجات جيش الانقاذ، من المفتشية العامة

حينا – وهي وحدها المسؤولة رسمياً عن تأمين هذه الاحتياجات – وبواسطة وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي حينا آخر. وكثيراً ما لجأت الى فخامة الرئيس القوتلي شخصياً لهذا الغرض، والى لبنان بواسطة الزعيم شهاب، والى شرق الاردن والعراق. وعند الخطوة الاولى العملية، فوجئت بتصريحات جديدة، على جانب كبير من الخطورة، وهي ان الجيش السوري نفسه، غير مستعد للقتال، وانه ينقصه السلاح والعتاد.. وان معارك اسبوعين أو ثلاثة تكفي لتستنفذ منه آخر طلقة... وبمثل هذا اخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها.

كأن قضية فلسطين كانت بنت يومها. وكأن دولة من هذه الدول العربية، لم تتوقع ان تقاتل يوماً من اجلها.

ويا للخيبة! أكانت تلك التصريحات الطنانة منذ أن تسلمت هذه «الرؤوس الكبيرة» زمام الحكم و«استقلت» في ادارة شؤونه في هذه البلدان العربية كلها، للتضليل والتخدير والتجهيل؟.. ألم تسمع الرؤوس الكبيرة كثيراً أو قليلاً، بالتكتل اليهودي، والاستعداد اليهودي، والخطر اليهودي؟. اذن ماذا كانوا ينتظرون؟ وما الذي دهاهم طوال هذه السنوات، خاصة سنوات الاستقلال؟ فاذا هم في الساعة التي تضعهم فيها الاحداث، في كل مكان، كما في فلسطين، على مفترق طريقي الحياة والموت، لا يملكون من امرهم شيئا، ولا يملكون من وسائل الحياة شيئا... أعترف انني كنت أجهل هذه الحقائق المرة المزرية جهلاً تاماً، وكان يجهلها كثير مثلي.

تسلم اللواء اسماعيل صفوة القيادة العامة للقوات المحاربة في فلسطين، وأصبحت قيادة جيش الانقاذ مرتبطة بقيادته. فشكل هيئة القيادة العامة والمقر، واتخذ له مركزاً في قدسيا بالقرب من الربوة، احدى ضواحي دمشق، وما لبث طويلاً، وهو القائد الكفؤ المخلص، حتى جرفه تيار المؤتمرات والاجتماعات، ولم يبق له وقت للاهتمام بشؤون القيادة. فاستقل بالامر رفيقاه، العميد طه الهاشمي، والعقيد محمود الهندي. وكان المتطوعون يفدون على معسكر التدريب من كل مكان، المصري والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني وغيرهم، وكان هناك غير العربي الجركسي والكردي والتركي والارمني. وكان السلاح الذي يعطى لهم كذلك خليطاً، سلاح فرنسي وانكليزي وألماني وايطالي. وكان طبيعيا ان يجيء

فريق كبير من المتطوعين اليّ، فأرسلهم الى المراجع المختصة أي الى المفتشية العامة، لتسجيل اسمائهم، فكانوا، في المفتشية، يرفضون كثيراً منهم بحجة انهم كان يجب ان يجيئوا رأسا الى المفتشية العامة، بدون ان يتصلوا بي. انهم يريدون ان يفرضوا عليّ جنودي وضباطي فرضاً. يختارون الجنود والضباط الذين يريدونهم هم، ويدربونهم، ويعدّونهم على طريقتهم دون ان اتصل بهم الا في ساعة المعركة، حيث لا يكون احد غيري مسؤولاً عنهم، وعن حركاتهم وتصرفهم في ساحة القتال.

ان العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الانقاذ، ضابط ركن جيد، ولكنه ليس قائداً. ومن هنا جاءت النظرية، التي هي أيضاً كانت سببا من أسباب تأخر النجدة عن فلسطين، كان المفتش العام يحب ان يتمشى في تدريب المتطوعين على أسلوب يتفق مع أسلوب تدريب الجنود، الذين جندتهم الخدمة الاجبارية. وكان هذا مستحيلاً تطبيقه، فوضع المتطوع يختلف نوعاً عن وضع الجندي النظامي، والوقت الذي يصرف عادة في تدريب هذا الجندي، لا نملك منه شيئاً فظروف القتال الذي بدأ يستفحل أمره في فلسطين، تفرض علينا الاسراع بالنجدة، والاعتماد في اتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به، من جهة، وطبيعة المعارك التي سيخوضها من جهة اخرى.

وكان سماحة المفتي ماضياً من بعيد في تأليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق، يسمي لها قوادا، أفرادا قد يكونون شجعاناً ولكنهم جهلاء، يحتفظ بهم للمستقبل. وأخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه الجماعات التي تنتمي الى سماحة المفتي، وقد عمل بهذه «النصحية» كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين.

* * *

مخاوف وتصرفات غريبة – معلومات العدو – ومعلومات عنه

اشرت سابقاً الى مخاوف تساور الرئيس القوتلي وأمين الجامعة السيد عزام،

حينا – وهي وحدها المسؤولة رسمياً عن تأمين هذه الاحتياجات – وبواسطة وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي حينا آخر. وكثيراً ما لجأت الى فخامة الرئيس القوتلي شخصياً لهذا الغرض، والى لبنان بواسطة الزعيم شهاب، والى شرق الاردن والعراق. وعند الخطوة الاولى العملية، فوجئت بتصريحات جديدة، على جانب كبير من الخطورة، وهي ان الجيش السوري نفسه، غير مستعد للقتال، وانه ينقصه السلاح والعتاد.. وان معارك اسبوعين أو ثلاثة تكفي لتستنفد منه آخر طلقة... وبمثل هذا اخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها.

كان قضية فلسطين كانت بنت يومها. وكأن دولة من هذه الدول العربية، لم تتوقع ان تقاتل يوماً من اجلها.

ويا للخيبة! أكانت تلك التصريحات الطنانة منذ أن تسلمت هذه «الرؤوس الكبيرة» زمام الحكم و«استقلت» في ادارة شؤونه في هذه البلدان العربية كلها، للتضليل والتخدير والتجهيل؟.. ألم تسمع الرؤوس الكبيرة كثيراً أو قليلاً، بالتكتل اليهودي، والاستعداد اليهودي، والخطر اليهودي؟. اذن ماذا كانوا ينتظرون؟ وما الذي دهاهم طوال هذه السنوات، خاصة سنوات الاستقلال؟ فاذا هم في الساعة التي تضعهم فيها الاحداث، في كل مكان، كما في فلسطين، على مفترق طريقي الحياة والموت، لا يملكون من امرهم شيئا، ولا يملكون من وسائل الحياة شيئا... أعترف انني كنت أجهل هذه الحقائق المرة المزرية جهلاً تاماً، وكان يجهلها كثير مثلي.

تسلم اللواء اسماعيل صفوة القيادة العامة للقوات المحاربة في فلسطين، وأصبحت قيادة جيش الانقاذ مرتبطة بقيادته. فشكل هيئة القيادة العامة والمقر، واتخذ له مركزاً في قدسيا بالقرب من الربوة، احدى ضواحي دمشق، وما لبث طويلاً، وهو القائد الكفؤ المخلص، حتى جرفه تيار المؤتمرات والاجتماعات، ولم يبق له وقت للاهتمام بشؤون القيادة. فاستقل بالامر رفيقاه، العميد طه الهاشمي، والعقيد محمود الهندي. وكان المتطوعون يفدون على معسكر التدريب من كل مكان، المصري والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني وغيرهم، وكان هناك غير العربي الجركسي والكردي والتركي والارمني. وكان السلاح الذي يعطى لهم كذلك خليطاً، سلاح فرنسي وانكليزي وألماني وايطالي. وكان طبيعيا ان يجيء

فريق كبير من المتطوعين اليّ، فأرسلهم الى المراجع المختصة أي الى المفتشية العامة، لتسجيل اسمائهم، فكانوا، في المفتشية، يرفضون كثيراً منهم بحجة انهم كان يجب ان يجيئوا رأسا الى المفتشية العامة، بدون ان يتصلوا بي. انهم يريدون ان يفرضوا عليّ جنودي وضباطي فرضاً. يختارون الجنود والضباط الذين يريدونهم هم، ويدربونهم، ويعدّونهم على طريقتهم دون ان اتصل بهم الا في ساعة المعركة، حيث لا يكون احد غيري مسؤولاً عنهم، وعن حركاتهم وتصرفهم في ساحة القتال.

ان العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الانقاذ، ضابط ركن جيد، ولكنه ليس قائداً. ومن هنا جاءت النظرية، التي هي أيضاً كانت سببا من أسباب تأخر النجدة عن فلسطين، كان المفتش العام يحب ان يتمشى في تدريب المتطوعين على أسلوب يتفق مع أسلوب تدريب الجنود، الذين جندتهم الخدمة الاجبارية. وكان هذا مستحيلاً تطبيقه، فوضع المتطوع يختلف نوعاً عن وضع الجندي النظامي، والوقت الذي يصرف عادة في تدريب هذا الجندي، لا نملك منه شيئاً فظروف القتال الذي بدأ يستفحل أمره في فلسطين، تفرض علينا الاسراع بالنجدة، والاعتماد في اتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به، من جهة، وطبيعة المعارك التي سيخوضها من جهة اخرى.

وكان سماحة المفتي ماضياً من بعيد في تاليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق، يسمي لها قوادا، أفرادا قد يكونون شجعاناً ولكنهم جهلاء، يحتفظ بهم للمستقبل. وأخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه الجماعات التي تنتمي الى سماحة المفتي، وقد عمل بهذه «النصحية» كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين.

* * *

مخاوف وتصرفات غريبة – معلومات العدو – ومعلومات عنه

اشرت سابقاً الى مخاوف تساور الرئيس القوتلي وأمين الجامعة السيد عزام،

حينا – وهي وحدها المسؤولة رسمياً عن تأمين هذه الاحتياجات – وبواسطة وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي حينا آخر. وكثيراً ما لجأت الى فخامة الرئيس القوتلي شخصياً لهذا الغرض، والى لبنان بواسطة الزعيم شهاب، والى شرق الاردن والعراق. وعند الخطوة الاولى العملية، فوجئت بتصريحات جديدة، على جانب كبير من الخطورة، وهي ان الجيش السوري نفسه، غير مستعد للقتال، وانه ينقصه السلاح والعتاد.. وان معارك اسبوعين أو ثلاثة تكفي لتستنفذ منه آخر طلقة... وبمثل هذا اخذ المقربون من الحكومات العربية يهمسون عن جيوشها.

كأن قضية فلسطين كانت بنت يومها. وكأن دولة من هذه الدول العربية، لم تتوقع ان تقاتل يوماً من اجلها.

ويا للخيبة! أكانت تلك التصريحات الطنانة منذ أن تسلمت هذه «الرؤوس الكبيرة» زمام الحكم و«استقلت» في ادارة شؤونه في هذه البلدان العربية كلها، للتضليل والتخدير والتجهيل؟.. ألم تسمع الرؤوس الكبيرة كثيراً أو قليلاً، بالتكتل اليهودي، والاستعداد اليهودي، والخطر اليهودي؟. اذن ماذا كانوا ينتظرون؟ وما الذي دهاهم طوال هذه السنوات، خاصة سنوات الاستقلال؟ فاذا هم في الساعة التي تضعهم فيها الاحداث، في كل مكان، كما في فلسطين، على مفترق طريقي الحياة والموت، لا يملكون من امرهم شيئا، ولا يملكون من وسائل الحياة شيئا... أعترف انني كنت أجهل هذه الحقائق المرة المزرية جهلاً تاماً، وكان يجهلها كثير مثلي.

تسلم اللواء اسماعيل صفوة القيادة العامة للقوات المحاربة في فلسطين، وأصبحت قيادة جيش الانقاذ مرتبطة بقيادته. فشكل هيئة القيادة العامة والمقر، واتخذ له مركزاً في قدسيا بالقرب من الربوة، احدى ضواحي دمشق، وما لبث طويلاً، وهو القائد الكفؤ المخلص، حتى جرفه تيار المؤتمرات والاجتماعات، ولم يبق له وقت للاهتمام بشؤون القيادة. فاستقل بالامر رفيقاه، العميد طه الهاشمي، والعقيد محمود الهندي. وكان المتطوعون يفدون على معسكر التدريب من كل مكان، المصري والعراقي والفلسطيني والسوري واللبناني وغيرهم، وكان هناك غير العربي الجركسي والكردي والتركي والارمني. وكان السلاح الذي يعطى لهم كذلك خليطاً، سلاح فرنسي وانكليزي وألماني وايطالي. وكان طبيعيا ان يجيء

فريق كبير من المتطوعين اليّ، فأرسلهم الى المراجع المختصة أي الى المفتشية العامة، لتسجيل اسمائهم، فكانوا، في المفتشية، يرفضون كثيراً منهم بحجة انهم كان يجب ان يجيئوا رأسا الى المفتشية العامة، بدون ان يتصلوا بي. انهم يريدون ان يفرضوا عليّ جنودي وضباطي فرضاً. يختارون الجنود والضباط الذين يريدونهم هم، ويدربونهم، ويعدّونهم على طريقتهم دون ان اتصل بهم الا في ساعة المعركة، حيث لا يكون احد غيري مسؤولاً عنهم، وعن حركاتهم وتصرفهم في ساحة القتال.

ان العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الانقاذ، ضابط ركن جيد، ولكنه ليس قائداً. ومن هنا جاءت النظرية، التي هي أيضاً كانت سببا من أسباب تأخر النجدة عن فلسطين، كان المفتش العام يحب ان يتمشى في تدريب المتطوعين على أسلوب يتفق مع أسلوب تدريب الجنود، الذين جندتهم الخدمة الاجبارية. وكان هذا مستحيلاً تطبيقه، فوضع المتطوع يختلف نوعاً عن وضع الجندي النظامي، والوقت الذي يصرف عادة في تدريب هذا الجندي، لا نملك منه شيئاً فظروف القتال الذي بدأ يستفحل أمره في فلسطين، تفرض علينا الاسراع بالنجدة، والاعتماد في اتمام النقص الذي قد يبقى في بعض فروع تدريب المتطوع، على شخصية القائد وعلاقة جنوده به، من جهة، وطبيعة المعارك التي سيخوضها من جهة اخرى.

وكان سماحة المفتي ماضياً من بعيد في تاليف جماعات مسلحة في فلسطين كيفما اتفق، يسمي لها قوادا، أفرادا قد يكونون شجعاناً ولكنهم جهلاء، يحتفظ بهم للمستقبل. وأخذت ترد على المتطوعين الفلسطينيين في معسكر قطنا، رسائل باسم الهيئة العليا تطلب منهم الفرار بأسلحتهم من المعسكر والالتحاق بهذه المجماعات التي تنتمي الى سماحة المفتي، وقد عمل بهذه «النصحية» كثير من هؤلاء المتطوعين المساكين.

* * *

مخاوف وتصرفات غريبة – معلومات العدو – ومعلومات عنه

اشرت سابقاً الى مخاوف تساور الرئيس القوتلي وأمين الجامعة السيد عزام،

وكان اللواء اسماعيل صفوة ينقل اليّ خبر هذه المخاوف، قائلاً انه كان يحاول ان يمحوها من نفوسهم، بقوله لهم، ما دام المال والعتاد بين أيدينا، فلا مجال للتخوف، لاننا قادرون في كل وقت، ان نقضي على كل حركة قد يخطر له القيام بها. وكأنه كان يريد ان يقول لي من طرف خفي، اياك، انتبه، فان «اللجام» بين أيدي الجماعة. وقد طبق هذا التهديد، بصورة تدريجية، حتى جاء وقت لم يكن لدى جيش الانقاذ، من العتاد مايكفي للدفاع عن نفسه، اذا هو هوجم. وفوق ذلك فقد نشطت القيادات المحلية في فلسطين، المرتبطة رأساً بسماحة المفتي، الى العمل لعرقلة حركات جيش الانقاذ، وبذر بذور التفرقة بينه وبين الفلسطينيين. ولا أدري أكانت هذه القيادات تتلقى التعليمات بهذا الشأن من مرجع ما، خارج فلسطين، أم انها كانت تعمل ذلك من تلقاء نفسها، وأظن ان الافتراض الاول أصح.

أما وضع اليهود، من حيث عدد المقاتلين، ومقدار أسلحتهم ومدى استعدادهم فقد كنا نجهله تماما، والمعلومات التي كانت تتصل بنا عن هذا كله، من مصادر مختلفة كانت متناقضة: فتارة كانت تصل المبالغة في وصف قوة اليهود الى حد يدخل الذعر في النفوس، وتارة كانت الاخبار تصورهم من الضعف بحيث يخيل الى السامع ان العرب، سيصلون في سباق الى تل أبيب، وبدون توقف. على انني رحت أحاول الحصول على معلومات يمكن الركون الى صحتها عقليا، فاجتمعت لديّ المعلومات التالية، التي كانت، على ما أعتقد، قريبة من الحقيقة:

أولاً – جيش الهاغانا – قيادته الدائمة – عدد الضباط ٥٠٠ خمسماية.

ثانيا – جنود الهاغانا – عددهم ستون ألفاً. مقسمون كما يلي:

آ – خمسة عشر ألفا تحت السلاح.

ب – خمسة وعشرون الفاً مدربون، احتياط.

جـ – عشرون الفاً مسلحون، يستطيعون الاشتراك في القتال حين الطلب.

ثالثاً – قوى بوليس نظامية واضافية خمسة آلاف (الايرغون، وشتيرن عشرة آلاف).

السلاح :

كان لديهم مائة وخمسون مدفع هاون.

مائة سيارة مصفحة تصفيحا محلياً.

دبابات انكليزية وألمانية من بقايا العلمين وطبرق (لم يعرف عددها).

متفجرات حوالي خمسين طنا.

مع عتاد يكفي لستة اشهر قتال.

الخطة اليهودية :

١– فصل فلسطين عن بقية البلدان العربية بنسف الطرق التي تربطها بها.

٢– احتلال المناطق التي يعتبرونها هامة لاتخاذها قواعد في المستقبل.

٣– دفاع عام الى ان يعرف مبلغ قوات العرب، وتصل الى اليهود الاسلحة والادوات الجديدة، وقد تبين فيما بعد ان هذه المعلومات كانت قريبة من الحقيقة.

أما استعدادات المستعمرات الخاصة، ونوع التحصينات فيها وأسماء كبار القواد ومؤهلاتهم العسكرية، ذلك كله بقي مجهولاً لدينا الى وقت طويل. وأما معلومات اليهود عن قواتنا وتسليحنا ومبلغ استعدادنا فالارجح انها كانت معلومات وافرة. وكان الخطأ الكبير في هذه المعلومات أكثر مايبدو في ما يتعلق منها بجيش الانقاذ، فقد كانوا يقدرون عدده ومعداته باكثر من ثلاثة أضعاف الواقع.

صحيح ان الحكومة السورية قدمت الى جيش الانقاذ من السلاح المقدار الذي تقرر ان تقدمه، وغم قلة ما كان لديها في ذلك الحين، وقدمت من الضباط وضباط الصف عددا غير قليل، وكذلك فعل لبنان. ولكن مع ذلك كانت هذه المقادير ضئيلة جداً بالقياس الى الحاجة، لاسيما وان بقية الحكومات لم تقدم ماتعهدت به كاملاً. وكان السلاح الذي قدمته غير جيد، اما العتاد فقد نقص كثيراً عما كان مقرراً. وكانت الجامعة العربية، هي التي أخذت على عاتقها، تقديم السلاح والعتاد الى جيش الانقاذ، بواسطة اللجنة العسكرية التي أنتشئت في دمشق لهذا الغرض. وكان المتفق عليه، ان توزع اللجنة العسكرية السلاح والعتاد والتجهيزات، على

قطاع المقاتلين في مختلف المناطق الفلسطينية، على أساس خطة مقررة. ولكن سماحة المفتي تمكن بوسائله الخاصة، من تحويل كميات، مما خصصه العراق والملك ابن سعود ومصر، الى ناحيته، ليوزعها على جماعات معينة مرتبطة به.

ان مشكلة السلاح والعتاد تبدأ – ويا للأسف – مع بدء الحركة لمعركة فلسطين، وحينما بدأت الحكومات العربية – بعد حين – تفكر جدياً، كما ظهر في مشترى الاسلحة والعتاد، وأخذت تنهال عليها عروض البيع من أنحاء اوروبة، وبعض أنحاء اميركا، كان اليهود قد فطنوا للأمر، وانتشر جواسيسهم في كل مكان يتتبعون العرب خطوة خطوة، ليعرفوا موضع النقص في السلاح عندهم من جهة، وليفسدوا عليهم عمليات المشتري ويبطلوها من جهة اخرى، ثم يحولوها الى جانبهم. وقد وفقوا الى ما يريدون الى حد بعيد، وساعدهم في ذلك سوء تصرف أكثر الذين ارسلتهم الحكومات العربية لمشترى الاسلحة، وتلاعبهم. حتى ان هذا الامر أدى الى اقفال أكثر الابواب بوجه الذين ذهبوا لهذا الغرض فيما بعد.

* * *

جيش الانقاذ يدخل الى فلسطين

في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الأول من سنة ١٩٤٧ بدأت حدة القتال في فلسطين تشتد، وكانت المعارك بين العرب واليهود رغم انها موضعية ومتفرقة، تمتاز بطابع بيِّن، هو طابع الاستمرار. وكان اليهود يستعملون مدافع الهاون بكثرة، ويعتمدون في المدن على المتفجرات، يستخدمونها للنسف، فولَّد ذلك عند العرب الفلسطينيين شيئاً من الرهبة، وهم ليس لديهم من السلاح والمتفجرات ما لدى اليهود. ولكن المقاتلين كانوا في قتالهم شجعاناً، بينما كانت مزية اليهود تتجلى في التنظيم والحيلة، أكثر منها في الشجاعة. وكان أكثر ما يؤذي العرب تدخل البريطانيين لمصلحة اليهود، كلما كانت ظروف القتال في مصلحة العرب. ولم يحجم المقاتلون العرب – وكانوا قلة بالنسبة الى مقاتلي اليهود – عن التعرض للمستعمرات اليهودية، فاذا هي تتجلى فيها قوة الدفاع اليهودي الحقيقية، كما تجلى ان اليهود لا يقاتلون بقواتهم الاساسية، وانما يحتفظون بهذه القوات، الى ان ينكشف لهم ما سيكون من شأن العرب، وقوات دولهم في الميدان. وقد تبين أن

المعارك التي يقومون بها بدون انقطاع، انما هي للاستطلاع من جهة، واحتلال بعض المواقع – اذا أمكن – التي يرونها ضرورية للقتال المقبل من جهة اخرى. وبنسبة توسع الحركات اليهودية، واشتدادها في فلسطين، وبنسبة تعالي صرخات الاستنجاد من أهلها العرب، كان يزداد في قطنا الاختصار في منهاج التدريب. وعلى هذا الاساس اعتبر فوج اليرموك الاول، بقيادة الرئيس أديب الشيشكلي، جاهزاً للحركة في ٨ كانون الاول سنة ١٩٤٧ على كثير من النواقص. وفي مساء هذا اليوم تحرك الفوج من معسكر قطنا باتجاه بنت جبيل في لبنان الجنوبي، وفي الليلة نفسها، قامت حركة تضليل – كنا قد رتبناها من قبل – لتغطية دخول فوج اليرموك الى الاراضي الفلسطينية، قام بها فريق من العشائر، في ناحيتي الزوية والقنيطرة، أقصى منطقة الى شرقي الجهة الشمالية. فهاجم هذا الفريق بعض مستعمرات الحولة، وجرت بينه وبين اليهود، معركة لم تتوقف الا بعد ان تدخلت المصفحات البريطانية ظهر يوم ٩ كانون الاول، وقد غنم فريق العشائر، بعض غنائم من اليهود، وكبدهم عدداً من القتلى والجرحى. وفي خلال المعركة اخترقت قوة الرئيس الشيشكلي الحدود، حتى وصلت الى قرية فسوطة. كانت مهمتها محددة باستطلاع قوى اليهود في هذه المنطقة، وتكوين فكرة عن اسلحتهم وأساليب قتالهم، وتخريب الجسور الهامة على طرق المواصلات اليهودية على ان تتجنب الاصطدام بالبريطانيين، الا في حالة الدفاع عن النفس.

كان لدخول هذه القوات الى فلسطين، اثر كبير في ارتفاع معنويات العرب. وانكمش اليهود حينا في مستعمراتهم. وقد تلقينا أول برقية لاسلكية من هذه القوة، فأرسلنا اليها التعليمات اللازمة.

وكان فوج آخر بقيادة المقدم محمد صفا يستكمل تدريبه وتجهيزه، وكنا نعول كثيراً عليه، وعلى قائده. وبالاتفاق مع رئيس الجمهورية أقمنا معسكراً جديداً في قرية ضمير. وتيسر لنا بذلك، شيء من التكتم في التدبير من جهة، ووقاية فوج المقدم صفا من الفوضى من جهة اخرى. فكان الفوج الوحيد، الذي استطاع ان يحتفظ مع الروح الحربية الطيبة، بالضبط العسكري الصحيح. وكان قد ارسل الى فلسطين حتى ذلك الحين خمسة آلاف بندقية وتزيد، غير ان طلبات الفلسطينيين للسلاح، والعتاد، كانت لا تنقطع. وقد قيل يومئذ ان السبب الاول في ذلك هو ان

السلاح لم يوزع الا على جماعة معينة، وهم يعنون جماعة المفتي.

كانت ظروف الحال يومئذ تتطلب الاسراع بارسال اكبر قوة ممكنة، الى فلسطين للقبض على ناصية الامور، وتمهيد السبيل لدخول بقية القوات دون اثارة شيء من الضجيج. وكان فوج المقدم صفا أصبح جاهزاً للحركة، على أن مشاكل كثيرة كانت تقف في وجه دخوله الى فلسطين: موقف شرق الاردن غير المطمئن، وموقف الانكليز الذي تطور تطوراً ملموساً في تلك الفترة، ومسألة عبور نهر الاردن. وقد جاء في ١٨ كانون الثاني سنة ١٩٤٨ « مستر أوليفر » وهو رجل انكليزي معروف عاش حوالي خمسين سنة بين العرب في لبنان وهو يدّعي صداقتهم، يقول لي: « ان الانكليز يمانعون في دخول قوات عربية محاربة الى فلسطين، قبل ان يتم جلاؤهم عنها ». وانه تكلم بهذا الموضوع مع فخامة الرئيس القوتلي، وان السفير البريطاني في بيروت أفهم رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح، ان الجيش البريطاني سيخرج فوج الرئيس أديب الشيشكلي من فلسطين، وهو – أي السفير – يرجو من الحكومة اللبنانية ان لا تسمح مرة أخرى لاية قوة باجتياز الحدود اللبنانية الى فلسطين. فأجبت « مستر اوليفر » اننا صممنا على الدخول الى فلسطين، وسندخل لمقاتلة اليهود، دون التعرض للانكليز الا اذا هاجمونا، فنقف في وجوههم عندئذ ونقاتلهم. وكان الشعور بضرورة دخول فوج المقدم صفا الى فلسطين بأسرع مايمكن، بدأ يسيطر على النفوس. وفي هذه الاثناء ارسل جلالة الملك عبد الله يطلب مني ان أقابله، واعتقدت ان هذه المقابلة، قد تتيح لي اقناع جلالته، بالسماح لقوات جيش الانقاذ بالمرور في الاراضي الاردنية، من نقاط معينة لكي تصل الى المواقع المحددة لها في فلسطين بدون ان يشعر بها اليهود. فأطلعت القصر الجمهوري في دمشق على رغبة الملك عبد الله، فرفض القصر رفضاً باتا هذه المقابلة وبذل اللواء اسماعيل صفوة والعميد طه الهاشمي جهوداً كبيرة لحمل فخامة رئيس الجمهورية على الرضى عبثا.

وقررنا اخيرا ان يتحرك فوج المقدم صفا، وكان عدده لا يتجاوز الخمسمائة مقاتل. وكانت الامطار تهطل بغزارة شديدة، والسير على غير الطرق المعبدة يكاد يكون مستحيلاً، ونهر الاردن في حالة فيضان غير اعتيادي. فطلبت الى فخامة الرئيس ان نعلم حكومة شرق الاردن بحركة هذه القوة، اذ انها ستمر في الاراضي

الاردنية فأبى قائلاً: « تعلمونها بعد وصول القوة الى الحدود ». ووصلت القوة الى درعا مساء ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٤٨، وكنت قد تقدمتها مع اللواء صفوة والعقيد محمود الهندي لنؤمّن مرورها قبل ان يتكامل تجمعها. وأبرقت الى الرئيس أديب الشيشكلي ان يقوم في الليلة نفسها بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية في منطقة الجليل لتغطية مرور فوج المقدم صفا من جهة والحصول على معلومات عن العدو، وتكوين فكرة عن درجة مناعة المستعمرات اليهودية، ونوع تحصيناتها من جهة اخرى. فقام الرئيس الشيشكلي بحركته الهجومية على مستعمرة جدين بالقرب من ترشيحا. وبينما كانت المعركة دائرة هناك، كان فوج المقدم صفا، يعبر الاردن الى المنطقة المخصصة له في فلسطين..

* * *

بين دمشق وعمان:

كان موقف بعض المسؤولين في دمشق من طريقة دخولنا الى فلسطين، سببا من أسباب العقبات التي اعترضت دخول فوج المقدم صفا، والتي لم نتغلب عليها الا بعد مخابرات ومداولات كثيرة بدأت في درعا. ذلك انه بعد وصولنا الى هذه البلدة اتصلت بمحافظ اربد في شرق الاردن، ورجوت منه ان يوافيني الى درعا لامر هام جداً، وأطلعته على الواقع. وما لبث ان اتصل برئيس الوزارة الاردنية، وبسط له الحالة، فقال انه يأسف لاضطراره، وبالنظر لهذه المباغتة، الى رفض السماح للقوة بالمرور، فان هناك تعهدات واتفاقات متبادلة بين الحكومة الاردنية والحكومة البريطانية، تقتضي اتخاذ تدابير خاصة في مثل هذه الحالات. فاتصلت في الحال تلفونيا بفخامة الرئيس القوتلي، وأطلعته على حقيقة الموقف ورجوت منه التدخل. وقد رجوت من اللواء اسماعيل صفوة ان يذهب بنفسه الى الملك عبد الله ويبسط لجلالته حقيقة الموقف، دون الاشارة الى حديث التلفون هذا. فذهب اللواء صفوة وبعد حديث مع الملك عبد الله سمح جلالته بمرور الفوج، على ان يكون مروره، زيادة في الاحتياط، متقطعا. ولكن المرور بهذا الشكل، كان غير سليم العاقبة بالنظر الى الوضع القائم فقد ينقضي الليل قبل ان تمر القوة بكاملها، وهي مضطرة الى عبور نهر الاردن على جسر « دامية »، الجسر الوحيد الذي يمكن العبور عليه بين بيسان

وأريحا. ولكي تصل القوة بعد عبور الجسر، الى المنطقة المحددة لها في فلسطين، عليها ان تتجه جنوبا على خط مواز للمستعمرات اليهودية المنتشرة هناك، والمشرفة على الطريق الذي لا يبعد عنها سوى بضع كيلومترات، وفي بعض الاماكن كيلومترين فقط على مرمى من الرشاشات والبنادق. ومع ذلك فقد فرحنا كثيرا بهذا الاتفاق، وجاءنا ضابط اردني مع بعض الجنود ليرافقوا هذه القوة، فوضعنا معا ترتيبا لعبورها، يضمن وصولها قبل طلوع الفجر. ووصلت القوة في صباح اليوم الثاني الى مواقعها بدون أي حادث. ولكن احتجاجاً بريطانيا وجه الى الحكومة الاردنية بهذا الصدد، تبعه في اليوم الثالث تفكيك جسر « دامية » ففككته قوة من الجيش البريطاني، فانقطعت المواصلات بين الذين دخلوا الى فلسطين من جيش الانقاذ، وبين من بقي منهم خارجها، وأصبح التموين مستحيلاً، فلم يبق من واسطة للاتصال بهذه القوة الا جسر « اللنبي » وتحرسه قوة من الجيش البريطاني نفسه. على ان تدابير خاصة اتخذت لارسال المؤن لم تكن تخلو من المغامرة، كان ترسل هذه المؤن ضمن صناديق تُعتبر انها صناديق « بضاعة » وتمر مثل كل صناديق البضاعة، التي تعود الحرس البريطاني رؤيتها تمر كل يوم. وهكذا كان....

* * *

الشهداء الأول في جيش الانقاذ :

في ليلة ٢١-٢٢ كانون الثاني ١٩٤٨ وقعت معركة جدين بالقرب من ترشيحا، في المنطقة الشمالية، بناء على تعليمات ارسلتها الى آمر فوج اليرموك الاول الرئيس أديب الشيشكلي. وكان من نتائجها الطيبة، أولاً – انها سترت عبور فوج المقدم صفا الى فلسطين وشغلت عنه اليهود والبريطانيين. ثانياً – انها وضعت بين أيدينا المعلومات الاولى الثابتة عن قوة المستعمرات – اليهودية – ، وأساليب الدفاع فيها. ثالثاً – انها رفعت معنويات الفلسطينيين الى أقصى حد. رابعاً – انها جعلت البريطانيين يترددون في الاشتباك بقواتنا إكراماً لخاطر اليهود.

وبالرغم من المفاجأة التي فاجأ بها الرئيس الشيشكلي المستعمرة، فقد تبين ان اليهود، في الدفاع عن مستعمراتهم، يقاتلون بعناد، عكس شأنهم خارج المستعمرات، اذ تتخذ المسألة وجها آخر. فان النجدات اليهودية ، مثلاً ، التي

جاءت لنجدة جدين، والتي اشتبكت مع قوة من جنودنا أقل عددا وعتاداً، لم تظهر ثبات المستعمرة، وهزمها جنودنا بعد ان كبدوها عددا من القتلى، وحطموا لها عددا من المصفحات أكلتها النيران. بينما المدافعون عن المستعمرة، بعد ان خسروا مراكزهم الامامية، واشتعلت النيران في بعض مباني المستعمرة، التجأوا الى القلعة، واستمروا في دفاعهم الى ان وصلت ، قبيل الظهر، قوة بريطانية لنجدتهم... فتراجعت قوة المقدم شيشكلي طبقاً للتعليمات التي لديها، ولولا القوة البريطانية لتمكنت من احتلال المستعمرة. وكانت خسارتنا ثمانية عشر قتيلاً، كانوا الشهداء الاول في جيش الانقاذ. وكانت خسائر اليهود – الذين استعملوا باتقان بنادقهم ورشاشاتهم ومدافعهم الهاون – خارج المستعمرة ، أي بين النجدات، أكثر منها في داخلها.

وقوّت عندي معركة جدين فكرة القيام بمثل هذه المعارك، للاستزادة من المعلومات عن العدو، فطلبت من المقدم صفا ان يقوم بهجوم على احدى المستعمرات اليهودية في منطقته، فهاجم مستعمرة « الزرّاعة » (*) في غور بيسان، في المنطقة الوسطى ، الى اقصى الجنوب من مستعمرات اليهود. وقد استفدنا من هذه المعركة فوائد كثيرة، رغم ان قوانا لم تسلم من الخسائر. وكانت لنا بقية من قوات جيش الانقاذ تنتظر الاوامر بالحركة الى فلسطين، ومعها شيء من السلاح الثقيل. وقد اصبحت مسألة عبورها الى المواقع المحددة لها مشكلة جديدة، بعد ان فك الجيش البريطاني جسر دامية، وبت أخشى ان يحمل الجيش البريطاني بطريقة من الطرق، جيش الاردن على منعنا بالاشتراك معه، وبقوة السلاح من الدخول الى فلسطين . فخطر لي ان أمد يدي رأساً، وبطريقة سرية ، الى الجيش الاردني الذي اعرف عناصره الطيبة، ففعلت وأظهرت لهم رغبتي في ان يلتحق من يستطيع منهم بجيش الانقاذ، ضامنا لهم حقوقهم العسكرية في الجيش. ولم تمض مدة قصيرة حتى بدأ فريق منهم يلتحقون بقواتنا بأسلحتهم، ووصل عددهم الى حد لا يستهان به، وكان لا يزال فريق ينتظر أول اشارة منا ليلتحق بقواتنا.

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨ جاءني قائد الجيش الاردني اللواء عبد القادر

---

* – مستعمرة طيره تسفي

الجندي الى دمشق وأبدى عتبه علينا لاهمالنا مخابرتهم، والاتفاق معهم على كيفية دخول قطعات جيش الانقاذ الى فلسطين، بشكل يفي بغرضنا، ولا يحرج موقفهم. وقد قال لي بصراحة: «أنت تعلم ان المعاهدة التي بيننا وبين بريطانيا هي التي تضمن لنا الاحتفاظ بجيشنا الذي يفوق بعدده ومعداته وتنظيمه مقدرتنا المالية، فمن الحكمة في مثل هذه الظروف التي نحن فيها ان نتفق فيما بيننا على تدابير تضمن المصلحة الوطنية من جهة، ولا تثير أي ضجة أو سوء علاقة من جهة أخرى. فأجبته انه لا بد لنا من المرور. قال: «فلنتفق فيما بيننا على طرق خاصة لهذا الغرض ونعد التدابير اللازمة من أجل المستقبل»، فوافقته على ذلك. ثم انتقل للبحث في مسألة فرار الجنود بأسلحتهم من الجيش الاردني، والتحاقهم بقواتنا، قائلاً ان هذا الامر، اذا هو استمر فانه يؤدي الى الفوضى في الجيش والاضطراب. والجيش يعد نفسه لخوض معارك فلسطين، بعد ١٥ أيار، لذلك فهو يطلب مني ان نتعاون لوضع حد لهذه المشكلة. وتمكنت من الاتفاق مع القائد الاردني على الترتيبات اللازمة التي تسهل لجنودنا العبور من الاراضي الاردنية الى فلسطين، في أي وقت تشاء.

* * *

مؤامرة لاغتيالي – فوضى وفساد في المعسكرات:

كان همي الوحيد بعد معركة جدين ان احصل بأية طريقة كانت على اسلحة ثقيلة لجيش الانقاذ، فرحت أسعى لدى وزير الدفاع السيد أحمد الشراباتي، لاقناعه بأن يستغني لنا عن بطارية مدفعية واحدة. وبعد مخابرات ومذاكرات مع القصر الجمهوري، وعدني خيراً. ثم ذهبت الى بيروت واتصلت بقائد الجيش الزعيم شهاب وبوزير الدفاع الامير مجيد ارسلان، وبرئيس الحكومة السيد رياض الصلح، وطلبت اليهم بإلحاح ان يمدوني بما يستطيعونه من مدفعية، مبينا لهم شدة حاجتنا الى السلاح الثقيل. وتسلم جيش الانقاذ من الجيش اللبناني مدفعين عيار ١٠٥ من الطراز الفرنسي الملغي. ثم حصلت على مدفعين أميركيين من عيار ٧٫٥ على «موتور»، ثم مدفعين آخرين من هذا الطراز نفسه. وقد كان لهذه المدافع أثر كبير في مختلف المعارك التي خاضها جيش الانقاذ.

ما كاد المقدم صفا يستقر بفوجه في القطاع المعين له من منطقة جيش الانقاذ، حتى شعر بنشاط غريب قوي ضد هذا الجيش، تبديه جماعات مسلحة، تدّعي انها تنتمي الى سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني. وقد ارسل اليّ المقدم صفا بتاريخ ٢١ كانون الثاني ١٩٤٨ برقية يطلب فيها ان ارسل له المفرزة الشركسية التي كانت لا تزال في قطنا، ليتمكن من السيطرة على الموقف. وبعد برهة قصيرة أطلعني المقدم صفا على اكتشافه مؤامرة لاغتيالي، يقوم بها أحد عشر شخصا مقابل ١٧ ألف جنيه وانه وقع بين يديه واحد من هؤلاء أدلى اليه بمعلومات كثيرة غريبة..

وبالسرعة الممكنة ارسلت الى المقدم صفا المفرزة الشركسية، ولا بد لي من الاشارة الى كيفية عبور هذه المفرزة الى الاراضي الفلسطينية: كان نهر الاردن مستمراً في فيضانه، وجسر دامية لا يمكن العبور عليه لانه مفكك، وجسر اللنبي تحرسه قوة من الجيش البريطاني نفسه. ولجأنا الى القوارب، أو ما يشبه القوارب، ونقلنا عليها الجنود في مكان ما من الضفة الشرقية، الى الضفة الغربية من النهر، ومن هناك نقلتهم سيارات فلسطينية الى المواقع المعينة لهم. وفي ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٨ أعلمتنا الحكومة الاردنية انها لن تستطيع السماح من ذلك اليوم فصاعدا الا بمرور شراذم قليلة من الجند، لايسترعي مرورها أي انتباه. وشاء الله فتغلبنا على هذه الصعوبة أيضاً فيما بعد.

كنت خلال هذه الاحداث مشغولاً بها دون سواها. فكنت، وانا في دمشق، أجهل مايجري في معسكر قطنا، الا ما كان يترامى اليّ من معلومات، تدل على مبلغ ما انتشر في المعسكر من فوضى ولا مبالاة، حتى كأن النظام والعناية فارقا المعسكر تماماً، منذ ان فارقه المقدم صفا وفَوْجُه. وكان مما يزيد الفوضى تفاقماً ايام شديدة البرد كانت تغطي المعسكر خلالها طبقة جليدية لا تختفي الا بعد طلوع الشمس بمدة غير قصيرة. وانتقلت الفوضى الى معسكر «ضمير» بشكل مخيف، بلغ من شدتها ان وقع في المعسكر نفسه نزاع مسلح سقط فيه جرحى ولم ينته الا بتدخل قوة البادية بمصفحاتها. وكان من أسباب هذه الفوضى، توقف الجيش السوري عن امدادنا بضباط وضباط صف، فغدا الجنود المتطوعون، وليس بينهم شخصية عسكرية، تستطيع فرض سلطتها عليهم، واحترامها في نفوسهم. فالضباط

المتقاعدون الذين كانوا يأتون بهم من هنا وهناك، كانوا أعجز من أن يقوموا بمثل هذه المهمة. ولما تثبت لي ذلك، حدثت المفتش العام لجيش الانقاذ العميد طه الهاشمي عن هذه الفوضى، فغضب، وراح يعمل بكل مالديه من وسائل لابقاء المسألة سراً مكتوماً عن القصر الجمهوري. وقد زاده ذلك اصراراً على ممانعته في زيارتي المعسكرات بحجة ان مسألة التدريب والتنظيم تخص المفتشية وحدها.

وفي ٢٩ كانون الثاني ١٩٤٨ جاءني المفتش العام، هو نفسه، يقول ان فوج «حطين» بقيادة الرئيس مدلول عباس متحرك في ذلك اليوم الى فلسطين، وأنا لا أعلم شيئا عن آمر الفوج وضباطه وجنوده، ولا شيئا عن تسليحه وتجهيزه. فازداد شعوري بما «يبيتونه» لي من مشاكل تعرقل أعمالي، وتحد من سيطرتي على جنودي، الذين سأكون أنا وحدي مسؤولاً عن تصرفاتهم وأساليب قتالهم. ولكنني كنت لا أدع مجالا للتشاؤم أو الشك يتحكم بي. وأصبح همّ المفتشية العامة الوحيد «شحن» الجنود الى فلسطين للتخلص منهم، دون مانظر الى النواقص المادية والروحية عندهم، فكان طبيعيا ان تنتقل الفوضى أو شيء منها، من المعسكرات في الشام، الى الميدان في فلسطين، الامر الذي استغله بعض سيئي النية، وأهل الانتهازية والحقد، وجسّموه، لتشويه سمعة جيش الانقاذ، غير ملتفتين الى ما قام به هذا الجيش من اعمال البطولة والتضحية في القتال.

* * *

لن تقابل الملك عبد الله – المفتي قائد عام وخاص:

في ٢ شباط ١٩٤٨ طلب محافظ اربد في شرق الاردن بواسطة محافظ درعا في سوريا، الاجتماع بي. فاستأذنت القصر الجمهوري وذهبت في ذلك اليوم نفسه الى درعا حيث اجتمعت به بحضور محافظ درعا. فأخبرني ان جلالة الملك يريد أن أقابله، فسررت بذلك، لما خامرني من أمل في أن هذه المقابلة، قد تساعد على ازالة ما يعترضنا من عقبات في طرق مواصلاتنا، التي بدأت أحسب لاحتمال انقطاعها الف حساب. فنهر الاردن لا يمكن عبوره في حالته الحاضرة، الا على الجسور الممنوعة علينا. وأطلعت فخامة الرئيس القوتلي على الامر، وبينت له ما يمكن ان يترتب على هذه المقابلة من فوائد لحركاتنا في فلسطين، فأباها عليّ بشدة،

وقال لن تقابله الا حين مرورك بعمان.

وكان قد وصل فجأة الى دمشق وفي ذلك اليوم نفسه، أي في ٢ شباط، سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني، لامور قد تكون ذات علاقة بحركات فلسطين. وكان اللواء اسماعيل صفوة قد اخذ من سماحة المفتي في القاهرة تعهدا مكتوباً، بواسطة الجامعة العربية، بانه لن يتدخل في أمور القيادة والحركات العسكرية مطلقاً. ورغم ذلك فقد كان اول شيء طالب به في الاجتماع الذي عقد في القصر الجمهوري في ٥ شباط ١٩٤٨ تعيين ممثلين له في قيادة فلسطين العامة، وفي قيادة جيش الانقاذ، وفي كل قطاع من منطقة هذا الجيش.

فرأى المجتمعون في هذا الطلب فرضاً صارخاً، وان سماحته كان يرمي الى وضع رقباء على القيادة العامة في دمشق، وعلى جيش الانقاذ في فلسطين، يكونون على اتصال دائم مع عرب فلسطين باسمه. كما كان يرمي ايضاً الى توجيه جيش الانقاذ، التوجيه الذي يضمن له استخدامه لضرب خصومه. ولما علمت بذلك من اللواء اسماعيل صفوة دهشت وأبديت رغبتي في الاستقالة حالاً، من القيادة، وأنا بعد استطيع ان أقاتل كجندي بسيط فأقوم بواجبي كعربي شريف. فرد عليّ اللواء صفوة قائلاً: «لا لزوم لشيء من هذا. ولعل الجامعة نفسها غير جادة في كثير مما تقرر وتقول ...».

* * *

دهاء – شك – سوء نية:

أخذت الحالة في فلسطين تتطور ظاهرا في مصلحة العرب وانحصر نشاط اليهود في منطقة يافا، غير انه كان نشاطا قوياً، فأخذ العرب في تلك المنطقة يستصرخونني لنجدتهم، فلا أستطيع أن أفعل، لان منطقة يافا لم تكن داخلة ضمن منطقة جيش الانقاذ. وبالرغم من ذلك أخذت على عاتقي – متاثراً بوضعهم المؤلم– أن أعمل شيئا. فأوعزت الى المقدم صفا ان يرسل مفرزة من فوجه الى قرى يافا، ويستفز المسلحين من الاهلين للقتال معه، ففعل، وتحسنت الحال قليلاً، ولكن ذلك كله كان مؤقتاً. لانه لم يكن لديّ من القوات ما يمكنني من الاستغناء عن أية

قوة، في منطقة جيش الانقاذ الواسعة، هذا عدا قلة السلاح والعتاد. أما في منطقة جيش الانقاذ، فكانت قواتنا مسيطرة سيطرة تامة، وكنا لا نشتبك باليهود مرة واحدة، الا وننزل فيهم الخسائر ونردهم فاشلين.

وفي ١٠ شباط ١٩٤٨ اعتبرت القيادة البريطانية جيش الانقاذ، مسؤولاً عن الامن ضمن منطقته. وفوضت ذلك اليه رسمياً، وبدأت تنسحب. ومنذ تلك الساعة أخذ جيش الانقاذ يشرف عمليا على الشرطة وعلى تشكيلات الحكومة المحلية. غير انه بقي للبريطانيين قوات آلية كبيرة في مناطق بيسان وعفولة وحيفا وكان غرضهم من ذلك حماية المستعمرات اليهودية، وقد صرحوا مرارا أنهم مستعدون للتدخل في أية معركة تنشب بيننا وبين اليهود ، ولكن لمقاتلة المعتدي.. والحقيقة ان سياستهم كانت يهودية في المناطق اليهودية، وعربية في المناطق العربية. ومتذبذبة، أو مع القوي في المناطق المشتركة أو المتداخلة.

وفي ١١ و١٢ شباط نشبت معركة فوج اليرموك بيننا وبين قوات يهودية، وأخرى بريطانية، جاءت لمساعدتها ولم تسلم قواتنا من الاصابات. وجاءتنا بعد المعركة أول برقية في طلب العتاد، ثم لم تنقطع برقيات جيش الانقاذ بعدها بطلب العتاد، حتى نهاية الحركات.

وفي ١٣ شباط وصل الى دمشق وفد من يافا ينبىء بسوء الحالة، وان اليهود يشددون الهجوم على يافا، وان المدينة اصبحت مطوقة تقريباً، وانه اذا لم تسرع اليها النجدات بأكثر ما يمكن من السلاح والعتاد، فانها تصبح مهددة بالسقوط في كل لحظة. فأفهمت الوفد انني لا أستطيع القيام بأية نجدة، لان يافا خارجة عن منطقة جيش الانقاذ المحددة بقوات، لا أمر لي فيها، وهي مرتبطة رأساً بالقيادة العامة، ولا أدري اذا كان لها ارتباط بسماحة المفتي نفسه. وانه يحسن بهم ان يراجعوا القيادة العامة بهذا الشأن، وأنا بدوري ألح عليها ما استطعت لكي تلبي طلبهم المعقول. وقد لبت القيادة العامة يومئذ شيئا من الطلب ولكن بشكل ضئيل.

* * *

معركة الزراعة :

كانت الامطار التي لم تنقطع منذ شهر تقريباً، تزداد انهماراً كل يوم ، وأصبح

غور بيسان أشبه بمستنقع كبير، ولكن المقدم صفا الذي كنت طلبت منه مهاجمة احدى المستعمرات اليهودية في قطاعه، كما سبق وذكرت، كان قد أعد عدته للهجوم. فانتهز فرصة تحسن الجو في ليلة ١٦-١٧ شباط وقام بهجومه على مستعمرة الزراعة، وكانت الحركات الحربية تكاد تكون غير محتملة في الاراضي المحيطة بالمستعمرة، فهي اراضي مفلوحة ذات تربة لزجة، الحركة فيها تضني الجنود، ومع ذلك فقد نفذ المقدم صفا خطته. فخصص للهجوم سرية واحدة مع فصيل اسناد، وسرية اخرى للتظاهر بالهجوم أمام مستعمرتين متجاورتين، وأبقى بين يديه فصيلين، قوة احتياطية. وبدأ الهجوم في الساعة ١١و٤٥ ليلاً، فكانت مفاجأة شديدة لليهود، وبعد بدء الهجوم بقليل عاد المطر يتساقط بشدة وبقي كذلك الى مابعد انتهاء المعركة. وكان جنودنا قد وصلوا الى الاسلاك الشائكة، حينما بدأ اليهود باطلاق النار من مخافرهم الامامية، ولكن جنودنا تمكنوا من تقطيع الاسلاك، وأجبروا اليهود على التخلي عن مخافرهم، واندفعوا الى داخل المستعمرة. فدارت بين الفريقين معركة شوارع عنيفة استمرت حتى الصباح، كانت اشارات الاستغاثة خلالها من المستعمرة لا تنقطع، بينما كانت السرية التي أوكل اليها التظاهر بالهجوم على المستعمرتين المتجاورتين، تقوم بدورها فتحول دون خروج نجدات منهما. غير ان نجدات يهودية من مستعمرات أخرى، وصلت واشتبكت مع جنودنا بقتال عنيف، خارج الزراعة فأصيبت بخسائر فادحة واضطرت الى الانهزام. وفي الصباح وصلت قوة بريطانية لنجدة اليهود، فأصدر المقدم صفا أمره الى الجنود بالانسحاب.

وقد تبين لنا بجلاء في هذه المعركة أيضاً: أولا - ان اليهود داخل تحصيناتهم، يدافعون عن نفوسهم ببسالة وعناد. ثانياً - ان السلاح الفرنسي الذي بين أيدي جنودنا غير صالح، وقد تعطل من البنادق والرشاشات نصفها على الاقل بسبب الامطار. ثالثاً - ان جنودنا يستبسلون في الهجوم مهما تكن الظروف.

وقد خسرنا في هذه المعركة ٣٧ قتيلاً، وأكثر من ذلك جرحى. اما خسائر اليهود فكانت ١١٢ قتيلاً أخبرني فيما بعد الكولونيل نلسون الانكليزي، انهم نقلوهم بسياراتهم - سيارات الانكليز - الى بيسان وانه لا يعرف عدد الجرحى.

واتضح لنا من جديد ان المستعمرات اليهودية محصنة تحصينا قوياً، وان اليهود يعمدون في الدفاع عنها صمودا قد لا يخطر في البال، وان الاسلحة التي بين أيدينا لا تجدي في تخريبها شيئا. كما تحققنا من ان اليهود يحرصون على عدم مغادرة هذه الحصون، للقتال في ميدان مكشوف، إلا إذا ألجأهم إلى ذلك ضرورة قصوى، وهم يتجنبون، بكل ما يستطيعون من وسائل، هذه الضرورة. وقد كانت معركة الزراعة رغم انها من المعارك البسيطة عاملاً قوياً في رفع معنويات العرب في المنطقة.

* * *

العقلية «التوفيرية» الرخيصة :

لم يبق في وسعي ان أغالب شعوري القوي، بضرورة انتقال مقر القيادة مع ماتيسر من المدفعية، الى منطقة القتال، رغم مايزال هناك من نواقص للجيش كنت أحاول ان أتممها قبل ان أتحرك، ورغم ان الامطار كانت لا تزال حتى أول آذار ١٩٤٨ تهطل بغزارة. اما النواقص كسيارات النقل وحمالات المدافع وما الى ذلك، فقد أصبح الامل عندي في الانتهاء من امرها بسرعة، ضعيفاً جداً، بالنظر الى النحو الذي كان المسؤولون «الكبار» يسيرون عليه. وارتأى وزير الدفاع والعقيد محمود الهندي مدير الادارة في اللجنة العسكرية، ان يتحرك المقر الى فلسطين، بدون المدفعية، على ان ترسل هذه فيما بعد. ولكنني كنت أشك في انهم يرسلونها بالسرعة التي تفرضها الضرورة، وكنت اصبحت أعتقد ان حركاتنا في فلسطين بدون مدفعية، لن يكون لها كبير شان، لهذا كله صممت على أن أعمل المستحيل لاصطحاب المدفعية مع المقر. وكنت أعلم أن عبور المدفعية الثقيلة الى الضفة الغربية من نهر الاردن مع وضع الحكومة في شرق الاردن، أمر يكاد يكون مستحيلاً، فقررت انشاء جسر نقّال على النهر. وبعد ان درس المهندسون المشروع قرروا أنه ممكن من الناحية الفنية التنفيذ بسرعة، ولكن الادوات اللازمة لانشاء مثل هذا الجسر مفقودة تماما.

لم يبق أمامي ألا جسر «اللنبي» فقررت ان أتحرك مع المقر والمدفعية، وأعبر على هذا الجسر مهما يكن من أمر. وجسر «اللنبي» هذا، تحرسه على الضفة الشرقية، قوة اردنية، وعلى الضفة الغربية قوة بريطانية.

كان ينقص الجيش اشياء كثيرة من المعدات، ولكن أكثر ما يبدو من هذه النواقص، العقلية «التوفيرية» – اذا صح التعبير – التي كانت سائدة في غير محلها. فاذا كانت هناك سيارة جديدة، مثلاً، فان سواقها يجب ان يكون من ارخص السواقين اجرة، دون التفات الى مقدرته وأخلاقه، واذا كانت السيارة معطلة أو عتيقة معرضة في كل ساعة للتعطيل، فيجب ان يتم تصليحها بأرخص مايمكن من الاجرة، دون أي التفات الى جودة العمل والامانة فيه... أعمال مرتجلة آنية صورية. وقد كان للعقلية «التوفيرية» الرخيصة هذه، فيما بعد، نتائج خطيرة بعيدة المدى، في سير الحركات حتى النهاية، فسببت فشلاً في العمليات حينا، وهونت من شان انتصاراتنا أحياناً.

لقد كان سواقو العقلية «التوفيرية» الرخيصة سببا في تعطيل أكثر من نصف السيارات، وأكثر من ذلك، فقد حالت هذه العقلية دون مشترى دبابات انكليزية خفيفة عرضت بأسعار منخفضة، في قبرص، وأثبت الخبراء انها صالحة، فعرف بها عمال اليهود وتلقوها بسرعة فحرمنا من سلاح يعادل ستة أفواج.

كنت أعتقد ان السبب الوحيد لحرماننا من هذه الدبابات هو – كما قلت أعلاه – العقلية «التوفيرية» الرخيصة. ولكن هناك سببا أخطر من هذا السبب وأدعى الى الاسف اني لم أعرفه الا فيما بعد، من بعض الضباط السوريين. وهو ان الرئيس القوتلي قد رفض تصديق الاعتماد المالي لشراء الدبابات مصرحاً ان فوزي يستلم هذه الدبابات للقتال في فلسطين ويعود بها الى دمشق لتحقيق «سورية الكبرى».

* * *

حديث الملك عبد الله :

بعد ان اطمأننت الى وعد اللواء اسماعيل صفوة، حددت يوم الحركة الى فلسطين، وتحرك الرتل الذي كان لا يزال ينتظر في ضمير وقطنا صباح ٤ آذار ١٩٤٨ على ان يتكامل تجمعه في درعا عند الغروب. ووصلت مع ضباط المقر الى درعا مساء.

كان الرتل مؤلفاً من المدفعية المحملة، (ستة مدافع) ومن سيارات تحمل مؤونة وذخيرة، ومن سرية مشاة وفصيل المقر. اتصلت فور وصولي الى درعا باللواء عبد القادر الجندي قائد الجيش الاردني في عمان، وأعلمته انني ارغب في مقابلة جلالة الملك عبد الله. ولما جاءني القائد الاردني بنفسه قلت له: «ان معي سيارات نقل، تحمل المؤن والذخائر». أقلني بسيارته وذهبنا معا الى عمان، دخلت القصر الساعة الثامنة مساء. تناول الملك القضية العربية فقال ما خلاصته: «تعلم ان القضية العربية قضيتنا، وان كل ما ينفع هذه القضية ويؤدي الى وحدة العرب نقوم به مهما يكلفنا ذلك من عنت. وقد حررنا البلاد العربية من النير التركي بجهودنا. واتفقنا مع العرب على العمل للوحدة التي اجمعت كلمتهم عليها، بعد ان وضعنا الاسس لهذا الغرض. ومهما يكن من شأن الحوادث التي مرت بنا، فأنا أعتبر ان واجب الاستمرار في العمل ملقى على عاتقي. وسأستمر في العمل الى ان تتوحد سورية أولا، فنكون خطونا نحو الوحدة خطوة مباركة». فقلت: «ياصاحب الجلالة اننا امام خطر يهودي عظيم، وهو خطر يهدد البلاد العربية كلها في وحدتها واستقلالها. أفلا ترون جلالتكم تقديم قضية فلسطين الآن على أي شيء آخر؟» قال: «بلى. سننقذ فلسطين ان شاء الله ونضمها الى شرق الاردن ولا بد لنا من مرفأ، وسيكون هذا المرفأ حيفا». وسكت قليلاً ثم قال: «لهذه المناسبة، يجدر بنا ان نعلم ان الانكليز قد يكونون معذورين في موقفهم، بالنظر الى ضغط أميركا الشديد، فان أميركا هي التي قررت التقسيم، وقد ضغطت على بريطانيا وغيرها من الدول ضغطاً شديداً جداً لهذا الغرض. وأرى أنه من المستحسن، ان تنسحب الدول العربية من هيئة الامم المتحدة احتجاجاً على تصرفها، وان تتدبر شؤونها معتمدة على نفسها وعلى صداقة بريطانيا».

ما تبقى من حديث الملك، عبارة عن شيء من العتب والانتقاد: عتب على رجالات العرب، وانتقاد لتصرفاتهم. وقد اشار الى نشاط الرئيس القوتلي ضد وحدة سورية، وكيده لشرق الاردن. اظهر تقديره الشخصي لي واستعداده لمعاونتي في القتال ضمن النطاق المستطاع، فرجوت منه ان يأمر بتسهيل عبورنا الى فلسطين، فقال انه سيتصل بقواد جيشه ويأمرهم ان يؤدوا لنا المساعدات اللازمة. وانصرفت بعدها الى دار السيد صبري الطباع حيث نزلت، فاذا هناك اللواء عبد القادر الجندي

وفريق من الاصدقاء. فكلمت القائد الاردني في الموضوع، وطلبت اليه ان يسترجع لنا أخشاب جسر «دامية»، فنتولى نحن تركيبها، ونعبر على هذا الجسر. فقال ان هذه الاخشاب في حوزة المرجع المختص من الجيش البريطاني، ويمكن استرجاعها عن طريق «كلوب باشا» فاذا انت قابلته فقد يلبي رغبتك.

رحت أفكر في حيلة تمكننا من العبور الى الضفة الغربية من الاردن على جسر «اللنبي» لانه الضمان الوحيد لسلامة العبور في مثل هذا الجو العاصف الممطر، متظاهراً دائما بعزمي على اعادة تركيب جسر «دامية» لنعبر عليه.

وذهبت في الصباح الى دار اللواء عبد القادر الجندي لشرب القهوة، وبعد هنيهة دخل علينا القائد «كلوب باشا» وبادرني بقوله: «نحن نعرف بعضنا عن بعد ونتعارف الآن عن قرب». فأجبته: «لقد عرفنا بعضنا عن بعد كخصوم، أما الآن سنتعارف عن قرب كأصدقاء، تقرب بيننا مصلحة مشتركة. اننا كما تعلم امام اعداء لنا ولكم، ألم يمعنوا في الجنود البريطانيين والضباط قتلا واغتيالاً؟ انني لاأستطيع الاعتقاد انك – بصفتك بريطانياً قبل كل شيء – لا تفكر بالثأر لكرامة البرطانيين من اليهود. أو انك تمتنع عن معاونة من يقاتلهم من العرب، وأنت قائد جيش عربي». فقال (الليوتننت جنرال كلوب): «ماذا تطلب مني من المساعدة؟» قلت: «أمر بسيط، أن تأمر اليوم باعادة تركيب جسر دامية، على الاقل، لنعبر عليه غداً مساء، وان تعدنا بما تستطيع الاستغناء عنه من سلاح وعتاد». قال: «أعدك انني سأفعل الممكن، ولكن أخشاب جسر دامية أصبحت في نابلس، على انني سأخابر من يلزم لاعادتها». وأخذ بذراع القائد عبد القادر الجندي فانتحى به ناحية من الغرفة، ثم رجع اليّ مظهراً سروره بهذه المقابلة وخرج. وعاد القائد الاردني يقول لي: «لقد أمر بتسليمك ثلاثة رشاشات وثلاثة صناديق عتاد». فتظاهرت بالفرح، رغم ماكان يشغلني من هواجس بشأن العبور على جسر اللنبي.

* * *

معرفة قديمة ... بيني وبين «كلوب»:

ترجع معرفتي بالقائد «كلوب باشا» الى حادثتين، الاولى في سنة ١٩٣٦ وخلاصتها: انني في شهر تموز من تلك السنة، اعددت حملة صغيرة في العراق،

لنجدة فلسطين في ثورتها على بريطانيا. وقد شاع خبر هذه الحملة، فاتخذت القوات البريطانية في العراق وفي شرق الاردن، احتياطات قوية لمنعها من الدخول الى فلسطين، والقضاء عليها ان أمكن. وكان «كلوب باشا» هو المسؤول عن تنفيذ هذا الامر، وقد وضع تحت تصرفه لهذا الغرض بعض الطائرات البريطانية، عدا قوات البادية الاردنية بمصفحاتها وهجانتها. فراح يترصد الطرق الى شرق الاردن، ولكنني اكتشفت بوسائلي الخاصة طريقا مهمة، تمر عليها السيارات بصعوبة موازية للحدود الاردنية النجدية، وتخترق في بعض الاماكن الاراضي النجدية ثم تنفذ الى جنوب مخافر الحدود الاردنية، فتتصل بالطريق الرئيسة لعمان، في نقطة قريبة من هذه المدينة. فكنت أسير على هذه الطريق نهاراً وأكمن ليلاً، حتى قطعت الحرة وكان ذلك في شهر تموز، الذي تثور فيه رياح عواصف تبعث في الجو أعمدة غبار ورمال، ورغم ماتسببه هذه العواصف من أذى فقد انتفعت بها، اذ كنت أمر بالقافلة بصورة متقطعة، خلال هذه الاعمدة التي كان يضيع فيها غبار السيارات فلا تثير أي ريب. وبقيت كذلك، الى ان اجتزت منطقة المخافر بأمان، وكمنت في احد الاودية على بعد بضع كيلومترات من عمان نفسها. ثم تابعت السير بعد منتصف الليل، مخترقا عمان، غير بعيد من القصر الملكي، وكانت كل دورية صادفتها في طريقي، قد انضمت اليّ حتى وصلت قبيل الصبح الى المنحدر المشرف على نهر الاردن، فكمنت في أوديته. ومن هناك وزعت السيارات التي كانت معي على جهات مختلفة من المدن والقرى في شرقي الاردن، بعد ان هيأت من الدواب ما يلزم لنقل أثقالنا، حتى اذا جاء الليل، اندفعنا نحو النهر وكان منخفضا جدا وعبرنا الى فلسطين، دون أن يشعر «كلوب باشا» بحركتنا. فكان فشلاً له ذريعا، سبب غضب رؤسائه عليه، وكاد يؤدي الى انهاء مهمته في شرق الاردن. ولكنهم اكتفوا يومئذ، بأن أعطوه اجازة قضاها في لندن، ولم يرجع الا بعد انتهاء القتال في فلسطين.

والحادثة الثانية في سنة ١٩٤١، عندما اشتبك العراق بحرب مع بريطانيا: فقد أوكل اليّ يومئذ قيادة جبهة البادية، وأهم نقطة فيها قلعة الرطبة، التي كانت هدف الجيش البريطاني. وكان القائد «كلوب باشا» مكلفا احتلالها بقوات من الجيش الاردني، وتشاء المقادير ان أصل الى الرطبة مساء ٩ أيار مع القوة التي كان

عددها دون ثلاثمائة مقاتل مسلحين بالبنادق وبسبع رشاشات خفيفة لقوة البادية العراقية، التي أقنعتها بالاشتراك معي في القتال. وكان «كلوب باشا» طوّق القلعة وأخذ يصليها ناراً حامية من رشاشاته ومدافعه، حتى غدت الحامية بين امرين، الاستسلام أو الفناء. فاشتبكنا مع قواته بقتال عنيف حوالي الساعة الثامنة مساء وتغلبت عليها. ثم تقدمت الى المكان الذي كان «كلوب» قد اتخذه مقراً لقيادته، وجعلت منه مقراً لي. وفي فجر اليوم الثاني ظهرت الطائرات البريطانية تستطلع مراكزنا، والطرق المؤدية الى الرطبة من الشرق، وقصفت القلعة بشدة بينما كنا نحن متمركزين في غربها، ثم اختفت. وبعد مضي ساعة تقريبا، عادت طائرة واحدة، فحومت فوقنا ورمت علينا شيئاً ظنناه في بادئ الامر قنبلة، فاذا هو كيس صغير ضمنه رسالة الى «كلوب باشا» من قائد الطيران، يخبره فيها انهم لم يروا أثرا للعدو (أي لنا نحن) وانهم قصفوا قلعة الرطبة بنجاح. فكانت هذه الرسالة تسلية لنا. وبعد برهة قصيرة تمكن القائد «كلوب باشا» من جمع قواته واعادة تنظيمها، وهاجمنا فوقعت بيننا معركة استمرت يومين، ثم انهزم بقواته، وشاع يومئذ انه جُرِح، واشاعة أخرى انه قُتل.

وكان فشل القائد «كلوب باشا» هذه المرة أشد. هاتان هما الحادثتان اللتان تعارفنا فيهما عن بعد، عدوين. ونحن نصنع الآن الحادثة الثالثة، فنتعارف فيها عن قرب.

* * *

العبور على جسر «اللنبي»:

بعد ان غادرت دار اللواء عبد القادر الجندي، ارسلت في الحال شخصاً أثق به، الى آمر الحرس الاردني على جسر «اللنبي»، محاولا معرفة موقفه من مسألة عبورنا على هذا الجسر، ومدى المساعدة التي يمكن أن يقدمها لنا. وعاد الرسول يقول ان آمر الحرس الاردني يضع نفسه تحت تصرفي ومعه المعلومات الآتية:

أولاً – ان الجسر يغلق من الجهتين، جهة الحرس الاردني، وجهة الحرس البريطاني، الساعة ١٢ ليلاً.

ثانياً – ان قوافل التموين الاردنية، التي تمون وحدات من الجيش الاردني،

مرابطة في بعض مواقع من فلسطين، تمر عادة على الجسر في مختلف الاوقات.

اذن، لماذا لا نمر نحن على جسر «اللنبي»، باعتبار اننا قافلة اردنية، هذه فكرة... وأرسلت الى آمر الحرس اننا سنمر في تمام الساعة الثانية صباحا. وانه يحسن صنعا ان يرسل – اذا كان في استطاعته – فريقا من جنوده الى رأس الجسر الغربي، بعد ان يكون الحرس البريطاني، أقفل الجسر وآوى الى مراكز استراحته. وبعد ان اطمأننت الى هذا الترتيب، عدت الى اللواء عبد القادر الجندي، أخبره انني سأتحرك مع القوة التي معي نحو السلط، وأنتظر الى ان يكون تم اعداد جسر دامية، وانه بعد عبورنا نتولى نحن رفع الاخشاب، دون ان نترك أي أثر يثير الشبهة عند البريطانيين. فقبل اللواء بهذا الرأي، وتحركت مع القوة الى السلط، ثم تجاوزتها حتى أصبحت على مسافة كيلومترين من جسر «اللنبي»، وأرسلت الى آمر الحرس على الجسر أعلمه بموقعي وأستوضحه عن موقفه. وعند الساعة الثانية صباحا جاءني آمر الحرس بنفسه، يقول ان كل شيء على مايرام، على ان يتجنب الجنود الضوضاء حين عبورهم، وان لا يبدو منهم أية حركة غير حركة السير الطبيعي. وعبر المشاة ثم المدفعية، فبقية القوة. والحرس البريطاني ينام هانئا بحراسة الحرس الاردني...

وتجمعنا في أريحا ثم تابعنا السير، وما ان لاح الفجر، حتى كان رأس القافلة يدخل قرية طوباس في جنوب فلسطين. ولم يكن احد يعلم بوصولنا، الا المقدم صفا، الذي كان قد اتخذ ما يجب من الاحتياطات لحماية هذا العبور.

وصلنا الى طوباس في ٦ آذار سنة ١٩٤٨، وطوباس هذه، كانت آخر قرية غادرتها سنة ١٩٣٦ بعد توقف اعمال الثورة. فبعث وجودي فيها ذكريات تمت بأوثق الصلات الى البطولة والشرف، في اعمال عصبة مباركة من ابناء هذه الشعوب العربية الطيبة، وضعت بين أيدي العرب يومذاك فرصة، لو عرفت «الرؤوس الكبيرة» كيف تستثمرها لحل مشكلة فلسطين، لحلت هذه المشكلة منذ ثلاثة عشر سنة، ولما نشأت الحوادث، التي اضطرتنا الى العودة للقتال في فلسطين من جديد.

كانت الامطار تهطل بغزارة في طوباس وبدون ما انقطاع. وكانت سيارات من قافلتنا مبعثرة بين اريحا وطوباس جامدة، أما لعطل طرأ على محركاتها، وأما

لانها غرزت في الوحول، لجهل السواقين وضعفهم، ومن هذه السيارات ما كان لايزال بين عمان ودرعا لهذه الاسباب نفسها. لقد كانت مشكلة السيارات هذه، المشكلة الثانية بعد مشكلة العتاد. وهما مشكلتان رافقتانا في جميع حركاتنا حتى النهاية.

* * *

فلسطين يوم وصولي اليها:

كان أول شيء علمته في طوباس، ان جمعت قادة الافواج في جيش الانقاذ، وطلبت منهم تبيان حالة الجنود وعلاقتهم بالاهلين، وموقف هؤلاء منهم، وأعطائي كل ما يمكن من معلومات عن اليهود. ثم بينت لهم منهاج عملنا والخطوط الكبرى لحركاتنا. ومن طوباس سرى خبر وصولي الى فلسطين فلم يات المساء، حتى غصت القرية بوفود الفلسطينيين، فرأيت ان يكون استقبال الوفود في قباطية وان أحدد لذلك مدة معينة. وقباطية هذه، قرية كبيرة بالقرب من جنين، وهي القرية التي استقبلت فيها وفود المودعين من اخواننا الفلسطينيين بعد توقف القتال في سنة ١٩٣٦ وفيها حدثت معركة التطويق، التي بيتتها لي أكبر قوة بريطانية في ثورة ١٩٣٦، وذلك بعد الهدنة التي حملنا ملوك العرب ورؤساؤهم على القبول بها. وفي اليوم الثاني لوصولنا الى طوباس تحركنا الى قباطية. وقررت أن أتخذ من قرية جبع، مقراً للقيادة، فهي عدا مركزها الجغرافي الملائم، كانت ميدانا لاحدى المعارك الكبيرة، التي احرزنا فيها على البريطانيين انتصاراً كبيراً أيام الثورة.

وبينما كانت الاثقال والمدفعية تنتقل الى جبع، وحركات التنظيم قائمة فيها، كنت استقبل في قباطية وفود الفلسطينيين على اختلاف مذاهبهم وميولهم ونزعاتهم المحلية، متحمسين للتعاون معنا تعاوناً وثيقاً. وجاء الى قباطية عدد كبير من مراسلي الصحف، ووكالات الانباء، من عرب وأجانب لتسقط الاخبار. وكنت أعلم ان كثيراً منهم انما يعنون بما يهم اليهود، لذلك كانت أحاديثي معهم مقتضبة جداً ومقتصرة على مواضيع عامة، يتخللها شيء من الايهام والتضليل. وقد طلبت منهم ألا يعودوا الى الاقتراب من مراكز قواتنا وانه حين وقوع معارك أسمح لهم ان يشاهدوها بأعينهم، اذا هم ارادوا، على أن لا يشوهوا الوقائع كما تعود ان يفعل

بعض المراسلين.

أما الحالة الداخلية في فلسطين فقد كانت على الشكل التالي : كان هناك عملاء كثر، يعملون بنشاط في مناطق متعددة ، لمرجعين مختلفين. ففي منطقة الخليل مثلاً ويافا، كان عملاء الملك عبد الله يوزعون بعض الاسلحة والعتاد والاموال ويبثون روح البغض للهيئة العربية ورئيسها المفتي. وكانت منطقة القدس بما فيها رام الله ومنطقة اللد والرملة، مسرحاً خاصاً للمفتي. وفي هذه المنطقة كان مركز القيادة العامة «للجهاد المقدس» الذي كان يرأسه عبد القادر الحسيني، وكانت منطقة غزة ميدانا يتزاحم فيه عمال الملك وعمال المفتي ولكن أكثريتها مع الملك. ومنطقة جنين – نابلس – طولكرم، أو ما يسمونه «بالمثلث»، كان يتجاذبها عمال الملك من جهة ، وعمال المفتي، ولكن بشكل ضعيف، من جهة اخرى، وكانت بأكثريتها تميل الى سورية والجامعة العربية. وفي المنطقة الشمالية، الجليل –الناصرة، وفي حيفا كذلك، كانت الحالة شديدة الشبه بحالة منطقة جنين – نابلس– طولكرم.

على اساس هذه الصورة الواقعية، كان الموقف بالنسبة اليّ دقيقاً جداً، وخطراً جداً، ويكفي ان يشعر أي فريق، بأي ميل مني نحو الفريق الآخر، ليثير ضدي حملات مختلفة، ويدعو الى الانصراف عن التعاون معي. لذلك اعلنت أنني انما جئت الى فلسطين للقيام بواجب سأتعاون مع الفلسطينيين كافة على القيام به. وهذا الواجب هو الوقوف في وجه اليهود، وحماية هذه المنطقة من عدوانهم، ومهاجمتهم لانقاذ ما يمكن من الاراضي الواقعة بين أيديهم. لذلك فاني لن اتساهل ابداً مع أي فريق أو أي فرد يخل بالامن، أو يكون سبباً للاخلال به، وانني سأطبق النظام بدقة وشدة الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية الى فلسطين.

وأعطي الآن صورة لجيش الانقاذ، هي أيضاً صورة واقعية: كان هذا الجيش لا يشبه أي جيش آخر بتسليحه وتجهيزه وتنظيمه وعدده. وكان في الحقيقة لا يملك من القوة المادية – بالنسبة لما يملكه اليهود – جزءاً مما ينبغي للجيش ان يملكه، ليستطيع ان يؤدي المهمة الموكولة اليه، ولكن كان يتمتع بحماسة واندفاع شديدين في القتال، الى حد يقدم معه على اعمال حربية هي بالمغامرة أشبه. وقد أقدم فعلا

على مغامرات خرج منها موفقاً منصوراً. كان – وهو لم يتجاوز عدد مقاتليه الألفين والخمسمائة مقاتل – يحتل جبهة ، تمتد من غوربيسان شرقاً ، وزرعين شمالاً، وقاقون والطيرة غرباً، حتى قلقيلية. وكانت تجهيزاته في تلك الايام القارسة البرد لا تكفي لرد خطر البرد عنه، وهو مع ذلك يقاتل ليلاً نهاراً، كثيراً ما كان يفعل ذلك اياماً متتالية، حتى اصيب كثير من الجنود بالديزنطاريا والامراض الصدرية. وكانت طلباتنا المبنية على الحاجة الملحة، من اللجنة العسكرية في دمشق، بهذا الشأن، وغيره من شؤون تتعلق بالسلاح والعتاد، تبقى لا جواب. واذا أجيبت أحياناً، تجاب بارسال كمية ضئيلة لا تغني.

* * *

منهاج للاعمال الاولية :

في ١٠ آذار سنة ١٩٤٨ انتقلنا الى المقر الذي تم تنظيمه، كما تيسر، في جبع. وكان منهاج العمل قد استقر على الشكل التالي:

أولاً – تأمين الامن المطلق، وفرض السيطرة التامة على منطقة جيش الانقاذ كلها.

ثانياً – القيام بحركات استطلاعية واسعة، في مختلف المستعمرات والمناطق اليهودية المتصلة بمنطقة جيش الانقاذ.

ثالثاً – استدراج أكثر ما يمكن من القوات اليهودية الى خارج التحصينات، وانزال أشد ما يمكن من الضربات فيها، لنضعها في حالة دفاع أطول مدة ممكنة.

أما الامن فقد تمكنّا من تأمينه كما يجب. وقد دعوت الفلسطينيين المسلحين بواسطة اللجان القومية المحلية ، لينضم قسم منهم الى قواتنا المرابطة في مناطقهم، فيدربهم ضباط من جيش الانقاذ، ثم يدافعون مع قواتنا عن القرى العربية، على ان تخصص لهم رواتب كرواتب جنودنا، ويمدوا بالعتاد أيام المعارك، ويبقى قسم آخر، شبه احتياطي للنجدة عند الحاجة. ولكننا مع الاسف لم نتمكن من الاحتفاظ بعدد كبير منهم لرفض اللجنة العسكرية المرتبطة بجامعة الدول العربية، دفع ما تعهدنا به لهم. وكانت اكثر المعارك تقع على جبهة نورس – زرعين شمالاً، وعلى

جبهة طولكرم – بيار عدس – طيرة – قاقون غرباً . ففي الجبهة الاولى، فشلت كل المحاولات اليهودية للاستيلاء على زرعين وباءت بخسائر فادحة . وقد قطعت زرعين طريق بيسان عفولة تماما، وفصلت مستعمرات الغور عن مستعمرات المرج . ولم تجد اليهود تهديدات البريطانيين لنا نفعاً . وفي احد الايام اعلنت قيادة الجيش البريطاني ان وحدات من الجيش ستقوم بمناورات في هذه المنطقة ، فاعلنت بدوري ان قوات جيش الانقاذ، لاتبدي أية حركة ضد أية مناورة يقوم بها الجيش البريطاني، خارج حدود منطقته، ولكنها تدافع عن نفسها ضد أية قوة تقترب منها . وحدث على أثر ذلك ان وقعت حوادث في منطقة طولكرم ونابلس، ثم ظهر ان تلك الحوادث كانت مفتعلة كما كنا قدرنا . وعندما تأكد البريطانيون اننا لم ننخدع، فنسحب من جهة زرعين، أي قسم من قواتنا، عمدوا الى تسيير قافلة من دباباتهم على الطريق العام، . . بيسان – عفولة، بقصد تهديدنا تهديداً غير مباشر، لكي نسحب قواتنا، أو قسماً منها من زرعين، التي كانت عاملاً قوياً مستمراً في الاشتباكات مع اليهود، كما كانت تهدد طريق مواصلات البريطانيين أنفسهم . وقد نسف جنودنا جسرين مهمين على هذه الطريق، أمام زرعين، أثناء مرور القافلة البريطانية . وتبين لنا بعد حادث النسف، ان اليهود كانوا يحشرون سياراتهم بين سيارات الجيش البريطاني، ليمروا بأمان، ذلك أننا شاهدنا مع المصفحة البريطانية التي تحطمت يومذاك، سيارة كبير «باص» يهودية محطمة، قتل أكثر ركابها وجرح الباقون . وبقيت زرعين المسيطرة على هذه الطريق المعطلة، شوكة دامية في جسم المستعمرات اليهودية في هذه المنطقة الى ان «اقتلعتها» الجيوش العربية النظامية . . .

كان الامن مستتبا في أنحاء منطقة جيش الانقاذ كلها على أتم وجه، رغم مساعي بعض أفراد لتعكيره . والمفارز التي أرسلناها لهذا الغرض بناء على طلب رؤساء اللجان القومية، قامت بواجبها قياماً تاماً . وأخذ نفوذ البريطانيين يتقلص حتى لم يبق له أي أثر في منطقتنا . وكان الجنود والضباط البريطانيون، الذين يضطرون الى المرور في منطقة جيش الانقاذ، من وقت الى آخر، تطبق عليهم التعليمات الخاصة بالتفتيش وأوراق الهوية، عند كل نقطة يمرون بها . وأصبح لقوانا حرمة رهيبة في نفوس الجميع، ويضاف الى ذلك شيء من الرعب في نفوس اليهود، الذين انكمشوا في مستعمراتهم لا تبدو منهم أية حركة، بعد محاولاتهم

المتعددة الفاشلة في جبهتي زرعين وطولكرم . على ان نشاطهم اشتد خارج حدود منطقتنا، في منطقتي يافا والقدس . وكانت المعلومات التي لدينا، تؤكد ان اليهود يعملون بجد لتصفيح أكبر عدد ممكن من السيارات التي لديهم، كبيرةوصغيرة، استعدادا للحركات المقبلة . ولم يكن يسترعي الانتباه بعد، من سلاحهم أكثر من مدافع الهاون، التي استعملوها بكثرة في كل مكان . مما ترك أثراً سيئا في معنويات الفلسطينيين الذين لم يتيسر لهم ان يتسلحوا بمثل هذه المدافع .

* * *

معركة «مشمارها ايمك» الاولى :

في أول نيسان ١٩٤٨ أخذ الجو يصحو قليلاً، فقررت ان اخوض معركة قوية في احد المستعمرات اليهودية في مرج ابن عامر، واخترت من بين هذه المستعمرات أقواها «مشمارها أيمك» أي حامية المرج . قصدت من وراء ذلك التحقق بنفسي من مناعة المستعمرات ومدى مقدرتها على الدفاع، بالنسبة الى مدفعيتنا . وحسبت للنجدات التي قد تهرع من بقية المستعمرات المجاورة حسابها، فبالاشتباك مع النجدات اليهودية هذه أستطيع ان أقرر كفاءة القوات اليهودية في القتال خارج المستعمرات . تقع «مشمار ها ايمك» على طريق جنين – حيفا، وفي فم منفرج واد، يحيط به من الشرق والغرب والجنوب جبال مشجرة، ويقع شمالها سهل المرج الذي يغص بالمستعمرات اليهودية . ويتفرع من مشمار، طريق تتصل ببقية المستعمرات في شمالها وغربها وجنوبها . وفي هذه المستعمرة أقوى الابراج والقلاع . وسكانها من اليهود الشيوعيين وهم يعتدون باستمرار على السيارات العربية المارة امام المستعمرة ذهابا وأيابا، من الشرق الى الغرب وبالعكس . اخترت لخوض المعركة فوجاً انتقيت سراياه من أفواجنا كلها، تشترك معه المدفعية، (ستة مدافع) أربعة منها عيار ٧٥مم . ومدفعان عيار ١٠٥مم، وثلاث مصفحات . على ان يقوم بالهجوم سرية واحدة مع المصفحات والمدفعية، وتقوم بقية السرايا بتخريب الطرقات المؤدية الى المستعمرة، وارغام النجدات التي ستأتي لمعاونتها، على قبول المعركة من أية ناحية أتت فتحول بينها وبين الوصول الى المستعمرة . واخترت الساعة الخامسة من يوم السبت في ٤ نيسان موعداً للهجوم، ذلك لان هذا اليوم، عدا أنه سبت، كان عيداً عند اليهود .

واختياري الساعة الخامسة كان على اساس انه في مثل هذه الساعة ، لن يبقى متسع من الوقت لتدخل القوات البريطانية في المعركة . ولكي أحول نظر اليهود عن هدفنا هذا ، قررت ان تقوم مفرزة من فوج المقدم صفا، بهجوم مضلل على مستعمرة صغيرة بالقرب من زرعين، اسمها «زراعيم» ليلة ٣-٤ نيسان . وقامت هذه المفرزة بهجومها، فدمرت قسما كبيراً من بيوت المستعمرة، ونسفت مشروع المياه فيها والحوض الذي يسقي اراضي المستعمرات المجاورة، وتكبد السكان خسائر، بينما كانت القوة المعدة لمهاجمة «مشمار ها ايمك» تتمركز في مراكزها المحددة . تم ذلك كله، بدون ان يشعر اليهود بشيء يثير الريب . وبقيت القوة كامنة في مراكزها، تمنع الدخول الى القرى المجاورة للمستعمرة، حتى أزفت الساعة المحددة للهجوم . وكنت على التلة الواقعة شرقي مشمار على بعد خمسمائة متر منها، أرقب بالمنظار كل مافي المستعمرة، فلم أر فيها شيئاً غير اعتيادي على الاطلاق . شاهدت قسما من الشبان يلعبون العابا رياضية، وقسما آخر كبيرا على شرفات المدرسة الكبيرة، يشربون الشاي ويلهون، وقسما يعتنون بالابقار في مرابطها . وما كاد عقربا الساعة في يدي، يدلان على الخامسة، حتى أصدرت الامر للمدفعية ، ففغرت أفواهها دفعة واحدة وراحت تصب نيرانها على الاهداف الرئيسة التي عينت لها، لا تخطئ هدفاً، وأهل المستعمرة مأخوذون بالمفاجأة الرهيبة، ثم أخذوا يتراكضون في انحاء المستعمرة على غير هدى. وراحت سرية الهجوم تساندها المدفعية تتقدم بسرعة، والمصفحات تزحف على الطريق الرئيسة نحو الابراج، القائمة على المدخل، حتى وصل المشاة الى الاسلاك الشائكة وبدأوا يقطعونها . ووصلت المصفحات الى الابراج، وأخذت تصليها ناراً حامية من رشاشاتها . ولم تجاوب المستعمرة في البداية الا من هذه الابراج، وبنار ضئيلة مرتبكة، وتمركز قصف المدفعية على القلاع . حتى اذا ما قارب المشاة هذه القلاع في تقدمهم داخل حدود المستعمرة وهم يطلقون نيران رشاشاتهم هنا وهناك، أعطيت الاشارة لوقف القصف، فسكتت المدفعية .

كان الليل بدأ يرمي سدوله ، وبدأ المطر يتساقط بين هنيهة وهنيهة على مهل، وامتنعت الرؤية . فبدأت القلاع ترمي الجنود على غير هدي بنيران متقطعة . واقترب جنودنا حتى اصبحت القلاع منهم على مرمى القنابل اليدوية، فقذفوها بها .

ومضت المصفحات في زحفها مجتازة الابراج التي اسكتت نهائياً، حتى ظننت ان هناك حيلة مدبرة للايقاع بقواتنا، فأمرت الجنود بالتوقف . ولما أيقنت ان ليس هناك أية حيلة، وان المستعمرة غلبت على امرها فعلاً، حرصت على ان لا يأتي الجنود بأعمال التقتيل في النساء والاطفال، وأمرتهم بالانسحاب الى التلال المحيطة بالمستعمرة، والمتحكمة فيها الى ان ينقضي الليل .

وأخذت استعد لمواجهة النجدات التي قد تتمكن من الوصول لنجدة مشمار، رغم علمي ان مفارز من قواتنا كانت قد نسفت الجسور الواقعة على الطرق المؤدية الى المستعمرة . وانتظرت الصباح لأرى ماذا عسى ان يكون من امر يهود المستعمرة، وأرسلت اليهم انذاراً أن يقطعوا كل علاقة لهم «بالهاغانا» فناخذ نحن المستعمرة تحت حمايتنا، وانهم اذا قبلوا بهذه فليرسلوا وفداً منهم يوقع على شروط التسليم . وفي ذلك الصباح نفسه جاء رسول المستعمرة يعلم آمر الفوج، المقدم مهدي صالح، ان هيئة تمثل المستعمرة يصحبها ضباط بريطانيون سيصلون بعد الظهر للمفاوضة .

على ان هذا التدبير لم يكن وحده كافياً لاطمئن الى سلامة جنودنا، لاسيما ومجموع القوة التي استطعت ان أحشدها لمعركة مشمار هذه، كانت حوالي خمس مائة جندي، اشترك منها في الهجوم سرية واحدة، أي ما لا يزيد على مائة وعشرين جندياً، وكنت أتوقع ان تصل حتما، نجدات يهودية كثيرة لانقاذ المستعمرة، ليس لديّ من القوات ما أواجهها به . ولما كنت قد حققت غرضي من مهاجمة مشمار، وحرصاً على سلامة جنودي الذين كانوا قليلي العدد من جهة اخرى، امرت السرية بالانسحاب لتشترك معنا في مواجهة النجدات اليهودية التي كنت أتوقع قدومها لانقاذ المستعمرة، بدلاً من ان تبقى منعزلة عنا .

* * *

معركة القسطل – قصف القدس :

ساءت الحالة في أوائل نيسان في منطقتي القدس ويافا، وأخذ الخطر في منطقة القدس يشتد من يوم الى يوم، ذلك ان اليهود كانوا يضاعفون هجماتهم ويستميتون في محاولة الاستيلاء على القرى المسيطرة على طريق باب الواد، لكي يؤمنوا اتصال تل أبيب بالقدس، بشكل يمكنهم من تموين اليهود فيها وانقاذهم .

فقد كان هؤلاء يعانون ضائقة شديدة جداً، من قلة المواد الغذائية، وقلة العتاد، وكان هدف القوات اليهودية الاول الاستيلاء على قرية القسطل التي تعد نقطة هامة، وقاعدة خطيرة لتأمين المواصلات بين القدس وتل ابيب. وقد نشبت معارك حامية جداً بين القوات اليهودية المجهزة تجهيزاً كاملاً بالسلاح والعتاد، وبين القوات العربية المحلية التي كان يقودها عبد القادر الحسيني، وكانت هذه القوات رغم شجاعتها تلاقي صعوبات كثيرة في الدفاع عن القسطل ومنطقتها، لتفوق اليهود في العدد والمعدات والنظام. فأخذت الرسل تأتي الى مقر القيادة في جبع تطلب النجدة، ولكن المنطقة كانت خارجة عن نطاق قيادتي. وكان لديّ تعليمات مشددة تحظر عليّ التدخل في شؤونها، ومع ذلك فقد أمددتها بشيء من العتاد، ومدافع الهاون والقنابل اليدوية على قلة هذا كله عندنا. ولكن المعركة في القسطل، ومنطقتها كانت تتطور لمصلحة اليهود، لوفرة الوسائل عندهم، وقلتها عند المقاتلين العرب. فأبرقت الى القيادة العامة في دمشق، أنبئها بالموقف وأطلب اليها نجدة تلك المنطقة بسرعة. وفي مساء ٧ نيسان جاءني مدير الصحة في جيش الانقاذ، والرئيس فاضل عبد الله آمر حامية القدس، يصحبهما بعض رؤساء المجاهدين وألحوا عليّ في طلب النجدة، لان المعركة في القسطل كانت قد دخلت في دور شديد الخطورة وأصبحوا يتوقعون سقوط هذه القرية بين ساعة وأخرى. وفي الوقت نفسه كانت قوات يهودية تحتشد أمام جبهة طولكرم، وكنت أتوقع ان يقوم اليهود بهجوم على هذه الجبهة في تلك الليلة، مما اضطرني الى ارسال برقية تحذير، الى قائد الجبهة الرئيس مدلول عباس، طالبا منه ان يكون على استعداد لمجابهة الموقف بما لديه من قوة، دون ان ينتظر أية نجدة بالرجال أو بالعتاد.

وكنت أعلم أن الغرض من هجوم اليهود المتوقع في جبهة طولكرم، هو ارغامنا على سحب قسم من قواتنا من ميدان مستعمرة «مشمار ها ايمك» التي كنا نحاصرها، فأصبحت بين امرين.. الانتظار حتى تنتهي معركة «مشمار ها ايمك» وقد يفوت الوقت على النجدة عندئذ، أو المبادرة الى النجدة في الحال، مخالفاً لما لديّ من تعليمات، وترك معركة مشمار الى مصير مجهول. انه موقف عصيب، خرجت منه بتقرير النجدة، متحملاً ما ينتج عن ذلك من مسؤولية تجاه القيادة العامة. سأنجد القسطل برتل أغامر بسحبه من ساحة معركة مشمار، أي بفصيل من

المدفعية ومصفحتين وسرية مشاة، أرسله في فترة المفاوضات الدائرة بشأن هذه المستعمرة بيننا وبين الهيئة التي تمثلها. مع علمي ان الاستعدادات في مستعمرات المرج (مرج بن عامر) وفي منطقة حيفا، كانت قوية جداً، لتأليف حملة يهودية تفك الحصار عن «مشمار ها ايمك» وتخرج قواتنا، ان هي استطاعت من تلك المنطقة. فاستدعيت ضابط ركني مأمون البيطار، وهو من أفضل ضباط الجيش السوري، وسلمته قيادة النجدة لمنطقة القدس، وطلبت منه الاسراع في العمل، وبذل كل ما يمكن من مجهود لاسترداد القسطل، اذا كانت قد سقطت، وانه يستطيع الاعتماد في حركاته على القوات المحلية المسلحة في تلك المنطقة. وتحركت هذه النجدة في ٨ نيسان، وأطلعت الوفد الذي جاء في طلب النجدة على هذا التدبير، وطلبت منه الاسراع في تهيئة أكبر عدد ممكن من المسلحين المحليين، للاشتراك في القتال مع النجدة، اذ انه ليس لديّ في جيش الانقاذ القليل العدد، والمنتشر على جبهة واسعة، قوة أستطيع سحبها من مراكزها فوق القوة التي ارسلتها. وكان تدبيري عاملاً قوياً في رفع المستوى المعنوي للعرب في منطقة القدس. ولابقاء هيبة قواتنا في نفوس اليهود في «مشمار ها ايمك»، ومنطقتها، طلبت من المقدم مهدي صالح، قصف هذه المستعمرة من جديد، محتجاً بتباطؤ اهلها في ارسال الوفد المفاوض، رامياً الى ايهام اليهود، ان قواتنا مع مدفعيتنا، لا تزال في مواقعها المسيطرة على مشمار. وقبيل وصول النجدة بقليل استشهد البطل عبد القادر الحسيني، فاستولى اليهود على قرية القسطل، وتشتت المقاتلون المحليون هناك. فسبب ذلك ذعراً بين السكان، بدأت على اثره هجرة شنيعة نحو الشرق والشمال. وبينما كانت القوة الموضوعة من جيش الانقاذ تحت قيادة المقدم المهدي، تقصف مدفعيتها مستعمرة مشمار، كانت الحملة التي ارسلتها نجدة الى منطقة القدس تقصف في الجنوب مستعمرة «مودسا» بالقرب من قرية القسطل العربية، ثم اخذت تقصف القسطل نفسها الى ان انهزم منها اليهود، واحتلتها القوات المحلية المسلحة بمساعدتنا. ودمرت مدفعيتنا قسما من مستعمرة «مودسا» وضعضعت سكانها، ولكن القوات المسلحة المحلية أبت أن تتقدم لاحتلالها. وقد حاول الرئيس البيطار دفعهم لاحتلال هذه المستعمرة بمساندة المدفعية، وحماية المصفحات، ولكنهم لم يفعلوا.

ثم راحت مدفعيتنا لأول مرة تقصف الاماكن اليهودية في القدس، فدمرت عدداً غير قليل من المباني والمراكز، والمستودعات اليهودية، وأثرت هذه المفاجأة في معنويات اليهود فيها، تأثيراً كبيراً جداً . بينما ارتفعت معنويات العرب، وتحسنت الحالة في المنطقة كلها تحسنا ملموساً، ولكنه كان تحسناً آنياً.

على ان الوقع الكبير للقصف كان في نفس البريطانيين، الذين ما كان ليخطر لهم ببال اننا نقدم عليه، وهم لا يزالون في فلسطين. خصوصاً وقد أفاضت الصحف اليهودية في وصفه، ونشطت دعاية اليهود في أنحاء العالم كافة لتصويره بأقبح ما يمكن من التصور. ويظهر ان تأثير هذه الدعاية من جهة، وضغط السلطات اليهودية على المراجع البريطانية المسؤولة من جهة اخرى، حملا البريطانيين على ان يوجهوا الينا انذاراً كان الاول من نوعه، منذ ان وطئت أقدامنا أرض فلسطين. فقد جاءني معاون الحاكم البريطاني في منطقة المثلث العربي، في ١١ نيسان ١٩٤٨ وقال لي: «ان القيادة العامة البريطانية متأثرة جداً من اقدامكم على قصف القدس بالمدفعية، وهي تطلب ان لا تعودوا الى مثل هذا العمل في المستقبل، والا فليس من المستغرب، ان يترك عمل كهذا صدى في هيئة الامم المتحدة، يحملها على التدخل في قضية فلسطين، بشكل قد يضيع القضية على العرب من اساسها». فأجبته: «ان مدفعيتنا لم تقصف الا الاماكن اليهودية في القدس، حيث لا وجود لشيء مقدس... ولكن اليهود الذين تقصف مدفعيتهم باستمرار، الاماكن المقدسة فعلاً في القدس، كالحرم وكنيسة القيامة، الا يترك عملهم شيئاً من التأثير في نفس القيادة العامة البريطانية ، ولا يكون له أي صدى في هيئة الامم المتحدة ... أم أن قذائف مدفعيتنا من حديد ونار، وقذائف اليهود من ليمون وشوكولاتة.... أرجو منك ان تبلغ الحاكم العامة والقيادة العامة، اننا كما تعلمون في حالة حرب مع اليهود، واننا سنعمل كل ما نراه في مصلحة العرب ان يعمل. ويستطيع البريطانيون ان يعملوا ما يرونه في مصلحتهم.».

وكنت أعلم علماً تاماً أن الجيش البريطاني، وهو في حالة جلاء، يتجنب كثيراً ان يجابهنا، وخطوط مواصلاته كلها تحت رحمة قواتنا.

* * *

معركة «مشمار ها ايمك» الثانية :

وصل وفد المفاوضة اليهودي الى مقر المقدم مهدي صالح، وكان مؤلفاً من وجوه مستعمرة مشمار، مع رئيس بلديتها، يرافقهم «كولونيل» بريطاني، وكان ذلك على أثر القصف الاخير الذي قامت به مدفعيتنا على مشمار في ٩ نيسان، وسبب انفجار مستودعات العتاد الباقية فيها، وتدمير بعض المباني. وتكلم «الكولونيل» البريطاني، فحاول ان يضع في كلامه شيئا من التهديد، للمقدم مهدي اذا هو لم يفك الحصار عن المستعمرة. فلم يبال المقدم مهدي بتهديده وأفهمه، انه ينفذ أوامر القيادة، وان في استطاعته اذا هو شاء، الاتصال بالقيادة والتفاهم معها. فلما سمع الوفد ذلك، أبدى للمقدم مهدي سبب تأخره قائلاً انه اتصل بالوكالة اليهودية فأبطأت بالجواب، على انها تركت لهم في النهاية الخيار، في تقرير ما يرونه أنسب لمصلحتهم، وانهم جاؤوا الآن للتفاهم معه، على أن يسمح لهم بنقل جثث القتلى لدفنها، ونقل الجرحى الى المستشفى. فأرسل اليّ في ذلك فلم أر مانعاً، على أن تنتهي هذه العملية خلال ٢٤ ساعة على الاكثر، يبتون في نهايتها بقضية التسليم. فوافقوا على ذلك وانصرفوا، وتولت سيارات النقل البريطانية نفسها، نقل قتلى اليهود وجرحاهم. وكان للبريطانيين رتل من المصفحات والدبابات بالقرب من المستعمرة على طريق حيفا – مشمار، يتستر ما استطاع التستر، واليهود ، يداورون في المفاوضة قاصدين كسب الوقت لاتمام ما كانوا يقومون به من حشد لقوات الهاغانا. وكنا نحن نرمي ايضاً لكسب الوقت في التريث الى ان تعود الينا القوة التي ارسلناها مع المدفعية الى منطقة القدس. وكانت السيارات التي تنقل قتلى اليهود وجرحاهم، تعود مشحونة بجنود «الهاغانا» وبينها سيارات يهودية مشحونة بالسلاح والعتاد، للحملة التي تتمركز في غرب مشمار، وفي مستعمرة اخرى الى الجنوب الغربي من مشمار. وأتم اليهود استعداداتهم، قبل ان تعود القوة التي أرسلناها نجدة لمنطقة القدس. وفي صباح ١٠ نيسان بدأ اليهود هجومهم فكان أقوى هجوم قاموا به حتى ذلك اليوم. وكان عددهم لايقل عن ستة آلاف مقاتل، مزودين بعدد وفير من مدافع الهاون الكبيرة، وعدد وافر من الرشاشات، وكان غرضهم تطويق قواتها وفصلها عن مواقعنا الاساسية . فاضطرت قواتنا للتراجع تدريجيا، حتى تخلينا عما لا يقل عن اربعة كيلومترات من الاراضي

التي كنا نحتلها. وتمركزنا في قرية المنسي العربية التي كانت محور الحركات، فاتسعت بذلك جبهة القتال وتخللها ثغرات كثيرة. وتوقفت المعركة مع مجيء الظلام.

وفي تلك الليلة أي ليلة ١٠-١١ نيسان، اتفقت مع المقدم مهدي على اعادة تنظيم قواتنا وتعديل مواقعها ليتسنى لينا مفاجأة العدو بهجوم معاكس في الصباح. وكانت معنويات جنودنا طيبة ورغبتهم في تجديد القتال قوية. وما أزفت الساعة الخامسة صباحا حتى انفتحت أفواه مدفعيتنا على «مشمار ها ايمك» وأخذت تصب نيرانها على الاهداف المعينة لها ببراعة فائقة. ثم اصدرت الامر بهجوم المشاة، فهجم جنودنا على مواقع العدو، وما هي الا ساعات قليلة حتى بدأت قوات «الهاغانا» تتراجع متضعضعة، وبعد قليل انقلب التراجع الى هزيمة نحو مشمار، والمستعمرات الواقعة الى الجنوب الغربي منها. وراح جنودنا يتقدمون مسرعين وهم يتخطون جثث القتلى والاسلحة المبعثرة في الميدان حتى وصلوا الى التلال المشرفة على المستعمرة من قرب، والتي كنا تخلينا عنها في اليوم السابق. فأمرتهم بالتوقف عليها والتحصن في مواقعهم. وكنت ابرقت الى الرئيس مأمون البيطار أن يسرع بالعودة من منطقة القدس ليشترك بفصيل المدفعية في المعركة على ان يبقي السرية هناك، بقيادة احد الضباط لتدعم المقاتلين المحليين، وتساعدهم على الاحتفاظ بمعنوياتهم ونشاطهم في القتال. فوصل الرئيس مأمون مع فصيل المدفعية وشغل مركزه في ساحة المعركة. وكانت نجدات يهودية على اثر انهزام «الهاغانا» بدأت تفد من المستعمرات اليهودية المجاورة، استعدادا لهجوم معاكس يقومون به. والرتل البريطاني الذي أشرت اليه آنفا، مستقر في مواضعه لا يتدخل، ولكن مجرد تمركزه حيث هو، كان مشجعاً لليهود، ومغريا لهم على القتال. وفعلاً بدأ اليهود في الساعة الثالثة بعد الظهر هجوما معاكساً، كان أشد من هجومهم الاول. واضطررنا مرة ثانية الى التراجع أمام تفوق العدو الكبير في العدد والمعدات. وأصبح فصيل من مدفعيتنا معرضا لخطر استيلاء اليهود عليه، فاستبسلت في هذه اللحظة المفرزة الشركسية استبسالاً نادراً جداً. واندفع الرئيس مأمون البيطار بنفسه، لحماية فصيل المدفعية وتأمين انسحابه، فتم له ذلك وكان حياته الثمن، اذ انه استشهد في هذه المعركة. توقف تراجعنا للمرة الثانية في قرية المنسي أيضاً، ومنها عدنا الى هجوم

جديد، فكانت معركة أشبه بمجزرة هذه المرة، وهزمنا اليهود، واستردنا ما كنا فقدناه. وبقيت هذه المعركة، وهي تكاد لا تتوقف، مدة سبعة أيام حتى اخذت تنهال عليّ البرقيات من القيادة العامة في دمشق بايقاف القتال لان المعركة - على رأيها - أصبحت معركة استنزاف دماء وعناد وهي لا تستطيع تعويضنا. وتوقفت المعركة عند هذا الحد: طرد اليهود من التلال المحيطة بمستعمرة «مشمار ها ايمك» واستقرارنا في خط الغبيات الفوقا وما جارها من تلال. وقد كانت خسائر اليهود كبيرة جداً بالارواح والسلاح. وقد تأكدنا من الوثائق التي وقعت بين أيدينا، أن قوات روسية وبولونية وتشيكية، كانت مشتركة في هذه المعركة. ونشر اليهود يومها دعاية واسعة كاذبة انهم طوقوا جيش الانقاذ وأبادوه، وعرف العالم ان جيش الانقاذ خرج من المعركة سالما منتصراً. وان خسائر اليهود كانت فادحة جداً مما اضطرهم الى تغطيتها بنشر مثل تلك الاشاعات. ولكنهم عجزوا عن اخفاء مقتل قائد الحملة العام الذي احتفلوا بدفنه في تل أبيب بمظاهرة كبيرة.

وكان من نتائج معركة «مشمار» هذه، ان بدأت هجرة يهودية من المستعمرات المجاورة لمشمار تحمل الذعر والفوضى لتنشرها بصورة واسعة حيث يستقر المهاجرون.

* * *

اللجان القومية و«الجهاد المقدس»:

بعد ان سحبنا مدفعيتنا ومصفحاتنا من منطقة القدس، جدد اليهود هجومهم على القسطل، فاستولوا عليها وعلى دير ياسين، وبعض قرى عربية أخرى، فعم الذعر والفوضى، المنطقة الوسطى كلها. وبينما كانت هجرة يهودية تقع من الشرق الى الغرب، أي من مستعمرات المرج القائمة على مقربة من خطوطنا، الى المستعمرات القريبة من تل أبيب، حتى في تل أبيب نفسها، كانت هجرة أخرى عربية، ويا للاسف، تقع من الغرب الى الشرق، أي من دير ياسين والقسطل وما جاورهما، الى جنين ونابلس وغيرهما. وكان في الهجرتين عناصر تدعو الى ترك القتال حتى قامت في تل أبيب يومذاك مظاهرات ضد الحرب، وقامت في أطراف منطقتنا مظاهرات ضد الجامعة العربية. وعلى أثر ذلك جاءني السيد أحمد حلمي

ومعه نفر من أعضاء اللجان القومية في القدس ورام الله، وبعض المنتمين الى « الجهاد المقدس » ومع احدهم رسالة من السيد خالد الحسيني، أحد أعضاء الهيئة العربية العليا يستنجدون بي. وقد طلبوا اليّ بعد ان صوروا لي خطورة الحالة، أن أتولى قيادة منطقة القدس أي الجبهة الوسطى، فاعتذرت بأن الحالة التي أنا فيها لا تمكنني من ذلك ، عدا ان المسألة تتعلق بالقيادة العامة في دمشق . وتشكل وفد منهم ذهب الى دمشق لهذا الغرض، فاتصل بالقيادة العامة للاتفاق معها على ما فاتحوني به ، فأجبتهم انها في سبيل اعداد حملة قوية مجهزة تجهيزاً كافياً بقيادة العقيد محمود الهندي، ستصل قريبا الى الجبهة الوسطى. وقد كانت القيادة العامة تعد هذه الحملة حقيقة، فأرسل العقيد الهندي الضابط الركن المقدم محمد ناصر، الى المنطقة ليستطلع الحالة، فعاد اليه بتقرير يظهر انه كان مثبطا لعزيمته، فأبى قبول المهمة معتذراً.

وكانت الحالة في يافا كما في القدس، تسوء من يوم الى يوم، وتعالت أصوات السخط والاستنجاد، حتى صكت مسامع القيادة العامة في دمشق. فأرسلت اليّ أن أبعث من وحدات جيش الانقاذ، بعض مفارز مع ما يمكن من معدات لنجدة المستنجدين، على ان تعوض جيش الانقاذ وحدات جديدة مع سلاح وعتاد، ففعلت، ولكن القيادة العامة لم تفعل. وأصبحت في حالة نفسية قلقة جداً.. قلة في العدد والعدد بعد ان أفرزت مفارز الى يافا وبيت سوريك والنبي صموئيل، ولم ترسل لي القيادة العامة بدلا منها. وفوضى في الجبهة الوسطى تنذر بالتفكك والانهيار، ودمشق لا تلبي طلبي بارسال السلاح والعتاد.. حتى خطرت لي لحظة، فكرة الاستقالة من قيادة جيش الانقاذ. ولكن فكرة المصابرة، هي الاخرى كانت قوية عندي، فلعل القيادة العامة تعمل المستحيل لتوفير الوسائل التي يمكن ان نحسن بها الحالة ولو قليلاً، الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية. وأخذت أوازن بين الفكرتين، وأنا أحس عظم المسؤولية الوجدانية في نفسي، وهل اذا انا داويت الحاضر بالترقيع وانتظرت، ينتظر اليهود هم أيضاً؟. وكان الجيش البريطاني في هذه الفترة يستكمل جلاءه عن فلسطين وبسرعة، ولم يكن باقيا من قواته الا القليل الذي يكفي للمحافظة على ما كان لديه من مستودعات للاسلحة والذخائر. هذه الاسلحة والذخائر ، التي كان ضباط بريطانيون يفاوضوننا ليبيعونا

ما نحتاجه منها، كما كانوا يفاوضون اليهود أيضاً لهذا الغرض. وقد كنا في وضع لا يمكننا من الشراء، ويا للأسف، بينما اشترى اليهود كميات هائلة .

* * *

الأسباب الرئيسية لسقوط حيفا ويافا

معارك زرعين ، ونورس ، وبقية مواقع الجبهة

كانت خطة انسحاب الجيش البريطاني من فلسطين، تقوم على دعامتين، الواحدة سياسية والاخرى عسكرية. ومن البديهي ان تكون الدعامة العسكرية في ترتيب النقل، كنقل المستودعات والاثقال « الورشات » ومؤسسات الجيش المختلفة، ثم الوحدات، وأخيراً الآليات مع المصفحات، بطريق معروفة في النظام العسكري. وكان من الطبيعي ان يستخدموا في انسحابهم هذا مختلف الطرق بما فيها الخطوط الحديدية. وقد تم هذا الانسحاب بشكل عادي ولكننا لاحظنا انه كان يرافق الخطة العسكرية في الانسحاب، خطة سياسية مرسومة، وهي انسحاب الوحدات البريطانية الموكول اليها المحافظة على الامن والنظام في المدن، بطريقة فجائية، يتبعها حالا هجوم فاحتلال. وقد كان من نتيجة هذه الخطة، سقوط اكثر المدن العربية التي كان يرمي اليهود احتلالها قبل غيرها، وهنا تبدو الدعامة السياسية. فقد حدث في حيفا مثلاً، قبيل انسحاب الجيش البريطاني، ان السلطات البريطانية اخذت تضيق على العرب بحجة الرغبة في سيادة الامن والنظام، الى ان يتم انسحاب الجيش المسؤول عنهما، وتسهل من جهة اخرى لليهود حرية الحركات بأوسع معانيها. كانت قوات من الجيش البريطاني بحكم مهمتها في المحافظة على الامن والنظام، تسيطر على الطرقات والمنافذ، التي تصل حيفا بما يجاورها من قرى عربية، ومستعمرات يهودية. فكانت هذه القوات البريطانية تحول من اتصال عرب القرى بحيفا، لنصرة اخوانهم العرب فيها، بينما تسهل لليهود الاتصال المتبادل بينهم، في المدينة وفي المستعمرات المجاورة لها، وكان هذا التصرف سببا رئيسياً ظاهراً من اسباب سقوط حيفا. وشبيه بموقفهم هذا موقفهم في يافا. فبعد ان تمكنّا من ادخال فوج « اجنادين » الى يافا، وهي في أحرج ساعاتها وتعدل الموقف في مصلحة العرب، عمد البريطانيون الى فرض هدنة محلية بين العرب واليهود. فاستغل اليهود

هذه الفرصة لاعادة تنظيم وحداتهم ، وتدعيم قوتهم، حتى اذا ما تم لهم ذلك، انسحب الجيش البريطاني فجأة وسقطت يافا .

وكان نشاط اليهود يزداد باستمرار في الشمال – منطقة الجليل – وفي الجنوب– منطقة القدس – خصوصا في ناحية بعض القرى المجاورة للمستعمرات اليهودية، فيبعث هذا اصواتا مستنجدة وصوتاً من دمشق ، من القيادة العامة تطلب تلبية الاستنجاد، وهي نفسها تعلم حقيقة الحال التي نحن فيها، من قلة عدد وعتاد، وتعلم ان هذا المستنجد هو ربيبها، هي اوجدته وربطته بها مباشرة، وأخذت على عاتقها عبء تسليحه وتوجيهه، وانه خارج عن منطقة قيادتي، التي حددتها، ويفصل بيني وبينه مستعمرات يهودية كثيرة، كما تعلم انها من جهتها، لا تلبي لي طلباً من طلباتي للسلاح والعتاد. وصوت رابع أو خامس مبعثه قيادة قواتنا في الشمال، ينصب في أذني كالرصاص ببرقيات هذه نماذج عنها . .

من آمر الفوج الرئيس أديب الشيشكلي بتاريخ ١٤–٣–١٩٤٨

كارثة الحسينية التي أزالها اليهود من الوجود هي أولى نتائج عدم ارسال التقويات رغم طلباتي المتكررة. أتنصل من كل مسؤولية.

آمر الفوج

الامضاء – أديب

١٨–٣–١٩٤٨ من وكيل آمر الفوج في منطقة الشمال الملازم الاول الاتاسي

ساءت حالة المجاهدين المعنوية لعدم تلبية دمشق الطلبات المتتالية بشأن النجدات والاسلحة من كساء وغذاء . التذمر عام يخشى انحلال الفوج.

وكيل آمر الفوج

الامضاء – الاتاسي

كانت هذه الاصوات تسبب لي قلقاً شديداً، لا أرى له علاجا، الا في ان أخوض بنفسي معركة ما. وفي ١٩ آذار ١٩٤٨ تلقيت تقريراً يقول انه منذ يومين، شوهد في مستعمرة «عفولة» تجمعات يهودية كبيرة آتية من مستعمرات المرج،

ومستعمرات منطقة بيسان . فشغلني هذا الامر عن كل ما سواه، وأنذرت المقدم صفا وطلبت منه تقوية حامية زرعين ونورس، وزيادة عدد الدوريات الليلية في تلك المنطقة وتهيئة قوة احتياطية، يكون في استطاعتها الدخول في المعركة فوراً. وكنت اتوقع ان تكون المعركة قوية، لما أعلم من وطأة زرعين على اليهود، ورغبتهم في القضاء عليها، لانها كانت سداً حديدياً بينهم وبين جنين ومنطقة المثلث العربي كله، الذي كانت زرعين مدخله من الشمال. وفي الساعة الثانية والعشرين بينما كانت احدى دورياتنا متجهة نحو نورس اذا نيران تنصب عليها فجأة من مكان يقع الى الجنوب من هذه القرية، ففضحت هذه العملية خطة اليهود، وكشفت لنا عن غرضهم من الهجوم الذي يدبرونه . اذ ان وجودهم في ذلك المكان، لا يمكن ان يفسر الا انهم يرمون الى الفصل بين جنين ومنطقتها، وبين زرعين، للقضاء على حاميات جيش الانقاذ في زرعين ونورس وصندلة. وفي الدقيقة التي انصبت فيها النيران على دوريتنا، انفجرت اسلحة اليهود من الشمال على مواقعنا في زرعين، ومن الشرق على مواقع نورس، ومن الغرب على مواقع صندلة. وقد لحظنا من غزارة رصاص الرشاشات وقنابل الهاون، ان القوات اليهودية المشتركة في الهجوم، لا بد ان تكون كبيرة العدد وافرة المعدات. وامتدت المعركة الى مراكزنا كافة، واطلاق النار يشتد ساعة فساعة، وبدأنا نسمع أصوات انفجارات هائلة على الطرق التي تصل هذه الحاميات بعضها بالبعض الآخر، وتربطها مجتمعة، بجنين. فخيل الينا ان الجسور على هذه الطرق قد نسفت كلها، وأخذت الساعات تمر، وحدّة المعركة لا تنخفض، وقد تمكن اليهود من هذا كله وقوتنا الاحتياطية لم تتحرك من مواقعها، وكنا ننتظر بزوغ الفجر، لكي نقوم في ضوئه، بهجوم معاكس على أخطر نقطة تبدو لنا في صفوف العدو، وكان كلما ازداد تقدم العدو نحو الحاميات، ازدادت الحامية استبسالا في الدفاع. وعند الفجر بلغ اليهود في زرعين ، المراكز الامامية التي اضطرت الى الارتداد، حتى خطوط دفاعها الرئيسة . فأصدرت الامر للاحتياطي المتمركز في قرية المزار، بالهجوم على القوة اليهودية المهاجمة حاميتنا في نورس، ولسرية اخرى بالهجوم على قرية صندلة، التي اصبح القتال في داخلها . فاندفعت هذه المفارز تساندها مدفعيتنا، وتحميها مدافع الهاون بحماسة شديدة، ظهر مفعولها في اليهود منذ الطلقات الاولى، ودب شيء من التضعضع في صفوفهم،

أدى الى هبوط حدة المهاجمة الى داخل صندلة، وأخذت اليهود من الوراء. وانقلب هجومهم الى دفاع ضعيف، فهزيمة تعمها الفوضى، تاركين كثيراً من الاسلحة الخفيفة والثقيلة في ساحة المعركة، وسريتنا تطاردهم منهزمين باتجاه زرعين – العفولة. وكانت حامية زرعين ثابتة تقاتل اليهود من مسافة قريبة، وهم لا يلقون سبيلاً للتقدم نحو خطوطنا، ولا مخرجا ينهزمون منه للافلات من نيراننا. اما نورس فقد وصلت اليها سرية الهجوم الاولى ، واليهود فيها بين نارين. وأخذت هذه السرية مع حامية نورس ، تطاردهم منهزمين نحو الطريق العام عفولة – بيسان. فأوقعت هزيمتهم في صندلة ونورس، قواتهم في زرعين في خطر التطويق المباشر. وفي تمام الساعة العاشرة ، ظهر على طريق بيسان – عفولة رتل من المصفحات والدبابات البريطانية انذر قائدها الفريقين بالكف عن القتال، والا اضطر الى التدخل في المعركة. وكان واضحا ان اليهود استنجدوا بالبريطانيين لانقاذ قواتهم من المصير الذي كان مقررا لهما.

ومن الفضول القول ان كفة اليهود، لو كانت هي الراجحة في القتال، لما تدخل الجيش البريطاني الذي كان هذا شأنه دائماً في كل معركة بيننا وبين اليهود. على ان جنودنا لم يكفوا عن اطلاق النار، حتى تقدم بعض الدبابات البريطانية وأخذ يصب قنابله عليهم، فأصيب جنديان من سرية سعدون في زرعين، توفي احدهما فيما بعد متأثراً من جراحه. وكان من المفروض ان نتجنب الاصطدام بالبريطانيين، خشية ان يكون في اصطدامنا بهم، مصلحة لليهود. وحوالي الساعة الواحدة توقف إطلاق النار. وانسحب اليهود تحت حماية الدبابات البريطانية التي مكنتهم من سحب كثير من قتلاهم وجرحاهم، تاركين كثيرا من معداتهم في ساحة المعركة، على ان عدد القتلى الذين لم يتمكنوا من نقلهم لم يقل عن المائة والعشرين. ولعل احسن وصف لهذه المعركة هو ما وصفه بها مراسلو الصحف الاميركية والانكليزية الذين جاؤوا يطلبون الاطلاع على تفاصيلها، فأرسلت معهم اثنين من ضباطنا الى ساحة المعركة، وبعد ان جالوا فيها، عادوا يقولون، انهم لا يعرفون معركة في الحرب العالمية لا تتجاوز منطقتها منطقة هذه المعركة مساحة، شوهد فيها من الدماء والاشلاء وظروف الرصاص الفارغة ما شاهدوه في هذه البقعة. وعلى اننا كنا في المعارك التي نختار نحن ان نخوضها، أو تلك التي نحمل

على خوضها، أخشى ما نخشاه فيها، ان يفرغ عتادنا قبل ان نفرغ من المعركة.

* * *

المعارك في منطقة عارة :

وتلقيت من جديد معلومات تثبت ان هناك تحشدات يهودية كبيرة في منطقة عارة، مما دعاني الى توقع خوض معركة جديدة قد تكون أشد من معركة زرعين، وأنا لا أستطيع ان أنسى اننا قبل ان نخوض معركة زرعين ، ببضعة أيام، كنا في حالة حرجة جداً من ناحية العتاد، مما اضطرني الى ارسال البرقية التالية الى القيادة العامة :

١٦-٤-١٩٤٨ رقم ٢٥١

المعارك الجارية في منطقتنا هي مع النخبة الممتازة والقوة الاساسية في جيش «الهاغانا»، منها معارك اختيارية نستطيع تجنبها ومنها ما نرغم على خوضه، فاذا كان لا يوجد عتاد عندكم ولا يمكن تأمين عتاد فبأي وسيلة تطلبون الدفاع والصمود في القتال ؟ الجامعة قررت الحرب وهي ملزمة بتأمين وسائل الحرب.

الامضاء – فوزي

ومع ذلك لم ترسل الينا القيادة العامة عتاداً، ولا أخباراً عن العتاد. ولكن أخبار التحشدات اليهودية، كانت ترد علينا كل يوم، وأخذنا كالعادة، نعد ما يلزم من الترتيبات، ونجمع ما يمكن جمعه بالتقتير من جبهات مختلفة ونسوقه الى منطقة عارة. وقبل ان تتم ترتيباتنا الترقيعية هذه ، فاجأنا اليهود ليلة ٢٤-٢٥ نيسان بهجوم مزدوج قامت به قوات كثيفة من مجموعة المستعمرات الواقعة شمالي شرقي الخضيرة، باتجاه قرية عارة، وكفر قرع – عارة، يدعمها عدد كبير من المدافع الرشاشة ومدافع الهاون، فاكتسحت كل ما كان لنا من مراكز أمامية غربي طريق اللجون – وادي عارة. وتمركز الهجوم على عارة، حيث كانت سرية من سرايانا لا تزال تدافع باستماتة. فاضطررت الى ان أقذف بحرس مقر القيادة الى عرعرة، حيث تجمع لدينا سرايا ثلاث، للصمود في وجه العدو، وقبول المعركة نهائياً في هذه المنطقة. وفي فجر ٢٥ نيسان اضطرت السرية التي كانت تدافع عن عارة، إلى التخلي عنها،

والتراجع الى عرعرة، فتدفقت قوات العدو واستولت على طريق اللجون – وادي عارة، واجتازته نحو الشرق باتجاه عارة نفسها. وحوالي الساعة الثامنة والدقيقة الثلاثين، بدأ الاشتباك الحقيقي في هذه المنطقة، واشتركت فيه قواتنا كافة. كان هجوم العدو يزداد حدة ساعة بعد ساعة. كان العدو يرمي من هجومه هذا، الى فصل منطقة اللجون بأسرها، عن جنين، وبالتالي النفوذ عن طريق يعبد الى عرابة ، فيعزل بذلك منطقة جنين كلها شمالاً، عن نابلس ومنطقتها جنوباً. وبذلك يكون قد حقق غرضه الذي فشل في تحقيقه في معارك زرعين. وفي الدقيقة التي كانت المعركة في أوج شدتها، وطلبات العتاد ترد عليّ بإلحاح من خطوط النار، كنت أبحث عن طريقة أنهي بها المعركة بأسرع ما يمكن دون مبالاة بما يلزم من الضحايا اذا اقتضى الامر. فانقاذ جنين ومنطقتها، شيء يستحق التضحية. لذلك لم يبق أمامي الا ان أجازف وأزحف بكل ما لديّ من قوات في اللجون الى أم الفحم، واستنفر أكبر عدد ممكن من المسلحين المحليين في منطقة أم الفحم وأقذف بهم في هجوم مضاد، الى ساحة المعركة على الجناح الايسر اليهودي المكشوف، وأسرع بارسال مصفحتين مع فصيل مدفعية كان في المقر الى الميدان. وحوالي الساعة الثانية عشرة كانت هذه القوة، قد اخذت مراكزها في أم الفحم، وأخذ شيء من الضعف يبدو على قواتنا في خط النار، لقرب نفاذ العتاد. ولكنها مع ذلك صامدة بالرغم من كثرة ماكان يقع فيها من اصابات. وفي هذه اللحظة انطلقت قوة أم الفحم في هجومها المضاد نحو قرية معاوية، وما هي الا دقائق حتى اجتازت الطريق نحو الغرب، والتفّت حول عارة، فأصبحت وراء الجناح اليهودي الايسر تماماً، وأخذت تصب نيران رشاشاتها ومدافعها الهاون، على هذا الجناح. وفتحت مدفعيتنا الرابضة في جوار أم الفحم أفواهها، تصب قنابلها على صفوف اليهود بشدة وإحكام، فتزعزعت القوات اليهودية، وأخذت بالارتداد نحو الغرب. واندفع جنودنا يطاردون قوات العدو الذي انقلب تراجعه الى هزيمة، ولم استطع ايقاف جنودنا قبل وصولهم الى ابواب المستعمرة التي بدأ منها هجوم اليهود. وفي فترة المساء، قبيل نزول الظلام امرت الجنود بالعودة الى مراكزهم التي كانوا قد تخلوا عنها، وبدأت فترة من الراحة يرافقها شيء من التحصين.

كان الشبه بين هذه المعركة وبين معركة زرعين، كبيراً من حيث قوة الهجوم

وأهدافه ونهايته. ولم ينقص المسرح، الا ظهور الدبابات البريطانية التي كانت بعيدة هذه المرة عن ساحة المعركة.

* * *

المعارك على جبهة طولكرم :

كان لتسلمي قيادة الجبهة الوسطى، وارسال فوجين اليّ من دمشق، وبدء تنظيم قواتنا في تلك الجبهة ، تأثير كبير على خطط اليهود، المتعلقة بفتح طريق باب الواد – القدس، خصوصاً بعد ان أمرت القيادة العامة، السيد حسن سلامة، ومن معه من قوات المسلحين المحليين، بالانضواء تحت قيادة جيش الانقاذ. وحينما بدأنا تنظيم قوات هذه المنطقة التي كان قد استفحل فيها امر الفوضى، ولكننا تغلبنا عليها، وجعلنا من المنطقة صفا واحدا تقريبا، شعر اليهود بالامر ، وأوجسوا خيفة لما قد يشكل هذا من خطر على خططهم في باب الواد والقدس. وحسبوا اننا سحبنا جزءا كبيراً من قواتنا في المثلث العربي، وأتينا بها الى هذه المنطقة، فوجهوا اهتمامهم الى جبهتنا في المثلث وحاولوا القضاء على حاميتنا في زرعين وعارة. فلما فشلوا كما سبق وبينت، حاولوا هذه المرة مهاجمة جبهة طولكرم، ليرغمونا على اعادة ما تصوروا اننا اتينا به من قوة الى تلك الجبهة فيتسنى لهم تنفيذ خططهم في الجنوب، أي منطقة باب الواد – القدس. وجبهة طولكرم هذه ، تمتد شمالاً من خربة الشيخ ميسر حتى جنوب رأس العين، باتجاه اللد، وكانت بإمرة الرئيس مدلول عباس. وهي بجملتها اراض سهلية تتخللها بيارات ومزارع عربية ويهودية كثيرة. وكانت مسرحاً لمناوشات ومعارك مستمرة، بسبب تداخل المزارع والبيارات العربية واليهودية، بعضها بالبعض الآخر، وكثرة ما يقتضيه مثل هذا الوضع، من اختلاط ومن تشارك دوريات، مما كان عاملاً من عوامل اسالة الدماء بشكل غير منقطع تقريباً، طوال مدة وجودنا هناك. وهذه الجبهة تقع بإزاء أشد المستعمرات كثافة.

وفي ٢٦ نيسان ١٩٤٨ وردت عليّ أخبار تحشدات كبيرة في المستعمرات القائمة غربي قلقيلية، وفي شمالي غربي قاقون. فأنذرت آمر الجبهة في الحال، وطلبت منه ان يتخذ الترتيبات اللازمة ضد هجوم محتمل على قلقيلية وقاقون. وفي ليلة ٢٦–٢٧ نيسان حوالي الساعة الثالثة والعشرين انفجر هجوم قوي باتجاه قاقون،

والتراجع الى عرعرة، فتدفقت قوات العدو واستولت على طريق اللجون – وادي
عارة، واجتازته نحو الشرق باتجاه عارة نفسها. وحوالي الساعة الثامنة والدقيقة
الثلاثين، بدأ الاشتباك الحقيقي في هذه المنطقة، واشتركت فيه قواتنا كافة. كان
هجوم العدو يزداد حدة ساعة بعد ساعة. كان العدو يرمي من هجومه هذا، الى
فصل منطقة اللجون بأسرها، عن جنين، وبالتالي النفوذ عن طريق يعبد الى
عرابة ، فيعزل بذلك منطقة جنين كلها شمالاً، عن نابلس ومنطقتها جنوباً.
وبذلك يكون قد حقق غرضه الذي فشل في تحقيقه في معارك زرعين. وفي الدقيقة
التي كانت المعركة في أوج شدتها، وطلبات العتاد ترد عليّ بإلحاح من خطوط
النار، كنت أبحث عن طريقة أنهي بها المعركة بأسرع ما يمكن دون مبالاة بما يلزم
من الضحايا اذا اقتضى الامر. فانقاذ جنين ومنطقتها، شيء يستحق التضحية.
لذلك لم يبق أمامي الا ان أجازف وأزحف بكل ما لديّ من قوات في اللجون الى
أم الفحم، واستنفر أكبر عدد ممكن من المسلحين المحليين في منطقة أم الفحم وأقذف
بهم في هجوم مضاد، الى ساحة المعركة على الجناح الايسر اليهودي المكشوف،
وأسرع بارسال مصفحتين مع فصيل مدفعية كان في المقر الى الميدان. وحوالي
الساعة الثانية عشرة كانت هذه القوة، قد اخذت مراكزها في أم الفحم، وأخذ
شيء من الضعف يبدو على قواتنا في خط النار، لقرب نفاذ العتاد. ولكنها مع
ذلك صامدة بالرغم من كثرة ماكان يقع فيها من اصابات. وفي هذه اللحظة
انطلقت قوة أم الفحم في هجومها المضاد نحو قرية معاوية، وما هي الا دقائق حتى
اجتازت الطريق نحو الغرب، والتفّت حول عارة، فأصبحت وراء الجناح اليهودي
الايسر تماماً، وأخذت تصب نيران رشاشاتها ومدافعها الهاون، على هذا الجناح.
وفتحت مدفعيتنا الرابضة في جوار أم الفحم أفواهها، تصب قنابلها على صفوف
اليهود بشدة وإحكام، فتزعزعت القوات اليهودية، وأخذت بالارتداد نحو الغرب.
واندفع جنودنا يطاردون قوات العدو الذي انقلب تراجعه الى هزيمة، ولم استطع
ايقاف جنودنا قبل وصولهم الى ابواب المستعمرة التي بدأ منها هجوم اليهود. وفي
فترة المساء، قبيل نزول الظلام امرت الجنود بالعودة الى مراكزهم التي كانوا قد تخلوا
عنها، وبدأت فترة من الراحة يرافقها شيء من التحصين.

كان الشبه بين هذه المعركة وبين معركة زرعين، كبيراً من حيث قوة الهجوم

وأهدافه ونهايته. ولم ينقص المسرح، الا ظهور الدبابات البريطانية التي كانت بعيدة
هذه المرة عن ساحة المعركة.

* * *

المعارك على جبهة طولكرم :

كان لتسلمي قيادة الجبهة الوسطى، وارسال فوجين اليّ من دمشق، وبدء
تنظيم قواتنا في تلك الجبهة ، تأثير كبير على خطط اليهود، المتعلقة بفتح طريق باب
الواد – القدس، خصوصاً بعد ان أمرت القيادة العامة، السيد حسن سلامة، ومن
معه من قوات المسلحين المحليين، بالانضواء تحت قيادة جيش الانقاذ. وحينما بدأنا
تنظيم قوات هذه المنطقة التي كان قد استفحل فيها امر الفوضى، ولكننا تغلبنا
عليها، وجعلنا من المنطقة صفا واحدا تقريبا، شعر اليهود بالامر ، وأوجسوا خيفة لما
قد يشكل هذا من خطر على خططهم في باب الواد والقدس. وحسبوا اننا سحبنا
جزءا كبيراً من قواتنا في المثلث العربي، وأتينا بها الى هذه المنطقة، فوجهوا
اهتمامهم الى جبهتنا في المثلث وحاولوا القضاء على حاميتنا في زرعين وعارة. فلما
فشلوا كما سبق وبينت، حاولوا هذه المرة مهاجمة جبهة طولكرم، ليرغمونا على
اعادة ما تصوروا اننا اتينا به من قوة الى تلك الجبهة فيتسنى لهم تنفيذ خططهم في
الجنوب، أي منطقة باب الواد – القدس. وجبهة طولكرم هذه ، تمتد شمالا من
خربة الشيخ ميسر حتى جنوب رأس العين، باتجاه اللد، وكانت بإمرة الرئيس مدلول
عباس. وهي بجملتها اراض سهلية تتخللها بيارات ومزارع عربية ويهودية كثيرة.
وكانت مسرحاً لمناوشات ومعارك مستمرة، بسبب تداخل المزارع والبيارات العربية
واليهودية، بعضها بالبعض الآخر، وكثرة ما يقتضيه مثل هذا الوضع، من اختلاط
ومن تشارك دوريات، مما كان عاملاً من عوامل اسالة الدماء بشكل غير منقطع
تقريباً، طوال مدة وجودنا هناك. وهذه الجبهة تقع بإزاء أشد المستعمرات كثافة.
وفي ٢٦ نيسان ١٩٤٨ وردت عليّ أخبار تحشدات كبيرة في المستعمرات القائمة
غربي قلقيلية، وفي شمالي غربي قاقون. فانذرت آمر الجبهة في الحال، وطلبت منه
ان يتخذ الترتيبات اللازمة ضد هجوم محتمل على قلقيلية وقاقون. وفي ليلة
٢٦–٢٧ نيسان حوالي الساعة الثالثة والعشرين انفجر هجوم قوي باتجاه قاقون،

ثبتت الحامية الصغيرة بوجهه مدافعة عن القرية ببسالة نادرة، وطلب آمر الجبهة نجدة للاستمرار في الثبات. ولكنني فضلت ان أتريث قليلاً، ونحن في بداية معركة مجهول تطورها ومصيرها، بالنظر للوضع الذي كنت فيه، الذي لا يسمح لي بارسال جندي واحد أو طلقة واحدة، للنجدة، قبل ان تنكشف المعركة عن الحاجة القصوى اليها. وكنت مصمما من جهة اخرى، ان أعالج الموقف بما لديّ من قوات ضئيلة، دون أن أسحب قوة ما، من الجبهة الوسطى، التي كنت أخشى عليها خللا يصيبها اذا أنا فعلت. وأعددت مفرزة للنجدة من سرية الشراكسة في نابلس، وسرية عارة ويعبد، وزودتها بأربع مصفحات ومدفعين، فتكون جاهزة للاشتراك في المعركة عند الضرورة القصوى. وفي خلال هذا، كان اليهود يتقدمون نحو قاقون، الى ان تمكنوا من دخولها بعد منتصف ليل ٢٦–٢٧ نيسان، وراحوا يتقدمون من قاقون شرقاً نحو الطريق العام بين طولكرم وباقة. وعندئذ، ارسلت قسما من النجدة التي كنت أعددتها الى الرئيس مدلول، الذي تمكن بمساعدتها وفريق من المسلحين المحليين، ان يقوم بهجوم مضاد، فيسترد قاقون ويهزم اليهود الى خطوطهم الاساسية ويغنم منهم كثيراً من السلاح والتجهيزات. وما أن طلعت شمس ٢٧ نيسان حتى استعدنا كل ما كنا خسرناه، رغم المصاعب الشديدة التي اعترضت قواتنا في تلك الاراضي المتحولة الى شبه بحيرة من مياه ووحل. وكان القتال على مسافة قريبة لا يزيد مداها عن مدى مرمى القنابل اليدوية، التي استعملت في المعركة بدلا من الحراب وكانت العامل الحاسم فيها. وما كادت معركة قاقون هذه تنتهي، حتى بدأ هجوم يهودي أشد باتجاه الطيرة وقلقيلية جنوباً، ثم تركز تدريجيا على الطيرة. فانكشفت لي أغراض الهجوم وخطورته، فأرسلت فوراً البقية من النجدة التي كنت أعددتها لجبهة طولكرم، ودارت معركة حامية بذل اليهود فيها أكبر مجهود، للاستيلاء على الطيرة. على ان حامية هذه القرية ثبتت ثباتا عجيبا، حتى وصل الرئيس مدلول ومعه بقية النجدة. وكانت ترافق هذا الهجوم على الطيرة مصفحات يهودية كثيرة، عرفنا بينها مصفحات انكليزية، فوصلت مصفحاتنا في اللحظة المنشودة تماماً، وكان جنودنا بمساندة المدفعية وحماية المصفحات، يستبسلون في القتال، الى ان تعطل من مصفحات العدو قسم كبير، واستولى جنودنا على مصفحة يهودية استعملوها في المعركة

نفسها لمقاتلة العدو. وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر، كانت القوات اليهودية على طول الجبهة في حالة هزيمة تامة، وطاردهم جنودنا حتى مستعمرة «كفارهس»، وهناك دارت بين الفريقين معركة استولى فيها جنودنا على المستعمرة. ثم أبرق لي الرئيس مدلول ان اليهود قاموا بهجوم جديد على قرية كفرسابا العربية بالقرب من قلقيلية. فطلبت منه ان يتخلى حالا عن «كفارهس»، ويتجه بقواته الى كفرسابا حيث انتقل ثقل الهجوم. فترك مفرزة من قواته امام مستعمرة «كفارهس» لمناوشة أية قوة يهوديةقد تأتي لنجدة المستعمرة، واتجه الى قرية كفرسابا حيث أنهى المعركة فيها بدحر اليهود وتكبيدهم خسائر كثيرة. على أن اغتباطي بهذا الانتصار لم يكن ليخفف من قلقي، فقد كنت ألمس نفاذ العتاد في كل خط من خطوط القتال، وأنا أتوقع ان نحمل على خوض معارك قبل ان يصل لنا من العتاد الذي «وعدونا به» كثير أو قليل. وكان سخاء اليهود بالعتاد وما يبدو من زيادة التنظيم في صفوفهم يزيدان في قلقي، على ان انتصارات جيش الانقاذ المتتالية بالرغم من قلة العتاد، كانت تجعل معنويات جنودنا في ارتفاع مستمر.

* * *

تفاقم الخطر على الجبهة كلها

مدفعية جيش الانقاذ تقصف تل أبيب

كان طبيعيا أن تنسحب الكتيبة الاردنية المعسكرة في العفولة، بعد انسحاب الجيش البريطاني، وتصبح مطلقة التصرف. وقد اتخذت هذه الكتيبة لها معسكرين، نابلس ورام الله. ورحت أتصور ان هذه الكتيبة الاردنية ستكون قوة احتياطية فعالة لجبهتنا في طولكرم ورام الله. ولكن سرعان ما دوت هذه الآمال، بعد اتصالي بقواد الكتيبة، ومعرفتي منهم، انهم لا يستطيعون ان يقوموا بأي عمل أو حركة على الاطلاق، قبل دخول الجيوش العربية النظامية. على ان هذه الكتيبة، ما كادت تستقر في معسكراتها، حتى عمد ضباطها الى الاتصال باللجان القومية ووجوه المناطق، وبدأت مآدب وحفلات تقام لهؤلاء الضباط. فتدخلت في الامر، على اعتبار ان الظروف القائمة، كانت تفرض الامتناع عن مثل هذه المظاهر، عدا انني كنت أخشى ان تتسبب هذه المظاهرات، تهديم أو تصديع ما كنا بنيناه، من

وحدة في الصفوف نسبية.

وتسلمت برقية من القيادة العامة، تسند اليّ قيادة الجبهة الوسطى، وانها قررت ارسال فوجين من المشاة، هما في طريقهما الى فلسطين، ولكن بدون مدفعية ولا مصفحات. وتلت هذه البرقية ، برقية اخرى تقول بضرورة ارسال فوج من هذين الفوجين الى القدس، نظراً لخطورة الحالة فيها، وتجنبا لسقوطها بين أيدي اليهود. وكانت الحالة في يافا التي طوقها اليهود وانقطع الاتصال بها، لا تقل خطورة عنها في القدس. كما كانت الحالة في بيسان وصفد وطبريا وحيفا سيئة جداً. وأمام هذا الوضع الخطر العام ، فكرت في أن أباحث القيادة العامة في الامر، فاستدعتني الى دمشق، وفور وصولي قابلت اللواء اسماعيل صفوة، وبسطت له الموقف بتفصيل ووضوح. فأجابني متأثراً، «ما العمل وهذه امكانياتنا كلها... اصبر قليلاً، فستدخل الجيوش العربية النظامية قريباً، وينقلب الموقف رأساً على عقب...».
وبينما كنت ألح عليه في تدبير مايمكن من عتاد، مهما يكن من أمر، اذا ببرقية ترد تقول ان يافا على وشك السقوط، اذا لم تنجدها القيادة العامة. فمد اليّ يده بالبرقية وقال: «انجد يافا يا فوزي، ان ضياع يافا كارثة». قلت: «انجدني بالعتاد، وسترى انني انقذ يافا». فانجدني وعداً ولم ينجدني عتاداً... وأنا الذي كنت اعرف ان حالة يافا، لا ينفع فيها الوعد، قررت بيني وبين نفسي أن أنجد يافا عملياً، وليحدث مايحدث. وكانت الحال في غير يافا أيضاً، في فلسطين كلها، عدا المنطقة التي يشغلها جيش الانقاذ، سيئة، وصرخات الاستغاثة توجه الينا من كل ناحية، وأوامر وتعليمات ترد علينا من دمشق ، القيادة العامة، ومن مصر، الجامعة العربية ، ومن بيروت، تحثنا على النجدة. وقد تلقيت بتاريخ ٣٠ نيسان الساعة الحادية عشرة والدقيقة الاربعين، ليلاً، من اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الدول العربية من دمشق الرسالة الآتية أثبتها بنصها :

أخي فوزي بك

تبين من نتيجة المخابرات الهاتفية مع القدس بين قائد الحامية وحلمي باشا ودولتي رياض بك الصلح وجميل مردم بك بأن وضع القدس سيء جداً وتحتاج الى النجدة وخاصة المدفعية. وقد أمراني (يعني رياض الصلح وجميل مردم) بأن

أكتب إليكم وأبلغكم رجاءهما بلزوم نجدتهما، وقد أرسلنا إليكم أربع برقيات منذ الساعة الرابعة حتى الآن، لذلك ارجو أن تبذلوا جهدكم بارسال هذه النجدة مع تأكدنا بأنكم خير من ينجد في الاوقات الحرجة، وختاماً أرجوكم الموفقية.

المخلص

العقيد محمود الهندي

ومثل هذه الرسالة، رسائل وبرقيات كثيرة، كانت ترد عليّ من مراجع مسؤولة مختلفة. وهذه نموذج من تلك الرسائل وهي من القائد العام نفسه، وبخط يده، يظهر انها نتيجة ضغط الجامعة العربية عليه :

٢ أيار ١٩٤٨

موقف حامية القدس أصبح في منتهى الحراجة. الحامية تكبدت خسائر فادحة، وهبط موجودها الى عدد ضئيل، وتخرب قسم كبير من اسلحتها. بعد أيام ستحتشد قوات نظامية وتشرع بحركاتها، وعليه لا مانع أبدا من استخدام بعض قواتكم في سبيل المحافظة والدفاع عن القدس ويافا، وبصورة خاصة مدينة القدس. وبوجه اجمالي القيام بما يسمح به موقفكم لتخفيف الضغط عن الحامية والاحتفاظ بمدينة القدس مهما كلفكم الامر، ولو أدى ذلك الى اخلاء بعض المواقع الثانوية.

الامضاء – القائد العام لجيش الانقاذ

« صفوة »

أمام هذا الضغط من القيادة العامة ، ومن اللجنة العسكرية التي تمثل جامعة الدول العربية، هذه المراجع التي أشرفت هي نفسها على اعداد جيش الانقاذ، والتي تعلم ضآلة عدده ومعداته، والتي كانت تصم آذانها عن طلبه السلاح والعتاد، كلما احتاج الى ذلك، وهو لم ينقطع حاجته الى ذلك ابداً، وهذه المراجع كلها، وخصوصاً القيادة العامة واللجنة العسكرية، تعلم علم اليقين ان جيش الانقاذ لم يتجاوز عدده يوما، ثلاثة آلاف مقاتل وان معداته لم تتجاوز عشرة بالمائة ، كما ينبغي لجيش يشغل جبهة واسعة كجبهته ، بالنسبة لعدده. ومهما يكن من أمر،

فقد اضطررت، الى سحب مفارز من قواتنا المتمركزة في المنطقة وتوزيعها على منطقة القدس واللد والرملة وسلمة والعباسية وبيسان، مما استنفذ كثيراً من قواتنا الاساسية والاحتياطية ايضا، كما كانت المعارك تستنفذ عتادنا أو القسم الاكبر منه. وكنت أعتمد، في تلبية هذه الصرخات، قاعدة «الاهم فالمهم».

وبالرغم من هذا كله، يجب ان تنجد يافا التي كانت تلفظ انفاسها الاخيرة. فكرت كثيراً وانا عائد من دمشق الى فلسطين. وأبرقت الى مقر القيادة في جبع، لتشكيل رتل مرتب من بطارية مدفعية واربع مصفحات ، ومن سريتين، بقيادة العقيد مهدي صالح، يقوم بفتح الطريق بين اللد والرملة، وبين يافا، لتمكين قوة اجنادين من الدخول بكاملة الى يافا. وأصدرت أوامر مشددة الى آمر فوج اجنادين بتسلم قيادة الحامية فيها للسيطرة على الموقف واعادة تنظيم القوات المحلية المقاتلة، والثبات في الدفاع مهما يكلف الامر، الى ان تدخل الجيوش العربية النظامية. وفي خلال اربع وعشرين ساعة تألف هذا الرتل، وما أن وصلت الى مقر القيادة الا وكان مستعداً لمغادرة منطقة المثلث، والزحف امام فوج اجنادين على يافا. وفي فجر ٢٩ نيسان انطلق الرتل نحو المدينة العربية، فتصدت له في طريقه قوات يهودية استطلاعية، ولكنها لم تثبت في وجهه، وانهزمت متفرقة في المستعمرات اليهودية واستمر الرتل في تقدمه بسرعة الى ان وصل الى مستعمرة «ميكفي اسرائيل» المتحكمة بطريق يافا، ونشبت بينه وبينها معركة حامية، قصفت فيها مدفعيتنا ابراج المستعمرة، فانهزم سكانها، وتابع الرتل تقدمه، ملتزماً جانبي الطريق العام، متخذاً تدابير الحماية اللازمة الى ان دخل الفوج يافا. وهنا انتهت مهمة الرتل، فاتخذ طريق العودة الى قاعدته، ولكنه توقف وهو بعد على مسافة اربعة كيلومترات تقريباً عن تل أبيب، واستدارت بطارية المدفعية – وكان لا يزال لديها ستون قنبلة – نحو تل أبيب فصبتها عليها بسرعة وبراعة، وكانت مفاجأة، المرة الاولى والاخيرة التي فيها ضربت مدفعية عربية مدينة تل أبيب.. ولم يتيسر لجيش من الجيوش العربية النظامية التي دخلت فلسطين فيما بعد ومعها مدفعية ثقيلة وبعيدة المدى، ان تصل الى مكان تستطيع منه ان تقذف بمدفعيتها الثقيلة والبعيدة المدى تل أبيب. وقد كان لهذا القصف عدا تأثيره المعنوي الكبير، تأثير مادي تجلى فيما تركته القنابل من خراب ومن حرائق شوهدت نيرانها من القرى المجاورة. وفي الوقت نفسه

كانت الاحياء اليهودية في القدس تنصب عليها قذائف مدفعية جيش الانقاذ، فتحدث فيها كثيرا من الحرائق والتهشيم، وكان لهذه العملية تأثير كبير في رفع معنويات الفلسطينيين كافة. وهكذا كان يحدث دائما في الآونة الاخيرة أي قبيل دخول الجيوش العربية النظامية ، فكان كل فلسطيني لا يشعر بالطمأنينة الا اذا وجد في مدينته أو قريته قوة من جيش الانقاذ، مع المدفعية. وكان معنى ذلك اما قوة من جيش الانقاذ معها مدفعية، في كل مدينة وكل قرية، وإما نزوح، عن كل مدينة وكل قرية.

* * *

أسرار الجيوش العربية بين ايدي اليهود

كانت الاخبار التي ترد علينا، من عواصم البلدان العربية، ومن نواحي فلسطين على اختلاف المصادر، تؤكد وصول نجدات وأسلحة وذخائر الى اليهود، من انحاء اوروبا. وكنت أتوقع دائما نشوب معارك كبيرة نرغم على خوضها في مراكز متعددة من جبهاتنا، خاصة في منطقة القدس، التي كانت حالة اليهود فيها بدأت تنحط معنويا وماديا الى حد بعيد. وكنت قد رأيت أن الحاحي الشديد في طلب النجدات والعتاد، لا يأتي بأية نتيجة، فألححت على القائد العام اسماعيل صفوة، والمفتش العام العميد الركن طه الهاشمي، ان يزورا جبهة القتال ليتبينا بنفسيهما حقيقة الواقع. فأرسلا لهذا الغرض المقدم شوكت شقير عضو اللجنة العسكرية العاملة باسم جامعة الدول العربية، فبينت له خطورة وقلة عدد الجنود والعتاد بالنسبة لاتساع الجبهة، وحالة الجنود المادية المتصلة بالملابس والاعاشة، عدا ما أصابهم من الضنك بالنسبة للمعارك المستمرة التي كادت تنهك قواهم، لانه لم يتح لهم وقت من الراحة خلال عدة أشهر، لعدم وجود قوات احتياطية. وطلبت اليه ان يزور نواحي الجبهة كلها، ويدرس الوضع بنفسه. وجاءني المقدم شقير بعد تفتيشه الجبهة مبهوتا، وبادرني بقوله: «ان جبهتكم كلها في خطر شديد، وليس هناك جيش نظامي يجرؤ على ان يشغل مثل هذه الجبهة اذا كان يريد ان يحافظ عليها فعلاً». فقلت له : «لقد أصبح من واجبك اذن ان تنقل بأمانة مارأيته الى القيادة العامة والمفتشية العامة، فقد يبعث تقريرك فيهما الشعور بالمسؤولية لانقاذ الموقف، قبل ان

تحل بهذا الجيش كارثة تضيعه، وتسبب ضياع اجزاء من فلسطين لن يستطيع بعدها أي جيش ان يستردها.

كنا في جيش الانقاذ نعتمد بعض ترتيبات خاصة للاستيلاء على مصفحات بريطانية من هنا وهناك، والجدير بالذكر ان جيش الانقاذ دخل فلسطين وهو لا يملك أية مصفحة حتى ان سيارات النقل التي خصصت لنقلياته كانت قليلة لدرجة ان المفتشية العامة أرفقتها بعدد من البغال لتكون واسطة النقل الاساسية.. وقد تمكنت مفرزة من مفارزنا المعدة لمثل هذا الامر، من الاستيلاء على مصفحتين بريطانيتين تحرسان سيارة للركاب في احدى الطرقات العامة – وكان ذلك قبل وصول المقدم شقير الى الجبهة بقليل – فاذا بنا نجد في سيارة الركاب هذه أكداسا من الاوراق، بينها تقارير من الوكالة اليهودية الى وزارة المستعمرات البريطانية ومن قيادة «الهاغانا» الى الوكالة اليهودية ومراسلات مختلفة بين الصليب الاحمر الدولي، وهيئات متعددة من اليهود. فسلمت هذه الاوراق الى المكتب السياسي لجيش الانقاذ، وكان فيه من يقوم بالترجمة من العربية الى الانكليزية والعبرية والفرنسية ومن هذه الى العربية. فاذا به يجد بين هذه الاوراق نسخة من تقرير مقدم من القائد العام اللواء اسماعيل صفوة، الى اللجنة العسكرية للجامعة العربية مكتوب باللغة الفرنسية ومرسل من مصر الى بن غوريون، عن طريق القدس. ويتألف هذا التقرير من أربع عشرة صفحة، فيها وصف شامل للحالة العسكرية في فلسطين، ولحالة الجيوش النظامية العربية من مختلف نواحيها، وبكلمة مختصرة يشتمل على كل عورات الدول العربية. فبعد ان أتممت أحاديثي عن الجبهة مع المقدم شقير الذي تحقق من صحتها بنفسه، سألته: «هل قدمتم تقريراً عن الوضع العسكري في فلسطين، وعن حالة الجيوش العربية النظامية، الى اللجنة العسكرية؟» قال: «نعم». قلت: «هل كان التقرير مؤلفاً من أربع عشرة صفحة، وفيه كذا وكذا...» وذكرت له شيئا مما في التقرير؟ فأجابني مبهوتا: «نعم. كيف عرفت بهذا؟ ولم يعرف به بشر غير اللواء صفوة وأنا». قلت: «بلى عرف به غيركما، عرف به اليهود أنفسهم وهذه نسخة منه». وضرب بيده على جيبه وأخرج منها محفظة تناول منها التقرير وقال: «هذه هي النسخة التي أؤتمنت عليها. ولم يكتب من هذا التقرير سوى نسختين، احتفظ باحداهما اللواء صفوة. وسلم الاصل بعد تلاوته في الجلسة الى

السيد عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية». وفي الحقيقة كانت فضيحة، ولكنها لم تكن الاولى ولا الاخيرة. وخشيت ان ينسى المقدم شقير المهمة التي من أجلها جاء لفلسطين من شدة ما اعتراه من ذهول. فقلت له: «هون عليك، هذه النسخة لم تصل لليهود، حاولوا ان تستدركوا ما فاتكم من قبل، لنستطيع الاستمرار في القتال الى ان تدخل الجيوش النظامية». ونهض المقدم شقير وودعني ممتطياً سيارته الى دمشق. ومع ذلك لم يأتنا مدد من هناك....

* * *

تعدد الرؤوس والصلاحيات المتناقضة

فصلت فيما سبق كيفية دخول فوج اجنادين الى يافا وهي تلفظ أنفاسها الاخيرة. وقد كان لدخوله أثر شديد في ارتفاع معنويات المدينة ولكنه كان آنيا. وكنت أترقب ان يتمكن الفوج من فرض سيطرته على قوات الحامية في يافا، وان يعيد تنظيمها بشكل يجعل منها قوة تستطيع الصمود في الدفاع الى حين وأنا أعلم ان في يافا كميات من السلاح والعتاد، تساعد على استمرار الدفاع الى مدة قصيرة وهذا لم يتيسر للفوج ان يفعله، لما كان يسود المدينة من فوضى وتضارب في المسؤوليات والصلاحيات. وقد كانت اللجنة العسكرية في دمشق، عينت المقدم عادل نجم الدين آمراً لحامية يافا المرتبطة بها رأساً. وكان الى جانب جنود هذه الحامية، سرية يمانية شديدة البأس لعبت دوراً هاماً في ميادين القتال، حتى النهاية، ومفرزة يوغسلافية متخصصة بالهندسة وأعمال التدمير. وكانت الحالة في يافا كمايلي:

أولاً – سوء ادارة وتصرفات كيفية من المقدم عادل نجم الدين.

ثانياً– بلبلة في الصفوف سببتها اللجنة القومية في يافا التي كانت تأبى تأمين احتياجاتها من شرقي الاردن.

ثالثاً – فكرة الانقياد الى تعليمات الهيئة العربية العليا. وزاد في الفوضى، رفض حسن سلامة التعاون مع المقدم عادل، الا اذا رضي هذا الاخير التقيد بأوامره. وكنت أرفقت آمر فوج اجنادين بعد الاتفاق مع القيادة العامة في دمشق، بأمر

يقضي بانسحاب المقدم عادل نجم الدين، وعودته بمفرده الى دمشق، على ان يتسلم آمر فوج اجنادين قيادة الحامية. وعندما اشتدت الحالة خطورة في يافا، غادرها حسن سلامة الى منطقة اللد والرملة. وجاءني من اللجنة القومية في اللد، واختها في الرملة وفد الى مقر القيادة يتذمر من أعمال حسن سلامة، وانهم لا يطمئنون في حال، الى وجوده فيما بينهم، فأرسلت آمر فوج حطين الى اللد والرملة للتنظيم والسيطرة على الموقف. وبقيت مفرزتان من جيش الانقاذ في المدينتين لحمايتهما الى أن وصل الجيش العربي الاردني فانسحبتا الى جبهة طولكرم.

ان حالة يافا كما وصفتها، حالت بين آمر فوج اجنادين وبين فرض سيطرته، والقيام بما كان يرجوه من تنظيم، وبقيت الفوضى مستحكمة، تزداد كلما ازداد الضغط اليهودي شدة. وقد تلقيت من آمر فوج اجنادين بعد وصوله الى يافا البرقية التالية:

٢–٥–٤٨ الساعة ١٢ر٤٥

عادل غادر المدينة مع العراقيين واليوغسلافيين بحراً، المدينة ستكون مقفرة من السكان بعد اليوم. مقدرة المدينة على تموين ما تبقي من الحامية ضعيفة. أنذر البريطانيون اليوم بوجوب ايقاف الرمي من الطرفين حتى نصف الشهر الحالي. في حال عدم الامتثال سيطلق الجيش البريطاني النار.

آمر فوج اجنادين

الامضاء

كانت المدة التي فرضها البريطانيون للهدنة، وتقيد بها العرب دون اليهود، تسهل لهؤلاء التغلغل في يافا. مما أدى الى انهيار العرب ونزوحهم.

ومثل حالة العرب هذه في يافا، كانت حالة اليهود تماما في القدس، خاصة بعد ان دخلتها قوة جديدة من جيش الانقاذ، مع مدافع هاون من عيار ٧ر٥ بالاضافة الى فوج القادسية الذي كنت ارسلته اليها من قبل. وأخذت القوات اليهودية تستميت في القتال، لكي تتمكن من دخول القدس وانقاذ اليهود فيها مما كانوا يعانون من الشدة والجوع والعطش. وكاد نشاطهم هذا يؤدي الى سقوط

القدس بين ٤–٥ أيار. فصممت عندئذ ان أعمل حتى المستحيل لأحول دون تحقيق رغبة اليهود. وقررت ان أقوم بعملية هجوم على القدس من الداخل، بواسطة حاميتها ومن الخارج بقوى جيش الانقاذ المتمركزة في نقاط مختلفة من الجبهة، لتحطيم المحاولات اليهودية، مهما يكن من كثرة الضحايا التي يمكن ان يتطلبها مثل هذا الهجوم. وأبرقت الى آمر حامية القدس الرئيس فاضل عبد الله، ان يجمع ما يمكن جمعه من قوة يدعمها بكل ما عنده من مدافع هاون ورشاش ويهاجم في صباح ٥ أيار القطمون والشيخ جراح بينما نقوم نحن بكل ما نستطيع حشده من قوى ومدفعية بهجوم من الخارج. ورحت طيلة الليل أجمع مدفعية جيش الانقاذ من بعض نواحي الجبهة كالنبي صموئيل وبيت سوريك وغيرهما، وأحشدها في المواضع اللازمة. وفي صباح ٥ أيار، بدأ الهجوم وفقاً للخطة التي كنت قررتها، وبشكل لم تكن القدس شهدته بعد. فكانت مفاجأة تركت مفعولاً كبيراً جداً تمكّنا معه من استرداد الاحياء التي كان فقدها العرب من قبل، وتحطيم المحاولة اليهودية في القدس. وفي صباح السادس من أيار جاءني الكولونيل البريطاني نلسون الى رام الله، ينذرني بلهجة شديدة ان لا أعود الى مثل ذلك قائلاً: «انه الانذار الاخير»، واصفا قصفنا القدس بمدفعيتنا انه عمل غير انساني... وانه مخالف لشروط الحرب... وان الجيش البريطاني مستعد للتدخل بالسلاح اذا نحن عدنا الى قصف القدس مرة اخرى. فأجبته: «ما دام عدوان اليهود على القدس مستمراً، فسنستمر نحن على قصف الاماكن اليهودية في القدس لا يمنعنا من ذلك مانع». قال الكولونيل: «انني أقول هذا لمصلحتكم. وان هدنة ربما تعقد بين العرب واليهود». فقلت: «حينما يقبل العرب بهدنة. ويطبقها اليهود عمليا نراعي نحن هذه الهدنة. على انني أؤكد لك ان هدنة في يافا فرضتموها أنتم لن يقع مثلها هنا». وأنبأت دمشق بالامر. وقد كان اليهود فعلاً بين أمرين، اما أن يقنعوا العرب بقبول هدنة بأية طريقة من الطرق، ليتنفسوا قليلاً في القدس، وإما ان يحشدوا قواتهم كلها – وهذه مغامرة – ليقوموا بحملة تنقذهم. وأخذت مفاوضات بشأن الهدنة تدور في القدس وانتهت هذه المفاوضات باجتماع عقد في اريحا حضره عن العرب، عبد الرحمن عزام، والقائد العام اللواء صفوة كما حضره سفير بريطانيا بحثوا فيه نهائيا موضوع الهدنة في القدس. وكان اليهود في حاجة شديدة جداً الى

هدنة كهذه ، فقد كانت القضية بالنسبة اليهم قضية حياة أو موت . كانت هذه المفاوضات تدور دون ان يؤخذ فيها رأيي أو ان أحاط بها علماً . وكان أمين الجامعة واللواء اسماعيل صفوة يتوهمان ان الهدنة في مصلحتنا، وربما كان ذلك لجهلهما كل شيء عن حقيقة موقف اليهود يومذاك في تلك المنطقة . ومرّت مدة ولم نتلق شيئا من المدد، وكنت قد أصبحت متأكداً من ان ما كان يهول به اليهود علينا، بواسطة بعض ضباط الاستخبارات البريطانيين، كان صحيحا، لما لمسته من ازدياد قوة اليهود في العدد والمعدات المختلفة في مجرى المعارك . فعمدت الى ارسال برقية الى القيادة العامة جاء فيها:

٧–٥–٤٨ رقم ٢٧ص .

حذرتكم قبل اليوم وبينت امكانية المفاجآت . أعلمكم بأنني سادافع بما لدي من قوات قليلة منهوكة ناقصة الاسلحة والعتاد والتدريب والضباط . كما تبين للمقدم شقير نفسه . سأبذل كل ما في وسعي لصد قوات العدو والحيلولة دون تحقيق أهدافه . أخشى ان تتمكن هذه القوات من الوصول الى أهدافها على أجسادنا . . .

الامضاء – فوزي

ووردت علينا في هذه الاثناء أخبار متتالية عن تحشدات يهودية قوية على طول الجبهة من مختلف المصادر الموثوقة ايدتها استطلاعات قواتنا التي شاهدت نشاط العدو وتنقلاته . فقد أصبح اليهود المحصورون في القدس كما بينت سابقاً بين أمرين، اما الاستسلام خوف الموت، واما حملة عامة مغامرة تقوم بعمليات واسعة قوية لفتح طريق باب الواد – القدس . وأخذت التحشدات تظهر على جبهة اللجون – عارة، وجبهة طولكرم – الطيرة، وفي منطقة باب الواد – القدس والغرض من هذا كله كان واضحاً جداً : ارغامنا على تجميد قواتنا في المثلث، وعلى سحب بعض قواتنا من الجبهة الوسطى، ليقوموا من ناحيتهم بهجومهم المقرر لفتح طريق باب الواد – القدس . وبينما نحن في هذه الحال الحرجة ، اطلعت على برقية بشأن انسحاب الجيش الاردني واردة من عمان على آمر اللواء صدقي الجندي في رام الله . فأرسلت الى القيادة العامة في دمشق البرقية التالية :

٧–٥–٤٨ الساعة ٩ ليلاً،

اطلعت على برقية مكتومة « سرية » الى آمر اللواء صدقي الجندي بتاريخ ٣–٥–٤٨ رقم ٥٩ ترسم خطة انسحاب للوحدات الاردنية كافة من فلسطين بين ٦و١٤ ايار بحيث يكون آخر جندي اردني قد غادر أرض فلسطين عن طريق جسر اللنبي الى الثكنات في شرق الاردن . قد انتهى انسحاب اللواء الشمالي من حيفا . ان انسحاب الجيش العربي الاردني من فلسطين يسبب ذعراً وهجرة عامة نحو الشرق، اذ ان وجوده، والامل في دخول غيره بين ١٠–١٥ الجاري هو الطمأنينة الوحيدة للاهلين . نحن هذه الساعة امام نشاط كبير من تحشدات واسعة كاملة التجهيزات والاسلحة شمالي جنين، وهناك تحشدات غربي طولكرم – قلقيلية، ومنطقة اللد والرملة، ومستعمرات ضواحي القدس الغربية . ارجو حضوركم بالذات الى اريحا أو عمان غداً للمذاكرة معكم . انتظر الجواب هذه الليلة .

الامضاء – فوزي

الى هذا صارت الحالة في فلسطين . وأصبح من البديهي ان نسد الفراغ الذي تركه الجيش العربي بانسحابه بقسم من جنودنا . في هذه الغمرة شرع اليهود بهجومهم المنتظر .

* * *

أمين جامعة الدول العربية يعقد هدنة

في الساعة الرابعة من صباح ٨ أيار بدأ هجوم يهودي مركز على اللجون، استمر طيلة النهار، دافع فيه جنودنا دفاعا باسلاً، وتمكنوا آخر النهار من رد المهاجمين وهزيمتهم . وفي الوقت نفسه قام هجوم آخر على عارة باء بالفشل كهجوم اللجون . وفي الساعة ١٢ر٣٠ من النهار نفسه هوجمت الطيرة، فصد جنودنا المهاجمين، وأنزلوا فيهم خسائر كثيرة . وفي ليل ٨–٩ ايار شن اليهود هجوما عنيفا جداً على ساريس وبيت محسير في منطقة باب الواد، وتمكنوا من الاستيلاء على هذه الاخيرة، بينما صدتهم قواتنا امام ساريس . هذه السلسلة من الهجمات، كانت مجتمعة ، بداية للهجوم الكبير الذي بذل اليهود وقتاً طويلاً وجهداً كبيراً،

في اعداده لاكتساح باب الواد والنفاذ الى القدس هدفهم الاكبر. بينما نحن نعاني هذه الشدائد على طول الجبهة بدأت المفرزة الشركسية تسلم اسلحتها الى المقر، طالبة التسريح، لمعاناتها شظفا لم يعد باستطاعتها ان تتحمله. وأخذت هذه الروح تسري الى بقية أفراد الوحدات بشكل يهدد بالانهيار، ولم أستطع صد هذا التيار المخيف الا عن طريق اثارة النخوة ومعاني الشرف، مستمداً ذلك من مجرى المعارك في مختلف انحاء الجبهة.

وكنت أبرقت من قبل برقيات عديدة بشأن الرواتب والتجهيزات والعتاد الى القيادة العامة في دمشق دون كبير جدوى. وفي التاسع من أيار أبرقت البرقية التالية:

٩–٥–٤٨ القيادة العامة.

تأخر الرواتب سبب افلات السيطرة منا على الجنود. نصف المفرزة الشركسية ترك سلاحه. سيعقب هذا انحلال في القوة ان لم تتداركوا الموقف.

الامضاء فوزي

وفي ١٠ أيار أبرقت الى القيادة العامة برقية أشد لهجة قلت فيها:

ألقى أمس ٧٥ جندياً سلاحهم من جنود المدفعية والمصفحات. هل هذه ارادتكم ووعودكم. سأضطر الى أخذ أسلحة المتذمرين وأرسالهم اليكم. أحملكم مسؤولية هذا التذمر من الجنود. قد طفح الكيل.

رغم هذا كله كانت القيادة العامة ومعها المفتشية العامة، كأنهما يجهلان كل شيء عن الموقف، مثلما كنت أنا أجهل كل شيء عن الهدنة التي كانوا يدبرونها، حتى جاءني من آمر حامية القدس الرئيس فاضل عبد الله، صورة برقية مرسلة اليه من القيادة العامة في دمشق هذا نصها:

٧–٥–٤٨ آمر حامية القدس.

اتفق الامين العام للجامعة العربية مع السلطات المختصة في القدس على ايقاف النار من الجانبين اعتباراً من الساعة ١٢ من يوم السبت الموافق ٨ مايس ١٩٤٨ في

مدينة القدس فيجب تنفيذ ذلك واخبار قائد الجبهة الشمالية.

الامضاء – صفوة

فبهت من هذا التصرف ولم أر في مهلة الهدنة سوى فرصة لايصال قوافل المؤن والذخائر الى يهود القدس تخفيفا لوطأة الجوع والعطش والضغط واستعدادا للهجوم الكبير الذي يعدونه. مع أنني كنت قد استدركت الوقوع في مثل هذا الخطأ، ببرقية ارسلتها الى آمر حامية القدس هذا نصها:

٦–٥–٤٨ رقم ٣ ص.

أي مشروع للهدنة لا تبتدئ فيه قبل مراجعتنا. الشرط الاساسي مهما كلف الامر هو أن ترجع القوات اليهودية الى مراكزها القديمة. وان يكون حي الشيخ جراح ضمن المناطق العربية عندما ينسحب الانكليز.

الامضاء – فوزي

على انني تسلمت اخيراً برقية من القائد العام يظهر انهم كانوا يعتقدون فيها الفرج وهذا نصها:

٩–٥–٤٨ رقم ٧٢ و.

قطعات جيش الاردن المرابطة في فلسطين حالياً يتوقع انسحابها كي تخرج من القيادة البريطانية لتدخل في امرة القيادة الاردنية لتزحف مجدداً الى فلسطين. وهي جزء من الجيوش العربية. كل ما كان لدينا من احتياط قليل أرسل الى أديب. ليس لدينا قوة لارسالها اليكم في الوقت الحاضر. نقر خطورة موقفكم. وثقة الجميع بحسن قيادتكم تجعلنا نطمئن لاحتفاظكم بالوضع الراهن لبضعة ايام ريثما تشرع الجيوش العربية بالزحف ولو أدى ذلك لاخلاء بعض مواقع ثانوية. انبئونا رأيكم بشأن حامية القدس والحاقها بكم. فيما اذا تقررت الهدنة بصورة نهائية.

الامضاء – صفوة

ترى ما معنى هذا؟... أهو لا مبالاة بجهل؟ أم انه أمر مبيت متعمد الغرض منه الاساءة الى قوات الانقاذ.. هذه القوات التي ثبت ان الجيوش العربية التي

زحفت على فلسطين لم يتيسر لها مجتمعة ان تقوم بما قامت به من معارك كلّلها النصر، وان تحتفظ بما احتفظت هي به من مناطق ومواقع. ماذا يجب علي أن أفعل؟ أأغادر الميدان واسهل لليهود الاستيلاء على فلسطين كلها بوثبة او بوثبتين؟ كلا، انني لن أغادر الميدان مهما يبلغ من شأن المهازل (المبكية). ولن أتيح لليهود أن يحتلوا أي موقع من المواقع التي أحميها بجيش الانقاذ مهما يكن هذا الموقع ثانوياً، ولن أترك لهم فرحة فتح بابا الواد – القدس، أو سحب حامية القدس. وأكافح حتى تدخل الجيوش العربية النظامية، فاسلمها المناطق التي في عهدتي والتي يرقد على حدودها مئات الشهداء من جنودي.

* * *

رسالتان من رئيس الجمهورية السورية ومن الحاج أمين الحسيني

في هذه الظروف الخطيرة المخيفة كان سماحة المفتي قد خابت آماله، فلا القيادة العامة لحرب فلسطين قد حصل عليها، ولا الحكومة التي (حاولوا) تأسيسها في فلسطين ليكون رئيسها، وتكون الثامنة في الحكومات العربية تمكن من تأسيسها، فاهمل فترة. ويبدو لي ان بدء دخول الجيوش العربية الى فلسطين، كان العلامة المنتظرة لبروزه على المسرح، فتؤلف بعد دخول الجيوش العربية فوراً حكومة في فلسطين يكون هو رئيسها (على ان يصبح من بعد رئيساً لدولتها). وعلى هذا الاساس، طلب اليه ان يدخل الى فلسطين ويعد العدة اللازمة قبيل وصول هذه الجيوش لاعلان الحكومة المقررة. فاختار منطقة الجليل مركزاً لحكومته هذه، في البداية، ولكنه بعد ان درس الحالة، تردد في الامر، لاسيما بعد ان شعر ان رغبة أهل الجليل في حكومته رغبة فاترة. وفكر في منطقة المثلث العربي، ومنطقة القدس حيث كنت أقاتل بجيش الانقاذ. هذه المنطقة التي لم يكن فيها، ما يمنع من اقامة الحكومة سوى وجودي انا بالذات، ولكن التغلب على هذا الامر ليس عسيراً. وفي ٦ أيار ١٩٤٨ جاءتني رسالة من السيد محسن البرازي، رئيس ديوان رئاسة الجمهورية السورية، وضمنها رسالتان، الواحدة من فخامة الرئيس والثانية من سماحة الحاج أمين. كانت الرسالة الاولى مملوءة بكلمات العطف والرقة، وتطلب

مني التعاون مع سماحته لان المصلحة الوطنية، تقضي بذلك. اما رسالة سماحة المفتي فكانت عبارة عن ثناء كبير علي، واطراء لاعمالي واعلان ثقته القوية بي. ثم تقول.. ان التعاون الوثيق بيننا أمر ضروري، كما ان نسيان الماضي أمر ضروري جداً.

قرأت الرسالتين وتعجبت كثيراً، فانا ما امتنعت يوماً، ولا أمتنع، عن التعاون مع أي كان من أبناء وطني من اجل المصلحة العربية العامة. ولكن تجاربي واختباراتي في الماضي، تؤكد لي ان التعاون مع هذا الرجل أمر مستحيل، ومع ذلك كله، أجبت على الرسائل أنني مستعد للتعاون معه، وأنا مصمم على ان لا أحيد قيد شعرة عن الخطة التي ترمي الى الحيلولة دون كل مايمس الامن وسلامة الجيش والمجاهدين الفلسطينيين. وما كاد جوابي يصل الى فخامة الرئيس القوتلي، حتى تسلمت من المقدم صبحي العمري رسالة يقول فيها، انه أصبح رئيس ركن مقر سماحة المفتي الذي سيزحف قريباً الى منطقتنا، ويطلب مني ان أرسل اليه ثلاثة سيارات للركوب وسيارتين (بيك آب) و١٣ سيارة شحن، يستخدمونها في نقل المقر الى منطقتنا. فأجبته مهنئا اياه بمنصبه الجديد، ومرحبا، بقدومهم، مبينا له أنني ليس في وسعي ان ألبي طلبهم، وان السبيل الوحيد، هو ان يراجعوا القيادة العامة في دمشق فتؤمن لهم مايشاؤون. الا أن المقدم صبحي العمري لم يجب، كذلك لم يدخل المفتي مع أركان حربه فلسطين.

وكنا في غمرة من القتال يومئذ لم يسبق لها مثيل. فاليهود على طول جبهتنا يقومون بنشاط غريب ويستعدون استعدادا كنا نشعر به بخطورته، لمواجهة الجيوش العربية المترقب دخولها في القريب. كما يعملون في مختلف الانحاء للتخلص من جيوب عربية متداخلة في مناطقهم، كانت ميدانا لجيش الانقاذ، مع انها ضمن المناطق اليهودية في «التقسيم». ومعركة باب الواد الكبرى قد بدأت.

* * *

الكولونيل نلسن لا يفي بعهوده

كانت مستعمرتا «قلندية» و«نيفي يعقوب»، الواقعتان على طريق رام الله – القدس، تحولان بيننا وبين الاتصال بهذه المدينة. وكانت «نيفي يعقوب» التي تبعد

عن رام الله حوالي عشرة كيلومترات، قائمة على رابية صغيرة مشرفة على الطريق العام، الذي يصل القدس برام الله ثم بالمثلث كله. فكان اليهود يطلقون النار من حصون المستعمرة وابراجها المتحكمة بالطريق العام على كل سيارة تمر، فيوقعون اصابات كثيرة في النفوس، وأصبحت المواصلات بين المثلث والقدس لا يمكن ان تتم الا بواسطة طريق القدس – اريحا ومنها الى نابلس. وقد جاءني يوما السيد أحمد حلمي باشا من القدس بهذا الشأن وتمنى لو ان في الامكان التخلص من هذه المستعمرة، فقررت التخلص منها، واخذت أحشد من القوة ما أراه ضروريا لذلك فشعر اليهود بالامر، وقبل ان نبدي اية حركة ضدها، جاءني الكولونيل نلسن آمر القوات البريطانية المسؤول عن المواصلات في هذه المنطقة ينذرني ان أي هجوم على المستعمرة، يؤدي الى تدخل القوات البريطانية للدفاع عنها، وانه أرسل أربع مدرعات ترابط على الطريق العام امام ابوابها لهذا الغرض. فقلت للكولونيل: «انني مضطر الى الاتصال بحامية القدس التي أصبحت مربوطة بي، فاذا كنت تريد ان تأخذ على عاتقك الدفاع عن المستعمرة، فمن الانصاف ان تأخذ على عاتقك أيضاً الدفاع عن الطريق العام». فوعدني بذلك وطلب مني ان لا أقوم بحشد أية قوة في المنطقة الغربية من باب الواد، متعهداً، ان يحمل اليهود على ان لا يقوموا بأية حركة في تلك المنطقة الى ما بعد ١٥ ايار ١٩٤٨. وكانت لدى الكولونيل نلسن قوات كبيرة في اللطرون، القائمة على ملتقى طرق عديدة تأتي من الغرب فتتصل بطريق باب الواد القدس، واتفقت معه على هذا الاساس مطمئنا الى وعده. وأجلت عملية الهجوم على «نيفي يعقوب»، باعتبار ان المواصلات (اذا وفى الكولونيل بوعده) تكون مضمونة، واستخدم القوة المعدة لمهاجمة «نيفي يعقوب» في غير مكان من الجبهة. على ان اخباراً بدأت ترد علي منذ ٧ أيار ١٩٤٨ تؤكد بدء تحشيدات يهودية قوية، في المستعمرات الواقعة جنوب باب الواد– القدس خاصة في «عرطوف» و«رحبوت»، فتحققت ان الحركات التي كنت أتوقعها للهجوم اليهودي الكبير، على طريق باب الواد – القدس، دخلت في الطور العملي. وحينما أعلمني قائد الجبهة الوسطى المقدم مهدي صالح ليل ٩–١٠ أيار ١٩٤٨ بقيام اليهود بحركة هجوم على باب الواد أبرقت اليه البرقية التالية:

١٠–٥–٤٨– رقم ١٠ص.

اتصل بالكولونيل نلسن واطلب رأيه في موقف اليهود من باب الواد. لقد وعدني أن يحول دون أي هجوم يهودي حتى ١٥ أيار. استعمل ما عندك من قوات لتسيطر على الموقف ساحضر مع طلبك حالاً.

الامضاء – فوزي

ولم يستطع المقدم مهدي الاتصال بالكولونيل لانه كان متغيباً طبعاً... وبدأت المعركة وسجلنا تحيزاً جديداً لاصدقائنا البريطانيين... وفي الليلة نفسها، وردت علي برقية من قائد جبهة اللجون – عارة تنبئ بهجوم يهودي على جبهته، وبرقية اخرى من قائد جبهة طولكرم تنبئ بهجوم على هذه الجبهة وتطلب النجدة والعتاد. ولم يكن لدي أي جندي أو أي صندوق عتاد للنجدة، فجيش الانقاذ مشتبك الآن في القتال. وقد أبرقت الى قواد الجبهات برقية واحدة أقول لكل منهم: «أني انما أعتمد على حسن قيادتكم وبسالة جنودكم. النجدات في الطريق».

وفي صباح ١٠ ايار كانت القوات اليهودية اكتسحت بيت محسير والتلال المسيطرة على باب الواد، ووصل رتل من القوات اليهودية المتقدمة من الغرب الى مدخل باب الواد، من الجبهة الغربية، ورتل آخر آت من القدس الى مدخل باب الواد من الشرق. ولولا هدنة القدس التي تموّن خلالها اليهود، واستعدوا، لما استطاع هذا الرتل التحرك لقتالنا.

كانت القوات اليهودية وفيرة العدد كثيرة العدد، من مدفعية ميدان التي تظهر لأول مرة في المعركة، الى مدافع الهاون، فمدافع ضد الدبابات، الى كثير من المصفحات، وكان يرافق الرتل القادم من الغرب مفرزة هندسية مزودة بجارفات ضخمة خاصة لازالة الصخور المتراكمة على الطريق وشقها بأسرع ما يمكن. وامام الضغط الشديد لهذه القوات كانت جنودنا تتخلى عن التلال الواحدة بعد الاخرى. واستمرت المعركة طيلة النهار ومصير جيش الانقاذ بين يدي القدر، حتى اذا نزل الليل، بدا الموقف مائلاً كفته، الى جانب اليهود، بشكل خطر، وأوشك

العدو ان يفتح الطريق. وبينما كنت في مقر قيادة الجبهة، رأيت جنود السرية اليمانية التي وصلت مؤخراً من يافا متفرقة ، وليس لديها سلاح. وخطر لي – وأنا أعلم مقدار شجاعة هؤلاء اليمنيين – ان أقذف بهذه السرية الى ساحة المعركة، بعد ان اختبرت في نفوسهم رغبة في القتال، في المعركة بيننا وبين اليهود التي تدور اليوم وهي معركة خطرة جداً. وطلبت من المقدم مهدي ان يأمر من يهيء لهم الطعام في الحال، ثم يوزع عليهم ماعنده من سلاح لجنود مسرحين وقتلى وجرحى . واستقدمت من نابلس من بقي من الجنود الشراكسة، وتلفنت الى مدير الادارة في مقر قيادة جيش الانقاذ، ان يجرد حرس المقر مما لديهم من عتاد، على ان يبقي لكل واحد منهم عشرين طلقة. وطلبت من آمر المصفحات المرحوم الملازم فائز حديفه ان يأتي بما لديه من مصفحات في المقر، ومن آمر المدفعية الملازم عفيف البزري، ان يجمع من مدفعيتنا الموزعة أربعة مدافع على الاقل (أي نصف مدفعية جيش الانقاذ) على ان تكون كلها في رام الله قبل منتصف ليل ١٠–١١ أيار. وسحبت من الفوج العلوي المرابط في النبي صموئيل وبيت سوريك، فصيلتين من احتياطي الفوج . ورتبت من مجموع هذه القوة رتلاً اعتمد عليه، يحتشد في بيت نوبا ويالو الساعة الثالثة من صباح ١١ أيار، ويقوم الساعة الرابعة بهجوم مضاد على القوات اليهودية التي احتلت التلال المشرفة على طريق باب الواد – القدس، ويمنع اليهود من فتح الطريق، مهما يكن الامر، من غير مبالاة بما يتطلب هذا العمل من ضحايا. وثارت في نفوس الضباط حماسة ملتهبة، قرأت صورتها في وجوههم. وقال المرحوم الملازم حديفه كلمة واحدة، «سننتصر». وكان موقفنا هذه الليلة، يشبه موقفنا في مشمار الليلة التي جاءنا في غدها النصر.

تمت ترتيباتنا وفقا للخطة التي رسمتها تماما، وبدأ هجومنا المضاد في الساعة المحددة له، واندفع جنودنا بحماسة تكاد تكون جنونية، والمدفعية تقصف أهدافها مساندة الهجوم قصفاً عنيفاً ببراعة فائقة، بشكل لا أتذكر أنني شهدت مثله في الحروب النظامية التي اشتركت فيها من قبل. وانطلق آمر المصفحات بمصفحاته غير مكترث بوعورة الارض وكثافة النيران، يهاجم المصفحات اليهودية، ويدمر كل ما يصادفه في طريقه من قوات للعدو وأرغمها على الهزيمة. ولم تستطع القوات اليهودية الصمود في وجه جنودنا، واستمرت المعركة بهذه الحدة حتى الساعة

العاشرة، وتصدع الخط اليهودي كله وتخلت القوات اليهودية عن مراكزها، وبدأت في صفوفها هزيمة جماعية تامة. وفي الساعة ١١ والدقيقة ٤٥ وصلتني من المقدم مهدي هذه البرقية :

استولت قواتنا على جميع المرتفعات والاحراش. قتلى اليهود لا تحصى، غنائمنا الى الآن ٣٥٠ بندقية، طاردنا اليهود المنهزمين، تخطينا طريق باب الواد – القدس باتجاه بيت محسير، لاحتلالها.

وبعد ساعة وردت برقية اخرى تقول :

فصلنا ما يقارب الالف يهودي في بيت محسير عن بقية القوات اليهودية، لم يخلص منهم الا من فر باتجاه عرطوف، طهرت قواتنا بيت محسير وخربة حرسيس. تستمر المعركة في الاحراش بعنف شديد. عدد الغنائم والقتلى اليهود يزداد من لحظة الى لحظة، تشترك قوة من المسلحين المحليين مع قواتنا. نطارد اليهود نحو (المستعمرات الخمس).

وفي الساعة الخامسة عشر لم يبق لليهود في المنطقة كلها أي أثر. وكانت غنائمنا من الاسلحة كثيرة، بينها أربع مصفحات صالحة للاستعمال، عدا ما تحطم من المصفحات اليهودية التي بلغ عددها ١٣ مصفحة. وان نتيجة هذه المعركة كانت تختلف عن غيرها من المعارك السابقة، بوفرة الغنائم وتنوعها، وظهور اسلحة جديدة لم نعثر على مثلها قبل ذلك، كمدافع مضادة للطائرات وللمصفحات، وصنوف من التجهيزات المتنوعة.

وأما نتائج هذه المعركة من الناحية الادبية فكانت : أولاً – القضاء على آمال اليهود في الاستيلاء على القدس نهائيا قبل دخول الجيوش العربية. ثانياً– خيبتهم المريرة بالاتصال بالقدس، وامداد اليهود فيها البالغ عددهم أكثر من مائة ألف وترك مصيرهم معلقاً برحمة القدر... ثالثاً– تأكدت القيادة اليهودية كما ازداد يقيننا نحن بأن كل معركة تنشب بيننا وبينهم في العراء وخارج المستعمرات تنتهي بهزيمتهم ، مهما بلغ تفوقهم في العدد والمعدات. وفي هذا اليوم نفسه تصل لي من قائد جبهة طولكرم الرئيس مدلول عباس البرقية التالية :

انتهت المعركة بانتصارنا في الساعة ٢٣و٤٥ . قتلى اليهود ٧٥ في ساحة المعركة غنائمنا كثيرة .

وكذلك تلقيت برقيات مشابهة من جبهة عاره واللجون .

* * *

بن غوريون ومعركة اللطرون وباب الواد :

كان لانتصارنا في باب الواد، صدى قوي جداً في البلدان العربية، وأثر معنوي كبير . وكانت الحال على عكس ذلك تماما – طبعاً – في الاوساط الهودية، مما أدى الى قيام مظاهرات صاخبة في القدس وتل أبيب، تطالب السلطات اليهودية بانهاء الحرب أو فتح طريق باب الواد القدس .

وكان طبيعياً ان تحدث معركة باب الواد هذا التأثير في نفوس اليهود، فالقوات اليهودية التي قضت مدة طويلة تستعد لشن هذه المعركة ولتحطيم قواتنا، في تلك المنطقة، وانقاذ يهود القدس، هالها ان تكون نتيجة المعركة هزيمة لها تامة . فقد كان اليهود يعتبرون هذه المعركة حدا فاصلا . وهناك تصريح لـ (بن غوريون) في صحيفة يهودية حكومية نقلته جريدة « الحياة » البيروتية في نشرتها في ١٤ كانون ١٩٥٠، « يجب ان نذكر معركة اللطرون، أي باب الواد التاريخية التي سبقت دخول الجيوش العربية الى فلسطين، والتي تعتبر بمثابة نقطة تحول خطيرة في حياة القدس اليهودية وبقائها » . وتضيف الصحيفة الحكومية اليهودية، « ان نصف الفرق اليهودية المرابطة في جميع جبهات فلسطين، اشتركت في تلك المعركة التاريخية بالاضافة الى الف وخمسمائة بندقية (جندي) جمعت بعناء شديد » . كانت هذه هي المرة الثانية التي ننقذ فيها القدس من السقوط من ايدي اليهود، وقد قضينا يومئذ على أحلامهم . وفي اليوم الثاني لانتصارنا في هذه المعركة تلقيت برقيات تهنئة عديدة، منها برقية الملك عبد الله، وبرقية وزارة الدفاع في دمشق أما القيادة العامة في دمشق، فقد حافظت على قاعدة « الصمت زين . . . » .

كانت الصدمة لليهود في معارك باب الواد قوية، الى حد انها حطمت غرور

القيادة اليهودية . فأخذت تفكر كما بدا لي فيما بعد، في محاولة جديدة، ان لم يكن لفتح الطريق، فلمعركة ثانية تثار فيها للهزيمة . فقد شاهدت قواتنا الاستطلاعية ليلة ١٢–١٣ ايار في غربي اللطرون، وفي منطقة خلده، تجمعات يهودية كان من بينها بقية القوات المنهزمة في معركة باب الواد . فوضعت في مراكز رئيسة من باب الواد سرية من المتطوعين الاردنيين، ومعها قوة من المسلحين المحليين . وجمعت قواتنا المنتصرة في معركة باب الواد في المراكز الآتية – بيت نوبا – يالو – دير ايوب . على ان تكون مستعدة دائما لمجابهة أية مفاجأة في أية لحظة . وفي صباح ١٣ أيار قام اليهود بهجوم جديد مركز، على اللطرون – المركز المهم في تلك المنطقة – بينما كان يقوم هجوم يهودي آخر على الطيرة – قلقيلية – كفر سابا . وبعد جولة عنيفة، سريعة، تمكنوا من الاستيلاء على اللطرون، ولكن قبل ان يثبتوا اقدامهم فيها، قذفت بقواتنا جميعها على اللطرون، وبدأت المعركة بحماسة وضراوة، لا تختلفان عنهما في معركة باب الواد . ولم ينتصف النهار حتى انهزمت القوات اليهودية، وتمركزت قواتنا في قرية اللطرون . وقد ترك اليهود في ساحة القتال عدا القتلى، عدداً كبيراً من المصفحات المحطمة، والمدافع، وكثيراً من الاسلحة المتنوعة، وغنمت قواتنا في باب الواد، اربع مصفحات صالحة للاستعمال، واعتقد انه كان لذعر اليهود من انكسار قواتهم في باب الواد، قبل يومين، أثر في هزيمتهم في هذه المعركة .

ان معركة باب الواد – اللطرون هي أكبر معركة خاضها جيش الانقاذ في فلسطين الوسطى في العراء وخارج المستعمرات، كما كانت معركة مشمار ها ايمك أكبر معركة خاضها جيش الانقاذ ضد أمنع المستعمرات . وقد سقط القائدان اليهوديان لهاتين المعركتين قتلى في الميدان مع أكبر عدد من الجنود، وقررت القيادة اليهودية العليا اقامة نصبين تذكاريين في هذين الميدانين . ولعل في اقتصارها تشييد هذين النصبين معنى عظيماً لوطأة جيش الانقاذ الثقيلة التي خلفها في نفوس اليهود .

* * *

الخطة الرئيسية للجيوش العربية

تلاعب الرؤساء قبل البدء بالمعركة

ايقنت بعد معارك باب الواد واللطرون انه لن تجري معارك بيننا وبين اليهود في الفترة الباقية بين يومنا وبين ١٥ ايار. لذلك قررت ان البي دعوة الملك عبد الله، واغتنم الفرصة لزيارة مقر القيادة العامة للجيوش العربية النظامية في الزرقاء، لابحث مهمتي الجديدة، التي من المفروض ان تبدأ ، بعد دخول هذه الجيوش الى فلسطين. وعدت الى رام الله وانا مصمم على متابعة سيري الى عمان. وقبيل وصولي الى رام الله، لاحت مستعمرة «نيفي يعقوب»، فتجلى لي موقعها من المواصلات العربية واعتداءاتها المستمرة على العرب. فقررت ان أعمل فيها عملاً يكون خاتمة اعمال جيش الانقاذ، فأقدمها مع مستعمرة «قلندية» المجاورة لها هدية الى الجيوش العربية. وأخذت وأنا في طريقي الى عمان أفكر في تدبير الخطة المثلى لتنفيذ فكرتي، فتذكرت قضية العتاد، فأرسلت الى القيادة العامة في دمشق البرقية التالية :

١٣-٥-١٩٤٨- رقم ١٠٠ ص.

صرفت مدفعيتنا خلال معارك باب الواد واللطرون ١١٠٠ طلقة عيار ٧٥. ولم يبق لدينا الا القليل. اما عيار ١٠٥ فقد اعلمتكم انها نفذت . أرجو ارسال الفي طلقة منها. وخمسماية طلقة عيار ٤٠ للمصفحات وعتاد فرنسي.

الامضاء – فوزي

فكان نصيب البرقية ، كنصيب ما سبقها من برقيات، فلا عتاد ولا جواب.

وصلت الى عمان، فاذا في القصر الملكي ، الوصي على عرش العراق الامير عبد الاله، ووزير الدفاع السيد ارشد العمري، ورئيس الحكومة المصري محمود النقراشي، ورئيس الحكومة اللبنانية رياض الصلح، وأمين الجامعة العربية عبد الرحمن عزام، واللواء نور الدين محمود ، القائد العام للجيوش العربية النظامية، واللواء صالح صائب رئيس أركان الجيش العراقي، والقائد المصري سعد الدين صبور. واذا هم قد انتهوا بصورة حاسمة، من وضع الخطة لدخول الجيوش العربية الى فلسطين. فرحب بي الملك عبد الله، وأسمعني كثيراً من عبارات التقدير، التي اشترك معه فيها

جميع الحاضرين. ثم عرفت ان الذي تقرر في هذا الاجتماع . .

خطة الدخول الى فلسطين كمايلي :

يدخل الجيشان السوري واللبناني من شمالي فلسطين وهدفهما الاول حيفا .

ويدخل الجيشان العراقي والاردني من الشرق وهدفهما العفولة – حيفا .

ويدخل الجيشان المصري والسعودي من الجنوب وهدفهما « يبنا – رحبوت » .

أما الهدف الثاني للجيوش جميعها فهو تل أبيب. ومعلوم ان الملك عبد الله هو القائد العام الاسمي طبقاً لما اتفقوا عليه، بينما أسندت القيادة العملية للواء نور الدين محمود كما ذكرت. وبدأت الجيوش تحتشد وتساق على أساس هذه الخطة، ولكن بعدد أقل مما كانت قررته الحكومات العربية، استناداً لرأي رؤساء أركان الجيوش. فقد كان المقرر ان يكون مجموع الجيوش العربية، يتراوح بين خمس وسبع فرق. وكان الهدف الذي يصر عليه الملك عبد الله، هو على – حد تعبيره – سحق رأس الحية، ويعني تل أبيب. وكان لاصراره هذا علاقة بآراء الجنرال « كلوب » التي يظهر انها تبدلت، قبيل ان تنفذ الخطة المرسومة، اذ ان الجيش السوري بعد ان تحشد في الاراضي اللبنانية، على حدود فلسطين، سحب الى منطقة سمخ، وراح الجيش العراقي يتحشد امام جسر المجامع.

أخذت هذه الجيوش مراكزها، وهي تجهل كل الجهل، كما تبين فيما بعد، حالة اليهود، ومقدار قواتهم ومدى تسلحهم ومناعة تحصيناتهم. وعلى العكس من ذلك تماما، كان اليهود يعرفون عن هذه الجيوش كل شيء تقريبا. وكان امام الخط الذي تجمعت فيه الجيوش العراقية والسورية، مستعمرات يهودية، انشئت في منطقة التحصينات التي كان الجيش البريطاني اقامها في خلال الحرب العالمية الثانية، لصد زحف الجيوش الالمانية، فيما اذا تمكنت من اختراق تركيا وانحدرت الى الجنوب، وهي تحصينات تعرف باسم خط ايدن. وكان تبديل الخطة بهذا الشكل، كأنما هو يرمي الى تحطيم الجيشين السوري والعراقي، والمعركة لم تكد تبدأ، والى ضعضعة المعنويات العربية من وراء ذلك، وهذا ما حدث ويا للاسف فيما بعد.

بعد ان فض الاجتماع الذي ذكرته ، في القصر الملكي في عمان، طلبت

مواجهة اللواء نور الدين محمود القائد العام، لاستعلم منه عن مهمتي بعد ١٥ أيار. واجتمعت به في مقر قيادته العامة في الزرقاء، فأجابني انه ليس عنده أي شيء يتعلق بجيش الانقاذ، وان هذا الجيش مرتبط بالجامعة العربية، فيحسن بي ان اسأل أمين الجامعة. فاندهشت وقلت له: «أنت القائد العام وأنت الذي يعين لكل جيش من هذه الجيوش العربية الواجب الذي يقوم به». قال: «اذا كنت تريد البقاء بجيش الانقاذ حيث هو، فلا بأس. ولكن مهمتكم تنتهي بعد دخول الجيوش النظامية». وقلت في نفسي لعله وهو القائد العام، يعرف ان ما لديه من قوات يجعله في غير حاجة الى جيش الانقاذ. خصوصا وقد فهمت من خلال حديثنا ان معرفته بهذا الجيش لا تختلف عن معرفته بالقوات اليهودية، أي أنه يجهل كل شيء... وحين وصولي الى عمان، وجدت بطاقة دعوة باسمي من أمين الجامعة السيد عزام، لتناول طعام الغداء في المفوضية المصرية، واجتمعت على الغداء بفريق من القواد المصريين وضباط الطيران. وبعد التعارف طلب الي السيد عزام ان احدثهم بما عندي من معلومات عن الحالة في فلسطين. فاطلعتهم على أهم ما لدي وبسطت لهم أموراً اختبرتها بنفسي، فكانوا يسجلون أقوالي ويشكرونني. والتفت الى السيد عزام، وصارحته بما بدأت أشعر به من تشاؤم، بعد ان اطلعته على ما دار بيني وبين القائد العام من احاديث وقلت له: ان القائد العام احالني عليه ليحدد لي واجب جيش الانقاذ بعد ١٥ ايار.

وكان طبيعياً ان لا يكون عند السيد عزام أية فكرة بهذا الشأن كما قال لي، واضاف الى ذلك انه سيراجع القيادة العامة وينبئني بالذي تحدده من واجبات. ثم أخذ يسألني عن رأيي في الخطة العامة، وخاصة ما يتعلق منها بالجيش المصري وأهدافه. فصارحته بعد اطمئناني الى هذه الخطة، وخاصة مايتناول منها الجيش المصري، بعد التبديل الذي عرفت انه ادخل على اساس الخطة، وبما في نفسي من هواجس، وانني أخشى ان يكون للبريطانيين أصبع في هذا التبديل الغرض منه الوصول الى حل مشاكلهم مع مصر عن طريق ايقاع كارثة في هذه الجيوش. قال: «وكيف تتصور ان ذلك يمكن ان يتم؟» قلت: «ان مواضع الجيش الاردني تقع مباشرة الى الجناح الايمن للجيش المصري، والجيش الاردني يخضع لاوامر الجنرال «كلوب» الذي له عليه من السلطة أكثر مما للملك عبد الله نفسه. ولا استبعد ان

يتقيد الجنرال «كلوب» بما توحيه اليه مراجع بريطانية أكثر منه بما يوحيه اليه الملك عبد الله. فاذا شاءت بريطانيا مثلاً ان تنال مأرباً من مآربها، تستطيع ان توعز الى الجنرال «كلوب» فيتدبر الامر بما يحقق ذلك المأرب كما لو أتى عفوا. كأن يأتي بحركة ما في حال نشوب معركة بين القوات اليهودية وبين الجيشين المصري والاردني، فيترك ثغرة تستطيع القوات اليهودية التسرب منها، لضرب الجيش المصري، من حيث لا يحسب لذلك حسابا. حتى وفي غير حالة نشوب معركة، تستطيع بريطانيا، اذا هي كانت مصممة على ايقاع الكارثة ان توقعها، كأن يتخلى الجنرال «كلوب» بحجة ما، عن مراكز عسكرية ذات قيمة خطيرة، فينفسح المجال لليهود لانزال ضربتهم». وسألني القائد المصري صبري بك: «كيف يمكن ان يقع ذلك بالتعيين؟» فقلت: «لو خطر للجنرال كلوب ان يتخلى عن اللد والرملة، مثلاً، بحجة من الحجج فيحتلها اليهود فينكشف لهم بالنسبة للوضع القائم، الجناح الايمن للجيش المصري، ويسهل عليهم ايقاع الكارثة. واني لمتشائم جداً من التبديل الذي طرأ على الخطة العامة المرسومة قبل البدء بتنفيذها، لانني أخشى ان لا يكون في قيادة جيوشنا من الصلابة ما يمكنها من المضي في تنفيذ الخطط مهما يكن من رفعة مقام الشخصية السياسية التي تحاول التدخل في الامور العسكرية. ويزيد في تشاؤمي انني المس نقصا في الخبرة، وضعفاً في الشخصية عند البعض، مما يعرض القيادة للتأثر بالاهواء والاراء السياسية، أكثر منها بالخطط العسكرية المقررة. ونحن الآن لا نزال في بداية البداية، فينبغي ان نتجنب وقوع كوارث، ان هي وقعت في الجيوش العربية تفضي بها الى الخروج من فلسطين محطمة القوى والكرامة. وينفسح المجال أمام اليهود، للتغني بمعجزة من هذا الطراز»..

وسألني عزام: «ما العمل؟» فقلت له: «العمل ان تضعوا جيش الانقاذ الى يمين الجيش المصري، ليكون بينه وبين الجيش الاردني». فاغتبط بهذه الفكرة، وتحمس لها وقال انه سيعمل كل مايستطيع لتحقيقها. ثم انصرفت عائداً الى الجبهة، وفي نفسي انقباض شديد. فلما وصلت الى اريحا استوقفني امام فندقها الكبير، جماعة فترجلت، واذا بالجماعة مؤلفة من منير أبو فاضل، واميل الغوري، وفايز الادريس وغيرهم، وأخذوا يشكون ما يلاقونه من مستعمرة «نيفي يعقوب» ومن اعتداءات ومن قطع للطريق. فقلت لهم: «عسى ان تمروا غدا من رام الله الى

القدس، أو من هذه الى رام الله، ولا تروا في الطريق نيفي يعقوب».

وصلت الى جبع وأبرقت الى المقدم مهدي، قائد الجبهة الوسطى في رام الله ان يهيء رتلا قويا لاحتلال مستعمرتي «نيفي يعقوب» و«قلندية». وانني آت اليه، في ذلك المساء.

وفي رام الله، رسمت خطة مهاجمة المستعمرتين وتم تنظيم الرتل. وفي صباح ١٥ ايار بدأ هجومنا على «نيفي يعقوب» و«قلندية»، وكانت مدفعيتنا تطلق البقية الباقية من عتادها على ابراج «نيفي يعقوب» وحصونها، التي لم تقاوم طويلاً، ومصفحاتنا تصلي بنيرانها مداخل المستعمرة وأوكار الرشاشات فيها، فلم يتوقف المشاة تحت حماية هذه النيران الى ان احتلوا المستعمرة. ولم يستعملوا من اسلحتهم بعد دخولهم المستعمرة الا القنابل اليدوية، لقذف المنازل التي اختبأ فيها فريق من أهلها. وتحطمت الابراج والحصون وتهدم قسم من الدور وقتل من اليهود عدد كبير، وانهزم الباقي. وقبيل الظهر، انتهت حياة «نيفي يعقوب» و«قلندية». وأخذ العرب يمرون بسلام من القدس الى رام الله وبالعكس.

* * *

العودة بعد الانسحاب وانقاذ القدس

في الساعة العاشرة من صباح ١٥ ايار سنة ١٩٤٨ زحفت الجيوش العربية من مراكز تحشدها الى أهدافها الاولى في فلسطين، وكانت محطات الاذاعة في العواصم العربية، تذيع خطب رؤساء الدول، والحكومات ، على الشعوب العربية، واعدة اياهم باقتراب ساعة تصفية الحساب مع اليهود، مؤكدة لهم النصر. ومظاهر الافراح قائمة في كل مدينة عربية وفي كل قرية، ولم يكن أحد من العرب يشك في النصر الموعود، سوى القيادة العامة لهذه الجيوش، ومن ورائها الرؤساء والزعماء العرب الرسميون . واعترف انني كنت مع جيش الانقاذ، الذي انتهت مهمته في صباح ذلك اليوم، كما قالت القيادة العامة، من الذين لا يشكون في هذا النصر. وكان الهدوء بدأ يسود جبهتنا، عدا حوادث طفيفة موضعية، كانت تعكر صفو هذا الهدوء. وحول تفكيري في ذلك الحين، الى أمر واحد، هي ترتيب انسحاب قواتنا وتجميعها في مكان ما، فنعيد تنظيمها ونوفر لها شيئا من اسباب الراحة، التي

كانت في حاجة شديدة اليها، بعدما عانت، ولاسيما في الايام الاخيرة، من شدائد.

ولكن البرقيات أخذت ترد علي من دمشق ومن عمان: من دمشق، الحاح في سرعة الانسحاب، والعودة الى دمشق، ومن عمان، اعلام بأننا أصبحنا مرتبطين بقيادة الجيش الاردني، بينما كانت تصريحات الملك عبد الله تنبىء بحل جيش الانقاذ... وقد كان لهذا التناقض وهذه الفوضى وقع سيء في نفسي، وأكثر ما شغلني هو: «لمن يجب ان اسلم المناطق التي هي في قيادتي؟ ومتى اسلمها؟» فعدت الى عمان حيث كانت لاتزال القيادة العامة لجيش الاردن، وقابلت اللواء عبد القادر الجندي، وأعلمته ان مهمتي قد انتهت كما تقول القيادة العامة للجيوش العربية، وانني سأسحب جيش الانقاذ. ولكنني أحب قبل ذلك ان أعلم من الذي سيحل محل هذا الجيش؟ فأجابني، انه لا يعلم شيئا عن ذلك، والمسألة تخص «الجنرال كلوب». وكان «الجنرال كلوب» في غرفته المجاورة لغرفة اللواء عبد القادر الجندي، فدخلت مع اللواء الجندي على «الجنرال كلوب» وأنبأته «انني سأسحب قواتي في غد ذلك اليوم أي في ١٧ ايار، وان الانسحاب سيتم في خلال ثلاثة أيام». وطلبت منه ان يصدر الامر لمن يلزم ليحل محل هذه القوات. واطلعته على خطة الانسحاب باختصار، وهي الخطة التي كنت قررت ان يتبعها قواد جيش الانقاذ، لكي يتخذ هو بدوره الترتيبات اللازمة، بهذا الشأن. وقد حاول «الجنرال كلوب» حملي على تبديل الخطة وتأخيرها، فرفضت على اعتبار أن الاوامر كانت قد صدرت، وبدأ تنفيذها. وكان الحاح دمشق من رئيس الجمهورية الى القيادة العامة، يتتابع بضرورة الاسراع في الانسحاب. وقد تبين لي فيما بعد، ان هذا الالحاح، كان الباعث عليه تخوف رئيس الجمهورية من استيلاء الملك عبد الله على جيش الانقاذ، وتوجيهه حسب رغباته.. هذه الرغبات التي تتمثل في نظر الرئيس في شيء واحد هو تحقيق «مشروع سورية الكبرى». وقد كان انسحابنا المبني على تخوف الرئيس، وبهذه السرعة خطأ عسكرياً، لم يكن في الامكان تداركه. فالخطة المثلى كانت في ان تبقي القيادة العامة للجيوش العربية النظامية ، جيش الانقاذ في مراكزه، وتزيل ما كان يشكوه من نقص في السلاح والعتاد، وتجعل منه ستاراً حديدياً تتحشد وراءه الجيوش النظامية أو بعضها، وتستفيد من اختباراته، وتضع

خططها في ضوء معلوماته وتجاربه. على ان الواقع انه بالرغم من وجود قيادة عامة للجيوش العربية النظامية، فقد كان كل جيش يخضع لقيادته الخاصة، التي لا تطمئن الى القيادات الشقيقة ... وكانت هذه الجيوش ذات القيادة العامة الواحدة، والمتجمعة على أرض واحدة، ولاغراض واحدة، أكثر تفوقاً وتفككا من أية مجموعة من جيوش، اجتمعت للقتال لهدف واحد...

أخذ الجيش الاردني يحل محلنا في الجبهة، وشعر من المرحلة الاولى، ان هذه الجبهة، أوسع بكثير من ان يستطيع تغطيتها، مع ان عدده يفوق اضعافاً عدد جيش الانقاذ، ومعداته لا يجوز عمل مقارنة بينها وبين معداتنا، فاكتفى باحتلال مواقع اعتبرها رئيسة، كالمدن، وأهمل احتلال مواقع اخرى خطيرة اعتبرها ثانوية. واستمر انسحاب قواتنا بنظام تام، طبقاً للخطة المقررة خلال ١٦و١٧و١٨ أيار واصبحت منطقة القدس، ومنطقة باب الواد، واللد والرملة، ومنطقة المثلث في عهدة الجيش الاردني. ويظهر ان اليهود رأوا في انسحاب جيش الانقاذ فرصة لتحقيق رغباتهم، في بعض هذه المناطق، وكانوا قد فشلوا في تحقيقها وهي في عهدتنا. وبينما كانت قواتنا تتجاوز في انسحابها نابلس الى الشرق، وردت علي البرقية التالية:

١٨–٥–٤٨ الساعة ١٥ر٣ مستعجل للغاية.

من عبد القادر الجندي الى فوزي:

القدس في ضيق شديد. على وشك الانهيار. هل باستطاعتكم نجدتها بأقرب وقت وبأقرب طريق.

الامضاء – عبد القادر

فاستغربت هذه البرقية استغرابا شديداً. ومهمتي منتهية من ١٥ أيار، والقدس أصبحت في عهدة الجيش الاردني، وقوات جيش الانقاذ تجاوزت في انسحابها نابلس. وكات هذه اول مرة يستنجد فيها اللواء عبد القادر الجندي بجيش الانقاذ. فوقعت في شيء من الحيرة ثم أرسلت الى اللواء الجندي البرقية التالية:

١٨–٥–٤٨ الساعة ١٥ر٥ الى عبد القادر باشا الجندي:

جواب برقيتكم قصفناها البارحة ساعتين. قواتنا سحبناها. أنتم على الابواب. نجدتكم لها أسرع وأسهل. لا تضيعوها.

الامضاء – فوزي

ولكن برقية اخرى ترد علي من القدس هذا نصها:

١٨–٥–٤٨ الساعة ٥٥ر٣ مستعجل جداً.

الحالة خطرة. العدو يقوم بهجوم عام في قطاعات المدينة. المدفعية تقصف بشدة من كل ناحية. يجب ان تصلنا النجدات والا فمصيرنا الفناء. الفناء أؤكد لكم الفناء وسقوط المدينة. القنابل تسقط في الحرم. آمر حامية القدس.

الامضاء – فاضل

فهزت هذه البرقية كياني هزاً عنيفاً، وتولتني حيرة تامة ... لقد غادرنا المنطقة كلها. وحل محلنا فيها الجيش الاردني وهو أقوى منا بكثير فلماذا لا ينجد القدس...

هل أعود لنجدتها دون مبالاة بمسألة انسحابنا. أم أترك هذا الامر لمسئولين عنه رسمياً؟ واذا سقطت القدس؟.... وبينما هذه الافكار تضغط بشدة على رأسي، اذا برقية اخرى من الرئيس فاضل تصل لي.

١٨–٥–٤٨ الساعة ٥,٢٠.

ازدادت الحالة سوءاً. المدفعية تقصف الحرم. وا أسفاه على المدينة المقدسة.. ازحفوا لانقاذ الموقف. الارواح تنتظر نجدتكم السريعة. آمر حامية القدس.

الامضاء – فاضل

أزالت هذه البرقية كل أثر للتردد في نفسي. وقررت العودة رغم الاوامر التي لدي بالانسحاب، ورغم مرابطة الجيش الاردني في القدس، ورغم قلة ما لدي من عتاد، غير حاسب أي حساب لما قد يترتب على هذه العودة والنجدة من معارك، قد نضطر الى خوضها من جديد. وأرسلت الى آمر الحامية في القدس البرقية التالية:

١٨-٥-٤٨ الساعة ٣٥ر٥ آمر حامية القدس.

اثبتوا. اطلعت سورية والاردن على برقياتكم أنا آت لنجدتكم.

الامضاء - فوزي

وأرسلت للمقدم مهدي صالح، الذي كان لا يزال في رام الله، برقية أطلب فيها أن يعيد المدفعية التي كانت في طريقها، منسحبة الى نابلس، ويرفقها بسرية من الفوج العلوي، لا تزال عنده، وبجميع ما يمكن جمعه من المسلحين الفلسطينيين، والمتطوعين الاردنيين، ويذهب لقصف القدس، والحيلولة دون سقوطها بأيدي اليهود، وان يقوم بمظاهرة دخول الى حي الشيخ جراح بأسرع ما يمكن. وبينما كانت المعارك في القدس تدور بالشدة التي وصفها آمر الحامية الرئيس فاضل، كانت قواتنا تعود، وتتجمع في المواقع التي عينتها لها، في ضواحي هذه المدينة. وفي صباح ١٩-٥-٤٨ كنت في مرصد مدفعيتنا، حيث المقدم مهدي، وآمر اللواء صدقي الجندي، والامير نايف الذي جاء ليشاهد حركة القصف.

كانت اصداء الرشاشات والبنادق تتجاوب في اطراف القدس، وفي داخلها، يقابلها من ناحية أخرى، صدى طلقات هزيلة، تسمعها بين الحين والحين، ويتخلل هذه الطلقات اصوات انفجار قنابل يدوية وقنابل مدافع.

اذن فالمدينة المقدسة على وشك السقوط. وطلبت الى الملازم عفيف البزري.. ان يطلق كل ماعنده من قنابل لانقاذ المدينة، وحددت له أهداف القصف. وفتحت المدفعية افواهها، ورحنا نشاهد من مرصدنا جماعات كثيرة تخرج من القدس، وبدأت علائم الاضطراب واليأس على وجه الامير نايف ووجه اللواء صدقي الجندي، عندما بدأت قنابل مدفعيتنا تنفجر في المدينة، وراء الخط الذي كنا نسمع اصوات الطلقات، والانفجار منبعث منه. وبدأت السرية العلوية، ومعها المتطوعون الفلسطينيون والاردنيون، يتقدمون نحو الشيخ جراح، في حماية نيران المدفعية. ولم تمض دقائق حتى شعرنا ان الرمي قد خفت، ولم نعد نسمع الا اصوات طلقات بعيدة، عرفنا انها من المدينة القديمة، ثم أخذت تقترب منا تدريجيا، ومدفعيتنا مستمرة في القصف، معتمدة طريقة ما يسمى السد الناري،

حتى بدا لنا ان اطلاق الرصاص، أصبح من منطقة الشيخ جراح، على جنودنا المتقدمة، نحو هذا الحي. عندئذ تركز قصف مدفعيتنا على هذا الحي، الذي ثبت لنا ان القوات اليهودية، المنسحبة من امام المدينة القديمة تحولت اليه. فتهلل وجه الامير ووجه صدقي الجندي، وقال الأول: «لقد انقذها جيش الانقاذ مرة اخرى، وأنقذ معها كرامتنا. فلماذا لا تعمل أنت هكذا». اجابه آمر اللواء صدقي: «ليس لدي اوامر»، فقال له: «مسكين. ترى ماذا سيحل بك بعد انسحاب هؤلاء...».

واحتدمت المعركة في الشيخ جراح احتداماً شديداً، ثم أخذت تهدأ تدريجيا حتى انتهت عند الظهر بانقاذ القدس من السقوط الذي كان محتما. فالتفت الى آمر اللواء الاردني صدقي الجندي وقلت له: «منذ هذه اللحظة أنتم المسؤولون عنها. فأنا لن أعود».

وطلبت من المقدم مهدي صالح، ابقاء القوات التي لديه في اماكنها حتى المساء وان يسحبها ليلاً ثم يعود الى الاستمرار، في الانسحاب العام، طبقاً للخطة المقررة. وهذا ما حدث فعلاً. وكانت عربات العتاد يسمع لها بسيرها في هدوء الليل، قرقعة صاخبة... لانها... فارغة.

* * *

الجيوش العربية تطلب نجدتنا

كان المقرر أن يتم انسحاب جيش الإنقاذ في ٢٤ أيار، فيشغل الجيشان العراقي والاردني المواقع التي كنا نشغلها. كنت منقبض الصدر من هذا الانسحاب، بينما الجيوش العربية النظامية تزحف على فلسطين، بشكل كان يخيل إلي معه، انها ستحطم القوات اليهودية، أو ترغمها على الاستسلام، ويكون جيش الإنقاذ قد حرم من شرف النصر النهائي، بينما هو الذي أعد عدته ومهد له الأسباب.

وقد ابتهج الفلسطينيون وتحمسوا كثيراً، لدخول الجيوش النظامية، لاعتقادهم انه قد جاء الفرج واقتربت ساعة النصر النهائي. ولما تمت عملية انسحابنا، ذهبت

إلى عمان ومنها إلى الزرقاء ، وكان ذلك في ٢٣ أيار ، فإذا اللواء نور الدين محمود ، القائد العام للجيوش العربية النظامية ، يستقبلني في مقر القيادة ، ودلائل الارتباك بادية على وجهه ، وسألني أول ما سألني : « أين وصلت قوات الإنقاذ في الانسحاب » . فاجبته : « انها تجتاز أريحا باتجاه عمان . ومنها إلى دمشق » . قال بلهفة : « أرجو أن ترسل فوجين منها فوراً ، إلى جسر المجامع ، لدعم قوة عراقية أمام مستعمرة « غيشر » التي لم تستطع مدفعيتنا التغلب عليها ، وقد تحرجت حالة أفواجنا هناك » . قلت : « ان مدفعية جيش الإنقاذ ، مدفعية خفيفة ، وجنودنا غير نظاميين من جهة ، ومن جهة أخرى فهم منهوكو القوى . وأهم من هذا كله، انه لم يبق لدى المدفعية ولا الجنود شيء من العتاد ، فإذا وفرت لي القيادة العامة، العتاد للمدفعية وللمشاة، فإنني مستعد رغم كل شيء ، لنجدة الجيش العراقي » . فقال : « ان جيش الإنقاذ مرتبط بجامعة الدول العربية وهي التي يجب أن تدبر العتاد . . . والمسألة تحتاج إلى وقت طويل . . . » قلت : « وفر لي عتاداً وخذ مني نجدة، وأنا باق في شرق الأردن هذين اليومين، فابعث إلي حينما يتدبر الأمر » . وفي عمان ، بعث اللواء نور الدين محمود يطلبني لمقابلته، فعدت تواً إلى الزرقاء، وما ان لقيته حتى قلت له : « هاأنذا على استعداد، هل هيأتم العتاد» . قال : « لا . ولكن الجيش الأردني يقول انه لايستطيع أن يشغل الجبهة التي كان يشغلها جيش الإنقاذ، بالنظر لاتساعها ، وهو يرى نفسه مضطراً إلى حشر أكثر قواته في منطقة القدس ، فأنا أرجو منك أن ترسل فوجاً من جيش الإنقاذ إلى جنين » . فقلت : « وهذا أيضاً أنا مستعد للقيام به ، ولكن لاعتاد لدي » . قال : « ماكو عتاد » . فقلت له : « انني مضطر إلى الإشراف على عملية انسحاب قواتي ، فأرجو أن لاتبعث إلي بعد، إلا إذا توفر لديك العتاد اللازم » .

وفي صباح ٢٤ أيار ذهبت إلى مقر القيادة العامة في الزرقاء ، بناء على طلبها، وأنا أقنع نفسي هذه المرة انها وفرت لي العتاد . ورأيت اللواء نور الدين محمود مرتبكاً . وقال بحدة : « ان الجيش السوري في سمخ في حاجة شديدة إلى النجدة، فارسل إلينا فوجين لنجدته » ، قلت : « ياحضرة القائد ، أتريد أن نحارب بالحجارة والعصي أم ماذا ؟ . . إذا كنتم جادين فعلاً ، فاعطوني ما أقاتل به » . وفي خلال حديثي معه ، رن جرس التلفون ، فإذا الرئيس الرفاعي يقول :

« البرقية المستعجلة من دمشق تطلب حضورك إليها بسرعة ، وان رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ينتظرك فيها » . فقال القائد العام : « لعل الجيش اللبناني أيضاً في حاجة إلى النجدة . . . يابا روح الله يساعدك ويساعدنا » .

* * *

موقف المفتش العام والحكومة السورية من جيش الإنقاذ أثناء عودته إلى دمشق

وصلت في ٢٦ أيار إلى دمشق واجتمعنا في وزارة الدفاع ، الوزير أحمد الشراباتي ورئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، والمفتش العام لجيش الإنقاذ العميد طه الهاشمي والقائد العام لجيش الإنقاذ اللواء اسماعيل صفوة والعقيد محمود الهندي . وبدأ وزير الدفاع السوري السيد الشراباتي الحديث بقوله : « ان الجيش اللبناني في موقف حرج جداً . وأرى من الواجب أن ننجده بأسرع ما يمكن» . وقال السيد رياض الصلح : ان قوة من الجيش اللبناني اصطدمت باليهود داخل الحدود اللبنانية مابين عيترون وبليدة ، والحالة حرجة ، فسألت السيد رياض الصلح : « هل ان المعركة لاتزال مستمرة » . فقال : « لا ، ولكن الحالة خطرة » . فقلت له : « ان جيش الإنقاذ ليس لديه عتاد ، وجنوده قواهم منهوكة وينقصهم كثير من التجهيزات ، كالملابس وغيرها ، وهم في حاجة شديدة إلى شيء من الراحة ، وإلى إعادة تنظيمهم فإذا كان الموقف ليس من الخطورة بحيث ينفسح المجال لنا لإعادة تنظيم قواتنا وتجهيزها بما يلزمها ، فإن نجدتنا تأتي أقوى » . ولكن المجتمعين كلهم أصروا على ضرورة إرسال جيش الإنقاذ كله إلى الحدود اللبنانية ، عدا فوج المقدم صفا الذي يرسل إلى منطقة سمخ . واتفقوا على ان الحكومتين السورية واللبنانية تضمنان إكمال تجهيزات جيش الإنقاذ ، وتوفير كل مايلزمه من عتاد بعد وصوله إلى المواقع اللازمة . . . فاستغربت الحاحهم بهذا الشكل ، فإذا كانت الحالة خطرة جداً ، وكان هناك معارك يجب أن نخوضها على الحدود اللبنانية فكيف نفعل ، وتلك قواتنا .

ترى أيمكن أن يكون الغرض ابعاد جيش الإنقاذ عن دمشق بأي ثمن ، أويكون الغرض زج هذا الجيش ، في مأزق حرج خطر يضطر فيه، اما إلى أن يفنى وأما إلى قبول هزيمة . ولم يمض إلا قليل حتى بدأت قطعات الجيش تصل دمشق

الواحدة بعد الأخرى، فأخذت تظهر لي أشياء غريبة ، بشأن المواقع التي خصصت لتجمعها . مثلاً، قد خصص المفتش العام خمساً وأربعين خيمة في أزرع للمشاة ، الذين يبلغ عددهم أكثر من ألفين . وأزرع هذه ليس فيها من المياه ، مايكفي سكانها ، عدا ان الخيم لا تتسع حتى لاقل من نصف هذا العدد. وغدا قسم كبير من هؤلاء الجنود ، يحرقهم حر الشمس نهاراً ويؤذيهم البرد ليلاً ، لقلة مالديهم من تجهيزات. وقد أدى الازدحام إلى اقتتال على المياه ، وطلبت نقل القوة إلى معسكر قطنا فانتقلت إليه . وتحددت أماكن متفرقة لجيش الإنقاذ ، فالاليات في مكان ، والمدفعية في مكان آخر ، والمشاة في مكان ثالث ومستودعاته في مكان رابع ، حتى غدا الجيش متفرقا مشتتاً . وكانت هذه المعسكرات كلها ، تحت حراسة بعض وحدات من الجيش السوري ، والشرطة العسكرية . وعمد المفتش العام إلى تسريح فريق من الجنود ، كان يجردهم حتى من سلاحهم الشخصي . ثم أصدر أمراً لفوج حطين ، بالتحرك إلى بنت جبيل ، وأمراً آخر لفوج اليرموك ، بالتحرك إلى سمخ ، دون مراجعتي ، فرأيت أنه لابد من مفاتحة رئيس الجمهورية بهذه الأمور ، وكان ذلك في ٢٧ أيار . وإذا عند الرئيس المفتش العام نفسه ، فأوضحت للرئيس أولاً الفوضى التي بذر بذورها « تنظيم » هذا القائد المفتش العام ، وانه لم يكلف نفسه زيارة الجبهة مرة واحدة ، وانه لم يكن يبالي بحاجتنا إلى العتاد، وانه استقبلنا بفوضى لعلها تفوق الفوضى التي شيعنا بها . وأخيراً رجوت منه إعفائي من القيادة وتسليمها إلى المفتش العام نفسه ، وسكت المفتش العام ولم يدافع عن نفسه بكلمة واحدة . أما الرئيس فقام يسترضيني بالعبارات التقليدية ، ويحاول إزالة سوء التفاهم ، قاطعاً على نفسه عهداً أن ماجرى من قبل ، لن يجري مثله فيما بعد .

* * *

بين تفكيرهم وتفكيرنا

غادرت القصر الجمهوري ، وذهبت إلى منزلي ، ولأول مرة بعد قيام الحركات في فلسطين ، فذهبت وعائلتي لتناول الغداء في الربوة . وتنبهت لأصوات جنود متعالية في اناشيد حماسية تنبعث من سيارات بدأت تمر أمام أعيننا متجهة نحو بيروت . واطلت النظر إلى هؤلاء الجنود ، فإذا هم جنود جيش الإنقاذ، فوج

حطين، ورئيسهم مدلول عباس آمر الفوج . ويتحرك الفوج ، وأنا لاأعرف عن حركته شيئاً ... ولم تمض غير ساعات على العهد الذي قطع في القصر ... وذهبت تواً إلى القصر الجمهوري ، واطلعت الرئيس على هذه الحادثة ، وذكرته بالعهد الذي قطعه . فرد قائلاً : « مستحيل ، سأستدعي الساعة ، طه باشا . لا تتأثر . اطمئن » .

ورحت بعدها أرسل الوحدات إلى لبنان ، وهي لاتزال ناقصة التجهيزات، والسلاح والعتاد، بل والعدد أيضاً . إذ ان الجنود الذين في المستشفيات ، وأولئك الذين استشهدوا في ساحات القتال ، لايزالون ضمن العدد المسجل على جيش الإنقاذ ، بينما لم ينضم إلى الجيش بدلاً منهم . وفوق ذلك فقد اقتطعوا من هذا الجيش فوج اليرموك ، وأرسلوه إلى سمخ ، بدون رأيي ، على انهم عوضوني عنه ، فوجاً من قوة البادية . وقد استغربت هذا التدبير ، ولكن حوادث أخرى بدأت تقع، انكشف لي في ضوئها هذا اللغز . ان لبنان كان حقيقة في خطر ، وان جيشه الصغير لم يكن كافياً لحماية حدوده الطويلة ، وتحت ستار حاجة لبنان إلى المعونة لدفع الخطر « تعمدوا » ابعادي مع جيش الإنقاذ عن دمشق ، والجيش في أقصى حالات الضعف . وكان استبدالهم بفوج اليرموك أفضل وأقوى فوج في جيش الإنقاذ فوجاً من قوات البادية ، يرتبط آمره برابطة الولاء الشخصي لرئيس الجمهورية، تدبير خاص ، الغرض منه ، وقوف هذا الفوج في وجه أية حركة انقلابية في سورية أو لبنان ، على اعتبار انهم كانوا يتصورون انني أفكر في انقلاب .

* * *

ينامون مستريحي البال ...

في ٢٩ أيار كانت وحدات جيش الإنقاذ قد اتخذت مواقعها على الحدود اللبنانية ، وجئت في اليوم نفسه إلى بيروت ، فقابلت في وزارة الدفاع ، الوزير والزعيم شهاب ، قلت لهما انني ذاهب إلى الجبهة . فرافقاني إليها، وبعد أن اجتزنا مدينة صور ، باتجاه بنت جبيل ، رأيت وحدات من مشاة ومدفعية وخيالة من الجيش اللبناني عائدة نحو بيروت . فسألت الزعيم شهاب : « ماشأن هؤلاء

الجنود؟ » قال : « انهم عائدون من المعركة التي نشبت بيننا وبين اليهود في عيترون- بليدة . سحبناهم ليأخذوا قسطاً من الراحة » . ولما اقتربنا من جسر تبنين الذي يبعد عن الحدود اللبنانية الفلسطينية ١٥ كيلومتراً إلى الشمال ، رأيت جنوداً يعملون تحت هذا الجسر ، فسألت الزعيم : « ما شأنهم ؟ » قال : « انهم يزيلون الألغام التي كنا وضعناها لنسف الجسر ، منعاً لتقدم القوات اليهودية نحو صور . وأرى أنه لم يبق من داع لها ، بعد أن جئتم لمعاونتنا بجيش الإنقاذ » .

وصلنا إلى تبنين ، فاصطحبت معي آمر فوج قوة البادية ، المقدم طالب الداغستاني ، ومررنا ببنت جبيل ثم بعيترون ، فاصطحبت معي آمري الأفواج فيهما ، ومن عيترون تابعنا السير مشياً إلى ان وصلنا إلى التلال الواقعة على الحدود ، وهي تبعد ثمانمائة متر عن قرية المالكية التي يحتلها اليهود . ورحت أراقب المالكية هذه ، فبدا لي هناك تحصينات قائمة في بعض الأماكن على عدة خطوط ، واليهود في حركة تدل على انهماكهم في إقامة تحصينات جديدة .

تقع المالكية على تلال تشرف على طريق عيترون – سعسع ، وعيترون – قدس– النبي يوشع ، وعيترون – بليدة – ميس الجبل – مرجعيون . وهي تحمي من جهة أخرى سهل الحولة ، القائم بين الحدود اللبنانية والحدود السورية ، وتعتبر بهذه الصفة مركزاً مهماً يشكل قاعدة خطيرة تستطيع القوة المرابطة فيها تهديد بنت جبيل والقسم الجنوبي كله من جبل عامل ، كما تهدد مستعمرة المنارة القائمة على عشرة كيلومترات إلى شمالي المالكية – الطيبة والقسم الشمالي الشرقي من جبل عامل . واحتلال هذا الجبل حتى القاسمية ، ودمجه في اسرائيل ، هو أحد أغراض اليهود الرئيسة المعروفة . وكانت القوة التي بأمرة الرئيس أديب الشيشكلي ، التابعة لجيش الإنقاذ ، تحتل المالكية . ولكن اليهود الذين هاجموها مستميتين ، تمكنوا من انتزاعها من بين يدي الشيشكلي واحتلالها . وكنت وأنا أدقق في تفحص المالكية ، وما يحيط بها ، افكر في ضرورة احتلال هذه القرية، لانها تشكل خطراً شديداً على قواتنا المرابطة بالقرب من هذه المنطقة . فأخذت أدرس ، استناداً لوضع الأراضي، وماهيتها ، الخطة التي يجب أن تتبع لاحتلالها، وأنا مطمئن إلى انها الخطة التي ستضع المالكية بين يدي . وتركنا مرصدنا هذا ، فرحت في الحال ابدل مواقع قواتنا وترتيبها ، بشكل يتلاءم مع الخطة التي رسمتها . وهناك صافحني وزير

الدفاع اللبناني ، الأمير مجيد ارسلان والجنرال شهاب عائدين إلى بيروت . ولا أنسى قول الجنرال شهاب لي وهو يصافحني مودعاً :

« هالليلة سأنام بالبيجاما ، وكذلك يفعل فخامة الرئيس » .

بعد ان انهيت ترتيباتي الرئيسة ، عدت إلى بيروت في ٣٠ أيار لأرى ماتم بشأن العتاد الذي كانوا وعدوني بتقديمه إلى جيش الإنقاذ. وكان موقف رئيس الحكومة اللبنانية الشيخ بشاره الخوري ووزير الدفاع اللبناني موقفاً حسناً جداً . فقد تسلم جيش الإنقاذ بواسطتهما العتاد الموعود . وحين ما قابلت الرئيس ، قال لي : « أصبحت من يوم وصول قواتكم إلى الحدود مستريح البال » .

* * *

خطة سحق رأس الأفعى

معركة المالكية

كانت خطة الجيوش العربية النظامية بعد التعديل في مواقع تحشيدها ترمي إلى الزحف باتجاه ناتانيا فتل أبيب ، أي رأس الأفعى ، على حد تعبير الملك عبدالله . ولكن حركات الجيش السوري أمام سمخ ، وحركات الجيش العراقي أمام مستعمرة « غيشر » – جسر المجامع ، والفشل الذي نتج عن هذه الحركات في ٢٢-٢٣ أيار، والضعف الذي شعر به الجيش الاردني ، بعد أن تسلم مناطق جيش الإنقاذ ، وفشل الجيش اللبناني في معركة الحدود في بليده، هذا كله قد سبب تبديلاً أساسياً ، في الخطة الرئيسة المرسومة للهجوم العام الذي كان مقرراً في ٣٠ أيار . وبقيت فكرة الاحتفاظ بالمناطق العربية في حدود التقسيم هي الأساس ، وقد تبين لي فيما بعد أن هذه الفكرة كانت منذ البدء الفكرة الأساسية عند البعض ، وقد انكشفت لليهود هذه الخطة ، كما انكشف لهم حقيقة التسلح في الجيوش العربية، ومدى قواتها . لذلك كنت اعتقد اعتقاداً تاماً ، ان هجومنا على المالكية انما هو هجوم موضعي يقوم به جيش الإنقاذ منفرداً . وقد جرأني هذا ، على طلب المعونة من الجيش السوري ، كأن يساعدنا طيرانه في عمليات استكشاف المالكية والنبي يوشع والهراوي ، وفي قصف المالكية اذا أمكن ، بقنابل الطيارات. فلبى سلاح الطيران

في الجيش السوري طلبي ، وقام بعمليات استكشاف في المواقع المذكورة ، عرفنا بنتيجتها أن لليهود ، تحصينات قوية من الخنادق ، وعدداً كبيراً من « بلوك هاوس » قلاع صغيرة محصنة تحصيناً متيناً . وشاهدت الطيارات أيضاً ، تجمعات يهودية كبيرة في جوار المالكية . وتمت ترتيباتنا ضمن نطاق المستطاع ، فقررت الهجوم في السادس من حزيران . وجمعت آمري الأفواج وبعض الضباط ، وفي مقر القيادة في تبنين ، واطلعتهم على قراري الأخير ، وأمليت عليهم الخطة التي رسمتها ، وكان وزير الدفاع اللبناني حاضراً هذا الاجتماع . وهذا ملخص خطوطها الرئيسة : أولاً – الفوج اللبناني مع مدرعاته يتجمع ليل ٥–٦ في مفرق طريق بليده – عيترون – المالكية ، ويقوم بهجوم على المالكية من الشمال ، متجهاً نحو الجنوب والشرق . ويتجمع فوج البادية مع مدرعاته بين عين ابل ورميش ، فينحدر على طريق ثانوية باتجاه صالحة ، في الأراضي الفلسطينية ، متابعاً حركة التفافه باتجاه صالحه – المالكية، ويقوم بهجومه عليها من الجنوب إلى الشمال ، فيتلاقى الفوجان في المالكية . أما المدفعية بكاملها ، فتأخذ مواضعها بالقرب من عيترون ، على أن يكون مرصدها فوق التلال المشرفة على المالكية ، والتي تبعد عنها ٨٠٠ متر إلى الغرب، حيث أكون مع المقر في المرصد . وقد احتفظت بالسرية البدوية وسرية أخرى درزية ، كقوة احتياطية تسد الثغرة بين جبهتي الفوجين المهاجمين ، أي الفوج اللبناني وفوج قوة البادية ، كما وضعت سريتين من فوج حطين بقيادة المقدم مدلول عباس ، إلى يمين الفوج اللبناني . وقررت في هذا الاجتماع مع الضباط حتى التفاصيل في الخطة التي يجب أن تنفذ . وأرسلت مع الفوج اللبناني المقدم شوكت شقير ، كضابط ركن يشرف على مراحل تنفيذ الخطة ، ومع فوج قوة البادية الرئيس عامر حسك ، كضابط ركن بالمهمة نفسها . ولم يبق إلا اختيار ساعة الهجوم ، فحاولت أن يكون في الساعة المختارة شيء من المباغتة ، ولذلك قررت أن يبدأ الهجوم الساعة الثالثة عشرة من يوم ٦ حزيران ، باعتبار انها ساعة تناول الطعام والراحة ، وكان اليهود يتوقعونه في الصباح أو في الليل ، وهكذا توفرت المباغتة فعلاً ، كما أردت . وكان لدى آمر فوج البادية معلومات ، أن في صالحة قوة يهودية وتحصينات قوية ، وقد أصر على صحة هذه المعلومات . والواقع انه لوصحت فيكون للأمر تأثير شديد في خطتنا ، قد يؤدي إلى فشلها ، منذ الخطوة

الأولى . لذلك ورغم اعتقادي بعدم صحة هذه المعلومات ، ولإزالة الوهم المستولي على آمر الفوج ، وانزال الطمأنينة على نفسه ، طلبت من المقدم مدلول ، ان يرسل دورية استطلاع قوية للتثبت من الأمر ، وانه اذا كانت الأخبار غير صحيحة، تبقى الدورية في صالحة ، إلى ان يمر فوج البادية . وتحركت الدورية ، وأصدرت الأوامر فبدأت القوات تنفذ منها ما يختص بالتجمع في مواقع الشروع بالهجوم، وكان كل شيء يجري طبق المرام . وصلت الدورية إلى صالحة ، وتمركزت فيها ، وأرسلت تنبئ بخلوها من العدو . وفي الساعة الثانية عشرة تماماً كنت في المرصد يصحبني وزير الدفاع اللبناني ، والجنرال شهاب ، وأخذت استطلع بكل دقة وضع المالكية ، فإذا هدوء تام وسكون شامل يخيمان عليها ، فكان ذلك كمقدمة للعاصفة التي ستمزق دقائق هذا السكون . وتقدم إليّ آمر المدفعية الملازم عفيف البزري يقول ، ان الساعة ١٢ و ٥٨ دقيقة وان المدفعية جاهزة ، فأمرته ان يبدأ القصف في تمام الساعة الثالثة عشرة بالضبط .

وثارت العاصفة في الساعة الثالثة عشرة تماماً ، وانفجرت افواه ثمانية مدافع تصب قنابلها على أهدافها الأولى ، منسجمة مع حركات المدرعات ، والمشاة التي أخذت تبدو متقدمة رويداً رويداً ، من أهدافها . وأخذ اليهود يتراكضون من أمكنة استراحتهم للاحتماء بالخنادق والقلاع ، وبعد برهة أخذت قنابل المدفعية اليهودية تنصب على جنودنا ، ومثلها الرشاشات والبنادق ، فاشتعلت الجبهة نيراناً حامية . وكان فوج قوة البادية لم يظهر بعد في الميدان، ذلك ان اليهود كانوا قد نسفوا جسرين على طريقه ، التي تفصله عن هدفه في المالكية ، الأمر الذي كنت اتوقعه ، فحسب اليهود في الساعة الأولى من المعركة ، ان هذا هو الهجوم كله فكثفوا قواتهم في الناحية الشمالية من الجبهة، وراحت المدفعية تصب قنابلها بلا انقطاع على هذه الناحية ، وبدت حركات اليهود متضعضعة مما عرضهم لاصابات كثيرة . وفي هذه اللحظة ، ظهرت الطائرات السورية فعيّنا لها بواسطة اللاسلكي ، الأهداف التي يجب أن تقصفها ففعلت بنجاح، وطلبنا منها أن تحدد لنا المكان الذي وصلت إليه قوة البادية، وتستطلع الطرق المؤدية إلى المالكية من الشمال والشرق ، وهل يظهر فيها نجدات يهودية ؟. فعرفنا من الطائرات ان فوج البادية اقترب من المالكية، ويسرع إليها ، وان نجدات يهودية من النبي يوشع والهراوي

قادمة إلى المالكية . وفي الساعة الخامسة عشرة ، دخل فوج قوة البادية خط النار ، واشتبك مع اليهود في الناحية الجنوبية من المالكية . ووصلت النجدات اليهودية الى هذه الناحية نفسها من خط النار ، واعتقد انها كانت القوة الاحتياطية اليهودية ، فانشطرت القوات اليهودية إلى شطرين ، في الشمال من المالكية ، وفي الجنوب تدافع مستميتة . على ان قواتنا استمرت في التقدم، واخذت الإصابات تزداد من الفريقين ومدفعيتنا تتحول من هدف إلى آخر، فتدك أهدافها دكاً متواصلاً . وحينما بدا لليهود ان هذه هي قواتنا كلها، توزعت قواتهم لصدها في الشمال والجنوب ، امرت سرية البادية والسرية الدرزية وهما القوة الاحتياطية لدي ، بالهجوم على قلب المالكية في تمام الساعة السابعة عشر ، وكان لايفصلهما عن المالكية أكثر من ٤٠٠ متر ، فكانت مباغتة جديدة لليهود. وانطلقت السريتان المذكورتان في هجومهما ، وقطع جنودهما مايقارب نصف المسافة التي تفصلهما عن المالكية ، دون ان يصادفوا مقاومة تذكر . وبلغت المعركة الذروة في نواحي الجبهة كلها، وضغط الهجوم يستمر، وحماسة الدفاع اليهودي تزداد شدة . ولكن لم تمض برهة قصيرة بعد انقضاض قوتنا الاحتياطية، حتى شعرنا بتضعضع صفوف اليهود ، وأخذت وحدات يهودية تترك مواقعها ، أمام القوات المهاجمة الأولى ، لصد هجوم القوة الاحتياطية، غير مبالية بالخسائر ، على اعتبار ان هجومنا اذا نجح فسيشطر القوات اليهودية إلى شطرين يعرض كلا منهما للأسر أو الفناء، اذ كان الانسحاب أمراً يكاد يكون مستحيلاً . فسقط عدد كبير من القتلى أمام هذه الحركة. وكانت قواتنا وصلت إلى حقول الالغام التي أخذت تنفجر بغزارة ، فأثقلت حركة الهجوم، ولكنه بقي مستمراً . وكانت قنابل مدفعيتنا ونيران رشاشاتنا ، تتلقف القوة التي أفرزها اليهود، للوقوف بوجه قوتنا الاحتياطية « السريتين البدوية والدرزية » وتتلفها. وكان اليهود في نقاط دفاعهم ، مكشوفين، لنيران مدفعيتنا ، وراح فريق منهم يشعل النيران في حقول الزرع ، فقام سد من النيران بينهم وبين قواتنا . على أن التضعضع في صفوفهم أخذ يبدو واضحاً، فاستولى جنودنا في الناحية الشمالية من المالكية ، على الأبراج والتحصينات التي تشغل الخط الأمامي ، كما استولوا في الناحية الجنوبية على تحصينات معسكر المالكية . وأخذت نيران الزروع تخمد ، فاندفع جنودنا في تقدمهم ، بدأ تراجع

القوات اليهودية من الخطوط الأمامية نحو القرية، من الشمال والجنوب، وفئات منها تنكمش نحو شرقي القرية ، فكانت أول علائم الهزيمة. وما أذنت الساعة ١٩ مساء حتى كان جنودنا استولوا على التحصينات كلها، وانحصر الدفاع في أطراف القرية، فتمركز القصف عليها . وبدأت نيران مدافعهم تتضاءل ، ثم ساد الظلام فأصدرت أمراً بالتوقف وتحصين المواقع المحتلة، على ان نستكمل المعركة في فجر الغد، ولكن سرية البادية والسرية الدرزية وسرايا من حطين ، بعد أن توقفوا عادوا الى التقدم من دون أمر، ودخلوا القرية وقضوا على من فيها من المدافعين . وانتهت المعركة حوالي منتصف الليل بهزيمة تامة لليهود. وعندما دخلت بقية قواتنا في فجر اليوم الثاني إلى المالكية بهتوا من كثرة ما رأوه من قتلى اليهود ووفرة ما تركوه من عتاد ومدافع هاون من بينها ما هو من عيار ١٢٠ أضخم مدفع رأيناه في حرب فلسطين ، وهو من صنع معامل سانت اتيان الفرنسية . وقد هالني منظر بعض القتلى من اليهود ، مضمدي الجراح، مما يدل على انهم كانوا يقاتلون وهم جرحى . وكان من بين الوثائق التي وجدناها معهم مخطط يبين موقع الألغام ، أعاننا على تجنب الكثير من الخسائر في الأرواح. ومع ذلك فقد بقيت هذه الألغام المبثوثة في حقول مختلفة تهددنا بالخطر حتى بعد شهرين من احتلالنا المالكية .

تخلصنا من المالكية . وارسلت رتلاً من فوج حطين إلى قَدَس، التي تبعد مايقرب من كيلومترين إلى شرقي المالكية ، فاحتلها ، وفرضنا سيطرتنا على المنطقة ، واليهود تغمرهم حالة من القلق قلما صادفوا مثلها.

* * *

مؤامرات الهدنة الأولى

قررت معركة المالكية مصير الحدود اللبنانية ، ومصير جبل عامل كله ، فأصبح في أمان مؤقت على الأقل . كما قررت مصير القوات اليهودية التي كانت تهدد من المالكية ، بالخطر الشديد ، كل ما جاورها . وفتح أمامنا بعد هذا الانتصار ، مجال أوسع للاتصال بالجيش السوري ، بحركة متقابلة ، فيما إذا أقدم على عملية ما، وكان له صدى كبير في الأوساط العربية والأجنبية . وفي٨ حزيران طلب مني رئيس الحكومة اللبنانية ، التوسع في الأراضي الفلسطينية ، اذا كان ذلك ممكناً ، فأجبته :

« ان هذا ممكن وضروري ، ولكن بقية قواتنا لاتزال في دمشق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ليس لدينا عتاد سوى قليل من عتاد المدفعية، بعث إلينا به الملك عبد الله، وشيء من عتاد المصفحات ، ومدافع الهاون ، وبعض سيارات وهذا كله في دمشق » . ورجوت منه أن يبذل ما يستطيع من جهد لكي نحصل على العتاد ، فوعدني بذلك على اعتبار انه يجب القيام بسرعة، بعمل يكون له تأثير في مجرى المفاوضات للهدنة . وكانت كلمة الهدنة أخذت تتداولها الألسن، دون أن نعلم من أسبابها وشروطها شيئاً . وكان السيد عبد الرحمن عزام قد مر ببيروت في طريقه إلى دمشق، فهنأني بانتصار المالكية، ثم فاجأني بمسألة الهدنة وسألني رأيي فيها . فقلت : « ان الهدنة تعقد عادة، بعد هزيمة العدو فيطلبها المنهزم، وهذا أمر لم يحدث بعد ، فلا نحن انهزمنا أو انسحقنا ولا اليهود انهزموا أو انسحقوا، على ان حالتنا نحن العرب ، خير من حالة اليهود . فلست أرى أي معنى » . قال : « ان الأميركان والإنكليز يضغطوا علينا ضغطاً شديداً ، لنقبل الهدنة . وقواد الجيوش العربية يشكون من قلة العتاد ، ويطلبون قبول الهدنة » . فقلت له : « انني استغرب هذه الشكوى ، وهم لم يخوضوا بعد أية معركة كبيرة تستنفذ العتاد ، وتحملهم على الشعور بالضعف » . قال : « انه أمر لابد منه ، فالحكومات العربية مشتركة مع القواد، في الرأي بضرورة قبول الهدنة » . قلت : « ان الهدنة معناها اعطاء فرصة لليهود ليزيدوا في تسلحهم وفي قوتهم وتنظيم صفوفهم ، بعد ان شعروا ان الجيوش العربية قوية بسلاحها وعددها . ولديّ من المعلومات ما يؤكد ان بواخر مشحونة سلاحاً وعتاداً ، ترسو في موانئ الادرياتيك والبحر الأسود ومياه فرنسة، وهي مستعدة للسفر إلى تل أبيب عند أول إشارة » . فقال : « هذا صحيح، ولكن انكلترا واميركا ستحولان دون سفر هذه البواخر . وقد وعدنا بذلك » . قلت له : « أما أنا فاعتقد انه ربما كان لضغط الاميركان والانكليز عليكم لقبول الهدنة ، غرض واحد ، هو تسهيل سفر هذه البواخر الى الموانئ اليهودية . فاليهود اليوم في حالة ضعف بالنسبة لنا نحن . وأرجو منك أن تبذل ما في وسعك لاحباط مشروع الهدنة، وقد تكون مبدأ كارثة فلسطين » . قال : « سأبذل مافي وسعي ولكن يجب على كل حال ان لانغالي في التشاؤم إلى هذا الحد .

وفي صباح ٩ حزيران تسلمت من قيادة الجيش السوري برقية هذا نصها :

غداً اعتباراً من الساعة السادسة صباحاً هجوم عام على جبهاتنا بقصد استجلاب جميع احتياطي العدو نحونا وتسهيل مهمتكم .

الإمضاء – قائدالجيش السوري

استغربت هذه البرقية استغراباً شديداً ، وأنا لا أعلم بشيء عن « مهمتنا » . وأخذت أفكر في هل أن هذا الهجوم العام يقوم به الجيش السوري هو بالاشتراك مع بقية الجيوش العربة النظامية ؟ وهل هو الهجوم الذي كان مقرراً أن يقع في ٣٠ أيار ، ثم أجلوه إلى اليوم ؟ أم هو مظاهرة عسكرية يقوم بها الجيش السوري منفرداً ، ليفسح لنا مجالاً للتغلغل في جنوب فلسطين ، ومعداتنا من قوات ومصفحات لم تصل بعد من دمشق ؟ ام انه الدور الذي لعبوه معنا يوم كنا في الجبهة الوسطى ، يحبون ان يتمموه هنا ، أي توريطنا وتعريضنا للخسران ؟ فأرسلت إلى القائد العام للجيش السوري مستفهماً .

ويأتيني الجواب البرقية التالية :

٩–٦–١٩٤٨ رقم ٧٨

جواب برقيتكم رقم ٧ . مهمتكم استمرار الهجوم الخاطف نظراً للوضع السياسي .

الإمضاء – القائد العام

هجـوم خـاطف .. بأي اتجـاه .. وإلى أي هدف ... « نظراً للوضع السيـاسي » . أيكون المقصـود الهـدنة ؟ هل تقررت الهـدنة إذن ؟ وهل يكون « الهجوم الخاطف » للجيوش العربية عبارة عن مظاهرة عسكرية ، ترغم اليهود على قبول ما يفرضه العرب عليهم من شروط ؟ .

* * *

الهجوم على الناصرة – دخولنا إليها قبيل الهدنة

على أثر الضربة التي انزلناها باليهود في المالكية ، ركن هؤلاء الى الهدوء التام على هذه الجبهة ، على أنهم بدأوا يقومون بنشاط قوي في منطقة الناصرة،

ويهاجمون بعنف قريتي لوبيه ومجد الكروم . انهم يريدون أن يحتلوا أكثر مايمكن من قرى وأراض عربية ، قبل حلول الهدنة ، وينوي العرب القيام بمظاهرات عسكرية لاتترك إلا صدى قرقعة موضعية . فعزمت على الاسراع إلى نجدة لوبيه ومجد الكروم، للحيلولة دون سقوطهما في أيدي اليهود ، معتمداً على مالديّ من قوات ضئيلة . انها مغامرة بالنظر لقلة العدد والمعدات عندنا ، ولكن برقية وردت عليّ من القيادة العامة للجيوش العربية أزالت هذا التردد . وهذا نص البرقية :

٩-٦-١٩٤٨ رقم ٧٩

من القيادة العامة إلى فوزي وقيادة الجيش اللبناني

هجم العدو ليلة ٨-٩ على مجدل والناصرة ولوبيه ومسكنة . صد الهجوم عدا لوبيه لايزال مستمراً عليها. نرى ان تقدم قوى فوزي نحو الجنوب باتجاه الناصرة مما يؤدي إلى تهديد قوى اليهود والهاغانا وتخفيض الضغط على القرى المذكورة .

الإمضاء – نور الدين

لم يبق من مجال للتردد ، مهما يكن من خطر المغامرة ، فهي إذا نجحت سيكون لها شأن كبير جداً ، وإنها لتنجح إذا هم أمدوني بالسلاح والعتاد ، وتحرك الجيش العراقي من ناحيته، فأزحف من الناصرة إلى العفولة، ويقوم الجيش العراقي بحركة مماثلة على هذه المستعمرة المهمة جداً فنحتلها معاً . ونشطر القوات اليهودية والأراضي اليهودية إلى شطرين، شرقي وغربي ، فتنقطع كل علاقة بين القسم الزراعي والقسم الصناعي منهما ، وفي مثل هذه الحال يستحيل عليهما الصمود وقتاً طويلاً . وينفسح المجال أمام الجيوش العربية، لتصفية المناطق اليهودية الواحدة بعد الأخرى. أما إذا لم يمدوني بالسلاح والعتاد ، ولم يتحرك الجيش العراقي لسبب ما، فستكون المسألة عبارة عن توريط جيش الإنقاذ في احتلال جبهة واسعة جداً ، بقوى ضئيلة العدد والمعدات جداً ، وفي وجه مستعمرات يهودية محصنة وقوية جداً ، تحيط بجيش الإنقاذ من الشرق والجنوب والغرب. وقد نرغم عندئذ على خوض معارك ليس فيها أي تكافؤ بيننا وبين اليهود ، مما قد يؤدي إلى تحطيم جيش الإنقاذ، وضياع منطقة الجليل بأسرها . وكنت استبعد رغم كل مامضى ، أن «يقفوا» مني هذا الموقف ، فان فيه ماقد يحمل على القول انه يشبه الخيانة . . .

على ان ارتيابي في تصرفات القيادة لم يبلغ هذا الحد . وحالة منطقة الناصرة حرج جداً ، والأوامر التي تلقيتها من القيادات كلها، تطلب مني التقدم نحو الناصرة. فإذا أنا تقدمت ، فلا يمكن أن يتخلوا عني ، وكل امداد يمدوني به ، هو في الوقت نفسه امداد لهم جميعاً ، امداد للجيشين السوري والعراقي معاً . ولان الخط الجديد الذي سأتمركز فيه ، سيجعلني قادراً على معاونة الجيش العراقي، وتحمل قسم كبير من العبء الذي يتحمله وتسهيل مهمته ، فيما إذا قرر يوماً الهجوم بأي اتجاه كان . وهكذا تكون الحالة بالنسبة للجيش السوري أيضاً . وقد جاءني أحد المقاتلين الفلسطينيين المكنى أبو ابراهيم ، وكان رئيساً للمسلحين المحليين هناك ، يعلمني انهم لم يستطيعوا الصمود ، فاضطروا إلى الانسحاب . واحتل اليهود المواقع الحساسة على طرقات الناصرة المؤدية إلى الغرب كلها، وقوات أخرى قطعت طريق الناصرة الوحيد، المؤدي إلى الشرق، عند مستعمرة الشجرة، فأصبحت الناصرة منعزلة ، وهي على وشك السقوط . فقررت نهائياً الإسراع في نجدة المنطقة مهما يكم من أمر، عازماً علي أن أختم عمليات جيش الإنقاذ بانتصار يجعل هذه المناطق ضمن نطاق الخطوط العربية ، قبل بدء الهدنة ، ولو بساعة واحدة . وكانت محاولات اليهود في هجومهم على لوبيه ومسكنة ومجد الكروم والناصرة، ترمي إلى الغرض نفسه ، بالنسبة إليهم . فأسرعت حالاً بإرسال شيء من العتاد المتنوع ، وفصيلين من المشاة ، إلى لوبيا ، ومثل ذلك إلى مجد الكروم . واشتبك جنودنا يساعدهم المسلحون المحليون، فور وصولهم ، بالقوات اليهودية المهاجمة ، فصدوها وعطلوا بعض مصفحاتها ، وغنموا منها بعض الأسلحة. وباحتلال لوبيه من الجنوب ومجد الكروم من الغرب تأمنت طريق حركاتنا . وأرسلت قوة صغيرة ، إلى الفراضية ، على طريق صفد – الرامة ، فتأمنت حركاتنا من الجبهة الشرقية . ثم جهزت من فوج حطين رتلاً وسريتين وأربع مصفحات وبطارية مدفعيته، واندفعت بهذه القوة صباح ٩ حزيران باتجاه الرامة ومنطقة الناصرة ، تاركاً الفوج اللبناني في منطقة قدس – بليدة ، وفوج قوة البادية في المالكية . واتخذت بعض الترتيبات في تربيخا غربي سعسع ، وفي ترشيحا غربي طريق سعسع – الرامة . وفي حماية هذا الستار كان الرتل يسير بسرعة نحو الرامة، ومنها باتجاه لوبيه – الناصرة ، عندما أخذنا نبأ غير رسمي أن القتال سيتوقف الساعة الثامنة من صباح ١٠ حزيران .

فأرسلت من الرامة الى المقدم شقير في المقر هذه البرقية :

٩-٦-١٩٤٨ رقم ٤

توغلنا حتى سعسع ترشيحا الرامة المغار . انقذنا المجدل ولوبيه . سنتقدم إلى الناصرة . أعلمونا الموقف عند طالب (آمر فوج قوة البادية) . تلفنوا إلى رياض بك وتأكدوا منه توقيف القتال غدا الساعة الثامنة صباحاً . اعلمونا .

الإمضاء – فوزي

الوقت ضيق .. واليهود أقوياء في منطقة الشجرة ، على طريق الناصرة ، فيترتب عليّ أن أطرد اليهود من هذه التلال ، لاشق طريقي إلى الناصرة ، فأنظف التلال المشرفة عليها ، والسيطرة على طرقها من ناحية الغرب . هذا كله يجب أن يتم قبل الساعة الثامنة من صباح ١٠ حزيران . اذن فلأتسلم قيادة الرتل بنفسي . كان وزير الدفاع اللبناني الأمير مجيد ارسلان يرافقني ، وقد سهل لي وجوده الحصول على حاجيات الإنقاذ ، كالبنزين وبعض المؤن ووسائل النقل وغير ذلك . وفي ليل ٩-١٠ حزيران ، كانت ترتيباتي تامة للهجوم على اليهود المتحصنين شمالي الشجرة، على طريق الناصرة . وفي الساعة الخامسة من صباح ١٠ حزيران أصدرت الأمر بالهجوم على الشجرة، فاندفع مشاتنا تساندهم المدفعية بقصف عنيف جداً ، ويحميهم عدد من المصفحات ، نحو التلال التي تفصلها عنهم أراض منبسطة مكشوفة ، معرضة على طول المسافة ، لنيران اليهود . لم يكن لنا بد ، من تحمل خسائر ، كان من الطبيعي ان تقع في جنودنا ، إلى أن علقت أقدامنا بالمرتفعات ، فغزناها وايدينا فيها . وفي الوقت نفسه ، قامت قوة من جنودنا بهجوم آخر من لوبيه ، التي اتخذناها قاعدة لهذا الهجوم ، اشترك فيه فريق كبير من المسلحين المحليين . وجذب دوي المدافع فريقاً من الأهلين المسلحين من منطقة الناصرة ، نحو تلال الشجرة من الغرب . وكان الهجوم عنيفاً جداً وسريعاً ومدفعيتنا تزداد شدة في اطلاق نيرانها ، مبدلة أهدافها بسرعة تتفق وحركات الهجوم السريع . وفي تمام الساعة السابعة بالضبط ، بدأت القوات اليهودية تنهزم على طول خط النار ، باتجاه مستعمرة الشجرة ، فطاردت قواتنا المنهزمين ، واستمرت مدفعيتنا في القصف ، فصبت قنابلها داخل المستعمرة نفسها . وعندما وصل جنودنا إلى جدران

المستعمرة، وكانت بدأت تشتعل فيها نيران كثيفة ، كانت بلغت الساعة الثامنة تماماً . ودخلت سرية من قواتنا مدينة الناصرة بقيادة الرئيس مدلول عباس . وفي هذه اللحظة توقفت مدفعيتنا عن القصف تنفيذاً للأوامر ، وأخذ أزيز الرصاص من الجانبين يخف رويداً رويداً إلى أن تلاشى . تركت أمام مستعمرة الشجرة ، سريتين من فوج حطين ، ومعهم المسلحون المحليون . ودخلت الناصرة ومعي وزير الدفاع اللبناني الأمير مجيد ارسلان، واستقبلنا الأهلون في دار البلدية مع قوات من الشرطة. وخاطبني رئيس البلدية قائلاً : « إننا منذ ليال عديدة والخوف يمنعنا من النوم ، ولو لم تدخلوا اليوم لكنا رحلنا عن المدينة » .

* * *

أخطر وضع لجيش الإنقاذ

أصبحت قواتنا تحتل خطاً لايبعد سوى ٧ كيلومترات عن العفولة ، التي كانت بادية لعيوننا ، وواقعة في متناول نيران مدفعيتنا . وساد الهدوء الجبهة بطولها . ولكن اليهود لم يرق لهم هذا الوضع الذي يهددهم بالخطر ، فراحوا يتحرشون بقواتنا في قرية الشجرة ، ويهاجمون قريتي شفا عمرو والبروة . وجاءني من هذه القرى شكايات ، وأخبار تنبئ بتخوف الأهلين وتفكيرهم بالنزوح ، فأرسلت إلى شفاعمرو ، فصيلين من المشاة ، ومثلهما إلى البروة ، فانسحب اليهود من جوار هاتين القريتين .

لقد أصبحنا على خط يبعد عن عكا ٩ كيلومترات ، وأحد عشر كيلومتراً عن حيفا ، نهدد بفصل المستعمرات الواقعة شمالي عكا عن تلك الواقعة جنوباً ، ولا يفصلنا عن الجيش السوري من ناحية الشرق ، سوى ثمانية كيلومترات . وهكذا أصبح وضعنا أخطر وضع على الإطلاق هدد أحلام « إسرائيل » ، في مختلف أدوار القتال . وهو أخطر وضع كذلك ، دخل فيه جيش الإنقاذ ، إذ أصبحت قواتنا، وعددها لا يتجاوز الثلاثة آلاف مقاتل ، تحتل جبهة يعادل طولها جبهات الجيوش السورية واللبنانية والعراقية مجتمعة . كان وضعاً خطيراً ودقيقاً جداً ، وهوموضع استغلال يمكن أن يؤدي إلى نصر للعرب سريع حاسم ، إذا أقدمت القيادة العربية العامة، على إمدادنا ، والتعاون معنا في القتال . فقد كنا بهذا الوضع

نستطيع بالاشتراك مع الجيش العراقي ، احتلال العفولة ، فنكون انزلنا ضربة قاصمة بالعمود الفقري « لاسرائيل » . ونستطيع إذا أمددنا بالسلاح والعتاد فقط ، أن نسترد حيفا ونحتل نهاريا ، أو إننا كنا نتصل ، في حالة الإمداد بالسلاح والعتاد ، فقط ، بالجيش السوري ، وبالاشتراك معه ، يمكن أن نحتل الحولة بكاملها . فإذا لم تفعل القيادة العربية العامة شيئاً وتجاهلت ، وتجاهل معها الساسة في سورية ومصر والعراق والأردن ، هذا الوضع ، فإنهم ينزلون بنا ضربة قاضية ، قد تودي بجيش الإنقاذ وبالجليل كله ، ويكونون قد أهدوا بموقفهم هذا ، النصر الذي أصبح في يمين العرب ، هدية إلى « إسرائيل » .

في ليلة ٩-١٠ حزيران

لقد كان لهجومنا هذا الأخير على القوات اليهودية ، تأثير صاعق ، فراحوا يتوهمون قواتنا ومعداتنا ، أكثر مما هي في الواقع أضعافاً مضاعفة ، وحملهم ذلك على حشد أكثر قواتهم ، وأشدها بأساً على طول جبهتنا . وفسح هذا الحشد ضدنا ، مجالاً للجيش السوري ، فاحتل مستعمرة مشمار هايردن التي تبعد كيلومتراً واحداً عن الحدود السورية .

لقد كان اغتباطي بهذا الوضع الذي وفقنا إليه ، وأملي بالأعمال الكبيرة التي نقدر على القيام بها ، استناداً إلى هذا الوضع ، كبيرين ، لا يعادلهما إلا تخوفي من إحجام القيادة العامة ورجال السياسة ، عن استثمار هذا الوضع الخطير . وفي هذه الفترة الخطيرة ، من مجرى الحرب في فلسطين ، تصل إليّ في ١٥ حزيران ، برقية من المفتش العام لجيش الإنقاذ العميد طه الهاشمي ، يطلب فيها إليّ الحضور إلى دمشق ، للمداولة مع بقية القواد في خطة مشتركة ، نطبقها بعد انقضاء مدة الهدنة . ففرحت بهذه البرقية ، وقلت لنفسي انني سأقنع هؤلاء القواد ، باغتنام الفرصة للاستفادة من وضعنا الممتاز . ذهبت إلى دائرة أركان الجيش السوري في دمشق ، وهناك لقيت المفتش العام ومعه الزعيم حسني الزعيم قائد الجيش ، منفردين. وقال المفتش العام : « سنبحث نحن الحاضرين فيما يجب عمله ، ونتفق على خطة نعلم بها بقية القواد » . وجلسنا نحن الثلاثة حول منضدة عليها خارطة كبيرة لفلسطين ، ورحت أشرح الموقف وكيف يمكن أن نستغله بالاشتراك مع

الجيشين السوري والعراقي ، على النحو الذي سبق وذكرته . فقال : « دعنا نبحث الساعة في ما يمكن أن نقوم به من أعمال بما لديك الآن من قوات ووسائل ، يعني لا تنتظر منا أي شيء .. » قلت : « ان امكانياتنا الحالية ضعيفة ، وقد نفشل في أي عمل ، إذا هاجمنا اليهود » . وسردت له بالتفصيل عدد جيش الإنقاذ يومذاك، ومعداته ، مقابل قوات كبيرة من اليهود تحيط بنا من الشرق والجنوب والغرب ... فالتفت الهاشمي إلى الزعيم حسني الزعيم وسأله : « وأنت ما تنوي أن تعمل ؟ » . فوضع الزعيم قلماً على مشمار في الخريطة ، وأشار إلى الطريق المؤدية إلى « ماهاناييم »، وقال : « أنا سأتقدم بهذا الاتجاه ، عندما يتقدم فوزي إلى هذه المستعمرة ويتخطاها باتجاهنا » . قلت : « بعد أن أتخطى هذه المستعمرة لن يبقى أية حاجة لتقدمكم ، إذ أصبح تقريباً في مستعمرة مشمار التي تحتلونها » . فقال واضعاً رأس القلم على خربة أبو زينة الواقعة على الضفة الغربية من نهر الأردن ، اذن اتقدم من هنا على الطريق الموازية لبحيرة طبريا ، إذا تقدم فوزي على الطريق نفسه باتجاهي.. » قلت : « أي أنه يجب عليّ أن أقتحم المستعمرات القائمة على هذه الطريق كلها فأتقدم نحو خربة أبو زينة ، بعد أن أقضي على كل مستعمرة وكل يهودي .. » .

وبينما كنت أفكر باشتراكهم في القتال أو بمعاونة تأتيني منهم ، بدون أن يقاتلوا ، للوصول إلى أهداف كبيرة عامة ، إذ هم يفكرون باستخدام مالديّ من قوة ، لتنظيف ساحات أمام خنادقهم ... وزاد قلقي على الجبهة التي مكن لها جيش الإنقاذ ، باندفاعه وبسالته وإخلاصه في القتال ، بعد الذي سمعت وشهدت. ورغم ذلك رحت أشرح لهم ما يمكن أن يسبب تقاعسهم عن إمداد هذه الجبهة من أخطار ، ومن تفويت للفرص قد يؤدي بالعرب إلى خسران كبير ولكن دون جدوى . وغادرت القاعة التي كنت أشعر كأنما في جوها الثقيل كابوساً يبعث في النفس الأسى والنقمة واليأس ... ولكنني ما تركت دائرة الأركان حتى شعرت بعاطفة تلهب أعصابي ، ورحت أردد لنفسي .. سأقاتل . ولو بقيت بمفردي في ساحة القتال فأعطي الضريبة المترتبة عليّ ، وعليهم أيضاً ، لهذه الأرض المقدسة ، المجبولة بدم الأجداد .

رجعت إلى الجبهة ، أتفقد كل مركز فيها ، ورحت أتحدث إلى الضباط

والجنود ، لاستطلع مبلغ القوة في عزيمتهم ، فإذا أنا كالعادة ألمس أن القوة في نفوس هؤلاء الشجعان ، هي أقوى ماعندنا من قوى ، ذلك أن القوى المادية كانت محدودة دائماً . وكان يسود الجبهة شيء من الهدوء مرده إلى انشغال اليهود باستعداد واسع النطاق ، يبعثه ما يصل إليهم من أسلحة وعتاد ووحدات . بينما نحن العرب ، لم نعمل ساعة واحدة من أيام الهدنة للاستعداد لما قد نفاجأ من أحداث، اللهم عدا المؤتمرات والاجتماعات السياسية ، كما يسمونها ، والعسكرية الفارغة ، واقامة المآدب والحفلات . على ان هذا الهدوء في الجبهة لم يطل أمره، فقد بدأ اليهود تحرشاتهم الموضعية بنا ، على نقاط الجبهة كلها . وكان لهذه التحرشات طابع استطلاعي الغرض منه ، معرفة ما قد نكون أعددناه من سلاح وعتاد وقوات . وفي صباح ١١ حزيران ١٩٤٨ أي بعد الهدنة بيوم واحد ، قام اليهود بهجوم على البروة ، في الساعة الحادية عشرة والنصف، بعد قصف جوي شديد واحتلوها . وقامت قواتنا بهجوم مضاد ، فاستردتها ، فقامت علينا قيامة وسطاء الهدنة ، وطلبوا منا إخلاء البروة ، على اعتبار اننا معتدون في رأيهم ، فلم نذعن لطلبهم . وفي ٢٠ حزيران ١٩٤٨ قاموا بهجوم على خربة رأس علي، الواقعة بالقرب من شفا عمرو ، فاحتلوها . فأبيت رغم ضعفنا أن ترسخ في أذهانهم فكرة اننا ضعفاء ، وأصدرت الأمر بالقيام بهجوم مضاد ، في اليوم الثاني ، واستردت قواتنا هذه القرية . وقام اليهود بحركات هجومية في قرية الشجرة، وفي المالكية ، وفي البروة ، غربي مجد الكروم ، فصددنا حركاتهم هذه كلها . على أن حركات اليهود ، أخذت تتوسع وتشتد ، ووصلت إليَّ معلومات من وزارة الدفاع اللبنانية ، مصدرها وزارة الدفاع السورية ان هناك تحشدات يهودية غربي طبريا وأمام البروة .

وعلى الأثر أرسلت مالديَّ من قوة احتياطية في الرامة ، لتقوية البروة ، على ان يقوم محل هذه القوة سريتان من فوج قوة البادية يكون جنودهما قوة احتياطية لجبهتنا كلها . وأبرقت بذلك إلى آمر فوج البادية ، فعلق هذا موافقته على أمر يأتيه من قيادة الجيش السوري .

وأبرقت برقيات شديدة اللهجة إلى القيادة السورية العامة ، وإلى وزارة الدفاع السورية، ولكنها دون جدوى . وقامت القوات اليهودية بالهجوم الذي كنا نتوقعه على البروة ، بقوات كبيرة مزودة بالمدافع والمصفحات وهي مصفحات ومدافع ،

تظهر لأول مرة في المعركة ، مما يدل على انها من حصاد الهدنة . وكانت النتيجة ان احتل اليهود البروة ، وحاولنا في اليوم الثاني استرجاعها بهجوم معاكس وبقوة تمكنت من جمعها ، من صفوف القوات الضئيلة في مختلف مواقع منطقتنا يصحبها مدفعان . فأحاط جنودنا بغربي البروة ، وكادوا يستردونها حين خرجت من ميناء حيفا ، بارجة حربية ، أخذت تقصف قواتنا ومدفعيتنا بمدافعها الضخمة البعيدة المدى ، فحالت بيننا وبين البروة .

لم نعلم جنسية هذه البارجة ، على انها ليست يهودية من غير شك ، وقد تكون انكليزية أو اميركية وهذا الأرجح . ولو لم تنسحب مدفعيتنا في الوقت المناسب لكنا خسرناها . وأرسلت إلى وزير الدفاع السوري البرقية التالية :

٢٥-٦-١٩٤٨ رقم ٢١

على اثر البرقيات الواردة من منطقة مجد الكروم تفيد تحشيدات كبيرة وسيل نجدات يهودية على المنطقة ، ونتيجة برقية عمان الى وزير الدفاع اللبناني بلزوم اتخاذ تدابير ضد التحشدات اليهودية في منطقة طبريا ، أرسلت قوة إلى البروة ، وأمرت سريتين من قوات البادية بالحركة إلى الرامة كاحتياطي للجبهة . امتنعت قوة البادية عن تنفيذ الأمر بناء على عدم موافقة القيادة السورية . هذا التدخل الجاهل للموقف وللجبهة أدى إلى حرماننا من قوة احتياطية ضرورية وإلى ضياع البروة نتيجة هجوم يهودي كبير . أطلب معاقبة وكيل قائد قوة البادية وأعتبر القيادة السورية مسؤولة عن هذه النتيجة .

الإمضاء – فوزي

وكان جواب هذه البرقية من القيادة السورية العامة ما يلي :

٢٥-٦-٢٩٤٨ رقم ٢ /٤٨

من القائد العام إلى فوزي

جواباً على برقيتكم يجب استعمال قوى الإنقاذ .

الإمضاء – القائد العام

* * *

إنها مؤامرة تؤدي ليس فقط إلى ضياع جيش الإنقاذ ، بل ضياع منطقة الناصرة، وربما الجليل كله كما ضاعت البروة . أليست القيادة العربية العامة وقيادة الجيش السوري هما اللتان طلبتا مني التوغل في هذه الأراضي فاتسعت جبهتنا هذا الاتساع، فما بالهما تتصرفان هذا التصرف الذي لا يمكن أن يستنتج منه إلا مؤامرة؟ . . . وقررت أن أذهب بنفسي إلى بيروت ، فأطلع رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح على هذه الحالة وعلى مايبيتونه لنا من تدابير تجعل الجليل بل ولبنان أيضاً في خطر ، ولكي استعين به لتصفية الحساب مع المفتشية العامة لجيش الإنقاذ ، ومع القيادة العامة للجيش السوري ، وأستقيل من قيادة جيش الإنقاذ إذا أنا لم أفلح بمسعاي . وذهبت إلى بيروت فإذا أمين جامعة الدول العربية السيد عبد الرحمن عزام ورئيس الحكومة السيد رياض الصلح ، في القصر الجمهوري اللبناني . فاجتمعت بهما بعد خروجهما من القصر ، وبسطت لهما الموقف في الجليل بالتفصيل ، مطلعاً إياهما على موقف العميد طه الهاشمي، المفتش العام لجيش الإنقاذ من هذا الجيش . وأعلمتهما أنه رغم ما نعانيه من قلة عدد في الجنود ، وفي العتاد بالنظر إلى اتساع جبهتنا ، فالمفتش العام لايزال واضعاً يده على مابقي من وحدات لجيش الإنقاذ في دمشق وماله فيها من معدات .. وفوق ذلك فهو قد أمر بإعادة ضباط من جيش الإنقاذ إلى قطعاتهم في الجيش السوري ، كأنما هو يتعمد تقطيع أوصال هذا الجيش وبالنهاية حله . ثم قلت للسيدين عزام والصلح انني لا استطيع الاستمرار في العمل ما بقيت هذه الحال وانني تارك القيادة فليبحثوا عن قائد غيري لجيش الإنقاذ . قال رئيس الحكومة اللبنانية : « سنذهب معاً إلى دمشق فنحل هذه المشاكل حلاً نهائياً » . وذكرت رياض لعهوده التي قطعها إليَّ وانه اعتبر هذا عهداً وان اعتبره هو المسؤول عن تأمين هذا الموضوع .

وفي طريقنا إلى دمشق حدثني السيد عبد الرحمن عزام بقوله: انه حينما كان يقاتل الطليان في ليبيا ، كان يقاتلهم أحياناً بمائة مقاتل ، وحيناً بثلاثين، وكان سلاحه غالباً السلاح الذي يكسبه من الطليان . وجيش الإنقاذ عبارة عن عصابات يمكن ان يقاتل بمثل هذا العدد ، من دون حاجة إلى سلاح وعتاد . وان الجيش الأردني مقيد بقيود بريطانية يسهر عليها كلوب باشا ، وان الملك عبد الله، قد

يكون مرتبطاً بعهود مع اليهود ، وبظنّه لن يحارب . وطبيعي أن الجيش العراقي لن يختلف موقفه عن موقف الجيش الاردني . وان الجيش المصري المؤلف من ثلاثين ألف ، فهو لايدري متى يقاتل ، ومتى يترك ميدان القتال ، والجيشان السوري واللبناني من الجيوش (الغلبانة) . وانه غير مؤمن بالاستمرار في القتال ، لهذا كله فهو يرى انه لابد من التفاهم مع اليهود ومع الاميركان والانكليز ، فالمهم ايجاد حل يقبل به اليهود ، ويكون في ظاهره خير للعرب . فبغتّ من هذا الحديث ، وقلت له : « إذن لقد انتهى كل شيء. فلماذا تجرون العرب إلى الحرب ؟ . . » قال : « كنت أعتقد ان الحرب غير واقعة في فلسطين . وان بريطانيا وأميركا ستحولان دونها ، وتحلان القضية حلاً سلمياً . . . » .

وصلنا إلى دمشق ، فشرحت للرئيس القوتلي بحضور رئيس الحكومة ووزير الدفاع ، حقيقة الموقف بالتفصيل وبالضبط ، وقلت له انني لن استطيع الاستمرار في القتال في هذه الظروف . فقال الرئيس بشيء من الحماسة : « لا . لا . هذه أمور سنحلها كلها غداً » .

وفي اليوم الثاني ، أي ٢٩ حزيران ١٩٤٨ ، اجتمعت في نادي الضباط مع عبد الرحمن عزام وجميل مردم ورياض الصلح وطه الهاشمي وحسني الزعيم والعقيد محمود الهندي . فتكلمت في الموضوع الذي من أجله جئت إلى دمشق، وبسطت لهم الموقف في الجبهة بدقة وتفصيل ، مطالباً تأمين السلاح والعتاد للجبهة، وكان مناصري الوحيد في هذا الاجتماع رياض الصلح يؤيد جميع طلباتي ولعل ذلك حرصاً منه على الحدود اللبنانية . وانتهى الأمر بشيء واحد ، هو فصل المفتشية العامة عن القيادة العامة عملياً ، وبوعود لتموين الجبهة بكل ما تحتاجه .

وفي ذلك النهار وصل (الميرالاي) المصري سعد الدين صبور إلى دمشق، وهو كبير مستشاري القيادة العامة للجيوش العربية ، فسألته عن خطتهم بعدانقضاء الهدنة . فقال : « لا نعلم ما الذي سنفعله بعد الهدنة . فالجيوش العربية مستقلة بعضها عن البعض الآخر ، والسياسة هي وحدها التي توجه كل جيش الوجهة التي تريدها » . وأضاف انه سيعمل لعقد مؤتمر عسكري يقرر خطة واحدة مشتركة . وان الجيش المصري يشغل الآن خط اسدود – السوافير – جلدية – فالوجة . وبعد الهدنة سيبدأ بتطهير بعض الأماكن الواقعة على خطوط مواصلاته . وإذا لم يتقدم

الجيش الاردني فهو سيظل في خطوطه ولن يحاول التقدم خطوة واحدة لانه لايثق بجيش يقوده انكليز . وهذا الجيش ثابت ويطلب من الجيش المصري ان يتقدم إلى ناحيته ، وإلا فهو لا يتحرك .

عدت في ٣٠ حزيران إلى بيروت ، ومنها إلى الجبهة ولم أحصل إلا على وعود ، وأخذت أشباح انهيار الجبهة وأنا في طريقي إليها ، تتمثل لعيني . ولم يبق لي إلا أمل واحد ضعيف جداً ، هو أن يتحسس لبنان خطر الموقف على حدوده ، فتحمل فكرة الدفاع عن النفس والرغبة في البقاء ، رئيس الحكومة اللبنانية ووزير الدفاع والقائد العام للجيش اللبناني ، على أن يمدوني بشيء من العتاد . واجتمعت بهم في دار الأركان ، وبحثنا فيما يمكن عمله ، وبالرغم من عدم وفرة العتاد لدى الجيش اللبناني ، فقد سلموني كمية من العتاد الفرنسي، تسد قليلاً من حاجتنا .
وعدت إلى الجبهة اتفقدها مرة أخرى ، وكان الهدوء لايزال يسودها ، واليهود يستعدون من ناحيتهم باستمرار لا ينقطع . فجمعت آمري الأفواج والضباط وأطلعتهم على ما حدث معي ، وانني عازم على الدفاع حتى في هذه الظروف العصيبة، قياماً بالواجب ليس إلا ، من غير ما نظر إلى ما تفعله جيوش الحكومات العربية، وأفهمتهم أن من رأيي أن لا نتخلى عن شبر من الأرض إلا محطمين .
وبينما نحن في هذه الحالة من الحرج والخطر ، تلقيت من القيادة العامة للجيوش العربية البرقية التالية :

٥-٧-١٩٤٨ رقم ١٣٣ من القيادة العامة العليا إلى القيادة اللبنانية وفوزي .

راجعنا مناضلو إجزم وجبع وعين غزال طالبين تموينهم بعتاد افرنسي وألماني وانهم في موقف خطر جداً . يرجى ايصال كمية من العتاد من النوعين المذكورين من الناصرة بالسرعة الممكنة . اعلامنا .

الإمضاء – قيادة عامة عليا

فدهشت من جهل القيادة العامة العليا ، مواقع هذه القرى بالنسبة لجبهة جيش الإنقاذ ، وهي تقع على بعد ثلاثة عشر كيلومتراً من حيفا إلى الجنوب ، وفي منطقة الجيش العراقي ، ويفصلنا عنها خط طويل من المستعمرات الكثيفة المتصلة الواحدة منها بالأخرى ، ومن جهلهم حالة جيش الإنقاذ ، الذي يركض قائده من مكان إلى

آخر ومن حكومة إلى حكومة من هذه الحكومات العربية المحترمة ، ليستجدي العتاد طلقة طلقة .

وأرسلت إلى القيادة العامة العليا برقية جوابية هذا نصها :

٨-١٩٤٨٧ رقم ٢٩

أعلمت القيادة العامة عن مواقع هذه القرى وعدم وجود أي اتصال بيننا وبينها وضرورة نجدتها بواسطة الجيش العراقي المتحشد بالقرب منها .

الإمضاء – فوزي

وكان اليهود كما تبين ، قد أتموا استعداداتهم ومدة الهدنة على وشك الانقضاء . ووصلت لي البرقية التالية تعلن لي باستئناف المعارك :

٨-٧-١٩٤٨ من مهدي إلى فوزي

نحن نشتبك في معركة حامية فوق تلال الشجرة منذ الساعة الثانية من هذا الصباح . يجب ارسال مصفحات ومدفعية ليس لدينا عتاد هاون . عتاد انكليزي ألماني بنزين .

الإمضاء – مهدي

* * *

توفيراً لبعض دريهمات يجازفون بالأرواح والكرامات

تلقيت من الرئيس مدلول عباس في جبهة الشجرة البرقية التالية :

٨-٧-١٩٤٨ رقم ١٠٢ من مدلول إلى فوزي

ليس لدينا قطرة من البنزين . ونريد عتاد انكليزي ، ليس لدينا ولا طلقة منه . عتاد هاون ٦١ وهاون ٨١ وعتاد رشاش ألماني .

واحتدمت المعركة في الشجرة ، وامتدت الحركات الى بقية انحاء الجبهة ، فظهرت لأول مرة منذ قيام الحرب في فلسطين ، طائرات حربية يهودية في سماء ترشيحا ، قصفتها قصفاً شديداً ، ولأول مرة ظهرت مدفعية يهودية ثقيلة في جبهة

الشجرة . وقام اليهود بهجوم آخر في ١٠ تموز على تل كيسان تدعمه دبابات ثقيلة تظهر كذلك لأول مرة .. تشرشل وشيرمان.

في هذه الغمرة ، ونحن نتدبر الأمر ضمن نطاق امكانياتنا الضعيفة ، للصمود في وجه الهجوم الواسع ، الذي بدأت مقدماته بهذه الشدة ، وهذه الأسلحة الثقيلة الجديدة ، تصل إليَّ من القائد العام للجيش السوري برقية هذا نصها :

١٠ – ٧ – ١٩٤٨ من شجاع إلى فوزي

يهاجم العدو مراكزنا غرب كعوش « مشمار هايردن » نطلب مساعدتنا بهجوم لتخفيف الضغط .

طائرات من نوع القلاع الطائرة بأربع محركات .

الإمضاء – شجاع

وأرسلت هذه البرقية :

١٠ – ٧– ١٩٤٨ رقم ٣٨ من فوزي إلى الهاشمي والقائد العام للجيش السوري

تشرع قواتنا الساعة ١٥ بهجوم على مستعمرة « عين زيتيم » وصفد ، وتؤازرها مدفعية ومصفحات . انبئونا الموقف الأخير عندكم .

وشرعنا بالهجوم في الساعة المعينة على « عين زيتيم » ، وتقدمت قواتنا إلى ضواحي المستعمرة وتناولت بالمدفعية أبواب صفد ، وبعض المواقع المهمة فيها ، واشتعلت الحرائق في كل مكان من المستعمرة . فتخوف اليهود من هذا الهجوم غير المنتظر الذي قام به الفوج العلوي ، بقيادة آمره الرئيس غسان جديد ، فتحولت قوات منهم ، وكانت تهاجم الجبهة السورية إلى صد هجومنا، فجمدها الفوج العلوي في جبهة صفد . وهكذا زال الضغط عن الجيش السوري ، واحتفظ بكعوش. أما في الشجرة فقد صدت قواتنا هجوم اليهود ، وانتزعت منهم الأماكن التي كانوا قد احتلوها ، كما كانت صدت هجومهم الأول على تل كيسان ، والهجوم الذي بدأ من البروة ، باتجاه مجد الكروم ، وبقيت المعركة مستمرة على

طول الجبهة بلا انقطاع . فأبرقت إلى الهاشمي برقية بتاريخ ١٠ – ٧ ١٩٤٨ رقم ٣٩ أعلمه بهذه المعارك ، وانه لم يبق لدينا طلقة واحدة لمدفعيتنا من عيار ١٠٥ راجياً منه أن يرسل إلينا ماتبقى لجيش الإنقاذ في دمشق من عتاد . وبقيت البرقية بدون جواب ....

ووصلتني من القيادة العليا العامة برقية ١١ – ٧– ١٩٤٨ مع نسخ منها إلى القيادة السورية والقيادة اللبنانية .

يهاجم العدو بقوة من قرية صليح مواقع الجيش السوري . يقوم الرف العراقي فوراً بضرب قوات العدو المهاجمة . تقوم قوى فوزي برد الهجوم بالتعاون مع القوات اللبنانية لكي يخفف الضغط .

القيادة العامة العليا

الإمضاء – صلاح الدين

وبرقية أخرى بالتاريخ نفسه هذا نصها :

١١ – ٧ ١٩٤٨ مستعجل جداً .

من صلاح الدين إلى فوزي .

قوّوا قواتكم في الناصرة لحركة تعرضية باتجاه العفولة بأسرع ما يمكن لتسهيل حركات الجيش العراقي في المنطقة الواقعة بين جنين والعفولة .

الإمضاء – صلاح الدين

ترى أيعتقد هؤلاء ان لدى فوزي في الجبهة معامل تفبرك سلاحاً وعتاداً ؟ وانه يخلق جنوداً لصد الهجوم اليهودي على جبهة كاملة بطولها وعمقها ؟ ثم يرسل إمداداً إلى الجيشين العراقي والسوري ؟ ... ان هذه الحركات التي تعنيها القيادة العليا العامة والوارد ذكرها في البرقية الثانية هي الحركات التي كان ينوي الجيش العراقي القيام بها لاسترداد جنين . وكان اليهود احتلوا قسماً منها في معركة بدأت من زرعين، التي كان يحميها جيش الإنقاذ قبل ١٥ أيار ١٩٤٨ ، ويحمي منها منطقة جنين كلها، وقد جاء فوج عراقي يومذاك من جنوبي جنين فقام بهجوم

معاكس على اليهود وطردهم منها، وأنقذ المدينة فتراجع اليهود ثلاث كيلومترات إلى الشمال ، وبقيت تلك المنطقة عدا جنين ، بين أيدي اليهود . وفي النهار نفسه تلقيت برقية أخرى من الجيش الاردني هذا نصها :

١١ – ٧ ١٩٤٨ الساعة ٢١,٥٠ رقم ١٠٦

اليهود يشنون هجوماً شديداً على مدينتي اللد والرملة . تمكنوا من دخولهما الساعة ٣٠,١٥ من هذا اليوم . الممانعة ضعيفة .

الإمضاء – قائد عام

من ذا الذي يخطر له اننا كنا نقاتل ، وهذه حالنا من قلة العدد والمعدات، وعلى جبهة مثل الجبهة التي كنا نشغلها ، وننجد مع ذلك الجيوش العربية كلها التي طلبت منا النجدة . وليس هناك حكومة أو قيادة تنجدنا في محنتنا ، ولو بالعتاد دون الرجال .

ولكي أبيِّن من جديد ما قد ينتج عن هذه الحالة ، مما قد يجرنا إلى كارثة ، أبرقت إلى المفتش العام لجيش الإنقاذ البرقية التالية :

١١ – ٧ – ١٩٤٨ رقم ٢

ان كل الاحتياطي للعتاد الافرنسي هو ١١ صندوقاً . عدم توفيقي أو توفيقكم لتلافي خطر هذا النقص يجبرني على سحب المسلحين بالافرنسي إلى الوراء . يعني أكثر من نصف القوة والباقي يلتزم الدفاع الموضعي . وبذلك تنقلب الخطة والمهمة .

الإمضاء – فوزي

بلا جواب .

وأخذ الهجوم اليهودي بالاتساع فشمل موقع الليات في جبهة ترشيحا ، فصدته قواتنا هناك واتسعت الغارات الجوية وقصفت الناصرة . لم يبق من مخرج لجيش الإنقاذ من هذه المحنة ، إلا أن يقوم من منطقة الشجرة بهجوم على العفولة ليجر قسماً من القوات اليهودية الى هذا المركز الحساس ، فيما لو قام الجيش العراقي بحركة مقابلة على هذا الهدف .. العفولة .

وخطر لي أن أثير حماسة الجيش العراقي ، لتنفيذ هذه الفكرة ، فأبرقت إلى القيادة العامة العليا وإلى القيادة السورية هذه البرقية :

١٢ – ٧ – ١٩٤٨ رقم ٦

أكثر قواتنا أمام الشجرة في منطقة الناصرة . مشتبكون على طول جبهتنا الغربية . نتمم استعداداتنا لهجوم قوي باتجاه العفولة . اعلمونا موعد حركاتكم .

الإمضاء – فوزي

ولكن .... ليس من جواب .

* * *

أصبح العتاد أغلى قيمة من الدماء

المعارك تدور على طول الجبهة عدا منطقة المالكية – قدس – بليدة . ونشعر ان العتاد أصبح عندنا أغلى قيمة من الدماء . وكانت المعركة الدائرة في الشجرة أشد هذه المعارك وأقساها ، فقد كان اليهود يستميتون لطرد قواتنا عن التلال المشرفة على الشجرة ، ليقطعوا علينا طريق الناصرة ، ويطمئنوا إلى سلامة العفولة وطبريا . ولهذا الغرض كانت النجدات اليهودية تتدفق على جبهة الشجرة بدون انقطاع . واضطررت إلى أخذ شيء من عتاد قواتنا في المواقع القليلة التي كان يسودها الهدوء يومئذ، لكي أنجد به مواقع الجبهة المحتدمة فيها المعارك ، تاركاً مصير الأولى إلى القدر . وكان القتلى والجرحى من جنودنا ، يزداد عددهم بين لحظة وأخرى . وكانت البرقيات في طلب العتاد من مختلف أنحاء الجبهة تتدفق عليّ بدون انقطاع .

وفي ١٢ – ٧ – ١٩٤٨ تلقيت برقية من الرئيس أديب الشيشكلي هذا نصها :

من أديب إلى فوزي

ردت المصفحات لنفاذ عتادها .

الإمضاء – أديب

وقد كان هذا الضابط ، ومركزه في الرامة ، مسؤولاً عن تموين جبهة الشجرة فقط . لقد غدا الموقف حرجاً جداً وخطراً جداً لايمكن التغلب عليه إلا بالانسحاب من تلال الشجرة وتعريض منطقة الناصرة كلها للسقوط ، أو بأن نعمل المستحيل ، ونغامر في محاولة لطرد اليهود والاستيلاء على قاعدتهم مستعمرة الشجرة ، رغم وفرة العتاد لديهم والأسلحة الثقيلة الجديدة ، والقوى الاحتياطية التي تصل إلى الميدان . ورتبت قوة هجومية تقوم بهذه المغامرة على أن أحرم بعض أنحاء الجبهة من بعض مدافع ومصفحات لمساندة الهجوم وحماية المهاجمين. وفي ليل ١٢-١٣ تموز قمنا بهذه المغامرة ، فاستبسلت قواتنا المنهوكة بعد أن كان قد مر عليها ستة أيام بلياليها في قتال مستمر ، واندفعت اندفاعاً جنونياً يائساً، فسحقت القوات اليهودية سحقاً غير مبالية بكثافة النيران ، من مدفعية – مصفحات – رشاشات – بنادق – تسير على جناحها الأيسر مصفحاتنا الأربع ، تحميها وتسهل لها التقدم ، حتى وصلت الى منعرج الوادي الواقعة فيه مستعمرة الشجرة، ودخلت المصفحات المستعمرة ، واستمر اليهود في انهزامهم . وتلقيت في ١٣ – ٧ – ١٩٤٨ برقية رقم ١٣٩ من مهدي إلى فوزي تعلمني بذلك .

قضينا بهذا الانتصار على مستعمرة الشجرة ، القاعدة اليهودية الخطيرة ، وأصبح طريق العفولة مفتوحاً أمامنا . فما الحيلة لاستثمار هذا الانتصار ؟ وكيف نستطيع الصمود في هذه الجبهة ونحن لم نتمكن من تعويض نقطة واحدة من الدماء التي بذلناها ، وطلقة واحدة من العتاد الذي أحرقناه ، ثمناً لهذا الانتصار . وكانت خسائرنا :

١– آمر فوج حطين الرئيس مدلول جرح وخرج .

٢– وكيل آمر الفوج الملازم عبد الله محمود جرح واستمر يقاتل جريحاً حتى خارت قواه من النزيف .

٣– الوكيل الثاني لآمر الفوج استشهد .

٤– آمر السرية الثالثة الرئيس كمال عبد الله جرح ، الملازم طهبوب جرح ، والملازم جابر استشهد ، والملازم هرمز استشهد ، والملازم عبد الله الأسود استشهد. ولم يبق من هذه السرية سوى ١٦ جندياً (السرية عادة ١٢٠) ، ولا

تختلف حالة بقية السرايا كثيراً عن هذه الحالة . وتلقيت برقية من الرئيس عامر تكمل هذه الصورة . .

١٣ – ٧ – ١٩٤٨ الساعة ٤٠,٧ رقم ١٤٨ من عامر إلى فوزي .

تحشيدات للعدو في كفر سيت (بالقرب من مستعمرة الشجرة) . مدافعها الثقيلة العيار تقصف مواقعنا بشدة . القتلى والجرحى عندنا بازدياد . والجهاد المتواصل أنهك الجنود . الآخرون لا يوجد لديهم عتاد .

الإمضاء – عامر

يجب أن يعلم العرب ، وتعلم الأجيال المقبلة هذه الحقيقة . . أن تخلينا عن تلك المنطقة لم يكن نتيجة لارادة اليهود النصر ، أكثر مما كان نتيجة لارادة العرب « بعض العرب » القهر ، قُهرنا فقهرنا . . . .

* * *

هل هناك مؤامرة مع العدو لدخول الناصرة

كان لنا في الناصرة سرية تعاونها قوة من الشرطة الفلسطينية العربية يبلغ عددها ١٧٥ شرطياً ، وحرس من الأهلين المسلحين يبلغ عددهم المائتين . وفي القسم الغربي من الناصرة ، كانت قوة من المسلحين على رأسهم « أبو ابراهيم » يبلغ عددهم ١٥٠ ، كانوا مسلحين برشاشات عديدة ، وبنادق عديدة ضد المصفحات . وكانت هذه القوة تابعة للهيئة العربية العليا ، على ان أبا ابراهيم كان يراجعنا بين الحين والحين ، طالباً منا المساعدة بالعتاد فنساعده بأكثر مما نستطيع . وإلى جانب هذه القوات كان هناك ما يقرب من مائتي مسلح من أهل الناصرة نفسها . وكانت خطة الدفاع عن الناصرة ، قد رسمها آمر جبهة الناصرة طبقاً لإرشادات القيادة، وبالاتفاق مع رؤساء المقاتلين المحليين . فحفرت هذه القوات خنادق ، وأقامت تحصينات ، وبثت ألغاماً في بعض الأماكن ، ذلك كله بالتعاون مع الأهلين . وكان في صفورية ، التي تبعد نحو ٥ كيلومترات إلى شمال الناصرة ، قوة من المقاتلين المحليين على رأسهم أبو محمود الصفوري يبلغ عددها حوالي مائة مقاتل ، وهذه أيضاً كانت مرتبطة بالهيئة العربية العليا . وكان لنا فصيل واحد من

فوج حطين في قرية شفا عمرو ، يساعده مسلحون من القرية يبلغ عددهم ١٢٠ مسلحاً . وعلى أساس هذه الترتيبات كان يمكن اعتبار الناصرة محمية ضد هجوم يهودي يأتي من الغرب أو الشمال الغربي ، إذ ان مجموع هذه القوات المخصصة للدفاع عن الناصرة ، يبلغ ضعف القوة المدافعة عن الشجرة العربية . فالموقف اذن من هذه الناحية على الأقل يدعو إلى الاطمئنان . وتمكنت بذلك من تلبية اصرار وزير الدفاع اللبناني الأمير مجيد ارسلان عليّ ، في الحضور الى بيروت ، لعل في ذلك باباً للفرج . فذهبت إلى بيروت فعاليه ، لحضور الاجتماع الذي كان منعقداً بتاريخ ١٥ تموز ١٩٤٨ في دار السيد عمر الداعوق . ولقيت « الميرالاي » صبور وأمين الجامعة السيد عبد الرحمن عزام ، ثم رئيس الوزارة السورية جميل مردم ورئيس الوزارة اللبنانية رياض الصلح والقائد العام للجيوش العربية اللواء نور الدين محمود . وفاجأني السيد عزام بأنباء ما يعالجونه من مشاكل خطيرة تتعلق بالقيادة العامة العليا، وما هناك من عبث بأوامر القيادة . وحدثني عن عدم الثقة بين الجيوش، الأمر الذي حال دون تعاونها المشترك في القتال ، وعن النقص في العتاد لدى كل جيش. ثم قال لي ، انه يعتقد ان الملك عبد الله عازم على أن ينسحب من القتال ، متأثراً بعامل « تفكيرهم » في إنشاء « حكومة » أو « دولة عربية » في فلسطين برئاسة المفتي . ثم سألني قائلاً : « اذا انسحبت شرقي الاردن من القتال ، هل في استطاعة جيش الإنقاذ أن يسد الفراغ الذي يتركه الجيش الاردني ؟ ..» . فقلت : « ألا تذكر انني كنت اقترحت عليك ابقاء جيش الإنقاذ في مواقعه الأولى يوم اجتمعنا في عمان ، وكانت الجيوش العربية النظامية تدخل إلى فلسطين ، ربما يكون الوقت قد فات الآن فإن الجليل بحاجة إلى من يحميه » . وعدت أقول لعزام : « هل تنوون إعطاء عتاد لجيش الإنقاذ ، ليستطيع حماية الجليل . ان المقاتلين المحليين هم أيضاً يشكون ما نشكوه نحن » . فأجابني جواباً موجزاً بليغاً . ولم يكن جواب أي واحد من المجتمعين ليختلف في الجوهر عن جواب عزام .

غادرت مكان الاجتماع وفي نفسي كثير من المرارة . وفي مساء ذلك اليوم نفسه تلقيت البرقية التالية :

١٥ – ٧ ١٩٤٨ الساعة ١٧ رقم ١٥٣ من عامر إلى فوزي .

بعد معركة شديدة تمكنّا من استرجاع تل التين وأصبح طريق لوبيه – الناصرة

أميناً . خسائر العدو كثيرة . نيران المدفعية تتعرض لتمركزنا . أخبرني مساعد فوج حطين أن شفا عمرو سقطت بيد اليهود وأعتقد بدون قتال .

الإمضاء – عامر

فكانت أكثر البرقيات التي تلقيتها خطورة وأشدها تأثيراً في نفسي . أيكون هناك مؤامرة ما ، دبَّرها اليهود للنفاذ الى الناصرة بعد المحاولات العسكرية والمعارك الكثيرة التي كلفتهم ضحايا وخسائر لم تكلفهم مثلها بقية المعارك مجتمعة ؟ وصممت على الذهاب إلى الجبهة . وأبرقت إلى المقدم صفا آمر لواء اليرموك الأول، أن يرسل سرية سعدون البدوية بسرعة ، وهي من أقوى سرايا اللواء ، لتكون تحت تصرف آمر منطقة الناصرة المقدم مهدي صالح . وفي الساعة التي كنت أهم فيها بركوب السيارة تلقيت البرقية التالية :

١٦ – ٧ – ١٩٤٨ الساعة ٧ صباحاً مهم ومستعجل جداً .

من مساعد حطين إلى فوزي.

صفورية مطوقة برتل من الدبابات أصبح على بعد كيلومتر من الناصرة . صفورية على وشك السقوط . انقذوا الموقف .

الإمضاء – مساعد حطين

وصلت إلى مقر القيادة وتفكيري متركز كله : أولاً – في كيف أنقذ الموقف ، ثانياً – ماهو العامل الرئيسى الذي جر إلى هذا الوضع ؟ وإذا ببرقيات تنتظرني هذه هي نصوصها :

١٦ – ٧ – ١٩٤٨ الساعة ٩,٢٥ من اسماعيل « اي الصفوري قائد المسلحين » إلى فوزي

دخل اليهود بدباباتهم الثقيلة « تشرشل » صفورية . المعركة تشتد على أبواب الناصرة . الأهالي يهربون انقذوا الموقف ..

وبرقية أخرى من اسماعيل نفسه في النهار نفسه :

الهجوم يشتد على الناصرة . الأهالي يرفضون المقاومة . رئيس البلدية يطلب

عدم المقاومة خوفاً من تدمير المدينة اذا سقطت بيد اليهود .

وبرقية ثالثة هذا نصها :

١٦-٧-١٩٤٨ من أكرم إلى فوزي

أهالي الناصرة يرحلون . البوليس هرب . الموقف حرج جداً . المعنويات منهارة . لا يوجد بنزين . اليهود يهاجمون من كل الجهات . انقذوا الموقف .

الإمضاء – أكرم مساعد فوج حطين

أمرت حالاً بسحب سرية حطين والسرية اليمنية وسرية سعدون « السرية البدوية » من جهة الشجرة ، مع كل مالديهم من مصفحات، وسوقهم بقيادة المقدم عامر رئيس ركن الجبهة ، إلى الناصرة ، للحيلولة دون سقوطها . وقبيل هذا بقليل أي في الساعة ١١,٣٠ دقيقة تلقيت من المقدم مهدي صالح برقية رقم ١٩٤ هذا نصها :

من مهدي إلى فوزي مستعجل جداً

٧/١٦

أهل الناصرة يرحلون باستمرار . حاولنا منعهم فرفضوا . يؤثرون على معنويات الجنود بدعاياتهم . الحالة خطرة . يوجد حركة يهودية من جبهة طبريا . ربما تكون استعداداً للتقدم نحو المغار . ارسلوا قوة للمحافظة على المغار التي تقع خلفنا .

الإمضاء – مهدي

من أين وكيف أسد هذه الثغرة ؟ وأصد هذه الحركة الخطيرة الواسعة ؟ . . . ان احتلال اليهود للمغار ، معناه شطر جيش الإنقاذ المنهمك بالقتال في جبهة الشجرة والناصرة ، الى شطرين والقضاء عليه . لقد سحبت من مختلف انحاء الجبهة أكثر مما يمكن أن يتحمل الموقف سحبه من قوات لدعم جبهة الناصرة، وأصبحت مواقعنا في كل مكان عدا هذه الجبهة ، لاتقوى على تحمل ضربة واحدة . وبالرغم من هذا سحبت سرية من جبهة ترشيحا التي كانت تدور فيها

معركة حامية ، لصد الهجوم عن المغار ، وأرسلتها الى الناصرة ، فاشتبكت مصفحاتنا مع الدبابات اليهودية على طريق الناصرة . وفي مساء يوم ١٦-٧-٤٨ أتتني برقية من المقدم مهدي يقول فيها :

صد الهجوم : غير ان العدو يبدي مقاومة شديدة . موقفنا جيد . سنقوم بهجوم بباقي القوى . فوج الحسين والسرية اليمنية على جناح العدو الأيمن. سرية سعدون على الجناح الأيسر سنوافيكم النتيجة.

الإمضاء – مهدي

لقد تحسن الموقف قليلاً . ولكن مصفحاتنا رغم استبسالها ، لن تستطيع رد الدبابات الثقيلة، ولم يحاول جندي واحد من جنودها ان يترك مكانه . وكان طبيعياً أن يفشل الهجوم ، بعد أن زال ركنه الرئيسي وهو المصفحات . فأبرقت إلى القيادة اللبنانية والقيادة السورية والى القيادة العامة العليا ، شارحاً لهم الموقف ، طالباً منهم بما يستطيعون ، لتخفيف الضغط اليهودي ، وانقاذ الناصرة ، فكان الجواب اللبناني برقية هذا نصها :

١٧-٧-١٩٤٨ رقم ٦١ من الأمير مجيد إلى فوزي

حركوا الدبابات اللبنانية حالاً الى المعركة. ربما يتأخر احضار الحملات وأرسالها . انتظروا برقية أخرى . تحرك نحوكم المقدم شقير ومعه التعليمات .

الإمضاء – مجيد

وأصدرت أمراً في الحال بتحريك هذه الدبابات ، ثم استفسرت عنها بعد قليل، اين وصلت فتلقيت من الرئيس اديب الشيشكلي البرقية التالية :

١٨-٧-١٩٤٨ من أديب إلى فوزي.

الدبابات اللبنانية معطلة في سعسع .

الإمضاء – أديب

ومعنى ذلك انها تبعد عشرين كيلومتراً ، أو أكثر عن الناصرة . وفي اليوم نفسه تلقيت من القائد العام للجيش السوري هذه البرقية :

إلى نور الدين القائد العام وفوزي.

شوهدت ستون سيارة باتجاه طبريا – روشبينا يرجى عمل حاسم للتخفيف. أسلحة العدو وافرة ثقيلة .

الإمضاء – شجاع

وتستمر قواتنا في الدفاع عن الناصرة ، وليس بينها وبين القوات اليهودية المهاجمة ، أية نسبة على الإطلاق من حيث العدد والمعدات ، وكثرة الآليات . وتذوب هذه القوات من ساعة إلى ساعة تحت نيران العدو.

ودخل اليهود الناصرة من جهتين : الغربية والغربية الجنوبية ، وأصبحت قواتنا المدافعة الضئيلة ، هدفاً لنيران مختلفة ، فانسحبت مهشمة مشتتة ، ولم يسلم من جرحى جنودنا إلا القليل. لقد دافع جيش الإنقاذ ببطولة وصبر نادرين، عن تلك المنطقة طيلة تسعة أيام كاملة ، إذ انه قد ترك في الميدان أكثر من ثلثي عدده بين قتلى وجرحى . ولقد قام جيش الإنقاذ بواجبه بطراز مثالي البطولة .

* * *

بعد سقوط الناصرة

سقطت الناصرة ، وضاعت بهذا السقوط فرص لاتعوض . وأصبح همي الوحيد الآن ، سحب قواتنا المشتبكة بالقتال في الشجرة ، بأقل ما يمكن من الخسائر، واتخاذ خط جديد وترتيبات جديدة ، لتثبيت الجبهة بما لديَّ فقط من قوات ووسائل . مع علمي ان القوات اليهودية ، اذا استمر الوضع عندنا كما هو ، من حيث الفقر في الرجال وفي العتاد ، في استطاعتها أن تكتسح الجليل كله ، حتى الحدود اللبنانية.

لم يبق للشجرة أية قيمة بعد سقوط الناصرة . وأخذ النشاط الجوي اليهودي يزداد ضد قواتنا التي كانت تقاتل لايفصلها عن العدو إلا أمتار ، بينما أخذت قوة يهودية تتقدم من الناصرة نحو الشجرة، ومن طبريا نحو لوبيه – الشجرة. وأصبحت قواتنا معرضة لخطر التطويق فالإبادة ، فوضعت السرية البدوية ، في وجه القوة اليهودية الآتية من الناصرة ، والسرية اليمنية في وجه القوات الآتية من طبريا،

وذهبت بنفسي لإنقاذ قواتنا في الشجرة. وأخذنا نتظاهر بهجوم على القوات اليهودية هناك ، بمفارز صغيرة ، بينما أصدرت أمراً للسرايا بالانسحاب واحدة بعد الأخرى . فتمت عملية الانسحاب لآخر جزء من قواتنا ليل ١٧–١٨ تموز بخسائر كادت تكون طفيفة، لولا عمل القصف الجوي المتواصل ، ليلاً نهاراً . وكانت حركة الانسحاب هذه تتم مشياً لقلة وسائل النقل ، وفقدان البنزين. وكنت قررت اتخاذ خط عيلبون – كفرمندا ، خطاً أساسياً للدفاع ، مع ترتيبات إضافية تمكننا من السيطرة على سهل البطوف، الواقع شمال صفورية ، وترتيبات أخرى في قرية معاوية ، التي تبعد كيلومتراً واحداً عن بحيرة طبريا . ومن جهة الغرب خطاً يمتد من غربي كفرمندا ، باتجاه قرية كابول – شعب ، غربي مجد الكروم – يركة حتى ايقريت وتربيخا شمالاً . وكان خطنا هذا ، يبعد عن الشجرة أربعة كيلومترات ، وعن صفورية مايقارب هذه المسافة الى الشمال . أخذت وحداتنا مواقعها الجديدة، وأنا مصمم على الدفاع لمنع اليهود من التغلغل داخل الجليل ، مع علمي أن قواتنا في حالة رثة منهوكة الأعصاب ، لما تحملته من شدائد القتال والحرمان المستمر ، خلال الأيام التسعة الفائتة ، وجرحانا يملأون الأماكن التي اتخذناها مستشفيات ، في الرامة وبنت جبيل وصور وبيروت . بالرغم من هذا كله ، فقد كان مجموع الجنود يحافظون بالجملة، على رباطة جأشهم ومعنوياتهم الممتازة.

وفي ١٨ تموز ، وقواتنا لم تكد تستقر بعد على الخط الجديد ، بدأ اليهود بهجوم تسانده الدبابات والطائرات باتجاه عيلبون ، وهجوم آخر في النهار نفسه على ترشيحا ، وهجوم ثالث على ميرون في جبهة صفد وعلى طيطبه وعلى مجد الكروم . فاشتبكت قواتنا مع العدو على طول الجبهة في خطوطها الجديدة ، بقتال عنيف استمر نهار ١٨ وليل ١٨ –١٩ تموز . وكان الغرض من هذا الهجوم ظاهراً هو ان يرمي اليهود بقواتنا إلي الشمال قبل أن تستقر في مواقعها أو تأتيها نجدات، لينقضوا على جيش الإنقاذ ، ويحتلوا الجليل كله. على ان جنودنا تمكنوا من صد هذه الهجمات كلها يوم ١٩ تموز ، ولكن مستودعاتنا اصبحت فارغة، فكنت أعمل كل ما في وسعي لتجنب المعارك، الى أن يتيسر لي الحصول على شيء من العتاد ، بواسطة رياض الصلح والامير مجيد ارسلان. وفي هذه الفترة فوجئنا بهدنة جديدة تبدأ في الساعة ١٧ والدقيقة ٣٠ من ١٩ تموز ١٩٤٨، فأبلغت وحدات

الجيش قرار الهدنة، وطلبت منهم ألا يتعدوا في خلالها، على أن يردوا كل اعتداء بشدة، دون ان ينتظروا أي أمر. وكانت هذه الهدنة، تختلف في جوهرها ومظهرها عن الهدنة الاولى كل الاختلاف، وقد اصبح اليهود حقيقة ومظهراً أقوياء، وأصبح العرب بالعكس رغم ما جاءت به الجيوش العربية من قوات جديدة. وكان ملحوظاً ان فرح قواد الجيوش العربية بهذه الهدنة، لايقل عن فرح الساسة الذين عقدوها. وبقي الامر كذلك حتى حل محل هذه الهدنة هدنة دائمة، وقعت فيها الحكومات العربية الواحدة بعد الاخرى على صك العار لا يُمحى، وبنى عليه اليهود « دولة اسرائيل » في الارض العربية المقدسة.

وكل جيش عربي قاتل في خلال هذه الهدنة انما قاتل مرغماً، رداً لعدوان يهودي، وحباً بالبقاء ليس إلا . عدا جيش الإنقاذ، الذي استمر يقاتل غير متقيد بهدنة، وحمل اليهود غير مرة على الشكوى ولم يشك مرة واحدة . وكان الهجوم اليهودي في جبهة ترشيحا ، يستمر بشدة هائلة ، نظراً لما كان يتلقاه العدو في هذه الجبهة من نجدات متواصلة. وأصبحت ترشيحا في خطر السقوط في أيدي اليهود ، وبسقوطها تنفتح أمام العدو ، ويستطيع أن ينفذ منها إلى قلب الجليل، ويشطر قواتنا إلى شطرين في الجنوب وفي الشمال ، فينتهي الأمر بضياع الجليل بكامله. ولم يكن في الإمكان انقاذ الموقف إلا بمعجزة، في نواح من الجبهة صُدَّت فيها الهجمات اليهودية ، فأخذت من قوات هذه النواحي ما أمكن من عتاد ، وقذفت به إلى جبهة ترشيحا ، وقررت إرسال بطارية من المدفعية إليها. واضطرتني قلة العتاد إلى ارسال مدفعين فقط.

وفي الساعة الخامسة والنصف من صباح ٢٠ تموز كانت الطائرات اليهودية ذات المحركين والأربعة محركات ، تقصف مواقع قواتنا الخالية ساعتئذ، لأن هذه القوات كانت قد تركت مواقعها ، في الساعة الخامسة والدقيقة العاشرة تماماً ، لتقوم بهجومها المعاكس على اليهود . وبدأ اليهود يتراجعون عن ترشيحا ، ثم انقلب تراجعهم إلى هزيمة ، امتدت إلى أكثر من عشرة كيلومترات غربي ترشيحا، فاستولينا على كثير من الغنائم ، منها مصفحتان اميركيتان استخدمناهما في المعركة نفسها لمطاردة المنهزمين . وبعد فشل الهجوم اليهودي هذا ، ساد الجبهة كثير من السكون. وجاءني يوماً مدير الصحة في جيش الإنقاذ، يطلب مني سيارات لنقل

مستشفى الرامة، فدهشت من هذا الطلب وسألت عن السبب فيه، فعلمت أن المقدم أديب الشيشكلي أخذ يطوف في القرى ، معلناً انسحاب جيش الإنقاذ من المنطقة كلها، وإنه هو الذي انذر مدير صحة الجيش لترحيل المستشفى إلى صور . فاضطررت عندئذ إلى سحبه من المنطقة وإرساله الى دمشق، وأبرقت الى المفتشية العامة البرقية التالية :

٢٠-٧-٢٩٤٨ رقم ١٣٦ من فوزي إلى الهاشمي

بناء على طلب المقدم الشيشكلي الالتحاق بالجيش السوري سلمنا قيادة اللواء الثاني إلى الرئيس عامر مؤقتاً . يبقى المقدم شقير رئيس أركان جيش الإنقاذ. أرجو موافقتكم وإرسال آمر للواء إذا كان ذلك ميسوراً .

وذهب أديب الشيشكلي ولم يأت بدلاً منه.

وكنت قد تلقيت في مساء ١٩ تموز برقية من وزير الدفاع اللبناني هذا نصها :

١٩-٧-١٩٤٨ الساعة ٢٠,١٩ دقيقة رقم ١ .

من وزير الدفاع إلى فوزي

جميل مردم وعزام باشا في بيروت . ان أمكن حضوركم غداً . فإنهما أخَّرا سفرهما لهذه الغاية .

الإمضاء – وزير الدفاع

وقبيل مغادرتي مقر القيادة إلى بيروت ، تلقيت من القيادة العامة العليا برقية هذا نصها :

٢١-٧-١٩٤٨ الساعة ٩و٣٥ دقيقة .

يهاجم اليهود منذ الساعة السادسة من يوم ٢٠ القرى العربية المنعزلة .. أجزم، جبع، عين غزال، بالمشاة والمصفحات والطائرات . ارسل أكبر مايمكن من قواتك لمساعدتهم فوراً . اعلامنا .

الإمضاء – صلاح الدين « نور الدين »

كانت هذه البرقية أكبر صدمة نفسية أتلقاها في فلسطين ، فقد أثبتت لي من جديد ، هذا الجهل المطبق العجيب المستولي على القيادة العامة ، والذي لم يذهب به الاختبار ، بعد وجود هذه القيادة مدة من الزمن في فلسطين ، ان القرى التي تسميها البرقية ، تقع إلى جنوب حيفا ، وفي منطقة الجيش العراقي ، ويفصلنا عنها كما بينت سابقاً ، ما لا يقل عن خمسة وعشرين كيلومتراً « خطاً هوائياً » ، عدا المستعمرات اليهودية التي تعادل أكثر من نصف المستعمرات جميعاً .

وصلت إلى بيروت في ٢١ تموز تلبية لرغبة وزير الدفاع اللبناني ، وكان الهدوء قد ساد الجبهة كما ذكرت آنفاً ، وهو هدوء آني سيعقبه حركات قوية من غير شك ، بعد ان ينظم اليهود قواتهم من جديد . وعلمت ان الاجتماع الذي دعيت إليه، معقود في بيت رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح في عاليه، وكان هناك جميل مردم رئيس الحكومة السورية والأمير مجيد أرسلان وعبد الرحمن عزام وعبد الجليل الراوي من المفوضية العراقية . وبدأ عزام يتكلم عن الحالة السيئة وانسحاب شرقي الأردن من القتال ، وغير ذلك من أمور ، متذمراً من الحالة، مظهراً شيئاً من اليأس . فقلت له : « ان الموقف وإن يكن سيئاً ودقيقاً جداً فأظن إنه لايدعو إلى اليأس » ، وأخذت أشرح لهم حقيقة الموقف وأوضح لهم أن القضية لا يزال ربحها بين أيدينا ، إذا كان هناك جد في الأمر ورغبة خالصة في القتال . وان الأمر ينحصر في مايتعلق بي في قضية العتاد ، وإذا كان هذا غير ممكن فالمجال بعدها للتألم واليأس ، لأن فلسطين تضيع حتماً . وأضفت إلى ذلك قولي انه لم يعد سراً سخط الشعوب العربية على حكوماتها ، وان هذه الشعوب بدأت تفقد الثقة بالجيوش ، وهذا أمر خطير جداً ، إذ ان الجيوش ليست ضعيفة ولا جبانة . ثم قلت : « ما خطب هذه الهدنة ؟ وما العوامل التي أدت الى عقدها ؟ الجيوش العربية بلغت من القوة ضعف ما كانت عليه يوم الهدنة الأولى » . فانبرى السيد عزام للجواب وقال : « أيوه . ذلك ان ضغط الاميركان والإنكليز علينا كان شديداً جداً، وعلى شان كده احنا عاوزين نتكلم معاك » . وحتى هذه النقطة من الحديث لم أر سبباً معقولاً لطلبهم مني حضور هذا الاجتماع . ثم قال عزام : « سنجتمع بك الساعة الثالثة بعد الظهر في بيت الأمير مجيد ونتكلم مطولاً » .

* * *

كان الاجتماع في دار وزير الدفاع اللبناني مجيد ارسلان ، مقتصراً على رياض الصلح وعبد الرحمن عزام والقائم بأعمال المفوضية العراقية عبد الجليل الراوي . وبعد برهة وجيزة فاجأنا سماحة المفتي الحاج أمين الحسيني وكأنه آت لزيارة الأمير مجيد ، دون أن يكون لديه سابق علم بهذا الاجتماع . وكنت جالساً الى جانب السيد عزام ، فدعا هذا سماحة المفتي للجلوس الى جانبه الآخر، وراح أمين الجامعة يبسط بفصاحة وألم الحالة السيئة التي وصل إليها العرب في فلسطين، والتفت إليَّ وقال : « وهذا يقتضي يافوزي ان تتعاون وسماحته » . وأجبت عزام: « ان سماحة المفتي لا يثق بي ولا أنا أثق به . وأنت تعلم انني أخدم قضية ومبادئ، ولا يعنيني أمر الأشخاص إلا بقدر ما يخدمون هذه القضية وهذه المبادئ» . قال عزام : « يافوزي ، كلنا فينا عيوب . ولكن الظروف الحاضرة تقضي علينا بتناسي الماضي » . قلت لعزام : « وعلى أي شيء تريد أن نتعاون ؟ » . قال : «إننا نقوي جيش الإنقاذ بما تطلب من سلاح وعتاد ، وننشئ جيشاً فلسطينياً بقيادة المفتي ، وتتعاونان على القتال ... وبذلك يكون لنا قوة غير نظامية تستمر في القتال غير متأثرة بضغط اميركا وبريطانيا ... » قلت : « في جيش الإنقاذ شبان فلسطينيون يقاتلون معنا ، وزيادة عددهم لا تتطلب قيادات جديدة ، والذي أعلمه انك انت نفسك شكوت أمامي كثيراً من تعدد القيادات . على انه إذا كان المقصود تسمية المفتي قائداً ، فالأمر بسيط .. ولكن من أين لكم أن تجهزوا هذا الجيش وتسلحوه ؟ .. » . قال : « في مقدورنا أن نفعل» . قلت : « وفي مقدوري أن أقاتل على هذا ، مادمتم توفرون السلاح والعتاد لجيش الإنقاذ . كل مايهمني ان تقرروا المضي في الحرب ، موفرين الوسائل للحرب . فالنتيجة التي تنتظرنا فاجعة، إذا لم تبادر الحكومات العربية في الحال الى إمدادنا بالسلاح الثقيل والعتاد » . وأوضحت له ذلك بصراحة تامة والأرقام . فطلب مني رئيس الحكومة اللبنانية أن أضع له على الورق كل ما يحتاج إليه جيش الإنقاذ من سلاح وعتاد ، ففعلت وسلمته اللائحة . فقال : « ان ما يترتب من هذه الكمية على الحكومة اللبنانية اعدك الآن إنني سأسلمه لك ، وإنني سأسعى لدى بقية الحكومات العربية لتسلمك ما يترتب على كل واحدة منها » . وقد وفى رياض الصلح بوعده ، أما

بقية الحكومات فلم تفعل شيئاً .

ورحت أسائل نفسي عما يمكن أن يكون الغرض من محاولة السيد عزام هذه .. وفيما إذا كان جاداً ، فتجلى لي أن الغرض الأول قد يكون طرح العبء عن الحكومات العربية ، والقاء المسؤولية على أكتاف هذه القوات ، ليوهموا الشعوب العربية ، ان الفشل ، إذا هي فشلت ، وستفشل حتماً بهذه الشروط ، ليست الحكومات والجيوش النظامية مسؤولة عنه .

وانصرف المجتمعون وبقي المفتي وحده ، فاستدعى اثنين من رجاله من الذين كانوا ينتظرون خارجاً نتيجة هذا الاجتماع ، أحدهما « أبو ابراهيم » والآخر « محمود الصفوري » ، وكانا يقاتلان الى جانب قواتنا ولكنهما مرتبطان بالمفتي ليصدر إليهما الأوامر بجمع رجالهما في أماكن حددها لهما . وانصرف كل من المجتمعين إلى شانه ، ولم ينفذوا شيئاً مما اتفقوا عليه حتى الآن ... واختفى سماحة المفتي ، ولم يظهر إلا عند تشكيل ماسموه حكومة عموم فلسطين ... في غزة . أما أنا فعدت الى الجبهة صفر اليدين من العتاد ومن ... لعلي استطيع القول ، الآمال ... على انه من ناحية أخرى كانت تبدو لعيني مظاهر الحب والتقدير لهذا الجيش من أبناء الشعوب العربية ، وتتجسم لي الهوة التي بين هذه الشعوب وبين حكوماتها . ومرت كذلك أمام عيني ، صور للمؤتمرات والاجتماعات العربية المتتالية ، التي عقدت من أجل فلسطين ، وأخذت أفكر فيها، فلا أرى غير عامل واحد كان يوحيها ، هو عامل الرغبة في التظاهر بالحرب التي لم يعدوا لها معداتها، فتورطوا وشعروا متأخرين بهذا التورط ، وأصبح همهم الوحيد الخروج من الوهدة التي رموا أنفسهم فيها ، لا يسألون عن ثمن مهما يكن، إلا أن يكون القتال . وصلت الى مقر القيادة في ٢٣ تموز ١٩٤٨ ، فجمعت ضباطي واطلعتهم على ماوقع لي في هذا الاجتماع ، وماكدت انتهي من حديثي معهم ، حتى بدأت البرقيات تنهال عليَّ منبئة بهجوم يهودي جديد على الموقع الجنوبي من الجبهة الغربية . هجوم على قرية سخنين تسانده المدفعية والطائرات، وتقاتل فيه قواتنا ببسالتها المعتادة، وتنتهي البرقيات بطلب العتاد . فحاولت كالعادة أن أحرم القوات غير المشتركة في القتال الدائر شيئاً من عتادنا .. فإن أملاً كان يخامرني في أن عتاداً سيصل إلى الجبهة قريباً فنعوض ما نكون في استهلكناه ، وذلك على ما سمعته من

عزام . وكانت كميات العتاد الفرنسي لابأس بها يومئذ بالنظر لما زودتنا به الحكومة اللبنانية . أما العتاد الانكليزي فقد كان يكاد يشرف على النفاذ، واصبحت أعنى بالطلقة الواحدة منها عنايتي بنقطة الدم . وتغرب شمس ذلك النهار والمعركة مستمرة ، فأتلقى من آمر الموقع الجنوبي في الجبهة الغربية، المقدم صفا هذه البرقية ٢٣-٧-١٩٤٨ رقم ٢١ من صفا إلى فوزي.

الساعة الآن الثامنة والنصف . لاتزال المعركة دائرة في قطاعي سخنين – شعب– معيار ، منذ الخامسة صباحاً ادركنا بذخيرة انكليزية .

الإمضاء – صفا

وتوقفت المعركة عند منتصف الليل ، ثم استؤنفت في صباح ٢٤، واستمرت حتى انتهت بعد الظهر بانتصار لقواتنا، وهزيمة لليهود ، الذين تركوا في الميدان كثيراً من الأسلحة ، استولينا عليها وعلى مصفحتين صالحتين وسيارة جيب . وبانتهاء المعركة انتهت عندنا الذخيرة الإنكليزية ، وأصبحت حائراً كيف أدبر شيئاً منها . وجدير بالذكر انه بعد الهدنة الثانية أخذنا نشعر ان السلاح اليهودي قد توحد، فقد كانت البنادق التي تقع بين أيدينا من العدو، كلها ألمانية صنع تشيكوسلوفاكيا وعليها الشعار اليهودي .. النجمة المعروفة. وقد كانت قبل ذلك بنادق ألمانية عليها النسر الألماني والصليب المعكوف ، طراز ١٩٤٥ ، فكنا ننتفع بما نغتنمه من اليهود أحياناً ، من عتاد ألماني بعض النفع. وكان السلاح اليهودي الأخير يدل على أن اليهود بدأوا يسخرون مصانع معينة لتصنع لهم الأسلحة باسمهم الخاص . وبعد الانتصار وصل إليَّ من المفتش العام لجيش الإنقاذ البرقية التالية :

٢٤-٧-١٩٤٨ الساعة ١٤و١٥ دقيقة رقم ٥٦١٢ .

نظراً للموقف المالي امنعوا تجنيد المتطوعين في الأفواج بدلاً من المسرحين والشهداء .

الإمضاء – الهاشمي

لقد وعدوني منذ يومين بزيادة عدد جيش الإنقاذ ، فما حدث في هذين اليومين .. قطع للعتاد وتنقيص للعدد وتأخير للرواتب « وو.... »ان هذا لكثير.

أيرمون إلى أن يزجونا في وضع لا نستطيع معه القتال ؟ فينفسح المجال للعدو . ويحتل كل يوم قرية أو منطقة ونحن نتفرج ؟ اننا لا نستطيع أن نكون متفرجين، وسأقاتل مادمت على رأس هذا الجيش ، أو سأتخلى عن القيادة . المهم أن يقاتلوا ، لأنني أعتقد آنهم عملياً إذا قاتلوا فسينتصرون . وقررت أن استقيل من القيادة ساعة اطمئن إلى شيء من الاستقرار على الجبهة بطولها.

* * *

المساومة على أرواح جنود جيش الإنقاذ

استقالتي من قيادة الجيش

المعارك مستمرة في ٢٥و٢٦و٢٧ تموز ١٩٤٨ في قطاع ترشيحا ومجد الكروم وسخنين وكفرمندا وعيلبون. معارك عنيفة تنزل باليهود كثيراً من الخسائر في الأرواح والسلاح. وتلقيت بعد هذه المعارك، وخصوصاً معركة ترشيحا من المقدم مهدي صالح البرقية التالية :

٢٥-٧-١٩٤٨ الساعة ٧و٥٠ دقيقة رقم ١٩٥ من مهدي الى فوزي .

ذهب الوسيط الى اليهود لجلب عشرين شخصاً منهم بناء على طلب اللجنة وموافقتنا لأخذ القتلى لأن روائحهم تؤذي الجنود.

أخذت حدة المعارك تخف، وجاءتنا لجنة من وسطاء الهدنة لوضع حد نهائي للقتال ، مقررة بقاء اثنين منهم في صفوفنا ، واثنين في صفوف اليهود كمراقبين . وإذا الهدوء يبسط جناحيه على الجبهة، ويلجأ اليهود إلى السكينة.

وشعرت ان الحالة بدأت تستقر ، ومرت مدة لم يقع فيها حوادث حربية . ولكن حوادث إدارية وقعت في جانبنا نحن فقط.. ذلك ان رواتب الجنود لم تدفع، أو دفع شيء الى البعض منهم، ولم يدفع الى البعض الآخر، مما سبب استياء شديداً في نفوس الضباط والجنود.

بينما كنت أعالج هذا الموقف مع المفتشية العامة، وغيرها من المراجع العليا، وصلني من أمين الجامعة السيد عزام كتاب مؤرخ في ٢٩ -٧ -١٩٤٨، مضمونه،

ان الجامعة عزمت على تخفيض جيش الإنقاذ ، نظراً لحراجة الموقف المالي عندهم ، مع ان عزام نفسه منذ أيام قليلة جداً ، قرر ان يزيد عدد جيش الإنقاذ، ووعدني بذلك ، فما معنى هذا التراجع ؟. ان موقف هؤلاء الناس عجيب فعلاً . . .

وفي ٣٠-٧-١٩٤٨ أبرق المقدم صفا الى المفتش العام بطريق القيادة البرقية التالية :

لايوجد لدى الفوج اللبناني بنادق مضادة للمدرعات. تفضلوا بإرسال البنادق الثلاث الباقية لنا مع طلقاتها على وجه السرعة . وجودها بين أيدينا خير من بقائها في مستودعاتكم . نستنكر موقفكم إزاءنا ومساومتكم على أرواحنا.

الإمضاء – صفا

لم تبق المسألة محصورة بي وحدي لاتداركها ، فقد بدأ ضباطي يشعرون بغرابة الوضع وشذوذه، وأخذ يسودهم جميعهم شعور غريب. وهنا قررت قراراً نهائياً أن أتخلى عن القيادة، فأقدم استقالتي لعل في ذلك شيئاً من الفرج والخير لجيش الإنقاذ، وقد فعلت . وهذا هو نص الاستقالة بالحرف:

جيش الإنقاذ – القيادة   الرقم ١٤٧ التاريخ ٥-٨-١٩٤٨

سعادة الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا

وصل لي كتابكم المؤرخ في ٢٩-٧-١٩٤٨ المتعلق بعزمكم على تخفيض ملاك جيش الإنقاذ الى النصف تقريباً . وقد فهمت بعد مباحثتي في الأمر مع فخامة الهاشمي ، ان عزمكم على اتخاذ هذا الإجراء مبني خصوصاً على الرغبة في تخفيف النفقات التي يتطلبها هذا الجيش في وضعه الحاضر، وعلى الصعوبة التي تواجهونها في تسليحه وتموينه بالعتاد اللازم . قبل ان أدخل في تفنيد هذه الصعوبات ، لابد لي ان أعرض عليكم وضع جيش الإنقاذ الحالي، والواجبات العسكرية الملقاة على عاتقه. يرابط جيش الإنقاذ على جبهة طولها ١٤٣ كيلومتراً يتصل بها ١١ طريقاً رئيسة، تخرج من ٧ قواعد يهودية عسكرية كبرى. أما المنطقة التي يحتلها هذا الجيش وهي منطقة الجليل الأعلى، فهي خيرة أراضي الجليل على الإطلاق.، وأكثرها سكاناً وأخصبها تربة، وان كانت تضم جبالاً شاهقة

ومنيعة . ان تخفيض عدد جيش الإنقاذ الى النصف لايحل مشكلة العتاد ابداً التي يتخبط فيها هذا الجيش، ولا نواقصه الأساسية، التي رافقته منذ البداية . تدركون هذا متى علمتم موجودنا من العتاد الحالي هو ١٨ طلقة لكل بندقية انكليزية و٤٥ افرنسية و٦٥٠ طلقة رشاش، وبدون أية طلقة لمدافع الهاون على اختلاف انواعها، وكذلك للمدافع عيار ١٠٥، ولكن لدينا ٨٠٠ طلقة لمدفع عيار ٧٥ . ان تخفيض جيش الإنقاذ الى النصف، يعني بصورة جازمة لا يخالفني فيها أي قائد عسكري ، انني لاأستطيع البقاء والاحتفاظ بالجبهة التي ارابط فيها . ويعني ضرورة الانسحاب الى مقربة من الحدود اللبنانية ، ان لم الى داخل الحدود اللبنانية، ويعني هذا فقدان الجليل بكامله ، أي اعطاء اليهود امكانيات اقتصادية وعسكرية وسياسية واسعة جداً، وتكليف الدول العربية اعانة مائة الف لاجئ فلسطيني آخر . أما قضية استعادة ما سنفقد من الأراضي بواسطة جيش فلسطيني، ينظر في انشائه الآن ، فهذا أمر خيالي . وإذا تم يوماً فسيكلف من الضحايا والأموال مالم يكلف جيش الإنقاذ جزءاً منه طوال سنين ، هذا الجيش الذي خبر الحرب الفلسطينية ، مدة تسعة أشهر بدون انقطاع.

وإني أود بعد هذا العرض الموجز أن أتطرق الى ناحية شخصية من القضية ، أراني مرغماً على مصارحتكم بها خدمة للقضية الكبرى ، التي لأجلها تهون كل تضحية.

لقد صرح فخامة الهاشمي انني « طمعت أكثر من اللزوم ولم أعمل ما يستحق الذكر ».

انني ادعي رغم هذا التصريح ، اني وجيش الإنقاذ قد قمنا بتمام الواجب الملقى على عاتقنا ، وبشكل لايستطيع أي جيش نظامي أن يأتي بمثله، وسط الصعوبات التي بينتها لكم مراراً ، صعوبات في التسليح والتموين وفي انتقاء الضباط . ١ن٧٥ بالمائة من هؤلاء في جيش الإنقاذ، لايصلحون إمالسوء الأخلاق وإما للجهل ، وقل ذلك عن قسم كبير من الجنود ، مع العلم انني رغم صفتي قائد هذا الجيش ، لم يكن لي أي رأي في اختيارهم هذا ، عدا عن الصعوبات في المعاملات العامة.

لأقول هذا دفاعاً ، اذ إنني على يقين انكم تقدرون هذه الأعمال، وخصوصاً الآن بعد ان خاضت الجيوش العربية معركة فلسطين، والتقى الجيشان العراقي والأردني مع العدو في نفس البقعة التي كان يشغلها جيش الإنقاذ، ويحافظ عليها، ويكيل للعدو الهزائم بالصورة التي تعلمون . ولكنني أقول هذا ، لأني بت أشعر أن قسماً من الصعوبات التي يواجهها جيش الإنقاذ، يبقى مستمراً مادمت على رأسه. ان هذا الشعور يجعلني أطلب إليكم إعفائي من قيادة هذا الجيش، لعل نواقصه تجد عندئذ دافعاً لإتمامها، أو حافزاً أشد لتلافيها، فينظر إلى تقويته وامداده ، على أساس الواجب الحربي المطلوب منه. وإني بانتظار قراركم بهذا الشأن أتخلى عن القيادة وينوب عني المقدم شقير.

الإمضاء – القائد فوزي القاوقجي

وقد أرسلت من هذا الكتاب نسخة إلى كل من رئيس الوزارة السورية ورئيس الوزارة اللبنانية والى المفتش العام والجنرال شهاب ووزير الدفاع اللبناني . ثم سلمت القيادة إلى المقدم شقير رئيس أركان جيش الإنقاذ، وهو من أفضل ضباط الجيش اللبناني ثقافة عسكرية وخبرة وشجاعة، بعد أن أطلعته على العوامل التي حملتني على الاستقالة.

وبعد أن أتممت معاملات تسليم القيادة أبرقت إلى الوحدات هذه البرقية :

٥–٨–١٩٤٨ الساعة ١٠ رقم ٢٠٣ مع نسخة الى الهاشمي .

أتغيب عن القيادة . مخابراتكم اعتباراً من غد الجمعة مع المقدم شقير الذي ينوب عني.

الإمضاء – فوزي

وتركت الجبهة مستقرة . وإذا كنت لم أذكر كلمة استقالة في مخاطبتي آمري الوحدات ، فذلك لكي لاأجعل للقلق والاضطراب سبيلاً الى الصفوف .

وودعت ضباط المقر واتجهت الى بيروت، فاجتمعت برئيس الحكومة اللبنانية الذي كان تسلم نسخة من كتاب استقالتي ، فأبدى لي تأثره وقلقه الشديد على الجبهة التي ترتبط مقدراتها بمقدرات لبنان ، فشرحت له العوامل التي دفعتني الى

التخلي عن القيادة. قال : « لايجوز أن تترك القيادة ، وأنت لم تتلق الموافقة على قبول استقالتك . . ». فقلت له : « انني تارك القيادة بموافقة وبدون موافقة، وما لم تحل قضية العتاد وتزول المشاكل التي توجدها المفتشية العامة فلن أرجع عن استقالتي ». فطلب مني بإلحاح أن أتريث قليلاً ، وإنه سيبذل أكثر ما يمكن من جهد لتأمين احتياجات جيش الإنقاذ. فذكرت له انه لن يوفق إليه، وإذا افترضنا التوفيق فإنني ساعود . وسافرت الى دمشق فقابلت رئيس الجمهورية السورية وأطلعته على العوامل التي الجأتني الى الاستقالة ، فوعدني انه سيعمل على إزالة المشاكل والعقبات التي تعترض إتمام حاجيات الجيش. وقلت له : « جربوا غيري، فقد يستطيع غيري القتال بدون عتاد ، وفي هذا كثير من التوفير ».

وجاءني إلى منزلي في صباح ١٠ آب ١٩٤٨ الوزير المفوض للمملكة العربية السعودية عبد العزيز بن زيد ، وأطلعني على تأثر جلالة الملك ابن سعود لاستقالتي، قائلاً انه لايجوز مطلقاً في مثل هذه الظروف أن أتخلى عن القيادة . فأوضحت له الأسباب والعوامل التي اضطرتني الى ذلك، وصارحته انه لايمكن أن أعود الى القيادة، مابقيت الحال كما هي الآن . فأخرج من جيبه برقية من جلالة الملك اليه، وملخصها ان جلالته يطلب مني أن أعود الى القيادة ، وهو يتعهد بتأمين « احتياجاتي الخاصة والعامة » . فشكرت لجلالته هذه الثقة ووعدت الوزير انه حينما تتأمن احتياجات الجيش أعود للقيادة .

* * *

« عجبك آغاتي ايش لون ضباط هؤلاء »

بدأ يطرأ على الداخلية في جيش الإنقاذ ، لأول مرة ، شيء من التشويش والفوضى . وتفاقم الأمر ، فبدأ في الوحدات ما يشبه الإنحلال. وكما علمت من برقية شقير ١١-٨-١٩٤٨ فقد اشتبك جنودنا ، وبالمدفعية ، بعضهم مع البعض الآخر ، وهم في خط القتال... انه الانحلال وليس التشويش والفوضى . وعقب هذا الحادث فوراً أن أفراداً من الجنود، أخذوا يغادرون مواقعهم وينسحبون بتجهيزاتهم وسلاحهم، وأخذ عدد هؤلاء يتزايد بشكل مخيف. فشعر أولوا الأمر أنفسهم ... بالخطر المهدد، وراحوا يلحون عليَّ بالعودة الى القيادة ، مهما يكن

من أمر ، فاصررت على أن لا أعود مالم يؤمنوا مطالبي للجيش . وبينما كنت يوماً في مكتب السيد جميل مردم في وزارة الخارجية، دخل علينا المفتش العام لهذا الجيش ، طه الهاشمي ، وفي يده برقية ناولها الى رئيس الحكومة السورية وزير الخارجية السيد مردم، ليقرأها ، فإذا هي بنصها :

١٨-٨-١٩٤٨ الساعة ١٦ رقم ٣٤٤ .

من صفا إلى مفتش المتطوعين العام . نسخة الى قائد قوات الإنقاذ . فخامة رئيس الجمهورية السورية ، فخامة رئيس الجمهورية اللبنانية .. هاجم اليهود أمس قرية كفرمندا، فانسحب مسلحوها لعدم وجود الذخيرة. يهدد الضباط والجنود بالتراجع وبالاستقالة اذا لم يسلموا ذخيرة بمعدل ٢٠٠ طلقة للبندقية . يرفض قواد الوحدات أية مسئولية تنتج عن وجودهم في الخطوط الأمامية عزلاً تحت رحمة العدو .

نستغرب قبولكم بوضع كهذا. وتعريضكم أرواح الناس وأنتم وراء مكاتبكم قابعون. يمكنكم الحصول على الذخيرة من الجيش اللبناني أو من الجيش العراقي المظفر. فإن ابيتم تدارك الموقف فتفضلوا وانزلوا بأنفسكم لنرى عبقريتكم ونتعلم منكم. أطلب رفع برقيتي هذه إلى صاحبي الفخامة رئيس الجمهورية السورية ورئيس الجمهورية اللبنانية. اني أتكلم باسم جنودي وباسم مالايقل عن ٥٠ألف من الفلسطينين الموجودين في منطقتي. ألم تتعظوا بمأساة الناصرة. ان لم تصل هذه البرقية إلى صاحبي الفخامة رئيس الجمهورية السورية ورئيس الجمهورية اللبنانية فانشر مضمونها على صفحات الجرائد .

الإمضاء – صفا

وماكدت انتهي من قراءة البرقية حتى التفت اليَّ الهاشمي سائلاً ، ولكن بألم شديد « عجبك اغاتي ايش لون ضباط هؤلاء »... فقلت : « حقيقة ان البرقية شديدة اللهجة جداً . ولكن ماتريد ان يفعل هؤلاء والجنود البواسل، وهم لاعتاد لديهم ، والعدو المزود بقوات هائلة من عدد ومعدات يهددهم في بلادهم وفي شرفهم. وهم يحبون القتال، وليس بين أيديهم وسائل القتال ... وأنت المسؤول عن هذا، وفي مستودعاتك أسلحة وعتاد ... وهل ان الناصرة كان يمكن أن تسقط

لو كان لدى هؤلاء الضباط والجنود سلاح وعتاد ؟ ....»

ان صاحب هذه البرقية المثيرة المقدم محمد صفا ، هو أحد ضباط الجيش السوري النظامي ، يتمتع بأفضل صفات الجندي ومزايا القائد، ولعله أحسن ضابط في الجيش السوري كفاءة وخبرة وثقافة، ومن مفاخر جيش الإنقاذ. بعد هذه البرقية بدا على المسؤولين اهتمام جدي لتأمين حاجيات قواتي، واقناعي بالعودة الى القيادة، فقد لوحظ ان آمري الوحدات ، راحوا يتساءلون عن سبب تغيبي عن الجبهة، وانهم قد ساورهم لذلك قلق شديد، وهم لم يتعودوا مني مثل هذا التغيب، وأخذوا يرفعون أصواتهم مطالبين بعودتي. لقد أعلمني المقدم شقير بهذا، وألح عليَّ في العودة الى القيادة للسيطرة على الموقف الذي بدا يفلت من بين يديه . فأبرقت إليه انني سأعود حينما تؤمن حاجيات جيش الإنقاذ، أو حينما اتيقن على الأقل إنها ستؤمن . وبعث المقدم شقير الى آمري الوحدات برقية في ٢٧-٨-١٩٤٨ رقم ٢٩٦ يطمئنهم.

وفي الواقع ان خطورة الموقف حركت بعض المسئولين للاهتمام ، بصورة جدية هذه المرة، بتأمين حاجيات قواتنا وقد تأمن ، فعلاً ، شيء من هذه الحاجيات ، ووعدوا وعوداً قطعية ان الجامعة من جهتها ، ستؤمن ماتستطيع منها . فقررت العودة الى الجبهة وأنا بين الشك واليقين ، من تحقيق الوعود. وصلت الى الجبهة مساء ٢٥-٨ واجتمعت الى آمري الوحدات كلهم وأخذت أدرس معهم الحالة بدقة . ثم أخبرتهم إنني جئت بشيء من العتاد، وإننا سنحصل على كامل حاجتنا منه في القريب. بيد إنني كنت أشعر – ان لم أقل كنت أعلم – إنا ضعفاء بالنسبة الى القوات اليهودية ، التي كانت الأسلحة الذخائر تتدفق عليها من يوم الى يوم بطريق البحر. ففكرت في مسألة التحصينات ، وأيقنت إنها أصبحت ضرورة ملحة لاغنى لنا عن إقامتها ، في مراكزنا المهمة ، فتساعد على توفير جزء من قواتنا، وتوحي شيئاً من الاطمئنان نقابل به مانتوقعه من مهاجمات يهودية شديدة، بالسلاح الثقيل، كالدبابات والطائرات ، فنستطيع الصمود أمامها. وذكرت ما رافق الهجوم اليهودي العنيف في ١٤ آب على الجيش المصري خاصة، من أسلحة ثقيلة متنوعة كالدبابات والطائرات ، وكيف أن الجيش المصري لم يقدر على صده، وهو من العدد والمعدات بحيث لايمكن أن يخطر لعاقل المقابلة بيننا وبينه . فضلاً عن ان

الجبهة التي كان يشغلها لاتعادل بمساحتها نصف الجبهة التي يشغلها جيش الإنقاذ، وانه كان لديه تحصينات من الباتون المسلح، عدا الأسلاك الشائكة والألغام التي زرعها في مساحة واسعة. فكان من الطبيعي أن أفكر في إقامة تحصينات في المراكز المهمة على جبهتنا، التي أصبح لاغنى لنا عنها لحماية الجبهة . وقد كانت الجيوش العربية كلها أقامت مثل هذه التحصينات، واحتمت بها محيطة إياها بخطوط كثيرة من الأسلاك الشائكة ، ومن حقول الألغام. فكتبت بذلك الى المفتشية العامة أطلب المواد اللازمة ، فراجعت المفتشية بهذا الشأن جامعة الدول العربية، وإذا بنا ندخل من جديد في « دور » يشبه دور العتاد والبنزين وبقية التموينات ، حتى انتهى الهجوم اليهودي وانتهت الحركات ولم « يعطونا » كيس اسمنت واحد ....

بعد ان سكنت حركة الجبهة ، مدة من الزمن كما ذكرت سابقاً ، عاد اليهود الى التحرش بقواتنا بحركات موضعية، في ترشيحا ومجد الكروم وشعب وكفرمنده. وكانت هذه الحركات تتطور أحيانا الى معارك شديدة كما حدث في كفرمنده وشعب خاصة ، ثم تحولت هذه الحركات بصورة فجائية الى أقصى المواقع الشمالية من جبهتنا. وابتدأت اعتداءات على القرى اللبنانية نفسها، مثل عديسة ومركبة وحوله، فأخذ سكان هذه القرى يضجون ، مهددين انهم لن يدفعوا ضرائب الى الحكومة إذا هي لم تحمهم . فأرسلنا مفارز صغيرة لحمايتهم، واشتبكت هذه المفارز بقوات يهودية غير مرة، وأخيراً طردت قواتنا القوات اليهودية وطهرت منها هذه القرى .

وفي ٣١-٨ شرع اليهود من مستعمرة المنارة ، يقومون بهجمات على قواتنا المتمركزة في جوار المستعمرة . ومن هذا التاريخ استمر القتال ، بدون انقطاع خفيفاً على طول جبهتنا الشمالية والشرقية حتى الهجوم الكبير. كانت الاعتداءات المنظمة على القرى اللبنانية المجاورة لمستعمرة المنارة بداية الهجوم اليهودي الكبير، وكانت المفارز الصغيرة التي أرسلناها لحماية هذه القرى ، ترد هذه الاعتداءات في بادئ الأمر بقوة. على انه حوالي الساعة الثانية بعد الظهر ٣١ آب بدأت المدفعية اليهودية في المنارة فجاءة تصب قنابلها على مواقع جنودنا في الخطوط الأمامية، وبعد قصف استمر ساعتين ، قام اليهود بهجوم على قواتنا في قريتي الحولة وميس الجبل، واستمر الاشتباك بعنف حتى الساعة العاشرة ليلاً ، إذ تمكنت قواتنا من صد الهجوم منزلة

باليهود خسائر كبيرة. وكانت اشارات طلب النجدة تنطلق من المنارة طيلة ذلك الليل. وفي صباح أول أيلول ، جدد اليهود هجومهم على القريتين المذكورتين ، بقوات كبيرة وبأسلحة ثقيلة حتى تمكنوا من الوصول الى مسافة قريبة جداً ، من خطوطنا الأمامية . وثبت جنودنا في مواقعهم مدافعين ببسالة وصبر ، الى ان وصلت اليهم نجدات تمكنا من إرسالها بجهد ، وعبثاً حاول اليهود زحزحة قواتنا . ونزلت باليهود إصابات كثيرة من قتلى وجرحى، حتى ان تراجعهم بعد ان فشلوا في اختراق هذه الخطوط ، اصبح أمراً عسيراً ، يكلفهم ضحايا كثيرة، فلم يبق أمامهم إلا المثابرة على القتال ، حتى يجيء الظلام الذي يمكن ان يحمي تراجعهم . وكان جنودنا يشعرون بالمأزق الحرج الذي ادخل اليهود نفوسهم فيه، بمحاولتهم التفلت منه، وذلك من جراء نيران اليهود الطائشة من مختلف أسلحتهم . وهبط الليل فأخذ اليهود يتسللون متراجعين الى الأودية، أفراداً وجماعات . وأحست قواتنا هذا الانهزام فطاردتهم في ظلام الليل متتبعة آثارهم في الأودية والشعاب، واستمرت المطاردة بهذا الشكل حتى أبواب مستعمرة المنارة . وفي صباح ٢-٩-١٩٤٨ تسلمت من المقدم شقير البرقية التالية :

٢-٩-١٩٤٨ رقم ٣٥٨ من شقير الى فوزي

انتهت معركة المنارة هذا الصباح بأكثر من اثنين وسبعين قتيلاً معدودين من اليهود وأضعافهم من الجرحى . ذهبت قافلة لنقل الجرحى مؤلفة من سبع عشرة سيارة مما يدل على عظيم خسارتهم.

كان ذعرهم بادياً . إذ أنهم ايقظوا مراقب الهدنة في صفد ورجوه أن يوقف المعركة. ولولا نفاذ العتاد الإنكليزي للرشاشات وعدم صلاح القسم الأكبر من عتاد البنادق لكان الانتصار أكبر. ذهبت هذا الصباح مع المراقبين الى مكان المعركة. شاهدوا بأعينهم قتال اليهود داخل الأراضي اللبنانية . حضر أيضاً مراقب من صفد حسب طلب اليهود وطلب منا إيقاف المعركة عند هذا الحد فقبلنا ، بعد ان أكدنا له إننا سنقوم بفتح طريق بنت جبيل- مرجعيون صباح الإثنين القادم . وإذا تعرض لنا يهود المنارة سندخل المستعمرة.

الإمضاء – شقير

وبالرغم من انتهاء معركة المنارة على هذا الشكل ، وبالرغم من تعهد مراقبي الهدنة أن يحولوا دون اشتباكات جديدة ، بدأت تحشدات يهودية من مستعمرات الحولة ، الى المنارة وماحولها . وشاهدنا تحصينات يقوم بها اليهود على التلال الواقعة شمال غربي النبي يوشع، تحمي معسكراً جديداً انشأوه وحشدوا فيه قوات كبيرة وكان الغرض من هذا كله ظاهراً، هو القيام بهجوم جديد على قواتنا في منطقة المنارة. وفي الوقت نفسه أخذوا يهاجمون مواقعنا في منتهى الجنوب الغربي من جبهتنا، خاصة في شعب وكفرمنده وسخنين. وقد استبسل أهل قرية شعب استبسالاً منقطع النظير، في الدفاع عن القرية . وفي ٤-٩-١٩٤٨ تلقيت من المقدم شقير البرقية التالية :

٤-٩-١٩٤٨ رقم ٣٧٢ مستعجل جداً . من شقير إلى فوزي.

يحاول اليهود منذ الصباح التسرب الى داخل الأراضي اللبنانية شمالي المنارة بقصد السيطرة التامة على الطريق. وربما لتطويق قواتنا. قاموا بنسف منازل عديدة في قرية هونين. احتدمت المعركة من جديد. اسرعوا بإرسال عتاد انكليزي وقنابل هاون وسلبند.

الإمضاء – شقير

فلم أندهش لأنني كنت أتوقع مثل هذه الحركات من اليهود، رغم الهدنة ورغم وعود المراقبين ، لذلك كنت أتخذت ماأمكن من الترتيبات ، ضد هذه الحركات. وانتهت هذه المعركة عند المساء بعد أن أجبرنا اليهود على التراجع الى خطوطهم التي زحفوا منها وتركوا أكثر من ثلاثين قتيلاً أمام خطوطنا (برقية ٩-٩-١٩٤٨ رقم ٣٧٦ من شقير).

وحوالي الساعة الثامنة من صباح ٥-٩ أعاد اليهود هجومهم على شعب، وبقي القتال مستمراً حتى المساء، وأجبروا كذلك على العودة الى خطوطهم، تاركين عدداً من القتلى . وبرزت من جديد المشكلة الدائمة، مشكلة العتاد، والمؤسف أن كمية العتاد الإنكليزي ، التي كانت أرسلت من دمشق ضمن أكياس بدلاً من صناديق، ووزعت فور وصولها على الجنود المشتبكين في القتال، تبين لدى استعمالها إنها غير صالحة . فاطلعت المفتشية العامة ورئيس الجمهورية السورية على

هذا الأمر. فأرسلوا إلينا فوراً « وهذا غريب » عشرين صندوقاً من العتاد الإنكليزي الصالح. فبعث هذا العتاد على قلته في نفوس الجنود قوة معنوية كبيرة، ثم أصدرت أمراً بنقل مدفعين الى جبهة المنارة، وأربع مصفحات وسرية جديدة. واتخذت التدابير اللازمة لفتح طريق بنت جبيل مرجعيون صباح ٦-٩، وقواتنا على أتم استعداد للانقضاض على اليهود، إذا هم حاولوا عرقلة عملنا. ويمر هذا الطريق على مسافة تتراوح بين مائة، ومائة وخمسين متراً عن مستعمرة المنارة، وعملية فتحها خطرة ودقيقة جداً.

حضر المراقبون كما كان متفقاً عليه، في ذلك الصباح، فأنبأتهم بعزمنا على فتح الطريق، مؤكداً لهم إننا غير متعرضين لليهود، ولكننا لن نتردد في الهجوم على المنارة، وتحطيمها إذا هم حاولوا عرقلة عملية فتح الطريق. وذهب المراقبون الى المنارة يحذرون اليهود. وبدأت بارسال المفارز للمباشرة في العمل، وإزالة الألغام المبثوثة. وبدأت المفارز عملها والقوات اليهودية تشاهد من مواقعها هذه العملية التي استمرت بدون أي حادث حتى النهاية. فتم فتح الطريق واتصلنا بالقوات اللبنانية في مرجعيون. وأرسلت الى وزير الدفاع اللبناني والى المفتشية العامة لجيش الإنقاذ البرقية التالية:

٦-٩-١٩٤٨ رقم ٤٠٠

فتحنا طريق بليدة – عديسة عملياً. تم الاتصال بيننا وبين عديسة. أرجو أن تأمروا الفوج اللبناني الموجود في مرجعيون بتنظيف الطريق نحو العديسة. كما تقوم من العديسة جماعات لتنظيف الطريق نحو مرجعيون. يهاجم اليهود بقوة قرية شعب منذ البارحة صباحاً. صدتهم قواتنا وأهالي شعب البواسل. أصيب العدو بخسائر كبيرة. لاتزال هناك مناوشات. سيصل اعضاء لجنة المراقبة الى ميدان المعركة.

الإمضاء – فوزي

كانت معركة المنارة ذات ميدانين، يساند أحدهما الآخر. وفي الميدانين أنزلنا باليهود خسائر جسيمة، على انهم راحوا يجهزون حملة قوية من مستعمراتهم في الحولة، للقضاء على قواتنا في منطقة المنارة، والوصول الى عيترون، مركز قيادة

جيش الإنقاذ، وهي لاتبعد أكثر من ستة كيلومترات عن المنارة. وهم إذا تيسر لهم ذلك تمكنوا من تطويق جيش الإنقاذ بكامله، وحالوا بينه وبين الاتصال بلبنان.

وتجاه هذه الفكرة الخطرة، كان لابد لنا من أحد أمرين: إما جمع قوات من أطراف الجبهة فنعرضها لخطر الضياع من أيدينا، أو بقاء هذه القوات حيث هي فنعرض الجيش بكامله للتطويق. فاتصلت بوزير الدفاع اللبناني ورئيس الحكومة اللبنانية، وعقدنا اجتماعاً عند الجنرال شهاب، شرحت لهم فيه حقيقة الموقف، والخطر الذي تتعرض له قواتي من جهة، والحدود اللبنانية من جهة أخرى، وطلبت منهم مساعدتنا بالعتاد، وبفوج من الجيش اللبناني إذا أمكن. وقرروا مساعدتنا بالعتاد، وتشكيل فوج لبناني من المتطوعين، يكون تحت تصرفنا، على أن نسلم هذا الفوج سبعة رشاشات فرنسية، كنا أخذناها من دمشق. وقبلت بذلك وسررت به، وصدرت الأوامر بتسليمنا عتاداً ألمانياً من الجيش اللبناني، وبتشكيل فوج من المتطوعين بأسرع مايمكن. ورفضت المفتشية العامة في دمشق أن نسلم الرشاشات السبعة الى فوج المتطوعة اللبناني. وأطلعني المقدم شقير على برقيته التي أرسلها الى العقيد محمود الهندي وهذا نصها:

٨-٩-١٩٤٨ رقم ٤٠٨ من شقير الى الهندي.

استلمت للآن من الجيش اللبناني ثلاثة مدافع عيار ٣٧ طلبت اليوم مدفعين ٣٧ مع الذخيرة سنجهز فصيلاً « بعيار » ١٠٥ ونمونه بقنابل من الجيش اللبناني ونستعمله في الجبهة. قدم الجيش اللبناني لنا حتى الآن الكثير من العتاد المختلف، لماذا تصرون على رفض طلب القيادة اللبنانية استعمال السبع رشاشات الفرنسية لتسليح الفوج الذي سيوضع تحت تصرفنا. أرجو أن تراجعوا فكركم وتجيبونا بما ترمي إليه المصلحة.

الإمضاء – شقير

وتبقى هذه البرقية بدون جواب.

* * *

القائد العام للجيش السوري في جبهتنا

في صباح ٧-٩-١٩٤٨ قام اليهود بهجوم شديد على جبهة الفوج العلوي، في منطقة صفد . وتلقيت من آمر الفوج الرئيس غسان جديد البرقية التالية :

٧-٩-١٩٤٨ رقم ٢٥ من غسان الى فوزي.

المعركة تدور في مرتفعات العموقة. حاول اليهود الوصول الى جبل نطاح فرددناهم . لاتزال المعركة دائرة.

الإمضاء – غسان

تقع عموقة هذه ، على مسافة كيلومتر الى الشمال الشرقي من صفد، وتشرف مرتفعاتها على سهل الحولة، وعلى الطريق الممتدة من طبريا الى صفد الى المنارة في الشمال . وكان الغرض من هذا الهجوم زحزحة جنودنا عن هذه المرتفعات ، ليؤمن لليهود تنقلاتهم على هذه الطريق من جهة، ولستر حركات الوحدات اليهودية داخل هذه المنطقة من جهة أخرى . وبعد ساعة تقريباً من تسلمي برقية الرئيس غسان، تلقيت برقية أخرى هذا نصها :

٧-٩-١٩٤٨ رقم ٢٦ من غسان الى فوزي.

اشتبكنا بمعركة في منطقة مروس ربما تتسع.

الإمضاء – غسان

ومروس هذه، تقع على مسافة كيلومتر الى شمالي العموقة، ومدى الرؤية منها واسع جداً، وهي تقابل خطوط الجيش السوري في منطقة مشمار هايردن، ولا يفصلها عن هذه الخطوط سوى أربع كيلومترات تقريباً ، فإذا ماتيسر لنا القيام بحركة مشتركة مع الجيش السوري من هذه النقطة، نفصل منطقة الحولة بكاملها عن منطقة طبريا.

وبينما المعركة دائرة في منطقة مروس ، تلقيت من آمر لواء اليرموك، المقدم عامر، البرقية التالية :

٨-٩-١٩٤٨ رقم ٣٧ من عامر إلى القيادة.

هاجم العدو خطوطنا الأمامية في سخنين بالمصفحات ، فرددناه على أعقابه بخسارة مصفحتين وعدد كبير من القتلى .

الإمضاء – عامر

وفي اليوم نفسه وصل الى المقر من المقدم مهدي برقية هذا نصها :

٨-٩-١٩٤٨ رقم ١٢٥ الساعة ٢٢ من مهدي الى شقير.

تبلغنا من مصدر موثوق ان قوة من اليهود تقدر بأربعين مصفحة ، البعض منها ذات جنزير، ومدفعية ثقيلة تجرها سيارات ، في اتجاه ترشيحا ، من الضروري وجود قوة احتياطية تكون مهيأة عند الطلب للنجدة. أرجو إرسال مصفحتين إحداهما ذات مدفع بالسرعة الممكنة .

الإمضاء – مهدي

وفي صباح ٩-٩ تلقيت من المقدم شوكت شقير البرقية التالية :

٩-٩-١٩٤٨ رقم ٤١٦ من شقير الى فوزي.

المعلومات عن العدو تدعو للقلق . تحشدات أمام ترشيحا من مصفحات ودبابات ومدفعية . يخشى أيضاً مهاجمة تربيخا. اشتبكت هذا الصباح قوات من فوج غسان مع اليهود في الوادي قرب عين التينة.

الإمضاء – شقير

وعين التينة هذه ، تقع في ضواحي صفد، وبعد ساعات تلقيت برقية أخرى من قائد منطقة ترشيحا المقدم مهدي نفسه هذا نصها :

أرسلوا عتاد انكليزي وعتاد فرنسي وألماني وما يمكن من عتاد ف.م.

الإمضاء – مهدي

تجاه هذه البرقيات وجدت نفسي أمام سلسلة من المعارك سنخوضها مرغمين، وخامر نفسي قلق شديد، بالنسبة لما استهلكناه من عتاد في هذه المعارك التي ذكرتها، ولما أتوقعه من معارك أخرى ستكون خطيرة جداً. وخطر لي التعاون مع

الجيش السوري لمصلحتنا جميعاً، فطلبت من قائده الزعيم حسني الزعيم أن يزور جبهتنا ويلمس بيده ماللتلال التي نحتلها في منطقة مروس من الأهمية، بالنسبة لوضع الجيش السوري . وليتأكد من أن اليهود لن يقدموا على مهاجمة الجيش السوري، ما احتفظنا بهذه التلال ، التي تضمن لنا التسلط عليهم، والسيطرة على خطوطهم الخلفية . وجاء الزعيم حسني الزعيم الى مقر القيادة، وذهبنا معاً الى مروس، فشاهد بأم عينه حقيقة ما وصفته له، وآمن بخطورة هذه التلال ، وإنها بين أيدينا تشكل ضمانة للجيش السوري قوية جداً . فقال انه سيبذل كل مافي وسعه لاقناع رئيس الحكومة السيد جميل مردم بارسال أكبر كمية ممكنة من العتاد الى جيش الإنقاذ . ولما كان من الصعب جداً إيصال المدافع الى هذه التلال التي نحتلها، قال لي الزعيم حسني الزعيم : ان الجيش السوري تلقى كمية من مدافع الهاون « ٦٠ » مدفعاً عيار ٨١ مع ثلاثين ألف قنبلة، وأنه سيحملهم على إرسال قسم من هذه المدافع والقنابل الى جيش الإنقاذ. فقلت له انه قد يصعب عليهم ارسال المدافع، فأنا أكتفي بأن يرسلوا لي أكثر مايمكن من القنابل عيار ٨١ لأن عندي مدافع الهاون، مما ربحناه من اليهود، كمية لابأس بها . وذهبنا معاً الى دمشق، واجتمعنا بفخامة الرئيس في القصر، وكان ذلك في ١٣ أيلول ١٩٤٨ ، وحضر هذا الاجتماع السيد جميل مردم والزعيم حسني الزعيم ورئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح، فشرحت للمجتمعين الموقف شرحاً وافياً، وبينت لهم أهمية مروس مستشهداً بقائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم، فأيد هذا أقوالي وطلبت إليهم ان يسلموني قنابل هاون . ولعب الطمع برأسي فطلبت مدافع هاون أيضاً ، فالتفت اليَّ السيد جميل مردم مبتسماً وقال، ولكن بشيء من السخرية : « مدافع هاون ؟ .. هذا للجيش السوري فقط .. » . قلت : « لابأس أكتفي بالقنابل .. » فرفضوا ، فاكتفيت بعشرين قنبلة فقط، فاعتذروا . ثم التفت اليَّ الرئيس وخاطبني بحدة : « يا أخي ليش تتحرش باليهود، مانك شايفهم ماسكينا بخوانيقنا ؟ روح انسحب من مروس .. » وكانت صدمة عنيفة جداً ، لم ألق مثلها في حياتي ولم أكن أتوقعها أبداً . ليس من ناحية العتاد – لكن من ناحية العقلية– هذه العقلية الغريبة العجيبة برؤوس « الرؤوس » . وقلت لفخامة الرئيس بهدوء : « ان معركة مروس يا فخامة الرئيس ، لم نتقبل أن نخوضها ، إلا على أساس

مصلحة الجيش السوري، كما بيَّن لكم الزعيم حسني الزعيم قائد الجيش . فإذا كنتم ترون ان لا فائدة من ذلك ، ولا أهمية له ، فأنا انسحب من مروس . وإني في حاجة الى كل نقطة دم ، وكل طلقة نبذلها في مروس، لكي أبذلها في نواحي أخرى ، تتصل بجيش الإنقاذ مباشرة » .

وتلقيت من الرئيس غسان البرقية التالية :

١٨–٩–١٩٤٨ رقم ٤٥ من غسان الى فوزي .

تمكن اليهود الساعة السادسة من احتلال جبل المخبي ومروس والمرتفعات . قمنا بهجوم معاكس فاسترجعنا التلال المجاورة ومروس . وانحصر اليهود في جبل المخبي . ثم هاجمناهم في الجبل ثلاث مرات ولم نتمكن من استرجاعه . هل ترسلون سرية لدعم حامية مروس لنسحب الاحتياطي الى ميرون وصفصاف . فالتحشدات في صفد قائمة . العتاد الألماني أوشك ينفذ .

الإمضاء – غسان

وهكذا يثبت جنودنا ، مثل كل مرة بسالتهم واستخفافهم بالموت ، فنعوض بهذا من العتاد الذي تحرمنا حكوماتنا منه إما ارسال السرية التي يطلبها الرئيس غسان فكان طبيعياً انه غير ممكن. وقد كان قتلى اليهود في المعركة لايقل عن مائتي قتيل ، ولكن قتلانا وجرحانا كانوا كثيرين أيضاً . وأرسلنا هؤلاء الجرحى الى المستشفى ، فأرسل مدير الصحة في جيش الإنقاذ الى المقر البرقية التالية :

١٨–٩ ١٩٤٨

المستشفى مكتظ بالجرحى لايوجد عندي سوى سيارة « بيك اب » للاخلاء . اسعفوا بسيارة « امبولانس » بأسرع مايمكن.

الإمضاء – الدكتور أمين

وأرسلت على الأثر الى رئيس الحكومة السورية وزير الدفاع السيد جميل مردم البرقية التالية :

١٩–٩–١٩٤٨ رقم ٤٨١ من فوزي الى وزير الدفاع السوري.

وجودنا في منطقة مروس لمجرد فكرة معاونة الجيش السوري والقيام بعمليات مشتركة إذا استؤنف القتال . ليس لهذه المنطقة أية فائدة بالنسبة لوضعنا . سيطرتنا على طريق الحولة الرئيسي مؤمنة في كل وقت أردنا . لا يمكن استرداد جبل المخبي إلا إذا اشتركت القيادة السورية معنا ورأت في استرداده فائدة لها . .

الإمضاء – فوزي

ولكن . . . كان من الطبيعي ، أن لا اتلقى أي جواب . ورحنا نتخذ ترتيبات دفاعية صارفين النظر عن الهجوم . على كل حال قد قررت تأكيد استقالتي ، فأرسلت الى أمين الجامعة كتاباً بعثت بصورة عنه الى رئيس الجمهورية السورية ووزير الدفاع الوطني السوري، والى المفتش العام للمتطوعين والى وزير الدفاع اللبناني .

جيش الإنقاذ

القيادة . ٢٢-٩-١٩٤٨

سعادة الأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الرحمن عزام باشا المحترم .

كنت أرسلت إليكم كتاباً في ٥-٨-١٩٤٨ جواباً على كتابكم المؤرخ ٢٩-٧-١٩٤٨ ، شرحت فيه لكم حالة جيش الإنقاذ وما ينقصه من حاجيات طلبت إليكم تامينها . كما أعلمتكم إني تخليت عن القيادة للمقدم شوكت شقير، الى أن تتمكنوا من تلبية احتياجات هذا الجيش . وقد مرت مدة تقرب من شهرين دون أن أحصل منكم على جواب . ولما ان هذا الجيش مرتبط بالجامعة مباشرة وأنتم مسؤولون عنه بالدرجة الأولى، ولما اني مازلت أمارس الإشراف عليه ، لذلك رأيت من واجبي القومي أن أعيد الكرة وأطلعكم مرة أخرى على حالته لارفع بذلك عن كاهلي آخر جزء من المسؤولية . ان جيش الإنقاذ يشغل ويحمي جبهة تكاد تعادل ماتشغله الجيوش المصرية والعراقية والاردنية من جبهات، وهو منذ بداية الهدنة حتى يومنا هذا ، منهمك بمعارك على طول جبهته . وقد كبد العدو خلال الهدنة الحالية، مايزيد على ستمائة قتيل ، وأضعاف ذلك من الجرحى ، كما غنم عدداً وفيراً من الأسلحة والعتاد، كنا نستعمله في خلال معاركنا ضد العدو . يضاف الى

ذلك ما أعاده من طمأنينة الى قلوب أهل الجليل الذين عاد أكثر من ثلثي نازحيهم الى قراهم بفضل حماية جيش الإنقاذ من استغلال كافة محصولاتهم .

ان القتال الذي بدأ في جبهتنا مع بدء الهدنة أخذ يتطور تدريجياً على شكل واسع النطاق، حتى كادت تكون المعركة الأخيرة معركة مروس ١٨-٩-١٩٤٨ إحدى معارك الميدان الكبرى . وقد تمكن هذا الجيش من جذب وتجميد قوات يهودية كبيرة في خطوط مقابلة لخطوطنا ، فأخرج بذلك من صف القتال كل هذه القوات، من جبهات بقية الجيوش العربية . وقد تأكدنا من الغنائم والوثائق التي وقعت بأيدينا ، أن اليهود قد أتوا بقوات جديدة وأسلحة كثيرة متنوعة ، من المسدس حتى المدفع والدبابات والطائرات. الى جانب ذلك أرى أن الحكومات العربية تبنت كل واحدة منها جيشها المشبع بالسلاح والعتاد ، وأخذت تبتاع كل ما أمكنها من أسلحة وأعتدة لتقوية هذه الجيوش ، التي يربو عددها على أربعين ألف مقاتل ، يضاف الى هذا كله ، ماقامت به هذه الجيوش من تحصين جبهاتها بالإسمنت المسلح والأسلاك الشائكة وحقول الألغام ، حتى اصبحت جبهات منيعة توحي الى الجندي والقائد فكرة الدفاع فقط. وان جيش الإنقاذ الذي يحمي جبهته الواسعة ألفان وخمسماية مقاتل – حسب قرار اتخذتموه – فقد بقي يتخبط بمشكلة « العتاد » الخطيرة التي أطلعتكم عليها سابقاً . والتي لم أترك مرجعاً رسمياً، إلا وأثقلت عليه بإلحاحي المتواصل بشانها ، منذ أكثر من أربعة أشهر، ولم أتوصل حتى يومنا لنتائج إيجابية، إذ لم يصل لي أي عتاد ، ولم يخصص أي مبلغ لتحصين بعض النقاط الهامة، فأتمكن من الاقتصاد بالقوات، وأكوّن احتياطياً، فإن هذا الجيش مايزال يقاتل دون احتياطي . إني أرى أن الجيش بحالته الحاضرة ، لن يستطيع الصمود أمام هجمات يهودية كبيرة، وإني ألاحظ من أعمال التحصينات اليهودية على بعض الجبهات ، ومن كثرة الاشتباكات على جبهتنا، بانه سيكون لليهود هدفان رئيسان، عندما نستأنف القتال ، أو عندما يبدأون هم انهاء الهدنة . وهذان الهدفان هما الجبهة الجنوبية ، بما فيها القدس ، وجيش الإنقاذ. أما القصد من مهاجمة جيش الانقاذ ، فهو الإستيلاء على منطقة الجليل للنفوذ الى الأراضي اللبنانية ، فيخرجوا لبنان من مجموعة الجامعة.

ان جيش الإنقاذ الذي وجه منذ البداية نحو القتال الهجومي فقط، أصبحت

خصائصه ، وهو جيش غير مدرب، لا تسمح له أن يخوض معركة يتقهقر بنتيجتها، فإن التقهقر والانسحاب لدى هذا الجيش ، الذي لم يعتد ذلك، ينقلب فجأة إلى كارثة فوضى وهزيمة، لايمكن الحد منها ، خلافاً لخصائص الجيوش النظامية المدربة ، (مما يؤدي الى ضياع أراض ومعدات كثيرة، كما جرى في الناصرة) . لذلك وبعد ان شرحت لكم مختصراً حالة جيش الإنقاذ، الذي تنتظره معارك كبيرة، وليس لديه عتاد وتحصينات ، أطلب من سعادتكم الاهتمام الشخصي لتأمين حاجيات هذا الجيش قبل فوات الأوان ، وقبل أن يعرض الى حوادث تقضي على جهاده ، وتؤدي بأمجاده ، التي اكتسبها في معارك فلسطين.

وأعود فأؤكد لسعادتكم انني لن أقود هذا الجيش ولن أكون مسؤولاً عنه مادام في مثل هذه الحالة. ولسعادتكم الخيار في إكمال النواقص ، أو اسناد قيادة هذا الجيش الى غيري ودمتم.

الإمضاء – القائد فوزي القاوقجي

* * *

رسالة أمين جامعة الدول العربية

كان لكتابي الى أمين جامعة الدول العربية تأثير كبير في المقامات السياسية والعسكرية في لبنان وسورية، وقد حاول رئيس الجمهورية السورية، ورئيس الحكومة السيد جميل مردم، من جديد اقناعي بالرجوع عن الاستقالة ، على أساس الوعود ، كما في الماضي تماماً ، وهم في الواقع كانوا يبحثون عمن يتحمل مسؤولية قيادة جيش الإنقاذ ليحل محلي . ولكنهم وجدوا صعوبات جمة في انتقاء من يتحمل هذه المسؤولية، وجيش الإنقاذ في هذا الوضع المادي الذي وصفت. وبينما كان يخيم شيء من الهدوء على جبهات بقية الجيوش العربية النظامية – عدا حوادث طفيفة موضعية تقع من وقت إلى وقت كاعتداءات يهودية على بعض الدوريات ، أو على بعض أهالي القرى الفلسطينية – كانت هذه الجيوش في مواقعها كأنما هي في حالة سلم . وبالجملة فقد كانت مجموعة هذه الجيوش في حالة من الرفاه ، لم تعرفها حتى في ثكناتها أيام السلم ، والأمة بأسرها وراء خطوط النار تلهو وتطرب وتنعم ، كأن ليس هناك أي أثر لحرب أو لخطر مهدد. وكانت

معرفة جنود جيش الإنقاذ بهذه الحال تحز في نفوسهم ، لأنهم كانوا يقارنونها بما يعانونه هم من أنواع المشاق والحرمان.

وفي ٢٨ أيلول ١٩٤٨ تلقيت من السيد عبد الرحمن عزام كتاباً بواسطة رئيس الحكومة اللبنانية السيد رياض الصلح ، يدعوني فيه إلى القاهرة للبحث في حالة جيش الإنقاذ، مبيناً أسفه الشديد في كتابه لاصراري على الاستقالة ، راجياً مني الرجوع عنها . فقبلت الدعوة . وفي اليوم الأول من شهر تشرين الأول طلبني رئيس الجمهورية السورية فاجتمعت به بحضور رئيس الحكومة السيد جميل مردم، وقال لي فخامته : « دبَّرنالك أسلحة وعتاداً ، ستة مدافع هاون عيار ٨١ ، مع ألف ومائتي طلقة . أفلا تزال مصراً عالى الاستقالة ؟» فشكرت له اهتمامه ، وقلت له : « ان حاجتنا يا فخامة الرئيس الى السلاح والعتاد ، أكبر من هذا بكثير . وقد طلب مني السيد عزام المجيء الى مصر لهذا الغرض ، وانني مسافر إليها غداً ، لأرى ما عنده ». وفي ٢ تشرين أول ذهبت لمقابلة أمين الجامعة ، السيد عزام ، فبسطت له حالة جيش الإنقاذ واضطراره لخوض معارك مستمرة ، الأمر الذي لايمكن تحمل المسؤولية فيه ، بينما يزداد اليهود قوة بالتسلح الحديث ، وبالعدد . وشرحت له مبلغ الخطر المحدق بجيش الإنقاذ والجليل ، بالنسبة لوضعه هذا، والإهمال الذي أشعر به عند المراجع المسؤولة ، لمطالب هذا الجيش . وأخبرته خبر سيارات النقل والمصفحات ، التي غنمناها من اليهود ، وكيف إنها مبعثرة في كاراجات بيروت وفي غير مكان ، لما أصابها من عطل لم يتفق حتى الآن على إصلاحه . وإن هذه المسألة وحدها ، إذا استمرت ستتسبب لنا بحالة هجوم يهودي كبير ، كارثة كبيرة. فأجابني بشكوى مرّة من حالة الجامعة نفسها، من التبعثر ، ومن تفرق الكلمة والتهرب من المسؤوليات ، وتحميل كل فريق الفريق الآخر المسؤولية . وقال ان دول الجامعة تتخلف عن دفع ما تعهدت به من أقساط مالية أصابتها، مستثنياً الحكومة المصرية . وان الجامعة في حالة فقر مالي وسياسي وعسكري . ان الشعوب العربية ، وخاصة في مصر ، تهاجم الجامعة وتهاجمه هو بنوع خاص. وان اختلافاً شديداً وقع بينه وبين رئيس الوزارة العراقية السيد مزاحم الباجه جي ، وان الباجه جي قال له : « أنت يا عزام دبيتنا بها الوحلة انت لازم تنشلنا منها » ، وإنه يبحث عن طريقة للخروج من هذا المأزق فلا يفلح . قال : « وكأن هذا كله لم يكف حتى جاءت

مشكلة تأليف حكومة عموم فلسطين ، وفرار المفتي من القاهرة الى غزة ، ليفرض نفسه على هذه الحكومة، فيعلن الملك عبدالله انسحابه من القتال ، ومن الجامعة ليقاتل هذه الحكومة ». وغير ذلك من أمور بسط السيد عزام لسانه فيها بفصاحة، مما أثر في نفسي تأثيراً كبيراً . . .

وأضاف : « وإننا نبحث الآن عن مخرج من هذا المأزق يرضي الشعوب العربية في ظاهره فلا نجده ». فجعلني أتصور جيش الإنقاذ المفتقر الى كل شيء ، كأنما هو في ألف خير بالنسبة الى الحالة التي وصفها السيد عزام . فاستجمعت قواي وتجرأت وقلت له : « دبِّر لنا شيئاً من حاجيات الجيش فالحالة عندنا لا تطاق ». قال إنه سيتصل بمحمد علي نمازي بك المسؤول عن قضية المبيعات من سلاح وتجهيزات وما إلى ذلك ، بهذا الشأن ، وطلب مني أن أراجعه.

وصلت الى مكتب نمازي بك ، وكلمته في موضوع السلاح والعتاد ، فوعدني انه سيدبِّر ما أمكن، إذ أن كميات من السلاح منتظرة قريباً . وفي ٤ تشرين الأول تلقيت من الديوان الملكي كتاباً يدعوني فيه لمقابلة الملك فاروق عند الساعة ١١ من صباح ٥ تشرين الأول . وأخذ الملك يثني عليَّ وعلى جيش الإنقاذ قائلاً انه يتتبع حركاتنا . ثم سألني عن حالة الجيش فحمدت له حالته المعنوية ، وبسطت لجلالته حالته المادية السيئة . فقال : « أنا سأساعده . اتصل بوزير الدفاع حيدر باشا . ولكن . . . أنا أحب أن تكون مرتبطاً بي ». قلت : « ثق يا صاحب الجلالة ان هذه المساعدة التي تأمر بها جَلالتك ستصرف في معاونة الجيش المصري حتى ولو تقاعست بقية الجيوش العربية عن هذه المعاونة . وإن المسافة التي تفصل بين قوات الجيش المصري وبين جيش الإنقاذ ، رغم إنها مسافة طويلة، لن تحول دون هذه المعاونة . وذلك بأن أجلب أكبر عدد من القوات اليهودية الى مواجهة جيش الإنقاذ ، وأجمدها ، فأخفف الضغط عن القوات المصرية بشكل يمكنها من ضرب العدو ضربة قوية » . ثم خاطبني بكثير من الجد قائلاً : « شفت المفتي عمل ازاي» . وكنت في الواقع مصمماً على الابتعاد ابتعاداً تاماً عن كل ما يتعلق بسماحة المفتي من حديث أو غيره. وتابع الملك كلامه قائلاً : « رغم ممانعة حكومتي في سفره الى غزة، فقد سافر إليها خلسة ، وخلق لنا هناك مشاكل كثيرة ، وأنا قد آويته

وأكرمته وتحملت لأجله كثيراً من الانتقاد . ولكن معليش هو عمل كده، اني أمرت جنودي أن يحضروه الى مصر » . ثم انصرفت قاصداً الى مكتب وزير الدفاع حيدر باشا. وبدأ حديثه معي عن الوضع في فلسطين ، ثم عن جيش الإنقاذ فقال : « ان جلالة الملك أمر بأن نقدم لكم شيئاً من العتاد كهدية ، وإني مقدم الآن خمسين صندوقاً من العتاد الانكليزي ، وألفين قنبلة يدوية، وآسف ان الوضع لا يساعد الآن على تقديم كمية أكبر ». واتفقت مع حيدر باشا على ان يجمع العتاد في المطار، وننقله نحن بوسائلنا الخاصة. وأوكلت الى مرافقي السيد حميد الصافي ان ينقل هذا العتاد في طائرة سورية الى دمشق ، ونقله فعلاً في طائرة « يونكرز » على دفعات . ثم تكلم وزير الحربية في قضية فلسطين ، وانتقد الجامعة والحكومات العربية انتقاداً مراً . وقال ما ملخصه : ان تدخل السياسيين هو الذي أوصلنا الى هذا الوضع . وانهم سيكونون سبب الكارثة . وأتى على ذكر المفتي وانتقد تصرفاته انتقاداً شديداً ، قائلاً انه سبب غضب الملك عليه، وانه زرع فوضى قوية في فلسطين ، وأعطى بتصرفاته حجة للملك عبد الله ، إذا هو انسحب من ميدان القتال ، ليقاتل حكومة عموم فلسطين . وذكرته بما كان السيد مصطفى السعداني قد قدمه له من تقارير استناداً الى معلوماته بشأن وضع الجيش المصري، وجناحه الأيمن . وقلت له : « ألا ترى ان من الأفضل من قبيل الحيطة والحذر أن يكون احتياطيكم أقرب مما هو الآن الى جناحكم الأيمن ، حتى إذا حدث أي هجوم على الوسط أو على الجناح الأيسر فلا تكون المسافة بعيدة بين القوة الاحتياطية وهذه المواقع ، للنجدة » . قال : « نعم ، معك حق . وسننتبه الى جناحنا الأيمن » . وعدت فحذرت حيدر باشا من جناحهم الأيمن ، على أساس تهديد الملك عبد الله بالانسحاب من القدس إذا « اعترفوا » بحكومة عموم فلسطين ، وان اليهود اذا شعروا بعزم الملك عبد الله ، حتى ولو لم ينسحب ، فقد يفاجئون الجيش المصري مفاجأة يجب عليه ان ينتظرها منذ الان. ثم ودعت وزير الحربية وانصرفت. ولما عدت وقابلت عبد الرحمن عزام ، الذي هنأني بعطف الملك ومساعدته لي بهذه الكمية من العتاد قائلاً ، ان هذه المساعدة خففت شيئاً من الثقل الذي كان يضغط على كاهله . فقلت له : « ان سلاحنا كما تعلم ، غير موحد ، وان العتاد الذي أمر

به جلالة الملك عتاد انكليزي ، وان عندنا كميات من البنادق الألمانية والفرنسية ، وكلها بدون عتاد تقريباً الآن ، وهناك المدفعية ومدافع الهاون ، بدون قنابل ، وهناك سيارات نقل ومصفحات معطلة منذ زمن . وهناك نقص كبير من التجهيزات جعل الجنود في شكل مزري جداً ، وهم يتحملون كما تعلم ، مشاق القتال وشظف العيش » . وانتقل فجأة الى الحديث عن استقالتي قائلاً ، ان هذا لا يجوز ، وإنه يجب ان استمر في القيادة مهما يكن من أمر ، لأن جيش الإنقاذ هو وحده الذي «بيض وجوهنا » . فأكدت له : « إنني لست عازماً على العودة الى قيادة الجيش ، ما لم يؤمنوا له حاجاته . فإما هذا أو أن يختاروا لقيادته قائداً غيري . وقد سبق كما علمت يا باشا ، وسلمت قيادته الى المقدم شقير ، وسأبقى مشرفاً عليه الى أن تؤمنوا له ما يحتاج إليه للقتال . . أو تعينوا رسمياً من يتسلم القيادة ، أو تثبتوا فيها المقدم شقير نفسه ، وهو ضابط قدير وشجاع ، يمكن الاعتماد عليه » . وحاول السيد عزام اقناعي بالرجوع عن عزمي غير انني لم أقتنع . وفي اليوم التالي ، تلقيت دعوة من ابراهيم دسوقي باشا ، وزير الخارجية بالوكالة ، لمقابلته في منزله ، وكان طبيعياً ان يدور الحديث على قضية فلسطين ، فإذا تفكيره لا يختلف كثيراً عن تفكير وزير الحربية حيدر باشا ، بشأن السياسة والسياسيين . وعلى رأيه ان الكل مجمع على ان التقسيم واقع . . وان الجامعة اساءت التصرف وهي التي فشلت وسببت الفشل . ثم اتصلت بنمازي بك مرات أثناء وجودي في مصر ، فلم أحصل منه إلا على كمية من العتاد الإنكليزي ، وأراني نماذج لقنابل مدافع الهاون قال إنه يستطيع ان يساعدني بشيء منها .

وغادرت مصر في ١٠ تشرين الأول عائداً الى دمشق ، وفي اليوم الثاني لوصولي إليها ، أي في ١١ طلبني رئيس الجمهورية ، فسردت له كل ما حدث معي في مصر ، مع إصراري على الإستقالة حتى يصل الى الجيش ما يحتاجه . وأخبرته عن ذهابي الى الجبهة ، لمناسبة عيد الأضحى للقاء الضباط والجنود وتوزيع بعض الهدايا ، مما قدمه المحسن العراقي ياسين البلاسم الى الجيوش العربية غير ناس جيش الإنقاذ .

* * *

عار الأبد أو مجد الأبد

وصلت الى مقر القيادة ، فاطلعت على الموقف ، وعلى ماجرى من حوادث خلال تغيبي عن الجبهة . كانت الحالة هادئة ، ووضع الجيش من حيث العتاد والتجهيزات كما تركته .

أما ملخص الحوادث خلال تغيبي عن الجبهة فقد وصف شيئاً منه المقدم شقير في برقية كان قد أرسلها اليَّ قبل مغادرتي دمشق هذا نصها :

١١ – ١٠ – ١٩٤٨ رقم ٦١٢ من شقير إلى فوزي .

هاجم اليهود صباح ٢ تشرين الأول الساعة الثانية قرية كفرمندة بثلاثين مصفحة . وارتدوا الساعة السابعة والنصف أمام قواتنا في القرية . ثم أجبروا على الانسحاب في الساعة ١١ . قسم من قتلانا وجد مدعوساً بعجلات المصفحات ذات السلاسل . وقام اليهود بمهاجمة عيلبون الساعة الثامنة صباحاً وقصفوا مواقع جنودنا بمدافع الهاون بشدة فصدتهم قواتنا وانسحبوا باتجاه قرية صفورية . . .

واطلعت على الباقي في المقر فإذا هو : هاجم اليهود عيلبون الساعة ١٢و١٥ دقيقة، صد هجومهم نهائياً الساعة ٢ ، وقد أذاع راديو اليهود ان خسائرهم في كفرمندة خمسة عشر قتيلاً وواحد وأربعين جريحاً وفي عيلبون ثمانية عشر قتيلاً . شوهد اليهود نهار ٧–١٠–١٩٤٨ يقيمون تحصينات داخل منطقة الحرام في قطاع ترشيحا . شوهد اليهود صباح ٩–١٠ يحتلون مرتفعاً آخر في منطقة الحرام . يسيطرون على قسم كبير من مراكز دفاعنا . وتبادل جنودنا وإياهم النار مما اضطرنا الى القيام بهجوم أسفر عن احتلالنا المرتفع المذكور وغنمنا أربعة رشاشات ثقيلة وعدداً من البنادق ورشيشات وجهاز لاسلكي .

وفي ليلة ١٠–١١ أعاد اليهود هجومهم على المرتفع الذي طُردوا منه، وبعد معركة عنيفة استعملوا فيها مدافع الميدان والهاون بكثرة تمكنوا من احتلال المرتفع المذكور . لاتزال المعركة مستمرة بعنف شديد . قمنا بهجوم معاكس لاسترداد المرتفع الساعة السابعة من صباح ١١–١٠ . عدم وجوده بين أيدينا، يعرّض جنودنا لخسائر ، ويضطرنا الى صرف عتاد وقنابل مدفعية كان يمكن توفيرها . هل يقدر أولو

الأمر موقفنا فيبعثون الينا بمدافع الهاون التي وعدونا بها ؟ تمكنا من طرد اليهود من تل « بلوتون » ، طاردتهم قواتنا حتى تل « الزويديتا » ، بينما قمنا بهجوم آخر على تل « شعبة » حيث أقام اليهود تحصينات حجرية . وتقدم جنودنا الى هذه التحصينات فلم يستطيعوا تدميرها لعدم وجود متفجرات لدينا. أما في تل « الزويديتا » فقد استماتت اليهود في القتال لزحزحة جنودنا فلم يتمكنوا. دمرت لهم مدفعيتنا مصفحتين وسحقت أوكاراً عديدة للرشاشات ، وأسكتت مدفعيتهم المتمركزة شرقي كابري ، فبطل رميها تماماً عند الساعة العاشرة صباحاً . وانتهت المعركة بانتصار قواتنا بعد تكبيد العدو عدداً من القتلى لا يقل عن مائة وخمسين قتيلاً .

بينما كانت هذه الحركات تحدث على جبهتنا ، كانت حركات أخرى خطيرة تحدث على جبهة الجيش المصري، اذ قام اليهود بهجوم عنيف في منطقة أسدود، فلم يوفق هذا الهجوم في مرحلته الأولى الى التقدم ، رغم عنفه وسرعته ، لكنه كان عاملاً في تجميد قوات مصرية كبيرة على الخطوط الأمامية . ولم يحاول اليهود في هذه المرحلة، اختراق الجناح المصري الأيمن ، كما كان منتظراً . ثم بدا شيء من الهدوء في هذه الجبهة ، لعل السبب فيه كان انهماك اليهود في القتال على جبهتين في آن واحد : الجبهة المصرية ، وجبهة جيش الإنقاذ. أو لعلهم أرادوا أن يوهموا المصريين ان اتجاههم هو نحو الجناح الأيسر فقط للجيش المصري. وقد فهم اليهود خلال هذه الحركات أن جيشاً واحداً من الجيوش العربية القريبة من الجبهتين ، الجبهة المصرية وجبهة جيش الإنقاذ، لم يبد أية حركة للنجدة. وقد خلق هذا عاملاً في نفوس اليهود، للإقدام على خطة جريئة ومخيفة جداً ، ولعل هذا هو الذي حملهم على تجربة للتخلص من الجيشين كل على حدة. وما لبثت فترة الهدوء على الجبهة المصرية، حتى انتهت بهجوم يهودي قوي جداً باتجاه الجناح الأيمن للجيش المصري، فتمكنوا من اختراق هذا الجناح وتدفقوا مابين الفالوجة ، وبيت جبرين نحو الجنوب ، حتى مؤخرة الجيش المصري، وقطعوا بحركتهم هذه طريق غزة – بئر السبع ، ثم احتلوا بئر السبع . وارتد الجيش المصري في اسدود الى المجدل « مجدل غزة » حيث وقعت معارك شديدة وقع مثلها في منطقة الفالوجة. فتخلى الجيش المصري عن المجدل وتعذر عليه الإنسحاب من الفالوجة، فحوصر فيها. وأخذت

المعارك تقع في الجنوب على خط يوازي طريق غزة – خان يونس – العريش . على أثر هذا الوضع استدارت الجبهة فأصبحت من الشرق الى الغرب ، بعد ان كانت من الشمال الى الجنوب . كان هذا كله يجري والجيوش العربية لا تحرك ساكناً ، لعل هذا الموقف – ويصعب ادراك الأسباب الحقيقية فيه – هو أبشع موقف وقفه العرب وحمل اليهود على التمادي في الجرأة الى حد لم يعودوا يراعون هدنة أو يحسبون لأي أمر حساباً .

وعلى أثر هذه النكبة ، أخذت المؤتمرات السياسية والعسكرية ، كالعادة، تُعقد في القاهرة وعمان ودمشق ، يسودها نشاط وحماسة ، بشكل يفوق نشاط اليهود وحماستهم في القتال . والغريب ان هذه المؤتمرات كان الغرض منها في الظاهر ، نجدة الجيش المصري ، وقد كانت فرصة نادرة الوقوع للجيوش العربية، للقضاء على اليهود وهم يتدفقون على الجيش المصري ، في الأراضي المصرية، قلما يسنح مثلها في الحروب . فاندفاع اليهود ضد الجيش المصري كشف للعرب صفحة يسجلون فيها ما يشاؤون : عار الأبد بتضييع فلسطين ، أو مجد الأبد بإنقاذ فلسطين ، فاختار العرب الأولى ...

* * *

المسألة مسألة رفع عتب ....

في ٢٠ تشرين الأول من سنة ألف وتسعمائة وثماني وأربعين ، دعيت الى اجتماع عسكري يعقد في شتورة « لبنان » للمداولة في طريقة لنجدة الجيش المصري . وكان يترأس هذا الاجتماع رئيس الوزارة جميل مردم، وحضره وزير الدفاع اللبناني ، والجنرال شهاب قائد الجيش اللبناني ، والزعيم حسني الزعيم ، والمقدم ناصر رئيس ركن الجيش السوري والعقيد محمود الهندي من اللجنة العسكرية . افتتح السيد جميل مردم الاجتماع بقوله : « ان حالة إخواننا المصريين سيئة جداً ، الجيش في حالة تقهقر، والمعارك بينه وبين اليهود تدور في الأراضي المصرية ، فلا بد لنا من نصرتهم ». والتفت اليَّ كأنما يطلب رأيي ، فقلت له : « يمكن ان نقدم للجيش المصري مساعدة مباشرة ومساعدة غير مباشرة . فالأولى لايمكن ان يقوم بها إلا الجيشان الأردني والعراقي المرابطان في منطقة تتصل بمنطقة

الجيش المصري . والمساعدة غير المباشرة ، يستطيع القيام بها الجيشان السوري واللبناني، وجيش الإنقاذ، وذلك بحركة واسعة في منطقة الجليل ، مما يضطر اليهود لسحب قوات كبيرة لتوقيف هذه الحركة فنخفف بذلك ضغطاً شديداً عن الجيش المصري . وهذه الحركة يجب ان تقوم بأسرع مايمكن ، وقبل ان تتم عملية القوات اليهودية على الجبهة المصرية ، وتصبح قادرة على التفرغ لمجابهة حركاتنا . ونستطيع ان نتفق على وقت هذه المساعدة وتفصيلاتها كافة الآن . أما المساعدة التي يمكن ان يقوم بها الجيشان العراقي والاردني ، فيجب أن يتم التفاهم على وقتها وتفصيلاتها مع قيادة الجيش المصري . وماعليهم إلا ان يعلمونا بالوقت الذي يختارونه ، لنكون على استعداد لمشاركتهم وتنسيق هذه الحركات كلها تنسيقاً نافعاً » . ولم تختلف آراء بقية القادة والضباط الحاضرين عن رأيي هذا، مع إضافة بعض الملاحظات .

واقترح جميل مردم ان يذهب حسني الزعيم والجنرال شهاب الى مصر، ليطلعا المسؤولين على مقرراتنا ، ويأخذوا رأيهم في الأمر . وكان اقتراح جميل مردم هذا، مخرجاً بارعاً لاثبات رغبته في نجدة الجيش المصري والتخلص من تنفيذها . . . فوافق الزعيم حسني الزعيم على هذا الاقتراح، واعترض الجنرال شهاب قائلاً : « ماذا عسانا نعمل في مصر ؟ فإذا كلفتنا المراجع المسؤولة على شيء لايستطيع الجيش اللبناني القيام به فماذا يكون موقفنا ؟ أقول هذا بالنسبة الى الجيش اللبناني » . فالتفت اليه السيد جميل مردم وقال ناهضاً : « يا جماعة ماهي مسألة رفع عتب » . . .

وكانت المؤتمرات كلها من قبل ومن بعد — كما بدا لي — رفع عتب . . .

وعدت الى الجبهة والهدوء يومئذ يشملها كلها . . . هدوء غريب يحمل على الشعور اننا في حالة مهادنة أو سلم ، ولم تعتد جبهتنا هذا النوع من الهدوء . وكان اليهود قد بدأوا ينشؤون معسكراً على كيلومترين تقريباً ، الى شمال غربي قَدَس، وعلى طريق المنارة — النبي يوشع . فاعترضت لدى مراقبي الهدنة على انشاء هذا المعسكر ، فأكدوا لي أنهم على علم بإنشائه، وانه ينشأ لايواء النساء اليهوديات اللواتي لا مأوى لهن . على ان حركة غريبة في النقليات باتجاه هذا المعسكر ليلاً نهاراً ، وفي حفريات حواليه ، أقلقت بالي ، وجعلتني أنذر المراقبين بأنني سأزيل هذا المعسكر بقوة السلاح ، اذا هم لم يتدخلوا في الأمر ، ويمنعوا اليهود من

الاستمرار في أعمالهم التي شعرنا بها . ولكن المراقبين أكدوا لي أن ليس هناك أي خطر من هذا المعسكر ، فلم أطمئن الى هذه التأكيدات ، واتخذت التدابير لإزالة المعسكر. وعند الساعة الثانية من بعد ظهر ٢١ تشرين الأول، أخذت طائرات يهودية تقوم بحركة استطلاع فوق مواقعنا في منطقة المنارة وقدس، وفوق مقر القيادة، ثم اتجهت من وراء الجبهة نحو مدينة صور. وشوهد عدد كبير من المصفحات ، يتجمع في المعسكر اليهودي الذي ذكرته، قرب قدس . وفي الساعة الثانية من صباح ٢٢-١٠ قام اليهود من المنارة، بهجوم كبير، تدعمه مدفعية ميدان، مع مدفعية هاون عيار ٨١ على مواقعنا في قرية الحولة ضمن الأراضي اللبنانية . وبدأت معركة عنيفة تمكنت قواتنا في نهايتها من صد هذا الهجوم ، وطردت اليهود حتى مرتفع الشيخ عبّاد ، الذي يبعد حوالي خمسمائة متراً عن مستعمرة المنارة. ووصلت في تلك اللحظة نجدات يهودية كبيرة من مستعمرات الحولة، فتجددت المعركة على هذا المرتفع الذي يعتبر باب مستعمرة المنارة . وقد أرسلت من قواتنا فصيلاً من المدفعية الى المرتفع المذكور، فتغلبنا على قوات العدو واستولينا عليه بكامله، وهكذا أصبح جنودنا على أبواب مستعمرة المنارة. فقام اليهود ساعتئذ من معسكرهم الذي « لاخطر منه » بهجوم آخر على مواقع جنودنا، جنوب شرقي المنارة، وكانت المدفعية والمصفحات اليهودية ، أكثر منها في الهجوم الأول . وحصل اشتباك عنيف جداً بين قواتنا وبين القوات اليهودية التي تمكنت من التقدم قليلاً ، فأرسلت فصيلاً آخر من المدفعية اشترك في القتال وصد الهجوم اليهودي. وأخذت قواتنا تتقدم نحو المعسكر ، فتمكنت مفرزة منها من قطع الطريق على رتل من المصفحات اليهودية، كان قد ابتعد عن المعسكر بتقدمه ، ففصلته عنه، مع من كان يرافقه من المشاة . ونسفت هذه المفرزة الجسر الوحيد الواقع على طريق عودة الرتل اليهودي، فانقطع بذلك عليه خط الرجعة . وطاردت هذه المفرزة ، اليهود حتى اضطروا الى التخلي عن مرتفع تلو الآخر، متجهين نحو الغرب، فقذفت عندئذ بسرية المقر الى المعركة، فتمكنت قواتنا من طرد القوات اليهودية عن جميع المرتفعات القريبة من مركز المصفحات، وهكذا بعد أن عزلت هذه عزلاً تاماً ، ركز جنودنا هجومهم عليها ، بمدافع الهاون ، فدمرنا أربعة منها . وخرج الجنود اليهود من هذه المصفحات مستمرين في الدفاع عن نفوسهم ، فقتلوا

جميعاً ، ولم يسلم غير واحد كان وجد لنفسه مخبأ وراء الصخور ، فأتي به جنودنا أسيراً . وغنمنا ثماني مصفحات في حالة صالحة، وبقي القتال مستمراً الى مابعد الغروب فمهد جنودنا طريقاً ساقوا عليه هذه المصفحات الى مقر القيادة . وقد أحصينا من قتلى العدو ٢٢٥ جثة وغنمنا ثلاث سيارات جيب مصفحة ، ومدفعاً مضاداً ومدفعين هاون عيار ٨١ ، و١٥ رشاشاً وأربعة أجهزة لاسلكي ، وعدداً من البنادق مع عتادها . وخسرنا ٣٦ شهيداً و٧١ جريحاً.

وجاءت ليلة ٢٢–٢٣ فاعتبرناها ليلة هدوء تام ، لم يعكر صفوه سوى قرقعة سيارات النقل اليهودية التي تنقل نجدات يهودية من صفد، ومن مستعمرة نجمة الصبح في الحولة ، وبقية المستعمرات اليهودية في تلك المنطقة، حتى خيل إلينا، ان اليهود ينقلون أكبر عدد من قواتهم من أمام الجبهة السورية الى جبهتنا . وفي الليلة نفسها كانت نقليات مشابهة تأتي من مستعمرة نهاريا الى مستعمرة عيلبون، الواقعة مقابل منتهي خط جبهتنا الشمالية الغربية . فخطر لي أنه يجب أن أنتظر في صباح ٢٣ هجوماً مزدوجاً على جبهتنا من الغرب والشرق . وقد كنا أصبحنا في حالة لا تمكنا من الاستمرار في قتال طويل الأمد ، بالنظر لاستنفادنا أكثر عتادنا من جهة ، وإعياء الجنود الذين لا احتياطي لهم من جهة أخرى . على إننا رغم هذا كله لم يكن لنا مناص من مواجهة الموقف ، بما بين أيدينا من وسائل، مهما يكن من أمر. ولعرقلة نقليات اليهود هذه ، والحد من نشاطها ، ماأمكن، أرسلت في هذه الليلة دوريات قوية هبطت سهول الحولة ، وأخذت تطلق نيرانها على القافلة في عدة نقاط من الطريق الرئيسة . فتعطلت بذلك حركة القافلة، وسادت الفوضى صفوفها ، كما أحدثت شيئاً من الذعر في نفوس اليهود ، الذين لم يكونوا يحسبون لهذه المفاجأة . وفي صباح ٢٣ بدأ اليهود بهجوم من عيلبون على تربيخا في الغرب، وحددوا هجومهم في منطقة المنارة، ومنطقة النبي يوشع. وصمدت قواتنا في مواقعها حتى الظهر ، فبدأت حدة الهجوم تنزل تدريجياً ، فقمنا بدورنا بهجمات معاكسة من نقاط متعددة أدت الى تراجع القوات اليهودية وانسحابها ، وهي تدافع دفاع الانسحاب . وصد الهجوم على تربيخا ، فتراجع العدو حتى مستعمرة عيلبون ، والسفوح المتصلة بسهل الحولة من الشرق. ولم يتوقف القتال إلا بعد الغروب حينما أسرع المراقبون الى الميدان وأوقفوا إطلاق النار. وقد أرسل مقر

القيادة الى قائد الجيش السوري البرقية التالية :

٢٣–١٠–١٩٤٨ رقم ٦٩٨

انتهت المعركة هذا المساء بوقف إطلاق النار حسب طلب المراقبين . دحر العدو بخسائر فادحة جداً في معركة عراء جنوبي وشمالي المنارة. وغربي تربيخا . دمرنا سبع عشرة مصفحة . الغنائم كثيرة.

وفي نهار ٢٤ شمل الجبهة هدوء استمر حتى الساعة الثالثة بعد الظهر ، إذ حاول اليهود للمرة الأخيرة شن هجوم جديد ، فاشتعلت الجبهة بنيران حامية جداً من المدفعية على أنها لم تلبث أن انطفأت . وقد طلبت من قيادة الجيش السوري، أن نقوم بحركة ما، على جبهاتها الخالية من اليهود ، لعل ذلك يخفف من ضغطهم على قواتنا التي كاد ينفذ عتادها، فلم أتلق أي جواب. وفي صباح ٢٥ سمعنا بعض طلقات بنادق ورشاشات من ناحية الجبهة السورية ، وكانت جبهتنا في ذلك اليوم هادئة ، وقد علمت فيما بعد أن المسألة كانت مسألة تصادم بين دوريتين سورية ويهودية، تبادلا إطلاق النار حيناً وانتهى الأمر. وعادت هيئة المراقبين إلينا تطلب منا إخلاء المراكز التي استولينا عليها في معارك المنارة، لكني لم ألب هذا الطلب غير المعقول، فانصرف المراقبون غاضبين، وهم يقولون ان في هذا الرفض إهانة للهيئة التي يمثلونها. وانتهت معارك المنارة بتحطيم لواء يهودي كان اليهود قد حشدوه من قواتهم في الحولة وصفد وطبريا ونهاريا. وفي خلال هذه المعارك التي كانت تدور في جبهتنا ، كانت تدور معارك أخرى على جبهة الجيش المصري، الذي كان في خطر شديد، فخففت جبهتنا الضغط عن الجبهة المصرية بإرغامها القيادة اليهودية على سحب قوات كان في وسعها ان تستخدمها ضد الجيش المصري، لاسيما وقد كانت هذه القيادة مطمئنة الى ان الجيوش العربية لاتحرك ساكناً. وهنا أيضاً ، أضاع الجيش السوري فرصة ثمينة لأنه لم يشترك معنا في القتال ، ولو فعل ، لاستطعنا فصل منطقة الحولة اليهودية، عن منطقة طبريا .

* * *

« محاولتهم » تضييع جيش الإنقاذ

كانت الإذاعات اليهودية وغيرها من المصادر اليهودية ، تنم أخبارها عن غيظ وحقد شديدين على جيش الإنقاذ، لأن هذا الجيش كما كانت تصفه لم يكن يعبأ بتقاليد الهدنة . وكنا لذلك نتوقع ان يقوم اليهود بهجوم ما، للانتقام منا على الأقل، وكنت أتوقع هذا الهجوم خلال المعارك مع الجيش المصري، أو بعدها، لترتد القوات اليهودية كلها علينا . على إنني كنت أرجح الشق الأول فقد كان معقولاً جداً، أن يوقف اليهود حركاتهم على الجبهة المصرية، وقفاً مؤقتاً، لينـدفعوا ضدنا ويتخلصوا منا . اذ أن جيش الإنقاذ وحده هو الذي تحرك في خلال معاركهم مع الجيش المصري، وكنت متأكداً أن هجومهم المتوقع سيكون هجوماً أقوى من كل ماسبقه من حيث العدد والمعدات . وكنت أوازن بين أمرين : هل أصمد بالجيش مهما كلف الأمر ؟ فأعرضه للإحاطة والتحطيم أو الأسر ؟ أم أقرر خطتي على أساس تقديم سلامة الجيش وخسارة الأراضي ، عندما ينتهي الأمر باستحالة الصمود؟ وكان طبيعياً جداً أن أقدم فكرة سلامة الجيش ، حينما يكون الموقف يهدد بضياع الجيش والأراضي معاً . وكنت قد دعيت الى دمشق مرة أخرى، لحضور اجتماع عسكري للبحث في الحالة الراهنة ، في ٢٤ تشرين أول . افتتح الاجتماع رئيس الوزارة باستفهامه عن المعارك الأخيرة، معارك المنارة، وأسبابها ونتائجها . فبسطت له بالتفصيل كل ما يتعلق بهذه المعارك، وأكدت له ان هجوماً يهودياً كبيراً على جبهتنا أصبح متوقعاً في القريب، وانه من الصعب جداً ان يستطيع جيش الإنقاذ في حالته الحاضرة، صد مثل هذا الهجوم . وان هناك فرصة يجب أن لانتركها تفلت من أيدينا، نستطيع أن نستغلها ، واتفقنا منذ الآن ، على خطة مشتركة، نقوم بتنفيذها مع الجيشين السوري والعراقي . فقال السيد جميل مردم وزير الدفاع : « فكرة حسنة ، لاسيما وإخواننا المصريون يعانون شدائد قاسية اليوم » . فقال اللواء نور الدين محمود : « ان الجيش العراقي لا يستطيع في حالته الحاضرة، القيام بحركات تنقلب الى معارك كبيرة » . ودارت مناقشات في الموضوع لاقناعه بقبول الفكرة ، فقد يعود اليهود الى مهاجمة الجيش العراقي منفرداً ، ولكن اللواء نور الدين لم يقتنع . وسأل السيد جميل مردم ، الزعيم حسني الزعيم ، رأيه في الأمر، قال : « لدينا فوجان – أحدهما وهو الفوج التاسع في الخيام – نستطيع

ان نضعهما تحت أمرة فوزي ، على أن يتحمل مسؤولية العمل ، ولا يطلب منا أية نجدة غيرهما » . ومع مافي هذه الفكرة من النقص، فرحت بها، على إنني فهمت في مابعد ان هذين الفوجين من المتطوعين الجدد، وإنهم لم يتموا تدريبهم العسكري ، وكانوا قد تمردوا غير مرة، وفيهم كثير من الليبيين الذين أرسلهم السيد عبد الرحمن عزام . وفي ٢٥ تشرين الأول عدت الى الجبهة وأنا مطمئن الى إنني حصلت على قوة محسوسة بين يدي، فوجدت ان الجيش اللبناني ، أمر الفوج المرابط في المالكية بالانسحاب ، على أن يحل محله فوج المتطوعين ، الذين جمعوا من هنا وهناك ، ويتدربون في صور، ولم يتم تسليحهم بعد، وان عدد هذا الفوج هو أقل من نصف عدد الفوج النظامي الذي كان في المالكية . وعبثاً حاولت إقناع القيادة اللبنانية بضرورة إبقاء فوج المالكية فيها . وكان أبرق اليَّ المقدم شقير بهذا الشأن ، بواسطة العقيد الهندي في دمشق برقية هذا نصها :

٢٥–١٠–١٩٤٨ الساعة ٧و٣٠ دقيقة صباحاً رقم ٧١٦

خابروا الزعيم شهاب أن يرسل لنا فوج صور دون ان ينسحب فوج المالكية فيصبح بإمكاننا القيام بهجمات على طول جبهتنا . ونؤدي أكبر خدمة للجيش السوري . حصار المنارة وتموينها بالطائرات فقط من قبل اليهود يرغم هؤلاء على مهاجمتنا بأكبر قوة لديهم . لهذا يجب تطبيق خطة هجوم مع الجيش السوري تنفذ بأسرع ما يمكن .

الإمضاء – شقير

وقد غادرت دمشق قبل أن أتلقى هذه البرقية ، فوجدت صورتها في مقر القيادة ، وقد نفذ قرار القيادة اللبنانية ، وانسحب فوج المالكية ليحل محله فوج صور . ورحت أتحقق من كمية العتاد لدينا بصورة دقيقة ، بواسطة آمري الوحدات، فتبين لي إنها كمية ضئيلة جداً . وكان مدير الإدارة في اللجنة العسكرية العقيد محمود الهندي قد جاء الى جبهتنا ليتفقد الحالة ، وسألت المقدم عامر آمر لواء اليرموك ، بحضور العقيد الهندي ، عن كمية العتاد لديه ، فأجابني ان مالديه من عتاد لا يتجاوز سبع عشرة طلقة للبندقية الفرنسية . وأتى مدير الإدارة يومئذ في جيش الإنقاذ الملازم مشهور حمود شاكياً قلة الأرزاق ، فالتفت الى العقيد الهندي

قائلاً : « أبذل جهدك في دمشق لارسال شيء من العتاد والأرزاق، فإن المعارك على جبهتنا – كما لحظت – تكاد لا تنقطع . أليس من الجريمة أن يكبل هذا الجيش ويحطم ، لغير ما سبب ، الا هذا النقص في سلاحه وذخيرته . ثم هذه السيارات المبعثرة في الكاراجات تنتظر التصليح متى تحل مشكلتها ؟» فاجابني : « سأبذل كل جهدي لارسل إليكم ما يمكن من الأرزاق ، أما العتاد فليس لدينا عتاد . وقد نحصل على شيء منه من الجامعة . وأما السيارات فلا أستطيع حل مشكلتها قبل الاتفاق مع الكاراجات على الحساب ...» وودعني وذهب الى دمشق على أن يبرق إليَّ في النهار نفسه . ولما لم نتلق شيئاً ، حتى في اليوم الثاني لسفره أرسل إليه الملازم مشهور برقية هذا نصها :

٢٦–١٠–١٩٤٨ الساعة ١٧ رقم ٧٢٦

الأغذية نفذت لم يبق منها شيء . الوحدات في تذمر خطر.

الإمضاء – مشهور

* * *

الكولونيل لورث يهدد جيش الإنقاذ

بعد المعارك الأخيرة ، عاد الهدوء فخيم على جبهتنا ، وعاد مراقبو الهدنة يلازموننا ولكن بشكل جديد . وكان همهم الوحيد أن يؤكدوا لنا أن حادثة ما لن تقع، إذا نحن حافظنا على هذا الهدوء ، ولم نتحرش باليهود، لأن هؤلاء قد أعطوهم الضمانات الكافية إنهم لن يخرقوا الهدنة. كان المراقبون ثلاثة ، فرنسي وبلجيكي وأميركي، وهذا الأخير كان رئيسهم . على أننا كنا نطمئن الى العضو الفرنسي أكثر من غيره، ذلك انه كان يفهمنا انه لا يجوز أن نطمئن الى الوضع اطمئناناً كاملاً ، بعكس غيره الذين يحاولون انزال الاطمئنان على قلوبنا بأية وسيلة، كما كانوا يصفون لنا عجز الجيش المصري عن المقاومة . وقد حملني هذا على أن لا أركن إلى ملازمتهم لنا هذه الملازمة المستمرة ، وعندما طلبوا إليَّ ان يكون لهم مركز خاص في مقر القيادة، شأن زملائهم ، لدى الجيوش العربية ولدى القوات اليهودية، منعت تجولهم في مناطقنا ، إلا إذا وقع حادث يقتضي أن يحققوا فيه.

وكانت استعلاماتي تؤكد لي، ان هناك تحشدات قوية ، في منطقة المنارة وصفد ونهاريا، مما حملني على توقع نشوب معارك كبيرة ، من جديد على طول جبهتنا في كل ساعة . وفي صباح ٢٧–١٠ هاجم اليهود مواقعنا في منطقة المنارة، ونشبت معركة استمرت حتى الساعة ٢ بعد الظهر كان الفشل حليفهم فيها . على انهم جددوا هجومهم بشكل واسع ، حوالي الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم نفسه، وقد اشترك في الهجوم دبابات كثيرة . وبالرغم من ذلك صدت قواتنا هذا الهجوم ، ولكنني منعتها من مطاردة العدو، آخذاً بعين الاعتبار ما قد نفاجأ به من ناحية أخرى . ولعل هذا هو الذي شجع اليهود على القيام بهجوم ثالث ، حوالي الساعة ٣ من صباح ٢٨ ، بقي حتى الساعة السابعة والنصف وباء بالفشل . وفي ذلك النهار جاء الى جبهتنا الكولونيل لورث ، من أعضاء لجنة مراقبة الهدنة، بحجة التحقيق في ماحدث ، وقال لنا : « يجب ان تكفوا عن هذه الاعتداءات التي تهدد سلامة الهدنة المفروضة من قبل هيئة الأمم المتحدة، وإلا فسيحل بكم ماحل بالجيش المصري بل أكثر من ذلك ، كأن يباد جيش الإنقاذ ». فأجبته بشيء من الحدة : « ومن الذي سيقوم بعملية الإبادة ؟ .. أقوات هيئة الأمم المتحدة ، أم القوات اليهودية ... أرجو منك أن تترك حالاً مقر القيادة وتذهب الى مركز عملك». فنهض غاضباً وهو يتمتم : « سنرى . سنرى ...» فقلت له : « إذا كان غضبك ناتجاً عما أنزلناه من خسائر باليهود أمس والذي قبله ، فأوكد لك أن غضبك في المستقبل سيكون أشد ...»، وأرفقته بضابط من ضباط المقر، الى ان خرج من منطقتنا . وقد أخبرني الضابط الذي أرفقته به ، إنه توعدني بتقديم تقرير ضدي الى الجنرال ريلي .

عدت من مقرنا الجديد في عين إبل ، وأنا أفكر في عبارات الكولونيل لورث التهديدية ، فلاحت لي صلة وثيقة بين هذه العبارات وبين ماكنت عرفته من أمر التحشدات اليهودية الجديدة، وبت أتوقع بدء هجوم كبير بين ساعة وساعة . فطلبت آمري الوحدات ، وعقدت معهم بعد ظهر ٢٨–١٠ اجتماعاً ، بحثنا فيه ما يجب علينا عمله في حالة وقوع هجوم عام على طول جبهتنا، بعد أن فشل الهجوم اليهودي على منطقة المنارة ، وقد كان حاضراً هذا الاجتماع العقيد محمود الهندي الذي كان جاء الى الجبهة ليطلع على حالة الإعاشة في جيش الإنقاذ. وبعد اتفاقنا

علي الترتيبات اللازمة ، أبرقت الى الزعيم حسني الزعيم ، أطلب منه الإسراع في إرسال الفوجين اللذين كان وعدنا بهما، فأجابني ان الفوج الثامن في طريقه إلينا، وسيصل عند المساء الى صور ، ثم تعود السيارات التي تنقله لتأتي بالفوج التاسع. فاطمأننت الى هذا التدبير، وقررت أن أجعل من الفوج الثامن ، قوة إحتياطية لجبهة المنارة، ومن الفوج التاسع ، قوة احتياطية لجبهة ترشيحا وجبهة الجش في منطقة صفد.

وقبيل عودة آمري الوحدات الى مراكزهم وفي تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر ، سمعنا دوياً هائلاً ، وتبينا أنه منبعث من قصف قلاع طائرة يهودية في منطقة ترشيحا والمغار وميرون والصفصاف والجش ودير القاسي ، أي على مواقع جنودنا في ثلاث جبهات . فطلبت من آمري الوحدات الإسراع الى مواقعهم، وأن ينبئوني فور وصولهم بحقيقة الموقف. وفي الساعة السادسة والنصف مساء، أخذت ترد عليّ برقيات المراكز، وكان القصف قد توقف، فإذا مجموع ماألقت الطائرات من القنابل يقدر بأكثر من مائتين ، وكانت الخسائر في الأهلين أكثر منها في الجنود. كانت في الأهلين حتى تلك الساعة ٤٢ قتيلاً و٩٧ جريحاً ، وفي الجنود ١٨ قتيلاً و٢٩ جريحاً . وبعد توقف القصف الجوي ، بدأ قصف المدفعية شديداً على طول الجبهة ، وعقب ذلك هجوم عنيف على جبهة جيش الإنقاذ كلها . وكان يتقدم الهجوم دبابات ثقيلة . وقد تلقيت من قائد جبهة ترشيحا المقدم المهدي صالح في ذلك المساء برقية هذا نصها :

٢٨-١٠-١٩٤٨ الساعة الثامنة مساء رقم ٣٠٨

خبروا مدفعية الجيش اللبناني ان ترمي الكابري وشرقيها بأسرع ما يمكن . القوات اليهودية تتدفق من حيفا ونهاريا . صددنا الهجمات حتى الآن . نسيطر على الموقف.

الإمضاء – مهدي

وتلقيت من بقية المراكز في الجبهة برقيات متشابهة . وفي الساعة ١١ من تلك الساعة تلقيت من المقدم مهدي برقية أخرى رقم ٣١٣ هذا نصها :

الضغط يزداد . أخبروا المدفعية اللبنانية ان ترمي الكابري وشرقيها . هناك

قوات كثيرة مشاة العدو تتقدم نحو مواقعنا من جميع الأطراف.

الإمضاء – مهدي

بهذه الصورة كانت المعركة مستمرة على جبهات جيشنا كلها. فطلبت الى الجيشين السوري واللبناني بعد أن أطلعتهما على حقيقة الموقف ان يساعدونا على الأقل بقصف المدفعية مؤخرة العدو المهاجم ، ولكن طلقة واحدة لم تُطلق من هنا ولا من هناك .

وأخذت المعركة تنكشف عن الأهداف الرئيسية للهجوم اليهودي، ويتمركز ثقلها على جبهة ترشيحا، بقصد قطع الطريق بينها وبين الرامة، على قواتنا في القوس الجنوبي. وكان هدف الرتل الآلي من صفد قرية الجش وقرية سعسع، وسعسع هذه ملتقى طرق رئيسة، يتم لليهود، إذا هم احتلوها، فصل جبهة ترشيحا والجبهة الجنوبية كلها – وفيها أكثر من ثلثي قواتنا – عن بقية قوات جيش الإنقاذ. وكان الهجوم من ناحية مستعمرة المنارة، هدفه بليدا وعيترون. وفي حالة تمكن القوات اليهودية من بلوغ هذه الأهداف، يتعرض جيش الإنقاذ إلى خطر الإبادة، أو يتبعثر إلى فلول تسلل إلى الحدود اللبنانية. لذلك أخذاهتمامي يتركز في الاحتفاظ بترشيحا وبليدا بأي ثمن، لاجنب الجيش الخطر الذي يتهدده. وكانت المعارك في بليدا وجنوبي سعسع وشرقي ترشيحا أشد ما عرفته فلسطين من معارك، منذ بدء الحرب الفلسطينية. ودافع جنودنا دفاعاً يصح أن يتخذ مثالاً لأشد حروب الدفاع بسالة وعناداً وتضحية. وكان الفوج الثامن بقيادة عدنان المالكي، قد وصل الى الجبهة قبيل المعركة، فاستعرضت ضباطه وجنوده وعينت لقائده مهمة، في جبهة بليدا ، وهو ضابط شاب من ضباط الجيش السوري الشجعان. ثم سألته عن مقدار عتاد الفوج فأجابني أن مجموع عتاد الفوج أقل من وحدة نارية . . . فبدا أمامي شبح خطر نفاذ العتاد. . . وعدت أعلل نفسي بالفوج التاسع ، وما قد يكون لديه من عتاد. وخاض الفوج الثامن الى جانب قواتنا المعارك في جبهة المنارة، وكانت له يد في صد الهجوم اليهودي الذي كان أخذ يحرز بعض التقدم. وكان هجوم العدو على جبهة الجش أقوى منه على أية جبهة أخرى، فإن طبيعة الأرض هناك كانت تسمح لآلياته بالحركة كما يريد. وقد تقدم في هذه الجبهة، حيث دارت

معارك بعد منتصف الليل في ميرون والجش، أكثر منه في غيرها، ولم يبق بينه وبين سعسع، الموقع الذي يكمن الخطر في ذهابه، إلا مسافة قصيرة جداً. فرأتني مضطراً الى سحب سرية من الفوج البدوي ، من جهة بليدا، قذفت بها إلى سعسع للاحتفاظ بها ماأمكن. ولم يكن لدينا وسائل للقتال ضد المصفحات والدبابات ، عدا مدافع الصحراء الثمانية، أما ضد الطائرات فلم يكن لدينا أي سلاح. وقبيل الصبح، كان فصيل المدفعية عيار ١٠٥ قد أطلق آخر قنبلة لديه، فاتصل بي آمر الفصيل يسألني عما يمكن أن يفعل ، فأمرته بالإنسحاب الى ماوراء الجبهة، وكانت المعركة في جبهة ترشيحا بلغت الذروة، ونظراً لعدم وجود احتياطي لديّ، وعدم وصول الفوج التاسع الذي كان منتظراً، طلبت من المقدم عامر في جبهة الرامة، الأقل خطراً، أن ينجد ترشيحا ، وأن يساند جبهة الجش بسرية. وكان الفوج العلوي بقيادة الرئيس غسان جديد، هو الذي يدافع عن الجش، والرئيس غسان من ضباط الجيش السوري الذين انضموا الى جيش الإنقاذ. وكان هذا الفوج ، يقاتل في وجه قوات آلية هائلة، تفوقه ست مرات عدداً ولا أتكلم على المعدات . ووصل الفوج التاسع الى بنت جبيل ، بعد منتصف ليل ٢٨ – ٢٩ تشرين الأول ، فجاءني آمره المقدم علم الدين القواص الى مقر القيادة ، فسألته عن مبلغ مالدى فوجه من عتاد ، فأجابني جواب آمر الفوج الثامن ، أي ان مجموع مالدى الفوج من عتاد لا يتجاوز وحدة نارية ... فأمرته أن يذهب الى سعسع ، ويتصل بالرئيس غسان آمر الفوج العلوي ، الذي كان لايزال يدافع عن الجش مستميتا ، ويضع تحت تصرفه سرية أو سريتين ، تبعاً لما يتطلبه الموقف ، وان يبقى مع بقية فوجه في سعسع. وكان امكان سحب القوات المتمركزة في القوس الجنوبي سالمة ، متوقفاً على مقدار صمود الجش وترشيحا، وأرفقته من المقر بالرئيس مشهور حمود، على أن يصحبه الى سعسع ثم الى الجش ، ولكن المقدم القواص لم يرافق فوجه، وأوكل أمره الى الرئيس مشهور . علمت بهذا في الصباح اليوم الثاني ، أي في ٢٩ عندما بدأت الطائرات اليهودية تقصف مقر القيادة ، إذ شاهدته هناك وسألته مستغرباً ، عن سبب وجوده في المقر ، فأجابني انه أرسل الرئيس مشهور على رأس الفوج، ونام هو في إحدى خيم المقر ليأخذ قسطاً من الراحة ... بينما لم تغمض عين لأحد ممن ينتسبون للمقر في تلك الليلة ، فآلمني ذلك كثيراً ، وأمرته أن ينضم الى فوجه في الحال . وكنت

أراقب تطور الموقف مراقبة مستمرة ، وأنا أشعر بتهاوي الجبهة، حتى إذا ما جاءت الساعة الرابعة صباحاً ، كانت القوات اليهودية تمكنت من احتلال الجش بكاملها . أما المقدم علم الدين القواص ، فبدلاً من أن ينفذ الأوامر الصادرة إليه ، ذهب فسحب فوجه من سعسع والجش ، وجاء به الى قرية كفر برعم ، بينما المعركة تزداد عنفاً في الجش وترشيحا ، والطائرات تقصف قواتنا قصفاً هائلاً ، وهي ماضية في الدفاع بضراوة ثم توقف الهجوم علي ترشيحا بغتة .

أطلقت قواتنا ، إلا أقلها ، آخر طلقة من بنادقها ومدافعها ، ولم يبق لديها ما تقاتل به ... وبقي فصيل واحد في سعسع يساند الجبهة ، لديه بعض الطلقات كان يستعملها مستميتاً .

وتلقيت من المقدم مهدي البرقية التالية : ٢٩–١٠–١٩٤٨ الساعة ٥و٣٠دقيقة رقم ٣١٩ من مهدي الى فوزي

« أرسلوا لنا بالسرعة الممكنة عتاد ف.م نفذ هذا النوع تماماً عندنا .

وبرقية أخرى بعدها الساعة ٧و٣٠ دقيقة رقم ٣٢٥

نفذ العتاد الافرنسي ارسلوا بسرعة .

وبرقية ثالثة رقم ٥٢٦ الساعة ٧و٥٥ دقيقة

لم يبق لدى المدفعية ولا طلقة واحدة اضطررنا لنسحبها الى سحماتا

أمام هذا الموقف الرهيب ، وبعد سقوط الجش ، أصدرت أمراً الى المقدم عامر بالانسحاب من منطقة الرامة نحو ترشيحا . فأجابني ببرقية هذا نصها :

٢٩–١٠–١٩٤٨ اساعة ٨و٣٥ دقيقة رقم ٩٨

تدور الآن معركة في كل من مجد الكروم ، شعب ، سخنين ، عيلبون . اليهود يستخدمون مدفعية الميدان .

وبرقية أخرى الساعة ٨و٥٥ دقيقة رقم ١٠١

أرسلوا سيارات تكفي لتنقلاتنا .

الإمضاء – عامر

وكنت أرسلت برقية في الساعة ٧و١٥ دقيقة رقم ٧٤٨ الى آمر حامية تربيخا ليسحب سريته الى سعسع ويتخذ منها مركزاً للدفاع . فأجابني ببرقية هذا نصها :

٢٩–١٠ ١٩٤٨ رقم ٥

نظراً لعدم وجود سيارات لنقل السرية الى سعسع أرجو إرسال سيارات نقل .

الإمضاء – حقي

وبدأت محاولة العدو التقدم نحو سعسع . ولكن الفوج العلوي المنسحب من الجش، نحو الشمال الشرقي ، أخذ يهدد جانبه بهجمات عنيفة ، وأخذ فصيل مدفعيتنا الوحيد الذي كان لايزال لديه طلقات معدودة والمتمركز في سعسع يصب نيرانه عليه ببراعة ، فأخَّر هذا تقدمه قليلاً . وتلقيت في هذه اللحظة ، من آمر فصيل المدفعية البرقية التالية :

٢٩–١٠–١٩٤٨ رقم ٣١٦

استطعنا بالمدفعية تعطيل مدفعية العدو في الصفصاف التي كانت ترمي سعسع . وقصفنا تجمعاته في الجش فتفرق . يمكننا الإحتفاظ بمواقعنا الحالية إذا ارسلتم ذخيرة للمدفعية.

وهكذا كان هذا الفصيل الأخير من مدفعيتنا يلفظ ... آخر طلقاته .

وراحت الطائرات اليهودية ترمي المناشير وراء الجبهة ، وفي بيروت ، تعلن ان القوات اليهودية أبادت جيش الإنقاذ . والواقع ان في الخطة اليهودية المرسومة، والقوات الهائلة بالعدد والمعدات ، من مدفعية ميدان ، الى دبابات ثقيلة ، الى طائرات ، المعدة لتنفيذ هذه الخطة، ما يحمل على الاعتقاد ان الإبادة كانت أمراً واقعاً لابد منه. حتى إنه في اليوم نفسه ، أي في ٢٩ –١٠ جاءني اعضاء لجنة مراقبة الهدنة ، وعلى ملامحهم ما يدل انهم يشاركون اليهود اعتقادهم هذا. قالوا لي أن جيش الإنقاذ قد دافع في الحقيقة دفاع الأبطال ، ولكنه لم يكن من الممكن أن يقع غير هذا الذي وقع، بالنظر الى القوات اليهودية الآلية الهائلة من جهة، والى قلة العدد والمعدات ، خصوصاً الالية ، في جيش الإنقاذ من جهة أخرى ... والذي وصف المعركة بين أعضاء لجنة المراقبة ، وصفاً حقيقياً دون ان يبدو عليه مابدا على

رفاقه ، هو الضابط الفرنسي الذي اكتفى بالقول : « ان المعركة في الواقع كانت أعنف معركة وقعت في فلسطين » . وقلت لهم : « ان ما يتوهمونه لم يقع. وأرجو ان تتمكنوا من العودة غداً أو بعد غد ، فنتحدث طويلاً في الموضوع إذا شئتم » .

وقد اتضح لي بجلاء ان عنف الهجوم اليهودي ، انما كان على ترشيحا ، وعلى الجش ، وان المعارك التي كانت تثار في غير مواقع من الجبهة ، كان الغرض منها تثبيت قواتنا في هذه المواقع ، فلا يتسنى لها معاونة الجش وترشيحا. ورغم العنف الشديد في الضغط على ترشيحا ، كانت لاتزال صامدة، والتقدم نحو سعسع قد توقف . وأخذت قوات من لواء اليرموك تصل من جبهة الرامة، فاقذف بها إلى ترشيحا ، وكان لا يزال للمدفعين الوحيدين في سعسع بعض طلقات. أما الهجوم الذي قام به اليهود من المنارة نحو بليدة ، فقد توقف نهائياً . وقد أردت أن استعمل القوات المنسحبة من الرامة لتصليح الوضع العام في منطقتي ترشيحا والجش. فطلبت من المقدم مهدي ان يقوم بهجوم مضاد لدفع اليهود ، ما أمكن الى الوراء ، ومحاولة استرداد الجش ، أو دفع العدو عما حولها على الأقل. وقامت قواتنا بهجومين معاكسين في آن واحد على هاتين الجبهتين ، ترشيحا والجش، وأرغمنا اليهود على الإرتداد ، وغنمنا منهم بعض الغنائم . حتى إننا تمكنا من استرداد الجش في ٢٩–١٠ بمساعدة المدفعية التي أطلقت آخر مالديها من قنابل ، والمعركة لم تنته بعد. وتحسن الوضع قليلاً ، وأخذ انسحاب لواء اليرموك ، يتم بنظام ولكن ببطء ، لأنه كان ينسحب مشياً على الأقدام . ويظهر ان مقدرة قواتنا على الصمود لم تكن لتخطر في بال القوات اليهودية ، التي كانت على عجلة من أمرها ، في الرغبة بالقضاء على جيش الإنقاذ ، والفراغ من هذه المنطقة ، لترتد الى جبهة الجيش المصري. ففي هذه الفترة اي بعد ظهر ٢٩–١٠ تلقيت من ضابط الرصد اللبناني في الناقورة ، الخبر التالي :

شوهد اليوم حوالي الساعة العاشرة رتل آلي يهودي ، مؤلف من دبابات ومدرعات وسيارات نقل يخرج من نهاريا متجهاً نحو ترشيحا ، وطوله لا يقل عن تسع كيلومترات ، إذ بينما كان أوله الى جوار ترشيحا ، كانت مؤخرته تخرج من نهاريا . وقد أيد هذا الخبر عندي، أحد ضباط مراقبة الهدنة، الذي جاءني الى المقر

حوالي الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم . وعندها اندفع اليهود في هجوم معاكس على الجش ، فاحتلوها مرة أخرى ، وتقدموا نحو سعسع من جديد ، وأصبحت أخشى ان يتم تجمع الرتل الآتي من نهاريا أمام ترشيحا ، فيتمكن من الاستيلاء عليها ، ويقطع بذلك الطريق على لواء اليرموك المنسحب . وكانت قواتنا في منطقة ترشيحا ، تقاتل ببسالة نادرة قتالاً استمر بعد ظهر ٢٩ وليل ٢٩–٣٠ بطوله . وفي صباح ٣٠–١٠ أخذت هذه القوات في التراجع، تحت ضغط الهجوم اليهودي الذي زاد في عنفه رتل نهاريا، وقنابل المدفعية والطائرات . وكانت وهي تتراجع تقاتل خطوة فخطوة مستنفذة مالديها من قليل عتاد . وعند الساعة الواحدة بعد الظهر ، دخلت القوات اليهودية ترشيحا، وأجزاء من لواء اليرموك، لم يتم انسحابها بعد ، من منطقة الرامة . فأصبحت الطرق الرئيسية تحت نيران مدفعية اليهود مباشرة، ومشاتهم يتقدمون بحماية المدفعية نحو هذه الطريق . وقوات ترشيحا مستمرة في الانسحاب وهي تقاتل، وقد اضطرت أجزاء من لواء اليرموك المنسحب، إلى مقاتلة القوة اليهودية ، المتقدمة نحو الطريق الرئيسة ببطء ، لتشق طريقها عنوة ، بينما مؤخرتها تقاتل في انسحابها قوات أخرى يهودية . وقد تم وصول مايقارب اللواء من القوات اليهودية ، الى التلال المشرفة على الطريق الرئيسة أمام قرية سحماتا . وفي هذا الموقع دارت رحى معارك عنيفة بين قوات اليرموك وقوات ترشيحا المنسحبة من جهة ، وبين القوات اليهودية المتقدمة الى هذه التلال من جهة أخرى وأصبح اللواء اليهودي في حالة تطويق كامل تقريباً ، وأخذت المعركة شكل مجزرة . وما إن هبط الليل ، حتى تمكنت قواتنا من تشتيت هذا اللواء واستولت على علمه الموجود مع بعض غنائم من الأسلحة في متحف خاص لديه وعلى كثير من أسلحته . ثم تمكنت من الاتصال برأس طريق ، كانت قواتنا قد شقته من قبل ولم يبلغ اليهود خبره ، وبفضل هذه الطريق تمكن جنودنا من الانسحاب .

* * *

الضغط على الجيش المصري

قررت ان تتمركز قواتنا على خط جديد، يمتد من غربي سعسع ، الى شرقي عيترون مواز للحدود اللبنانية ، على أن تكون المراكز الأمامية لهذا الخط، في

الأراضي الفلسطينية . فنكون في مواقعنا الجديدة، أقوى منا من قبل، لقصر الخط الجديد بالنسبة للخطوط التي كنا نتمركز عليها سابقاً . ويكون في وسعنا القيام بأعمال مجدية ، تمكننا من دفع القوات اليهودية ، الى مسافة بعيدة عن الحدود اللبنانية ، واسترداد مراكز ذات شأن في المستقبل ، إذ نكون قد أعدنا تنظيم قواتنا ، تنظيماً جديداً . هذا ، على شرط ان نجهز ونمون بالعتاد من جديد، لان عتادنا قد نفد تماماً هذه المرة، ولم يبق في وسع الجنود الصبر على الحرمان من التجهيزات .

كانت المعركة لاتزال دائرة أمام سعسع، وكان فوج المقدم علم الدين القواص قد انتقل الى قرية يارون ، شرقي سعسع، وعلى مسافة ١٠ كيلومترات منها تقريباً ، وهو قوة احتياطية ، يشكل بوضعه سداً في وجه اليهود الى المالكية، التي كانت لاتزال بين أيدينا . وفي بليدة ، كانت تدور معركة لاتقل عنفاً عن معركة سعسع، وقواتنا تعوق تقدم اليهود . وكانت الطائرات اليهودية تقصف بشدة قواتنا في المالكية ، وفي قَدَس . أما في سعسع فقد أخذت قوة الدفاع ، تنخفض بنسبة انخفاض كمية العتاد ، حتى كادت تضمحل ، ففكرت في أن أنجدها بالفوج التاسع السوري ، إلا أن المقدم القواص انسحب بالفوج التاسع دون أن يعطي أي خبر أو إشارة ، الى قرية تبنين الواقعة على عشرين كيلومتراً تقريباً وراء الجبهة . . . وبينما المعركة مستمرة في جبهة سعسع وناحية بليدة ، جاءني المقدم شوكت شقير وأبلغني رغبة القيادة اللبنانية الملحة ، في التخلي عن المالكية وقدس وبليدة ، تجنباً للقتال على الحدود اللبنانية . . .

لم يبق أية فائدة من الإصرار على الدفاع عن سعسع، وأصبح التخلي عن المالكية وقدس وبليدة ، نزولاً على رغبة القيادة اللبنانية ، أمراً لابد منه . فتخلينا عنها ، وتمركزت قواتنا التي كانت فيها على خط رميش – مارون الرأس – عيترون . وأطلعت وزير الدفاع السوري على وضعنا الأخير هذا ، بالبرقية التالية :

٣١–١٠–١٩٤٨ رقم ٧٧٧

من فوزي الى وزير الدفاع

١– سحبنا قواتنا أمس من المالكية وقدس بدون قتال بناء على إلحاح قيادة الجيش اللبناني التي ترغب تجنب القتال على الحدود ؛ ٢– بالرغم من تخلينا عن

المالكية ، ومن صدور التعليمات لايقاف النار من الطرفين ، لايزال اليهود يهاجمون باتجاه بليدة – عيترون– مارون الراس، مما سبب استمرار القتال ؛ ٣– طلب مني الآن قائد الجيش اللبناني التخلي عن بليدة والانسحاب الى غربي عيترون، ربما أدى هذا الوضع بعد الانسحاب الى التخلي عن مراكز أخرى ؛ ٤– ان سرية من الفوج السوري التاسع الموجودة مع الرئيس غسان في مارون الراس، انسحبت من منطقة القتال ، دون أمر ولا علم مما سبب ذعر أهالي بنت جبيل الذين أخذوا في النزوح نحو الشمال ؛ ٥– هل هناك أوامر سرية تعطى مباشرة من قيادة الجيش السوري الى الفوج التاسع، أم هي تصرفات آمر الفوج من نفسه ؟ إنني سأعيد هذا الفوج في أول لحظة يسمح بها الموقف عندنا، ولكن أرجو أن تأمروا الفوج ان يكون تحت تصرفنا خلال هذه المدة، وأن لا يتقبل أوامر معاكسة كما جرى سابقاً لفوج الداغستاني عندما كان في المالكية .

وفي ٢١–١٠ أرسل قائد الجيش السوري ، الزعيم حسني الزعيم ، العقيد فوزي سلو، الى الجبهة بمهمة جمع الفوجين السوريين والإشراف على سحبهما الى سورية، دون أن يعلمني بذلك . وقد اتصل العقيد سلو بالفوجين وأخذ بتجميعهما استعداداً لسحبهما، وحينما علمت بذلك اعترضت عمله، ومنعته من اتمامه . فأرسل الى الزعيم حسني الزعيم البرقية التالية :

٣١–١٠–١٩٤٨ رقم ٧٧٤

من العقيد سلو الى شجاع .

المهمة التي أوكلت اليَّ من قبلكم تعترض قيادة الإنقاذ على تنفيذها في الوقت الحاضر . حضوركم أو من ينوب عنكم مزوداً بالتعليمات ضروري .

الإمضاء – سلو

وأبرقت بدوري الى قائد الجيش السوري الزعيم حسني الزعيم برقية هذا نصها :

٣١–١٠–١٩٤٨ رقم ٧٧٥

سحب أفواجكم في الوقت الحاضر لا يجوز . تلقينا أمراً بوقف القتال عن

طريق الوزارة اللبنانية من قبل هيئة الأمم المتحدة. واليهود تلقوا أمراً مماثلا . إذا توقف القتال في الوقت المعين وهو الساعة ١٠ يصبح في الإمكان إرسال أفواجكم اعتباراً من مساء غد . اليهود لا يزالون مستمرين على إطلاق النار .

الإمضاء – شقير

وبعد ارسال هذه البرقية أخذت حدة القتال تخف ، وبدأ يتخلل إطلاق النار فترات من الهدوء ، فما أن جاء مساء ٣١ حتى شمل الهدوء الجبهة بكاملها .

هكذا انتهت معركة الجليل الطاحنة ، بعد أن استمرت خمسة أيام بلياليها بدون انقطاع . وكانت فرصة للجيوش العربية لو هي شاءت واغتنمتها لتيسر لها أن تربح معركة فلسطين نهائياً . ذلك ان القوات اليهودية كلها، كانت تحشدت تقاتل على جبهة جيش الإنقاذ، وجبهة الجيش المصري ، وكان الميدان خالياً تقريباً أمام الجيوش العربية الأخرى ، فاية حركة تقوم بها هذه الجيوش أو جيش منها واحد، كان يمكن أن تقلب الحالة رأساً على عقب ، وتضمن النصر للعرب. ولكن جيشاً من هذه الجيوش لم يتحرك . . . وكأنما اليهود كانوا يعلمون ان هذه الجيوش لن تتحرك . وأعترف انني حتى هذه الساعة أجهل الأسباب المعقولة المقبولة التي جعلتها لا تتحرك . . .

انني حينما أعدد عوامل فشل الدول العربية في فلسطين لا يسعني إلا أن أضع موقف الجيوش هذا في رأس هذه العوامل فمن هو المسؤول عن هذا الموقف ؟ . ان معركة الجليل هذه ، كانت كما أعتقد سبباً من أسباب انقاذ الجيش المصري، وعدم سقوط غزة بين أيدي اليهود . لأن تحشد القوات اليهودية على جبهة جيش الإنقاذ، في هذه المعركة الهائلة ، أعطى للجيش المصري فرصة، أتخذ خلالها الترتيبات اللازمة لاصلاح وضعه. ولولا ذلك ، ولو أن اليهود حشدوا قواتهم الكثيفة ضد الجبهة المصرية قبل مهاجمتهم جيش الإنقاذ ، لسقطت الفالوجة وغزة ، ولتشتت الجيش المصري وتمزق .

على انه بالرغم من عنف الهجوم اليهودي على جبهتنا ، واستمرار المعركة التي وصفها بعض المراقبين إنها أقرب الى المجزرة – وقد كانت كذلك – مدة خمسة أيام كاملة ، استطاع جيش الرنقاذ ، أن يفلت من التطويق والإبادة ويتم عملية انسحابه

بدون أية خسارة في سلاحه – عدا سيارات كانت معطلة – وبخسارة في الأرواح أقل بكثير من الخسائر التي تقع في مثل هذه العمليات .

وجاءني اعضاء لجنة مراقبة الهدنة، بعد تنفيذ الأوامر بإيقاف النار ، للاطلاع على وضعنا ، وكان الهدوء شاملاً يومئذ . فاتفقت كلمتهم على دفاع قواتنا كان رائعاً ، وان حركات الجيش العسكرية كانت بارعة جداً . وقد صرحوا انه في عمليات الانسحاب ، في مثل هذه الظروف ، تكون الخسائر كبيرة . فقلت : « ان خسائرنا في القتلى والجرحى في الواقع ليست قليلة، ولكننا لم نعط أسيراً واحداً ولا خسرنا سلاحاً . وقد تستغربون إذا قلت لكم ان الأمر بالعكس تماماً فقد غنمنا شيئاً من الأسلحة رغم إننا كنا نقاتل منسحبين ، وغنمنا علم اللواء اليهودي الذي حطمناه في ترشيحا . وهاكم هذا العلمَ ، ووضعته بين أيديهم ، ملطخاً بالدماء » . فسألوني بشيء من الاستغراب والشك ، هل صحيح انني تمكنت من سحب الجيش بكامله، قلت لهم : « نعم ، عدا القتلى – طبعاً – وتستطيعون أن تروا قطعات الجيش إذا شئتم والأسلحة التي غنمناها » . وأرسلت معهم أحد ضباطنا فطاف بهم مواقع الجبهة فتأكدوا مما قلته لهم ، ثم عادوا يبدون أعجابهم ويقولون : « لعلها من أكبر عمليات الانسحاب الناجحة في تاريخ الحرب الحديثة » . وقد كانوا يعلمون بعد ما بين قواتنا وبين القوات اليهودية ، من فرق في العدد والمعدات .

استمر الهدوء الشامل يسود الجبهة ، فأخذت القوات اليهودية تنسحب نحو الجنوب باتجاه الجبهة المصرية لإتمام عملياتها عليها ، ولم يبق أمامنا عدا المخافر والدوريات إلا مفارز ليست لها كبير شأن . وقد كانت فرصة مواتية لينقض جيش الإنقاذ على اليهود ويحطمهم ، ولكن من يوفر لقواتنا المعدات اللازمة لضرب اليهود ضربة ترغمهم على التخلي عن مراكز كثيرة هامة ، وعلى تخفيف ضغطهم عن الجيش المصري ؟ . . .

* * *

الارجاف بانقلاب – فك الحصار عن الفالوجة

في أوائل تشرين الثاني ١٩٤٨ ، تبدل الجو فجأة ، وأخذت الأمطار تنهمر بغزارة ، واشتد البرد وكان جنودنا شبه عراة ، ليس لديهم تجهيزات ولا مأوى . وفي

السادس من شهر تشرين الثاني ، جاءني السيد محمود فهمي درويش السكرتير العام لجمعية انقاذ فلسطين في بغداد ، ومعه بعض أعضاء الجمعية ليوزعوا على المتطوعين العراقيين في جيش الإنقاذ ، بعض الهدايا كالسكاكر والحلويات ، فقلت لهم ان جنودنا في حاجة الى الكساء أكثر منهم الى السكاكر. فاستأذنني بالطواف على الجبهة فأذنت له ، فعاد مأخوذاً متأثراً يكاد لا يصدق ما رأى . وأبرق على الفور الى رئيس جمعية انقاذ فلسطين في بغداد برقية لا أزال أحتفظ بصورة عنها هذا نصها :

٨–١١–١٩٤٨ شاهدت جنود جيش الإنقاذ عراة على رؤوس الجبال . البرد قارس جداً . أرسلوا ثلاثة آلاف بطانية حالاً . تحية الجيش وقائده لكم جميعاً .

الإمضاء – محمود فهمي درويش السكرتير العام لجمعية انقاذ فلسطين في بغداد

ويؤلمني القول ، إننا لم نتلق بطانية واحدة ولا جواباً . . . .

في هذه الفترة توقف القتال ، وراح اليهود يبدون نشاطاً سياسياً في الأراضي اللبنانية . فقد أخبرني فريق من أهالي قرى جبل عامل ، القريبة من الحدود ، ان وفداً يهودياً يطوف بسيارة على تلك القرى ، ومعه جنديان ، يطلب من السكان ان يوقعوا على أوراق مكتوبة بالعبرية يترجمونها لهم ، وهي عبارة عن إظهار الرغبة في الانسلاخ عن لبنان والانضمام الى « اسرائيل » فأنبأت الوزارة اللبنانية بالأمر، ولكن اليهود استمروا في نشاطهم . . . ومن يدري فقد يأتي يوم يدّعي فيه اليهود – لمناسبة عقد الصلح مثلاً – ووقوع حوادث غير منتظرة ان هذه المنطقة من جبل عامل ، داخلة برضاها ضمن نطاق « اسرائيل » . . وهذا هدف من الأهداف اليهودية في لبنان ، ليدخل نهر الليطاني ضمن نطاق أراضي الدولة التي يحلم بها اليهود، منذ مئات السنين . وهم يعملون على أن يدخلوا في نطاق أراضيهم مصب بترول الظهران أيضاً ، الذي يقع الى الجنوب من صيدا ، وعلى الضفة الشمالية من الليطاني . . . فينعمون بالمصبين . مصب بترول نجد ، ومصب بترول العراق .

استقر جيش الإنقاذ على خطوطه الجديدة لا يبدي أية حركة . فأصبح من هذه الناحية مثل بقية الجيوش العربية، القابعة وراء تحصيناتها القوية ، تحميها

الأسلاك الشائكة، والأسلحة الثقيلة وحقول الألغام ، متمتعة بمختلف التجهيزات والوسائل العسكرية ، مع فرق واحد ، يكفي لإعطاء صورة صحيحة عنه، نشر البرقيات التالية :

٢٣-١١-١٩٤٨ رقم ٨٦٠ من شقير الى قائد القطاع الشرقي

بلغوا الرئيس غسان (آمر الفوج العلوي الشجاع في جيش الإنقاذ) ما يلي :

وافق الهاشمي على ابقاء خيمة لنا .

الإمضاء – شقير

وطلب الهاشمي فصيلين من الجبهة الى قطنا ، فأجابه المقدم شقير بالبرقية التالية :

٢٤- ١١ – ١٩٤٨ رقم ٨٦١

من شقير الى الهاشمي

جواب برقيتكم رقم ٩٠٤٥ ليس لدينا سيارات لنقل الفصيلين اما ان ترخصوا لنا باستئجار سيارات أو ترسلوها لنا .

الإمضاء – فوزي

والفصيل يتألف عادة من ٢٥ الى ٣٠ جندياً ، ومعنى هذا أن الفصيلين لا يحتاجان الى أكثر من سيارتي نقل .. ولكن جيش الإنقاذ رغم هذا كله، بقي محتفظاً بمعنوياته ، وبمزاياه التي تؤهله للقتال في كل حين . كانت المعارك لاتزال تدور في جبهة الجيش المصري ، على خط يمتد من أبواب غزة ، حتى ما وراء العريش داخل الأراضي المصرية، وكانت حالة الجيش المصري غير حسنة فرأت مصر من الحكمة في السياسة ان تقبل الهدنة لمصلحة الجيش. أما في دمشق فقد بدأت اللجنة العسكرية تلح في تسريح جيش الإنقاذ، بحجة عجز جامعة الدول العربية عن دفع رواتب جنوده وتجهيزهم . وكان من ضمن جنود الإنقاذ، فوج من الفلسطينيين الذين قاتلوا في صفوفنا بشجاعة، يتقاضون رواتبهم من الهيئة العربية العليا. وقد طلبت اللجنة العسكرية بتسريح هذا الفوج أيضاً ، فأرسلت الى المفتش

العام طه الهاشمي بهذا الموضوع برقية هذا نصها :

٩-١١-١٩٤٨ رقم ٨٠٩

من فوزي الى الهاشمي

أرى ان الاحتفاظ بالسرايا الفلسطينية التي شكلنا منها فوجاً ، والتي تعتبر من العناصر الطيبة، ويتقاضى جنودها رواتبهم من الهيئة العربية العليا، أوفق، من حيث العنصر والاقتصاد في الموازنة . طلبت من الوحدات البدء بتسريح العناصر غير الصالحة . فنكون بذلك انقصنا القوة الى حد يتناسب مع ميزانية الجامعة. أما قضية عدم امكان تسليح جيش الإنقاذ بالسلاح والعتاد اللازم فيجعله لايستطيع القيام إلا بواجبات ثانوية رغم ما يحتفظ به من معنويات ممتازة واستعداد فائق للقتال . حرمانه من احتياجاته يعني حرمان القضية الفلسطينية من قوة ثقيلة الوزن .

الإمضاء – فوزي

فكان الجواب الإصرار على التسريح .. فمضينا في ذلك حتى نزلت قواتنا الى ما يقارب نصفها . وفي خلال قيامنا بعملية التسريح، أخذت ترد عليَّ طلبات غريبة منها : وضع الفوجين السوريين تحت أمرة القيادة اللبنانية، وإرسال مدفعيتنا الى دمشق، لينظر في ماتحتاج إليه .. ولعل أغرب من هذا ، طلب تقدم به الجنرال شهاب قائد الجيش اللبناني ، بواسطة المقدم شقير ، وذلك صباح ١٧ تشرين الثاني، هو أن أضع تحت تصرف الجيش اللبناني مصفحاتنا كلها ، أو بعضها بحجة ان الحكومة اللبنانية تتوقع حدوث حوادث داخلية في العشرين من هذا الشهر .. وطلبت القيادة اللبنانية أيضاً ، إرسال فوج من قواتنا الى النبطية – الخيام ، وفوج آخر الى القاسمية . فاندهشت من هذه الطلبات ، ولم يسعني ان لاأرى فيها، رغبة في بعثرة جيش الإنقاذ وتمزيقه . ولكنني حرت في تعليل السبب، ولم تذهب حيرتي من تلك التصرفات إلا بعد اطلاعي على صورة تقرير من الرئيس مشهور حمود أحد ضباط جيش الإنقاذ، ومن معلومات أدلى بها إليَّ العقيد محمود الهندي مدير الإدارة في اللجنة العسكرية ملخصها : إنني قررت القيام بواسطة جيش الإنقاذ بعملية لقلب الحكم في لبنان .. وكان الرئيس مشهور أعطى هذه الأخبار الى فخامة الرئيس القوتلي – كما تبين لي فيما بعد، في ليل ١٦-١٧

تشرين الثاني ، وكانت هذه المعلومات السخيفة كافية لتهز أعصاب رئيس الجمهورية السورية ، فسخر كل الليل أسلاك التلفون ، بين قصره وقصر الرئاسة في لبنان بهذا الصدد. وكان الجميع يبحثون في الترتيبات السريعة التي يجب اتخاذها لإحباط المؤامرة ... وفي صباح ١٨ تشرين الثاني تلقيت من رئيس الحكومة السورية السيد جميل مردم برقية مستعجلة للحضور الى دمشق لأمر خطير ، فأعلمني أن أمين الجامعة السيد عزام يطلب مجيئي الى مصر من أجل جيش الإنقاذ. وفي صباح ٢٠ - ١١ غادرت دمشق الى القاهرة ، ومعي العقيد الهندي ، الى الجامعة انبئهم بوصولي واستعدادي لمقابلة الأمين العام . وأجابني سكرتير الأمين العام انه يعاني آلاماً شديدة من مرض قلبي وهو في الفيوم ، وان الأطباء حظروا عليه المقابلات .

واستغرب السكرتير من مجيئي ، إذ انه لايعلم ان الأمين العام أبرق الى أحد بهذا الشأن . وفي هذه الأثناء اتصلت بالكولونيل حلمي بك ، مرافق جلالة الملك فاروق ، وتكلمنا عن القتال في فلسطين ، وكان طبيعياً ان نتحدث عن الفالوجة، التي كانت لاتزال محاصرة . وقد شكا الكولونيل بمرارة من موقف الجيوش العربية واحجامها عن نجدة الجيش المصري ، وكيف ان الاجتماعات التي عقدها القواد والسياسيون غير مرة ، لهذا الغرض ، لم تفض الى نجدته . فقلت له : « ان فك الحصار عن الفالوجة ممكن في أي وقت كان ، وبسطت له طريقة فك الحصار مستعيناً بخريطة كانت أمامنا . وكنت أعلم ان الفالوجة ، كانت تمون يومذاك بواسطة الجمال بطريقة التسلل ، فقلت له : « اذا كانت الجمال تستطيع التسلل الى الفالوجة، فمن البديهي ان يكون تسلل قوة خفيفة إليها ، أسهل من تسلل الجمال ، على أن تنظم هذه القوة بشكل خاص لهذا الغرض . وإني مستعد ان أتطوع لفك الحصار عن الفالوجة ، وانقاذها بفوجين من جيش الإنقاذ ، وبطرقي الخاصة » . فطلب مني أن أتصل بوزير الحربية حيدر باشا. وكان الوزير عاتباً بل حانقاً من موقف الجيوش العربية ، ثم دخلنا في موضوع انقاذ الفالوجة ، وشرحت له كيفية تنفيذها على الخريطة . وقلت له : « انني أختار فوجين من جيش الإنقاذ أجمعهما في منطقة الخليل وأتحرك بهما نحو الفالوجة على غير الطرق العامة ، فنسري ليلاً ونكمن نهاراً . على أن تقوم قوات من الجيش المصري ببعض حركات تظاهرية لستر

عمليتنا هذه، حتى إذا نجحت ، يكون آمر الحامية قد تلقى منكم أمراً بالانسحاب معي . وفي هذه الحال ، لابد لنا من التضحية بعدد من الجنود، لنسف الأثقال التي يتعذر سحبها في مثل هذه الظروف . وفي حالة فشل عملية الدخول الى الفالوجة بالذات ، اضطررنا الى خوض معركة مع القوات اليهودية، تجتذب قسماً كبيراً من القوات المحاصرة لمقاتلتها . فأستدرجها الى شرقي الفالوجة، داخل أراضي يستحيل عليها استخدام قواتها الآلية فيها ، فنتمكن من إنزال ضربة قاسية بهذه القوات التي كل ما كثر عددها في وجهنا ، كان ذلك في مصلحة الجيش المصري، الذي يفتح أمامه مجال واسع للقيام بعملية انقاذ المحصورين » . وبدا لي أن وزير الحربية اقتنع بفكرتي ، اذ وعدني انه بعد ان يتصل بجلالة الملك يتلفن لي . وانتظرت ، ولكن لم أتلق نداء ولا جواباً . ولعل مرد ذلك الى أن مراجع عالية لم تقبل بالفكرة .

* * *

المفتش العام يفقد اتزانه

بقيت انتظر أخباراً عن صحة أمين الجامعة ، الذي مرضت الجامعة كلها لمرضه... وقرر العقيد الهندي العودة الى دمشق . وفي مساء ٢٤ تشرين الثاني ، دعيت لمقابلة الأمين العام في الفيوم ، وعلمت من السائق انه جاء بالعقيد الهندي قبل يومين فقط ، الى الفيوم لمقابلة عزام باشا فبهت ... أكان هناك أمور تدبر من وراء ظهري ؟ لماذا ؟.

دخلت على السيد عزام في الفندق ، فإذا هو في فراشه وعنده السيد أحمد الشقيري ، وكان عائداً من باريس ، حيث عقدت دورة هيئة الأمم المتحدة يوم ذاك . وهو يقص على أمين الجامعة قصة العرب هناك . وخلاصة ماسمعته ، ان موقف المندوبين العرب كان يغلب عليه الاستعطاف والذل ، يقابله شيء من الاستخفاف من هيئة الأمم المتحدة ، وان موقف اليهود كان موقفاً يتسم بالعنجهية والشماتة .

فقلت: « كان في استطاعتنا ان لاينتهي بنا الحال الى هذا. فنحن أكثر عدداً من اليهود وأوفر قوة وشجاعة، ولو قام كل منا بواجبه في جد وإخلاص وأدى كل فريق قسطه المترتب عليه ضريبة للوطن لكانت الحال غير ماترى . ومع ذلك فأنا أعتقد إننا لانزال قادرين على تدارك مافات إذا كنتم تريدون » . وسألني عن حالة جيش

الإنقاذ فوصفت له حالته بإيجاز ، وقلت له : « إنكم إذا وفرتم لهذا الجيش كل احتياجاته من سلاح وعتاد وتجهيزات ، فهو يستطيع أن يعدل الموقف » . قال : « هو في حد قاتل غيركم ... انتم والجيش المصري كمان ... دوليك مش عاوزين يقاتلوا .... » . ثم أبدى رأيه بصدد القتال في حديث طويل ، ملخصه انه عازم عزماً أكيداً على تقوية جيش الإنقاذ وإبلاغ عدده إلى عشرة آلاف مقاتل، وتجنيد شبان فلسطينيين يقاتلون معنا، وانه سيزودنا بكل ما تحتاج اليه الجيوش من معدات، وانه تكلم بهذا الصدد مع نمازي بك ، ثم طلب مني أن أجتمع بنمازي بك لهذا الغرض . وعدت الى القاهرة . وفي أثناء عودتي شغلت بهذه المتناقضات، فبينما تلح اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية في طلب تسريح جيش الإنقاذ، بحجة ضعف الجامعة المادي وعجز ميزانيتها ، يقول عزام أمين هذه الجامعة هذا القول ... وأطلعت نمازي بك مادار من حديث بين السيد عزام وبيني . قال : « نعم ، كنا اتفقنا مع السيد عزام على شيء من هذا أما العدد فلا يمكن ابلاغه الى ١٠ آلاف وقد نستطيع أن نجعله أربعة آلاف أو ٤٥٠٠ ». فقلت مستغرباً : « ولكن العميد طه الهاشمي يزعم ان الجامعة توقفت عن تموين هذا الجيش عجزاً ، ويلح في طلب تسريحه . وقد بدأنا فعلاً بالتسريح ، على ان يبقى قسم يرتبط بالجيش السوري ، وتدفع الحكومة السورية نفقاته مما يستحق عليها للجامعة ، ولم تدفعه ». فقال : « ان أحداً لم يبلغ طه باشا توقف الجامعة عن الدفع ولا ضرورة تسريح جيش الإنقاذ أو إنقاص عدده ، ثم ربطه بالجيش السوري» . وقلت : «أتريد أن أبرق بالتوقف عن التسريح ، وأن في نية الجامعة زيادة عدد جيش الإنقاذ؟» . وأرسلت برقية بواسطة المفوضية السورية وبشيفرتها ، وخالجني شعور بالاطمئنان الى أن الجماعة جادون في الأمر . وقدمت الى نمازي بك لائحة باحتياجات الجيش المستعجلة فوعدني بتأمينها بأسرع مايمكن.

وعدت الى بيروت في ٢٨ تشرين الثاني ، وذهبت الى وزارة الدفاع اللبنانية حيث قابلت الجنرال شهاب والعقيد سالم وأطلعتهما على مادار بيني وبين السيد عزام ونمازي بك من حديث . وبعد دقائق وصل الهاشمي والهندي ، وحضر الاجتماع المقدم شقير ، وأعدت عليهم حديث السيد عبد الرحمن عزام ونمازي بك، فبدا على العميد طه الهاشمي شيء من الغيظ وقال : « هذا لايمكن . يجب

ان تتم عملية التسريح » . وجرت بيني وبينه مناقشة حادة، وقلت له : « ان أمين الجامعة يقول غير ما تقوله أنت ، فأحب أن أعلم من هو مرجع جيش الإنقاذ أنت أم عزام والجامعة ... » . وانفض الاجتماع وراح كل منا الى شانه .

* * *

المؤامرة الحقيرة – والنهاية المحزنة

بعد الاجتماع ذهبت الى دمشق لاطلع رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة ، على ماجرى معي ، فإذا دمشق تضطرب بمظاهرات عنيفة أدت الى سقوط حكومة السيد جميل مردم ، التي كانت أمرت باطلاق النار على المتظاهرين، وأكثرهم من الطلاب . وكان الرئيس في شغل عن فلسطين ، بمعالجة الشؤون المحلية ، فلم أتمكن من مقابلته إلا بعد أربعة أيام من وصولي الى دمشق. وفي هذه الفترة اجتمعت بالعقيد محمود الهندي ، فقال لي : « ان عزام كان صادقاً في كلامه معك .. كما كان طه الهاشمي صادقاً ، حينما قال لك ان لديه أمراً بالتسريح . وإليك الحكاية : كلف رئيس الوزارة السيد جميل مردم بالاتفاق مع رئيس الجمهورية ، السيد زهير القباني ، ممثل سورية في جامعة الدول العربية ، حمل أوراق الى أمين الجامعة السيد عزام ليوقعها . وكان بين هذه الأوراق الورقة التي تحمل الأمر بتسريح جيش الإنقاذ، والإبقاء على لواء منه ، يقوده ضابط من الجيش السوري ، ويرتبط بقيادة هذا الجيش . وقدم القباني الأوراق الى أمين الجامعة وهو مريض وفي الفراش، وكان يقرأ عليه كل ورقة ثم يقدمها إليه للتوقيع فيوقعها . وقرأ له فيما قرأ ، ورقة وقدم اليه غيرها ، فكانت الورقة التي تحمل أمر التسريح، فوقعها وهو يحسب انه وقع الورقة التي قرأت عليه ...

على هذا النمط ، دبروا أمر البرقية ، التي زعموا فيها ، أن أمين الجامعة يستدعيني الى مصر ، ولم يكن إلا بسبب التخوف الذي شرحه لي العقيد الهندي، الظاهر انه كان ملازماً نفوس هؤلاء الجماعة، منذ زمن بعيد ، ولعله لايزال يلازمهم أو يلازم بعضهم حتى الآن ، لخوف من عملية انقلاب أقوم بها في دمشق كما ترامى لهم . وقد شعرت بهذا الأمر بعد أن أصبحت موضع مراقبة شديدة ، مما اضطرني الى التصريح في مجالس خاصة وعامة ، وفي مراجع رسمية ، ان القيام

بثورات وانقلابات ، أمر يدخل في صميم اختصاصي ، ولكنني لن أفكر فيه أبداً ، وبلادي يهددها خطر خارجي .

بعد مرور حين من الدهر قصير على هذه الحوادث ، أخذت تدور على ألسنة الناس ، في المجالس الخاصة والعامة ، الرسمية والشعبية ، إشاعة تصميم العرب على استئناف القتال ، مما أثار في بعض النفوس عواطف الحماس والإستبشار والأمل . وفي هذه الفترة نفسها يفاجأ العرب بطلب مصر الهدنة الدائمة ، وعقدها في رودس ... ورأت الحكومات العربية في عمل مصر بابا للفرج ، فأخذت تتهافت — لعل ذلك خوفاً من هجوم اليهود على إحدى الحكومات — تهافتاً مزرياً على عقد الهدنة ، كل واحدة منفردة عن الأخرى ...

وكان التوقيع على هذه الهدنة كأنما هو وثيقة ناطقة ، ان « اسرائيل » قامت واقعياً وشرعياً والى ... كلا . ليس إلى الأبد .

وهكذا انتهت مأساة فلسطين ، التي مثلتها في فلسطين ، الحكومات العربية إذ دخلت إليها ممثلة مستهترة ، وخرجت منها واهمة مذعورة ....

خاتمة وتحذير *

ان في طبيعة الحوادث المتعلقة بفلسطين ، مايدل المتبصر ، على أن الإنكليز والأميركان كانوا مقررين معاً ، منذ زمن بعيد ، خلق دولة يهودية في فلسطين. يرمون من وراء ذلك الى أمور كثيرة، منها ، حرمان العرب من هذا الساحل الطويل للبحر المتوسط، وانشاء حاجز قوي بين الدول العربية في آسيا من جهة، وبين مصر وأفريقيا الشمالية من جهة أخرى ، ليحولوا دون انشاء دولة عربية متحدة في آسيا وأفريقيا، اذا ما حاول العرب ذلك في المستقبل القريب أو البعيد .

ووراء هذا الحاجز يستطيع الإنجليز إنشاء مواقع استراتيجية ، من البحر المتوسط الى البحر الأحمر (العقبة)، فيضمنون بذلك سلامة قناة السويس من ناحيتين سلامة تامة. وتصبح مواصلاتهم بين فلسطين وشرق الأردن والعراق، مضمونة ضمانة تامة، بما يتيسر لهم من مراقبتها وحمايتها مباشرة . وهذه القواعد الاستراتيجية ، تسهل لبريطانيا وللولايات المتحدة ، القيام بكل التدابير، واتخاذ كل الاحتياطات العسكرية، لدفع أي خطر قد يهددهم من الشرق. وستكون « الدولة اليهودية » أداة تهديد بين أيدي اميركا وبريطانيا تحلان مشاكلهما بواسطتها على حساب العرب. ولتنفيذ هذه الفكرة ، يجب — طبعاً — ان يهيئوا الجو الملائم من مختلف النواحي . فأثيرت الحرب في فلسطين ، وكان من الضروري جداً أن يحولوا بين العرب وبين التسلح، وأن يزرعوا الشقاق بين الدول العربية، وأن يعاونوا اليهود بمختلف الوسائل ليربحوا الحرب ، — وقد فعلوا بلباقة واتقان — ، حتى إذا ما انتهت الحرب بكارثة تقع في العرب ، أصبح المجال واسعاً ليفرض الأنجلو اميركان

* — الحق القاوقجي هذه الخاتمة بالقسم الأخير من مذكراته الذي كتبه ١٩٥٠.

سياستهم المقررة، دون ان يستطيع العرب ان يوجهوا إليهم أي لوم أو أن يتهموهم أية تهمة !!.. وهكذا كان الإنكليز والأميركان يرغبون في أن يدخل العرب الحرب ليخسروها ... ما اعتقده حقيقة واقعة.

ولو كان الإنكليز يكرهون فعلاً وقوع حرب في فلسطين ، لاستطاعوا ان يمنعوا وقوعها ، وذلك بأن يقولوا للعرب ان الأمم المتحدة ، لا تريد أن تقع في فلسطين حرب، لان ذلك يهدد السلم العالمي ، الحريصة عليه هذه الأمم ، وإذا أبيتم أيها العرب إلا الحرب ، فنحن ضدكم نمنعكم من ذلك بالقوة . وكان ذلك كافياً منع الحرب ، واقناع هؤلاء الرؤساء ، ان مشكلة فلسطين ستحل في مصلحة العرب بطرق سلمية ، سواء أكان ذلك صدقاً أم كذباً . ولكن الإنكليز لم يفعلو ذلك ، ولم يتخذوا موقفاً جازماً من هذه القضية ، فأخذ العرب يترجحون ، وأخذ اليهود يتسلحون ، فما أن أتم اليهود استعدادهم للحرب، حتى رأى العرب نفوسهم منزلقين الى الحرب ، وعندئذ شعروا انهم خدعوا ، فراحوا يبذلون الجهود ليتسلحوا، ووقف من وقف منهم في وجه العدو، بشجاعة وعزم . فلما رأى الاميركان والإنكليز – رغم كل ما دبَّروا – ان كفة العرب في القتال راجحة، أخذوا يعملون لفرض هدنة على الفريقين ، لشهر واحد، كان كافياً ليزيد اليهود في تسلحهم ، من مدافع ودبابات وطائرات ، وليستقدموا من مختلف أنحاء أوربا، عدداً كبيراً من المتطوعين بينهم الخبراء والاختصاصيون ، بينما بقي موقف الإنكليز والاميركان من تسلح العرب ، كما كان قبل الهدنة : حظر شحن السلاح الى الشرق الأوسط ، « خوفاً من تهديد السلم العالمي وحرصاً على هذا السلم !! ».

وهكذا خسر العرب الحرب « رسمياً » ضد اليهود ، وخرجوا منها وكأنهم ضد اميركا وانجلترا . وذهبت فلسطين « هدية » الى اليهود ، من الدول العربية أولاً، ثم من الأميركان والإنجليز . ولكن الواقع العالمي والزعم اليهودي ، ان اليهود انتزعوا « حقهم » من العرب انتزاعاً ، غير معتمدين الا على علمهم وقوتهم وشجاعتهم. فمن لنا بمن يكذبهم ؟... منا نحن العرب ، الذين لانزال نتغنى بقدسية فلسطين كلها ، فضلاً عن الأماكن المقدسة فيها ....

أرجو أن لا يكون تفاؤلي سراباً ، حينما أجيب عن هذا السؤال ، ان الشاب

الأبي الحر منا هو الذي سيكذبهم ، يوماً وهو الذي سيعيد الحق الى نصابه، ويرجع بالفريقين ، كل فريق الى مكانه . فلن يخدع العرب مرة أخرى ، سواء أكان الخداع من الخارج أم من الداخل ... فإن في الذي وقع عبراً لهم وعظات...

إننا اليوم أمام حقيقة واقعية مرة ، هي قيام « دولة اسرائيل » في الأراضي المقدسة الفلسطينية . وتعتبر « اسرائيل » هذا الجزء من فلسطين الذي احتلته ، بقوة السلاح ، حقاً شرعياً لها . وفلسطين بالنسبة للعرب هي جزء مقدس من الأراضي العربية التي خلفها لهم الأجداد ، وهو حق شرعي لهم قد اغتصبه الصهيونيون، ويتحتم عليهم استعادته بأي ثمن كان ، يعتبرون بقاء « اسرائيل » فيه خطراً مباشراً على بقية أجزاء الوطن العربي كله.

وقيام هاتين الفكرتين ، يعني انه لابد من حرب تقع بين اليهود والعرب عاجلاً كان أم آجلاً ، ونتيجة هذه الحرب لا تحتاج الى نبوءة، فهي ستكون في مصلحة الفريق الذي يستعد الاستعداد الأكمل ، ويهيء أكثر من خصمه أسباب النصر. ولا يؤثر على نتيجة الحرب ، التفاوت العددي ، فالذي يؤثر هو الفن والعلم والتنظيم وحسن التصرف بالإمكانيات والموارد . ونحن نعيش اليوم * في فترة هي دور الاستعداد ، فينشئ اليهود المصانع والمعامل ، ويجيئون بالخبراء والاختصاصيين من كل صوب ، لترتيب الأمور وتنظيمها ، وإدارة كافة الشؤون إدارة دقيقة بعلم وفن . ويستر اليهود استعدادهم هذا ، بإعلانهم رغبتهم في الصلح مع العرب ، وتأكيدهم نياتهم السلمية للعيش مع العرب « جيرانهم » بسلام ووئام ... والعرب يبتاعون السلاح من الخارج استعداداً لليوم المنتظر ، ولكن هذا السلاح يبقى قليل الجدوى ، مادام ليس وراءه مصانع تمده بما يحتاج من عتاد . ثم ان لكل دولة من هذه الدول العربية سلاحاً يختلف عن سلاح الأخرى ، ولكل جيش ثقافة وتقاليد عسكرية تختلف عن ثقافة وتقاليد الجيش الآخر . هذا عدا النزاع القائم بين كل دولة ودولة. وليس هناك دولة عربية واحدة ، تعنى بمرفقها ومواردها ، عناية مذكورة فتستثمرها استثماراً فنياً منظماً ، يساعدها على إعداد المعدات اللازمة لتأمين الدفاع عن حدودها، وحدود البلاد العربية كافة .

* – أي فترة كتابة المذكرات (١٩٥٠)

اذن لابد للعرب ان هم أرادوا المحافظة على كيانهم وأوطانهم ، من الحرب مع اليهود .

فكيف يستطيع العرب تجنب كارثة جديدة إذا ما وقعت ؟

ان الذي أراه هو : ١- إقامة تحصينات متينة جداً من ساحل البحر الأبيض المتوسط ، على طول اللبنانية الفلسطينية ، فالحدود السورية الفلسطينية ، الى الحدود الأردنية الفلسطينية ، حتى العقبة .

٢- اخلاء القرى العربية كافة ، الواقعة على بعد عشر كيلومترات ، وراء هذا الخط الدفاعي وعلى طوله ، وجعلها منطقة حرام ، تطلق النار من دون انذار على كل من يقترب منها ، وهذا الخط الدفاعي مع خلو جواره من السكان ، يشكل في الوقت نفسه أقوى وأنفع حصار يمكن فرضه على « اسرائيل » .

٣- تأليف جيش عربي من جيوش الحكومات العربية ، يكون بعدده ومعداته كافياً لضمان النصر فيما إذا وقعت الحرب ، وهي ستقع ، له هيئة أركان منتخبة من ضباط أركان الجيوش العربية ، وقيادة واحدة ، لا تتأثر بأي تأثير سياسي ، تحدثه التيارات المتباينة التي يمكن ان تنشأ بين مختلف الحكومات العربية ، أي انه يجب أن تكون القيادة العامة وهيئة أركانها منفصلة انفصالاً تاماً عن سياسة هذه الحكومات ، إلا ما اتصل منها بالسياسة الجماعية المقررة لاسترداد فلسطين .

٤- توحيد السلاح والتدريب والتنظيم .

٥- انشاء مصانع للأسلحة والذخائر ، تضمن تموين الجيش بكل ما يحتاج إليه في الحرب ، ولا تنفع كل التدابير مهما تكن سليمة ، إذا هي لم تتخذ في وقت السلم ، وقبل الحرب بزمن طويل .

ان هذه التدابير تتطلب جهوداً هائلة وأموالاً طائلة ، تستلزم حشد كافة موارد الدول العربية ، في سلمها ، للقيام بها . ووضع الدول العربية بالنسبة الى فلسطين، على شكل خطين : الخط الأول مكون من لبنان وسورية وشرق الأردن، وهو في تماس مباشر مع اليهود ، ويؤلف الجبهة . والخط الثاني مؤلف من مصر واليمن والمملكة السعودية والعراق . فدول الخط الأول أقل نفوساً ، وأضعف مالية من دول

الخط الثاني .

لذلك يتحتم على الدول العربية ، تخصيص الأموال اللازمة حسب مالية كل منها ، لتأمين ميزانية القيادة العامة ، الخاصة بجيش الدفاع . وهذا لن يتم ، إلا إذا أدركت كل دولة واجبها ، وقامت به في ظل من الثقة والصراحة والإخلاص .

ولا يمكن للشعوب العربية أن تطمئن الى مستقبلها إلا إذا قامت بوثبة جديدة، ترتكز على عقلية جديدة وتعمل بأساليب جديدة ، لتأمين وحدة قوية ، قادرة على مجابهة الأخطار الكثيرة التي تهدد كيانها وبقائها .

الملاحق

وثائق وصور

الأوسمة الألمانية التي حصل عليها القاوقجي خلال الحرب العالمية الأولى وموقعة باسم الجنرال ليمان فون ساندرز.



Im Namen Seiner Majestät
des Deutschen Kaisers
und Königs von Preussen
verleihe ich hierdurch in Anerkennung
hervorragender Leistungen dem

das Eiserne Kreuz Klasse.

Der Oberbefehlshaber
Liman v. Sanders
Kaiserlich-Osmanischer Marschall.

HEERESGRUPPENKOMMANDO F

Liman v. Sanders

Lfd. Nr. 221

Urkunde.

Im Namen Seiner Majestät des Königs von Preußen ist dem Oberleutnant Fosi Bey Adjutant d. Kavallerie-Rgts. V. Armee die Krieger-Verdienst-Medaille verliehen worden.

Armee-Oberkommando der 5. Osm. Armee, den 27. April 1917.



Liman v. Sanders.

كتاب فون لايزر (قائد تشكيلات الخيالة الخاصة في جبهة سيناء) خلال الحرب العالمية الأولى يشهد بمؤهلات فوزي القاوقجي خلال فترة العمل معه بين ١٩١٦/٣/١ - ١٩١٧/٥/١٢

(النص بالتركية ومرفق به ترجمة باللغة العربية)

[illegible]

v. Keyser

شام ١٨ / ٥ / ١٧

[illegible]

شام ١٨ / ٥ / ١٧

إن الملازم الأول فوزي بك قد خدم في معيَّتي بصفته مرافقاً ومعاوناً من ١٦/٣/١ إلى ١٧/٥/١٢ . وإني أشهد بأنه قدم لبلاده خدمات جلى خلال هذه المدة بما أبرزه من النشاط والخبرة الخارقتين للعادة . وأن فوزي أظهر في كل

وظيفة استخدم فيها قدره كاختصاصي . وقد وفى الواجبات المعهودة إليه بإخلاص واندفاع ذاته فوق المطلوب .

وهو مفطور على التشبث الشخصي والذكاء الزائد وسرعة الإدراك وإدارة المعاشرة . وقد أتقن اللغة الألمانية في ظرف بضعة أشهر مما أثار حيرتنا وإعجاب الجميع . وإني والفت عله وافتخار وشرف قواد المستقبل إلى هذا الشاب الخيالي البالغ من العمر الثالثة والعشرين وإنه سوف يكون عضواً نافعاً له شانه في السلطة العثمانية . وإني اعتماداً على خدماته الممتازة التي كنت أشاهدها منه قد أنهيت له وسام النسر الأحمر مع ضم سنتين إلى قدمه وانه رغما عن حسن معاملته ومعاشرته قد تكون له خصوم الذين سببوا له من الأذى أكثر مما يستحقه من الإكرام . وإنه لمن سوء حظه أن يكون في معيته قائد ألماني . وقد اختلقوا عليه من الافتراءات والاتهامات الكبيرة ما اوقعه مرتين في ديوان الحرب العرفي . ولكن فوزي تمكن من الدفاع لإظهار طهارة وجدانه وشرفه بمتانة وثبات مما أدى إلى تبرئته وجعل خصومه يحنون رؤوسهم بخجل إلى الأبد .

إن فوزي بك فارس لا يخشى المسئولية قطعاً . وهي الخصلة الوحيدة التي اعطت الفرصة لخصومه للإيقاع به .

وإني أعترف بأنه يتعذر على أي قائد ألماني أن يجد له مرافقاً ومعاوناً ألمانياً في ألمانيا كفوزي .

وإني أخاطب قواد المستقبل بشرفي بأن هذا الشاب الفارس أهل للإستخدام في أخطر وأرفع الخدمات . هو الذي يعتبر واجبه كشرفه لذلك أجد نفسي مفتخراً بأن أعرض بأن إسناد مثل هذه الواجبات إليه يتمكن من استمرار النفع العظيم إلى بلاده .

آمر خطوط المنازل في جبهة سيناء
وقائد التشكيلات الخيالة الخاصة في الدولة الألمانية
فون لايزر

البطاقة الشخصية لفوزي القاوقجي بصفته أحد أفراد الجيش العربي برتبة خيالة خلال عهد حكومة فيصل ١٩٢٠

«٢»

الصنف	خيالة
الرتبة	
اسمه وشهرته	السيد فوزي
اسم ابيه	
ولايته	بيروت
محل ولادته	طرابلس الشام
تاريخ ولادته	
مذهبه	اسلام
جنسيته	عربي
من اي مدرسة خرج	
متأهل ام لا	
مقدار نفوس عائلته	
رقم سجله التركي	
رقم سجله العربي	



عدد من الكتب الفرنسية التي تشهد بكفاءة فوزي القاوقجي حين كان آمراً لسرية الخيالة في حماه ١٩٢١ -١٩٢٢

ARMEE FRANCAISE DU LEVANT
3° DIVISION
GROUPEMENT HOMS - HAMA
ETAT - MAJOR
N° 147

N° 1289

HAMA, le 19 Juillet 1921.

ORDRE DU GROUPEMENT HOMS - HAMA N° I

-:-:-:-:-:-:-:-:-:-

Le Lieutenant-Colonel QUIRIN Commandant le Groupement HOMS - HAMA est heureux de porter à la connaissance des Corps et Services du Groupement HOMS-HAMA qu'il a reçu le 16 Juillet du Général Commandant en Chef le télégramme suivant :

N° 90/K. - Général Cdt en Chef à Colonel QUIRIN à HAMA.

" J'apprends avec plaisir la nouvelle de l'échec infligé par l'Escadron FUZY à IBRAHIM HANANO, au Nord-Est de HAMA. Vous prie transmettre à cette unité, dont j'ai à plusieurs reprises hautement apprécié les services et au Chef de valeur qui les commande toutes mes félicitations ".

Signé : G O U R A U D.

Le Lieut.-Colonel QUIRIN Commandant le Groupement HOMS - HAMA.

Quirin

DESTINATAIRES :

Dét. aviation Hama	Cie I/35 [illegible]
II° Spahis	Méd. Chef Place Hama
[illegible] Esc. I° R.C.A.	Gérant d'annexe Subs.
[illegible] R.T.S. HOMS	Major de Garnison
[illegible]/II° RTS. [illegible]	Secteur 609
[illegible]/415° RI. [illegible]	Cie FUZY s/c. 2° Btn Lég. Syr.
Cie Maro. 22° R.T.A.	Cdt d'Armes de HOMS
2° Btn Lég. Syr.	Cons. Administ. HOMS
2° [illegible] 274° RAC. [illegible]	Cons. Administ. HAMA

ARCHIVES

رقم ١٢٨٩

آمر مجموعة قوات حمص وحماه

إن آمر مجموعة قوات حمص وحماه الليوتنان كولونيل كيرين فخور جداً أن

يعلن للوحدات كافة بأنه تلقى في ١٦ تموز البرقية الآتية من الجنرال القائد الأعلى : رقم ٩٠/K .

أرجوك أن تقدم تقديري وتشكراتي إلى الكابتن فوزي قائد (سرية فوزي) لما يبرزه من الصفات والمزايا في كل مناسبة وكل تشكراتي له ولسريته .

الامضـاء

غورو

حماه ١١ كانون الأول ١٩٢٠

رقم ٢٦٥٢/R المقدمة

من الليوتنان كولونيل آمر سنت هيليير آمر الكتيبة السباهية الثانية وقائد موقع حماه إلى الكابتن فوزي آمر السرية السابعة من الفرقة السورية .

إني أقدم إليك تهاني الحارة لما أبرزه فرسان سريتك في الأعمال التدريبية في الميدان .

إن الأعمال الشاقة التي قامت بها فرسانك في مسافة ١٦ كيلو مترا وامتازوا بها على سائر السرايا في الأراضي الوعرة المزلقة التي جعلت من شأنها أن تضعف قدرة الخيل قد أظهرت نشاط وتحمل فرسانها المحاربين.

ولقد شاهدت بصورة خاصة التفوق الذي أحرزتموه على سائر الوحدات التي اشتركت في هذه الأعمال التدريبية .

إني أشكرك باسمي وباسم أعضاء لجنة الحكم.

هيلير

مع التقدير يقدم إلى الكابتن

فوزي المستشار الإداري لسنجق حماه

موربيو

HAUT COMMISSARIAT
DE LA
RÉPUBLIQUE FRANÇAISE
EN
SYRIE ET AU LIBAN

DÉLÉGATION FRANÇAISE DE HAMA

SANDJAK DE HAMA

№ 2652/R

HAMA, le 11 Decembre 1921

Le Lieutenant Colonel de Saint HILLIER, Cdt. le 11e. Spahis et Cdt. d'Armes de la Place de HAMA, Président du Comité des Courses

à Monsieur le Capitaine FOUZY Commandant le Peloton monté de la 7e. Cie. Mixte de la Légion Syrienne

HAMA

Je tiens à vous féliciter de la façon dont se sont présentés les cavaliers syriens de votre Escadron sur le champ de courses.

Le dur parcours de 16 000 mètres qu'ils ont accompli, rendu plus pénible par le terrain détrempé et glissant a mis en valeur la qualité des chevaux, l'énergie et l'endurance de ces éléments guerriers.

J'apprécie tout particulièrement le concours que vous avez apporté au Comité dans l'organisation de cette réunion et je vous remercie en mon nom personnel et pour les membres de ce Comité.

S. Hillier

Transmis à l'intéressé
Hama le 12 décembre 1921
Le Conseiller administratif
du Sandjak de Hama

[signature]

دمشق ١١ مارس ١٩٢٢

رقم ١٢٠/C

من اللوتنان كولونيل كاترو المندوب الممتاز المفوض السامي لدى حكومة

دمشق إلى الكابتن فوزي آمر السرية الأولى من الكتيبة الخيالة من الفرقة السورية حماه .

إنه في الوقت الذي تحل فيه وحدات الخيالة السورية كافة لعدم كفاءتها تثبت السرية الخيالة التي شكلت باسمكم والتي هي تحت قيادتكم . وإني في الوقت نفسه أتقدم بالإعراب عن امتناني وتقديري الذين أوحتهما إليّ أعمال سريتكم القيمة والمتفوقة .

ويكفيك أن تسمى السرية خلافاً للمألوف [بسرية فوزي] لتعرف ما تتمتع به من الثقة والتقدير والرجحان سواء في خدماتها السلمية والحربية .

وإني وأنا أقدم لك التهاني والشكر بما أحرزته من التوفيق حتى اليوم أقدم لك تمنياتي بدوام هذا التوفيق والفوز في المستقبل .

كاترو

وثائق في حزيران ١٩٢٦ تبين اسناد وظيفة القيادة العامة لجيش الغوطة وسائر جهات الشمال إلى فوزي القاوقجي.

حضرة القائد العام لجيش الغوطة وسائر جهات الشمال فوزي بك القاوقجي

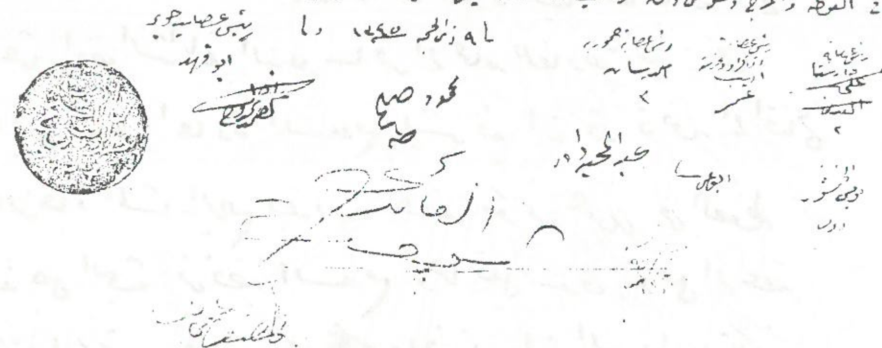
المحترم.

نظراً لما ورد في الاجتماع الواقع في ٢٢ حزيران ٩٢٦ لعدم انعقاد المجلس جلسة فوق العادة ونظراً لحراجة الموقف ولتقديم رئيس المجلس استقالة من رئاسته قد اقترح بعض الأعضاء أن تسند وظيفة القيادة العامة لجيش الغوطة وسائر جهات الشمال إلى حضرتكم وأن يكل المجلس ويعطيكم أيضاً [illegible] جميع الأشغال وإدارة كل الصلاحيات التي كانت له وبما أن هذا الاقتراح المذكور قد قبل باتفاق آراء أعضاء المجلس الذي أصبح بعد صدور قرار [illegible] الجلسة المذكورة تبلغ كل من حضرتكم والقائد العام لجيش الغوطة وسائر جهات الشمال السابق مصطفى وصفي بك والقيادة العليا للثورة السورية [illegible] بالقرار الآنف الذكر فإننا نبلغكم قرار تعيينكم قائداً عاماً للجهات المذكورة مع القيام بإدارة الأمور الإدارية التي كانت مودوعة إلى المجلس كما ذكر [illegible] بالعمل بسرعة كما تقتضيه حراجة الموقف الحالي [illegible] ولنا وطيد الأمل بأنكم [illegible] لما فيه الخير للأمة والوطن ودمتم محترمين.

٢٤ حزيران ٩٢٦

رئيس الجمعية الوطنية للغوطة وسائر جهات الشمال

بسم الله الرحمن الرحيم



نحن الموقعين هذه المضبطة زعماء ورؤساء عصابات الغوطة [illegible] انه بالنظر لحراجة الحالة الحاضرة [illegible] القيادة العامة الكبرى للثورة السورية قد قررنا الغاء التشكيلات السابقة واعتبار المجلس الوطني للثورة في الغوطة والمرج وغوطة دمشق والقيادة العامة فيها منحلين وان يشرع بتشكيلات جديدة اعتباراً من هذا التاريخ

٩ ذي الحجة ١٣٤٤

رئيس عصابة جوبر

بسم الله الرحمن الرحيم

نحن موقعي هذه المضبطة ممثلو بلاد الغوطة والمرج وغوطة دمشق قد قررنا بعد الحصول على موافقة القيادة العامة تعيين فوزي بك القاوقجي قائداً عاماً للثورة السورية في الغوطة والمرج وغوطة دمشق وجبل [illegible] على أن يكون له الحق والصلاحية بتنظيم العسكري والإداري عموماً في المنطقة المذكورة وأننا نتعهد بتقديم المعونة اللازمة فيما يعود على المصلحة العامة

٩ ذي الحجة ١٣٤٤

رئيس عصابة جوبر

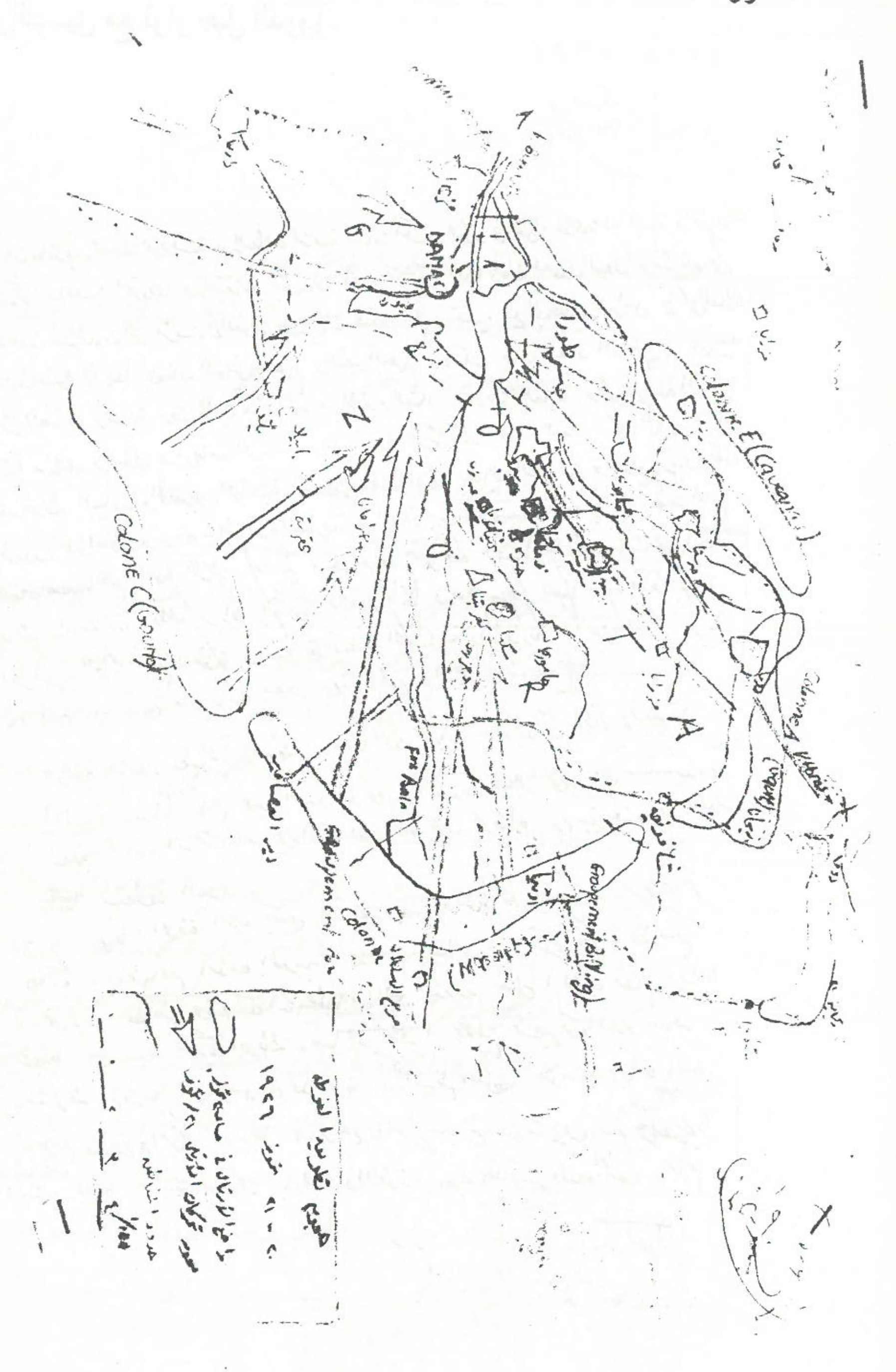
رسالة موجهة من أحد المجاهدين إلى زعماء الثورة في الغوطة ١٥/٧/١٩٢٦ حول خبر المفاوضة مع الإفرنسيين.

الى حضرات زعماء الثورة السورية في الغوطة

سلاماً واحتراماً: نعرض انه قد ورد الينا كتاب من الأخ
عقاب افندي الشايب الذي سافر الى عمان للمفاوضة مع زعماء
الجبل بأمر اعادة السلام يشير فيه انه قد توفق الى اقناع
الزعماء المشار اليهم بضرورة عقد مؤتمر عمومي في الغوطة
لأجل البحث في قضية السلام وعما قليل سوف يتوصل الى عقد
هذا المؤتمر غير ان على ما فهمناه ان السلطة لا تكف
عن الحركات العسكرية ولا تفاوض بشأن هذا المؤتمر قبل
ان ترى من ثوار الغوطة الهدوء اللازم والدال على ميلهم
لحب السلام فلذلك اضطررنا على الاجتماع مع ذواتكم
او ثلاثة ممن تنتخبوهم للمفاوضة ملياً معهم بهذا الشأن
ونرى من الموافق الآن ان يكون ذلك الاجتماع في دار
منطقة في نوحي الاكراد تعينوها حضراتكم مع الوقت الذي ترونه
مناسباً على ان يكون ذلك في القريب العاجل حتى اذا امكن غداً
وان تخبرونا ذلك في الوقت المناسب وفي الختام تفضلوا بقبول الاحترام

١٥ تموز ٩٢٦

خريطة توضح هجوم تطويق الغوطة وضعها فوزي القاوقجي في ٢٠ - ٢١ تموز ١٩٢٦



بلاغ موجه من قبل فوزي القاوقجي في ٢٧/٧/١٩٢٦ بعد أن تسلم قيادة الثورة السورية إلى الثوار في منطقة الغوطة طالباً الاستمرار بالحركات الثورية والتنسيق مع ثوار جبل الدروز.

من الغوطة
٢٧ تموز ١٩٢٦

ان ما تذيعه السلطة الافرنسية من البلاغات الرسمية بشأن انكسار الثوار في الغوطة لا صحة له البتة وانتم تدركون ما هي عليه لتجردها عن الحقيقة، ويمكننا ان نصرح لكم كما اعلنا ذلك لمعتمدي الدول ونشرناه في الصحف، ان الحملات التي خرجت الى الغوطة من جهات مختلفة لم تتغلب على المجاهدين البواسل في كل المعارك التي خاضوا غمارها بل كان التوفيق حليفهم والنصر اليفهم وبالعكس فان العدو الغاشم لم يكن نصيبه الا الفشل والخيبة وقد كانت خسائره من الجند والعتاد فادحة للغاية ولم يغنم منه الثوار اكثر من الخيل والبغال والرهائن الحربية. وان خسائرنا لا تذكر بجانب العدو وكلما تمكن من فعله هو حرقه البيادر والمحصولات الزراعية وهدم بعض المنازل بقنابل الطيارات والمدافع ...

الحملات المتواصلة وحرقه سائر قراه المتفرقة ... [illegible]

[illegible]

كتاب من اللجنة السورية الوطنية بدمشق تطلب من فوزي القاوقجي تلبية زعماء جبل الزاوية بمد نطاق الثورة السورية إلى الشمال

١٤/٨/١٩٢٦

٤ ايلول سنة ١٩٢٦ [illegible]

حضرة المجاهد الكبير قائد الغوطة فوزي بك القاوقجي المحترم

اهدي لحضرتكم التحية ... راجين من الله تعالى ان يؤيدكم ويعضدكم انه سميع مجيب. وبعد اخذنا تحريراً من الاخوان زعماء جبل الزاوية الذين حضروا منذ مدة ووعدناهم بتأسيس القيادة التي جاءوا من اجلها وحل لهذه الامر بغاية الدقة وعليه يتوقف نجاح المشروع العام بصورة باهرة. ولما كان الوقت يستلزم الاسراع وجميع الزعماء والاهالي هناك على احر من الجمر بانتظار تشريفكم وهم متعطشون وعلى استعداد تام بجميع ما يلزم من المعاونات المالية والمساعدات الشخصية للاندفاع في سبيل الوطن فانهم يستغربون تأخركم عنهم بالحضور خصوصاً وان اعتقادهم باخلاصكم للقضية وشجاعتكم وغيرتكم المشهورة وقد يسلبوا اخيراً منذ مدة آخر ... عزمهم ويؤكدوا امالهم من حضوركم ويتشائمون من التأخير فيهم ونحن ايضاً نرجو لكم ان هذا الوطن العزيز والوطنية الصادقة التي تتجلى بكم والدم الطاهر والارواح والضحايا التي ذهبت في سبيلها ان تسرعوا للقيام بهذا الامر المهم فانهم بانتظاركم باسرع ما يمكن وتجدوا ... المكتوب الواصل اخيراً من الزعماء المذكورين نسأل الله تعالى توفيقكم وتسديد اعمالكم وتقبلوا فائق احترامنا ودمتم

اللجنة السورية الوطنية
بدمشق

رسالة وجهها الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ونسيب البكري من الأزرق في ٥ / ١٠ / ١٩٢٦ بشأن تنظيم الثورة السورية تحت قيادة القاوقجي.

رقم ٢٩

كتاب من الدكتور شهبندر ونسيب البكري لتنظيم الغوطة

الأزرق ٥تشرين الأول سنة١٩٢٦

حضرة الأخ القائد المحنك فوزي بك لاعدمتك :

أهديك أزكى سلامي وأوفر تحياتي وأشواقي وبعد فقد تناولت رسالتك وقرأت مافيها من الأخبار الجذابة فشكرت لك عنايتك وحمدت روح الإخلاص البادية في كل كلمة من كلامها ويجدر بي أن أشير هنا إلى ماسمعته عن أعمالك من الأخبار التي كانت مدعاة سرورنا جميعاً فنهنيك من صميم الفؤاد على همتك الشمّاء .

بدأت ثورتنا تدخل في دورٍ من النظام بديع ولنا من الثقة أن لا تمضي أيّام إلاّ والأمور تجري في مجاريها الطبيعية والثقة تعود إلى النفوس بعدما كاد يفقدها الفرص ويمزقها التحزب وإننا إذا لم نضع الوطن فوق كل اعتبار وندع الغرض وراء الظهر فالموقف حرج لا يتحمل التنابذ والتحاسد والمصالح الشخصية ومن ادعى دواع السرور أن أبلغكم أننا بالاتفاق مع سعادة الأخ سلطان باشا قد قررنا خطة للسير على القاعدة الآتية :

١ـ تأليف لجنة للثورة تدعى اللجنة العليا وظيفتها الإشراف العام على الشؤون ومسك المسائل السياسية والمالية والإدراية بيد من حديد وهذه اللجنة مؤلفة من ذوات مختلفي الأحزاب والمذاهب والتباع وعددهم يتجاوز العشرة .

٢ـ لجنة إضافية تضم إلى المجلس الإسلامي الأعلى تمثل المناطق ولا تنتمي إلى حزبية خاصة ووظيفتها أنها بالاشتراك مع المجلس المومى إليه تقدم المال الذي يرد إعانة إلى اللجنة العليا وهكذا تصبح وظيفتها الاستئمان و (الترانسيت) فقط .

إن الأعمال على هذين الأساسين ستسير سيراً حسناً ومن المنشطات أن تكون

الباكورة فتح جبهة حوران على مصراعيها فإن صادق بك مع رجاله تقدموا إلى الزوية فانضم إليهم القائمقام فارس بك فياض والجنود الدركيين وقاموا بثورة عامة لم تبقِ ولم تذر ثم توجهت مفرزة أخرى من المتطوعين إلى حوران فانضم إليها قسم عظيم من الثوار فأغاروا على خربة الغزالة وهدموا المطير واتلفوا عدداً من الطيارات والسيارات المصفحة وهدموا جسر عرار بين الخربة وبين درعا .

إننا اليوم متوجهون إلى جهات عمّان لمسك الأمور بيد حازمة وغداً أو بعد غدٍ يتوجه إلى جهاتهم المجاهدون وزعماؤهم من أهل الغوطة والشمال لفتح جهة الشام مرة أخرى وغني عن البيان أن مثل هذا العمل سيفت في عضد فرانسة ويلقي بدعاويها الفارغة إلى اليم ويجعل بلاغاتها أحقر من بلاغات مسيلمة والأسود العنسي ونحن قانعون أن مشطاً واحداً من الخرطوش يطلق على أبواب دمشق يكون أخطر في السياسة العالمية من مئة مدفع برتا تطلق في وعور الجبل وسهوله البعيدة عن العراق فإلى هناك وجهة إخوانك القادمين إليك ليضعوا يدهم بيدك فما بتنفيذ هذا الأمر ونحن لسنا بعيدين عنكم إلا للقيام بمايتطلب منا من الشؤون في الوقت الحاضر وقد نضطر أو يضطر أحدنا إلى السفر بعيداً لإتمام بعض الخدم الأساسية لهذه النهضة .

الجرائد مجمعة على خطورة الأحوال في حلب وضواحيها ونجيب عويد وعز البيطار ورجال جبل الزاوية يعملون بهمة لا تعرف الكلل فإذا وقفتم مع رفقائكم إلى وضع أسس إحياء الغوطة والمباشرة بتنفيذها بصورة عملية منظمة يمكنكم حينئذٍ الإلتفات إلى شؤون الشمال وقد نعمل هنا لتسفير الأخ زكي بك الحلبي بطريق مرسين لتأدية هذه الخدمة موقتا عنكم وعلى كل حالٍ ارتبطوا ارتباطاً وثيقاً مع إخوانكم في دمشق واجعلوا مخابرتنا معكم بواسطتهم لأن هذا هو السبيل المضمون . التحزب الأعمى والمصالح الشخصية كادت تقضي على القضية ولكن دخول أناس في العمل للعمل بصورة نافذة ستعالج الحالة علاجاً ناجحاً وأول واجب يتحتم علينا اتباعه هوإقناع علماء الاجتماع والأتنولوجيين بأن العرب عموماً والسوريين خصوصاً قد تابوا إلى المولى وأنابوا عن عار التفسخ ووصمة الإنشقاق وقد أصبح من الميسور عليهم التعاون . وهذا التكذيب لا يتم إلا بالأناة والصبر

وضرب المفسدين على أفواههم وإعطاء كل ذي حق حقه من المزايا وغض الطرف عن صغائر الأمور لأن الذي يهمنا في الرجال هي الشكائم العظمى لا الهفوات الصغيرة المغرضون والمتحزبون والمحربون وأرباب المنافع الدينية يضعون الهفوات الصغيرة قبل أن ينظروا إلى الشكائم والفضائل فلتعمل دائماً بجد وإخلاص لإعطاء كل ذي حق حقه و﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ سلامنا واحترامنا للإخوان جميعاً ودمتم لإخوانكم الذين يحترمون فيكم النبل والشجاعة .

التوقيع الشهبندر

أخي حبيب الروح السيد فوزي المجاهد البطل الحر حفظه الله

أهديك تحياتي القلبية وأشواقي الودية وبعد من قرائتكم لكتاب حضرة الأخ الأستاذ الفاضل الدكتور شهبندر تعرفون أن الثورة دخلت منذ الآن في طور جديد منظم، الأمر الذي كنتم من أول المنادين به بوجوب عمله منذ وطات قدماكم أراضي الشام ونحن أمة الذي وفقنا لوضع حد مجدداً للأعمال الفردية والحزبية ويسرنا تنظيم الأمور تنظيماً يكون عوناً على إدامتها وسيرها بحسب سنن الارتقاء والتقدم وإننا وحضرة الأستاذ المشار إليه يداً واحدة في كل الأمور والتنظيمات لذلك كما أفادكم جنابه بان زكي بك إذا ذهب إلى جهة الشمال بعد أن ثارت يكون انفع من تركِكم الغوطة التي تحتاج إلى همتكم الشماء التي أجمعنا جميعاً على تقديرها والإقرار بفضل الجهود التي بذلتموها والثبات الذي تجلى بكل عمل من أعمالكم العز لذلك نرجو أن تبقوا في الغوطة وإنني شخصياً سأكون بجانبكم بعد ما يدور دولاب التنظيم وبدأ العمل بصورة ديموقراطية حرة على أساس العدل ومراعاة جميع مناطق الثورة بحسب وضعيتها الحربية والسياسية وزدنا جميعاً بانتظار أخباركم وآرائكم بأي شأن من الشؤون وإننا قانعون بوجوب قيادتكم للغوطة القيادة بكل معناها الحقيقي واستشارة اللجنة التي تألفت هنا للمشورة والعمل والإشراف وقد أرسلنا لأخوتكم كتابين بعد أن وصلنا إلى الجبل وأرسلت مع أحدهما الطابع الخاص بالمجلس الوطني للغوطة فأرجو أن يكونوا وصلوا هذا وسلامنا الكثير للسيد المجاهد الحر الدكتور أمين رويحة الذي وإن يكن حامل حملة

على كاتب الأحرف لأمور أجهلها ولكن لايمكن أن يسع القلب الذي استوعب محبته شيئاً من الكره والنفره منه ولكنه بعد أن يطلع على ماجرى هنا ومقدار جهودنا التي بذلناها مع حضرة الأستاذ الدكتور شهبندر لتنظيم بل إحياء الثورة من مهدها سيكفيني فخره مؤونة التعتب والتهجم عليه ويرجعه إلى الصواب ويعرف أن نسيباً لا يتحرك ولن يتحرك إلا لخدمة القضية التي لا يفاخر أنه ضحى ما ضحى في سبيلها ولكنه يقول إنه قد قام ببعض واجباته نحو وطنه ويرجو أن يقوم كل شخص من إخواننا السوريين بشيء من هذا القبيل بواجباته ليصبح وطننا في أوج العلاء والرقي مع كل ذلك سلامي على وطنيته وشجاعته وعلى كل أخ مجاهد مخلص وحفظك الله لأخيك المشتاق .

اقبل وجنات الأخ علي بك الذي سمرتهم أشعة الشمس الحارة (آ. آ. آ)

تقرير وضعه فوزي القاوقجي (ربما في مطلع ١٩٢٧) بصفته القائد العام في الغوطة والشمال يستعرض فيه فشل محاولاته مع الزعماء في القدس وعمان واضطراره إلى خوض معارك الغوطة بأعداد ومعدات قليلة

إخواني الكرام

أقدم لحضراتكم تقريري هذا راجياً الانتباه لمحتوياته والاهتمام بموضوعه الذي أعده خطراً لما له من التأثير على وضعية الثورة الحاضرة :

إنني بالرغم من اتفاقي التام على العمل مع رفاقي المجاهدين اللذين أتيت معهم في شهر تشرين ثاني ١٩٢٦ وبالرغم من الاهتمام الزائد الذي صادفته من إخواني اللذين تشرفت بمقابلتهم في عمان والقدس وتأمينهم كل مطالبنا لم أتمكن وياللأسف من أخذ أحداً معي من مجاهدي الغوطة إلى الغوطة وقد صرفت على هؤلاد المجاهدين وزعمائهم في عمان والأزرق من لوازمات عمومية وشخصية وأرزاق وسلاح وعتاد ما يقارب ٨٠٠ ليرة ولما تيقنت أن الدراهم ستصرف كلها في عمان والأزرق بلا فائدة اضطررت أن أجهز من مجاهدي الدروز ، فتحركت لساحة القتال ولم يكن معي من المجاهدين سوى أربعة أشخاص وهؤلاء عندما تغربنا للغوطة أرسلتهم لمبايعة شعير فاستسلموا كاملهم بسلاحهم وبالدراهم الذي معهم للعدو وكانوا سبباً لإجباري على تفريق خيالة الدروز نظراً لفقدان الشعير والدراهم أما الأسباب التي أدت إلى هذا الانقلاب يمكنني أن أحصرها بنقطتين، الأولى حسد بعض الزعماء في عمان والثانية طمع الآخرين والأفراد بنوال المال . وأحب أن يكون تفصيل هذه الحوادث من غيري الذين لا يخفاهم الأمر .

ولما وجدت نفسي منفرداً وفرغت من المال والرجال ولم أتمكن من أي عمل كان يناسب ثقة إخواني الذين اعتمدوني واهتموا بي كل الاهتمام قررت عندها أن أقابل ثقتهم الثمينة بي وأفي بعهودي التي قطعتها على نفسي تجاه بلادي بتقديم حياتي قرباناً للعواطف السامية على أبواب المدينة التي أعشقها كي يبقى تمثالي هناك يتمتع بجمالها التي حرمتني إياه أيادي الاستعمار في حياتي وقد تلقى قراري هذا الدكتور الشهم أمين بك رويحه بمنتهى الابتهاج وكل منا أوصى رفاقه بوصية ثم اتجهنا بسرعة إلى دمشق التي يحرسها العدو بستة خطوط متتابعة .

خلاصة أعمالنا : إن العدو كان متيقظاً كل التيقظ وإن تأخرنا في المقرن الشمالي وارتباطنا مع عربان الحسن وعربان الغياث والدروز الموجودة هناك سبب لانتشار حوادثنا بمبالغة عظيمة حتى أصبح العدو يقدر قوتنا بألف مقاتل . وكان العدو ينتظر هجومنا من شرقي الغوطة لذلك وجه كل اهتمامه لهذه الجهة التي قواها بنقط ثابتة وبمفارز قوية ولكي نجذب قواه من هذه المنطقة ونوجه أنظاره على المنطقة الغربية قمنا بحركة استكشافية بسيطة على نقطة البويضة غربي الغوطة وانسحبنا بسرعة زائدة إلى مركزنا ولقد قطعنا بليلة واحدة ٨٠ كيلو متر حتى تمت هذه الحركة وذلك في ١٣/١٢/١٩٢٦ .

وفي ١٧/١٢/١٩٢٦ طلبت من خلف النعير إرسال مفرزة لجوار النبك لتغذي النبك نفسها ففعل وقد تمكنت هذه المفرزة من جلب مواشي النبك ولما خرجت حاميتها لتعقيب هذه المفرزة الخيالة تصادمت معها وارتدت الحامية بخسارة ولم تصاب مفرزتنا بأدنى ضرر فعندها انتبه العدو للشمال ولغربي الغوطة فاستفدنا نحن ونزلنا الغوطه إنما مع الأسف كان وهم الثوار من الغوطة عظيماً لدرجة لم يبقى لأحد منهم جرئة ليرافقنا إليها لذلك نزلنا الغوطة ٢٢/١٢/١٩٢٦ ومعي الدكتور رويحه المجاهد الباسل و٦ رجال من الخيالة و١٠ من المشاة الذين وجهناهم إلى النشابية الواقعة في قلب الحرج حيث يقيم مدير ناحية تلك المنطقة وكان لابد لنا نحن الخيالة من اجتياز نقطة عربين وجوبر حتى نصل الجهة التي اخترناها من تحكيمات دمشق لذلك جعلت نفسي قائد متطوعة نقطة فرقة الإفرنسي والدكتور رويحة كترجمان جركسي لي ومثلت وظيفة الدورية فدخلت عربين ومررنا عند الحرس فسئلتهم عما إذا شاهدوا شيئاً وطلبت منهم التيقظ الزائد وبالطبع كنت أتكلم الافرنسية والدكتور رويحه يترجم. بعده تحركنا حتى وصلنا جوبر ثم نقطة جسر تورا فتقربنا منا واجتزناها لجهة دمشق حتى وصلنا بين نقطتي باب توما وجسر تورا عندها بدئنا نطلق عليها نيراننا بشدة زائدة من مسافة ٢٠ متر فقتلت الخفراء وفر القسم الأعظم من رجالها لأنهم أخذوا بغفلة من نيراننا وأنجدتهم النقط المجاورة بإطلاق نيرانهم لجهتنا فدام القتال مقدار ساعة ولو لم تأتي النجدات من جوبر وباب توما لكنا قضينا على جميع أفراد هذه النقطة ثم تراجعنا من حيث أتينا فمررنا من عربين وقمنا بتمثيل روايتنا الأولى مع خفرائها وقد القينا القبض على أربعة منهم

ولو لم تداركنا مصفحات العدو لكنا جردنا جميع الحرس من أسلحتهم . أما المشاة اللذين أرسلتهم إلى النشابية تمكنوا للتقرب منها حيث قذفوا نيرانهم على مخفرها وقد كانت خسارة العدو في النشابية ٧ بين قتيل وجريح و٢٧ بمعركة جسر تورا ولم يصب أحدنا بضررٍ ما .

في ٢٧/١٢/١٩٢٦ أرسلنا مفرزة أخرى إلى النبك بقصد التعرف على النقطة الإفرنسية وأخذ المواشي فأخذت المواشي وضربت النقطة بعدها خرجت الحامية والدرك للتعقيب ومعهم قسماً من أهالي النبك وبعد مصادمة قصيرة طردت الجنود بعد أن خسرت ٣ قتلى وأما خسارتنا فكانت شهيد من العربان وقد استفدنا من تقدمنا هذا إلى الشمال وأرسلنا ارتباطاً إلى حمص وحماه وحلب فأتانا الجواب عن طريق دمشق أن إبراهيم هنانو يستعد وأن مفيد بك الأتاسي متهيء للعمل عند تقربنا إلى تلك الجهات .

في ٢٨/١٢/١٩٢٦ أرسلنا مفرزة من مشاة البدو على طريق بغداد فتصادموا مع سيارة تحميها طيارتين آتية من بغداد فتمكنوا من الاستيلاء على محتوياتها بعد توقيفها دون أن يمس أحداً من الركاب بسوء .

في ٢/١/١٩٢٧ نزلنا الغوطة مرة أخرى بقصد ......وأرسلنا مفرزة صغيرة إلى داخل دمشق وأعملنا لنفسنا الدعاية اللازمة وأعلنا الإعلانات التي تجدوا صورتها في الغوطة ودمشق ثم عدنا بعد أيام بلا حادثة تذكر .

في ١٢/١/١٩٢٧ أرسلنا مفرزة من الهجانة والخيالة لجوار القريتين والفركلوس فأخذوا مواشي القريتين المواليتين للسلطة وتصادموا مع طقم الهجانة الموجود في القريتين وعادوا دون خسارةٍ ما .

تقرير وضعه فوزي القاوقجي . عمان ١٠/٣/١٩٢٧ حول وضعية الثورة وضرورة الإصلاح من أجل تنظيم الثورة وإحيائها .

تنظيم الثورة العسكري

إن وضعية الثورة الحاضرة وحراجة الموقف الحالي والتشتت في أهواء واجتهادات الزعماء والتحزب المضر يدعونا لتقديم أعظم المجهودات في سبيل الإصلاح العملي والحالة تتطلب كل التضحية في الشخصيات والإخلاص التام والحزم الكامل لرد الخطر الذي يهدد حياة الثورة أكثر من تهديد جيوش العدو إليها .

إن التجارب العديدة منذ نشوب الثورة إلى يومنا والاختبارات الدقيقة من مجرى كل المعارك في هذه الثورة دلتنا تماماً أنه لم تشترك كافة الثوار بعددها الكامل في أية معركة كانت وأن الذين كانت على أعمالهم تتعلق نتيجة المعركة لم يتجاوز عددهم الـ ٣٠٠ مقاتل أبداً وفي المعارك الكبيرة كلها كان الفوز تحصل عليه فئة قليلة .

وبما أن الموجود الحاضر للذين يعدون من الثوار يتجاوز الألفين وكل هؤلاء تحت تأثير زعماء مختلفين الأهواء وموجود المال الحاضر لم يكن كافياً لتأمين احتياجهم جميعاً ولم يكونوا كلهم من الصالحين للعمل فالكل غير راض من الحالة وهم في قبضة الزعماء سلاح مضر وغاية ما يمكن الاستفادة منهم هو أن يغزوا مواشي القرى التي يعدوها خائنة ويأتو بالمسلوبات الأمر الذي يزيد النفور ضد الثوار ويعين العدو سياسياً ولا يضره عسكرياً وبهذه الطريقة لا يمكن الوصول إلى الغاية الشريفة التي كلفت البلاد الخسارة الجسيمة من مال ورجال إذ يجب الاعتماد على فئة قليلة منظمة تنظيماً متقناً ويكون عددها داخل إمكان تأمين كافة نواقصها وأن تكون الإدارة العسكرية منفصلة عن أي عمل آخر إداري كان أو سياسي وإن الفئة التي يجب عليها الاعتماد هي :

في جبل الدروز :

في المقرن القبلي : « ١٠٠ » خيال بقيادة أحد قواد الجبل .

الوظيفة – اشغال قوة صلخد وبقية المخافر وتعجيز المواصلة بين

مركز العدو في هذا المقرن ومنع تعدي الثوار على القرى وتحصيل الضرائب التي تفرضها القيادة العامة علي القرى لقاء تأمينهم على مواشيهم ومزروعاتهم .

في المقرن الشرقي : « ١٥٠ » خيال بقيادة قائد آخر .

الوظيفة – تأمين الارتباط بين مركز الصفا واللجا والمقرن القبلي .

نجدة اللجا في حالة الحركات العسكرية والتأثير على مؤخرة العدو .

إشغال مراكز الخالدية والشهبا وتعجيز المواصلات بينهما .

اللجـــــاه : « ٢٠٠ » مشاة بقيادة محمد بك عز الدين

الوظيفة – تنظيم الدفاع عن اللجاة .

قطع الخط الحديدي دمشق – درعا .

في الغوطة والشمال : « ١٠٠ » خيال بقيادة أحد الضباط .

« ١٠٠ » مشاة بقيادة أحد الضباط .

يكون مركز هذه القوة في الصفا.

وظيفتها – مهاجمة مخافر الغوطة والمرج.

اشغال مراكز العدو في جبل قلمون وتعجيز المواصلات .

إثارة قلاقل أطراف حمص وحماه وشمالاً .

القيادة العامة – تنتقل إلى المقرن الشرقي حيث يكون مركزها المتوسط بين بقية المناطق ويكون للقيادة العامة مفرزة خاصة مؤلفة من « ٣٠ » خيال .

عند اللزوم المناطق تعاون بعضها وذلك بطلب من القيادة .

القواد الموجودة في جبل الدروز ترتبط رأساً إلى القيادة العامة وأما قواد الخيالة والمشاة في الصفا ترتبط بقائد الغوطة والشمال

الذي يكون مربوطاً بالقائد العام .

يمنع التعدي علي القرى في كافة المناطق بصورة جدية ولا يجوز تحصيل أي شيء من القرى إلا بأمر من القيادة .

تنظيم الجند بحسب برنامج يصدره القائد العام . وكذلك إدارة هذه الجند . فيكون مجموع القوة في الغوطة والجبل ٢٨٠ خيال و٣٠٠ مشاة راتب الخيال في الجبل أربع ليرات افرنسية والمشاة ليرتين (مع الإعاشة) الصفا ٥ ليرات الخيال و٣ ليرات للمشاة (مع الإعاشة) في الصفا وعشرة جلبها من القرى

مخصصات الجبل – خيال ١٨٠ / ٤ = ٧٢٠ =

– مشاة ٢٠٠ / ٢ = ٤٠٠ = ١١٢٠ المجموع

مخصصات الصفا – خيال ١٠٠ / ٥ = ٥٠٠

– مشاة ١٠٠ / ٣ = ٣٠٠ = ٨٠٠ المجموع

١٩٢٥ المجموع العمومي

وبهذه الطريقة وحدها يمكن الحصول على كتلة نظامية في الثورة تؤثر حقيقة على أعمال العدو ويصعب جداً علي العدو تأمين نفوذه في المناطق الثائرة ويمكن نشر نفوذ الثورة بصورة متينة جداً في سائر أنحاء سوريا .

وأما الجنود تجند من خيرة الثوار المجربين وبنسبة تزايد الوارد المالي يزاد مقدار الجند في المناطق .

وأما بقية الثوار من زعماء أو غيرهم يجب أن لا يكون الالتفات إليهم سبباً في تأخير سير الثورة التي هي على مفرق طريقين إما إرضاء الثوار الغير عاملين والقضاء على الثورة أو نجاح الثورة وتضحية الشخصيات .

تقرير وضعه فوزي القاوقجي من الصفا في ١٤ / ٤ /١٩٢٧ يشرح فيه للجان الثورة إمكانية إحياء الثورة في جبل الزاوية .

الحالية الروحية في جبل الزاوية

إن جبل الزاوية الذي قاتل لوحده السلطة المنتدبة سنة ٢١ و٢٢ عندما كان موجود الجيش الافرنسي في سوريا وكليكيا [١٠٠،٠٠٠] جندي بإعتراف بريان رئيس الوزارة الإفرنسية وقتئذ والذي أظهر من البسالة والبطولة ما أدهش الجيش الافرنسي الذي كثيراً ما انخذلت حملاته الكبيرة أمام فئة صغيرة من مجاهدي هذا الجبل . إن قابلية سكان هذا الجبل في القتال تستمد من طبيعة الجبل المنيع والوعر المسالك ومن الشجاعة الفطرية الموجودة عند الأهالي وتعصبهم الزائد في الدين .

إن جبل الزاوية بوعورة أراضيه لايشبه لبقية الجبال إذ يحتوي على أقسام صخرية كأنها بركانية ومنقطعة عن بعضها يستحيل المرور منها إلا ماشياً وتفصل جباله وديان عظيمة ملآنة مياه غير قابلة السلوك لاصيفاً ولا شتاءً إلا من بعض جهاتها تجد لها معابر لا يعرفها إلا أهليها . وهذا الجبل يتالف من مجموعة جبال كجبل الوسطاني والعلي وجبل ريحا وغيرها من الجبال التي يصعب على أي جيش كان أن يقوم بحركات عسكرية واسعة النطاق حيث لا يستفيد الجيش المدني من كافة معداته الحديثة سوى البندقية وأحياناً الرشاشات نظراً لصعوبة السلوك .

وأما أهالي هذا الجبل فكلهم سنيين ماعدا جبل العلي الذي تقطنه عشيرة من الدروز الممتزجة كل الامتزاج مع أهالي الجبل والتي ترى نفسها مرغمة على مماشاة أهاليه على حسب رغائبهم ولأهالي هذا الجبل مزايا خصوصية قل ما توجد عند غيرهم وهي الإطاعة العمياء لزعمائهم الذين يعتقدون ان أكبر عمل يتقرب به المسلم إلى ربه في هذه الدنيا هو مقاتلة الكفار لذلك كانت زعماء هذا الجبل أثناء حربهم مع الافرنسيين يقودون رجالهم للأخطار بانقياد لم يرى مثله حتي في الجيوش النظامية وفي قتالهم مع الافرنسين الذي دام سنتين كاملتين ولم تعلم عنه الأمة السورية إلا شيئاً قليلاً أظهروا من المقدرة الحربية في كافة حالات القتال مايخولهم أن يكونوا أحسن العناصر السورية الصالحة للقتال وإنني اشتركت في عدة وقائع لما كنت بالجيش الافرنسي ضدهم وإني أذكر الحركات العسكرية التي توجهت ضد

أحسن والمعارك التي دارت في جبل الوسطاني والتي تجعلني أن أعترف بأنني لم أشهد مثلها إلا في الحرب العامة تعرض الجيش الافرنسي على [٤٠٠] مقاتل محتلين قمم الجبل الوسطاني من ثلاثة جهات بحملة مؤلفة من [١٥] ألف من خيرة القطعات النظامية واشترك بهذه المعركة ١٨ مدفع وكانت الحملات بقيادة الجنرال غوبو والكولونين فوان والكلولونين دوم وبعد قتال دام أربعة أيام انهزمت الحملات وغنمت المجاهدين ٢٠٠ رأساً من الخيل وكانت تلفيات الافرنسيين تزيد عن [٤٠٠٠] وكذلك تعرض الجيش الافرنسي على جبال ريحا وأحسن بقوة تزيد على ٣٢ ألفاً ولم يتمكن من الاستيلاء على خطوط المجاهدين الدفاعية إلا بعد عراك دام أكثر من اسبوعين وكانت خسارة العدو لا تقدر وكانت هذه المعارك مظهراً من مظاهر حروب الخنادق في الحرب العالمية إن جبل الزاوية الذي وصفت حالته في هذه المقدمة الوجيزة كان يتالم كل التالم لعدم اشتراكه في ثورتنا الحاضرة وعدم اشتراكه يرجع لوجود زعمائه خارج سورية وركون الآخرين كإبراهيم هنانو وغيره إلى السكينة وتجريده من السلاح تجريداً باتاً ولقد تشبث كثيراً زعماء هذا الجبل للحصول علي سلاح وعتاد من الأتراك كالسابق فلم ينجحو . وأخيراً تقربوا إلي السلطة وتمكنوا من أخذ ١١٤ سلاح منها على أن يؤسسوا عسساً في قراهم وبعدما أخذوا هذا السلاح أرسلوا لي وفداً مؤلف من الزعماء محمد الحاج طاهر وأحمد المرعي والشيخ اسماعيل إلى الغوطة ليطلبوني إلى جبل الزاوية وكان حضورهم في أثناء الحركات التعرضية في الغوطة وفي الوقت الذي كان معظم الثوار منسحباً منها لذلك لم أتمكن من إجابة طلبهم فوعدتهم الحضور إلي الجبل عندما تمكنني الوضعية في الغوطة من ذلك وبعد مضي شهراً آخراً أرسلوا لي وفداً ثاني ويعلموني استعدادهم ومناسبة الفرصة السانحة ورغبة أهالي حلب الذين اسسوا الجمعيات التي بدأت تجمع الإعانات لمعاونة الحركات في الجبل ولما انتهت الحركات من الغوطة واكتسبت شكلها الأخير أردت أن أجعل للثورة شاناً جديداً فتخابرت معهم مرة أخرى وطلبت منهم أن يعلمو زعمائهم الموجودين في حدود الأتراك وأرسلت رسولاً بكتب فوصل لعندهم وأتاني بالأجوبة التي كلها تطلب حضوري بسرعة وبإلحاح والظاهر إن العدو واقف على بعض نوايا هذه الزعماء فكان يعامل أهالي جبل الزاوية معاملة خاصة من اللطف واللين إنما وضعهم تحت مراقبة شديدة

بحيث لا يشعرون فلما وصلت أخيراً إلى جبل الزاوية كان العدو انتهز فرصة تقدمنا إلى الجبل وملائه بجنده وأخذ السلاح الذي أعطاهم إياه قبلاً وقبض على كافة الزعماء الموجودين والرجال الملحوظ منها خطر وهكذا أصبح الجبل أمام أمر واقع عندما دخلت حملتنا أراضيه استقبلتنا رجال هذا الجبل بحسيات لا توصف من العطف والحب وفتحو لنا بيوتهم ولم يبخلوا علينا بشيء احتجنا إليه وقد بينو لنا حالتهم وأظهروا لنا منتهى خجلهم وكانوا يقولون [يا للعار ماذا سيسطر لنا التاريخ من الذل لعدم تمكننا من معاونتكم ومع ذلك كانت رجالهم تمشي مع حملتنا وتدربها على الأراضي ونسائهم تقدم لنا الإعاشة وتوآسى جرحانا وشبانهم الذين كانوا يرافقونا كانو يرتمو على أقدامنا ليأخذو من أيدينا البندقية ليطلقوا طلقة واحدة على العدو انتقاماً لوالده الشهيد أو لأحد أقربائه الذي قضى عليه العدو أثناء حركات الجبل السابقة فإني لم أرى وطنية في بقية رجال سورية تعادل مابدى لي من هذه الرجال ولم أرى شعباً مستعداً للقتال مثل أهالي جبل الزاوية إنه لا يوجد من شبان هذا الجبل منلم يقتل العدو والده أو حرق داره أو قضى على أحداً من أقربائه لذلك شبت هذه الشبيبة وشب معها حس الانتقام والحقد والعداء والغرامات المتوالية والمظالم المتتابعة كانت تجدد هذه الحسيات وتقويها في نفوس الشبيبة الحاضرة.

لذلك إني أقول إن الثورة يجب أن تضرم من جديد في الشمال وأصدق ماقاله الجنرال بيللوت (إنه من حسن حظ الجيش الافرنسي لم يشترك جبل الزاوية في هذه الثورة وإن الخطر كل الخطر في قيام هذا الجبل الذي عرف الجيش الافرنسي شدة بأسه) .

وقيام هذا الجبل بتوقف على مقدار من السلاح والعتاد [٢٠٠ بارودة ولكل واحده (٢٠٠) مشط فشك] وأعتقد أن هذا السلاح يمكن تداركه من حدود الأتراك بسهولة بواسطة بعض رجال الأتراك الذين لا يزالون يحافظون على رابطتهم القوية مع زعماء الجبل الموجودين داخل حدودهم ثم قيام جبل الزاوية يسبب لقيام عربان الموالي والعكيدات بلا أدنى ريب ولاشك إن هذه العشائر اشتركت مع جبل الزاوية بكل مصائبه كما اشتركت معه فعلاً بكافة حركاته وإذا قامت الثورة في جبل

الزاوية واشتركت معها عربان الموالي يكون قدمنا للثورة [٣٠٠٠ بندقية لا يقوى عليها العدو بـ ٣٠٠٠٠ بندقية] فإنني مصمم على هذا التشبث في الوقت الذي أرى في ثورتنا تجتاز دوراً خطراً جداً حيث العدو ترفق في حركاته في اللجا وثوار اللجا الذين مللو من القتال انسحبوا بنسائهم إلى الصفا ومعنوياتهم منكسره وكل يتحدثون بالأزرق . وأما العدو الذي لم يترك لهم مجالاً للاستراحة يرسل عليهم يومياً الطيارات وقد احتل قرى مقرن الشرقي الأمر الذي اشكل عليهم الإعاشة وأما سلطان باشا فإن حضوره بستين خيالاً إلى هذه المنطقة حسن شيئاً من المعنويات إذ ظنوا أنه أتى لنجدة اللجا ولما لم يتحقق ظنهم ولم يرجع إليهم سلطان باشا زادت معنوياتهم ضعفاً وكذلك عدم نزول ثوار الغوطة إليها وبقائهم في الأزرق جعلهم يعتقدون أنه لم يبقى من يريد الدوام في الثورة لذلك أكرر إظهار عزمي الشديد في إثارة الشمال مرة أخرى وأقول إنه لم يبق لنا إلا أملاً واحداً لإنقاذ سورية من المصائب التي تنتظرها إذا تمكن منها العدو ألا وهو إثارة جبل الزاوية .

أما طريقة إثارة هذا الجبل فإني أراها في مقابلة زعماء الجبل الموجوده داخل حدود الأتراك والذين لاتزال بعض رجالهم المسلحة عندهم فإني أذهب إلى الأناضول واتصل معهم ومع بعض رجال الجمهورية الذين لي صلة خاصة معهم وأدبر السلاح والعتاد اللازم ثم أدخل الجبل مع زعمائه برجاله وإني لا أرتاب أبداً من قيام الجبل على هذا الشكل لذلك فإني أطلب مساعدتي بهذه المهمه التي اعتقد أنها الطريقة الوحيدة التي تنقذ وضعيتنا الحاضرة وإلا فإني أرى واجبي الوطني الذي واقف نفسي في سبيله يحملني على تحمل المسؤولية والذهاب إلى هناك حيث لا أرى اليوم طريقة أخرى أتمكن فيها من تقديم التضحية التي تتطلبها حالة بلادي الحاضرة .

تقرير من فوزي القاوقجي (قائد الغوطة والشمال وضعه في الصفا ١٩ / ٤ / ١٩٢٧ يشرح فيه أوضاع الثورة في منطقة الصفا واللجا .

رسالة من سعيد الترمانيني من عمان ٢٧ / ٤ / ١٩٢٧ توضح تأثير حملة القاوقجي لجبل الزاوية على تبديل الوضع السياسي في سورية .

مسودة تقرير وضعه القاوقجي في القدس ٢٥ / ٥ / ١٩٢٧ لتقديمه إلى لجان الثورة السورية حول إقتراحاته لإحياء العمليات الثورية في جبل الزاوية والإستعانة بالأتراك

١ – تعديل الوضعية الخاصة والاستفادة منها :

آ – بإرسال مخصصات للقواد والمناطق حسب موجودهم الحالي لإعاشة شهر (سلطان باشا : ١٥٠ – الصفا ١٠٠ – اللجا : ١٥٠ – سعيد بك العاصي والأمير عز الدين : ١٥٠)

ب – يطلب بلطافة من القائد العام أن يقوي مركز الصفا بتجنيد كافة المشاة فيه ثم بإرسال جماعة الغوطة وشمالاً وبإرسال قسماً من فرسان الدروز ليقوموا ببعض الحركات في المقرن القبلي . وان يقوم اللجا بأعمال بسيطة ضد شهبا والصفا ضد طربا والعجيلات . فتكون حركة عمومية أظهرت نشاطاً في كافة المناطق الحساسة وسببت لتوزيع قوى العدو .

٢ – تمهيد التنظيم لدى سلطان باشا :

آ – بإرسال سعيد بك حيدر وعادل بك العظمة لعند سلطان باشا . وإفهامه القصد من التنظيم وصورة التنظيم واستخراجه كيفية تنفيذه

أما التنظيم : فهو عبارة عن إيجاد لجنة مالية في مركز القيادة العامة مولفة من نسيب البكري ، سعيد ترمانيني ، صياح الحمود ، علي عبيدو .

وظيفتها : استلام الأموال من اللجان الخارجية ، توزيع المخصصات حسب طلب الأركان المصدقة من القيادة . تدقيق حسابات القرار الذي يقدم إلى هذه اللجنة .

يكون لهذه اللجنة الحق بإبداء رأيها في الأمور المالية ولا يحق لها صرف واحده بدون تصديق القائد العام .

ثم إيجاد أركان حربية : وهي عبارة عن رئيسي الأركان الحربية وثلاثة ضباط وعشرة مراسلين .

الوصية تنظيم الثورة وتوسيع الحركات والتوفيق بين الجبهة العسكري والجبهة السياسية .

المخصصات العمومية : ٢٠٠٠ جنيه شهرياً

٣ – حركة الشمال : جبل الزاوية :

آ – أن يذهب سعيد حيدر وفوزي والدكتور أمين رويحه إلى الأناضول .

ب – يتصل سعيد بالمقامات اللازمة والآخرين يحضرو الزعماء ورجالهم على الحدود .

جـ – يهيء السلاح والعتاد أما مبايعة أو بطريقة أخرى وذالك حسب وضعية الجمهورية .

د – مدة الاستعداد شهر (السفر داخل)

هـ – المصارفات / ٢٠٠ / جنيه . مصارفات سفرية وإقامة ١٠٠٠ جنيه تخصيصات الحملة ، (سلاح عتاد ، داخل) هذه التخصيصات يجب أن تكون مهيئة قبلاً ولا تتعطل بسببها الأعمال . وهذه المخصصات يمكن الاستغناء عنها بعد شهرين من ابتداء الحركات .

محسناتها : – إثارة منطقة جديدة ، على نظام متين
– إعانة الثوار الخطرين
– توزيع قوى العدو
– تجديد روح الثورة في البلاد وتقوية الأمل
– إمكان نشر الثورة في كل أنحاء الشمال
– تهديد خطوطه الحديدية بين حماه وحلب وقطع مواصلات العدو بين الجنوب والشمال .
– إضعاف مركز الحزب العسكري في سورية وتقوية الأحزاب المعاكسة له في فرانسه

المحاذير : – إضاعة شهر من الوقت
– احتمال ممانعة الأتراك .

كتاب وضعه فوزي القاوقجي في القدس ٢ / ٦ / ١٩٢٧ لزعماء الثورة السورية في فلسطين يوضح فيه متطلبات تجديد الثورة السورية في الشمال مع إمكانية الحصول على مساعدة من تركيا .

القدس
٢/٦/٢٧

الاحتياج الاصغرى والاحتياج الطبيعي لحركة الشمال .

جنيه

٢٠٠ — ١ — مصارفات سفرية الثلاثة اشخاص
(سعيد، فوزي، الدكتور)
ذهاب من فلسطين - مصر، اقامة ثلاثة ايام بمصر، مصر - اناضول
اقامة وتجول مدة شهر بالاناضول (مدة احضار الحركة)

٢ — مصارفات الحركات :
٧٠٠ ثمن ٢٠٠ بندقية مع خرطوش (٣ جنيه كل بندقية ونصف جنيه عتاد)
٢٠٠ مصرف تجهيزات ورواتب الزعماء وجنود (العدد من ١٥٠ الى ٢٠٠)
١٠٠ مبلغ احتياطي (اعاشة داخل)

١٢٠٠

ان هذه الارقام هي الحد الاصغري التي يمكن ان نأمل الاحرى من الاحتياج الضروري . واما المقدار اللازم للاحتياج الطبيعي فهو ضعف هذه الارقام (ما عدا ثمن البنادق) . ومن المعتاد يكون ثلاثة امثال ما هو مقيد بهذه القائمة اذاً يكون كما يأتي :

٦٠٠ ثمن ٢٠٠ بندقية
٤٠٠ خرطوش
٤٠٠ مصرف تجهيزات ورواتب للزعماء وجنود
٢٠٠ احتياط (الاعاشة داخل)

١٦٠٠

يجب ان تدام هذه التخصيصات لمدة شهرين في حالة النجاح واما الشهر الثالث فعلى الغالب يمكن تأمين الاحتياجات كلها من نفس المنطقة الثائرة

ان المقدار الذي يجب تأمينه بالوقت الحاضر هو مصاريف السفرية فقط ، اما مصاريف الحركات تكون جاهزة على ان تدفع عند الطلب

من الاناضول وذلك بعد شهر من يوم الحركة من فلسطين (تقريباً)

ان النتيجة التي حصل عليها سعيد حيدر بذهابه الى مصر بناءً على قرار جلسة ١٨ مايس ٩٢٧ من مفاوضات مع سفير الحكومة الجمهورية بمصر ومخابرة الاخير مع حكومته بانقره لهي اكبر وثيقة لنا في قبول الحكومة المذكورة جريان الحركات في شمال سوريا التي ستكون مصدرها من اراضي الاناضول وهذه التي تجعلنا في غاية الثقة من نجاح تلك الحركات التي ستكون الاكسير المنقذ لحياة الثورة الجنوبية التي تتنازع بين عوامل الضعف واليأس وتأثير اتفاقات الكومنيشن الاخير .

اني اطلب من حضرات اعضاء اللجنة المجتمعية بجلستنا اليوم ٢ حزيران ٩٢٧ اعطاء الجواب القطعي ليكون وثيقة تاريخية تزيل عني كل مسؤولية من جميع الزعماء [illegible] الشهر التي جعلتني معرضاً لعذاب الوجدان الاليم ثم من عبث مصير هذه الفرص التاريخية الكبيرة

فوزي
القاوقجي

[illegible]

خلاصة الجواب :

[illegible] ان هذا المشروع [illegible] [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تقرير أعده فوزي القاوقجي (دون تاريخ) ربما خلال رحلته إلى تركيا لطلب المعونة يشرح فيه أسباب الثورة السورية ومقاصدها وتطوراتها والإحتياجات لتجديدها .

أسباب الثورة :

إن فرنسة التي انتدبت على سورية آخذة على عاتقها مهمة الإرشاد والتدريب . أتانا مفوضوها بتلك الكلمات الساطعة تلمع في افاق سورية المظلمة . قالت إنها تحمل إلينا نور الحضارة الغربية وإنها ستعمل معنا لتنقذنا من تلك النكبات الاقتصادية الثقيلة بنتيجة الحرب الكونية وما تلاها من الحوادث الأليمة التي شلت اليد العاملة في بلادنا وجففت المنابع الحياتية والتي كادت تقضي على الأمة السورية وأمانيها وإنها ستدر على البلاد لبناً وعسلاً وتعيد لها مجدها الزاهر ، فتنال شرف مساعيها والمنفعة العظيمة من البلاد المخلصة لها .

إنما مالبثت طويلاً حتى أماطت عن وجهها ذلك البرقع الذهبي فتمثلت لنا وحشاً جائعاً مفترساً وأخذت تفتك في جسم البلاد السورية التي امتنها كل مقدراتها ، فخانت الأمانة . وقضت على اقتصادياتها قضاءً مبرماً وابادت المعارف فيها ومزقت عناصرها وجعلتهم شعوباً أخصاماً لبعضهم وقسمت البلاد وابتزت الأموال واستبدت فيها حتى صار المستشار يحي ويميت بلا رقيب وأصبح الوطني غير آمن على نفسه في داره فامتلأت أزقة المدن بالمتسائلين واميركا بالمهاجرين . وجلبت إلينا سفاهة مونمارتر فافسدت الأخلاق الطيبة . وبالنتيجة لما لمس الشعب الهلاك بيده وتيقنّ أن البلاد سائرة لا محالة إلى الخراب والتدمير ، قرر الثورة ورأى أن النتيجة مهما كانت فهي أقل ضرراً من دوام الاستبداد الدامي الافرنسي .

مقصد الثورة وقوامها :

إن الثورة السورية الوطنية ترمي إلى انقاذ البلاد من فظائع الاستعمار وتأسيس كيان قومي من كافة العناصر السورية يمثله مجلس تأسيسي يسن الدستور الملي وجيش وطني يحفظ النظام ويحمي كيان البلاد .

أعلنت الثورة إستناداً على إرادة الشعب النافرة من الإنتداب وعلى القسم

المسلح من أفراد هذا الشعب فكان جبل الدروز يملك (٣٠٠٠) مقاتل مسلح وكان (١٠٠٠) بمقاتل مسلح من قرى سورية الشرقية ومن دمشق نفسها ثم (٢٠٠٠) مسلح مقاتل من عربان البادية السيارة .

الثـورة :

ولما هبت نيران الثورة في جبل الدروز اكتسحت فيه الجنود الإفرنسية كاملاً ماعدا طابور واحد التجأ إلى قلعة السويداء وتحصن بها ثم أخذ العدو يرسل الحملات الجسيمة تلو بعضها بقيادة الجنرالين الموجودين وأخيراً استلم قيادة الحملة الكبيرة على جبل الدروز الجنرال غامبراتي القائد العام لجيش الشرق ولم تفلح هذه الحملات أبداً . ولما أصبح مركز الثقلة لقواة العدو في سورية أمام جبل الدروز انفجرت ثورة حماه المدبرة بإتقان من قلب سورية فأنقذت الجبل من ضغط القوات المحتشدة وأجبرت العدو على تجزئة قواه . فانتشرت الثورة وهوجمت دمشق فانقلب العدو مدافعاً في مراكزه تاركاً حرية العمل في ميادين الثورة للثوار وإنما فتك وذخائرهم الطيارات الذريع في مواشي البدو السيارة التي هي الواسطة الوحيدة لنقل بيوتهم جعلتهم مشلولين عن العمل في الثورة وحرمنا الاستفادة اللازمة من هذا المجموع . ثم الظلم الذي هو فوق التصور والقسوة المتناهية التي قام العدو في المدن على الأطفال والشيوخ والنساء والأبرياء حرمتنا أيضاً الاستفادة من منابع المدن الثمينة ومع كل ذلك وبالرغم من كل قطعات التقوية التي تلقاها العدو والتفوق الهائل في العدد والعدد ظل الثوار متفوقين على العدو في كل معركة دخلوها وبقيت الحاكمية على الحركات العسكرية بيد الثوار حتى نهاية تشرين الثاني ١٩٢٦

قوى العدو :

إن جيش الشرق الإفرنسي الموجود في سورية يتالف من :

٣ فرق مشاة (تيرايور وسنه غالي)

٣ ألوية فرسان (سيكيس ماروكره)

٣ ألوية مدفعية مختلف العيار ثم من الجيش المعاون والمتطوعين السوريون مهم

٣ ألوية مشاة (لوريون سيرين)

٢ ألوية فرسان (لوريون سيرين)

وسائر القطعات الغير مربوطة لهذا الجيش ومجموع هذه القوة تعادل (٣٥) ألفا جندي وهذا موجود الجيش الافرنسي حين إعلان الثورة . وبعد إعلان الثورة تلقى هذا الجيش النجدات التالية بتواريخ مختلفة لحين خضوع عبد الكريم زعيم الريف :

فرقة من المشاة	الجزائري والتونسي (تيرايلور)	
لواء خيالة	السباهيين	
لواء مدفعي	من المغرب	
٢ ألوية مشاة	افرنسي	من فرنسة
لواد فرسان	افرنسي	
لواء مدفعي	افرنسي	

ومجموع هذه النجدات تعادل ٢٠ – ٢٥ ألف جندي ثم جنّد من العناصر الأجنبية عدا البلاد السورية والمرتزقة كالأرمن والإسماعيلية والنصيرية والأكراد وغيره : مقدار لوائين مشاة وثلاثة ألوية خيالة مجموعهم يقارب (٧٠٠٠) مقاتل وبعد خضوع الزعيم عبد الكريم تمكن من اقتصاد وارسال نجدات أخرى ذات قيمة إلى سورية من الأصناف المختلفة ما يساوي الثلاثون ألفاً فأصبح مجموع الجيش الافرنسي كله يقارب المائة ألف إنما أتلف من هذا الجيش في المعارك التي دارت خلال الأشهر الثمانية الأولى مايعادل الثلث .

قابلية قطعات العدو في القتال :

إن جيش العدو لم يظهر له أي مزية عسكرية في جميع الحركات الحربية التي دارت رحاها إلى الآن وبالرغم من حسن ترتبه الخطط العسكرية من الأركان حربية والتفوق العظيم في الوسائط النارية الحديثة كانت جميع أجزاء جيش العدو لا تثبت كثيراً أمام هجمات الثوار وإذا انقلب الثائر مدافعاً كان يصعب على العدو الاستيلاء على موقعه وكل ما ظهر لجيش العدو من المزايا إنه تمكن من الثبات في حالة الدفاع

المنظم أمام الثوار بفضل الوسائط الجهنمية التي يستوردها ومن مقابلة المعارك الآتية تظهر النسبة المتفاوتة في قابلية القتال في حالة التعرض والدفاع بين الخصمين :

تعرضت حملة الجنرال ميشو سنة ١٩٢٥ على ثوار الدروز في جبل الدروز وكانت هذه الحملة تتألف من القوى الآتية :

٢ ألوية مشاة (سينه غال تيرايور)	٥٠٠٠	
٢ طابورين (سينه غال)	١٢٠٠	ومع هذه الحملة – ١ بطارية صحرا عيار ٧,٥
		٢ بطارية جبل عيار ٦,٥
١ طابور (له ثريون ايترانجدر)	٧٠٠	مدفعين عيار ١٢,٥ سريع صحرا
٢ ألوية (سباهية)	٨٠٠	وتسعة مصفحات وتحميها ثمانية طيارات
٢ اسكادرون (.سيرين)	٢٠٠	
	٧٩٠٠	

فكان مجموع هذه الحملة تسعة آلاف مقاتل تهاجم ١٢٠٠ ثائر درزي لا يملكون من وسائط القتال سوى البندقية وقليلاً من الخرطوش .

تعرضت هذه الحملة نهار ٧ أغسطس ١٩٢٥ بنجاح ووصلت المزرعة حيث أقامت تلك الليلة وقام الثوار نهار ٨ منه بمقابل تعرض على هذه الحملة وبعد معركة دامت ساعة تراجعت الحملة بانتظام وبعد معركة تراجع دامت ساعة ونصف انقلب التراجع إلى هزيمة شنيعة واختل النظام ولم تغرب شمس نهار ٨ اغسطس / ١٩٢٥ إلا وكانت الناجية من هذه الحملة (٨٥٠) وصلوا أزرع قاعدتهم و ٢٥٠ أسيراً وكل المدافع والمصفحات و٧٢ رشاش خفيف و٣٦ ثقيل و ٥٧٠ حمل ذخيرة وقع غنيمة في يد الثوار .

وفي ٤ مارس ١٩٢٦ خرجت حملة من دمشق إلى دوما (١٠ ك م شرقي دمشق) بقصد الإستكشاف وتموين المخافر الأمامية لتحكيمات دمشق بقيادة الكولونيل فرن (هذا الكولونيل قتل أخيراً في معركة الشبعة) مؤلفة من ستة آلاف جندي (افرنسي ، مغربي ، جركس) فاشتبكت هذه الحملة بمعركة من الثوار الذين لا يتجاوز عددهم (٤٠٠) ودامت المعركة نصف النهار ولم تتمكن هذه الحملة من أن تفتح لنفسها طريقاً . ثم قام الثوار بهجمات عنيفة شتت أجزاء هذه

الحملة ولو لم يستنجد (فرن) باللاسلكي في دمشق وترسل له دمشق حملة أخرى تؤثر على جناح الثوار الأيسر لما تخلص منها أحد .

فترك العدو ٣٠٠ قتيل وجريح على الطريق وكثيراً من الخيل وغنائم عديدة وكانت ضايعات الثوار لا تتجاوز الثلاثين .

وفي ١٤ حزيران ١٩٢٦ تعرضت الحملة التي خرجت بقيادة الجنرال مارتي بقصد تخليص النبك ويبرود على مواقع الدفاع للثوار في نجعه (١٥ ك م غربي النبك) تتألف هذه الحملة من ثلاثة آلاف جندي وثمانية مدافع ومجموع الثوار لا يزيدون عن (١٠٨) وبالرغم من هذا التفوق العظيم لم تنج هذه الحملة بجميع هجماتها التي كررها العدو طيلة ذلك النهار من خسارة دامية . ولم يتمكن العدو من الاستيلاء على مواقع الثوار إلا بعد تعرض دام ثلاثة أيام حتى نفذ العتاد من المدافعين الذين انسحبوا على أثر ذلك . وكذلك في ٢٣ تشرين أول ١٩٢٦ فاجأ العدو بمجموع (٢٠٠٠) متطوع جركس وأرمن مفرزة من الثوار مجموعها (٤٥) مقاتل في موقع عين ترما في الغوطة (٦ ك م شرقي دمشق) وبالرغم من إحاطة الثوار من كافة أطرافهم لم يفلح في الاستيلاء على موقعهم وبالعكس قد تمكن الثوار بهجمات شديدة من فتح طريق لهم بين صفوف العدو التي امتلأت الأرض من قتلاه وبنادقه وانسحبوا بخسارة لا تتجاوز التسعة بينما ترك العدو ٢٠٠ قتيلاً وانهزم إلي مراكزه في دمشق وكذلك جرت أمثال متعددة لهذه الحركات في جبال بعلبك وعكار وجبل الشيخ وقلمون والإقليم .

ومن هذه الأمثلة يتضح جلياً قابلية الثائر السوري في الدفاع والتعرض وتفوقه العظيم في المعارك على كافة العناصر التي يتألف منها جيش العدو واستعداده الهائل للقتال وإنه قد أتى في حروب هذه الثورة بمعجزات باهرة لم يروي لنا التاريخ العسكري شيئاً يماثلها ، فلو كان يملك من الوسائط ما يملكه خصمه فأي فعل كان يستحيل عليه .

التطورات في الثورة :

إن هذه الثورة الوطنية المندفعة بشعور الأمة والعاطفة المليئة ابتدأت بقيام أشخاص لهم جماعات مستقلين عن بعضهم وفي مناطق غير متصلة ببعضها

ولا شك بأن ذلك بعد تفاهم سابق . فقام في البداية سلطان باشا الأطرش في جبل الدروز وانضم إليه فريق كبير من الدروز ثم التحق به زعماء سورية الذين سبب انضمامهم هيجان عظيم ثم قامت ثورة حماه الكبيرة وتلاها بعض قيامات في شمال سورية وثورة الغوطة الدمشقية العظيمة فكان الثوار في البداية عبارة عن مفارز سيارة تعمل لوحدها وتهاجم مخافر العدو أحياناً ثم ترابط للحملات وأحياناً تختفي أمام القوات الجسيمة . ثم تكاثر عدد الثوار من الذين خرجوا من دمشق والذين التحقوا بالثوار من القرايا فتشكلت مناطق للثورة تعمل فيها الثوار ولها قواد خاصة من نفس المناطق تقريباً . ثم تم اتصال المناطق ببعضها وارتبطت كلها بقيادة عامة وعينت للمناطق قواد رسمية وأصبحت الحركات مشتركة حسب الضرورة الحربية وبعد ذلك تكاثر عدد الثوار وازدادت انتصاراتهم على العدو فتشكلت إدارة ملكية وأعلن مجلس وطني يمثل مناطق الثورة ويدير كافة الشؤون الإدارية وأخذ يوصل الثورة للخارج ويؤسس تماساً مع أوربا ليصور حقيقة وجه الثورة ويدحض إشاعات العدو المزيفة وانتخب لهذا المجلس الوطني نسيب بك البكري رئيساً ثم عين موظفين للإدارة ولجباية الأموال وآخرين لمحافظة النظام داخل مناطق الثورة .

إنما أخيراً نظراً للإلجاءات الحربية والتطورات العسكرية اعطيت صلاحية المجلس الوطني إلى القائدالعام للغوطة والشمال فأتم التنظيم العسكري والإداري وأصبحت الثورة بشكلها القوى المنظم تهدد حقيقة حياة الجيش الافرنسي في سورية .

فتم كل هذا بظرف سنة واحدة دون أن تتلقى الثورة أي معونة كانت والمنابع الموجودة في منطقتها ضئلت لكثرة احتياج الجيش وكما قل موسم الحصاد وجمعت المحصولات على بيادر القرى قام العدو ١٩ تموز ١٩٢٦ بتعرضه الكبير الذي جمع من أجله قطعات كثيرة ونجدات قوية تلقاها من الغرب حتى اصبح يعادل ١٢ مثل قوة الثوار . توفق العدو بتعرضه هذا لحرق المحصولات التي كانت مستودع الثورة الوحيد لإعاشة الصيف ثم حرق ١١٢ قرية بلا رحمة ولا شفقة واتلف كثيراً من النساء والأطفال والشيوخ الذين لا علاقة لهم بالثورة وسبب لأضرار في عمران الغوطة يقدر بـ (٣٠) مليون جنيه . أما من الوجهة العسكرية فلم يحصل على فوائد ذات قيمة بل دام هذا التعرض مدة ٢٠ يوماً دون أن يحصل أي خلل في متانة الثوار الدفاعية وبقيت الحركات شهرين كاملين متتابعه وكلها بجانب الثوار من

حيث النجاح إنما نفاذ العتاد وعدم إمكان تأمينه جعل الثوار بعد ذلك يتراجعون وينسحبون إلي معاقل طبيعية قريبة من الغوطة كي يتمكنوا من إكمال نواقصهم ليعيدوا مركزهم في الغوطة .

واليوم آخر ما اكتسبته الثورة من الأوضاع هو أن اللجا في جبل الدروز (أراضي بركانية في شمال غربي الجبل) أصبح مركزاً لثوار جبل الدروز والصفا مركزاً لثوار الغوطة والشمال ومن هذه المراكز المنيعة يغزو الثوار العدو ويمنع قواته السيارة من التجول .

إن قادة هذه الثورة وأكثر افرادها هم من أكبر العائلات الموجودة في سورية ومن كافة أفراد الشعب المتنور ففي الثورة أكثر من ٢٠ طبيباً أعظمهم تخرج من معاهد أوربا وأميركا والضباط الموجودون في الثورة أكثرهم من صنف الأركان حرب ومن اللذين استفادوا كل الاستفادة من التجارب في الحروب العمومية واشتهروا فيها وعملوا مع ضباط المانيين مدة طويلة وفيها أيضاً كثير من رجال الإدارة والذين كانوا يشغلون مناصب كبيرة في إدارة الحكومة التركية والعربية وقسم كبير من متنوري المسيحيين فالثورة السورية رجالها يمثلون أعلى طبقة الشعب السوري .

جغرافية سورية :

إن سورية بتشكلاتها الطبيعية على غاية من المناعة وعلى قابلية واستعداد عظيم للدفاع عن حوزتها . ففي سورية سلسلة جبال موازية لساحلها تمتد من حدودها الجنوبية حتى حدودها الشمالية وارتفاع هذه السلسلةالمتوسطة (٢٠٠٠) متر وهي تتحكم على المدن الكبيرة ، بيروت وطرابلس واللاذقية وغيرها وعلى كافة اتصالات هذه المدن والقسم الشمالي من هذه السلسلة تسمى بجبال العلوية ونفوس هذا الجبل تزيد عن (٦٠٠٠٠) وهذا الجبل في غاية المناعة من حيث التشكلات الطبيعية ووعورة المسالك وكانت أهالي هذا الجبل دوماً في ثورات على الحكومة التركية ولم تتمكن الحكومة المذكورة من الإستيلاء عليه إلا بتحشيد قوى كبيرة ثم بعد دخول فرنسة ثار هذا الجبل على السلطة الافرنسية لشدة ماعاناه من الضيم والجور وبقيت الثورة فيه سنتين تتغلب على جيوش فرنسة التي كان موجودها في سورية (١٠٠٠٠٠) جندي وبالنتيجة تغلب جيش العدو على هذا الجبل وجرده

من السلاح وقتل بعد الاستسلام ٦٠ زعيماً ونفى منهم ٢٥٠ والمنفيون لم يعود منهم الثلث ولعدم وجود سلاح اليوم لم يقم هذا الجبل بالانتقام الذي لا ينساه .

ومن نهاية جبل العلوية جنوباً يمتد جبل عكار الذي هو من حيث الطبيعة يتشابه مع الأول إنما سكان هذا الجبل فيهم من السنيين . وهذا الجبل معقل عظيم يهدد مواصلات حمص مع طرابلس ومع بعلبك وقد ثارت أهاليه في ثورتنا الحاضرة وأثرت كل التأثير على الخط الحديدي طرابلس – حمص واشغلت قسماً عظيماً من جيوش العدو ثم هاجمت حمص مراراً وكانت دوماً خطراً خطيراً على المواصلات بين سورية الشمالية والجنوبية ونظراً لبعد هذه المنطقة عن بقية مناطق الثورة فكان تأمين العتاد والذخائر لثوار هذا الجبل عسر جداً لذلك لم تدم ثورتها إلى اليوم . ومن جنوبي هذا الجبل يبدأ لبنان الذي يمتد جنوباً إلى الحدود السورية وهذا الجبل ماهول بمسيحيين وقسم من الدروز وفي هذا الجبل كانت حادثة الستين العظيمة بين الدروز والمسيحيين . ثم سلسلة أخرى توازي لبنان من جهة الشرق وهي جبال في لبنان فالقسم الشمالي من هذه السلسلة جبال بعلبك والجنوبي جبل الشيخ والقسمان في غاية الوعورة والمناعة لايمكن فيها تجول غير المشاة والخيالة بصعوبة في بعض المحلات وسائر الأصناف العسكرية لا يمكنهم الإشتراك بأي حركة كانت في هذه السلسلة وهذه السلسلة تتحكم على الخط الحديدي الممتد من حمص رياق وعلى خط رياق دمشق وأهاليها في القسم الشمالي متاولة وفي القسم الجنوبي دروز ومسيحيون وقد امتدت الثورة إلى هذه الجبال وأفادت سكان هذه الجبال كل الإفادة حيث اشغلت قوى عظيمة للعدو وبالرغم من أعداد الحملات الكبيرة التي تحملت مشاق زائدة وخسائر كبيرة لم تنجح حركات العدو هنا . وأساساً سكان جبال بعلبك المشهورين ببسالتهم وجلادتهم كانوا دوماً في ثورات على الحكومة التركية وسنة ١٩ ثار هذا الجبل على الحكومة الافرنسية ولم تتمكن من إطفاء الثورة فيه إلا بضحايا عظيمة وجهود كبيرة وقد قام الافرنسيون بعد خضوع هذا الجبل بمظالم لاتطاق وقد قام بثورة أخرى سنة ٢١ وكذلك لم تفلح الحكومة بإخضاعه قوة إنما بمواعيد لم تفيها بعد وبدسائس حتى تمكنت منه نظراً لقرب هذا الجبل تمكنا من ايصال قسم من الذخائر والأسلحة حتى تمكن من إدامة ثورته إلى اليوم وهو لايزال ينقصه السلاح حيث جرد سلاحه قبلاً من قبل

الافرنسيين تماماً . ومن هذا الجبل تتفرع سلسلة أخرى صغيرة نحو الشرق الشمالي وتحيط غوطة دمشق شمالاً وهذا الجبل يسمى بجبل قلمون وهذا الجبل يتحكم على مواقع الشام الدفاعية وعلى كافة مراكز العدو في الغوطة وهو تحيطه البادية من الشرق ولكنه أقل ارتفاعاً من بقية الجبال واسهل سلوكاً وقد حصلت فيه معارك دامية ظهرت فيها تفوق رجاله على كافة القطعات الافرنسية .

ثم في جنوب سورية للشرق جبل الدروز المشهور بجلادة سكانه وشدة بأسهم في القتال وهذا الجبل له تاريخ حربي مجيد مع سلطة أرادت التسيطر على تقاليده وعوائده وهذا الجبل كان دوماً كبركان يقذف النار ضد الجيوش التركية وسكان هذا الجبل يمتازون بالإباء وبكثرة السلاح وزعماء هذا الجبل تسير في احكامها وامورها على الشكل الاوتوقراطي الهائل ويتحكم هذا الجبل على الخط الحديدي الممتد من دمشق إلى درعا قاطعاً سهول حوران ومن جهة أخرى تحيطه البادية من الشرق والجنوب وهذا الجبل كان منبع ثورتنا الحاضرة ومستودع جنودها ونفوسه (٣٠٠٠٠) . ثم يوجد معاقل أخرى كاللجاه التي هم القسم الشمالي والشرقي من جبل الدروز وهذا المعقل أراضي بركانية لايمكن اجتيازه من قبل أي قطعة كانت لعدم إمكان الحركات فيه وكان دوماً هو المعصي الأمين للمقاتلين المغلوبين على أمرهم منذ عهد ابراهيم باشا والأتراك وكذلك اليوم فقد قام الجيش الافرنسي بهجوم كبير دام ١٧ يوماً دون أدنى فائدة والوسائط الحربية كلها لم تكن كافية لإحداث أي تأثير على المتحصنين في هذا الموقع .

وأراضي أخرى توازي جبل الدروز من الشرق تبعد عنه مسافة (١٥ ك م) يمتد شمالاً حتى يصير على مسافة (٣٠ ك م) من الشام وهذا المعقل كاللجاه أراضي بركانية عظيمة إنما يمتاز عن اللجاه بوسعه وبحرية موقعه الجغرافي الذي يتحكم على الغوطة وجبال قلمون وكل مواصلات دمشق مع بغداد من جهة البادية وهناك جبال أخرى أقل أهمية من الوجهة العسكرية . ثم البادية تحيط بسورية شرقاً وتوازيها من الجنوب إلى الشمال عن بعد (٢٠ ك م) من المعمورة وهذه البادية تتصل ببادية العراق وتقطنها عربان البادية الرحالة وكلها مسلحة وهذه البادية لاتساعد للحركات العسكرية قطعياً ، نظراً لعدم وجود المياه فيها وفقدان الملاجئ والطرق .

ومن هذه الإيضاحات كلها يتضح أن طبيعة سورية مساعدة للدفاع لدرجة لايمكن التغلب عليها قطعا مهما كان خصمها قوياً وإن الثورة الحاضرة ستدوم إلى ان تحصل على مطاليبها تماماً وكل ما يذيعه العدو من الأخبار عن حالة الثورة لا أصل لها أبداً وكل ماتيقن الافرنسيين انهم أنهوا الثورة تفاجئهم حوادث جديدة تجعلهم أمام مشاكل عظيمة من جديد .

فلو تحصل هذه الثورة على معاونة مادية من المال والسلاح فهي تستطيع التغلب على عدوها مهما كان قوياً بأسرع مايمكن .

احتياج الثورة :

إن المعاونة التي تحتاجها الثورة في وقتها الحاضر والتي تتمكن بها من الوقوف أمام الجيش الموجود الآن في سورية والتغلب عليه فهي :

(٥٠٠٠) بارودة (٥٠) متر اليوز (١٠٠) اوتوماتيك (٤) مدافع طيارة (٨) صحرا (١٢) جبلي (٥) جهاز لاسلكي (٣) مليون خرطوش ولكل مدفع (٣٠٠٠) قنبلة و (٤٠٠٠٠) ليرة عثمانية .

فبهذا المقدار يمكن التحكم على كافة منابع الثروة في سورية وتأمين احتياجات الجيش من البلاد ويمكن قهر جيش العدو الموجود الآن في سورية .

وإذا حصلت الثورة على قرض من المال ومقادير من السلاح بالمقدار الآتي فعندها تتمكن الثورة الحاضرة من حماية سورية من جيوش الافرنسيين المحتمل إرسالها من فرانسة والمغرب مهما كان عددها ويمكن لسورية الفتية أن تسدد هذا القرض بعد ثلاثة سنين بعد انتهاء الثورة :

(٢٠٠٠٠) بندقية (٨٢) متر اليوز (١١٨) اوتوماتيك (١٢) مدفع للطيارة (٢٠) مدفع صحرا (٣٠) مدفع جبلي (٤٠) مدفع صغير عيار ٣,٥ (١٥) تانك (٢٥) مصفح (٣٠) طيارة مع لوازمهم الكافية (٨) مليون خرطوش للبنادق والرشاش ولكل مدفع (٤٥٠٠) مرمى و(١) مليون ليرة عثمانية .

إن سورية الجميلة لتعترف بالجميل لليد التي تمتد إليها في حالة نكبتها الحاضرة وترد الجميل بأجمل وثروتها الطبيعية ومركزها الجغرافي والسياسي سيساعدانها على التقدم بسرعة زائدة في نهضتها الجديدة التي ستجعلها نوراً تسترشد بها الشعوب العربية في الجزيرة وتسيطر على مقدراتها وتكسب الموقع اللامع في آسيا الكبرى .

وإن الساعة التي تصبح فيها مفيدة باقتصادياتها وبموقعها السياسي لحليفتها التي تعطفت عليها اليوم ليس ببعيد .

تقرير قدمه فوزي القاوقجي إلى القيادات السورية في مصر في ٤ / ١١ / ١٩٢٨ يبين فيه أن الثورة هي الطريق الوحيد لنيل البلاد مطالبها ويضع خطة أولية للبدء بثورة جديدة وشرح احتياجاتها الأولية .

إنني بناءً على اختباراتي الخاصة ، والمحادثات الشخصية التي أجريتها مع جميع المشتغلين بالقضية السورية افرادياً ومجتمعاً خلال شهر في مصر ، ومن استعراض الأحوال السياسية التي جرت وتجري الآن في سوريا وسير الفرنسيين بأوسع الخطى لإتمام تنفيذ سياستهم الاستعمارية التي منها فتح أبواب سوريا للعناصر الأجنبية المضرة وإيجاد أوطان قومية لهم فيها ولاستعمالهم سلاحاً قتالاً يقضي على كل حركة وطنية ، ومن أصرارهم على الاستمرار في تمزيق وحدة سوريا السياسية وخنق اقتصادياتها بحد ينذر بسوء المصير ، وغير ذلك مما يسير بالبلاد في طريق الخراب إلى أخطر المواقف ويدعو المخلصين من أبناء الوطن للتكاتف والحيلولة دون تمادي هذه السياسة الفتاكة عاجلاً قبل أن يصبح تلافيها متعذراً . وبما إننا لم نر الفرنسيين يوماً يصغون لصوت الشعب السوري إلا عندما يكون مقروناً بأصوات الرصاص وتبين لنا إنهم لا يحملون أي نية لسوريا تختلف عن نواياهم في افريقيا فلا يمكننا أن نأمل في الحصول على أي حق من حقوقنا إذا لم يكن طلبنا مشفوعاً بصوت الرصاص . وإن إرسال جندي افرنسي مجروحاً لبلاده ، أو كتاب من جندي مرابط في خندقه أمام ثورة البلاد لأشد تأثيراً وأقوى مفعولاً في الشعب الفرنسي من أبلغ النشريات والإحتجاجات التي ترسلها أقدر الهيئات السياسية من نوابغ الأمة .

لذلك بت أعتقد ان الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى حقنا هو الثورة والثورة وحدها تعيد للأمة كرامتها وتخلق المال والسلاح وتستجلب العطف العام .والثورة التي تندلع بشعور وأمل وعزم وجلد وعفة ونزاهة لا تنطفئ ولا تفشل .

لقد بذلت قصارى جهدي لتوحيد قوى جميع الهيئات الوطنية للتعاون على هذا الأمر ولكن لم اوفق فالكتلة التي تجد بنفسها الكفاءة وتقدم فهي ناجحة لا محالة .

الثورة : يكفي أن تبدأ بأربعمائة مقاتل تابعين لنظام معين ، مستندين على تشكيلات سياسية لا يدخلها انشقاق ولا يتخللها خلل وتستند على الوضع الآتي :

القيادة العامة : يكون لها : رئيس أركان حربها الذي يتفق مع القائد العام

على وضع الخطط الحربية ، وهيأة إدارية برئاسة القائد العام تستلم المال الذي يرد من اللجنة العليا فتصرفه بتنسيب الأركان حرب وبأمر القائد العام .

اللجنة العليا : (اللجنة الحالية) ترد إليها الأموال فتدبر شؤون المجاهدين وتؤمن حاجياتهم وترسل المال إلى القيادة العامة للمبايعات اللازمة في ميدان الثورة .

اللجنة المالية : مركزها – في القدس – أو في غيرها ترد بأسمها أموال الإعانات فترسلها إلى اللجنة العليا في مركز الثورة وتقوم بالمبايعات وبتأمين جميع مطالب اللجنة العليا .

الهيأة السياسية في مصر : يضم إليها ثلاثة أعضاء يمثلون الثوار تمثيلاً مطلقاً بتفويض من القائد العام ومن قواد الثورة واللجنة العليا ولايكون لغيرهم حق التدخل في شؤون الثوار ولهم أن يوكلوا عنهم هيأة سياسية في أوربا أو في غيرها تعمل جميع هذه الهيئات الدعاية اللازمة لاستنهاض الهمم في امريكا وغيرها لجمع الإعانات ولدى زعماء العرب الذين يرجى منهم أي معاونة مادية أو معنوية . وتتصل بالكتلة الوطنية في داخل البلاد لاستمالة الرأي العام نحو الثورة والدعاية اللازمة لمصلحة البلاد . وتكون هيأة مصر الصلة بين اللجنة العليا في ميدان الثورة والهيأة السياسية في أوربا لإطلاع الطرفين على تفاصيل الحالتين السياسية والعسكرية وما يترتب على كل منهم عمله.

الهيأة السياسية في أوربا : تنتدبها الهيأة السياسية في مصر وتعمل لاستجلاب الرأي العام الأوربي وتشرح الأسباب التي أوقفت الثورة أولاً وأدت لاندلاعها ثانياً. وتتفاهم على كل أعمالها مع الهيأة السياسية بمصر .

احتياج الثورة : تحتاج الثورة إلى ألفي جنيه للابتداء بالعمل وألف جنيه شهرياً بعد ذلك . عدا عن إعاشة العائلات النازحة .

إن الحالة الحاضرة تتطلب منتهى السرعة للإبتداء بالاستعداد اللازم كي يكون تاماً في الساعة التي تحتاجها البلاد . وإن الأحوال الجغرافية وطبيعة البلاد لاتسمح بامتداد دور الاستعداد أكثر من شهرين إذ ان الشروط الجوية وحدها تقضي على نتيجة كل عمل يبدأ بعد منتصف شهر شباط .

بعض الأقوال التي تشيد بمقدرة القاوقجي خلال أحداث الثورة السورية ١٩٢٥ - ١٩٢٧

وكتب لي أخي المقدم في الجيش العراقي فرج عمارة ما يأتي : ٢٨/٣/١٩٢٧

أرجو أن يوفقك الله وينيلك كل آمالك . على كل حال الخروج من بين مجتمع متفسخ والبروز للميدان لمقاومة الأبطال ليس هو كار كل رجل . وسواء افزت بقضيتك أم لم تفز فإنك على كل حال من أعلى طبقة رجال العرب الممتازين . فلتكن بشواتنا واتباعهم ضحايا لك . إذا لم تتمكنوا من الحصول على مطالبكم السياسية جميعها فلا شك إنكم ستحصلون على القسم الأعظم منها وهذا نتيجة طبيعية لجهادكم المبارك . أما نحن فغرقى في الترياق والخيال .

* * *

وورد علي من عمر العمري من عمان بتاريخ ٨/٥/٢٧ مايلي :

كما نذكرك مع سعيد بك حيدر في داري ونذكر أن وقائعك الأخيرة كانت مدهشة . وقد ملأت مناوراتك الكبرى الأخيرة مسامعنا والله إنا نتعقب أخبارك ساعة ساعة ويوما فيوما .

* * *

ومن كتاب من الحاج أديب خير – ٢٨/٢/٢٧ :

أما وقد عدت سالماً إلى مربضك من الصفا فأسأل الله أن يجزيك عن هذه الأمة خيراً .

* * *

وورد علي من المجاهد صبحي العمري – ١ نيسان ١٩٢٧ :

... إننا نتعقب أخبارك السارة عن بعد أدامك الله يا فوزي أنت نجمة ساطعة في جبين العرب بل بدر . المجد كله لك وإن ما ينتظرك من العلو في المستقبل لأعظم

ولا بد أن أراك سعيداً في تلك الأيام السعيد .

* * *

من كتاب أمين رويحه ٢٧ نيسان ١٩٢٧ من عمان :

أما أخبار الحملة في عمان والقدس والخارج فكما يرام والكل معجبين ومفاخرين بأعمالكم هذه والجرائد اهتمت اهتماماً زائداً بذكر أخباركم والكل يظنون أنكم قمتم بهذه الحملة وهذا العمل الخطر لأجل إشغال العدو عن (اللجا) وقد أنقذتم حالة اللجا والبلاغات الفرنسوية تدل ان الفرنسيين أنفسهم اهتموا اهتماماً زائداً هذه المرة . وقد كان قائد الحملة الجنرال مارتي والقنصل يستمعونها عند قدومكم .

* * *

ومن سعيد ترمانيني من عمان بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٢٧ :

فإن ما قمتم به من الأعمال الأخيرة هو مفخرة عظيمة تضم الى أعمالكم السابقة المجيدة التي سيسجلها التاريخ بأحرف من نور فبارك الله بكم وحفظكم بعين عنايته إنه كريم .

... وبناء على الوقائع الأخيرة التي قمتم بها في جبل الزاوية ووقائع اللجا يبشرون إخواننا المشتغلين بالسياسة في مصر بأن تبدلاً كبيراً حصل في أفكار الحكومة الفرنسية وإنها قنعت بأن الثورة حقيقة لم تنته وإن رجالهم العسكريين مكابرون في زعمهم بأن كل شيء قد انتهى . وأخذت جرائدهم تنادي بوجوب التفاهم مع السوريين ومن هنا يظهر لك الانقلاب الكبير الحاصل في رؤوس الافرنسيين المسؤولين وهذه لاشك بشرى عظيمة أزفها إليك .

* * *

من كتاب وردني في ٣٠ نيسان ١٩٢٧ من عمان من الدكتور أمين رويحه الذي كنت أرسلته إليها بمهمة تأمين احتياج المفرزة بعد عودتها من الشمال : « إني صادفت ليلة البارحة نسيب البكري على الطريق فأوقفني وجرت بيني وبينه هذه

المحاورة .

أين فوزي وهل هو جريح ؟ فوزي بك بالصفا وصحته ولله الحمد جيدة وهو لم يجرح كما أشيع عنه .

ولكن الله يصلحه فأجابه الدكتور مامعنى ذلك يا نسيب بك ؟ قول إن السفره كانت سخنه . فتأمل اخلاص نسيب بك هو يطلب لك من الله الإصلاح في حين أن الغير من الأعداء لا يسعهم إلا الإعجاب التام بحركتنا الأخيرة والأكثر يعادلونها بجميع ما يسبقها من الأعمال وهي التي جعلت الكل يعترفون بأن فوزي هو أعظم رجل في هذه الثورة كما قال لي سعيد حيدر الذي جاء نهار أمس من مصر وقد علمت من سعيد حيدر أنه اطلع على تقاريركم في القدس وفهم قصدكم وشرح لي في حديثه عن الحاله السياسية في باريس ثم حالة الثورة الاقتصادية وتطاعن الأحزاب إلخ وأهم شيء أفهمته منه أنه معجب بكم هو وجميع من في مصر وقد أجمعت الكلمة على أنكم متفوقين على جميع الزعماء » .

* * *

من كتاب الثورة السورية – لسعيد العاص – والبطل الشهيد والشجاع النادر الذي كان من رؤوس أبطال ثورة سورية ضد الافرنسيين ١٩٢٥ والذي يعتبر صديق المفتي الصميم وقد طلبه لفلسطين واستشهد ١٩٣٦ .

أبطال القوميات :

فصل « أعاظم رجال الثورة في المرآة : فوزي بك القاوقجي »

– اشتغل فوزي بك في المسائل العربية بعد الاحتلال الإفرنسي ووحد أعماله السياسية مع كتلة مستنيرة صالحة في حمص وحماه وكان له صلة متينة وتأثير شديد على محيط خمص وحماه . ويعتقد أن التقرب من جيراننا الشماليين سيؤمن للبلاد الأماني التي تصبو إليها . أنتهز فوزي بك ثورة الجبل فاتخذ جميع الأسباب وأعلن الثورة السورية بحماه وكنت أنا وقتئذ في جبل الدروز وكنا أمام جيوش غاملان فاستفادت الثورة من وثبة فوزي بك فائدة معنوية مقرونة بفائدة مادية إذ أرتبك سراي في أمره واضطر غاملان للإنسحاب من الجبل .

– وقد برز فوزي في عمله وسجل له صحيفة بيضاء في الجهاد المقدس السوري فكان مثالاً عظيماً للجد وأمثولة البطولة الخالدة السورية فهو شجاع من الطبقة الأولى وفي صف الأبطال الذين يشرب على نخبهم كأس البطولة السورية . كنت أنا وإياه في الشعبة الثالثة في دائرة التمرين – دائرة الترجمة والتعريب .

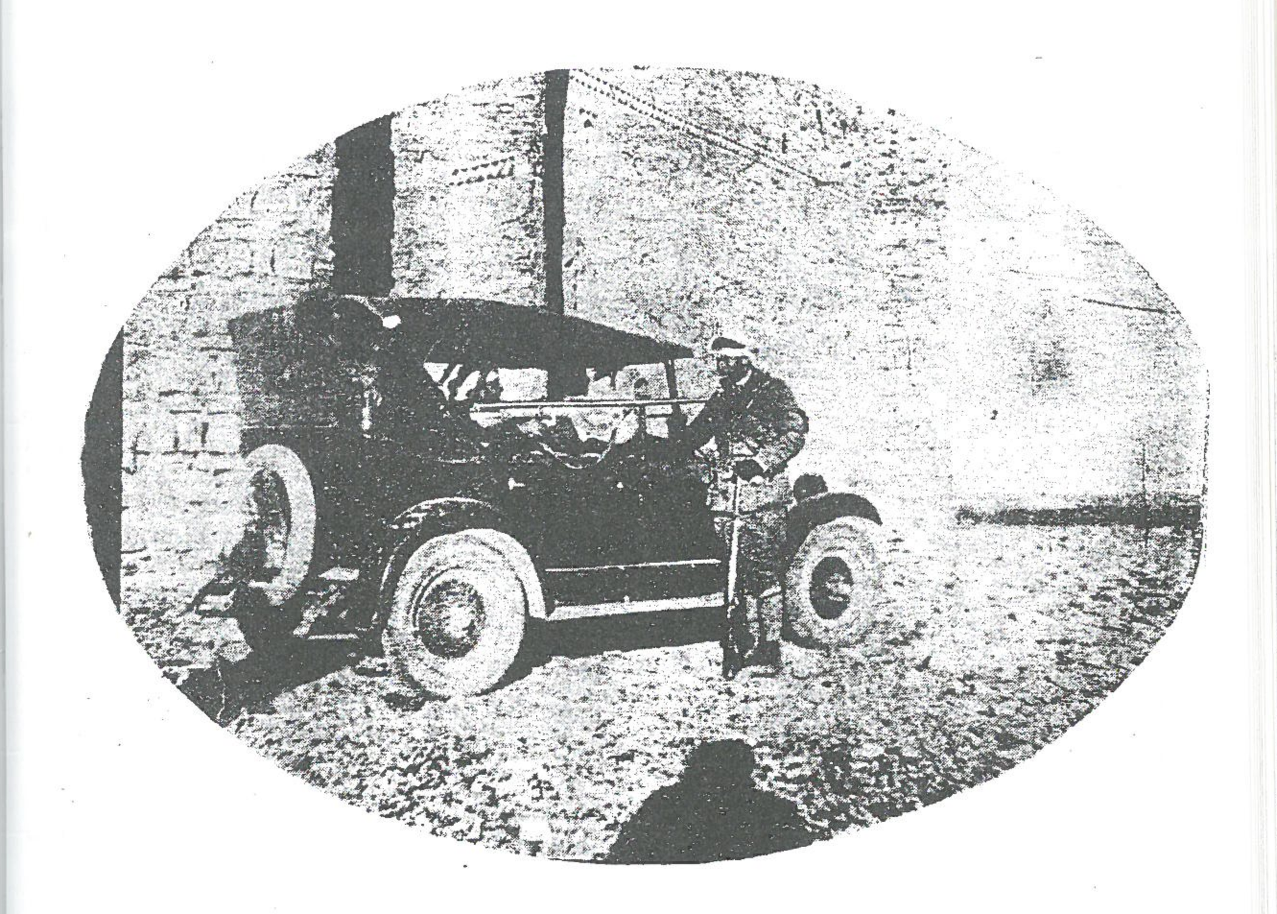
– وسألني السيد عادل العظمة عن أصلح الأخوان ومن الذي يمكنه القيام بالأعمال العامة فأجبته على الفور فوزي بك فقلدته الهيئات السياسية القيادة للشمال ومن ذلك الحين كانت أعمال فوزي بك باهرة جداً وقام بأعمال حربية عظيمة للغاية .

– إن ثورة حماة كانت العامل الوحيد في سحب جيوش غاملن بقضه وقضيضه . وهي إحدى دعائم الثورة السورية ، ولولاها لما اشتدت الثورة وقوى ساعدها . وتضحية حماة تعد من أعظم التضحيات في سبيل الواجب المقدس وعمل فوزي بك يعد من أعظم التضحيات فبارك الله بالبطل فوزي وجزى الله حماة عن الأمة السورية العربية أعظم الجزاء .

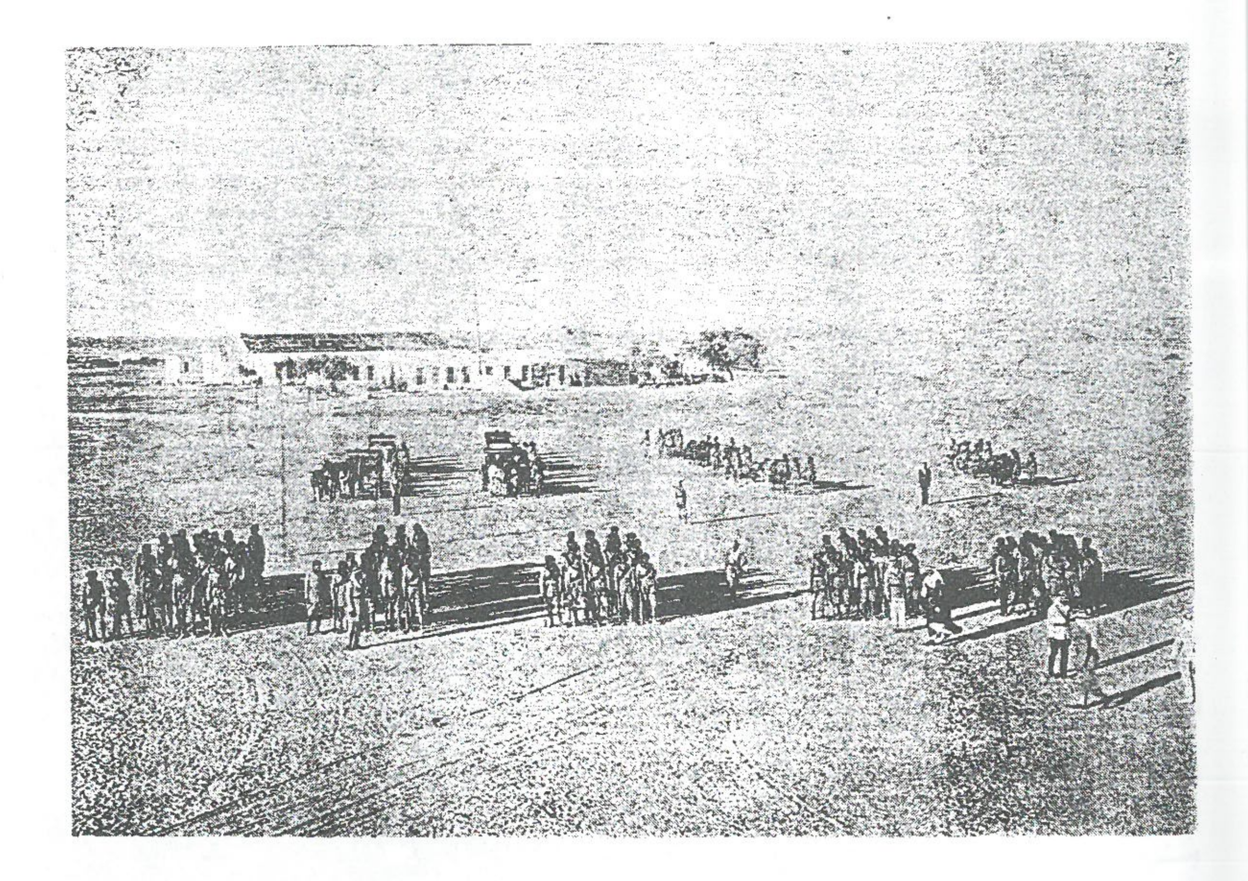
– وقمت بحرب عيون العلق فأتاني فوزي بك بمفرده إذ تخلى عنه جميع الذين معه فمجيئه هو منتهى الشجاعة . وقاومنا العدو وست ساعات متوالية . وفي اليوم الثاني دافع فوزي عن أهل البلده وأنا اتخذت الجبل مركزاً لي فدافع كل منا حتى فرغ آخر رصاصه . ثم عدنا للغوطة وقمنا بأعمال موحده مشتركة فأعدنا للغوطة سيرتها الأولى ... ولا أنسى ثباته في وقعة أبو تركي وفي حروب النبك ثم عودته للغوطة وقيامه بالحروب الهائلة في حركة التطويق ثم نزوله للغوطة بعد الصلح مع الأخوان وحربه في عين ترما واستبساله وإقدامه على السفر للشمال حتى العمق. ففوزي بك في الصف الأول وهو من أشجع شجعان هذا الجهاد وذو إقدام عظيم وصاحب ثبات كبير وهو فعال للغاية وشجاع لايهاب الموت ولكن الحظ لم يساعده . فعلى كل هو مثال عظيم للبطولة السورية الخالدة ومثل أعلى للتثبت السوري قائد مدرب بمعنى الكلمة وهو من الذين دونوا في هذا الجهاد صحائف غراء وقد جعل للثورة السورية مكانة سامية عظيمة جداً وقام بأعمال جليلة باهرة ، فعلى ضباط العرب أن تنسج على منواله وعلى الشبيبة أن تأخذ دروس البطولة من

إقدامه وجهوده ، فسوريا تفتخر بجهود ابنها البار الشجاع فوزي بك لأنه آية من آيات البسالة والشجاعة ومنزلته لاشك في قلوب إخوانه المخلصين سامية فمثل هذا فليعمل الشباب الناهض السوري وعلى خطة فوزي وإخوانه فلتمشي الأمة السورية العربية لإنقاذ بلادها .

فوزي القاوقجي مع هزاع أيوب خلال الثورة السورية الكبرى



تدريبات الجيش السعودي التي أشرف عليها فوزي القاوقجي خلال إقامته في نجد (١٩٢٨ - ١٩٣٢)



الأمير فيصل آل سعود يشهد تدريبات الجيش السعودي التي أشرف عليها فوزي القاوقجي (١٩٣٠)



رسالة من الملك عبد العزيز آل سعود موجهة إلى فوزي القاوقجي ١٩ ربيع الثاني ١٣٥٠ (٤ أيلول ١٩٣١) يطلب من البقاء في نجد والتخلي عن فكرة الرحيل .

بسم الله الرحمن الرحيم



المملكة الحجازية والنجدية وملحقاتها

عدد ٣/٢٣/٦

في ١٩ ربيع الثاني سنة ١٣٥٠

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فوزى القاوقجي سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله ، وبعد فقد تلقينا كتابكم وذكرتم رغبتكم في

العمل او السفر ونحن نرى ان تستقيموا هذه المدة لانكم محسوبون علينا

وسترون ان شاء الله مايسركم في المستقبل ونسأل الله ان يوفقنا جميعا لما يحبه

ويرضاه والسلام

فوزي القاوقجي في بغداد وهو يحيي جثمان الملك فيصل الأول باسم الجيش العراقي ١٩٣٣

بلاغ رقم ٧ باسم القيادة العامة للثورة العربية في سوريا الجنوبية (فلسطين) ٢٣ / ٢٤ / أيلول ١٩٣٦ بشأن الإنتصار في موقعة جبع .

القيادة العامة
للثورة العربية في سوريا الجنوبية
(فلسطين)

بلاغ رقم ٧ / ٣٦

كانت القيادة قررت ترتيب معركة تجبر العدو ادخال طاقة قوام
الجيش ومنازلة ضربة قاسية تزعزع مراكزه القاعدية وتثبت
بعد ان تم تنظيم الثوار الفلسطينيين في مناطقهم وتوجيه قواتنا
ليلة ٢٢/٢٣/٩/٣٦ الى منطقة جبع حيث تقرر فيها بدء القتال
ولو ان الخطة اخبر العدو واحد من اهالي المنطقة فحضر بقوات
فائقة كاملة للعدو الى المنطقة قبل ان تتم ترتيباتنا وابتدأت
المعركة حالا الساعة ١٠،١ بعد الظهر على تطهير وتطبيق احاطة
فانضم الى العدو قوى بعد سبعة كيلومترات عن بعضها يقوم تقدم
بخمسة افواج (٤٠٠٠) جندي وطيارات [illegible]
ويقدم ما شوهد من سيارات ودبابات (١٥٠) [illegible]
من الاحاطة السريعة التي قام بها العدو تمكنت قواتنا من بداية
المعركة لتوقيف ارتال الاحاطة وتشتيتها ليعد تقدم جزء
وما لبثنا ان تداخلت قطعاتنا الى خطوطه [illegible] الى
جبهة الارتال ودحرها وشد الضغط عليها حتى اضطر
[illegible] العدو للتراجع وبالرغم من فعالية [illegible]
العدو وطياراته [illegible] الطائرات الحربية [illegible]
لم تتمكن قواته من الثبات واخذت تتراجع الى نقاط
الشروع [illegible] المعركة حتى الساعة ٧ والضغط

(٢)

حتى ابعد عن العدو حتى تم انسحابه :
وبعد انسحابه من مواقعه هوجم من قبل مغاوير فلسطين ٢
وارتبط على خطوط رجعته من الساعة ٨ وكبدته خسائر
فادحة :
وقد احترقت اول طائرة في العشرة الدقائق الاولى من المعركة
وبعد عشرين دقيقة تركت طائرتان آخرتان ارضاً من بداية القتال
وبعد نصف ساعة من تغييرها انتشرت طائرات جديدة .
وقد غنمنا عدة مخازن من رشاشات العدو ومسدسات
وخوذ فولاذية :
وقد امتازت هذه المعركة بجاهدوا البدو والشوام في صد تقدم
[illegible] الفدائية الفلسطينية التي وجهت الى
[illegible] الغربي [illegible] وكان [illegible]
في [illegible] مواقع العدو التي احتلت في بداية المعركة
اما خسائرنا فهي اربعة شهداء من البدو والشوام واثنين
فلسطينيين وستة جرحى : ولا نعلم بالضبط عن مقدار
خسائر العدو . انما الاخبار الواردة من نابلس تفيد بان
عدة سيارات صحية كانت تنقل قتلى العدو وجرحاه قبل
الغروب : ولا يعلم بالضبط بعد الغروب غياب الشمس
اننا نحيي ببسالة الشهداء لدماء الزكية هذه الدماء [illegible]
من مخالب الصهيونية التي تحتل بلادنا العزيزة [illegible]
[illegible] العرب [illegible] للعناية بجرحانا التي
نقوم بتضميدها [illegible] وتوطن المجاهد [illegible]
القيادة العامة للثورة العربية في سورية الجنوبية فلسطين

القيادة العامة
للثورة العربية في سورية الجنوبية
فلسطين

ملحق البلاغ رقم (٧) ٢٧/٩/٣٦

نظراً للتقارير الواردة من مغاوزنا الفلسطينية التي طلبت
اشتراكها في نفس الساعة من كافة انحاء فلسطين في وقعة
جبع ؛ ونظراً للاخبار الواردة من مراكزنا الخاصة
المتعددة تبين ان خسائر العدو في معارك يوم
٢٤/٩/٣٦ التي دارت في كافة الجبهات كانت :
ضابط ذو رتبة عالية ؛ وعدة ضباط ؛ وثلاث طائرات
وما يقارب من مائتي قتيل وجريح :

القائد العام
للثورة العربية في سورية الجنوبية
(فلسطين)

بلاغ رقم ١٧ الصادر باسم فوزي القاوقجي بصفته القائد العام للثورة العربية في سورية الجنوبية (فلسطين) في ٢٠ / ١٠ / ١٩٣٦ يخاطب بها الشعب العربي الفلسطيني بعد وقف الإضراب ترقباً لنتائج المفاوضات وتنظيم مناطق الثورة .

القيادة العامة للثورة العربية في سوريا الجنوبية (فلسطين)

بلاغ رقم ١٧ / ٢٠ / ١٠ / ٣٦ إن الأعمال المجيدة التي قام بها الشعب العربي في هذه البقعة المقدسة (فلسطين) طوال مدة الإضراب من صبر على المكاره ودفن للأحقاد ومحافظة على النظام والتضحية والبطولة مع الطاعة والانقياد كل ذلك ولا يزال مدعاة للفخر والإعجاب في الأوساط العربية كافة والغربية أيضاً التي أخذ ساستها وصحافتها وكتابها يتسابقون إلى تمجيد هذا النضال الشريف وإني حفظاً لهذه السمعة القيمة وحرصاً على كرامتنا العزيزة أطلب من الشعب العربي المجيد مراعاة الأمور الآتية بكل اهتمام.

١- عدم مقابلة اليهود بالمثل وهم الذين أخذوا يعتدون لا عن شجاعة وشهامة - وهما مفقودتان من فطرتهم - بل بقصد الدس والإفساد بين جيش الثورة والجيش البريطاني كي يعود النزاع والاضطراب ولكي يفسدوا علينا المفاوضات فيحيلون دون نيل البلاد حقها وإني أرجو من الشعب العربي الكريم الصبر والانتظار ما ستضعه السلطة البريطانية من حقوق العرب . فإذا تهاونت عندئذ يرى اليهود كيف يكون الدفاع وكيف يكون الإنتقام وسيروا من بأسنا الذي لا يجهلونه كما إني أطلب من الشعب العربي أن يداوم على مقاطعة اليهود المقاطعة التامة وعدم التعامل معهم كما إني أطلب إليه أن يقاطع كل من يتعامل من العرب مع اليهود سواء أكان فرداً أم قرية مقاطعة أشد من مقاطعة اليهود في الشؤون كافة حتى لايجد هؤلاء الخوارج بين الناس من يسلم عليهم .

٢- إن ثابر أهل القرى في جميع المناطق على حل قضاياهم البسيطة كما كانوا يفعلون حتى اليوم أما ما أشكل عليهم من قضايا فيجب الرجوع بها إلى محكمة الثورة التي تنجز كل يوم ما يعرض عليها من القضايا والتي لم تترك مسألة إلا حلتها على أساس العدل المبين.

٣- أن تتكفل هيئة اختيارية القرى ووجهائها سلامة أسلحة المجاهدين الموجودة في قراهم وحفظها على أن تكون جميعها جاهزة عند الطلب وإن القيادة تحتفظ بكشوف أسلحة المجاهدين في مناطق كافة للتدقيق والتثبت عند اللزوم وإني لأدعو بهذه المناسبة أهالي البلاد الكرام جميعاً أن لاينسوا الشهداء والجرحى وكذلك أولئك الذين نسفت منازلهم من العطف عليهم ومواساتهم لجمع الإعانات والتبرع لعائلاتهم كما إنه يجب أن نذكر دائماً شهداءنا فهم الذين أنالوا الأمة هذا الفوز المبين وعلينا أن نجعل من يوم ٢٧ رجب من كل سنة يوم الشهداء والنصر إن تمجيد شهداءنا هو التشجيع والترحيب بالقوافل القادمة للاستشهاد في سبيل الدفاع عن الوطن المقدس عندما تستهدفه المطامع والأخطار .

القائد العام للثورة العربية

في سورية الجنوبية (فلسطين)

بلاغ رقم ١٨ الصادر باسم فوزي القاوقجي بصفته القائد العام للثورة العربية في سورية الجنوبية (فلسطين) في ٢٢ / ١٠ / ١٩٣٦ تعقيباً على نداء الملوك والأمراء العرب بوقف أعمال الثورة والإضراب .

بيان القاوقجي بعد وقف القتال في فلسطين (١٩٣٦)

الايام في ٣٠ تشرين الاول سنة ١٩٣٦

بعد وقف القتال في فلسطين

١٨

بيان القاوقجي بعد وقف القتال

جيش الثورة طلائع الجيوش العربية في المستقبل

تلقينا من القيادة العامة للثورة العربية في سورية الجنوبية البلاغ الرسمي التالي الصادر بتاريخ ٢٢ الجاري تحت رقم ١٨ هذا نصه :

بلاغ رقم «١٨»

ان قضية فلسطين المقدسة — بعد نداء ملوكها وامرائها العرب — وتعهدي وشمانهم في انالة البلاد حقوقها اصبحت قضية عربية وقضية كرامة وشرف للملوك والامراء وللامة العربية كافة . واصبح كل فرد عربي مشترك في هذه القضية ومجبر على الدفاع من هذه الكرامة وهذا الشرف .

وما كان الخصم ليصغي الى النداآت او ليقبل المهادنة لولا الضحايا التي قدمت في انتصارات المعارك الاخيرة ، ولولا هذه الانتصارات لكان مصير التوسط الاخير كمصير التوسط الاول الذي رده الخصم باستهتار ، معتمداً في ذلك على نجداته الكبيرة التي قرر ادخالها الميدان ، واملا بوجودها القضاء على الثورة .

ان جيش الثورة لفخور جداً بان يكون قام بواجبه ، كما عاهد ، وانتهى بالفوز واوصل البلاد الى حدود امانيها وحقوقها التي اصبحت في عديدة الملوك والامراء والامة العربية جمعاء

لهذا ترى قيادة جيش الثورة اعتماداً على ضمانة الملوك والامراء وحفظاً لسلامة المفاوضات . ولعدم جعل اية ذريعة للخصم يتذرع بها للعبث في الحقوق المضمونة ، أن يترك الميدان مرابطاً بجميع قوى الجيش بعد ان لم يبق له اى عمل وانها لتعاهد ان يكون جيش الثورة طلائع الجيوش العربية التي سوف تسرع لانقاذ فلسطين ، وانها ستعود الى العمل على نفس النظام الذي انهى به حركاته المجيدة ، فيما اذا تصلب الانتداب ولم يعط البلاد حقها

واننا اذا عاهدنا وفينا (وان عدتم عدنا) .

فوز الدين القاوقجي
القائد العام للثورة العربية
في فلسطين

إحدى معارك الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦

أقوال تشيد بكفاءة القاوقجي خلال ثورة فلسطين ١٩٣٦

إن ما أظهره القاوقجي من الحكمة والبسالة والمقدرة يجب أن يكون قدوة لضباطنا

الجنرال ديل عمان ١٩٣٦

* * *

وكان يلعب على الجيش الإنكليزي بمناوارت تثير الدهشة والاستغراب

لندن ١٩٣٦ جريدة الديلي ميل

* * *

لايوجد عندكم من يتمتع بالمزايا العسكرية كفوزي حتى عندنا إلا النادر

الكومندان كولين للحاج أديب خير دمشق ١٩٣٦

* * *

ماعرف الشعب الإنكليزي قضية فلسطين إلا بعد قيادتك الثورة فيها

مستر دانيال أوليفر كركوك ١٩٣٧

* * *

نشرت الكثير من الجرائد البريطانية الكثير من المقالات عني ، وكأنها أسطورة

وأسرد هنا ما نشرته (جريدة الديل مايل) : بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٣٦ معربه في جريدة الأيام البيروتية .

هل يسعد القاوقجي ؟

« لقد بدأت الثورة في فلسطين بشكل لا يدعو إلي الخوف أو القلق غير أن استلام القاوقجي إدارة الثورة هي التي مددت أجلها وأثارت كثيراًمن المتاعب في وجه الإنكليز .

وقد أظهر فوزي القاوقجي وهو ضابط سوري خبير في حروب الثورات مقدرة

خطيرة في إدارة الثورة .

وكان يلعب على الجيش الإنكليزي بمناورات تثير الدهشة والاستغراب .وإذا توقفت الثورة الآن فإن وجود فوزي القاوقجي في فلسطين وحده لايضع حداً نهائياً للثورة .

ولابد أن يعود القاوقجي إلى القتال إذا لم تتحقق مطاليب العرب » .

وإني أوكد لو تغلب المفتي على أحقاده وسلمني قيادة ثورة فلسطين (٣٧) لما فشلت مطلقاً ولكنت حققت المطاليب الفلسطينية بأكملها .

لأنه كانت خبرتي أوسع وأعمق بأساليب قتال الإنكليز ، وكانت ثقة الشعوب بي أكبر وأكبر وثقتي بنفسي لا حد لها .

* * *

ويأتيني الكتاب التالي من المفتي : ٢٣/١٠/٣٦

إن تقتصرو على العدد اللازم بنية تصفية الأمور بصورة نهائية مع بقائكم في محل الكريات أو غيرها إلى أن تنتهي الانتخابات في بلادنا . وأنا حريص جداً أن تخرج من هذا المعمعة الموفقة التي خضتموها بسلام وأمان ولتسمع الأمة في البلاد في عهدها الجديد بمواهبكم الثمينة وكفاآتكم اللامعة ...

أنا أعتقد وكل رجل في جميع البلاد إنكم قمتم أحسن قيام بعمل لم يعمله أحداً من قبل ولا تقدم عليه أحد .

* * *

وخطب الحرب في الهيجاء فوزي على	سقاهم يومها كاسات علقم
تلك الحصون هلال نصر	يلوح إمام نجم مكرم
علينا باتحاد وائتلاف	يزيد علاؤنا قدراً ومغنم
نبي الله نادى مع ذويه	ألا اتفقوا فإن الله انعم
نحن العرب كنا ان أعرنا	رئيساً منبراً صلى وسلم

سلام كل ما أنشدت فيكم … لسان الشرق مافي القلب يرحم
زرت في الغابة المجاهد فوزي … دام في حفظ من براه وحرز
ولديه المجاهدون فسلمت … على خير أمة وأعز
وتلمست كفه بفؤادٍ … مستنير بحبه معتز
ثم قبلت ثوبه بعيوني … أي ثوب من العلى والعز
ذاك ثوبٌ كلُّ البطولة فيه … لم يُدنَّس من المخازي بغرز
ثم اتبعت سيفه قبلات … وهو يدعو بالصالحات ويجزي
أقبلت للعراق فيَّ طرابلسٌ … تحيي ابنها المرابط فوزي
أيها القائد المجاهد لازلتَ … بخير تفرى العدوّ وترزي
محييا خالداً بسيرتك العز … اء في كل شأنه والطرز
راميا لندنا أمام فلسطين … بسهم من البطولة مُزرى
قمت فيها تحارب البغي حتى … قتل الشاه من يديك يعزز
وكتبت الفخار في لوحة … المجد بسيف لمن تهود مخزي
ملكُ أظفارك البطولة والفخر … وصدق المجاهد المستفز
حيرت لندنا وقائعك الغرُّ … فالقت سلاحها عن عجز
واستغاثت مضطرةً بملوك … العرب سعيا لحلِّ هذا اللغز
فابق للعرب والعروبة فخرا … ولبيت نماك آية عز
أنت فخري إذا انتسبتُ لدار … وانتسابي إليك يافوز كنزي
كلُّ شيء حتى اليهود يحيي … فارس العرب والاعاجم فوزي

* * *

نسخة عن رسالة كتبها فوزي القاوقجي إلى عادل العظمة في ٣٠/١٢/١٩٣٦ يشرح آراءه حول بناء جيش حديث في سوريا في العهد الوطني بعد إبرام المعاهدة مع فرنسا .

كتابي إلى عادل العظمة ٣٠/١٢/١٩٣٦

وكذلك أود أن أدلي بآرائي إليك بالنسبة إلى جيشنا الذي سيتشكل وأنت بدورك إذا وجدت ذلك مناسباً أن تعرضه على الأخوان الذين يهمهم الأمر :

١ – المعروف إلى الآن عن السوريين أنهم أقدر العرب واليقهم في التكوين والإدراك والعروبة : من كل بقية الأقطار العربية ، وإن العراق أوضع مستوى من سوريا .

٢ – العراق تمكن من إيجاد جيش ضمن حدود أول معاهدة ربما كانت أضيق بكثير من معاهدتنا الحالية : وتمكن كذلك من توسيعه وتنظيمه تدريجياً حتى تمكن من تأمين الأمن داخل الحدود .

وأقدم على إنقلابه الأخير فاحترم إنقلابه الإنكليز وجيرانه وهو آخذ بالتقدم من كل الوجوه .

٣ – إذا نحن كذلك يجب أن لانكون أقل أهلية ومقدرة في تكوين جيشنا وحكومتنا من العراق . والأدوار المقبلة ستكون أدوار اختبار لاستعدادنا فأما أن نكون عند حسن ظن العالم بالتضامن والأعمال والإخلاص الذي سوف نظهره أو نكون بتعدد الأحزاب والتخاذل ، والالتماسات والتقاتل على المناصب والرواتب :

عبارة عن بقية فينيقيين لانصلح إلا للتجارة خارج سورية فهذا كله تابع لما سنظهره من الكفاءة والإخلاص فقط :

– الجيش هو وحده عماد استقلالنا والجيوش في نظري اليوم لا بالعَدَد ولا بالعُدَد وحدها : بل بالمعنويات التي هي عبارة عن الروح الوطنية الصادقة وروح التضحية الخالصة وبقوة عطف الشعب على الجيش .

وقد أوثق أننا لو استطعنا تنظيم جيش صغير على هذا الأساس مع المعدات

الحديثة التي تسمح لنا بها ميزانيتنا فيمكننا حينئذ أن نقضي على فكرة عند جيراننا في شأن اسكندرون وغيرها :

وإذا لم يكن لدينا جيش من هذا النوع فيجب أن ننتظر مباغتة عملية من الأتراك على اسكندرون وأنطاكية لا يفيد معها أي تدبير أو أي تحالف نظراً للموقف الدولي الخطير وللعقلية التركية المعلومة .

والدولة التي تصبح حدودها من الشمال حماه ومن الجنوب درعا فهي ليست دولة فبعد كل هذه الملاحظات والمقدمات

أقول إن فكري هو : أولاً : إيجاد المنابع التي يجب أن تغذي الجيش وتؤمن حاجته من جندي وطني ، وضابط صف مثقف وضابط منور وشعلة حماس وغيره على وطنه .

– أن لايكون الهدف الأول الذي هو الأساس الذي يبني عليه الجيش من عناصر ضعيفة بالوطنية ، فاقدة روح التضحية بعيدة عن مادة العالم العسكري الحديث الذي تطور بعد الحرب العامة لدرجة ربما أصبح علماً غريباً عن المنقطعين عنه منذ الحرب .

– أن لايكون للبعثات الأفرنسية وللمستشارين أكثر من الاستشارة وإعطاء الرأي وإبداء الملاحظات الفنية ومواضيع التعاون الأخرى كي لايحرم المافوق السوري الثقة من قلب الجندي السوري ويكون الضابط الأفرنسي هو الذي يملأ عين الجندي السوري وهو موضع تقديره ويشعر بالتفوق على السوري من كل الوجوه .

– أن لا يضبط الجيش السوري لاستعمال سلاحه ضد الشعب لإخماد فتنة أو غيرها . فيحرم عندئذ من عطف الشعب الذي هو منبع حياته وقوته الوحيدة فيصبح ضعيف مهما كان مزوداً بالوسائل الفنية المادية : وهكذا قد أصبح الجيش العراقي بعد حركاته المتعددة في إخماد الثورات الداخلية التي جعلته في عين الشعب كجيش أجنبي محتل وأصبح هو بدوره ينظر إلى الرجال المسؤلين الذين أجوه في قتال أهله وعشيرته كأعداء وهذا هو سر نجاح الحركة الأخيرة التي لولا نفور الجيش

من رجال الحكومة لكانت مستحيلة لذلك يقتضي تشكيلات قوات الدرك والشرطة التي هي تأخذ على عاتقها مثل هذه الأعمال : ويبقى الجيش لحراسة الحدود ودفع التعدي مستنداً على حب الشعب وعطفه .

أما في الوقت الحاضر فعندي أن يكتفي بنسبة ماتسمح به ميزانيتنا من الوسعة لتأمين أحدث المعدات الفنية وأكملها على أن تودع إلى أقدر وأطهر الأيدي الموجودة حالاً من خيرة المتقاعدين فقط ومن الضباط السوريين الموجودين في الجيش السوري الأفرنسي الحاضر ومن الضباط السوريين الموجودين في العراق إلى أن يتم محصول المدارس التي يجب أن تكون موضع العناية الخاصة والاهتمام لفراغه الكاملة لتأتي بأحسن المنتوج وبأسرع وقت ممكن .

وكذلك يجب أن توضع كل طبقات الشعب في تشكيلات خاصة تهيئة للجندية بأساليب عملية وبسيطة ليكون هو ويفيد جميع مدارس الدولة من الابتدائية إلى أرفع درجة على أتم استعداد لإكمال أي فراغ يحدث أو لدى أي احتياج فجائي يستلزمه الدفاع عن حياة الدولة .

هذه هي خلاصة آرائي أعرضها دون أن أتطرق إلى أنواع التشكيلات المناسبة والملائمة لروحية الشعب ولعقلية العصر العسكري الحديث : فأن رجالنا العسكريين الكفائه وزيادة .

أرجو أن تكتب لي كذلك فكرك في هذا الموضوع مفصلاً ولك قبلات وأشواق حارة من أخيك

المشتاق

رسالة من عادل الحامدي (ابن خالة القاوقجي) من دمشق ١ / ٢ / ١٩٣٨ إلى القاوقجي في العراق يؤكد له عن الاستعداد في دمشق وعمان وفلسطين للعمل القومي وتطلعهم لقيادة القاوقجي .

رسالة موجهة من فوزي القاوقجي في العراق إلى عادل العظمة في دمشق يبحث فيها مسألة أسكندرون ، والحاجة الى اغتنام الظروف الدولية ، ووجوب إحداث تشكيلات عسكرية وفيها إشارة إلى مسألة مذكراته

اذا ما تيسر تدريس الكتاب بكونه الفصول حاضرة عندكم.
اما الطبع والترجمة وكل ما يتعلق بذلك فاني اتركه بلا قيد
ولا شرط لرأيكما. واني اعتقد نظركما الى ان هذا الكتاب سيجدي على
عدد كبير من ارسالهم والخرائط والمخططات العسكرية.
وختاما ارجو ابلاغ تحياتي واشواقي الى الاخ عوني بك الذي لم يكتب
الي شيئا الى الآن وكانت (في نظري) الاسباب: [عاملان فقط] ولكني
اصبحت اعتقد ان عدم كتابته ربما ترجع الى اكثر من [عاملين يتناجيان في
الشرق وعمان]. كما اني ارجوك ان تقدم احترامي واشواقي الى سلمى ودمتم
لاخيكم المحب

فوزي

مرضا [illegible] سيدتي ابلاغ [illegible] اذكى التحيات ولابي سلمى

تنبيه

~~[illegible]~~

وانا ارجوكم بعدم [illegible] وانا قادم الى سورية مصدر فلسطين

~~[illegible]~~

بكل ما لديكم من المعلومات

~~[illegible]~~

من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

و[illegible] [illegible] [illegible] عند [illegible]

[illegible] مستشنه [illegible].

جزء من رسالة بخط فوزي القاوقجي (قد تكون ملحقة بالرسالة السابقة)
تشير بغموض إلى وصول أسلحة وأموال (ربما المانية) بطريق الكويت على
الأغلب تاريخها ٢٧ / ٥ / ١٩٣٨

ملحق

حضر اليوم صاحب [illegible] الكويتي وراى البضاعة
[illegible] حاكمة ويقول انه [illegible] ويقول ان عنده
٦٠٠ دينار من الالمانية ويريد ارسالها الى من ترغبون
لقاء وصل من عندكم.

- اعلمني المذكور ان قبائل من نجد دخلت حديثا
حدود العراق يمكن شراء كميات من الاسلحة والعتاد منها
سعر البندقية المتوسطة ٨ دنانير. والمشط ١٠٠ فلس. ويقول
- انه يمكن شراء مئة بندقية في ظرف ١٥ يوم من تاريخ
دفع الدراهم له. مع عتادها. ويمكن الحصول على مثل هذا العدد
شهريا.

- اعلمني [illegible] انه يوجد كميات مهمة من العتاد المعبأ محليا
سنجربه ونعلمكم.

- الفت نظركم الى حالة سعيد حلبي التي وصلت معه الى
حد اليأس والاعتزال. وقد [illegible] ولم يعد احد يسلفه
و[illegible] وبدونه لا يمكن عمل اي عمل يذكر في العراق من افعالات
او غيرها. اعانته امر وطني وضروري.

تقرير وضعه فوزي القاوقجي في ٨ / ٢ / ١٩٣٩ عن الوضع في شمال سوريا استعداداً لإشعال ثورة هناك .

عرفت يوم وصولي إلى حلب في ٨ شباط ١٩٣٩ أن نجيب عويد وعبد الرحمن المصري ومن يلوذ بهما قد استطاعوا تهيئة الجو والأسباب للقيام بحركة من شمال سورية وقد أدلى إليّ عبد الرحمن المصري بالمعلومات الآتية :

جبل الزاوية

إن الحال الروحية وإن كانت حسنة لدى بعض شباب جبل الزاوية إلا أن عدم وجود زعيم أو رئيس ذي نفوذ محلي مخلص يعتمد عليه في منطقة الجبل يجعل القيام فيها بحركة مباشرة صعباً ، ولذا فهذه المنطقة ستكون ثانوية في الحركة ولدينا خطة سننفذها بالقضاء على وجيهين من وجهائها موالين للسلطة الافرنسية البدء بحركتنا وعندئذ يمكننا العمل واستخدام الشباب المخلصين من أبناء تلك المنطقة وإشراكهم في العمل .

جبل الأكراد « كردطاغ »

إن النزاع القائم بين المريدين وبين الأغوات في جبل الأكراد ضمن قضاء عفرين أدى الى انحياز المريدين وأعوانهم إلينا ، وانحياز الأغوات إلى الجانب الافرنسي ، وقد امتد نفوذ المريدين وبلغ شأواً حمل أكثر الآغاوات على النزوح من جبل الأكراد وتأصل في نفوس المريدين وأعوانهم كره الأجنبي ومقاومته حتى لم يبق للسلطة ولا للحكومة أي نفوذ في الجبل ، ولدى هؤلاء كميات كبيرة من السلاح تقدر بأربعة آلاف بندقية (ملاحظة : علمت من مصادر موثوقة أن كمية السلاح الموجودة لدى المريدين تقدر ببضع مئات فقط) ورئيس المريدين له سلطة لا تقاوم على أعوانه والأعوان منظمون فصائل وسرايا تتدرب يومياً على الحركات الحربية النظامية ولهم مخافر تقوم على حراسة مسالك الجبال ولهم نشيد وطني يدعو للاتحاد مع العرب ومقت الأجنبي وإن الأكراد والعرب إخوان في الدين والوطنية ، وفي آخر مرة لما أرادت الحكومة مفاوضة المريدين لم تستطع الإتصال بأحدهم حتى أوفدت عبد الرحمن المصري ونجيب عويد إلى جبل الأكراد فاستطاعا حمل فريق منهم على

مقابلة المفتش بهيج الخطيب . والمريدون وأعوانهم رهن إشارتنا للاشتراك في الحركة .

جبل صهيون في قضاء الحفة

إن أهالي صهيون في محافظة اللاذقية هم على استعداد للاشتراك معنا في الحركة وقد بلغت كمية السلاح المشتراة والموجودة من قبل لديهم بضع مئات وهم رهن اشارتنا وعلى إتفاق تام معنا .

منطقة الجزيرة

وكذلك لنا اتصال تام ببعض شيوخ الجزيرة والفرات للقيام بحركة ضد الأجنبي عند بدئنا بحركتنا .

منطقة كفر تخاريم

ثم قابلت نجيب عويد فأفضى إلي بنفس المعلومات المدرجة أعلاه وزاد عليها بأنه وجد أن منطقة كفر تخاريم في قضاء حارم وما يحيط بها من جبال تمتد إلى قضاءي ادلب وجسر الشغور ومعرة النعمان هي أحسن مكان للبدء بالحركة في شمال سورية ، ويمكن اتخاذ الجبل الأعلى مقراً للتجمع ، وأشار إلى أن الضرورة تقضي بالتفاهم مع الحكومة التركية كي لاتكون ضد حركتنا لأن إعلان تفاهمنا معها يشدد كثيراً من عزائم الأهلين ولا سيما الذين لا يؤمنون بنجاح أي حركة في سورية لاترتكز على مساعدة خارجية ، وإن هذا التفاهم لو أدى إلى إمكان شراء السلاح والعتاد من أراضيها فقط لكفى .

ويعتقد أن التفاهم معها في الوقت الحاضر غير صعب على أساس استقلال سورية ، وإذا كان لها مطامع في بلادنا فإننا بعد أن نخلص من نير الأجنبي المستعمر نقاوم مطامعها وإن كنا رجالاً فإننا نستطيع أن نحافظ على ثمرة ظفرنا واستقلالنا من أي طامع ببلادنا ، والهدف الآن الخلاص من استعمار فرانسة .

زيارة الجبل الأعلى وكفر تخاريم

صممت بعد هذين الحديثين على زيارة منطقة كفر تخاريم مبتدئاً بالجبل الأعلى فسلكت طريق حلب – إدلب بالسيارة ومنها سلكت السيارة أيضاً طريقاً

غير معيدة من إدلب إلى « موعقرين » الناحية التابعة لإدلب فقرية « معرة إخوان » وسكانها من الدروز ، ويقطنها رئيس طائفتهم قصاب آغا .

معلومات عن نجيب عويد

استطعت في هذه الزيارة أن اسمع من متنفذي قرى الجبل الأعلى بعض الأحاديث عن نجيب عويد القائم بتهيئة حركة الشمال بأنهم يعتقدون بإخلاصه وتدينه حتى كان يطبق أحكام الشرع على المنطقة الثائرة في عهد ثورة إبراهيم هنانو وإنه كان العامل الفعال في تلك الثورة حتى أصبح صاحب النفوذ الأول وبما إنه كان غير متعلم فقد كان اسم المرحوم هنانو يطغى على اسمه ، وكان المرحوم هنانو يخشاه ويحذره حتى هدد نجيب عويد إبراهيم هنانو بالقتل ، كما قتل القائم مقام العسكري عاصم بك من قادة تلك الثورة لأنه ارتكب جرم سلب قرية السقيلبية في جهات حماه وسجن الضابط التركي بدري بك وقتل عدداً من الثوار والأهلين بتهم شتى فهو قاسٍ ثقيل الوطأة وليس من محذور من استخدامه في الحركة إلا الخوف من طغيانه ونفوذه اللذين قد يتعبان القيادة العامة .

الحال الروحية

الحال الروحية في الجبل الأعلى ليس فيها حماس للحركة ولكنها لا تقاومها بل تعاونها إذا كانت عامة منظمة مرتبطة بقادة مخلصين يمنعون الفوضى والنهب والسلب والإعتداء .

أما الحال الروحية في قرى كفر تخاريم وارمناز وما يجاورهما فهي على العكس متحمسة يفخر شبانها بأنهم رفاق هنانو في الجهاد وينتظرون الساعة التي تأذن بإعلان الجهاد ولديهم كمية من السلاح تقدر بمئة وخمسين بندقية ، ولدى لجنة كفر تخاريم الأهلية تبرعات من الزيت تقدر بأربعين قنطاراً قيمتها نحو خمسة آلاف ليرة سورية جُبيت باسم اعمار وإصلاح دار الحكومة في كفر تخاريم لجعلها مدرسة وهذه التبرعات الآن رهن الحركة .

وكذلك وجوه تلك المنطقة وأغنياؤها على استعداد للتبرع ومساعدة الحركة وقد شعرت السلطة الافرنسية بالروح الثائرة في منطقة كفر تخاريم فنقلت مركز

ضابط استخبارات حارم إلى ناحية كفر تخاريم وقد لمس بنفسه خطورة الحال في تلك المنطقة .

الجبل الأعلى

إن الجبل الأعلى سلسلة تقع غربي بلدة إدلب على بعد بضعة وعشرين كيلومتراً تمتد من الشمال إلى الجنوب وعرة المسالك بل شديدة الوعورة صعب على الفرسان اجتياز بعض طرقاتها ليس فيها أشجار إلا بقع مجاورة للقرى الصغيرة في الجبل وبعضها تقطنها الطائفة الدرزية التي تعد نحو ألف رجل في قضاءي حارم وإدلب ، وتتصل السلسلة بهضاب كفرتخاريم وأرمناز من الغرب ومن وراء هذه الهضبات سلسلة جبال تتصل بجبل الالكام وسلسلة جبال العلويين الغربية الممتدة إلى شمال مدينة حمص ، كما تتصل بسهول غير فسيحة من الجنوب الشرقي بجبل الزاوية ، ومن الجنوب بالجبل الوسطاني ، والجبل الأعلى ليس فيه طريق للسيارات ، وفيه خرائب رومانية كثيرة ذات آثار بعضها قائم ، وفي الخرائب مغاور تصلح لجعلها مستودعات وكانت مأوى لجرحى ثورة هنانو .

الطــرق

طرق السيارات في تلك المنطقة وما يجاورها كما يلي :

آ – طريق حلب – إدلب – أريحا – جسر الشغور – اللاذقية وهي معبدة وهذه الطريق تبعد عن الجبل الأعلى أكثر من عشرين كيلو متراً وتمر شرقيه .

ب – طريق ثانية تتفرع عن طريق حلب إدلب في موقع « اورم الصغرى » وتمتد إلي قرية « نبي شهر » في لواء الإسكندرونة ومنها فرع يمتد إلى الإسكندرونة وفرع إلى انطاكية ومن هذا الفرع فرع آخر يمتد إلى بلدة حارم – سلقين – كفر تخاريم وكلها معبدة .

ج – طريق كفر تخاريم – ارمناز – مليس – إدلب وهي غير معبدة تسلكها السيارات في الصيف وفي أيام الصحو وهذه تفصل الجبل الغربي في كفر تخاريم عن الجبل الأعلى وتحيط بالجبل الأعلى من الجنوب .

على هذه الطرق مخافر للدرك وكذلك في مراكز النواحي والأقضية أما القوى النظامية فإن مقرها مدينة حلب والحدود الشمالية ولواء الإسكندرونة ، ويوجد في محافظة حلب نحو ٨٠٠ جندي من الحرس السيار أكثرهم من الجركس والأكراد موزعون في الأقضية ، ويقدر عدد الحرس السيار في أقضية حارم وإدلب وجسر الشغور ومعرة النعمان المحيطة بجبلي الزاوية والجبل الأعلى وغيرها من الجبال المساعدة للحركة نحو (٢٥٠) جندياً منها (٢٥) جندياً في كفر تخاريم ويريد ضابط الاستخبارات تجنيد (٢٥) متطوعاً إضافياً عليهم ، وليس في الجبال كلها قلاع أو مخافر أو ثكنات للقوى النظامية أو للحرس السيار . وكلها في مراكز إدلب وكفر تخاريم والجسر والمعرة .

المعتمدون في كفر تخاريم

إن الأشخاص الذين يعتمد عليهم نجيب عويد في حركته هم في كفر تخاريم حقي آغا هنانو شقيق المرحوم إبراهيم هنانو ومحمد علي جمعة وغيرهما من الشباب والوجوه .

الموالـون

ليس في منطقة كفر تخاريم من الموالين للسلطة غير شعبان آغا الوجيه في قرية مليس وهو مسن لديه رجال مسلحون ولكنهم لا يستطيعون الوقوف في وجه الحركة ويمكن القضاء عليه بتدبير خطة ناجحة في بدء الحركة وربما لا يستطيع الجهر بعدائه للحركة إذا كانت قوية .

تقرير وضعه القاوقجي (ربما في مطلع ١٩٣٩) يبين الوضع في الغوطة والقلمون واحتمالات قيام ثورة .

الغوطة – المرج – البادية

القوى – ليس في غوطة دمشق ومرجها قوى للجيش غير فصيل من الحرس السيار يقيم في قرية « جوبر » وليس فيها من القوى الحكومية الأخرى غير الدرك ومخافرهم ويوزعون كما يلي : مخفر مركز قضاء دوما ومخفر قرية التل وآخر في النشابية وآخر في « تلمسكن » وواحد في ..... وآخر في « عربين » وواحد في « جرمانا » وغيرها ومجموع قوى الدرك فيها لا يبلغ الفصيلين ، والفصيل الواحد مركزه « دوما » والثاني « عربين » وقيادة سرية الدرك مركزها دمشق ، أما البادية المتصلة بالغوطة والمرج ففيها سرية للهجانة الافرنسية مقرها « ضمير » وللهجانة سيارات مجهزة بالرشاشات تطوف البادية وتشرف على المواصلات في طريق دمشق – بغداد ، ولهذه السرية مخفران فرعيان أحدهما في موقع « سبع بيار » على طريق بغداد والآخر في جبل الصفا ، وقد أقام جنود المخفرين أسلاكاً وأكياساً من الرمل وبعض التحصينات حول المخفرين خشية هجوم مفاجئ .وتقيم قيادة السرية في وسط قرية ضمير بين منازل الفلاحين في مكان مرتفع بنيت فيه المنازل للجند والإسطبلات ومغارة للكشف تشرف على السهول الممتدة حول القرية ولهذه السرية كما قلت دوريات منظمة بين مخافرها والطرق المسؤولة عن أمنها .

وقرى الغوطة والمرج مهددة دوماً بالمدافع الضخمة المقامة في القلاع التي بنيت في الجبال المحيطة بدمشق ، ومنها قلعة بجانب « قبة السيار » وقلعة بموقع « قبة النصر » وقلعة غورو وما يتفرع عنها من قلاع وحصون محيطة بقرية المزة وموقع الربوة، كما أن الثكنة التي كانت القوى الافرنسية تشغلها في دوما والكائنة على طريق دمشق – حمص ماتزال قائمة ويمكن أن تضع السلطة حامية فيها عند أول بادرة من بوادر الثورة .

الحال الروحية : من هنا يتضح أن هذه القلاع تجعل نشوب ثورة محلية في الغوطة والمرج صعباً بل يكاد مستحيلاً لأن القرويين لم ينسوا بعد ما قاسوه من فظائع ثورة ١٩٢٥–١٩٢٦ ويعرفون أن قراهم ستهدم على رؤوسهم في حال

نشوب ثورة جديدة ، ولا يمكن الاستفادة من موقع الغوطة المناسب للحركات الثورية إلا بدخول قوى مسلحة من غير الأهلين إليها تكون كثيرة العدد فيخشى الأهلون بأسها وإذا تغلبت هذه القوى في بعض المعارك على الحملات الافرنسية التي قد تساق لقمع حركات الثوار يتوقف مصير سكان الغوطة ودرجة مؤازرتهم للثورة ، وينتظر أن ينضم فور وصول قوى الثوار من الخارج إلى الغوطة بعض القرويين والشباب الذين سبق لهم الالتحاق بثورة عام ١٩٢٥ ، كما ينتظر انضمام عدد من شباب دمشق إلى قوى الثورة فور تمركزها في الغوطة والمرج ، وكثرة الملتحقين يتوقف على كثرة السلاح أو قلته بيد قيادة الثورة ومقدار نجاحها في إدارة الحركات ولا ننسى إن الأركان حرب الافرنسيين تجولوا كثيراً في قرى الغوطة وبساتينها ووضعوا المخططات اللازمة لقمع كل حركة ثورية تقوم فيها ، حتى أن ثلاث سيارات كانت منذ شهر تطوف أراضي الغوطة وفيها عدد من الضباط يضعون المخططات اللازمة، وفي الغوطة عدد من الوجوه والمخاتير موالون للسلطة يطلعونها على كل شاردة وواردة في الغوطة ، كما أن ضابط استخبارات دوما يطوف دوماً القرى ويتصل بأبناء أبي عمر ديبو وغيرهم من الناقمين على الحكومة الوطنية لأسباب شتى ، ويسترضي أصحاب الكلمة والشأن ويقدم لهم بعض المساعدات والخدمات تأميناً لولائهم إليه .

القلمـون

يوجد في القلمون فصيل للدرك موزع في عدة مخافر منها مركز النبك وناحية يبرود وناحية القطيفة، وقرية البريج وفي ناحية « حسية » التابعة حمص وغيرها ، ويقيم الآن في القطيفة فصيل من الحرس السيار أي « المتطوعة المربوطين بضباط الاستخبارات » وكان قبل أشهر يقيم فصيل من الحرس السيار وفصيل من الجيش السوري المختلط في مركز قضاء النبك والفصيل الآخر كان يقيم في قلعة محصنة قائمة علي تل يشرف على مدخل بلدة النبك الجنوبي ويسيطر على طريق السيارات القادمة من دمشق إلى النبك ، أو من دمشق إلى يبرود وبالعكس ، ولكن هذين الفصيلين نقلا من النبك إثر دخول الجيش التركي إلى لواء الإسكندرونة وظلت هذه القلعة المحصنة بالأسلاك والخنادق والنوافذ الصغيرة خالية إلا من الخفراء القلائل وتسمى هذه « Poste Richard pour les ennemies de Nabk » أي « قلعة ريشار

ضد أعداء النبك » وسوى ذلك ليس للإفرنسيين أي قوى أخرى أو قلاع وثكنات في منطقة القلمون .

إن الطرق في الغوطة لم تتبدل عما كانت عليه في عام ١٩٢٥ إلا بما ادخل على بعضها من تحسينات التعبيد أو التزفيت ، وبخط الترام الذي وصل دمشق بدوما ماراً بقرى حي القصاع – جوبر – زملكا – عربين – حرستا – دوما . أما في القلمون فقد شق الإفرنسيون للسيارات الطرق إلى بعض القرى الكائنة في جبال القلمون الغربية كعين التينة ومعلولا وجبعادين وطريق صيدنايا – التل – منين – دمشق وطريق يبرود تصل بعض القرى الغربية بها .

ورقة نقلت عن مفكرات القاوقجي تتعلق برأي الملك عبد العزيز آل سعود بالقاوقجي آذار أو نيسان ١٩٣٩

جلالة الملك ابن سعود يقول عن لسانه يوسف وقصاب ، إنني أنا المجاهد للإسلام والعرب ، وإنه يعتبرني كولده ، وإن مقامي ومكانتي عنده أعظم مما يتصور، وإنني سأرى ذلك بأم عيني .

وأما المساعده فقد وكل الأمر إلى القصاب وسلم للجماعة ٥٠٠ بندقية (أو ٥٠٠) ١٢٠ صندوق وإن مثلهم جاهز . وإن ارتباطنا مع القصاب » .

(منقولة عن المفكرة الشخصية) أثناء الاستعداد لتجديد الثورة في سورية وفلسطين في آذار أو نيسان ١٩٣٩ .

رسالة فوزي القاوقجي إلى الملك عبد العزيز آل سعود في ٤ /٨/ ١٩٣٩ حملها عادل العظمة يطلب مساعدته لإنشاء قاعدة عربية في منطقة الاردن من أجل مساعدة فلسطين وسوريا .

وسافر عادل من بغداد في ٤ /٨/ ١٩٣٩ وهو يحمل معه الكتاب التالي المقدم لـ جلالة الملك عبد العزيز آل سعود :

حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود المعظم

سيدي اتقدم إلى جلالتكم بأسمى شعائر الاحترام والإجلال . وبعد

في الوقت الذي أصبح الخطر الصهيوني والذي تدعمه بريطانيا وأميركا يهدد اليوم فلسطين وكيان الشعب الفلسطيني والمقدسات الإسلامية ومن ثم مقدرات الشعب العربي كله.. في مثل هذا الموقف والظروف الخطيرة تتجه قلوب العرب وأفكارها نحو سيد الجزيرة في الرياض. وإن ما هو معروف عن حرصكم وحماسكم في حماية المقدسات الإسلامية وشرف الأمة العربية يشجعني أن أتجه إليكم في طلب النجدة والمساعدة لإقامة قاعدة عربية قوية في إحدى مناطق الأردن لتساعد الفلسطينيين في الدفاع ورد الاعتداء عن أراضيهم وأعراضهم وعند اللزوم لتقوم هذه القاعدة بذات الواجب نحو سوريا فيما إذا تعرضت لطغيان افرنسي جديد .

والذي يجعلني واثقاً من تلبية جلالتكم في مساعدتنا على تحقيق هذا المشروع هو مالمسته من استحسان وتحبيذ من جلالتكم عندما عرضت هذه الفكرة لكم عن طريق الأمير فيصل ولدكم وذلك عندما كنت مقيماً في جدة تحت رعايتكم سنة ١٩٢٩ .

إن هذه الفكرة لم نطلع عليها أحداً إلى الآن سوى أخونا جميل بك المدفعي الذي يحبذها ويؤمن بنفعها . وستبقى هذه الفكرة محاطة بالسرية والكتمان المطلقين ولن يطلع عليها أحد بلا استثناء حتى النهاية وإني أوكد ذلك لجلالتكم هذه السرية .

وأما التفصيل في الترتيبات وغيرها وكل ما متعلق بهذا المشروع يعرضها عليكم حامل هذا الكتاب الأخ عادل العظمة .

وختاماً تفضلوا يا صاحب الجلالة بقبول تعظيمنا واحترامنا لجلالتكم مع أخلص تمنياتنا والله يحفظكم ويوفقكم

المخلص فوزي القاوقجي

نسخة من رسالة عبد العزيز آل سعود إلى القاوقجي يرّد به على رسالة القاوقجي التي حملها عادل العظمة . يطلب فيها المساعدة لأموال ثورة في سورية أو في فلسطين (٢٩ جمادى الأولي ١٣٥٨)

المملكة العربية السعودية

ديوان جلالة الملك

عدد ٥ / ٥ / ٦٧ .   ٢٩ جمادى أول ١٣٥٨

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى جناب المكرم فوزي القاوقجي سلمه الله .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد تلقيت كتابكم بتاريخ سنة ٣٥٨ وأحطنا علماً بما ذكرتم . ونحن نشكركم على عواطفكم الطيبة وشعوركم الجميل . أحوالنا من فضل الله على ماتحبون من كافة الوجوه نحمد الله على ذالك . وقد وصل عادل العظمة إلى الرياض واجتمع بنا وتحدثنا معه ولابد أن يخبركم بما حصل من رأسه . وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه هذا مالزم بيانه والسلام

الختم عبد العزيز

تقرير وضعه محمد الزرقاء في انطاكية ٢٧ / ٩ / ١٩٣٨ بشأن مسألة اسكندرون ورفعه إلى فوزي القاوقجي .

قضية لواء الاسكندرون الشهير

وتطوراتها

انطاكية في ٢٧ أيلول ١٩٣٨

حضرة المجاهد الكريم السيد فوزي الدين القاوقجي المحترم تقدمة أحد شباب العرب في اللواء إلى زعيم شباب العرب

محمد الزرقاء

جدير بنا قبل أن نبحث قضية اللواء أن نثبت هذا التقرير الذي رفعه عرب اللواء إلى ملوك وزعماء العرب في مطلع العام ١٩٣٧ لما حواه من تحليل دقيق لهذه المشكلة وبعد نظر حققته الأيام بعد ذلك بتنازل فرنسا لتركيا عن مصالح السوريين العرب وهو كما يلي :

« تجاه الظروف التي تمت فيها اتفاقية جنيف لحل قضية لواء الاسكندرون والمؤامرة الواسعة التي تحاك للكيد بالأمة العربية لابد من تبيان قيمة هذا اللواء من مختلف نواحيها وتحليل المواد التي انطوت عليها تلك الاتفاقية أملاً بالقاء النور على هذه المسألة الخطيرة ليدرك عرب العالم في مختلف أصقاعهم خطورة الموقف فيعملوا على درء الشر وإحباط الدسائس الماكرة .

أهمية مرفأ الاسكندرون

إن الخطين الذين يصلان آسيا وسكانها البالغين مليار نسمة وموادها الابتدائية بأوربا مركز الصناعة والتجارة العالمية ، يمران من البلاد العربية

١ – خط بحري يجتاز ترعة السويس

٢ – خط بري يمتد من البصرة إلى الموصل فمرفأ الاسكندرونة . وقد أدرك الالمان بنظرهم الثاقب ماينتظر الخط الثاني من مستقبل عظيم فكانوا أول من فكر باستثماره ، ذلك إن تطور الحضارة البشرية سيكون له تأثير كبير في ازدهار خط

اسكندرون البصرة لأن ترقي الصناعة في الشرق ينتهي بتناقص نقل المواد الابتدائية من آسيا إلى أوربا ولهذا تضعف حركة النقل والمرور من السويس وبالعكس تنمو تجارة المواد الثمينة وهذه تستلزم طريقاً أقصر من عبور البحر الأحمر وترعة السويس وتكاليف أقل منه ، ولا تتوفر هذه الشروط في غير الخط الحديدي الذي يمتد من البصره إلي الاسكندرون كما أن حركة السفر تتبع الطريق القريبة فيستفيد منها هذا الخط الذي يكون الطريق الوحيد لسرعة نقل الجيوش والمعدات الحربية مما يكسبه أهمية قصوى بالنسبة للأمبراطورية البريطانية التي تسيطر على الهند . فعندما تخلت فرنسا عن كيليكيا العربية للاتراك ووسعت نفوذها في سنجق الاسكندرون تهيئة لإلحاقه النهائي بالأناضول ، حرمت البلاد العربية من فائدة هذا الخط وعرقلت تقدم الانسانية بفصل لواء الاسكندرونة عن السيادة السورية .

فلكي تسير الإنسانية في رقيها الطبيعي وينجلي مستقبل العرب يجب أن لايكون لواء الاسكندرون ضمن نطاق سوريا فحسب بل يلزم إعادة الحدود السورية الحقيقية بضم كيليكيا إلى سوريا وسوريا للعراق وتشكيل دولة عربية تدير مقدراتها بنفسها .

أهمية خليج الاسكندرونة

إن الدولة العربية التي ينتظر تشكيلها في المستقبل مفتقرة إلى خليج وميناد كالاسكندرونة التي هي الميناء الطبيعي الوحيد في القسم الشرقي من البحر المتوسط، هذا المرفأ الذي يسيطر عند الحاجة على جزيرة قبرص وقناة السويس . فحرمان العرب منه يشكل خطراً جسيماً على سواحل سوريا وقناة السويس أيضاً .

أهمية اللواء الحربية

اللواء هو الحصن الوحيد في شمالي سوريا بعد انسلاخ كيليكيا وترك حدود ولاية حلب والجزيرة أمام جيوش جيراننا في الشمال وهو بمواقعه الجبلية التي تمتد من جبال اللكام (الامانوس) يحمي القسم الجنوبي من بلادنا ويمنع مرور أي قوة عسكرية إذا كان مجهزاً بالمعدات الحربية .

اتفاقية جنيف ومراميها

١- ليس عسيراً على من تتبع سير الحوادث التي ابتدأت منذ مفاوضات

باريس أن يدرك بأن تسوية جنيف لقضية لواء الاسكندرون كانت متممة للمعاهدة السورية الافرنسية التي أصرت عند عقد المعاهدة على إبقاء قسم من جيشها في مناطق العلويين والدروز ولبنان ولم ترغب بالاحتفاظ ولو بفرقة عسكرية واحدة في السنجق وهو أكثر قيمة حربية من الأماكن الأخرى وهذا ما يدعونا للاستنتاج بأن قبول فرنسا من تجريد الاسكندرونة من السلاح كان متوقع الحدوث قبل أن يتم بصورة علنية ويتفق عليه .

إذاً فبقاء الجيش الفرنسي في بلاد العلويين ولبنان المسيطرة على حمص وحماه ووادي البقاع ، وبقاءه في جبل الدروز وهو حصن شرقي الأردن مع تجريد السنجق من السلاح ، كل ذلك يرمي إلى غاية واحدة طبقاً لسياسة معروفة . ولا يمكننا أن نجد في هذا الأمر إلا ضربة قاسية على العرب ، لأن منع بقاء الجنود في اللواء وواديه الممتد من جبل اللكام حتى فلسطين قد جرى برغبة الطرفين المتعاقدين حتى إذا شاءت الجيوش التركية اجتياز البلاد العربية لم تجد أمامها قوة منيعة محصنة في بيلان وحاجيلر تستطيع أن تردها على أعقابها .

أما الإدعاء بأن القصد من هذه الاتفاقية منع وقوع اعتداء خارجي يأتي من البحر إلي اللواء فهو مبني على المغالطة وتشويه الواقع لأن وجود الخطر الأجنبي يقضي بتحصين المنطقة وتزويدها بالمعدات الحربية والجنود لا برفع التحصينات وتجريدها من السلاح والجنود .

٢- يظهر التناقض بهذه الاتفاقية والإجحاف بحقوق العرب :

آ - من اعتراف المتعاقدين بسورية اللواء واتفاقها على جعل التركية لغة اللواء الرسمية .

ب- من كون كل معاهدة أو عقد دولي يعقد بين سوريا وإحدى الدول لتوطيد استقلالها لن يشمل لواء الاسكندرونة بدون موافقة جمعية الأمم .

ج - الحق الذي أعطي لحكومة اللواء بعقد الاتفاقات التجارية مع الدولة التركية لأن ذلك سيكون خير معين لنشر الدعاية التركية وتقويتها على حساب العرب عن طريق الروابط الاقتصادية .

د – ترك الحرية لتركيا أن تستفيد من ميناء الاسكندرون .

هـ – تعيين مفوض افرنسي له صلاحية رفض المقررات والتدابير التي تصدر عن دمشق أو مجلس إدارة السنجق .

٣– تتجلى المكيدة في تسوية جنيف إذ لاحظنا أن القصد من نزع السلاح في السنجق هو أن لا تلقى تركيا شيئاً من المقاومة إذا هي هاجمت هذه المنطقة السورية عندما تتهيأ لها الظروف المناسبة .

٤– إن تركيا أصبحت تستطيع في وقت ملائم لها أن تثير فتنة في اللواء فتحتله باسم حماية أبناء جنسها وإذا شاءت سوريا عندئذ أن تقف في وجهها تدعي تركيا أن سوريا هي التي هاجمتها في عقر دارها .

النتيجة

يبدو مما تقدم أن السياسة الفرنسية لم تتبدل في الشرق الأدنى منذ الحرب الكبرى وهي تسير بصورة تدريجية نحو هدف ثابت معين ، فخطت الخطوة الأولى بتنازلها عن كيليكيا وحرمانها البلاد العربية من جبال طوروس تاركة تلك المنطقة الغنية وسكانها العرب تحت رحمة الأتراك يعبثون بحقوقهم كما يشاؤن ، ثم اجتازت المرحلة الثانية حينما عقدت مع الأتراك معاهدة انقرة ١٩٢١ وبها اعترفت لتركيا بحق التدخل لحماية الأتراك القاطنين في لواء الاسكندرونة ، ثم كانت خطوتها الجديدة التي قطعتها في جنيف بتركها اللواء لقمة سائغة لجيراننا في الشمال .

إن هذه السياسة التي تسير باطراد من يوم إلى آخر منزلةً بالعرب نكبة إثر أخرى جديرة أن تسترعي أنظار الأمة العربية جمعاء وملوكها ورجال السياسة فيها لنكون متأهبين لما تخبئه الأيام وتكتمه السياسة من مكائد ومؤامرات قبل أن يستفحل خطرها ونجد أنفسنا أمام الأمر الواقع ....

هذه هي المذكرة السياسية التي تقدم بها عرب اللواء إلى ملوكهم وأمرائهم يشرحون لهم فيها الخطر الكامن ويفندون اتفاقية جنيف ولكن الأمة العربية التي كان يجدر بها أن تعطي.للواء وقتاً كبيراً من فراغها لبحث قضيته وإيجاد الدواء الناجع

لها تقاعست عن نصرة عرب اللواء وتركتهم يشتغلون منعزلين فاثبتوا حقهم لوحدهم ضمن المنطق وحدود الحق ولكن السياسة الغاشمة سياسة القوة قضت على أحقيتهم وكبتت صوتهم وهكذا حققت الأيام كل ما جاء في مذكرتهم من تحذير وبعد نظر.

كيف خلقوا أخيراً قضية اللواء

حينما عاد الوفد السوري من باريس صرح رئيسه السيد هاشم الأتاسي أثناء مروره من استانبول إلى أصحاب الصحف عن المعاهدة التي يحملها من الدولة الفرنسية وتطرق إلى بحث سورية اللواء وبقاءه تحت سيادة الحكومة السورية .

استاء الأتراك من تصريحات الرئيس في بلادهم لأنه عدّ لواء الإسكندرونة ضمن الدولة السورية وقدموا مذكرتهم المعلومة إلى فرنسا وابتدأ الخلاف كما يقولون بين فرنسا وتركيا دفاعاً عن حقوق الأتراك في اللواء وخوفاً من اعتداء سوريا العربية على حقوقهم – وفرنسا الحليفة الرحيمة نظرت إلى هذه المذكرة والمطاليب بعين الإعتبار ورضيت بالتقاضي على أساسها معترفة بأحقيتها غير آبهةٍ لتلك المعاهدةالتي لم يجف حبرها ودخلت في مفاوضات بينها وبين تركيا رأساً دون أن يسأل رأي سوريا بهذه القضية الحيوية كأن الأمر لا يهمها في شيء فيا لمهزلة الأقدار .

ولكن لنعد قليلاً إلى الماضي وننظر بعين مجردة إلى عهد الانتداب والروايات التي مثلها الفرنسيون على مسرح اللواء وكيف كانوا يعاملون عناصره المختلفة فإننا سننتهي بلاشك إلى نتيجة واحدة وهي أنهم بتصرفاتهم الشاذة وبتفريقهم بين عنصر وعنصر من حيث معاملاتهم اليومية يهيئون جواً لا يضطرب للنتيجة المؤلمة التي يقودون البلاد إليها .

فعرب اللواء متشكلون من ثلاث طوائف ، العرب العلويون يعدون ٨٠ ألفاً والعرب السنيون يعدون ٤٠ ألفاً والعرب المسيحيون يعدون ٢٠ ألفاً أي مايعادل ١٤٠ ألفاً من أصل ٣٣٥ ألفاً تحوي ٣٨ ألفاً من الأرمن أعداء الترك الألداء وخمسة ألاف عناصر أخرى مختلفة بين أكراد وشركس لا يقلون كرهاً للفكرة الكمالية الحديثة عن غيرهم .

ولكن كيف عاملت فرنسا هذه العناصر المتباينة في اللواء

أطلقت الحرية بكاملها وكل معانيها للعنصر التركي بثقافته وآرائه وميوله الاجتماعية بل وكانت مشجعة له بتطرفه في كماليته بينما قد شنتها حرباً عواناً على كل ما يمت للعروبة بصلة ولم تترك وسيلة من وسائل الضغط إلا استعملتها ، وقد كانت مدرسة التجهيز من أهم المراكز التي استخدم فيها الفرنسيون صلاحياتهم لإقصاء العرب عن الثقافة العامة ، وهكذا لم يبلغ في مدة سبعة عشر عاماً عدد حاملي شهادة الباكالوريا من ثمانين ألف علوي سوى عشرة طلاب فقط . أما العرب السنيون فصفر حتى من الشهادات الابتدائية لأن منطقة العمق التي يسكنها أكثر من ٣٠ ألف عربي لا يوجد بها مدرسة ابتدائية واحدة وكذلك بقية المناطق العربية ولم تكتف الحكومة الفرنسية بحرمان العرب من افتتاح مدارس جديدة لهم بل إنها أغلقت حتى المدارس التي كانت تقوم بواجبها في الدور العثماني منها خمسة مدارس احضانية ومدرسة ابتدائية داخلية من منطقة السويدية وخمسة مدارس أخرى في منطقة الحربية بينما كانت تسعى جهدها لتعم المدارس في جميع القرى التركية حتى الصغيرة منها وتسهل لهم التدريس باللغة التركية وبالأحرف اللاتينية وبكتب تدرس في نفس أنقره واستانبول هذا عدى عما تأخذه الحكومة التركية على عاتقها سنوياً من تعليم خمسين طالب فما فوق على نفقتها في مختلف مدارسها العالية وبذلك توصل الفرنسيون إلى الغاية التي بدأو بها فقضوا على الثقافة عند العرب قضاء مبرماً ونفذوا فيها حكم الإعدام بصورة تدريجية . هذا من الوجهة الثقافية أما من الوجهة الاقتصادية فقد نفذ رجال الحليفة الأحرار برنامجاً اقتصادياً غريباً قضى على جميع موارد الثروة في هذه المنطقة التي حباها الله أغنى أرض وأخصبها . لقد يخيل للغريب حين يدخل أراضي اللواء إنه قد حل في بقعة تطفح بالثروات إذ يرى طرقاً معبدة تزدان بألوف الأشجار لا يجد لها مثيلاً إلا في البلاد التي انتهت في حل مشاكلها الضرورية فراحت تتلهى بالكماليات ويرى سيارات خصوصية جميلة وأعمدة كهربائية وماإلى ذلك من المظاهر التي تستر ورائها فقراً مدقعاً ومجاعة مخيفة حتى لكأن هذه المنطقة أشبه شيء بالأموات قبل دفنهم لهم جميع أعضاء الحياة إلا الحياة نفسها . وإن مقابلة بسيطة بين بعض الأرقام تبرهن لنا بوضوح مقدار ما أضاعته المنطقة من ثروتها خلال بضع سنوات

بفضل سياسة فرنسا الاقتصادية الظالمة . ففي سنة ١٩٢٨ كانت تقدر صادرات اللواء بخمسمائة ألف ليرة عثمانية ذهب فظلت تتناقص حتى أصبحت بفضل سياسة التفقير في سنة ١٩٣٦ لاتزيد على ٦٠ ألف ليرة عثمانية ذهب وإذا علمنا أن سكان اللواء ينيفون على ٣٣٥ ألف نسمة وتسألنا كيف يستطيعون أن يؤمنوا احتياجاتهم من هذا المورد الضئيل الذي تثقله فداحة الضرائب أيضاً وجدنا أن السر في ذلك مستور في البطون الجائعة الصامتة .

لقد منحت العناية للواء الإسكندرونة بخليج لم تهب من الميزات خليجاً مثلما وهبته فهو خير اسكلة على سواحل البحر المتوسط الشرقية ليس للتجارة السورية فحسب بل لتجارة العالم العربي والعراق بنوع خاص وهو في الحقيقة نقطة حيوية لهذه البلاد ومعد لأن يلعب دوراً كبيراً في حياتها الاقتصادية ومقدراتها السياسية وخط السياسة وخط اسكندرون البصرة تأييداً لما تقوله المذكرة المقدمة لملوك العرب ليس أقصر خط بين آسيا وأوربا فحسب بل هو الخط الوحيد الصالح للمواصلات فيما إذا تحرى العالم طريقاً له أسرع من طريق قناة السويس فعندما افتتحت قناة السويس بدأ اتجاه جديد في الحضارة لتسهيلها نقل المنتوجات الإنسانية من اقتصادية وفكرية على أننا لو قسنا النسبة الموجودة بين خط الإسكندرونة البصرة وما يدخله من تسهيل في المواصلات بالنسبة لقصر المسافة ولأهمية السرعة في العصر الحاضر لتبين لنا أن هذا الخط سيكون أكبر شأناً في سير الحضارة وأعظم فائدة . ولكن ماذا فعل الفرنسيون المحتلون بهذه المنطقة لإفقادها قيمتها العالمية أيوجد غير تهديد هذا الخط من دولة أجنبية مغيرة وإذا تحقق لدينا ذلك فهل نستغرب عندئذ إذا تخلت فرنسا الظافرة في الحرب العامة المحتلة لسوريا حتى آخر جبال طوروس بما فيها كيليكيا لتركيا المغلوبة الفقيرة التي لا تملك عدداً ولا عدداً ولم تكتف بالتخلي عنها بل تركت جميع ما فيها من معدات وذخائر حربية ثم عقدت معهم اتفاقية أنقره التي يمجد الفرنسيون اليوم ذكرى فرنكلان بويون عاقدها .

فعلى أي فائدة حصل الفرنسيون حتى يعدوا عهدة أنقرة اتفاقاً سعيداً اللهم إلا تهديد لواء اسكندرون وسلبه قيمته العالمية . . .

إن كيليكيا ليست أغنى المناطق التي احتلها الفرنسيون في الشرق القريب بعد

الحرب فحسب بل هي الجزء المتمم للبلدان الواقعة تحت نفوذهم والحصن الطبيعي الوحيد للدفاع عن هذه البلاد إذا كانت هناك نية في الدفاع عنها ، فتخلي الفرنسيون عن كيليكيا أدى إلى ضعف نفوذهم الحربي في الشرق القريب وإلى خسارة اقتصادية كبيرة منيت بها البلاد التي حكموها وبلاد العرب كلها .

إذ تفتقت حدود سوريا في الشمال وظهرت فجوات كثيرة يكمن ورائها الخطر التركي المداهم من منطقة الجزيرة إلى ولاية حلب إلى لواء الإسكندرونة لان القسم الأكبر من هذا الخليج قد أعطي بموجب الحدود الشاذه التي اتفق عليها إلى تركيا وأصبحت مدينة الإسكندرونة وخليجها والبواخر التي قد تدخله لاتحت رحمة المدفعية التركية المنصوبة على بعد ٢٠ كيلو متر في باياس بل تحت رحمة أبسط الأسلحة وإذاً فهل يوجد من استغراب بعد هذا بل هل بقيت أهمية لهذه المنطقة بعد أن مثلت على مسرحها هذه المؤامرة الخطيرة ... والعريضة التالية التي رفع عرب اللواء منها أكثر من عشر نسخ كل نسخة موقعة ببضعة آلاف من مختلف عناصر اللواء بطلب الالتحاق بسوريا تبين نوايا الفرنسيين والظروف التي لابست هذه النوايا بوضوح وهي كما يلي :

« لحضرة رئيس لجنة الخبراء الدولية في سنجق الإسكندرونة المحترم

لأسباب نجهلها عقدت في سنة ١٩٢١ عهدة أنقرة بين الحومة التركية والحكومة الافرنسية المنتدبة على سوريا واعترفت فرنسا بموجبها للواء الاسكندرونة بامتيازات إدارية ومالية معمول بها منذ ذلك التاريخ فتركت بذلك لتركيا بعض الحجج للتدخل بشؤون البلاد السورية العربية في وقت كان يترتب عليها أن تطلب من الحكومة التركية مثل هذه العهود لحماية مصالح العرب الذين يشكلون كثرة لا يستهان بها في كيليكيا والذين مزجوا دمائهم بدماء الفرنسيين في الدفاع عن عروبة منطقتهم فوقعوا تحت رحمة حكومة مغرقة بقوميتها التركية حرمت عليهم حق التمثيل وشراء الملك ثم حرمتهم من حق التكلم بلغتهم العربية بقوانين خاصة تجازي بالسجن من يخالفها .

وإذا كانت تركيا قد استسنحت غفلة العرب وضعفهم في ذلك التاريخ واستطاعت أن تحصل على امتيازات لم يقرها أهالي اسكندرون وإنطاكية ثم رغبت

اليوم المزيد من هذه الامتيازات لتمد أصابعها إلى البلدان العربية فإن اللواء لم يهمل مناسبة لإثبات عروبته .

لقد سبق له أن أعلن الثورة العربية على حكومة الأتراك في ١٩١٨ ونادى بالحكم الفيصلي العربي والاستقلال ولم يتأخر عن تقديم موجة ثانية من شهدائه الأحرار في ثورته على الاستعمار سنة ١٩٢٠ وكان جميع ممثلي اللواء في المجالس السورية العامة مؤيدين للوحدة السورية وخاصة في اجتماع الجمعية التأسيسية سنة ١٩٢٨ حيث اقسموا يمين الإخلاص للدستور السوري وفي مطلعه المادة التي تقول سوريا وحدة لا تتجزأ على أن روابط السنجق الاسكندروني بالدولة السورية لا تقتصر على الناحية الاثنوغرافيه الجنسية بل تتعداها إلى صلاة اقتصادية حيوية .

فالحركة التجارية فيه متضامنة مع مركز حلب وليس من نتيجة لفصل المنطقتين عن بعضهما غير القضاء على اقتصاديات حلب التي تختنق واقتصاديات الاسكندرونة وإنطاكية اللتان تصبحان بمصاف القرى التركية مثال باياس ودورتيول .

إذن لا ترمي تركيا من وراء مطاليبها الأخيرة لغير غاية توسعية عسكرية تنفيذاً لبرنامجها القومي الذي سنه حزب الشعب (خلق فرقه سي) المسيطرة على الحكومة التركية ، هذا البرنامج الذي يجعل حدود الدولة التركية في الجنوب ممتدة حتى طرطوس ورياق وكركوك فتقع إنطاكية واسكندرونة وحلب ومنطقة العلويين وحماه وحمص والجزيرة والفرات والموصل تحت سيطرة الأتراك فيعودوا إلى تأسيس امبراطوريتهم القديمة على حساب العرب ويقضوا بذلك على أهدافهم القومية .

وهذا ما أملى عليهم القيام بالحركة الأخيرة لا السهر على مصالح أبنائهم كما يدعون لأن الحكومة التركية لا تمنح جنسيتها لأتراك لواء الإسكندرونة النازحين إلي الأناضول كما تفعل مع المهاجرين الأتراك الذين يؤمونها من البلقان بل تصرف عنايتها على تعليم مئات الشباب ثم تعيدهم إلى اللواء .

فإذا كنا نثق بعصبة الأمم وعدالتها وصداقة الدولة الفرنسية فإننا معشر العرب الذين يدينون بالمبادئ القومية نعتبر لواء الإسكندرونة العربي جزء متمم للوطن السوري و نحتج على تدخل تركيا بقضية هذا اللواء العربي كما وإننا سندافع عن

عروبة اللواء ونقف بوجه كل برنامج يفصل هذا اللواء عن أمه سوريا لأن ذلك يعد بطشاً بالأمة العربية » .

في ١٩ كانون الأول سنة ١٩٣٦

مذيلة بعشرات الألوف من التواقيع كل نسخة

وإذاً فاتفاقية جنيف ليست حلاً أوجدته مخيلة اللجنة الدولية التي اختارتها عصبة الأمم برآسة المسيو (سندلر) بل هي نتيجة لأزمة ضرورية لسياسة اتبعت في المنطقة قسراً منذ الاحتلال حتى اليوم برعاية جور الموظفين الفرنسيين وأذنابهم – وإنني بإثباتي المذكرة التي رفعها الزعيم زكي الأرسوزي للجنة الدولية أوضح تماماً خطة الموظفين الفرنسيين بصدد ذلك : قال السيد زكي الأرسوزي « لحضرات أعضاء لجنة المراقبة الدولية الموفده من عصبة الأمم المحترمين

ياحضرات الأفاضل ، يقوم معاون المفوض السامي المسيو (دوريو) منذ توظيفه حتى الآن بسياسة غريبة هي التي خربت اللواء وأوصلته إلى حالته المحزنة الحاضرة من تجزئته عن سوريا وجعله منطقة مستقلة لاتتفق بشكلها عن أي شكل دولي آخر .

وباعتبار لجنتكم الحاضرة قائمة بدرس شؤون اللواء والصفحات المختلفة التي مرت عليه في عهد الانتداب وبصفتي ممثلا لطائفة العلويين وللحزب الكبير عصبة العمل القومي جئت أوضح لهيئاتكم الأمور الآتية راجياً إعارتها ما تستحق من الدراسة التي لاشك سوف تفيدكم عملياً .

١– إن المسيو (دريو) هو الذي أسس الحزب التركي المتطرف وغذى جرائده التركية بالمادة في اللواء وهو الذي دفعه للعمل ولايزال ينير له الطريق ولو قلنا إن هذا الحزب يستمد حالياً أعماله من الحكومة التركية لكنا نظلم الحقيقة .

٢– إنه لتقويه هذا الحزب الذي يستند عليه في تقوية مركزه كان يقاوم سياسة الحكومة السورية ويحول دون أعمالها وإداراتها ضمن الصلاحيات المعطات لها بشتى الطرق وقد جعل متصرف اللواء السابق صنيعة له وتبارى الإثنان في سبيل عرقلة وظائف الحكومة السورية مباراة أدت إلى هذه النتائج المؤلمة . ولم يكن في وسع الحكومة السورية حينذاك وقد كانت وطأة الانتداب شديدة عليها أن تمانعها

أوتخالفها بمسائل ذات أهمية لأن أكثر الحكومات التي مرت حينذاك على سوريا كانت صنيعة الانتداب .

٣– لكي يوهم الحكومة السورية بوجود وضع شاذ للواء أوعز إلى الحزب التركي بلزوم استقبال والي عينتاب الذي زار انطاكية سنة ١٩٣٣ وقد شوق الأهلين لإجراء المظاهرات لاستقباله بصورة قام فيها بعض الموظفين يتبارون لإرضاءه بالاشتراك بهذه المظاهرة . وكان في عداد المتبارين رئيس البلدية السابق السيد ثريا خلف ومعلم مدرسة التجهيز الطبيب صدقي عثمان الذي شوق التلاميذ ودفعهم للاشتراك ولما انتهت هذه المظاهرات التي لا يمكنا أن نسميها إلا مظاهرات حكومية بحته . فإن المسيو (دريو) اعتبر السيد ثريا خلف باعتباره شوق الأهالي والسيد صدقي عثمان باعتباره شوق التلاميذ مسؤلين عنها أمام الحكومة السورية وسعى لكف أيديهما من وظائفهما ولكنه سرعان ما سعى ثانية فعين الأول قائمقاماً لقضاء قرقخان الذي كان هادئاً قبل تعيينه إليه وعين الثاني طبيباً شرعياً رسمياً لإنطاكية وأعطاه صلاحيات في قبض أجر المعاينات من خزينة الدولة لم تسبق لغيره لا في اللواء ولا في جميع البلاد السورية .

٤– بعد أن قوي الحزب التركي وربطه ربطاً محكماً بوعود وتشويقات كثيرة أخذ يهدد به سوريا ويستغله لمسائل كثيرة ولما أجريت الانتخابات الأخيرة للمجلس النيابي السوري أصر على الكتلة الوطنية بلزوم انتخاب كل قائمة يقدمها لهم لاعتبارات خاصة ادعى انها دقيقة وتنصل من كل مسؤولية تنشأ عن مخالفتهم هذا المبدأ ملمحاً لهم بالحزب التركي وهكذا انتخبت قائمته التي لا يمكن أن تمثل أي عنصر من عناصر اللواء لا في النيابة ولا في أي شيء آخر .

٥– إنه لما شاهد الاتفاق العربي بين المسيحيين والسنيين والعلويين والأرمن في اللواء وهم المعدودون أكثرية مطلقة قام بتشكيل حزب مخالف لأماني الأمة وأوعز لبعض صنائعه ممن انتخبهم للنيابة وهم مربوطين بتقارير رسمية في دوائر الاستخبارات ليقوموا به قصد التفرقة . ولكن العرب الذين عرفوا سياسته واختبروا مراميه وتأكدوا من فقدان النية الحسنة لبلادهم من أعماله لم يقفوا مكتوفي اليدين أمام هذا الحزب الذي لايمكن أن يتشكل مثله في هذه المنطقة أبداً .

إن هذه الأعمال يا حضرات الأعضاء تستوجب حتماً إجراء تحقيق دقيق لئلا تنخدع اللجنة برجال الانتداب في هذا اللواء الذين لا يختلفون عموماً عنه والذين افقدوا ثقة الأهلين بحكومتهم والذين ساقوا بلادنا إلى شر ما يمكن أن تساق إليه البلاد .

وتفضلوا ختاماً بقبول أسمى احتراماتنا »

زكي الأرسوزي

هذه هي الدفعة الأولي التي قدمتها لهذه المنطقة العربية فرنسا الحرة كتهيئة لقبول ما ستنتهي بنا إليه ويظهر مما تقدم أنها كانت ماهرة في عملها وممثلة لبقه لم تترك وسيلة تتمكن بها من إضعاف العنصر العربي وإفقاد المنطقة قيمتها إلا وقامت بها ، ولما انتهت من عملها وصفت مشاكلها مع السوريين كما تدعي وقفت في جمعية الأمم بلسان وكيل خارجيتها المسيو (ڤينو) وانطلق يدافع ببراعة عن حق العرب في اللواء وبمنطقٍ لا مثيل له واندفع العرب الذين لم تلقنهم فرنسا على مايظهر فنّ الخدعة السياسية يلهجون على براعة (ڤينو) بالثناء وأخذت تنهال عليه برقيات الشكر والتشجيع من مختلف الأقطار العربية ، وفي ليلة كان العرب فيها في غمرة من الفرح لارتباطهم مع هذه الدولة القوية الشريفة وإذا البرق يحمل إليهم على طيات الأثير اتفاق الدولة المنتدبة والترك على قضية اللواء وإذا بالإسكندرونة تبتعد عنهم رويداً رويداً وبين عشية وضحاها ضاع اللواء وتمت المؤامرة مابين دفاع (ڤينو) وسفسطات مبادئ الجبهة الشعبية والأخذ بناصر الضعفاء .

لقد قام عرب اللواء في مختلف المناسبات بإظهار حقهم أمام اللجنة الدولية وقد قابلوها بلسان زعيمهم السيد زكي الأرسوزي وأدلوا إليها بجميع الأمور التي تنطوي عليها قضية اللواء من نيات رجال الانتداب ونيات الجارة تركيا وبينوا لها بالبراهين المعقولة أن العرب هم الأكثرية في اللواء وإنهم في شتى المناسبات أظهروا شعورهم العميق نحو أمتهم العربية ونحو ارتباطهم الوثيق بسوريا من العهد الفيصلي حتى الآن ومن أروع ماقاموا به أمام اللجنة الدولية المظاهرة الجبارة التي لم تقل بمظهرها عن أي مظاهرة كبرى تقوم في البلاد الأوربية من حيث تجلي فيها النظام والنضوج السياسي والأخلاقي عند عرب اللواء . اشترك فيها الرجال

والسيدات بصفوف متراصة دون أي تفريق بين طائفة وطائفة مشى فيها الموظفون والزعماء والعمال والطلاب والطالبات على اختلاف الطبقات والمذاهب يعربون عن أمل واحد هو تمسكهم بمبادئهم العربية وارتباطهم بأمهم سوريا وكان عددهم يربو علي الأربعين ألف بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٣٧ وها أنا أثبت الخطاب الذي ألقاه أحد الشباب باسم المتظاهرين أمام اللجنة للدلالة على ما بلغه عرب اللواء من العمق في مفهومهم العام للسياسة العامة . وهو كما يلي :

« حضرة رئيس وأعضاء لجنة الملاحظة الدولية في لواء الاسكندرونة

يسرنا نحن السوريين أن نحيط حضراتكم علماً بمناسبة مظاهرتنا السلمية في هذا اليوم أن فكرتنا الوطنية مستوحاة من المفهوم الأفرنسي للقومية حيث تتسق الأديان والأجناس ضمن فكرة سامية لتحقيق المثل الأعلى الإنساني .

وهكذا نعتبر المستتركين من مواطنينا إخواناً لا فرق بيننا وبينهم ولا نرى النزعات الانفصالية التي باغتتنا مؤخراً سوى نتيجة طبيعية للدعاية الشديدة التي قامت بها الحكومة التركية في منطقتنا المتاخمة لها .

ولم تبد أي بادرة منا إن كان ذلك قبل عقد المعاهدة الافرنسية السورية أو بعد عقدها تدل على إننا نعارض العقود الدولية والضمانات المتعلقة بلواء الاسكندرونة على أن لا تمس السيادة القومية ولا تمنح بعض المشروعية في التدخل لدولة أجنبية .

فنحن الذين عاهدنا أمتنا السورية على حفظ الأمانة والدفاع عن قضية بلادنا العادلة نعلن تمسكنا الشديد بسوريا ونفوض السيد زكي الأرسوزي بالتعبير عن أمانينا أمام حضراتكم وعن وجهة نظرنا في قضية لواء الأسكندرونة » .

وكذلك خطب خطيبان آخران أحدهما باللغة الفرنسية والثاني باللغة الإنكليزية خطباً لا تختلف بجوهرها عما تقدم .

ولكن ماذا فعل أعضاء هذه اللجنة الذين صرحوا من قبل مغادرتهم اللواء بأنهم قد تعرفوا على شعب عربي لا يقل بمفهومه للثقافة العامة عن مفهوم أي شعب آخر في أوروبا وإن العرب هم الأكثرية في اللواء وإن العرب هم أصحاب حق وهم المضطهدون في هذه المنطقة ..

غادروا اللواء إلى أوربا ونسوا على ما يظهر من موافقتهم على اتفاقية جنيف المشؤمة كلما لمسوه وصرحوا به واعترفوا فيه إذ أن أعمالهم انتهت بهذه الاتفاقية التي لاتعترف للعرب بأي وحدة قومية لطوائفهم عكس ما لمسوه في اللواء فقد كانوا في أي قرية حلوا التف أهلها حولهم وبدأوا يظهرون شعورهم القومي الفياض نحو عروبتهم دون تفريق بين عنصر وعنصر فجاءت اتفاقة جنيف مقسمة العرب إلى عناصر متباينة ليس في المذهب أو الدين بل في العرق والدم – ففي هذه الاتفاقية تتناقض مبادئها مع بعضها من حيث اعتبار طوائف اللواء فقد اعترفت أولاً بالأتراك والأرمن على أساس اللغة والجنس وأهملت الاختلافات المذهبية بين أرمن كاتوليك وأرمن ارثوذكس واعتبرتهم طائفة ذات لغة وجنس واحد ولم تنظر للأتراك كسنيين بل اعتبرتهم أتراكاً يتكلمون اللغة التركية ويصرحون بانتمائهم للجنس التركي وعلى الأساس القومي وحده أما العرب فعلى الرغم من اعتدادهم بعروبتهم وحرصهم على تحقيق أمانيهم القومية فقد اعتبرهم قرار جنيف على أساس الدين فقسمهم إلى علويين وروم ارثوذكس وعرب سنيين ناهيك عن تجاهل العلويين كطائفة إسلامية وفي هذا تناقض بين النظام العلماني الذي استندت عليه هذه الاتفاقية وحيف كبير يصيب العرب ومصالحهم ، لم تكن لتحل دونه احتجاجاتهم الكثيرة ومظاهراتهم الصاخبة فهي في تقسيمهم إلى طوائف مختلفة أظهرت الأتراك كأكبر عنصر في اللواء وقد كان هذا التوزيع حجة اتخذتها تركيا واستندت إليها في المطالبة بفصل اللواء عن سوريا باعتبار أن الأتراك هم أكبر أقلية فيه وكان أيضاً مما حمل فرنسا على الدخول في محادثات خاصة مع تركيا خارج جمعية الأمم لحل القضية عن طريق السياسة لا عن طريق القانون الدولي كما صرح بذلك المسيو بلوم رئيس الجبهة الشعبية ورئيس الوزارة الفرنسية في كتابه إلي رئيس الوزارة التركية ، وقد حمل هذا الاتجاه المنحرف جمعية الأمم في بادئ الأمر إلى اعتبار اللغة التركية لغة اللواء الرسمية .

وقد ادرك العرب مدى الحيف ومدى النتائج السيئة التي قد يقضي إليها فتقدموا بمضبطتين رفعوا الأولى إلى رئيس الجمهورية السورية والثانية إلي جمعية الأمم بواسطة اللجنة الدولية الأولى طالبين فيها اتخاذ مبدأ واحد في توزيع الطوائف فإما أن يكون الدين وإما أن يكون الجنس وقد طلبوا إلى الحكومة السورية أن

تلاحق مطلبهم لدى جمعية الأمم والدول ذات العلاقة ولكن يظهر أن الحكومة السورية لم تعر الأمر ما يستحقه من إهتمام ولم يتوفر لدى جمعية الأمم معلومات وثيقة تستطيع الركون إليها لإقرار هذا الاعتبار الجديد . فظهرت اتفاقية جنيف كما يريدها الأعداء ، مخالفة لأماني العرب وآمالهم في هذه البقعة العزيزة .

استمد سكان اللواء استشاراتهم من سوريا فكانت هذه الاستشارات التي قدمتها هذه الدولة لعرب اللواء أن يهدأو ويركنوا للسكون منتظرين أيام الانتخابات وتشكيل الحكومة الجديدة ليتمكنوا من التساند آنذاك والوقوف صفاً واحداً أمام الجبهة التركية فقبل عرب اللواء ما طلبته سوريا ولكن هذه الحكومة التي تآمرت قبل اتفاقية جنيف مع سلطات اللواء على انتخاب ممثلين في المجلس النيابي السوري من أناس لم يتورعوا عن بيع وطنهم والمنادات بانفصاله عن أمه سوريا رغم احتجاج عرب اللواء ومظاهراتهم وبرقياتهم ومن ثم انحياز أكثر هؤلاء النواب إلى القائمة التركية وخيانة الحكومة السورية التي ظاهرتهم وقد تآمرت مرة ثانية وتركت عرب اللواء في أول الطريق لوحدهم بل تعاونت مع السلطات أيضاً على التحذير وقتل الحركة العربية وغدت الحركة الرجعية بتبنيها أشخاص خونه تعرف ماضيهم الأسود وحاضرهم الذي لايقل عنه سواداً لدى دوائر الاستخبارات في اللواء ، ثم منعت كل معونة عن عرب اللواء ترد من سوريا وغير سوريا بينما تنهال المعونات بالملايين من تركيا ... ثم ساعدت على خلق حزب رجعي يأتمر بأمر الأعداء لمناوأت الحزب العربي القومي والاعتراف باتفاق جنيف ليفقد العرب في يوم ما حق المطالبة . وبذلك قسمت العرب إلى قسمين فزادت الطين بلة ورفع الرجال الوضعيون الذين كبت صوتهم الاندفاع القومي رأسهم للدس والتفريق مما دفع الكثيرين من ذوي النفوس الكريمة الذين لم يتح لهم أن يثقفوا الثقافة الكافية للتراجع عن النضال والارتماء في أحضان الترك ، كما إنها أفسحت المجال لذوي النفوس الدنيئة لاتخاذ عمل هذا الحزب الرجعي التهديمي حجة للتظاهر باستتراكهم .

دور الجدل العنيف

بعد أن أعلن نظام جنيف ابتدأ دور جديد في اللواء نتمكن أن نسميه دور الجدل العنيف بين الترك والعرب إذ إنه لم يمض يوم بعد ذلك التاريخ إلا ووقع فيه

تعديات وإصابات بين العنصر التركي والعنصر العربي وقد وقعت في حزيران سنة ١٩٣٧ مصادمات عنيفة في مدينة إنطاكية بنتيجة اعتداء بعض الأتراك على الأحياء العربية وانقسمت المدينة إلى شطرين تركي وعربي وقع فيها ٢٥ جريحاً من الأتراك وثلاثين جريحاً من العرب دامت ثلاثة أيام أعلنت خلالها الأحكام العرفية .

وفي ٩ آب سنة ١٩٣٧ وقعت مصادمات شبيهة بالتي مرت ولكن كانت هذه أشد إذ أنه وقع فيها شهيد عربي هو المرحوم وهبي رشيد و٤٠ جريحاً عربياً مع ٦٠ جريحاً من الأتراك دامت الاضطرابات ٢٠ يوماً أعلنت خلالها الأحكام العرفية واستلم الجيش المدينة شهراً ونصف أغلق على أثرها نادي العروبة وشنت فرنسا حملة شعواء على الحركة العربية فيها دون أن تحاسب الأتراك على شيء وهم المعتدون .

وفي ١٠ كانون أول سنة ١٩٣٧ اعتقل السيد زكي الأرسوزي وفريق من شباب العرب في مدينة الاسكندرونة فقامت مظاهرة صاخبة فيها هوجمت دوائر الشرطة والعدلية والبرق والبريد وإدارة التلغراف العسكري فتحطمت نوافذ هذه الدوائر وأبوابها واستشهد فيها عربي وهو المرحوم الياس ديب ووقع عشرين جريحاً وتوفي أحد المعتقلين لسوء المعاملة التي عومل بها الشباب العرب في معتقلهم هو المرحوم الياس بسطولي من مدينة انطاكية .

ووقعت اضطرابات عنيفة يوم إنزال العلم السوري في مدينة إنطاكية في ٢٩ تشرين ثاني ١٩٣٧ بين الجماهير وقوات الحكومة أسفرت عن عدة جرحى . رفع الشباب فيها علمهم بالقوة على المنازل والحوانيت وأخشاب التلغراف ولكن تطوعت فرنسا وأنزلت جيشها برمته فاحتلت المدينة ونصبت المدافع في جميع المحلات العربية وبذلك انزلت العلم السوري بالقوة بعد أن وقع بضعة وعشرون جريحاً .

وفي ٤ أيار سنة ١٩٣٨ ثاني نهار لبدء التسجيل الأخير في الإسكندرونة وقعت مصادمات بين العرب والأتراك بنتيجة إطلاق الرصاص على جمهور من العرب تحت بناية القنصلية التركية واشترك أفراد من القنصلية بإطلاق الرصاص فلم يتراجع شباب العرب بل أصلوا المعتدين ناراً فوقع عشرة جرحى من الأتراك وانتهت

باستلام الجيش زمام الأمن فيها . وأخيراً بدأت المصادمات والمعارك الدائمة طوال شهر نيسان سنة ١٩٣٨ أيام التسجيل في إنطاكية وذلك بنتيجة فشل الأتراك في التسجيل وفرز القائمة العربية وقد استشهد اثنين من العرب هما السيد علي نعمان سعاده من قرية السوسيه التابعة لإنطاكية والسيد وهبي تادروس من مدينة إنطاكية قتلاً غدراً في الأحياء التركية . وقد قتل ثلاثة من الأتراك في انطاكية وواحد من المستتركين في الحربية ووقع خلال ذلك مئات الجرحى من الطرفين دامت هذه المصادمات حتى ١٣ حزيران سنة ١٩٣٧ حيث نزل الفرنسيون إلى الميدان وشاركوا الأتراك باعتدائهم على العرب بعد أن رفض العرب مطالب الفرنسيين القاضية بالتنازل عن الأكثرية التي حازها العرب للأتراك وإعطائهم ٢٢ نائباً في المجلس و١٨ للعرب مع الارمن. وقد اعتقل زعيم عرب اللواء السيد زكي الارسوزي في مساء ١٣ حزيران ١٩٣٧ واعتقل رئيس تحرير جريدة العروبة السيد نخلة ورد واعتقلا أخوا الزعيم السيد نسيب ارسوزي والسيد شهيد ارسوزي واعتقل مئات الناس بدون ذنب مع جميع ممثلي العرب في منطقة السويدية ومنطقة الحربية ومنطقة قره مورط لارهاب العرب. وفي هذا اليوم ١٣ حزيران ١٩٣٧ قامت انطاكية بمظاهرة جبارة لم تكن مظاهرة كالمظاهرات بل ظاهرة حية ترمز الى تغلغل الشعور القومي في عرب اللواء. اذ انها كانت مؤلفة من نساء المدينة وأطفالها فقط بدأت في حين اعتقال الزعيم وسارت مخترقة صفوف الجند الذين لم يتركوا منفذاً من منافذ المدينة أو الأحياء إلا وملؤه حتى وصلت الى سرايا الحكومة ومقر اللجنة الدولية فقدمت شكواها للجنة المراقبة الدولية ومن ثم هاجمت السرايا وبغيت ترميها بالحجارة حتى ثاني يوم صباح ١٤ حزيران سنة ١٩٣٨ وهي أطول مظاهرة طبعاً صمدن فيها المتظاهرات مقاومات الجند التركي والفرنسي معاً ولم تتراجعن الا بعد أن اطلق الجند عليهن الرصاص. فوقع شهيد وهو المرحوم كمال مقنص عمره ١٣ سنة وامرأة بترت رجلها واخرى أصابت الرصاصة خصرها بشهادة اللجنة الدولية نفسها وهنا أثبتت الكلمة العميقة التي قالها أحد الشباب على قبر الشهيد كمال مقنص مؤبناً لتبيان مبلغ الاستياء الشعبي وتأثيره مشيراً الى أن قوى الامن ومدير هذه القوى الفرنسي وأعوانه وكمندان الدرك وضباط الجيش كانوا يسمعون هذه الكلمة لانهم احضروا قواهم احتياطياً وخوفاً من وقوع مصادمات لكثرة المشيعين . وهذه هي:

ياسادتي والخطب قد هد العزائم.

جور وظلم وارهاق على شعب أعزل مؤمن بحقه مؤمن بعدالة مطلبه.

يريد الفرنسيون ان يغتصبوا بالظلم حقاً مقدساً وهبتنا اياه العناية، يريد الفرنسيون في هذا البلد أن يسلبونا أملاً نبيلاً كلفنا كثيراً من الضحايا النبيلة وسكبنا في سبيله الدماء الذكية العزيزة.

ياسادتي والجور قد عم الاقاصي والاداني في كل يوم شهيد عزيز فما أقدس الشهادة وما أعظم التضحية لنصرة قضية الوطن المنكوب.

لِمَ نتألم ولِمَ ننتحب وقد غدا الالم لدينا عادة بعد ظلم الفرنسيين، ولِمَ نجزع للاستشهاد وقد غدا الاستشهاد لدينا أمراً بسيطاً بعد جور الفرنسيين.

أي شهيد العروبة وشهيد فرنسا الظالمة العاتية. أي كمال انك طفل وقتلك جريمة في نظر العدل والمدنية. ولكن أنى لفرنسا المتوحشة، أنى لفرنسا وحلفاؤها الجناة الظالمون والعتاة أن يعلموا ان قتل الاطفال وترويع النساء جريمة ...

يا كمال يا طفلاً من أطفال هذا الشعب لقد تحملت فوق ما تستطيع في سبيل هذا الشعب فارقد في ابديتك مستريحاً حاملاً رحمة واجلال هذا الشعب.

لقد قتلك الجناة وفظعوا ظناً منهم انهم ظفروا ولكن روحك الصغيرة النقية تقول لهم من عالمها الروحي انهم لم يظفروا ولن يظفروا... : ان قتل الاطفال والنساء وترويع الشيوخ ليس ظفراً...

ففي سبيل الشهامة وشرف المبدأ تذهب من بين احضان والديك. رسولاً الى العلى تنبئ بظلم فرنسا وغدر فرنسا.

وفي سبيل الذل والدناءة اتي يرتكبها الفرنسيون والاتراك للتسلط على حقوق الآخرين ظلماً وعدوانا.

ان يومك هذا لهو يوم ملحمة وذكرى مؤلمة مثيرة سوف لن تمحى من أذهان ومخيلات عرب اللواء الى أن يأتي اليوم الموعود.

فإلى الرحمة والمغفرة ياشهيد الواجب.

النتيجة :

نعيد الآن ما قلناه قبلاً من أن فرنسا لم تكن مضطرة لقبول ما تم في اللواء بل كانت متآمرة راضية بل مخترعة لهذه الحلول ولهذه الدسائس التي دفع العرب ثمنها من بلادهم وحريتهم غالباً . لقد استعان الفرنسيون بجميع مظاهر الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية لمحاربة الروح العربي وتشجيع العنصر التركي في اللواء وكل عنصر آخر يحارب العروبة في سوريا.

أعانت السلطة جميع الدعاوات الاجنبية وسهلت انتشارها لشل حركتنا الوطنية فحاربتنا في كل نهضة من نهضاتنا الثقافية والاجتماعية والرياضية وساعدت بكل مجهودها لنشر الامية وزيادة مفعولها بين طبقات الشعب العاملة لحرمان البلاد من شباب مثقفين يدركون مرامي السياسة الاستعمارية واخطارها في بلادنا فيعملون لدرء الخطر... وأعمال السلطة هذه دلت بوضوح على نواياها نحونا في الماضي أما اليوم فلم نعد نحتاج للأدلة لانهاهي بنفسها ازالت عن وجهها القناع وظهرت كما هي عليه بلا خجل ولا حياء وقالت أمام العالم اجمع انها ستحارب الحركة العربية جهراً وستؤمن للاتراك أكثرية مزيفة وتفوقاً عنصريا في كل مظاهر الحياة ولو كان ذلك بالقوة وهي تقول بصراحة متناهية على لسان مندوب اللواء وحاكمه العسكري الكولونيل (كوله) ان فرنسا تآمرت مع الاتراك والدول الاخرى ذات العلاقة للنيل من الامة العربية وتهويد قضيتها والتنازل عن حقوقها المقدسة وأمانيها القومية لقاء تأمين بعض مطامعها الاستعمارية البشعة في الدردنيل وغيره من المناطق الاخرى.

فحري بلواء الأسكندرونه ان يكون امثولة للانانية الاستعمارية ولعبث الاقوياء بحقوق الضعيف والسخرية بحدود الشرف والعدالة والقوانين الانسانية ...

وهنا أريد أن أبين كيفية التنظيم الذي سار عليه عرب اللواء فكفل لهم أكثرية ساحقة أمام اللجنة الدولية واحبط تلك الدسائس السافلة التي قام بها الفرنسيون وأدنابهم الرجعيون الترك وبعض السوريين معاً.

لقد قامت الحركة العربية في اللواء على سواعد الشباب المؤمنين المأخوذين

بعظمة تاريخهم المجيد وعلى سواعد الجماهير العاملة والفلاحين الفقراء من أبناء الشعب لا علي سواعد الأغوات الاقطاعيين وأغنياء التجار المحتكرين أو ذوي النفوذ المستمد من دوائر المندوبيات وغرف الاستخبارات المسيطرين الذين ارادت الحكومة السورية ان تعيد دارس عزهم ففشلت .

ولذلك فاذا كان اللواء فخوراً باناس اشتغلوا باخلاص لحفظ كيانه واعلاء شأنه فأنه يفخر بدون شك بالشباب العاملين والعمال المجيدين الذين ضحوا كثيراً ليروا بلادهم حرة مستقلة يعيشون في كنفها أحراراً فصدت لهم السياسة الغاشمة بمدافعها ورصاصها وجيشها اللجب فكبتت صوتهم وشلت حركتهم بعد فوزهم المبين في مضمار الكفاح السلمي الذي أعلنته عصبة الأمم .

فاللواء إذا والأمة العربية وسوريا خاصة مدينون لهؤلاء الشباب المغاوير بنصرة قضيتهم وتأمين أكثريتهم في التسجيل لأن هؤلاء الأبطال بدمائهم التي اريقت رخيصة على تراب هذا الوطن وبكواهلهم التي تحملت أنواع العذاب وصنوف الأذى وبمظاهراتهم واحتجاجاتهم رفعوا رأس الوطن وكرامة الوطن عالياً .

لقد أدرك قادة العرب في اللواء أن الملاكين والأغنياء والمحتكرين واضرابهم لا يمكن أن يقوموا بحركات جزئية فيها الخلاص وفيها الحرية لأن أموالهم ومراكزهم التي يحرصون على صونها تضطرهم للتراجع والخشوع والعوزة للقبول دائماً بالأمر الواقع ولو كان في ذلك ذلهم . ولذلك انتزع أولئك القادة ذمام الشعب من أيدي الطبقة النفعية وسلموه للشعب نفسه . فقبض هذا الربان الماهر الجديد على دفة السفينة بيد من حديد وقادها بجرأة وشجاعة إلى شاطئ السلامة والعزة القومية ، فلما برز الخطر من كمينه وظهر بابشع صورة وأفظع أشكاله وبدأ ينكل ويعذب ويقهر ، صمد العرب الأقوياء بإيمانهم أمامه وردوه على أعقابه .

فعلى الرغم من مقاومة الفرنسيين لجميع حركاتهم وعلى الرغم من تخلي سوريا عن مساعدتهم ورغم ملايين الليرات التي بذلها الاتراك بسخاء للتغرير بالسذج وكسب الانصار منهم . تمكن العرب بجهودهم الجبارة وتضامنهم المتين ان يبرهنوا على حيوية نادرة وحسن قومي قلما يتمثل في اعظم الشعوب ثقافة ورقياً، وذلك لان الطبقات العاملة والمجدة من الشعب هي التي تقدمت القافلة وسارت في الطليعة.

اعتقدت السلطة الفرنسية في اللواء ان انواع العذاب والضغط والارهاب التي قامت بها بمعونة الاتراك ضد العرب العزل وان البعثات والقوافل التركية الذين ارسلوا لترويج دعايتها وان الاموال الباهظة التي بذلتها لشراء النفوس الوضيعة والضمائر المنتنة كافية لكسب الموقف والحصول على أكثرية مزيفة مشروعة امام العالم الاجنبي واللجنة الدولية، ولكن سرعان ما انهارت تلك الدسائس والمؤامرات وتكسرت عند اصطدامها بإرادة العرب الجبارة كما تتكسر امواج البحر الصاخبة على صخور الشاطئ الصلدة .

واتضح للمتآمرين وانصارهم ان المال والضغط والارهاب لا يستطيع ان يحول نفساً أبية أو عزيمة مؤمنة عن حقها وكرامتها مهما غالوا ومهما فعلوا . . .

فظائع الفرنسيين الاخيرة :

لقد ارتكب الفرنسيون والأتراك بواسطة الرعاع في لواء الاسكندرونة جرائماً فظيعة يندو لها وجه الفضيلة خجلاً وذلك لخلق جو من الارهاب والفوضى يشعر العرب منها بالخطر فيرهبوا الموقف ويستسلموا فيصاعوا للامر الواقع. وسأثبت هنا بضعة حوادث من آلاف الحوادث التي لاتزال تجري ليست أعظمها فظاعة ولا أشدها فتكاً ولكن ما اطلعت عليه بنفسي وفي منطقة كنت أعمل بها أيام وقعت هذه الحوادث وذلك لتبيان ما يقاسيه عرب اللواء في سبيل عقيدتهم . . .

. . هاجم فريق كبير من الاتراك المسلحين مع عدد كبير من الدزك التركي الذين عينوا اخيراً من جماعة المجرمين وقطاع الطرق لابتكار حوادث الترويع والتفظيع الغريبة المؤلمة . قرية « العيرانجي » في منطقة العمق بعد ان نام أهلها ففاجؤهم باحراق القرية ونهب جميع ما فيها من مؤن ومواشي، ولما انتهوا من فعلتهم النكراء اطلقوا رصاصهم على السكان بالجملة فقتلوا اثنين من كرام المجاهدين العرب وجرحوا عددا كبيراً بينهم عدة نساء وأطفال وهرب الباقون بعد ان قبض على عدد كبير منهم اقتادهم الجناة الى السجن وذهبوا هم آمنين.

وهاجم جمع من هذا النوع المتوحش مدينة « الريحانية » وبعد ان مثل الجناة بأهلها ومنازلهم نفس الدور الوحشي الذي مثلوه في « العيرانجي » قبضوا على اربعة من أهلها لم يتمكنوا من الهرب مع من هرب، وبعد أشبعوهم ضرباً وطعناً بالخناجر

والسياط كتفوهم ووضعوا تحت أباطهم وبين أفخاذهم البيض المشوي الحامي بعد اخراجه من النار رأساً دون أن يرأف أحد لاستغاثتهم حتى تورمت أجسادهم ومات اثنين منهم تحت العذاب وتركوا الاثنين الباقين وهما بين الموت والحياة، ومن ثم دخل الجناة الى منازل الفلاحين الآمنين وسطوا على النساء ففتكوا بابنتين وامرأتين وهتكوا اعراضهن بدون ان يرتجفوا لاعمالهم المنكرة أو أن يعتريهم وجل أو خجل.

وهاجم خمسمائة مسلح من الاتراك بصحبة خمسة عشر دركياً في رابعة النهار قرية «الاكانت» من منطقة القصير، فاحرقوا القرية بعد أن نهبوا جميع مافيها واطلقوا الرصاص على السكان الآمنين فجرحوا عشرة منهم وقبضوا على عشرة آخرين مع الحاج نايف وهو الرئيس الديني الأعلى لعرب القصير عامة شيخ جليل عمره تسعون سنة فخلعوا عنه ثيابه وضربوه أمام الناس ضرباً مبرحاً حتى نفر الدم من جسمه واغمي عليه ثم اقتادوه مع المعتقلين الى انطاكية، ولما مروا به قصداً من الاحياء التركية أوعزوا للاتراك باهانته فتجمهروا حوله واخذوا يسمعونة الشتائم البذيئة ويبصقون على وجهه ولحيته البيضاء لا تاخذهم قشعريرة ولا رهبة ويطرحون عليه الاوساخ حتى وصل الى دار الحكومة بصورة تقشعر لها الابدان، فطرح بالسجن يقاسي آلامه بدون ذنب سوى أنه عربي.

وهاجم جمع غفير من الاتراك المسلحين في الريحانية إمام الجامع وانهالوا عليه ضرباً ولكما أمام دائرة الحكومة، وبعد أن احرقوا منزله ونهبوا ما فيه طردوه الى خارج حدود السنجق كل ذلك لانه أقام الآذان باللغة العربية ولم يطاوعهم ويؤذن باللغة التركية.

ولا يغالي المرء اذا قال ان هذه القصص ماهي الا شيء يسير جداً لا يذكر امام ما يرتكب يومياً ولا يغالي اذا قال انه يوجد الآن خمسة وستون قرية من قرى العمق العربية لا يسكنها أحد وان ١٥ ألف عربي هاجروا الى خارج حدود اللواء ولم يكتف الترك بذلك بل جعل ضابط الاستخبارات الافرنسي يجول على الحدود يومياً ويجبر عرب العمق المهاجرين ان يبتعدوا عن حدود السنجق على الأقل خمسين كيلومتراً... و... يعيشون عيشة ذل ومسكنة وجوع لا مثيل له لأن

الحكومة السورية خافت بطش الفرنسيين وامتنعت أيضاً عن معونتهم بعد أن خسر هؤلاء الجياع ١٠٠ ألف شنبل من الحبوب تركوها حين هجرتهم في بيادرها فاستولى عليها الأغوات الاتراك بكاملها.

لقد أثبتُ هذه الأمثلة ليطلع كل عربي في أي قطر كان من أقطار العرب على ما يجري في اللواء وما ينهتك من حرمات الدين والشيخوخة وما يسلب من الاموال والحريات الشخصية ولابين لعرب العالم كيف ان هذه المظالم رغم شدتها ورغم ازديادها يوماً بعد يوم لم تؤثر في عقيدة الشعب ولم تحوله عن أمانيه القومية وغاياته السامية النبيلة - ولأبين في نفس الوقت أن المصيبة التي حلت في اللواء ليست مقتصرة عليه بل هي ستتعداه ان لم يقف العرب حائلاً دون ذلك الى المناطق السورية الاخرى. وليعلم عرب سوريا بصورة خاصة هؤلاء الذين أخذ بعضهم بدعاية الاجنبي، أن ما يذيعه بعض المارقين المغرضين عن السعادة والرفاه لدى الاتراك هو مجرد تضليل وكذب على الحقيقة وخيانة وطنية كبرى لان الغاية التي تدفع بهؤلاء لخلق هذه الاضاليل غاية دنيئة سافلة يتقاضون أجراً عليها لقتل أمتهم وتفكيك عناصر اتحادها والقائها غنيمة باردة في أيدي الاتراك الكفرة الكماليين ليحققوا مطامعهم مع حلفائهم الفرنسيين الاستعمارية والعسكرية. واننا نحيلهم الى ما يجري في اللواء وما ينتهك ليعلموا أية سعادة ورفاه بل أي تدمير وتهديم حمله الاتراك الى اللواء وسيحملونه ان تمكنوا لا سمح الله الى أي بقعة من سوريا.

فعلى شباب العرب في جميع اقطارهم ان يتضافروا لقتل الدعاوات الاجنبية في بلادهم ولا سيما التركية لان المستعمرين هم الذين يغذون هذه الدعايات ليستندوا عليها في تهديم كيان امتنا والحؤول دون تقدمنا وحرية بلادنا...

في ١٣ آب سنة ١٩٣٨

محمد الزرقا

أوراق متفرقة عن ذكريات القاوقجي حول احداث العراق خلال حكومة رشيد عالي الكيلاني ١٩٤١، ودور القاوقجي في قتال القوات البريطانية وخلافه مع المفتي.

في العراق:

– المفتي أقنع الضباط الذين كانوا يكرهون الوصي ولايثقون به ويشكون باخلاصه للعراق بالاطاحة بالوصي على ان يستلم هو مركز الوصي، لاقامة دولة عراقية تكون قاعدة للدولة العربية الكبرى.

– حلت أنا دون هذه الفكرة عندما حضر لعندي صلاح وفهمي واطلعني على عزمهم تنفيذ هذه الفكرة حلاً، فوقفت وأقنعتهم من سوء عاقبة هذا التهور الذي سيشق العراق ويشطره ومسؤلية لاتطاق ...

– أنقذت الرطبة من السقوط لانه ما وصلنا مع المساء وعلى سطح القلعة علم أبيض، وكانت محاصرة من كل جهاتها وهي تحت نيران من الرشاش والبنادق الكثيرة، وكانت محكومة للسقوط، كما حذرني نور الدين محمود وهو يودعني بعد ان أعطاني تعليمات عن المهمة، وهي استطلاع والتعرض لقوافل التموين. في مقره: اذ قال لي لا أدري اذا كنت ستصل قبل سقوطها، فاحذر على كل الحال عن اقترابك منها، مثلا تكون محتلة.

– قتالنا في منطقة الرطبة، انسحاب الشرطة قبل وصولنا، ثم انسحاب المتطوعين منها.

– انتقلنا الى منطقة...، بسبب عدم التموين بالماء والبانزين والاعاشة، وبسبب أفضلية منطقة هيت لتكون قاعدة للاغارة على القوافل البريطانية كما حصل فعلاً، فاستولينا على الكثير من سيارات الشحن واصبحت مواصلات الجيش البريطاني صعبة جداً.

– وقعت الهدنة، واستسلم الجيش وفر القواد والزعماء العراقيين، والمفتي الى طهران للسفارة الايطالية، بدلو له سحنته وأوصلوه الى روما.

– أنا استمريت على القتل، وغنمت من الانكليز سيارات عديدة في معارك

الحصبية، ثم المالكية ومنها سيارتين .. هاتين، وحضر لعندي ممثلو من القيادة الافرنسية يطلبونها مني، واتفقت معهم على مقايضة... تحت ضمانة الدكتور ران، ثم جرحت ووصلت مستشفى هانزا.

– هيئت جماعة المفتي جواً غريباً من الدعاية عن عظمته واعماله وانه محط آمال العرب كلها، ولم وصل الى بغداد التفت حوله القادة من الضباط ولازموه واحيط بكثير من الترحاب والاحترام من كل الاوساط العراقية، حتى أصبح مسكنه مقراً للقواد الاربعة والضباط، والوجهاء والعشائر، وارتفع بذلك الى مستوى الزعماء الفاتحين. حتى انه عندما حصل خلاف بين القبائل العراقية انتدب المفتي لحلها ولتسويتها. هذه الناحية كانت نقطة ارتكاز للانطلاق الى هدفه في زعامة العراق.

وأما النقطة الثانية وهي كره الضباط والجيش تقريباً للموصلي ولعدم ثقتهم به وتشككهم من تصرفاته واستناده على الانكليز.

ومن هنا فاتح المفتي صلاح الدين الصباغ، في موضعهم أن يكون العراق مركز الزعامة العربية لتحقيق وحدة عربية شاملة من الاقطار العربية في الجزيرة، وتكوّن أول مرحلة، ازالة الوصي، وان يأخذ المفتي مكانه لتنفيذ مشروع الوحدة.

وتشاورت القواد وتداولو في هذا الشأن واصبح في العراق تياراً قوياً مع المفتي وضده من بعض الزعماء السياسيين وحتى من الجيش والقبائل مستفحلاً بقوة.

وفي يوم من الايام وقبيل الحرب العراقية الانكليزية حضر لعندي صلاح الدين وفهمي السعيد، واطلعوني على عزمهم اقالة الوصي، وطرده وانهم ذاهبون الآن للتنفيذ، فبهت أنا ولم اصدق، وقلت صلاح الدين بأنك تلعب بالنار، وان إقدامك على هذا الامر سيشق العراق وستحدث فيها ثورات، لا تطفئ نارها واذا سئلوك. هل؟.

– وان سماحته متفاهم مع زعماء سورية على انشاء اتحاد من العراق وسورية ينطلق منها الى انقاذ فلسطين.

– ونحن نخوض المعركة الصعبة في الحصبية حضر لعندي الى المقر، ثلاثة

ضباط افرنسيين من مقر القيادة يطلبون مني اعطائهم السيارات الانكليزية، لقاء أي شيء أطلبه.

فطلبت منهم لقاء هذه السيارات، تجهيزي ١٠٠٠ مقاتل بالبنادق والرشاشات، والمدفعية، ووسائط النقل من سيارات جيب وشاحنات وموتوسيكلات وغير ذلك.

وكان حاضراً في مقري الشيخ خليل ابن مهيد، والأمير النوري بن محجم. وطلبت من الافرنسيين ان تكون الضمان لاتمام هذه العملية هو الدكتور رآن، المرسل من قبل القيادة الألمانية للاشراف على تنفيذ شروط الهدنة في سورية من قبل الجيش الشرقي الافرنسي، فقبلو واتفقت على كيفية التسليم، مكانا وزماناً لنا ثم جرحت وانتهت القصة.

* * *

- **العراق :**

طريق المفتي وطريقي بعد انتهاء حرب العراق:

بعد استسلام الجيش العراقي، استمريت في القتال، وانا في طريقي الى الحصبية، وحصلت على غنائم من قوت سيارات القوافل البريطانية التي تسير على خط بترول طرابلس. والمعركة الكبرى كانت في الحصبية، وكان في مقري الشيخ خليل ابن مهيد والشيخ نوري المحجم. وهنا انتهت المعركة، بأن غنمت سيارتين كبيرتين احداها فيها كل الادوات اللازمة من قطع الغيار لسيارات الجيش والثانية فيها ادوات كميائية وملابس ضد الحريق. وهما كبيرتين جداً بحجم ١٦ أو ١٨ طن. وسيارتين آخرتين، احداها فيها مصفحة عراقية وموتو سيكل عراقي.

ثم حضر لعندي ضابط افرنسي برتبة جنرال واثنين برتبة كولونيل يطلبون مني أن اعاونهم في قتالهم ضد الانكليز الذين يهاجمون سورية، وان ادافع عن بلدي، وانا محكوم بالاعدام من الافرنسيين.

ثم يطلبون مني أن اسلمهم السيارتين الكبيرتين بأي ثمن أطلبه، وكانت المعركة حصبية لاتزال جارية، فطلبت منهم ان يحضروا بعد يومين الى البوكمال

ونتابع حديثنا هناك.

وانسحبت من الحصبية الى البوكمال، بناء على وعدي بحمل المدفعين بأن لا اسبب أي قتال في أرض عراقية إلا في حالة دفاع.

وحضروا الافرنسيين لعندي، وكان المشايخ لايزالون موجودين وحضر لعند البوكمال عبد الكريم الدندشي، وكثير من اخواننا السوريين. وطلبت من الافرنسيين أن يسلموني لقاء هاتين السيارتين مايلي :

- عشر سيارات شحن.
- عشر ستيشن.
- ثمانية جيب.
- بطاريتين مدفعية ٧ر٥ : مع ألف طن لكل مدفع وأربعة آلاف احتياط.
- ١٠ رشاش ثقيل ٢٠ رشيش خفيف مع ٥ صناديق عتاد لكل رشاش.
- وألفين بندقية المانية انكليزية افرنسية. لكل بندقية ٣ آلاف طلقة

وطلبت ان يكون هذا التسليم بضمان الدكتور ران الذي هو الذي يستلم منكم مطلوب ويحضره اليّ في دير الزور، ويستلم مني السيارات المذكورة.

قبلوا هذه القائمة بلا تردد لأنهم خاضعين لتعليمات الدكتور ران المرسل من قبل قيادة الجيش الالماني للأشراف على تنفيذ شروط الهدنة من قبل الجيش الافرنسي في الشرق.

وحضر لعندي الدكتور ران للبوكمال وفرح بلقائي وقال لو تريد أكثر من هذه الاسلحة باستطاعتك ان تطلب وهذه فرصة لأن الكلام لي أنا وحدي والافرنسيين يريدون يتخلصون من كل ماعندهم اذا امكنهم. فزدت على ذلك تجهيزات من أنواع الملابس لخمسة آلاف مقاتل. وارسلت الدندشي، الى سورية مدنها وقراها ليجمع المتطوعين وارسلت المشايخ ليجمعوا لنا المتطوعين من القبائل. واخذت أحلم بجيش.... أجهزه في سورية ونيله استقلالها. وخرجت من البوكمال لقطع طريق البترول وقصفنا.... والقنابل ولم يصب من كل الرتل سوى سيارتي أنا وكل من فيها.

انا وصلت الى برلين للمستشفى الألماني هانزا كلينك أحمل اكبر كمية من الرصاص في جسمي من الرأس حتى القدم.

ووصل سماحة المفتي بعد أن أمن ما حصل عليه من كميات ذهبية من السفير الطلياني في منزل كامل الكيلاني، ومن الذهب الالماني من السفير غروبا...

ووصل الى السفارة الايطالية في طهران، حيث حلقو له لحيته وابدلو له سحنته ليخفوه عن أنظار الانكليز الذين يفتشون عن القواد والزعماء العراقيين الذين فرو من ميدان القتال..

ثم خرج المفتي من طهران وصل روما بحفاوة لامثيل لها ليدخل بعد الانتصار الى فلسطين بصفته خليفة المسلمين « يشتري الخلافة من السلطان التركي المخلوع في باريس. » ويدخل بركاب حامي المسلمين موسوليني...

وقد جند للطغيان فرقة من مسلمي يوغوسلافيا ضد رغبة زعائمهم وعلمائهم الذين زجو في السجون النازية والفاشية كما ديست مساجد المسجدين بحوافر الخيل الايطالية، وهتكت الاعراض لمقاومتهم رغبة المفتي في سبيل خدمة الطليان والالمان في تشكيل فرقتين مقابل مليون استرليني لكل فرقة « رواية عرقا يمتاويتش، نائب يوغوسلافيا في مجلس النواب في بلغراد ».

* * *

بلاغ عسكري وزعته القيادة العامة لجيش الانقاذ « الجبهة الشمالية - منطقة طولكرم » لحظر النزوح عن القرى والاراضي العربية ١٩٤٨.

القيادة العامة لقوى الانقاذ

للجبهة الشمالية

منطقة طولكرم

بـــلاغ عسكري

تنفيذا لتعليمات قيادة قوات الانقاذ المعممة سابقا

١ — يمنع منعا باتا النزوح عن القرى والاراضى العربية إلا باذن خاص تتطلبه المقتضيات العسكرية. ان المساكن والقرى المخلاة من قبل اهلها مخالفة لهذه الاوامر مهددة بالنسف والتدمير.

٢ — يحظر على جميع الاهلين الخروج من المناطق والاراضي العربية الى المناطق او القرى اليهودية وبالعكس. ويقطع اي اتصال وتعامل مع العدو مهما كان نوعه اعتبارا من تاريخ نشر هذا البلاغ.

وان كل مخالفة لهذه التعليمات توقع مرتكبيها تحت طائلة العقوبات الصارمة حسب الانظمة العسكرية.

٣ — تقوم قيادة المنطقة بتبليغ تعليمات مباشرة الى عموم الاهلين بواسطة مخاتير القرى تختص بتنظيم وسائل الدفاع وتأمين سلامة الاراضى العربية لذلك يتوجب على جميع الاهلين مراعاة تنفيذ هذه التعليمات.

قائد منطقة طولكرم

الرئيس

مدلول عباس

خريطة كتب عليها بالعبرية وجدت في حوزة أحد الضباط الصهيونيين الذين قتلوا في معركة ترشيحا ١٩٤٨ « جيش الانقاذ» ويتوضح فيها المخطط للهجوم على الجيوش العربية المتواجدة على ارض فلسطين بعد توقيع الهدنة ، وقد رفعها رياض الصلح الى رئيس بعثة المراقبين للتحقيق من خرق اليهود للهدنة.

أحد المناشير التي حاول جيش الهاغاناه توزيعها على سكان الجليل للدعوة الى الاستسلام بحجة هزيمة قوات جيش الانقاذ ١٩٤٨ .

الى سكان شمالى فلسطين

ان ساعة التحرير قد ازفت ! فها هو جيش الهاغانا الاسرائيلي يقطع دابر
العصابات الاثمة التي تسمي نفسها زوراً وبهتاناً جيش التحرير .
فقد انهزمت فلول هذه العصابات في كل الميادين وولت الادبار في كل المعارك
وتفرقت ايدي سبا ولاذ جنودها بأذيال الفرار تاركين وراءهم الاسلحة والعتاد .
إن عهد الاستبداد والاضطهاد قد انتهى ولن تعود هذه العصابات تتحكم في
رقاب اهالي شمالي فلسطين وتسومها الذل والهوان ،

ويا سكان القرى في الجليل ! ارموا سلاحكم وارفعوا الالوية البيضاء ومدوا يد المعونة الى جيش الهاغانه الاسرائلي الظافر. فان جيش الهاغانه الاسرائيلي قد هب لتحريركم من نير العصبات ولاعادة أسباب الأمن فى هذه المناطق ولتأمين الرزق والمعيشة ولارجاع الطمأنينة الى قلوب سكان هذه البقعة .

وسيعترف جيش الهاغانه بكافة حقوقكم وسيحفظ على اموالكم وعقاركم وعرضكم وحرمتكم .

إن جيش الهاغانه الاسرائيلي يحقق ما جاء في قرار جمعية الامم المتحدة وتنفذ ما أجمعت عليه كلمة هذه الامم ، فكل من يعادي جيش الهاغانه الاسرائيلي ويعاضد عصابة الغرباء فانه يعصى قرار الامم المتحدة وسيعاقبه جيش الهاغانه الاسرائيلي عقاباً صارماً .

ولن يكون مصير البلدة أو القرية التي تعاون العصابات وتماليها على اعمالها الاثمة الا الخراب والتدمير ، ولن يكون مصير سكانها الا كمصير سائر اللاجئين والمنكوبين من عرب فلسطين .

اما البلدة والقرية التي تؤثر السلام وتعمل حسب تواصي الامم المتحدة فانها تتمكن من العودة الى الحياة الهادئة الآمنة والازدهار والرقي وهذا بعون دولة اسرائيل ومساعدتها .

يا سكان الجليل ! إن ساعة التحرير قد دقت ! ففكوا قيود العصابات وتحرروا من نيرها وساعدوا جيش الهاغانه الاسرائيلي على توطيد دعائم السلام في هذه البقعة من فلسطين .

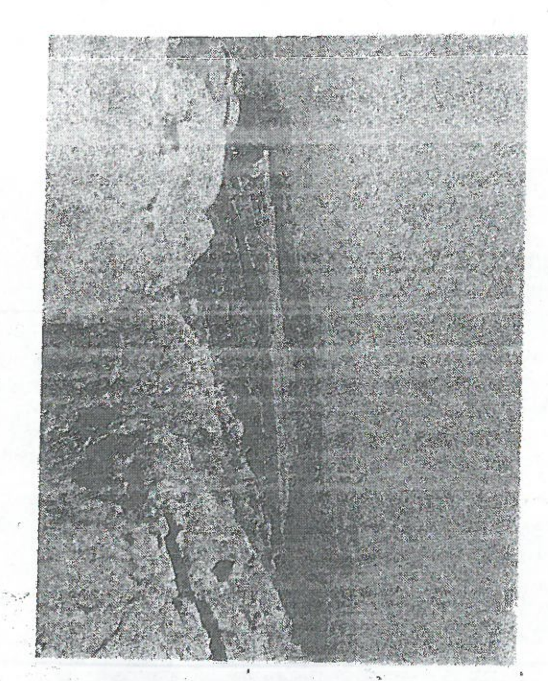
جيش الهاغانه الاسرائيلي

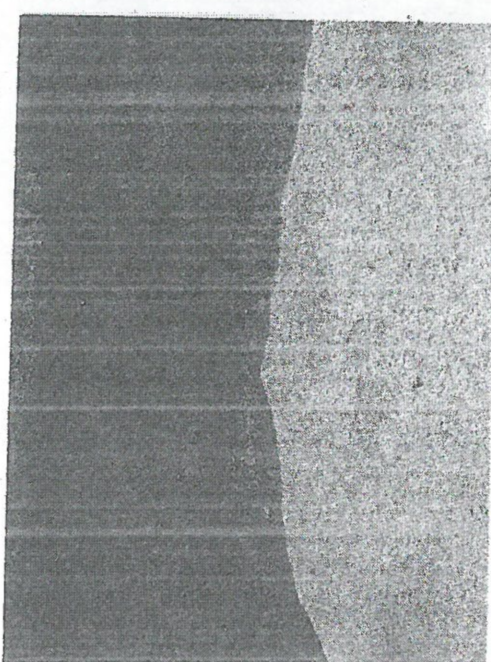
القاوقجي يراقب تقدم الهجوم في مشمار

معركة مشمار

القاوقجي يراقب تقدم الهجوم في مشمار

القاوقجي يراقب سير المعركة في المالكية ، وترى انفجارات المدفعية في تحصينات العدو.

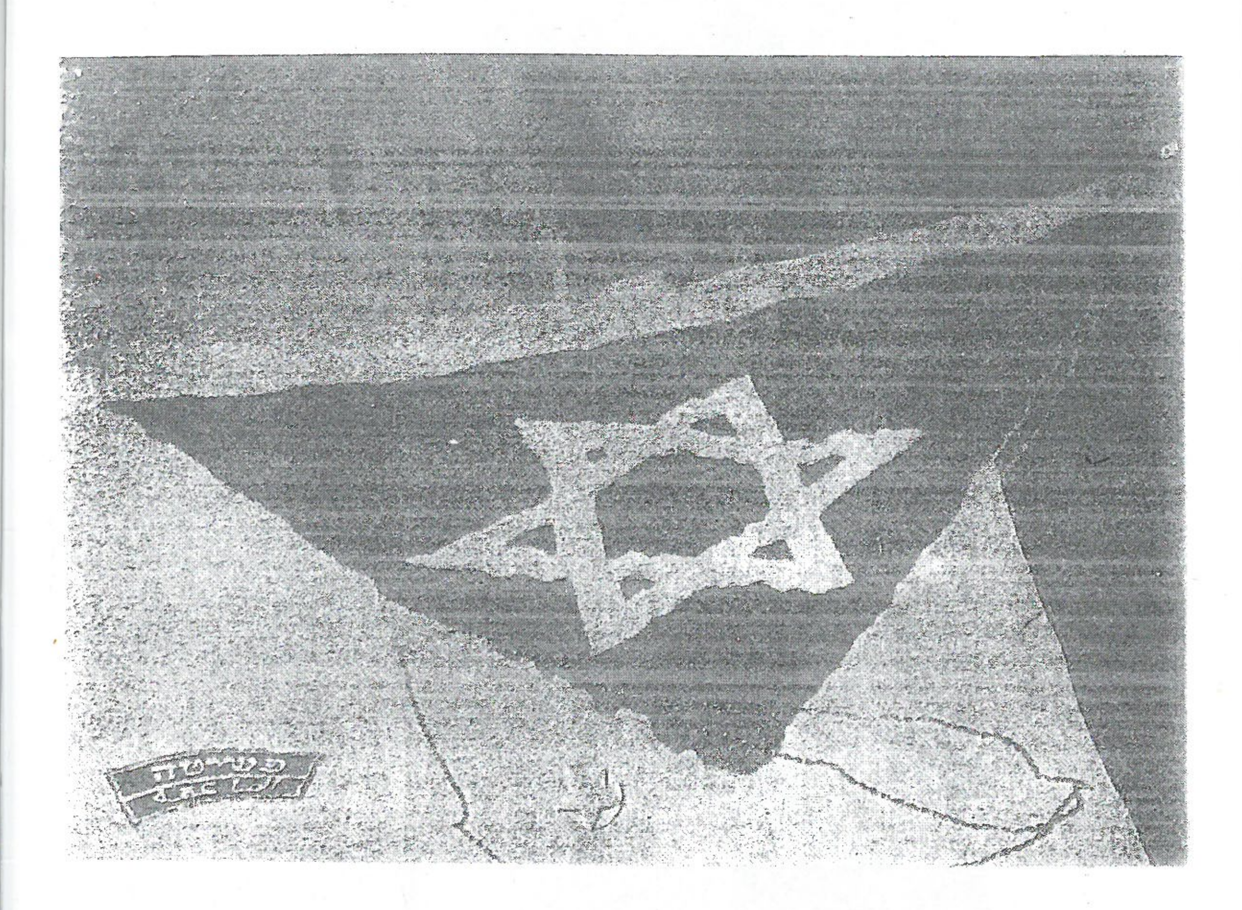




معركة المالكية

القاوقجي يراقب سير المعركة في المالكية ، وترى انفجارات المدفعية في تحصينات العدو .

علم احدى الفرق الصهيونية التي حاولت الاعتداء على مراكز جيش الانقاذ في الجليل الغربي «حول ترشيحا» في تشرين ثاني ١٩٤٨ وانتهت المعارك بخسارة الصهيونيين وقتل قائد الفرقة.



بعض البطاقات الشخصية والهويات العسكرية التي اخذت من القتلى الصهيونيين في المعارك التي خاضها جيش الانقاذ شمال فلسطين ١٩٤٨ .

P. 61/A.

THE PALESTINE POLICE FORCE.

CERTIFICATE OF APPOINTMENT.

1287 B/CONST. MARTIN. F.J.

having been duly attested in accordance with the Police Ordinance, is hereby appointed a member of The Palestine Police Force, and is hereby vested with the powers, immunities and privileges of a police officer from 16.3.45

INSPECTOR GENERAL

1287 B/CONST. MARTIN F.J. serving as a PRIVATE in the military force constituted under Section 51 of the Police Ordinance.

INSPECTOR GENERAL.

Date 27/11/1945

GPP. 17991—20.000—14.6.43

وثيقة خاصة بالجيش السوري خلال حرب ١٩٤٨ بشأن تنظيم فرق الفدائيين «الكوماندوس» وجدت في مجموعة أوراق القاوقجي .

الجمهورية السورية — دمشق ٢٨/ ٦/ ١٩٤٨

القيادة العامة للجيش والقوى المسلحة

الشعبة الثانية

رقم ٢/٣٦٤ — **صورة طبق الأصل ترفع**

– لمقام القصر الجمهوري
– لمقام وزارة الدفاع الوطني
– لمقام القيادة العامة – قراءة الزعيم
– لمقام مفتشية المتطوعين
– القيادة العامة (المكتب الثالث)

الزعيم حسني الزعيم

القائد العام للجيش والقوى المسلحة

الجمهورية السورية

الجيش – السوري

تنظيم ووظيفة فرق الفدائيين «الكوماندوس»

تعمل فرق الفدائيين عادة في مؤخرة العدو ووظيفتها هدم الجسور والكباري والسكك الحديدية وجميع أنواع مواصلات العدو سواء منها التلفونية أو التلغرافية أو اللاسلكية وهدم المحطات الكهربائية ومواسير المياه وهدم الدور التي يستخدمها العدو في أغراضه العسكرية وهدم مستودعات الذخيرة وما الى ذلك .

ووظيفتها كذلك وضع الكمين للمجموعات الصغيرة لجيش العدو التي يستعملها للاتصال بين وحداته المتعددة والهجوم على سياراته التي كلفت الاتصال بوحدات العدو المتباعدة المتناثرة .

ويدخل في مهمة هذه الفرق كذلك مراقبة حركات العدو واتجاهات حركاته والتحري فيما يتعلق بعدد قوات العدو وجودة تسليحها أعني بذلك المراقبة العامة على كل ما يتعلق بقوة العدو ثم ابلاغ مركز هيئة جيشه عن مشاهداته وتحرياته ومن مهمته كذلك الهجوم على النقط الضعيفة لجيش العدو بغرض احداث الفوضى والاضطراب في صفوف العدو وعلاوة على هذا كله يسعى الجندي الفدائي للحصول على الاصدقاء من المدنيين في مؤخرة العدو ثم استعمالهم في المخابرات والاستعلامات والسعي عموماً لكسب الاصدقاء على المنطقة المحتلة بالعدو حتى يتمكن من الاعتماد عليهم .

طريقة اداء المهمة

تهدم الجسور والكباري بوضع المواد المتفجرة القوية تحت جناحي الجسر وفي وسطه وتكون المواد المتفجرة موضوعة في صناديق خاصة ثم تحفر الحفر اللازمة لايداع هذه الصناديق فيها تحت جناحي الجسر وفي وسطه حيث تكون متصلة بعضها بالبعض بواسطة الأسلاك الكهربائية لكي تنفجر كلها في وقت واحد هذا إذا كان الجندي الفدائي في غير خطر من قرب العدو فيعمل بالتاني والبطء أما إذا كان قريباً منه فيضع ديناميتاً تحت جناح واحد من الجسر ويشعله بكل سرعة وينسحب ثم يتوارى .

وتختلف طريقة هدم الجسور باختلاف المواد التي تبنى منها فإذا كان الجسر من الخشب يمكن هدمه بإلقاء القارورات عليه المحتوية على البنزين وإشعاله من بعيد بإلقاد الخرق المشتعلة عليه .

أما إذا كان الجسر من الحجر أو الإسمنت والحديد فيوضع على حافتيه صناديق الديناميت على الطريقة المبينة أعلاه .

أما الدور العسكرية المهمة حيث يكون مقر هيئة أركان حرب الجيش المعادي فتهدم بأن توضع تحت الزاوية الخارجية للدار صندوق الديناميت ويشعل أو تلقى القنابل في الداخل أو توضع القنابل الزمنية تحت ركن من الدار بحيث يكفي لانهيار الدار هدم ذلك الركن المهم منها . وكذلك تهدم مخازن الذخيرة ومستودعات الأسلحة . وتهدم المحطات الكهربائية بأن توضع المواد المتفجرة تحت القضبان التي

تستخدم للأسلاك الكهربائية وذلك تلافياً لخطر الموت إذا كانت الكهرباء في الجريان وأما مواسير المياه فتفك في أمكنة معينة حتي يقطع جريان الماء هذا إذا لم يكن في الإمكان الوصول إلى محطات الكهرباء ذاتها . أما إذا تمكن الجندي من التسرب إلى المحطة ذاتها فيلقي قنبلة على الماكينات أو تضع مادة مفرقعة داخل الدار يشعلها بسرعة وينسحب .

وكذلك تقطع المواصلات التلفونية والتلغرافية بقطع الأسلاك أو بهدم القضبان أو بإلقاء القنابل أو الديناميت في مراكزها .

وتدمر القطارات بأن توضع الألغام تحت خطوط السكك الحديدية في أمكنة الانحناءات والمعوجات والزوايا حتى إذا سار القطار بسرعة ووصل إلى مكان اللغم ينفجر ويقفز القطار كله من مكانه وينقلب وتستعمل كذلك طريقة فك المسامير للخطوط الحديدية في الانحناءات أو بوضع الألغام التي يكون لها سلك طويل متصل بها في يد الجندي المختبئ حتى يستطيع بجر هذا السلك أن يشعل اللغم بحسب إرادته .

نظام فرقة الفدائية وطريقة تدريبهم

لا يحبذ في هذه الفرقة إلا الرجال الأشداء الأقوياء الذين يستطيعون أن يتحملوا المتاعب ويركبوا الخطوب، يجب أن تكون أبدانهم سليمة وحواسهم مرهفة حادة وإلى جانب سلامة أبدانهم يجب أن يكونوا أذكياء متعلمين حتى يستطيع كل واحد منهم أن يدير شؤونه بنفسه مستقلاً عن ضابطه وهيئة أركان حربه . ويستحسن بل يجب أن يعرف كل واحد منهم لغة العدو .

ويلقى بهؤلاء الرجال على منطقة العدو عادة من الطيارات بالبارشوت أو يتسربون إلى مؤخرة العدو باقتحام صفوفه الأولى في الأمكنة الخالية من جنوده ويكونون دائماً في مجموعات يتراوح عددها من خمسة إلى عشرة رجال بحسب الحاجة والظروف .

أما تدريب هذه الفرق فينقسم إلى التدريب البدني وإلى التدريب العقلي، فالتدريب البدني يكسبهم قوة ومتانة وصلابة جسمية يعملون من الساعة السادسة

صباحاً إلى السابعة صباحاً مختلف الرياضيات البدنية ومن السابعة إلى الثامنة رفع ورمي الكرة ومن الثامنة إلى التاسعة العدو والقفز من فوق الأخاديد والموانع المصنوعة خصيصاً لهذا الغرض ومن الساعة العاشرة إلى الحادية عشر التدريب العسكري العادي والسباحة .

وبعد الظهر من الساعة الخامسة إلى السابعة يتعلمون قراءة الخرائط الجغرافية العسكرية ويتعلمون التصرف بالبوصلا (المحك) على هذا النحو يستمر تدريبهم الشهر الأول . وخلال الشهر الثاني يتدربون من الساعة السادسة إلى السابعة الرياضة البدنية ومن السابعة إلى الثامنة يتمرنون على إلقاء القنابل ومن الثامنة إلى التاسعة المران العسكري بالبندقية ومن التاسعة إلي العاشرة رمي الهدف بالبندقية والمسدس ومن العاشرة إلى الحادية عشرة التدريب على قطع الأسلاك سواء منها . . .

مقتطفات من خواطر وذكريات سجلها فوزي القاوقجي في أوقات متباعدة حول القضايا العربية وخاصة قضية فلسطين

أنا لست خطيباً ولا كاتباً ولم أتعود إلقاء الخطب ونشر البيانات .

وماكنت أود أن أتحوّل عن عادتي هذه التي ألفتها طيلة حياتي في عدم التكلم في الشؤون السياسية ، مترقباً الحوادث منتظراً نداء وطني لأعمل في سبيل نصرته ، ضمن إختصاصي ومقدوري .

ولكني أجد نفسي اليوم حيال موقف عصيب تمرّ بلادي فيه بأزمة خطيرة ، لها صلتها الوثقى بحياتها ومماتها .

فالمستعمر قد خاس بعهده (ونكص على عقبه) ونكل عن تعاقده بعد أن شجع الفتن وبث التمرد وفرق الصفوف ، والطامعون فينا أخذوا يرسمون الخطط لابتلاعنا ، والفرص الثمينة التي هيأتها الأقدار للأمم الحية (لتنفض عنها غبار الذل والاستعباد) تمر بنا في الظروف الدولية الحاضرة سراعاً دون أن نستعد لها ونوفر أسباب اقتناصها ، وحين أقتضت المصلحة والكرامة الوطنية أن تستأنف البلاد نضالها المضمار ليكون باني صرح الفخار . وأن لم تفعلوا فلا ترجوا معونة صديق ولا رحمة عدو وارتقبوا مصيراً يتمنى الشريف فيه الموت فلا يجده .

وسلام على من القى السمع وهو شهيد .

* * *

الذين أعتقد إنهم متألمون كل التألم للحالة الحاضرة المؤسفة ، وإنهم جميعاً يرون ضرورة إجابة ما دعوتهم إليه .

إني أعترف بأنْ كلاً منهم قد قام بقسطه من الجهاد والتضحية في سبيل الوطن لذا أكرر رجائي بأن يضيفوا إلى صفحاتهم السابقة صفحة جديدة في التضحية ابتغاء ضم أبناء البلاد في صف واحد وضمن تضامن وثيق أعتقد انه العمل الوحيد الذي يمكن أن يكون فاتحة عهد جديد ، وبدونه يستحيل القيام بأي عمل مثمر في سبيل إنقاذ البلاد من المأزق الذي وضعت فيه وأيصالها إلى أهدافها السامية .

* * *

أمضى سلاح كنت أملكه واعتمد عليه لقتال الافرنسيين هو المعنويات فقط . وهذا السلاح وحده كان هو الذي يدفعني بدون تردد للعمل ، وكان يشجعني كذلك ما (اقرأته) عن أعمال الأجداد من ضروب البطولة والمغامرات التي لا يمكن تصورها وتصديقها إلا بعد أن يمتلك مثل هذا اسلاح وهو كان دوماً سر الفوز في كل صف وجد في جميع معارك التاريخ . وبهذا السلاح تدك الحصون وتحطم الجيوش وبدونه لا تنفع الخطط ولا تعني الكثرة ولا تعتبر المعدات والآلات وبهذا السلاح الذي يولد الثقة والاعتداد بالنفس والذي يسري من القائد إلى جنوده سريان جرثومة الكولرا أو التيفوس دك هانيبال روما وأهلك الإسكندر جيوش العالم ودفع أجدادنا الفرس والرومان ومزق نابليون الجيوش وحطمت ألمانيا الحصون والقلاع وثبتت فردان أمام عظمة ألمانيا العسكرية ولما فقدته ألمانيا لم ينفعها خط هيند بزغ ومدافعه وقواته الخط الذي يعد أقوى حصن عرفه التاريخ الحربي فالذي استولى عليه الأعداء بدون أن تطلق طلقة واحدة . فعلى من يريد الاستعداد لأي مغامرة عظيمة يجب عليه أن يتسلح أولاً بهذا السلاح هو ثم يسلح جنوده ثم يرتمي ، فعندما يتضح له أن ما يملكه عدوه من معدات الهلاك التي كانت أسدلت ستاراً من الوهم على الناس جعلهم يرجحون الذل على العزة والحياة على الموت والاستعداد على الاستقلال ، إن هي إلا أوائل لا تلبث أن تتهشم عند هبوب أول نسمة من عواصف سلاح المعنويات .

* * *

كنت معلماً للفروسية وللطبوغرافيا في الكلية العسكرية في بغداد . وكنت أحمل رتبة رئيس خيالة في الجيش العراقي . وفي أواسط نيسان ١٩٣٦ حينما كنت جالساً على بلكون منزلي المطل على نهر دجلة الذي يجري من تحته مباشرة وكنت عائداً من الكلية بعد انتهاء تدريب الفروسية للتلاميذ . طلبت فنجان شاي من مراسلي وقبل أن يأتيني بالشاي عاد المراسل ليخبرني بأن هناك جماعة يريدون مقابلتي ، فأذنت لهم وإذ بي أمام الأخ عوني عبد الهادي والأخ معين الماضي يعانقونني ويسلمون علي . وكانت قبل مجيئهم تأتيني الأخبار عن حوادث فلسطين من الاضرابات الشديدة والمظاهرات الكبيرة وشدتها والحماس الذي يرافق هذه الحالة كان يدلنا على أن الأمور ستتحول إلى ثورة إذا لم تتمكن الحكومة من

إيقاف هذه الثورة والقضاء عليها .

في مثل هذه الحالة المؤثرة على نفسي تأثيراً عميقاً كما هي مؤثرة على الكثير من نفوس الوطنيين في كل الأنحاء ، يصادف حضور الأخوان لزيارتي . وبعد العناق الحار والسلام والكلام البارد مع الأخوان ، التفت إلي عوني بك قائلاً وبعصبية ظاهرة : والله يا فوزي اتمنى لو أرى فلسطينياً يصفع ضابطاً انكليزياً على وجهه بحضوري . فقلت له يا عوني بك ، إن صفعة ضابط انكليزي ثمنها الموت، واطلاق رصاص على رأس انكليزي وقتله كذلك الثمن هو الموت . فلماذا تتمنى الأرخص . كما إني اعتقد بأن الثورة أسهل من الاغتيالات وأشرف وأكبر نجاحاً وأبعد فائدة . وحضر الأخ عز الدين الشوا كذلك ولم يشترك بشرب الشاي معنا . وقال بعد أن سمع الحديث ، أنا والله أتمنى أن أرى جماعة من الجيش البريطاني وقد وقعوا اسرى في أيدي القوات العربية وفوضوني بأن استجوبهم وأأخذ إفادتهم ممثلاً عن الطرف العربي المنتصر . واتعجرف عليهم وأهينهم وأراهم اذلاء أطول مدة ممكنة .

ومن غريب الصدف ، ان يشترك عز الدين الشوا في حرب العراق سنة ١٩٤١ ويظهر الى جانبي في منطقة هيت وأنا عائد من غزوة ضد الإنكليز ، ومعي عدداً من اسرى الإنكليز ، وأطلبه أن يترجم لهم أوامري بالنسبة إلى سلوكهم حسب أوامري .

* * *

الحياة في نظري هي كل فعالية للجد فقط وألذّ ما في الحياة أن اضحي واجازف بدون مبالاة في سبيل مجد العرب .

وهذه العقيدة جعلتني أتخطى حدود الممالك بجموح والجد إخواني أبطال فلسطين فهي هونت علي الصعاب التي يعدها الناس مستحيل وحققت باطن القوم انه وهم وخيال . فكانت النتيجة أننا بفئة قليلة قهرنا جيش بريطانيا حامي اليهود في فلسطين ووحدت أبناء الأقطار العربية فكراً وروحاً ودماً في أشرف مكان وأخطر زمان ومزقت الحواجز التي أقامتها دول اوروبا لتمزيق العرب . وخطوت بالوحدة العربية خطوات حقيقية لا تخطيها ملوكنا بعشرات السنين .

وإذا افتخرت بهذه النتيجة فإني مديون بها بشهامة اخواني الأبطال الصابرين الثابتين الشجعان الذين ضحوا وجازفوا بدون حساب وعقل ومنطق ، بل بفكرة الحق والوطن والعرب .

* * *

لاشيء أغلى من الدم . إلا تلك الرقعة من ارض الوطن التي يراق على جنباتها دم الأبطال دفاعاً عن حق ، ودما تستنزف من المعتدين ذودا عن شرف وعرض .

إنها الأمانة، دين الأوطان في أعناق الأحرار ، استحق قسطها وضريبة الشرف آن أدائها .

إننا مع الشعوب العربية أوفينا الأوطان حقها في كل أرض عربية طغى عليها مستعمر طامع مغرور ، ودفعناها أقساطاً متتالية خلال سنين طويلة متعاقبة . ولا حاجة لنا بشهادة شاهد عيان أو لتزكية مذكي لأننا نحمل إيصالات الوفاء ممهورة على أجسادنا من الرأس إلى القدم ، وسنستمر بدفع هذه الأقساط والضرائب مع الشعب الذي لم يتأخر عن دفع أقساط ولم يحاول الأعتذار مادامت أرض الوطن بحاجة إلى هذه المادة للحياة ، وما دام في عروقنا ما يجري من الدماء ضحايا كثيرة ودماء غزيرة وآمال عزيزة كلها ذهبت وتبخرت مع دخان المدافع وغبار المعارك بلا ثمن .

وذلك بسبب شدة الخصومات وحدة الاختلافات وفقدان الثقة بين الزعماء مما جعل اهتمامهم وجهودهم تنصب على درء الأخطار ، يتوقعونها من بعضهم البعض، فأهملوا الأخطار المحدقة بهم من الأعداء .

* * *

إني أعتقد بأن القضية الفلسطينية كانت أضخم من أن تستوعبها الزعامة الفلسطينية لوحدها وأثقل من أن تتحمله أكتاف الشعب الفلسطيني الباسل لوحده .

لأن موضوع فلسطين كان أمريكياً وبريطانياً ودولاً أخرى تتعهد وتعمل ليكون قاعدة لدولة إسرائيل الكبرى .

ويبدأ هذا المخطط بأن يكون ميدان فلسطين مركزاً لتجمع للقوى الاسرائيلية اليهودية ولزعمائهم وكبار الشخصيات العالمية المؤيدة ، وهي السيطرة على الخليج العربي ومنابع نفطه ثم على العراق والعجم ليقيموا في هذه المناطق قواعد عسكرية ضخمة من وراء سداً يشيدونه في وجه التسرب النفوذ الشيوعي والعقيدة الشيوعية . يبدأ هذا السد من مدينة (الفاو) الواقعة في منتهي الحدود العراقية الجنوبية على مصب شط العرب في بحر الخليج . ماراً من الأراضي العراقية والإيرانية ثم ينحدر نحو الغرب داخل الأراضي التركية بجوار ديار بكر ويمتد على خط مستقيم نحو الغرب حتى اسكندرون . ويكون سكرتير هذه الشركة الرباعية وايزمان . ويشرف على شؤون هذه الشبركة المساهمة الرباعية مدراء من اسرائيل ومن أمريكا وفرانسة وانكلترا .

ومن جهة أخرى ، سيكون ضمن هذه القاعدة قاعدة أخرى مخصصة لانطلاق القوات اليهودية نحو الجنوب والتوسع في احتلال الأراضي على مراحل مقررة وموقوته ، حتى تصل في تقدمها حسب التخطيط العام إلي أولى الأهداف الرئيسية . والهدف الأخير قيام الدولة الإسرائيلية المثلي التي ستكون بدون حدود وبدون عرب كما يقول هتلر .

* * *

كان لزاماً على الزعامة الفلسطينية أن تشرك العالم العربي والعالم الاسلامي بأجمعه وكانا كلاهما على أتم الاستعداد لتلبية الطلب والنجدة الكبرى .

وقد استفاد مصطفى كمال في حربه مع اليونان الذي كانت تدعمه بريطانيا ودول أوروبية أخرى ، استفاد من الشعوب الإسلامية ومعاونتهم المادية والمعنوية التي كانت من عوامل النصر الأساسية لمصطفى كمال ضد الجيش اليوناني المحصن في أمنع وأخطر بقعة جبلية في الأناضول . وأذكر حماس مسلمي الهند واندفاعهم عندما أجابوا مصطفى كمال ببرقيتهم التي قالوا فيها : «إننا نقدم جلود رؤوسنا لتكون نعالاً لجنودكم المجاهدين» . وجلب مصطفى كمال الشيخ السنوسي إلى ميدان تجمع مفارز صغيرة من الوحدات التي ستشترك في الهجوم غداً ، وكان مصطفى كمال يمشي بركاب الشيخ السنوسي ماسكاً بلجام فرسه ، ولما أوصل إلى ميدان التجمع مسك بركابه ورسني فرسه وأنزله ليقرأ للجنود سيرة النبي محمد .

فقراها وكأنه شحن نفوسهم بطاقات ذرية تجلت في الهجوم الكبير الذي حطم أمنع التحصينات التي قال عنها قائد الجيش اليوناني :

إذا كان للأتراك إله يحميهم فنحن إلهنا حصون (طاناز) .

وبهذ الدعم كسب المعركة وحطم الجيش اليوناني ، فانهارت الجبهة واسرا القائد العام وسقط لويد جورج وهو أكبر رأس وادهى دماغ في بريطانيا وفي العالم آنذاك .

ولم يكن للأتراك شيء مقدس ، سوى مقام الخلافة ، ومصطفى كمال كان معاد للخليفة ويقاتل أتباعه ، بينما في فلسطين المسجد الأقصى الذي تقدسه المسلمين في أنحاء العالم فكان باستطاعة الزعامة الفلسطينية أن تشرك هذا العالم الإسلامي المتدين والمتحمس وكان عندئذ يثير تلك الشعوب ضد المصالح البريطانية ومؤسساتها ويجعلها في موقف يلزمها على التخفيف من دعمها لليهود ومساعدة الشعب الفلسطيني بكثير من الوسائل التي ترضي العرب والمسلمين . ولكنها فرصة ذهبية نادرة أفلتت من يد الزعامة الفلسطينية الغير مؤهلة لمثل هذا المركز وفي مثل هذه الظروف .

ومن جهة أخرى تأخرت الزعامة الفلسطينية كثيراً في إعلان الثورة .

فمنحت بذلك اليهود فرصة نادرة ، إذ حقق المندوب الصهيوني المتعصب كما يصفه وايزمان في هذه الفترة ، من تكوين دعائم الدولة اليهودية وحدودها وتدفقت الهجرة اليهودية والتوسع في امتلاك الأراضي وبناء المستعمرات الحصينة كما تكونت القوات اليهودية النظامية واتسع شراء الأراضي وبدأ الاستيطان ، ومع الاستيطان بدأ وجود إسرائيل (كما يقول وايزمان) وأخيراً تكونت القاعدة الأساسية للانطلاق من فلسطين ٣٦ وبمراحل متتالية حتى تم الوصول إلى حافة قنال السويس . وتم بذلك الاستيلاء على فلسطين .

* * *

إن تدوين حوادث الجهاد العربي في فلسطين مؤلم جداً . لأنه بالرغم مما كانت عليه زعماء العرب وساستهم من علم يقين ومعرفة تامة بمطامع اليهود

وادعاءاتهم ومايبذلون من جهد جبار وما ينالون من عطف عالمي ، من بريطانيا وأميركا خاصة ، وما يملكون من إمكانات إعلامية ومالية فوق التصور وغير ذلك، أقول، بالرغم من كل هذا لم تستعد العرب ولم تهتم ولم تعبئ إمكانياتها ولم تعد الشعوب العربية ولم تستعد لكارثة آتية لا ريب فيها .

كانت هذه الساسة والزعماء ترتكب في تخطيطها وأعمالها من الأخطاء وسوء التدبير والتقدير إلى جانب فقدان الثقة بين بعضهم البعض ، كل ذلك كان أكبر من سوء العاقبة وسوء المصير المؤلم . ومع ذلك لم تكن النتيجة المؤلمة محتومه علينا بل كانت محتومة على اليهود أكثر ، لأن شعبنا كان أقوى تحمل وأقوى إرادة وحباً للتضحية وضحى في كل الظروف الصعبة . إن اعتراف بن غوريون في شرحه لأسباب النصر لهو أشد إيلاماً من كل الأسباب الأخرى .

يقول بن غوريون بعد التوقيع على اتفاقية الهدنة مع العرب مايلي :

« إن ما تحقق لنا هو نصر عظيم وتاريخي للشعب اليهودي كله وكان أكبر مما تصورناه وتوقعناه . ولكن إذا كنتم تعتقدون ان هذا النصر قد تحقق لنا بفضل عبقريتكم وذكائكم فإنكم تكونون على خطأ كبير . اني أحذركم من مخادعة أنفسكم .

لقد تم لنا ذلك لأن أعداءنا يعيشون حالة مزرية من التفسخ والفساد والانحلال » .

ان قضية فلسطين وحوادثها ومشاكلها هي القاعدة للقضية العربية التي تنبع منها قضية فلسطين . ولا تحل هذه المشاكل العربية مادامت مشاكل القضية الفلسطينية غير محلولة . ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى حرص إسرائيل والدول التي تساندها بالتمسك والسيطرة على فلسطين . لأنها في النهاية يريدونها القاعدة التي تنطلق منها القوات اليهودية المدعومه للسيطره على الشرق الأوسط بكامله بصورة مباشرة أو غير مباشرة .

والدول العربية أقرت مبدأ أن مشاكل العرب تنبع من مشكلة فلسطين وذلك في المؤتمر الذي عقد في بلودان سنة ١٩٣٧ أيلول حيث أعلن رئيس لجنة الدفاع

عن فلسطين في سوريا في خطابه في المؤتمر مايلي :

« منذ البداية اعترفت البلدان العربية بأن فلسطين للعرب جميعها وليست لأهلها فقط . وهي صلة الوصل بين العرب في آسيا وافريقيا . وليس على أهلها أن ينفردوا في الدفاع أو تقرير مصيرها . وإذا انقطعت أو انقطع جزء منها انفرط عقد العرب في آسيا وافريقيا وباؤوا بالهوان . فليس يعقل أن يسلم العرب لأي شعب من الشعوب الاستيلاء عليها أو على جزء منها . وعليهم جميعاً أن يكونوا صفاً واحداً في مقاومة نشوء دولة يهودية أو تنفيذ فكرة التقسيم » .

وبهذه المقررات التزمت الدول العربية بكاملها الدفاع عنها وعدم التفريط ولو بجزء منها فأين فلسطين كلها اليوم ومن فرط بها ومن هم المسؤلون وعلى من تقع مسؤولية استردادها ؟ وإذا حذفنا الكلام عن قضية فلسطين ماذا يبقى في الميدان .

ولكن إذا كان ناموس الطبيعة يعطي للعنصر الأصلح أفضلية البقاء فإن زعماء العرب لم يبرهنوا على هذه الأفضلية منذ نشأت قضية فلسطين .

* * *

فلسطين – كانوا يريدونها قاعدة اسرائيلية ، بدون حدود وبدون عرب لشركة رباعية : اميركية – افرنسية – انكليزية – صهيونية . أهدافها السيطرة على الخليج العربي ومنابعه . ثم على العراق والعجم . ليقيموا في هذه المناطق قواعد عسكرية ضخمة جداً . من وراء سد يشيدونه في وجه تسرب النفوذ الشيوعي والعقيدة الشيوعية . يبدأ من الفاو منتهي الحدود العراقية على مصب شط العرب في بحر الخليج ، ماراً من الأراضي العراقية والإيرانية ، ثم ينحدر داخل الأراضي التركية الشرقية الجنوبية حتى اسكندرونة – شركة مساهمة لكل حصته وحقوقه ، وسكرتير الشركة وايزمان وكل خيرات وثروات الجزيرة العربية والإيرانية تابعة لهذه الشركة المساهمة التي يشرف على شؤونها مدراء من امريكا – انكلترا وفرنسا واسرائيل .

* * *

مابين مؤتمرات الجامعة العربية ومآدبها من أجل فلسطين ، وفي ظلال حراب الجيوش العربية الداخلة إليها ، وقف اسرائيل على عتبة هيكل سليمان ، ينفض عنه

غبار الأجيال – ألفي سنة من حياة التشريد والذل والإهانة ، شاهراً سيفه يرنو بعينيه
إلى افق الجزيرة العربية وفي طليعتها بر الشام ، هدفه الثاني بعد فلسطين . وما بين
هذه المؤتمرات والمآدب نفسها ، بدأت إلى الأقطار العربية هجرة من مئات الألوف
من العرب الفلسطينيين يندر مثلها في التاريخ ، هجرة تحمل عدا الذعر والفقر
والجوع ، الذل والعار . وتجر باذيالها صوراً تفوق ببشاعتها وفظاعتها وقوتها كل ما
أصاب بعض الأمم أمام طغيان التتر والمغول والهون والبرابرة . دور مهدمة ، وأموال
وأراض مغتصبة ، وأعراض منتهكة ، مرضعات ذهلن عن رضعائهن . بكاء وعويل
ودماء وجوع وظمأ وبؤس وخور ، يجوبون الأقطار العربية ناشدين لقمة لا
يجدونها ومأوى لا يحصلون عليه وعطفاً عند أبناء جلدتهم لا يشعرون به ، اللهم
إلا عند البؤساء منهم أمثالهم . فإذا هم يصدمهم يأس مرير لا تقل وطأته على
نفوسهم عن وطأة الجوع وعذاب التشريد على أجسامهم . ذلك تحت أعين اليهود
الضاحكة تشفياً وشماتة ، يهود هذه الأقطار العربية نفسها يتمتعون بحرياتهم
وينعمون بثرواتهم ويدلون علينا بسلطاتهم في حمبلية الجامعة العربية وحراسة
حكوماتها القوية العادلة المحترمة ... وتستجدي هذه الحكومات من وسطاء الأمم
المتحدة العون والعطف ، لتتصدّق هذه الأمم بكسرة من خبز أو قطعة من نسيج
أوخيمة بالية على مشردي العرب البائسين .

دخل العرب فلسطين وهم في ظاهرهم أمة واحدة ، وكلمة واحدة مجتمعين
للدفاع عن فلسطين ملك آبائهم ومرقد أجدادهم الفاتحين ، وفي باطنهم ، قلوبهم
شتى واهواؤهم متباينة ، يضمر بعضهم للبعض الآخر غير ما يظهر . ويظهرون ،
جميعهم من الحماسة والحمية غير ما يبطنون . عَنَيْتُ الدول العربية وليس الشعوب
العربية ، ومن غريب أمر هذه الدول الحائرة المحيرة الضائعة المضيعة إنها « زحفت »
على فلسطين وبعضها لبعض كاره وحاسد ومبيت شراً . وإنها ليس لها من بين
الدول العالمية دولة واحدة صديقة .

ودخل اليهود فلسطين اشتاتاً ينسلون من كل فج من فجاج الأرض ، قلباً
واحداً وكلمة واحدة وهدفاً واحداً ، ظاهراً وباطناً ، باذلين الأموال والأرواح
مسخرين قوى العالم ، مستخدمين لأغراضهم اميركا وانكلترا وروسيا . فكان ما
لابد في مثل هذه الحال أن يكون النصر لليهود وللعرب الهزيمة . ذلك كله والرؤوس

التي كانت تحكم وتسوس ، لا تزال هي هي تحكم وتسوس ، والوجوه بما فيها وما
حولها من عينين ومنخرين وأذنين ومائة لون ولونين ، لا تزال هي، هي تلك الوجوه
العجيبة نفسها التي تطل على العرب في كل يوم بل في كل ساعة وفي كل لحظة ،
تهش وتبش وتهزأ وتعبث ، والعرب ، قومي – غفر الله لقومي العرب – لايبدون
ولا يعيدون ، كأن النكبة لم تقع . أو كأنهم راضون عن النكبة وهذا ابشع وجوه
النكبة وأشدها إيذاء .

إن الهزائم والنكبات على اختلافها في الأمم الحية حينما تكون عبرة ودرساً –
تكون حافزاً لخلق انتصارات جديدة ، وامجاد جديدة ، ويكون الخراب والدمار
باعثين على إنشاء نهضة جديدة وحضارة جديدة . فإن صح أن في العرب حيوية
ونخوة فإن كارثة فلسطين ستكون لهم درساً وعبرة ، ومتى كانت هذه الكارثة
درساً وعبرة حقاً ، فنستطيع القول أن فلسطين لم تذهب . وأن شرف العرب يمكن
أن يعود سالماً رفيعاً وإن تاريخهم غير كاذب موحياً بالثار للشرف والكرامة ،
وبالحركة المستمرة في التقدم نحو الخير والمعرفة ومحاسن الحضارة وجلائل الأعمال .
وإلا فإن هزيمة أجيال جديدة ، يضيعون معها أقطار عربية جديدة ، ويبقون عائشين
– ربما – ولكن عيش السوائم ، والعبيد لا مثل عليا ولا شرف ولا كرامة ، وينقطع
ذلك الخيط الرقيق ، الذي يربطهم بتاريخهم المجيد وأنسابهم الرفيعة .

ما عرف التاريخ أرضاً غالية مقدسة ، لدى أهلها امكانية حمايتها والذود
عنها ، ضاعت بأرخص مما ضاعت به فلسطين .

إني لا أزال مبهوتاً من وقوع الكاراثة . وكلما اتصور ما كانت عليه الجيوش
العربية من قوة في العدد والمعدات والحماسة وما كان عليه اليهود من ضعف أمامنا،
يتعاظم وقع الكارثة في نفسي ويتعقد عليَّ حق اللغز . ان في الكارثة للغزاً ... ولو
كانت لليهود تلك القوة الهائلة التي لا تقاوم ، وكانت الجيوش العربية قد قاتلت ما
وسعها القتال فعلاً ، كما تفعل الدول ، في مثل هذه الحال ، بل وفي ظروف يكون
القتال فيها لعوامل وأهداف أقل قدسية مما كان في نظر العرب في فلسطين، ثم
خرجت هذه الجيوش من المعارك محطمة ، مخلفة وراءها في الميادين ثلثي عددها
أو أكثر من شهداء وجرحى ، لهان الأمر ، ولما ثلم الشرف العربي ، فكثيراً

مايحدث مثل هذا في ساحات القتال ، ويعتبر ان الشرف بقي سليماً . ولكن العرب دخلوا فلسطين ثم غادروه[1] أمام عدو ضعيف، ان كانوا هم ضعفاء فهو أضعف منهم ، وخرجوا وعددهم أكثر منه يوم دخلوهم ساحة المعركة . اليس هذا غريباً ؟ أليس هذا لغزاً ؟ خرجوا بهذا العدد وكل حكومة من حكوماتهم تسابق الأخرى في استجداء هدنة دائمة وعلى انفراد ، دون أي داع أو باعث مبرر . أمر يستحيل تعليله، إلا بكلمة واحدة ، فقدان الرؤوس الكبيرة ، بين الكبار المسؤولين الكبيرة بالعقل والعقيدة والأنفة والإخلاص . . .

* * *

نحن اليوم أمام حقيقة تاريخية واقعية ، أمام مولود جديد في فلسطين ، أمام اسرائيل اليهودي التائه الذي عاد إلى أرض الميعاد بعد بكاء وتشريد وجهد ودسائس وعمل استمر الفي سنة شاقاً طريقه من جميع أنحاء العالم حتى وصل إلى الأرض المقدسة مزاحماً شعوب الأرض وأخذ مكانه اليوم وتم له أن أزاح العرب عن أرضهم واستقر في فلسطين معترفة به إحدى وأربعون دولة .

وأمام هذه الحقيقة الدامغة لا يمكننا إلا أن نذكر الحوادث التي أودت بالعرب إلى هذه النتيجة وذلك على ضوء الحقيقة مهما كانت مرارتها، ولعل هذه المرارة تعطينا صورة واضحة عن خطيئاتنا كي نتجنب مثيلاتها في المستقبل عندما نعود لمكافحة اسرائيل أخرى بطرده من أرضنا كما فعلت أجدادنا من قبل .

إن كفاحنا اليوم مع اليهود ماهو إلا حلقة من سلسلة كفاح بدأ قبل ثلاثة آلاف سنة وسيستمر إلى أن يتحقق ما وعدنا الله به من فوز نهائي على اليهود .

نحن لا نريد أن نستعرض الحوادث التاريخية القديمة لقلة فائدتها المباشرة ولكن لا بد لنا من أن نستعرض الحوادث منذ ٧٠ سنة على شكل مقارنة بين حالة العرب واليهود .

ترك العثمانيون بلاد العرب سنة ١٩١٨ وكان خروجهم من هذه البلاد هو

١- دخلت جيوش العرب فلسطين وكان عددهم ٢٥ ألفاً ، وعندما توقف القتال كان مجموع عدد الجيوش العربية ١٦٠ ألفاً أي ٥ فرق و٥ أضعاف القوة التي دخلت في بداية الحرب .

زوال آخر سلطة محتلة عن البلاد العربية حيث تكونت بعد مضي ما ينوف عن ستمئة عام لأول مرة في التاريخ دولة هاشمية عربية في دمشق تحت ملكية فيصل الأول الذي اجتمع حوله معظم رجالات العرب الوطنيين والمفكرين من كافة الأقطار العربية وخلي لهم الجو في البلاد ليعملوا كل ما يلزم لبعث الدولة العربية من جديد . ومضي على هذا العهد اربعة أعوام حينما أقدم الافرنسيون على غزوة مملكة فيصل والقضاء على هذه الدولة . وظهر للعيان درجة استعداد العرب في معركة ميسلون حيث تبين :

١- هذه الدولة بجيشها وتشكيلاتها لم تستطع الصمود أمام جيش افرنسي ضعيف بضعة ساعات وإذا بها تبخرت وضاعت من الوجود . وتمّ للافرنسيين احتلال سوريا بأكملها ولو كان ذلك بالتدريج وظهر من الثورات الشعبية التي قامت فيما بعد في سوريا وفي العراق وفلسطين أن الشعب العربي لاتزال فيه قوة كافيه ومناعة متينة وكان من نتيجة هذه الثورات ان اضطر الافرنسيون لتبديل سياستهم في سوريا بعهد جديد سلموا فيه زمام الحكم لنفس الوطنيين الذين كونوا عهد فيصل وأتاح هذا العهد لهؤلاء الوطنيين فرصة ثانية ليستعدوا وينظموا أمورهم ليزيحوا عنهم هذا الاستعمار ولكن ظهر كذلك وللمرة الثانية عندما انذرهم المندوب السامي الافرنسي بترك الحكم واضطروا للتخلي عن مراكزهم ظهر انهم أضاعوا هذه الفرصة كذلك دون أن يعدوا لها أي نوع من الاستعداد ثم عادت الفرصة للمرة الثالثة خلال الحرب الأخيرة وبعد سقوط فرنسا عام ١٩٤١ حيث عاد فخامة القوتلي رئيساً للجمهورية السورية والتف حوله الرعيل ذاته وكان ميدان العمل هذه المرة واسعاً وما ازف عام ١٩٤٥ حيث أراد الافرنسيون استعادة الحكم المطلق لايديهم ووقعت حوادث ٢٩ أيار عندما قصف الافرنسيون دمشق اسفرت هذه الحوادث كذلك عن تبخر القوى العربية وتبعثر رجالاتها وظهر العجز المريع في تشتتهم دون أن يظهر لهم أي أثر لاستعداد قاموا به خلال فترة الحكم ولولا تدخل الدبابات البريطانية لتمكن الافرنسيون من فرض السيطرة التامة على سوريا مرة أخرى .

وهنا تسنح للعرب الفرصة الرابعة وهم هذه المرة يتمتعون باستقلال مطلق وبجيش كامل والميدان فسيح أمامهم بحيث يعتبرون مما مضى ويعملون كل

ماتحتاجه البلاد من تنظيم واستعداد لمجابهة حوادث قد تطرأ وتدوس بهذا الإستقلال الفتي .

انه وإن كان للعرب بعض المشاكل السياسية لم تكن قد حلت بعد كقضية الاسكندرون وخلافها ولكن كانت هناك قضية فلسطين التي أخذت تبرز على شكل قلق والقتال من أجل فلسطين كان يشعر به كل رجل عربي كبير أو صغير، مسؤول أو غير مسؤول لأنه امر محتم لابد منه وعندما صارت العرب على حد هذا الخطر في ١٥ أيار ١٩٤٨ انكشفت هذه الحوادث كذلك بكل أسف وأثبتت للمرة الرابعة أن نفس الأشخاص الذين افلتوا الفرص الماضية إنما هم قد ساروا على نفس المنوال ونفس الصورة وجابهوا نفس النتيجة فتكون العرب خلال ثلاثين سنة اتاحت لهم المقررات فيها أربعة مناسبات ليثبتوا فيها موجوديتهم ولكنهم لم يأتوا بما يقتضيه داعي الوطن وتستوجبه تكوين دولة .... كيانها قروناً طويلة .

* * *

ان مذكراتي هي عبارة عن سجل تاريخي وثائقي تؤكد بأن الشعوب العربية لاتزال تتمتع بتلك المواهب والخصائص والمميزات الموروثة من أولئك الأبطال أجدادنا الفاتحين .

كما ان المذكرات تؤكد بأن الشعوب العربية هذه ما دخلت حرباً ضد الطغيان الاستعماري إلا وانتصرت بانتصاراً باهراً متكرراً .

وتؤكد كذلك بأن هذه الشعوب عندما تحولت الى جيوش نظامية يقودها قواد لهم اسماء ضخمة ، وتملك اسلحة حديثة ثقيلة وخفيفة ، خسرت كل معركة خاضتها .

وكلما تكررت المعارك بمثل هذه القيادات تكرر معها الفشل والخذلان .

وكان ذلك في الفترة الواقعة مابين ١٩٢٠ في العراق و ١٩٤٨ في فلسطين .

ان مواضيع هذه المذكرات وحوادثها تستند إلى وثائق رسمية صنفتها ونظمتها منظمة الدراسات الفلسطينية وأخذت لها صوراً فوطوغرافية واحتفظت منها بأكثر من ثلثماية تقرير وثائقي وأكثر من ألف برقية ووثائقية مأخوذة عن سجلات رسمية .

تحتفظ المنظمة بهذه الوثائق لتكون مرجعاً للأجيال المقبلة ليدونوا منها حقائق وتفاصيل تاريخ حروب فلسطين ونتائجها وأسبابها .

ان تدوين حوادث الجهاد العربي في فلسطين مؤلم جداً .

واني وأنا ادون هذه المذكرات متألم وكل من يقرئها سيتألم لأن الهزيمة لم تكن محتومة علينا بل كانت محتومة على اليهود انفسهم (وهذا ما يقوله بن غوريون) لأن موقف الزعماء العرب من عسكريين وسياسيين كان موقفاً مؤلماً ومخزياً .

لم يدخل فلسطين زعيم أو رئيس أو قائد وكان حقاً ينوي القتال ، بل كانت الشعوب العربية وحدها تقاتل والقادة والزعماء والرؤساء تتقاتل ، والجيوش النظامية قابعة وراء تحصيناتها تتفرج وتطلب النجدة من القوات الشعبية ولا تنجد أحداً .

* * *

إلى الوجه النبيل المشرق ، إلى مستودع الدم العربي الطاهر الذي مابرح يملأ شرايين الأمة كلما اصابها نزيف خطير مخيف في دفاعها عن أوطانها وشرفها وتاريخها إلى الشعب العربي الأصيل المجيد .

واجب وشعار هذه المذكرات :

الوفاء والإعتراف بالجميل الجدير بأولئك الأبطال الذين اراقوا دمائهم في سبيل اشرف واقدس غاية والإشارة بذكرهم وبفضلهم .

ان تكريم الأبطال الأحياء منهم والشهداء ، هو الدعامة الاساسية للحفاظ على الروح الوطنية والمعنوية وتنميتها في المجاهدين من الأجيال الطالعة ، ثم هو التكريم لتربة الوطن التي يسقيها هؤلاء الأبطال والشهداء بدمائهم لتبقى خصبة حتى لا تنجب إلا كل بطل وطني جبار .

وان أول شروط النصر هي تلك الأمثلة والعظات المنقطعة النظير التي يقتبس منها روح النضال والتضحية وأسباب النجاح .

ثم تدوين وجمع الاختبارات الكثيرة والمستنبطة من المعارك صغراها وكبراها ذات النتائج الباهرة والمشرفة . مما يستوحى منه العبر والدروس من قبل القادة

والساسة للاقتداء بها وتجنب الأخطاء والاستفادة من المبتكرات الناجحة .

وللمؤرخين كذلك ليدونوا مناقب البطولات والتضحيات وآثارها والمنافع المادية والمعنوية التي حصلت بفضل ما اقدم عليه المجاهدون من بذل . قواداً منهم وضباطاً وجنوداً دون مقابل بل بدافع الوطنية والمروءة والشهامة ، تحت وطئة ظروف نفسانية أليمة ومادية شحيحة . ولتبوأ ما تختزن نفوس هذا الشعب من مؤهلات ومميزات موروثة من أجداد وأمجاد مدونة على صفحات ناصعة في رحاب التاريخ حيث تحتل ركن مشرف متلألأ ومرموق .

* * *

بين الشعوب العربية والحكومات العربية :

كلما تذكرت مميزات كل شعب من هذه الشعوب العربية ، وتضحياته في سبيل وطنه ، في تاريخنا الحديث ، أخذني العجب والدهشة من مصيرنا في فلسطين ، واني لاقرأ في هذا التاريخ صفحات كثيرة خالدة ، عشت في أكثرها معه، فلمست شجاعته وصبره واندفاعه ، لمس اليد . ألم تقم حفنة منه في العراق في وجه بريطانيا العظمى ، التي حطها الغرور البريطاني على محاولة اذلال العراق ، واستعباده واتخاذه مستعمرة بريطانية ، اغترار بجيشها المنتصر على المانيا في اوروبا ، فحطمت هذه الحفنة المباركة من الشعب العربي ، في العراق ذلك الغرور وكانت سنة ١٩٢٠ تلك المعارك المشرفة للعرب ، التي جاد العراق عليها بالشهداء في سخاء عجيب ، وملأ فيها رحاب العراق وفيافيه ، من جثث البريطانيين ، حتى اضطرت بريطانيا يومذاك إلى الإذعان لمشيئة هذا الشعب الباسل الشديد المراس . ولو لم تهرول بريطانيا ، مسرعة وراء فيصل ، الذي كان يجوب أوروبا ، مطالباً بحق العرب مدوناً على ورق ، بصورة عهد قطعته له بريطانيا يوم كانت في حاجة إليه، لشملت الثورة الجامحة العراق كله ولما كنا نسمع اليوم بشيء اسمه نفوذ بريطانيا في العراق ، ومصالح بريطانيا في العراق بهذا الشكل . ان تلك الثورة هي التي بنت في العراق عرش فيصل الكبير ، وصاغة تاج الرافدين ، واسست للعراق « برلمان » وصنعت له جيشه الفتي .

ان هذا العراق نفسه ، لماذا – بعد أن تأسست دولته وتوج ملكه ونظم

جيشه– لماذا لم يصمد أمام هؤلاء البريطانيين أنفسهم ، سنة ١٩٤١ أكثر من أيام معدودة ... أيكون ذلك لأن الشعب العربي ، في العراق خلع اباءه ، وفقد وطنيته ، وأضاع مميزاته ... كلا . بل ذلك ان الشعب ، قاتل في الأولى وهو آخذ على عاتقه أمر القتال ، يلمس قدميه ، كبيرة وصغيرة ، ويحمل مسؤليته ، غنية وفقيرة . وأما في الثانية فإن تلك الرؤوس الرسمية المتزعمة المريضة ، هي التي ادارت القتال ، وأخذت نفسها بتحمل المسؤوليات فيه ، وهي تزن المحادثات بميزان عقليتها النهمة، ومنطقها السخيف ، وتقيس الأمور بمقياس المنفعة والكسب لها دون البلاد. الم نرى فئة من ابناء الشعب في تلك الحرب نفسها ، حرب ١٩٤١ تستمر في قتالها الجيش البريطاني ، حتى بعد الهدنة ، قتالاً موفقاً طالت مدته أكثر من المدة التي قاتل فيها الجيش ، المسير بالرؤوس الكبيرة الرسمية؟ . ان ذلك لم يكن ، إلا لأن هذه الفئة كانت طليقة من القيود ، التي يتقيد بها الجيش جماعة الرؤوس الحاكمة من طبقة معينة، التي همها الارتزاق للاثراء، الجاه المزيف الكاذب، لفرض السلطة غير عابئة بشرف الوسيلة ومصلحة الشعب. ولانها، أي تلك الفئة الشعبية تقيس الامور بمقياس من مصلحة الشعب، والشرف القومي، يختلف عن مقياس، اولئك الحكام الذين غادروا البلاد طلباً للسلامة، والجيش نفسه لا يزال في الميدان، الى تركيا والمانيا وسائر الاقطار.

وفي سورية، الم يكن لسورية جيش وحكومة وملك، عندما دهم الفرنسيون البلاد، لاستعباد سورية واستعمارها؟ فهل وقف هذا الجيش، على بسالته سنة ١٩٢٠ امام العدو، أكثر من بضع ساعات في ميسلون، ثم تركت تلك الرؤوس – دائماً هي – البلاد مفتوحة، لجيش الاحتلال، غير مفكرة بأكثر من طريق النجاة والسلامة. وجاء دور الشعب، الكامنة في صدور أبنائه دائماً ، قوى النخوة والمروءة والاندفاع، فاخذ بثوراته ضد المستعمر، ولم يمض بعد ، على احتلال البلاد، بضعة أشهر، فكانت تلك الصفحات الرائعة من البطولة والتضحية، في ثورات الزاوية، وبني معروف، والغوطة والقلمون، وجبل العلويين والفرات ، وغيرها من الميادين في سورية الابية، التي لم ينقطع فيها سيل دم الشهداء مدى سنوات طويلة. وراحت جثث القتلى من جيش العدو الذي تجاوز عدده الماية والعشرين الفا في ذلك الحين تغطي أرض الوطن، حتى تكاد لا تجد صخرة أو شجرة أو هضبة أو وادياً في

سورية، الا وارتوت من دماء ذلك العدو. وكانت تلك الاناشيد الرنانة، التي انشدتها سماء سورية، وكتبها بدمائهم ابطال سورية، فملأت فضاء العالم عزة وغبطة وزهوا. ونكص الفرنسيون على اعقابهم، ولانوا بعد شدة، ولم ينكص الشعب العربي في سورية، ولا لان. وأدرك الفرنسيون ، بعدما نزل بهم من خسائر مادية في الاموال والارواح، وبعدما نكبوا أدبياً بسمعتهم وهيبتهم ، وحطم الثوار غرورهم، ان الشعب العربي في سورية ، غير من عرفوا من شعوب في مستعمراتها وانه لابد لهم اذا هم ارادوا حقن دمائهم، وتدعيم كرامتهم وهيبتهم، من النزول على رغبة البلاد، في حكم وطني ودستور وطني. وكان الدستور سنة ١٩٢٨ وكان الحكم الوطني التي تربعت في مقاعده الرؤوس الكبيرة فافسدته، هذه الرؤوس التي تتخلى عن الشعب، وتحتمي بمؤخرته في كل مصيبة تصيبه، ثم تبرز فجأة في مقدمته، وعلى رأسه، عند كل مكرمة أو غنيمة، يبذل ثمنا لها دماءه. في ظل حكم هذه الرؤوس الكبيرة الوطنية فقط ، عرف الفرنسيون معنى الراحة والطمأنينة والاستقرار. وفي ظل هذا الحكم نفسه، بدأ الشعب يشعر أن سلاسل العبودية تطوقه بها هذه الرؤوس، أثقل من سلاسل الفرنسيين أعدائه. واحتراما لهذه الرؤوس الكبيرة ووفاء بعهدها... ينبغي أن نرضى ، وأن يكون الحرمان والجوع والاقصاء نصيب المجاهدين الاحرار من أبناء الشعب، والذل والاستجداء نصيب أولاد الشهداء الابرار من أبناء الشعب. كما ينبغي أن تكون المناصب والمكاسب والكلمة النافذة للمذبذبين والمتقلبين وولدان الاستعمار والمستعمرين، ضعفت الدولة أم قويت وهانت أم عزت، فليس لهذا كبير حساب... ان المهم الامعان في اضطهاد الشعب، وفي تجهيله وخديعته وتضليله، وافقاره وتمزيقه، ليكون أكثر طواعية للذل، وللاستغلال، ولتبقى الرؤوس الكبيرة متحكمة في مصيره وحياته، مستمرة في نهش اجسامه وكرامته. فهل حد هذا كله من حماسة الشعب الوطنية ، ومن استعداده الفطري لتلبية نداء الشرف الوطني، وصرخات الدم، كلا... بل استطيع القول انني لمست ذلك كله، اشد بروزاً وأكثر تأججا في حوادث فلسطين سنة ١٩٣٦، المبتلاة بها شعوب الاقطار العربية كافة. كانت حياة هذا الشعب نضالا دائما وثورات متوالية. ضحايا أثر ضحايا، وفي كل مرة لا يفتح عينيه الا ليرى الزعماء والرؤوس الكبيرة، خارج حدود بلاده، يتنعمون ويأمرون ويتآمرون

ويفسدون ويتهمون الاحرار. والشعب غارق في دمائه وويلاته يعزى نفسه بسلامتهم... وبتضحياته...

هاهي ثورة ١٩٣٦ تدوي زعازعها فتكاد تقلع البريطانيين اقتلاعاً... في الجولة الاولى مع الجيش البريطاني ادرك البريطانيون ان الامر جد. وشعروا بشدة مراس الثائرين المجاهدين وثقل وطأتهم ، فاخذوا يستقدمون النجدات، غارقة في سلاحها الفتاك الحديث، ولكن شيئا من ذلك لم يجد البريطانيين نفعا، فقد كانت النجدات وثقل المعدات، حافزا لاذكاء نار الحماسة، تعصف في رؤوس المجاهدين ، فتزيد في اقدامهم واستبسالهم وتحديهم الموت، فاذا جبال فلسطين براكين تنفجر ناراً، واذا دماء البريطانيين تروي التربة واشلاء قتلاهم تكسو سطح الارض ، واذا انشودة جبع وبيت إمرين وبلعا ، ترجع صداها الاودية والتلال والجبال. واذا البريطانيون يهيمون على وجوههم حائرين ماذا يفعلون، فيفتح التاريخ ، تاريخ الرؤوس الكبيرة مع البريطانيين وغيرهم، من الذين استعمروا بلدان العرب، على ساستهم باب الخير... باب الخلاص، فيلجأون الى الرؤوس الكبيرة فتفرض علينا هذه الرؤوس الهدنة، وتخرجنا من فلسطين ، باسم الوطن الفلسطيني. وما هي الا جولة سياسية قصيرة، حتى يعود الغرور البريطاني الى الرؤوس البريطانية – وانهم وأقول الحق – ليسوا بملومين.

ثم يتلو ذلك ، يقظة للثورة ، فاحتدام لها في نفوس أبناء الشعوب، فيرتكب البريطانيون فظائع في فلسطين منقطعة النظير. وتبخرت دماء الشهداء ، وانقشعت السحب السود الكثيفة للنسف والتدمير، عن العلم البريطاني يرفرف بغطرسة انكى واشد، ويمهد لعلم آخر يحل مكانه، يقوم في ظله اسرائيل...

هل بعد هذه صور الواقعية المقتضبة الواضحة ، يحتاج الشعب العربي الى براهين جديدة لاثبات وطنيته وشجاعته وسائر مميزاته. أو تحتاج الرؤوس الكبيرة، الى براهين جديدة لاثبات " مميزاتها" هي الأخرى التي ليس لها مثيل ...

ان من المفروض على الشعوب ، فيما نعلم ، ان يقودها زعماؤها في نهضتها وفي كفاحها وان يقاسموها متاعبها وآلامها. وقد يتحمل الزعماء الافذاذ من المتاعب والآلام ، أكثر مما يتحمله الافراد العاديون والجماعات. أما عندنا فالامر على

عكس ذلك تماما . عندنا نحن العرب، الشعب هو الذي يكافح، وهو الذي يكون حطب المحرقة، وهو الذي يفعل ذلك قياما بالواجب. الواجب دائماً على الشعب... والحق للزعماء، للرؤوس الكبيرة... ويكاد لايرى الشعب وجوه زعمائه، الا بعد أن يصعدهم على اكتافه وعلى جماجمه، الى المنازل العالية ويجلسهم على الارائك والمتكآت تزين أقدامهم حناء من دمائه... وهو انما يرى وجوها تدور فيها العبوسة والغطرسة، أو يضحك فيها العبث والهزء والاستهتار. ورؤوس يملأها الصلف والسخف والغرور، كأنما الخطب التي حبروها، والتصريحات التي رددوها، والسفرات الهائنة العابثة التي قاموا بها من أجله... في عواصم العالم ، وغير عواصمه، تضحيات غالية ، معجزة جاءت بالخير والعز ورفاهية العيش. وكتبت لهم على الشعب حق الازدراء والعبودية.

ان الشعب عندنا لم يقم بعد فيه الزعيم الكفؤ الذي يصلح لحكمه، فيسهر على مصالحه، ويشاطره آلامه، ويفنى في سبيل خيره وعزه وطمأنينته. ان ضعف العرب وجهلهم وفقرهم وذلهم أمور، في اعناق زعمائهم ورؤسائهم الرسميين. وان خصوم العرب وأعداءهم ، هم داخل حدود بلادهم في نفوس أكثر زعمائهم. وما دام العرب غير قادرين على الانفلات من براثن هؤلاء ، وعلى أن يستبدلوا بهم سواهم وعلى ان يزيلوا الحدود المصطنعة بين اقطارهم ، فلا حياة ولا كرامة ولا كيان لهم....

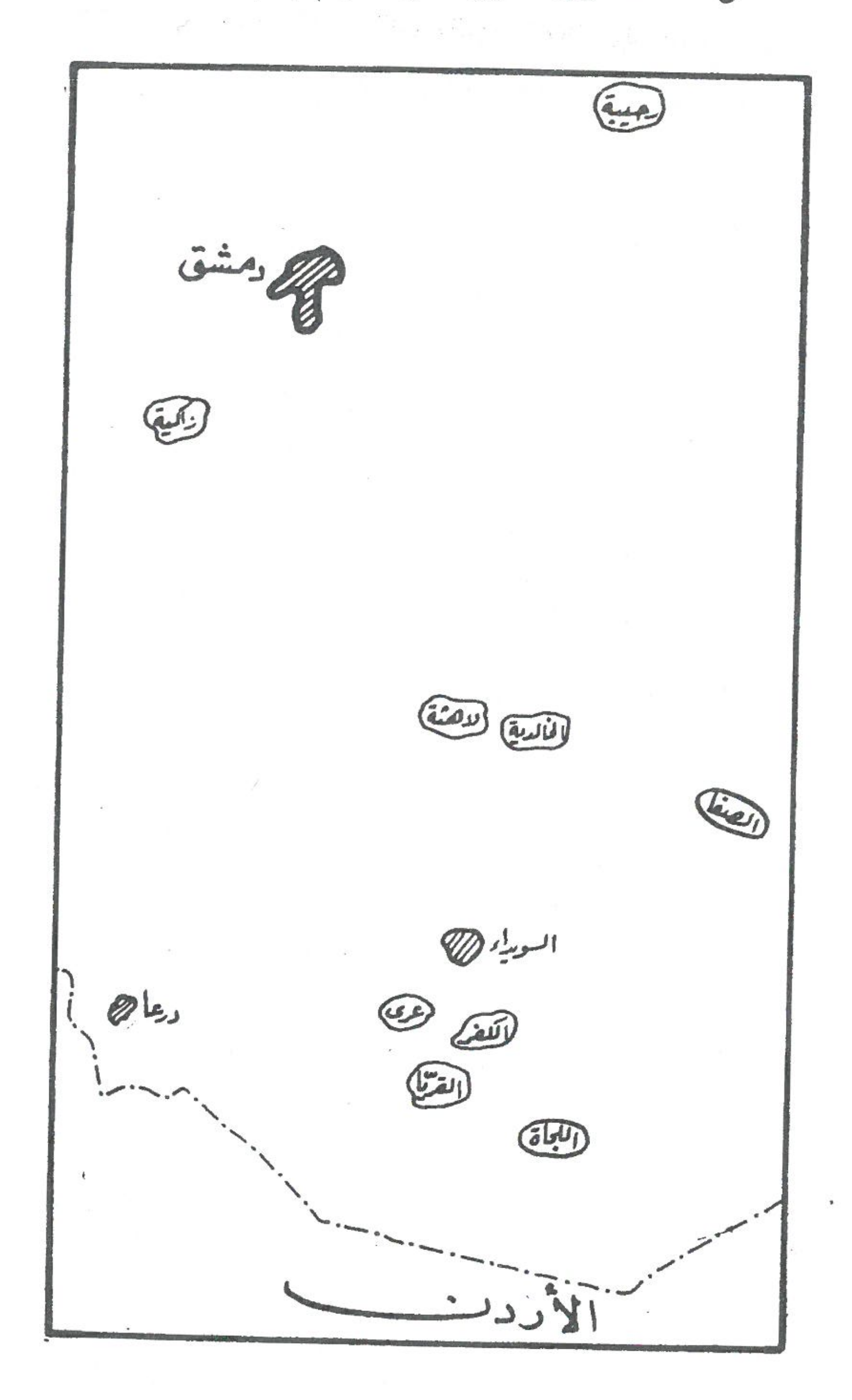
ألم يكن هؤلاء الزعماء – الا اقلهم – من منشئي الاحزاب الاستقلالية، التي عملت فيما مضى ظاهراً وباطناً، لاستقلال البلاد العربية ووحدتها... ألم يكونوا رفاق الشهداء الذين استشهدوا في هذا السبيل. ألم يقسموا الايمان المغلظة على الموت دون الاستقلال والوحدة. فما بالهم يستوون دون الاطفال قوة ومناعة، فتفعل في نفوسهم رقى السحر وفتنة الدس، كراسي الحكم وقراطيس المال، أكثر مما تفعله في نفوس الاطفال الرقى والدس...

لقد تربعوا في كراسي الحكم فقراء ، فاثروا، قبل أن تسخن هذه الكراسي تحت اقفيتهم. وتربعوا فيها على انهم خدام الامة وابطال الاستقلال والوحدة، ودعاة المجد والقوة والامانة والعزة. فما هي الا ان شعروا بثباتها تحتهم، حتى اصبحوا

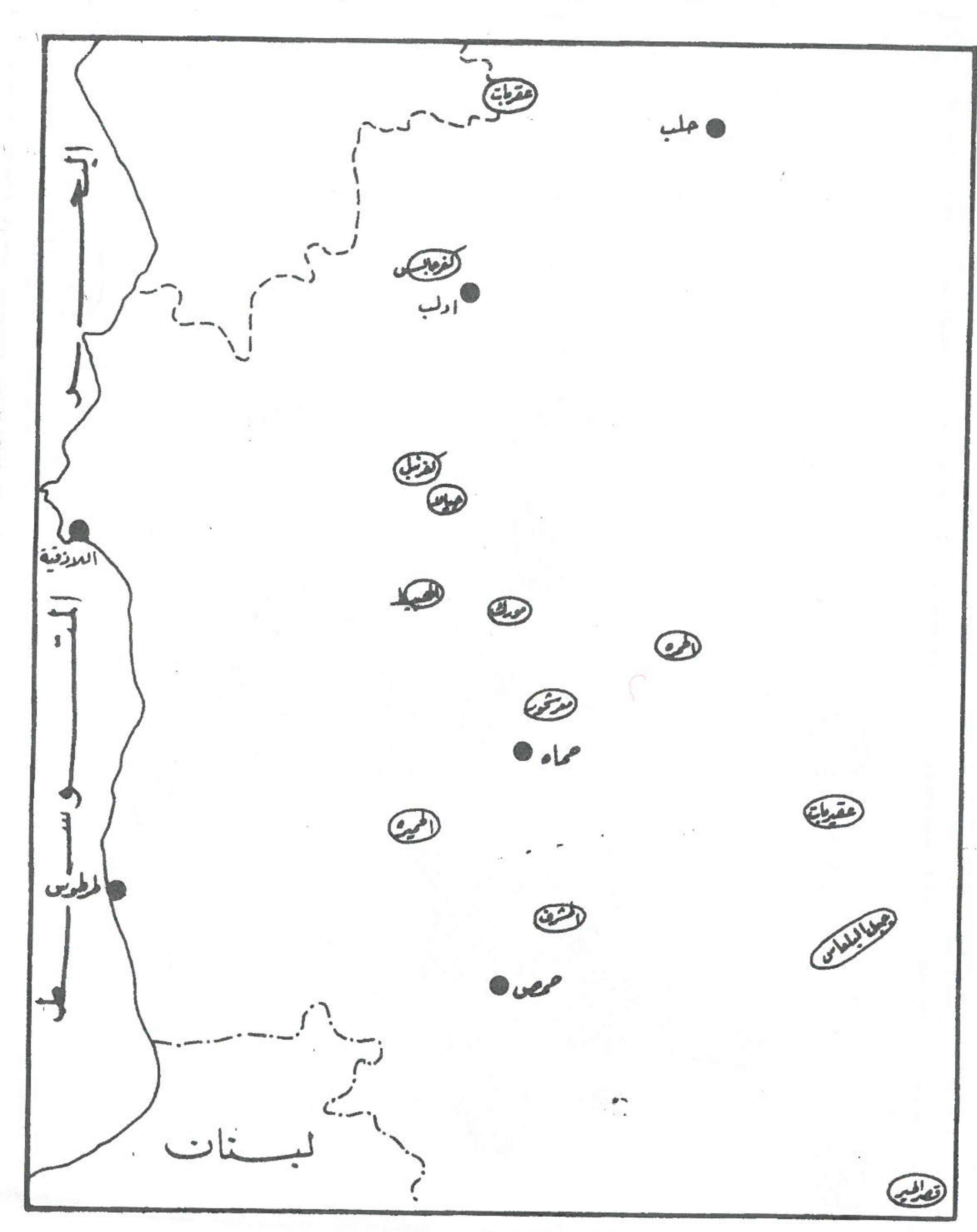
مستثمري الامة، وثعالب الاستقلال والوحدة، وسماسرة التجزئة والتفرقة والخصومة، وابواق العبث واللهو والهزء والمهانة. ولن يذهب عن أي شعب عربي سوء ما هو فيه، مالم يحطم الدس والمأخوذين بهذه الدمى ...

* * *

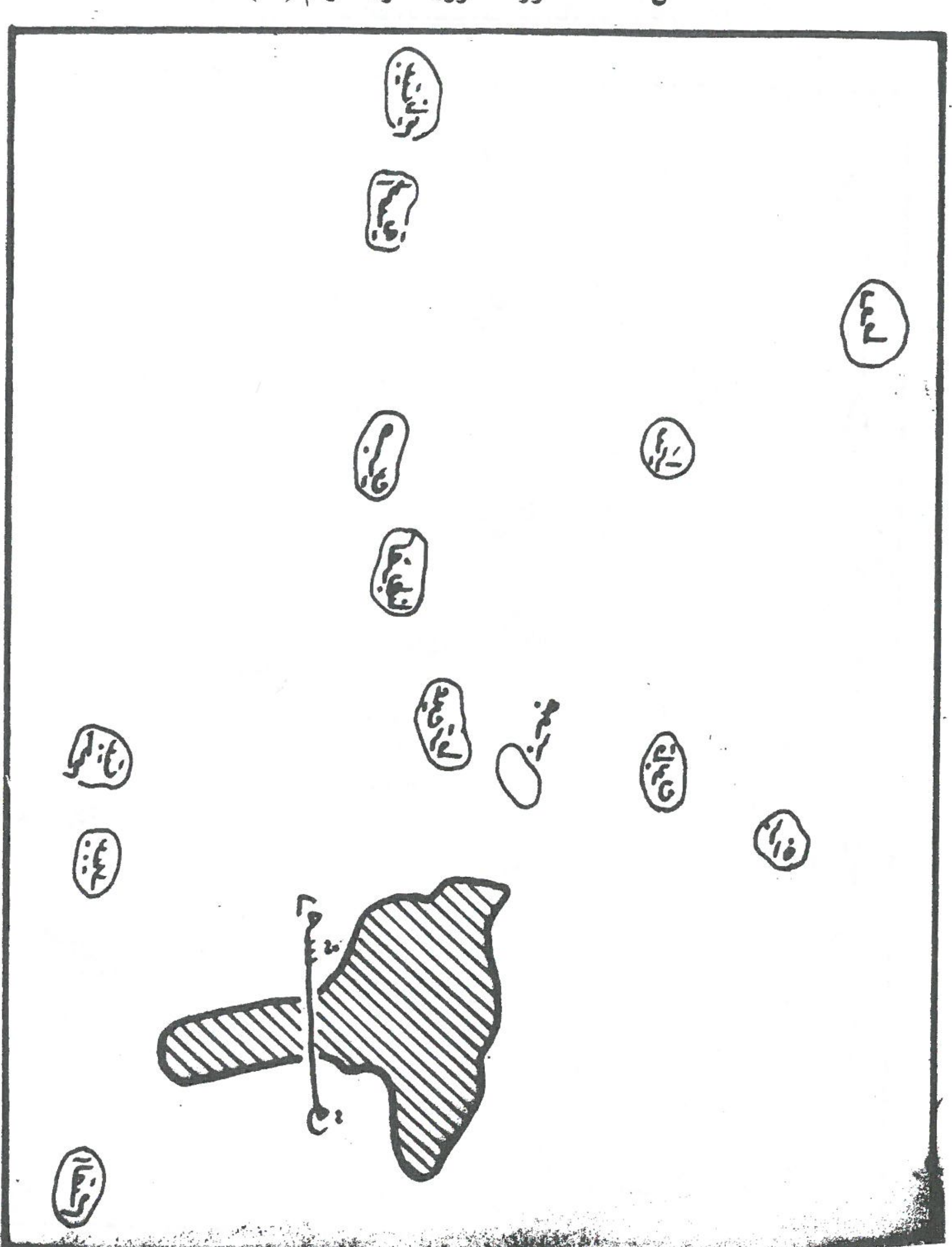
من أحداث الثورة السورية خريطة رقم (١)



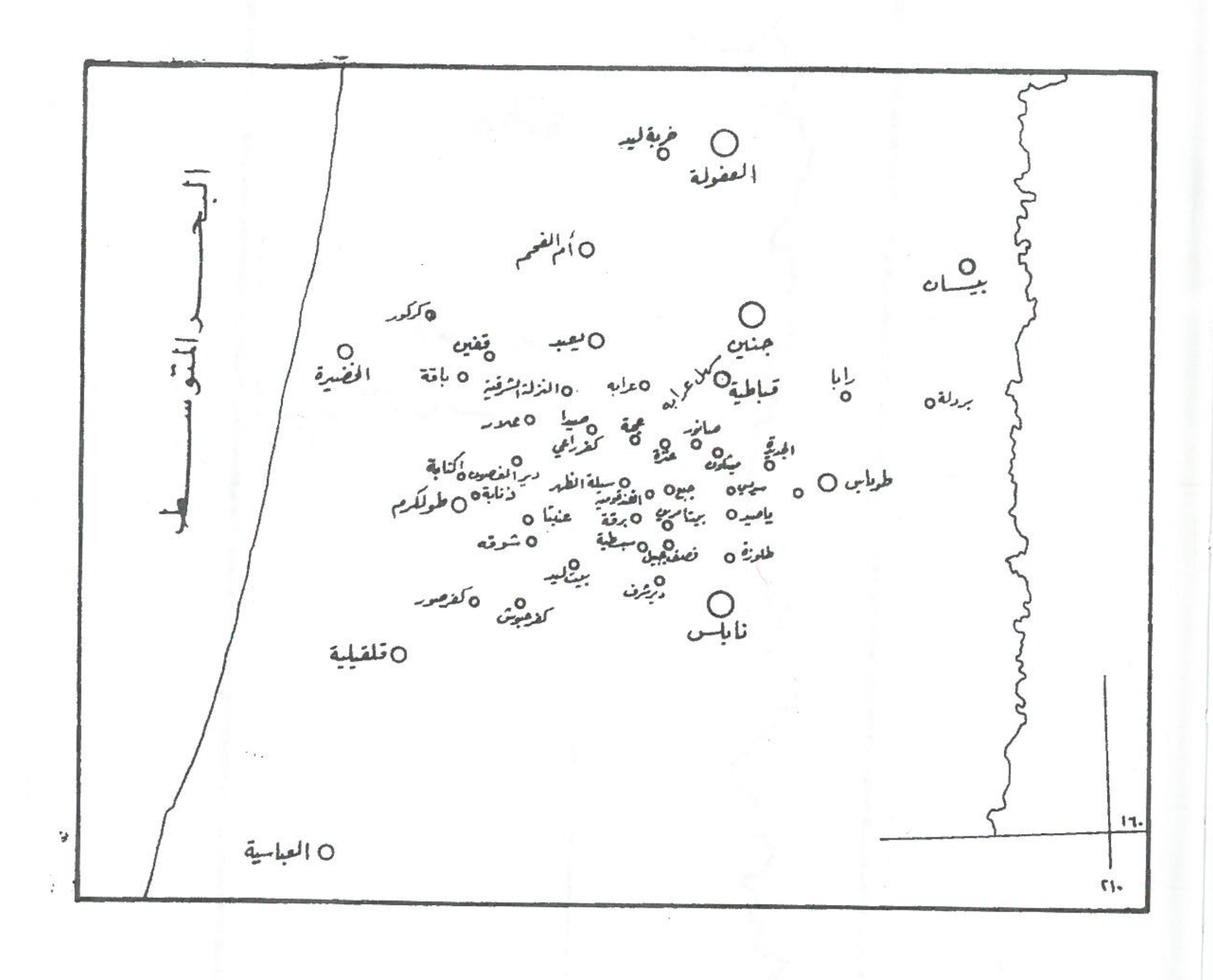
من أحداث الثورة السورية خريطة رقم (٢)



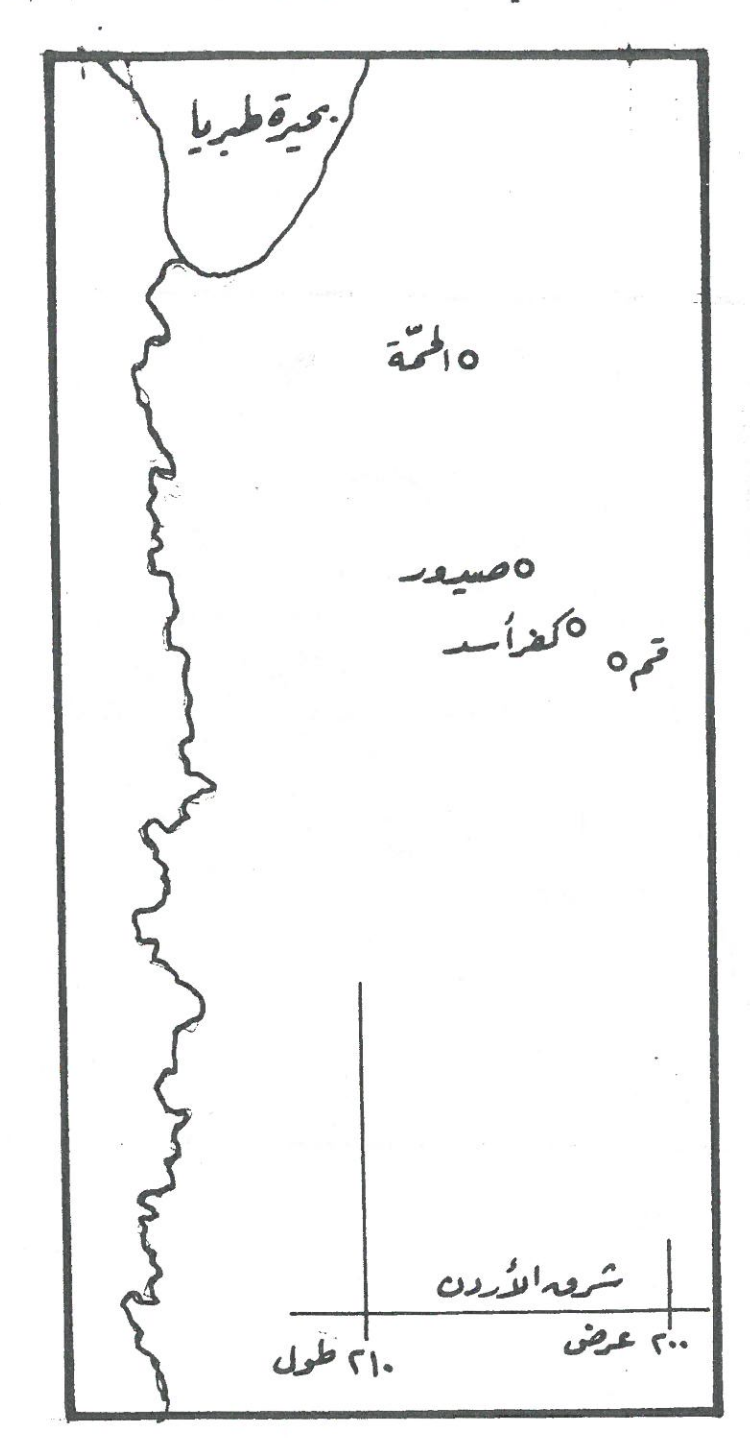
من أحداث الثورة السورية خريطة رقم (٣)



من أحداث الثورة السورية ١٩٣٦ خريطة رقم (٤)

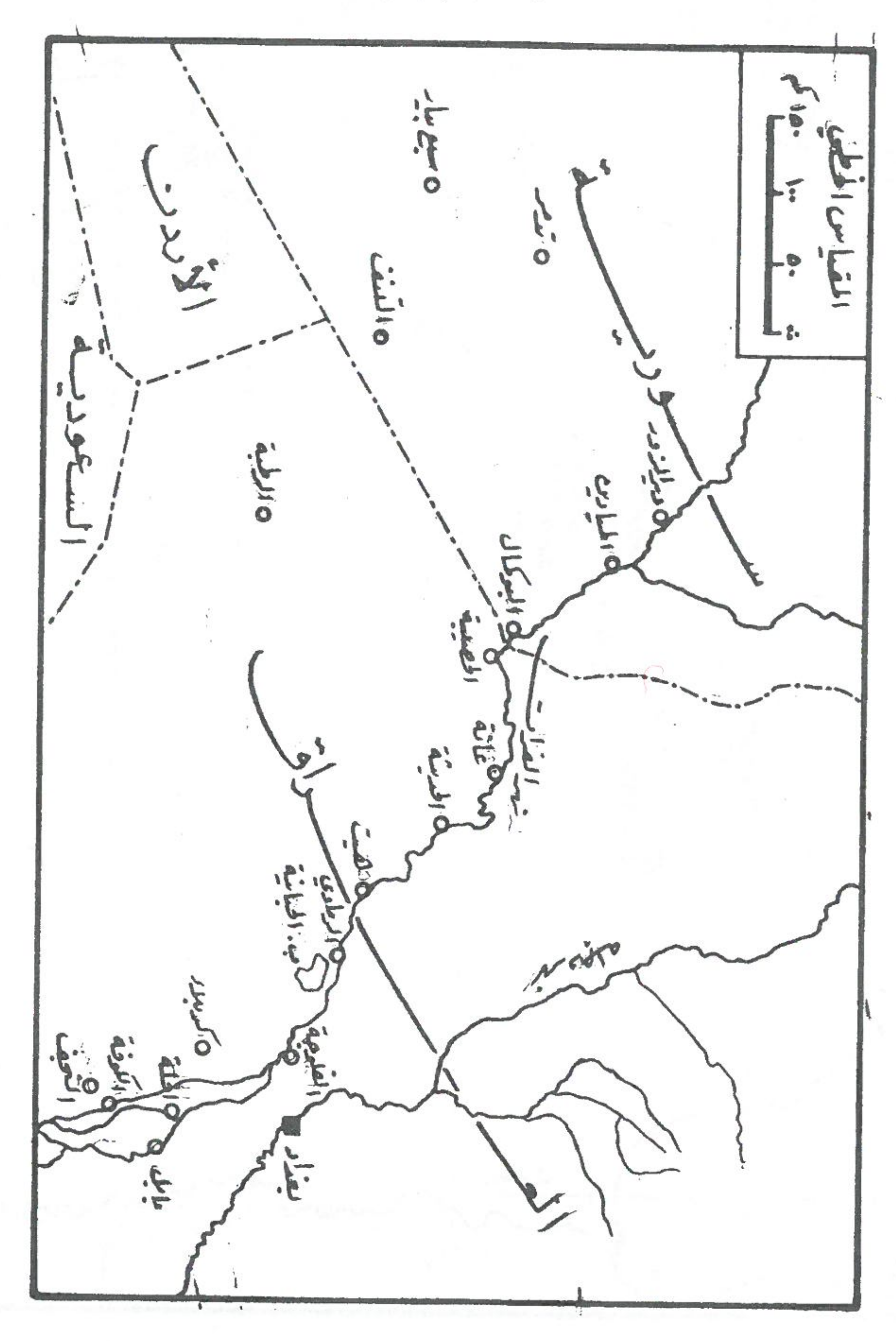


انسحاب قوات القاوقجي تشرين أول / نوفمبر ١٩٣٦ خريطة رقم (٥)

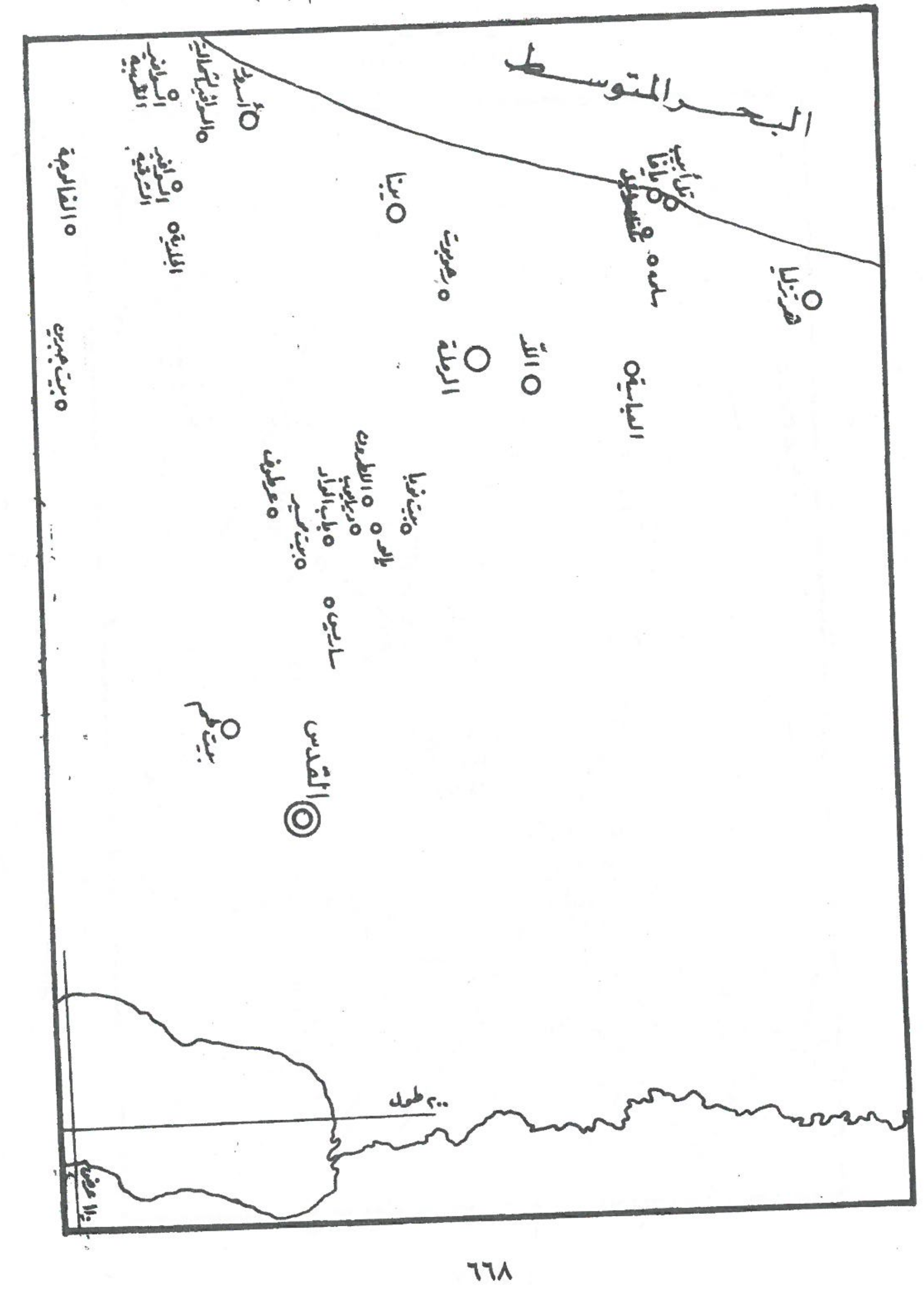


تحركات القاوقجي العسكرية أيار- حزيران / مايو- يونيو ١٩٤١

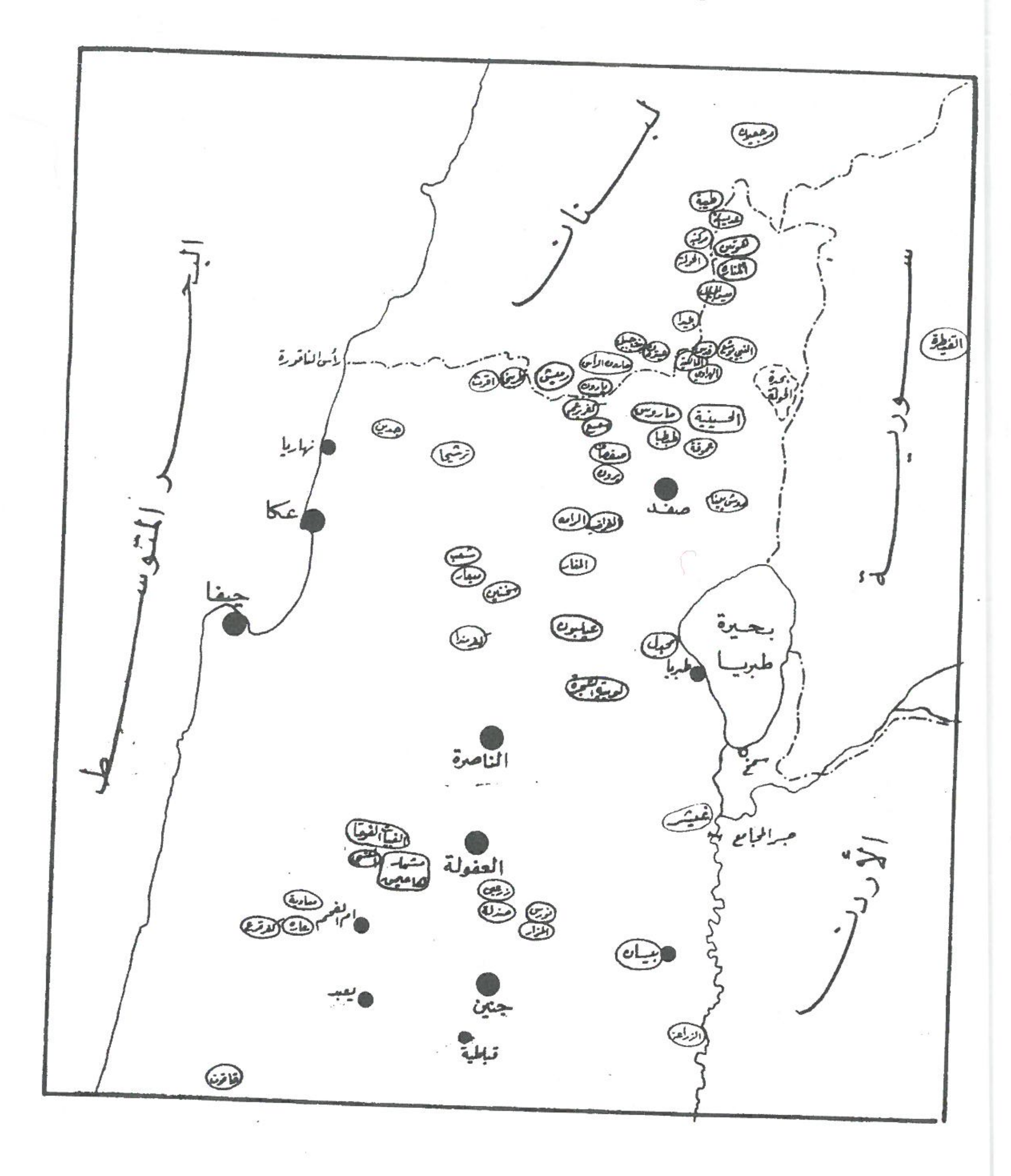
خريطة رقم (٦)



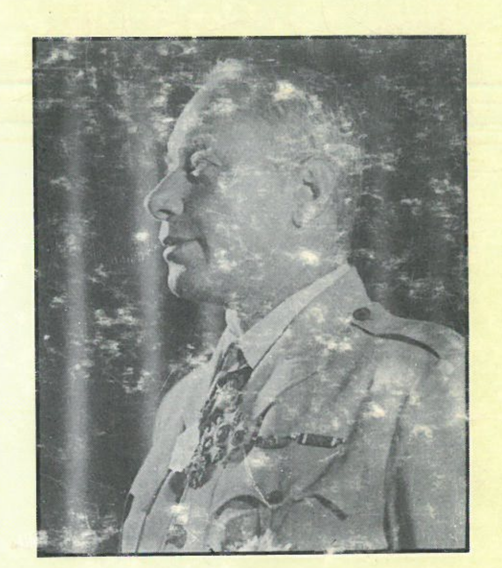
من معارك جيش الانقاذ خريطة رقم (٧)



من معارك جيش الانقاذ خريطة رقم (٨)



المحتويات



مذكرات

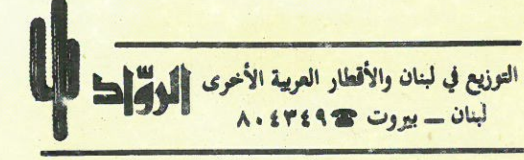
فوزي القاوقجي

قائد عسكري ومناضل عربي ثائر اعتلى مسرح الأحداث المعاصرة خلال النصف الأول من القرن العشرين وظل يقاتل في كل أرض عربية دعته للقيام بالواجب، منذ نشأته في الجيش العثماني ١٩١٢ إلى أن قرر الانسحاب من مسرح الأحداث بعد نهاية الحرب المؤلمة في فلسطين ١٩٤٨.

وفي حياته وفي شخصيته كثير من الغنى والتنوع، ويصعب عرض الصورة الحقيقية لرجل تضاربت حوله الروايات والآراء. وكل ما يمكن القول أنه كان يتحلى بالشجاعة والثقة بالنفس ورباطة الجاش والمغامرة، وهي مغامرة لم تكن نتاج انتهازية بل نتاج إيمانه بجدوى فعالية العمل.

وكان حصاد عمله عددا ضخما من الوثائق والأوراق غنمها من الميدان الحربي في أسفاره، وتعد من أغنى المجموعات الوثائقية العربية الخاصة رغم ما أصاب بعضها من التلف والضياع. والمذكرات التي دونها القاوقجي على مراحل هي مجموعة ملاحظات اقتطفها من اختبارات عميقة في موضوع القضية العربية، مع أنها قد تصطبغ أحياناً بالآراء الذاتية والأحكام السريعة. وحين نتقدم لنشرها إنما نقدمها ضمن الجهود المبذولة في التحري عن الحقيقة دون تبن كامل، بالضرورة للمضمون.

الناشر



التوزيع في لبنان والأقطار العربية الأخرى
لبنان ــ بيروت ☎ ٨٠٤٣٤٩